رحلة إلى وداي

الشيخ محمد بن عمر التونسي

تحقيق ودراسة :

أ.د. عبد الباقي محمد





شركة مناكب للنشر



أ.د. عبد الباقي محمد أحمد كبير

- ولد في قرية كبم ولاية دارفور عام ١٩٥٧م .
- حصل على شهادة البكالريوس في قسم التاريخ جامعة الأزهر بتقدير جيد جدا عام ١٩٨٠م :
  - حصل على دبلوم الدراسات العليا في التربية (لغة عربية) ١٩٨١م كلية التربية جامعة الأزهر .
  - حصل على شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي بتقدير ممتاز ١٩٨٤م .
  - حصل على شهادة الدكتوراة في التاريخ والحضارة الإسلامية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى ١٩٨٧/١٩٨٨م ج. ع. م
  - أستاذ التاريخ والحضارة الاسلامية بكلية الآداب جامعة أم درمان الاسلامية ١٩٨٨ .
- تولى عددا من المناصب الادارية :
  - رئيس قسم التاريخ بكلية البنات جامعة ام درمان الاسلامية .
  - مدير مركز البحوث والنشر – جامعة ام درمان الاسلامية .
  - انتدب عميدا للطلاب بجامعة الفاشر ١٩٩١م .
  - انتدب أستاذا للتاريخ بكلية الأداب جامعة التحدي بليبيا ١٩٩٤–١٩٩٦ .
  - عين نائبا لمديرجامعة الفاشر ١٩٩٧ .
  - عين مديرا لجامعة الفاشر ١٩٩٩ .
- لديه عدد من البحوث المنشورة وغير المنشورة :
  - دراسات في الحضارة الاسلامية .
  - التاريخ ومنهج البحث التاريخي .
  - الدور الثقافي للشيخ أحمد بابا التنبكتي .
  - مدينة تنبكتو حاضرة الإسلام في أفريقيا .
  - علاقات سلطنة دارفور الخارجية .
  - مهددات الدعوة الاسلامية في أفريقيا .
  المشاكل الحدودية لدول القرن الأفريقي ودور الاستعمار فيها
- عضو الجمعية التاريخية السودانية .
- عضو الجمعية التاريخية المصرية .
- عضو الجمعية التاريخية العراقية

شركة مناكب للنشر

رحلة إلى وداي

الشيخ محمد بن عمر التونسي

تحقيق ودراسة :

أ. د. عبدالباقي محمد

مقدمة:

أولا: قصة الكاتب والكتاب:-

على الرغم من أن كتاب "الرحلة إلى وداي" يتحدث عن تاريخ دولة الوداى وشعوب السودان الأوسط إلا انه يحكي أيضا قصة حياة كاتبه الشيخ محمد بن عمر التونسي الذى عاش متنقلا بين شمال افريقيا ومصر وبلاد السودان، فقد انحدر كاتبنا من أسرة تونسية تحب الترحال والتجوال، فقد جاء أبوه عمر الى مصر باحثاً عن أبيه، فوجد أن أباه قد غادر مصر الى سنار حيث استقر به المقام، فالتحق عمر بالأزهر الشريف لأجل الدراسة، ثم تزوج من امرأة مصرية أنجبت له إبنه محمدا، وكان يتتبع أخبار والده الذى أصبح من ذوى الجاه والسلطة فى سنار، فعزم على اللحاق به، فسافر مع أحد التجار السناريين، فالتقى بوالده فى سنار وعاش بجواره حتى وافته منيته، فورث عمر أعباء المسئولية فى العلم والجاه والمال، ثم خرج فى رحلة تجارية الى دارفور، فرحب به السلطان عبد الرحمن الرشيد (١٧٨٧-١٨٠١م) وأكرمه، وأقطعه حاكورة فى منطقة جديد رأس الفيل، فألقى عصاه فيها واستقر به النوى، وأصبح من أهل المشورة والرأى فى الدولة.

شب محمد مع والدته فى القاهرة، ثم التحق بالأزهر الشريف فقرأ القرآن ودرس العلوم الاسلامية والعربية وتفقه فيها، وكان دائم السؤال عن والده، وعندما تأكد من وجوده وصيته في دارفور، شد رحاله وسافر مع تجارها، وعند وصوله الى الفاشر بعد رحلة شاقة استقبله والده بالترحاب، وقدمه الى السلطان محمد الفضل(١٨٠١-١٨٣٧م) سلطان دارفور يومئذٍ فرحب به وكساه وأهداه، وهو دأب سلاطين دارفور إكراما للأشراف والعلماء، وكان الشيخ محمد يومئذ لم يتجاوز عمره العشرين عاما، فعاش مع والده فى الفاشر لحوالى سبع سنوات قضاها منعماً مرفهاً يجالس الأمراء والوزراء ويتنقل بين ربوع دارفور ومروجها كيفما شاء ومتى أراد، فهو"ابن الشريف عمر" كما أنه لايمنع نفسه هواها فيجلس مع الصبيان أمثاله والصبيات، ويستمع الى احاديثهم وأغانيهم عن الحب والغزل و الهيام.

و يشاهد الرقص بأنواعه، فتكونت لديه ذخيرة ثرة من المعلومات عن دارفور وتاريخها وحياة سكانها، فسجلها في كتابه الذي سماه:

"تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان" وهو أهم كتاب صدر حتى الآن عن تاريخ دارفور السياسي والحضاري. وقد قام بتحقيقه كل من الدكتور خليل عساكر، والدكتور مصطفى مسعد عام ١٩٦٤.

تلك الحياة الرغدة التي عاشها كاتبنا في الفاشر لم تستمر، فسرعان ما انقلبت الأمور، فقد سافر والده في رحلة تجارية الى وداي، وهناك وجد ترحيباً حاراً من سلطان وداي يومئذ السلطان عبد الكريم صابون، وقربه إليه وعينه وزيراً ومستشاراً له، فطاب له المقام فيها، فكتب الى ابنه محمد بدارفور أن يأتيه مسرعاً و يأخذ معه جميع أ مواله وأولاده لأنه يريد السفر الى تونس، ولكن صادف وصول هذا الخطاب توتر العلاقة بين دارفور ووداي، فقد غزى السلطان صابون بلاد التاما وهي تتبع لدارفور، ثم كتب الى السلطان محمد الفضل كتاباً يهدده فيه بأنه إن لم يرعوى ويمنع أتباعه من التاما من العبث في دياره فانه سيغزو قلب دارفور و عاصمتها، وهنا أخذ السلطان محمد الفضل يشك في أن يكون للشريف عمر دور في هذا الغزو، فاتهمه بنقل أسرار دولته العسكرية الى سلطان وداي، ولهذا قام بمنع ابنه محمد من السفر الى والده، ووضعه في الحبس التحفظي في منزل والده وشدد عليه الحراسة ، فعاش كاتبنا فترة من القلق والخوف امتدت لبضعة أشهر حتى توسط له الشيخ مالك الفوتاوى وهو صديق والده وإمام السلطان يومئذ، فقبل السلطان وساطته وسمح له بالسفر ، فسافر الى وداي في حراسة خاصة، وبعد دخوله واره عاصمة وداي وجد والده قد سافر الى تونس بعد طول انتظار، فنزل في بيت والده، وبعث اليه السلطان ببشريات الترحاب والهدايا والضيافة، فبدأ الشيخ محمد بن عمر التونسي حياة جديدة لكتاب جديد ضمنه قصته وقصة هذه الدولة و شعوبها، وحياتها السياسية والاقتصادية و الاجتماعية ويبدو واضحا أنه ارتاح كثيراً في وداي وأعجب بها وبسلطانها وحياة الناس فيها، حيث وجد الجاه والنفوذ والمال، كما أن الشرف مازال معه ، فهو ابن الشريف عمر ، فاتبع نفس المنهج الذي سلكه في دارفور في جمع المعلومات عن

هذه البلاد في شتى مناحي الحياة ،كما أنه استفاد من الموقع الجغرافي لوداي، فهي وسط بين دارفور وبرنو، وكانت تمر بها عدة طرق تجارية بين شمال الصحراء وجنوبها، فكانت ملتقي للتجار من كل الجهات، وبينما كان الجميع منهمكين في جمع المال، كان صاحبنا منهمكاً في جمع التاريخ والثقافة وحركة الحياة اليومية للانسان والحيوان والنبات، فجمع من ذلك الشيء الكثير لكنه لم يجمع من المال شيئاً، فقد ضاعت أمواله كلها بطريقة درامية دون أن يأسي لها أو يحزن بعد أن طوف ببلاد السودان، ثم عاد الي تونس موطن الآباء والأجداد وركب البحر متاجراً بين تونس وطرابلس والاسكندرية، حيث أخذه الحنين الي أمه، وموطن النشأة والصبا فزارها بالقاهرة، لكن قلبه تعلق ببلاد الوداي الطيبة، فعاد اليها مسرعاً، لكنه وجد الأحوال قد تغيرت تماماً، حيث توفي الوالد، ولحق به صديقه العزيز السلطان صابون، وبدأ الكثيرون يقلبون له ظهر المجن مما دعاه الي المغادرة النهائية لتلك البلاد التي طالما أحبها وجسد ذكرياته العطرة من خلال كتابه الذي جلس لمعالجته في مدينة القاهرة، فعقب استقراره فيها اكتشف الفرنسيون شخصيته وموهبته العلمية الفذة، فقد كانت مصر يومئذ تقع في دائرة النفوذ والاهتمام الفرنسي، وكانت فرنسا شغوفة بمعرفة افريقيا جنوب الصحراء، خاصة بعد احتلال الجزائر عام ١٨٣٠م، فأصبح الشيخ التونسي مصدر اهتمام كبير وتم تعيينه موظفاً بالمدرسة الطبية الفرنسية بالقاهرة، ونصحه الفرنسيون بجمع معلوماته وكتاباته عن بلاد السودان في كتاب، فكتب الجزء الأول منه عن دارفور، وهو "تشحيذ الأذهان" أما الثاني فهو "الرحلة الي وداي" واذا كان الكتاب الأول قد وجد الاهتمام والملاحقة حتى رأى النور عام ١٩٦٤م فان الكتاب الثاني ظل طي النسيان، حتي ترجمه الى اللغة الفرنسية المستشرق بيرون مدير المدرسة الطبية الفرنسية بالقاهرة عام ١٨٤٥م ونُشر في فرنسا، أما الأصل العربي فقد ظل مفقوداً لأكثر من قرن ونصف من الزمان حتى اكتشفه أخيراً في الثمانينات باحث سعودي في معهد الدراسات الشرقية بباريس وتم تصويره لجامعة الرياض، ومنها الى جامعة الملك فيصل بتشاد، وكنت دائم البحث والسؤال عن هذا الكتاب حتى عثرت عليه وشرعت على الفور في تحقيقه بعد أن تجمعت لدى ثلاث نسخ منه

بالاضافة الى الترجمة الفرنسية واستمر تحقيقه لمدة ثلاث سنوات، كل رجائى أن يرى هذا الكتاب النور ويضاف الى المكتبة العربية والتاريخية.

أشار الكاتب فى نهاية كتابه الى أن لديه كتابات أخرى عن رحلته الى الحج والى مكة والمدينة المنورة وعن سفره الى المُوَرة وخاصة مدينة موسلنقى فى بلاد اليونان، وماشهد فيها من أحداث وكوارث وذكر بان ذلك سيكون مادة لجزء آخر.

ونأمل أن يجدّ الباحثون فى البحث عن هذا الجـزء الـهام حتـى تتكـامل الصورة التاريخية التى رسمها لنا الشيخ محمد بن عمر التونسي.

ثانياً: أهمية الكتاب:

يعتبر كتاب "الرحلة الى وداى" من الكتب التاريخية الهامة، وتنبع أهميتـــه من الاتى:-

١- تناول تاريخ منطقة كانت مهملة تماماً من قبل الكتاب العرب والمسلمين وهـــى منطقة السودان الأوسط وهى منطقة انتشر فيها الاسلام منذ القـرن الخـامس الهجرى (١١م) وبذلك يكون هو الكتاب الوحيد الذى تناول تاريخ هذه المنطقـة باللغة العربية، وبمنهج أصيل وعميق.

٢- تحدث الكتاب عن تاريخ دولة وداى منذ نشأتها وحتى عصر السلطان صـــابون وهو العصر الذهبى لهذه السلطنة، فقد هجم عليها الفرنسيون بعد ذلـــك بقليـل وضموها الى مستعمراتهم، وبذلك يكون الكتاب قد كشـف لنـا تـاريخ دولـة اسلامية لم يعرف العالم عنها شيئاً الا من خلال كتابات بعض الأوربيين التـى كانت تكتب لأغراض خاصة بهم، وقد تناول الكاتب بعداً مهماً وهو دور هـــذه الدولة فى نشر الاسلام فى منطقة السودان الاوسط والدور الكبير الذى قامت به فى هذا المجال.

٣- جاء الكتاب مكملاً لكتاب تشحيذ الاذهان، وبذلك أصبحت لدينا صورة متكاملـــة عن تاريخ المنطقة من برنو غرباً وحتى سنار شرقاً، ومن الصحـــراء شمـــالاً وحتى المنطقة الاستوائية جنوباً.

٤- تناول الكتاب التاريخ السياسي والحضارى للمنطقة خاصة حياة المجتمع وأنشطته المختلفة من زراعة وصناعة وتجارة.. وهو منهج متفرد في كتابة التاريخ.

٥- كان الكاتب معاصراً وشاهد عيان لما يكتب، وكان مشاركاً فى بعض الأحداث، وكذلك والده، كما كان لنفوذ والده فى الدولة الأثر الكبير فى تمكينه من أخذ المعلومات من مصادرها الأصلية، كل ذلك يجعل من الكتاب وثيقة تاريخية نادرة تستحق الاهتمام والاحترام، بدرجة أعلى من اهتمام الفرنسيين به.

٦- كشف الكتاب عن العلاقات الثقافية والتجارية بين شمال افريقيا ودول جنوب الصحراء الكبرى، وهى علاقات مستمرة عبر العصور، لكنها لم تجد من يكتب عنها ويعيشها كما فعل الشيخ التونسى فى هذا الكتاب.

ثالثاً: منهج الكتاب:

كُتِبَ الكتاب بلغة عربية جيدة، وبخط مغربى واضح، اتبع فيه الكاتب المنهج الوصفى التاريخى الشامل، وقسمه الى ثلاثة عشر فصلاً ومبحثاً، بدأها بسبب ارتحاله من دارفور الى وداى، واختتمها بوفاة السلطان صابون.

- تميز أسلوبه بالوضوح والنقد الصريح لكل ماشاهده، وكان لسنه الشابة أثرها فى تشكيل منهجه الذى تميز بالجرأة والاقتحام والمخاطرة فى سبيل الوصول الى الحقيقة، وكان لموقف سلطان دارفور الذى حبسه ومنعه من السفر الى وداى، أثره الواضح فى كتابته حيث تحامل على سلاطين دارفور وقلل من قدرهم، بينما رفع من شأن سلاطين الوداى بعامة، والسلطان عبدالكريم صابون بخاصة.

- اتسم منهجه بالدقة والتقصى عن الحدث، وكان يسافر لأيام وليالى لأجل الوقوف على الأحداث بنفسه، وقد سافر لشهور عبر الصحراء ووصف لنا الحياة فى تلك القوافل التجارية وماتعانيه من أهوال الطبيعة، وتهديدات البشر، فهو رجل مغامر بطبعه حتى تعرض لحوادث عدة كادت أن تودى بحياته.

- وفوق مايسجل من ملاحظات، فانه كان يستعين في كتابته بآراء وروايات التجار والعلماء القادمين من برنو ووداي ودارفور الى القاهرة، بعد أن استقر الشيخ محمد بالقاهرة، وكان لهؤلاء التجار منازل خاصة بهم، وأحياناً يتجمعون في منزل الأمير أبومدين بن السلطان ابراهيم حسين سلطان دارفور الذى قتله الزبير باشا، وأخذ معه حوالى العشرين أسيراً الى القاهرة عام ١٨٤٧م فكان الشيخ يجلس معهم لساعات طويلة لأخذ المعلومات.
- كما تميز منهج الكتاب بالاستدلالات الواضحة فنجد في الكتاب خرائط القرى والمدن، ورسومات مختلفة للأشخاص، وأنواع الاسلحة والحيوانات الأليفة والمتوحشة وغير ذلك لأجل تقريب المعلومة للقارىء.
- اتسم منهج الكتاب أيضاً بالخروج عن الأسلوب التقليدى لسرد الأحداث التاريخية، فكان كثيراً مايجرى المقارنات بين الدول في نشأتها ونظمها وشعوبها وصناعتها، خاصة بين دارفور ووداي، كما كان يقارن بين الثورات والحركات الاسلامية مثل مقارنته بين حركة الشيخ عثمان بن فودى في غرب افريقيا وحركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب في نجد، مايجعل منهجه أقرب الى المناهج الحديثة في تناول التاريخ.
- تناول الكتاب الحياة السياسية والحضارية لدولة وداي، منذ نشأتها وحتي وفاة السلطان صابون، وفي هذا الجانب تحدث بالتفصيل عن السياسة الحكيمة التى اتبعها سلاطين الوداي في بناء دولتهم، وكيف شن السلطان صابون الحرب ضد الدول والملوك الذين يهددون وحدة بلاده واستقرارها كالفور والباقرمي والتامة، وانتصر عليهم وأجبرهم على توقيع العهود والمواثيق معه، فاستقرت وداي وازدهرت وأصبحت قبلة للعلماء والتجار من شمال افريقيا ومصر والحجاز وبرنو وسنار. أما الجانب الحضارى فقد ركز عليه وأبرزه بشكل باهر وقوى مايعطي منهج الكتاب ميزة خاصة، فقد تناول فيه أهم القبائل التى تقطن وداي واصفاً الأقاليم التي تقطنها كل قبيلة، والأنشطة التى تقوم بها من زراعة وتجارة ورعى وصناعة، وتحدث بتوسع في التجارة والرحلات التجارية وأنواع البضائع وأهمها، خاصة تجارة الرقيق الرابحة في ذلك الوقت، وهو الجانب

الذى جذب اهتمام الفرنسيين، كما وصف نظام الحكم فــى الدولــة، والتقسيم الادارى، والجيش وتقسيماته وأنواع الاسلحة المستعملة آنذاك، والحرب وكيف تدار فى وداى، كما وصف الأمراض فى هذه البلاد وأنواع الأدويــة وكيفية التداوى.. وغير ذلك من الموضوعات الهامة التى تعكس سعة المنــهج الــذى سلكه الكاتب ودقته.

- إعتاد المؤلف أن يستدل بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأبيات الشعريــة، والحكم والأمثال العربية، فيما يدعيه من قضايا، ومايثيره من مشكلات.
- كما نجده يميل الى السجع فى التعبير، وهو مايوقعه فى مشكلات أحيانــاً، فقـد يضطر الى استعمال كلمة أو عبارة فى غير محلها لضبط القافيــة أو الســجع، فيشوه المعنى إرضاء لملكة الشعر عنده.
- كما يلاحظ فى منهجه أنه يتناول موضوعاً ما ويحاول تشبيهه او الاستدلال عليه بقصة ما فيسترسل فى هذه القصة لصفحات طوال حتى يكاد القــارىء ينسـى أصل الموضوع ثم يعود بعد ذلك الى أصل الموضوع ولكن قـد يـؤدى هـذا التطويل فى الجزئيات الى اختصار فى الأصل، وهو أمر وارد فى منهج هــذا الكتاب. كما ان هذا الاسترسال أوقعه فى بعض المغالطات مع نفسه، خاصــة عند المقارنة بين دارفور ووداى.
- فضلا عن ذلك فان الكتاب فيه اخطاء لغوية ونحوية وإملائية متناثرة فى طياته ولعلها من أخطاء النقلة، كما أننا نجد أحياناً حشواً واضحاً، وعبــارات غريبــة وحديثاً ركيكاً تنقصه الصياغة، ولعلها لغة الشيخ فى ذلك الزمان والمكان حيث عاش سنين عدداً بين الفور والوداى وأخذ من لهجاتــهم الكثـير وتــأثر بــها وظهرت فى كتابته.

رابعاً: منهج التحقيق:-

استطعنا أن نحصل على ثلاث نسخ لمخطوط الكتاب مصورة من المخطوط العربى الأصيل، بالاضافة الى الترجمة العربية من الأصل الفرنســى، فرقمناهــا كالتالى: النسخة (أ) من جامعة الرياض، والنسخة (ب) من جامعة الملــك فيصـل

بانجمينا- تشاد، والنسخة (جـ) من مكتبة الشيخ موسى بنيـالا، بالاضافـة الـى الأصل الفرنسي، ولكن بعد الاطلاع على النسخ الثلاث ودراسـتها اتضـح أنـها صُوِرَتْ من أصل واحد، وبالتالي فهي تشكل نسخة واحدة، ممـا اضطرنـا الـى ترجمة الأصل الفرنسي، وهو كتاب كامل، مأخوذ من الأصل العربي، فاستعنا به في مجال المقارنة والتدقيق واستكمال النصوص والنواقص حتى نسـتطيع بذلـك تكملة الاصل العربي للكتاب، ونقدمه للقراء كاملاً محققاً ومطبوعاً.

أما المنهج الذى اتبعناه فى تحقيق الكتاب، فهو المنهج العلمى المتبـع فـي تحقيق كتب التراث العربي من المحافظة على النص، وعـدم المسـاس بـه، أو بمضمونه الذى قصده المؤلف، وماقمنا بإصلاحه من أخطاء لغويـة أو نحويـة، أشرنا اليها في الهامش، واذا أضفنا كلمة ساقطة أو غير ذلـك وضعناهـا بيـن حاصرتين ( ) وذلك حتى يستقيم النص.

كما لم نحاول تغيير تراكيب بعض الكلمات أو الجمل التي تبـدو ركيكـة ولاتستقيم مع قواعد اللغة الشائعة.

ونظراً لتعدد المشارب الثقافية للمؤلف من مغربية ومصرية وسودانية فقـد درج أحياناً على عدم التزام القاعدة الفصحى بإفراد الفعل ولو كان الفاعل مثنى أو مجموعاً، بل اتبع قاعدة مايطلق عليه النحاة لغة "أكلوني البراغيث" أى الحاق الفعل علامة التثنية أو الجمع إذا كان مثنى او مجموعاً، وهذا ماسنلحظه فى ثنايـا هـذا الكتاب، وقد اضطررنا أحياناً لابقائها لكثرتها حتى نقلل من التهميش.

- لم يكن الكتاب مرتباً ترتيباً موضوعياً، وربما تعـرض لعبـث بفعـل النقلـة والمترجمين فقمنا بإعادة ترتيبه بحسب تسلسل الأحداث والموضوعات، كما قمنا بتقديم الفصول ذات الطابع السياسى والحربى وتأخير الفصـول ذات الطـابع الثقافى والحضارى باعتبار أن هذه الاخيرة نتاج طبيعي للمراحل الأولى، وقمنا بترقيم الفصول حسب هذا المنهج الذي سلكناه في الترتيب حتى يبدو الكتـاب اكثر انسجاماً.
- هناك نقص فى بعض الفصول وطمس فى بعضها الآخر، فاستعنا ببقية النسـخ وبالأصل الفرنسي في تكملة النقص وإبراز المطموس.

- كما وجدنا فصلاً بأكمله مفقوداً من المخطوط العربى، فأضفناه من الترجمة الفرنسية، وبالتالى أصبح الكتاب مكتملاً ومتناسقاً.
- كما يلاحظ أن هناك تداخلاً بين بعض الفصول، فنجد مثلاً نهاية الفصل الرابع هى بداية الفصل السابع، أو حديثاً فى منتصف الفصل لاينسجم مع سابقه، أو مع لاحقه، كل تلك من أخطاء الناقل، فيشير اليها أحياناً بقوله: "قف هنا نقص" أو "قف هنا طمس" مايجعل النص فى غاية التعقيد، فقمنا بتصحيح ذلك كله.
- كما قمنا بتحقيق كل الآيات الواردة فى الكتاب بنسبتها الى سورها من القرآن الكريم، وكذلك الأحاديث النبوية رددناها الى أصولها من كتب السنة، كما اجتهدنا فى شرح بعض الأبيات الشعرية والأمثال والحكم التى وردت فى المخطوط.
- وردت أسماء أشخاص من سلاطين وعلماء وتجار وأماكن ومدن وحيوان، وهى كثيرة قمنا بتعريفها وشرحها فى الهامش، وأحياناً قد يطول الشرح فى الهامش بحسب مقتضى الحال، وقمنا بتصحيح ماوقع فيه المؤلف من أخطاء فى هذا الجانب.
- كما يلاحظ أن هناك تكراراً لفصول فى هذا الكتاب حوالى فصلين وردا فى كتاب تشحيذ الأذهان قمنا باثباتهما لأنهما يتحدثان عن بلاد السودان عامة أى دارفور ووداى وما جاورهما، لاسيما وأن فيهما إشارات واضحة لوداى، ومقارنات بينها وبين دارفور.

كماقمنا بالحاق وكتابة التواريخ الهجرية التى اقتصر عليها المؤلف بالتواريخ الميلادية ووضعناها بين قوسين.
- ورد فى المخطوط عدد كبير من الرسومات التوضيحية قمنا برسمها فى أماكنها كما ورد فى الكتاب، كما أضفنا بعض الخرائط للكتاب من الأصل الفرنسى مثل خريطة مدينة وارة عاصمة وداى، وخريطة لمنزل السلطان صابون، وكذلك بعض الصور للأشخاص والاسلحة وضعناها فى مؤخرة الكتاب استكمالا له وتعميماً لفائدته.

• ويشار الى أننا أضفنا الى البحث مقدمتي الدكتور السير بيرون وجومـار بعد ترجمتهما من الأصل الفرنسي لما فيهما من معلومات مهمة عن وداي، وعن منطقة السودان الأوسط عموماً لم يتطرق اليها الكاتب.

والخيراً نسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، وأن يكـون إضافة حقيقية للمكتبة العربية والاسلامية، وأن يكون حافزاً للباحثين والمؤرخين لمزيد من البحث والتنقيب عن تراث هذه المنطقة الأصيلة فى انتمائها للأمة الاسلامية.

وإن كان لى من شكر بعد الله فاننى أقدمه لاخوتى وزملائى الذيـن وقفـوا معى من أجل أن يرى هذا الكتاب النور، وأخص بالشكر منهم: البروفسير/الزبير بشير طه وزير التعليم العالي والبحث العلمى، والدكتور/عثمان عبدالجبار وكيـل جامعة الفاشر، والاستاذ/عصام وداى مدير مركز أبحاث تراث دارفـور بجامعة الفاشر، والاخ الاستاذ الدكتور/عبدالله محمد ادم استاذ اللغة العربية وآدابها بجامعة الرياض وجامعة افريقيا العالمية، واساتذة اللغة الفرنسية الاسـتاذ/السـر الامين التكينة، والاستاذ/آدم داود بجامعة نيالا ، ولا انسى الاستاذ/احمد دقرشـم عبدالله الذى اشرف على طباعته، والى كل الجنود المجهولين شكرى وتقديرى.

المحقق،،،،

مقدمـــة

بقلم السيد بيرون

مازالت معرفة الناس بدار وداى أقل منها عن معرفتها بدارفور، وعندما كتب شيخ قبل عدة سنوات مختصراً عن تمبكتو يحتوى معلومات عن بلاد السودان الغربى أثار ذلك اهتمام الجغرافيين كثيراً، ويبدو لى أن الكتاب الذى بين أيديكم ذو أهمية أكبر لما يحويه من معلومات تفيد الرحالة والمسافرين الذين ينوون سبر أغوار المراكز الشرقية لافريقيا.

ويتجلى من بعض صفحات الكتاب (وقد أكدت لى ذلك مقابلاتي مع شيخي، أن تقسيمات السودان التي يعرفها ويقبلها أهله تختلف عن تلك التي يعرفها جغرافيوا أوربا.

ولهذا فقد عكفت على تحديد هذه التقسيمات: أماكن التقائها، مساحاتها، والمسافات التي تفصل بينها، وحاولت أيضا اختطاط خريطة للسودان من خلال المعلومات التى جمعتها.

لقد أوضحت ما استطاع شيخي التونسى أن يبينه لى، أى مايعرفه السودانيون كأقسام واسماء ومسافات، فقد اتيحت لشيخى كاتب هذا الكتاب فى رحلاته فرصة مقابلة واستفسار التجار والمسافرين وخاصة النخاسة الذين جابوا السودان عشرات المرات، وقد تلقى من هؤلاء النخاسة معلومات مفيدة عن هذه البلاد وسكانها.

من جهة اخرى فقد اتيحت لى الفرصة بأن أقابل فى القاهرة عدداً من سكان دارفور، وداى، برنو، باقرمى، ورجالاً من مندرة، وأفناو، وقد كنت أستفسرهم عن مواقع البلدان التى جاءوا منها أو جابوها ترحالاً داخل السودان.

تبدأ من بحر قلزوم، فى الخليج العربى مساحة واسعة تمتد نحو الغرب تمثل هذه المساحة أرض السودان، إذ تبدأ من رأس سواكن وتنتهى فى دارتبكتو امبراطورية الفلان او الفلاتة فى الجنوب الغربى لدار تبكتو وحتى الحدود الغربية للسينيغامبى، أى الارض التى تمتد من البحر الاحمر وحتى المحيط الاطلس، لان

جزءً من السنيغامبى يعد جزءاً من دار ملاّ، اذ يعتبر السودانيون الفوتا الذين يسكنون الاجزاء الشرقية للسنيغامبى جزءاً من دار ملاً وقد رأينا الشيخ التونسي يشير مرات عديدة فى كتابه: رحلة الى دارفور، (تشحيذ الاذهان) الى الفكي او الشيخ مالك، بالفوتاوى، أى من فوتا تشكل كل الديار الواقعة الى الجنوب من الدويلات الاسلامية جزءاً أصيلا من السودان، فالحدود الجنوبية الغربية للحبشة تعتبر بالنسبة للسناريين على الاقل جزءاً من السودان.

اما القبائل التى تسكن جنوب غربى سنار ماوراء فازوغلى فتسمى بالنوبة، وفى مصر عندما يقال لعبد "نوبى" يقصد به انه قادم من جنوب سنار، من دار النوبة، ولايقصد أبداً بذلك عبد ولد فى مايعرف اليوم بالنوبة. ففى القرن الثالث الميلادى دفع ديوكليتين (Diocletien) قبيلة نوبية هى النوباد للسكن فى جنوب مصر، ومن هنا أعطى الاسم للأرض الواقعة بين مصر وجزيرة مروى ومن قبل هذا التاريخ لاتوجد نوبة اخرى غير التى تقع جنوب سنار، ويبدو أيضا أن مصدر اسم نوبة هو الكلمة القبطية نوب (Naub) أى ذهب، حيث توجد فى هذه المنطقة حقيقة رمال بلون الذهب.

وتسمى القبائل المجوسية– غير المسلمة– التى تسكن مابعد كردفان الى الجنوب بالتروج ومفردها ترجاوى.

اما الذين يسكنون مابعد دارفور حيث يذهب الفور لصيد الرقيق فيسمون بالفرتيت، والذين مابعد جنوب اواسط ودّاى والذين ينعتهم الوداويون بالرق فيسمون بالجناخرة، اما المجوس الذين يتمددون جنوبى باقرمي وبرنو وبعد مندرة (Mandarah) فيسمون بالكرداويين، مفردها كرداوى– سكان دار كردى، ويبدو وارداً ان تكون للقبائل التى تسكن النطاق الجنوبى للسودان الى الجنوب من أغاديس، (Aghades) وأقناو وتمبكتو وملاً اسماء تميزها أيضاً، لكن شيخنا لم يذكرها، ويبدو أن جزءاً من شمالى غينيا يعده سكان دار ملاً وتمبكتو جزءاً من السودان أيضا حيث تصل حملاتهم لصيد الرقيق.

من جهة اخرى فان الجبال التى يسميها الجغرافيون فى خرطهم جبال القمر لم تكن هى الحدود الجنوبية للسودان، فقد توغل شيختنا فى دارفرتيت ورأى مزارع وأراضى تغطيها الغابات، واكثر من ثلاثة مجارى مائية، احدهم يقع وراء دار بنقا، وشالا، وقولا، وهو بحر أدا (Ada) الضيق، ورأى جبالاً لكنها متفرقة واراضى غير مستوية ملأى بمياه موسمية، لكنه لم يسمع أبداً بسلاسل جبلية تسمى جبال الكمورو (Comer) والتى ترجمت الى "جبال القمر" ومع ذلك يجهل اين تقع حدود السودان جنوباً.

يتضح مماتقدم أن الاراضى الواسعة التى تسمى السودان تنقسم الى جزءين جزء شمالى أسميه السودان المسلم والذى يشمل الدويلات العشر التى ذُكرت فى "تشحيذ الاذهان" وجزء جنوبى أسميه السودان المجوسى والذى يتكون من القبائل الوثنية والتى يعتمد عليها النخاسة فى استجلاب موارد سنوية هائلة من الرقيق، وسنرى فى فصل من هذا الكتاب وصفاً للطريقة الوحشية التى يتم بها اصطياد الرقيق والتى لاتبررها اليوم حتى الديانة الاسلامية[١].

وهناك ايضا تقسيم أقامة النخاسة من الدويلات البربرية والذين كانوا يتابعون مطارداتهم حتى وسط افريقيا، ولهذا يقول الشيخ فى كتابه أن التوانسة والغدامسيين والفزانيين لايعتبرون السودان الحقيقى غير أغاديس وأفناو وتمبكتو وبالتالى فان الدول الاخرى مثل: برنو، باقرمى، وداى، دارفور، كردفان، وسنار، لاتعتبر سوداناً وسبب هذا الاستثناء هو أن الرقيق والبضائع الاتية من هذه الدويلات الشرقية ليست جيدة، اما فى الجزء الغربى فان الرقيق أذكى واقوى، وبالتالى مربح بقدر اكبر خاصة الرقيق الاتى من أفناو، فان قيمته اكبر ويفضله الجميع.

(١) فى هذه العبارة تجن واضح على الاسلام، وكأنّ الاسلام قد أقر الرق، بينما نجد الاسلام قد حارب الرق منذ ظهوره وضيق موارده وحصره فقط فى رق الحرب وذلك لمعاملة الاعداء بالمثل خشية أن يفتن اسرى المسلمين فى دينهم ووضع لهذا أيضاً قواعد مرنة للتحرير، بينما نجد الدول الاوروبية لم تحرر الرق الا فى القرن العشرين بينما سبقهم الاسلام بأكثر من اربعة عشر قرناً.

كان في السابق يطلق اسم التكرور على سكان برنو أما اليوم فيطلق على كل سكان المنطقة، برنو، مندرا، كانم، باقرمي، وداي،" (انظر تشحيذ الأذهان، ص ١٢٦).

تفصل بين دول السودان مساحات خالية من أى وجود لسكان مستقرين والمساحات التى تفصل بين دارفور ووداى، وبين وداى وباقرمي تخلو حتى من الرحل، هذه الفواصل لاتستطيع قبيلة السكن فيها خشية غارات مباغتة من الفور او الوداويين او الباقرمى، ولكونهم بين دولتين لايستطيعون تفادى طلبات وهجمات جيوش هذه الدول. لكن الحال ليس كماهو فى السهول التى تقع بين برنو وأغاديس، أو بين أغاديس وافناو والتى تمتد لمساحات شاسعة الى الشمال من هذه الدول، وتسكنها فى مساحات متباعدة عادة قبائل الطوارق المتشرذمة والتى تحمل دائما معها سلاحها:حرابهم فى الايدى وخناجرهم على الاذرع ويقطعون دوماً طرق القوافل التى نادراً ماتبدى مقاومة تذكر.

اما فى الجنوب فالفلاتة أيضا يجوبون السهول على طرق القوافل، ويشبهون الطوارق فى الجسارة والقسوة، يذكر التونسي: أن الطوارق ليست قبيلة عربية اذ ينحدرون من التبو ويشبه الطوارق والتبو والفلاتة أكراد ديار بكر، لقد التقيت فى القاهرة أحد سكان غدامس وقد سافر عدة مرات بين غدامس واغاديس وأفناو وحكى لى وللشيخ التونسىى أن الطوارق ينتشرون كقبائل متنقلة فى المساحات الصحراوية التى تفصل بين كل من غدامس وافناو واغاديس، وينطق الاسم طوارق أو طوارقة، ويشبه الطوارق عرب الجزيرة اذ يقيم بعضهم فى خيام من الوبر، والخرون فى خيام من الكتان او الجلد، ومدينتهم تسمى غات (Ghat) وتبعد خمسة وعشرين يوماً عن غدامس، وقد نصبوا من بينهم ملكاً يقيم فى غات لعدة سنوات، وقد حاول فلاتة ملاً الذين اتت بهم حروب الاصلاح الى مابعد شمال أغاديس وأفناو أن يهددوا بإخضاع أعداد كبيرة من الطوارق لكنهم ابعدوا عن الاقاليم التى احتلوها وعادت الى الطوارق استقلاليتهم، وقد اعطانى الفكى الأبى "الهلالى" القادم من وارة عاصمة وداى والذى التقيته لمرات عديدة عام ١٨٤٣م

عند الشيخ التونسي في القاهرة والتي مر بها في طريقـه الـى مكـة، اعطـاني معلومات قيمة عن الطوارق، ويسكن الفكي الهلالي نفس البيت الذي كان يسـكنه الشيخ التونسي مع اثنين من أبناء عمه والذين ترك لهما الشيخ البيت ليقيمـا فيـه حتى الان، لقد مدني الهلالي بجزء كبير من المادة التي نحاول بها رسم خارطـة وداي، أي اسماء القرى واتجاهاتها ومواقعها وأسماء واتجاهات بحر أرو (Iro) من منبعه في جبل مرة ومجراه في باقرمي واتجاه شاري وبحر فترى (Fitry) وبحر راشد ونهر السلامات والبحر الابيض في برنو، ولكنه لم يحدثنا عمـا اذا كـانت هنالك علاقة بين البحر الابيض هذا والنيل الابيض، ولم يعرف أيضا نهر المسلاد وكلما رددت هذا الاسم على مسمع الهلالي بانه نهر طويل المجرى يجيب، بانـه لايوجد بحر أو مجرى مائي في سوداننا أطول من بحر ارو والذي يسـمى فـي نقطة ما بحر السلامات، كما لايوجد بحر أعرض من الشاري ولا أسرع من بحر أبيض الذي يقع في برنو ومن هنا أميل الى الاعتقاد بأن نهر إرو هو نهر مسـلاد الذي ذكره براون.

باختصار لقد اعطانا الهلالي الاسماء والعلاقات والمسافات التقريبية بيـن اكثر من مائة وخمسين الى مائتي قرية ومكان لم نكن نعرفها من قبل، لكـن كم كلفنا ذلك من وقت ومحادثات وأسئلة ومراوغات لكي نحصل على المعلومات التي نريدها من الفكي الهلالي، وهذا الهلالي برغم سهولة التعامل معه الا انه كان على خلاف السودانيين الذين التقيتهم وعرفتهم كان يتحاشى فضولنا باستمرار، وهـذه عادة شائعة عند الزنج في السودان منهم من لايعطون أي معلومات عن بلادهـم ولولا الشيخ التونسي لما حصلت على شيء منه.

وذات مساء وبينما كنا في دعوة لتناول طبق رائع من الكسكس فـي بيت الشيخ التونسي، وكنا ثلاثة فقط، قلت للـهلالي لمـاذا ترفـض أن تمـد الشيـخ بالمعلومات التي يريدها عن بلدك! أجاب: إن هذا شيء محظور وعقوبته الاعدام، سألته ثانية: كيف؟ عقب قائلا: بلاشك، اذا علم السلطان بأنني أنا الذي حدثتكم عن طرق وديار وداي فسيقتلني بلا رحمة، قلت له: ومن يذهب لسلطانكم ليقـول لـه

أنت الذى اخبرتنا عن الارض فى ودّاى، فلا انا ولا الشيخ ننــوى السـفر الـى السودان، وحتى اذا جاءتنا الرغبة سنحرص على الا نقول أنت الذى اخبرتنا، قال أصدقكم، لكن أنتم تعلمون الخوف.. قلت له لاتخف نعاهدك بألاّ نخونــك، قـال: أصدقكم، لكن أقسموا لى بانكم لن تقولوا أن الهلالى هو الذى اعطاكم معلومـــات عن وداى وساقول لكم ما اعرفه لاننى سافرت كثيراً داخل ودّاى ورافقت قـوات السلطان فى طريق وارة- ابوسمين فى حملتين ضد باقرمى وحملة اخـرى فـى أرض عرب السلامات حين تمردوا وحملتين فى داركردى ودار بنقا مـن أجـل صيد الرقيق، قلت له: هل تسيرون النهار كله فى هذه الاسفار؟ أجاب: ابداً، نسير فى مراحل يوماً بيوم لمدة تتراوح بين خمس الى ثمانى ساعات فى خط مســتقيم لان بلادنا ماهولة بالسكان ومن السهل أن يجوبها المرء ثـم ان المحطـات هـى نفسها، سألته: ان الذين يتبعون الحملات إن كانت للحرب أو لصيد الرقيق يجـب أن يعرفوا..؟ أجاب: طبعاً، سألته: وكم محطة توجد فى الاتجاهات الى زرتـــها؟ أجاب: انها كثيرة حسبنا من الشمال الى الجنوب لان ودّاى يزيد طولها بثلث عـن عرضها، قلت له هل تمس مباشرة حدود دارفور أو باقرمى؟ قال: لا، يوجد بيننـا ودارفور وادى اسكتا وكذلك من الجنوب الى الشمال وهى منطقة مليئة بالغابـات، اما الوادى الذى يفصلنا عن باقرمى فهو ابو راوى وتحفه الغابات من الجـانبين، وعرضه يضاعف عرض الوادى الذى يفصلنا عن دارفور، ومن يومها واصـل الهلالى طوعاً وصفه، وقد كتب الشيخ المسافات والاماكن بعناية، لكننـا وجدنـا صعوبة بالغة فى وضع المسافات وتحديد الاتجاهات.

وقد كان يبدو للهلالى أنه فى أسفاره هذه يسير فى خط مســتقيم أو مـاهو أشبه بذلك، سواء من الشمال الى الجنوب او من الشرق الى الغرب. او من احـد الخطوط المتوسطة بين هذه الاتجاهات، هذا كل ماوسعنا معرفته وحتى الــهلالى ماكنا نظنه يعرف اكثر من ذلك.

بعدها تحدثنا عن باقي السودان، لان الهلالي كان قد سافر الى أقــاو فــى الشمال ذات مرة، فقد أعطانا معلومات مهمة عن الطوارق والتى لم أجدها مضمنة في أي من الخرط التي وجدتها في مصر.

الى الشمال من أغاديس قريبا من حدودها تسكن قبيلة الطــوارق كليوى الكبيرة، والتي تسكن الجبال وتمثل قبيلة كثيرة العدد وقوية، ويحتل جــزء منــها الاراضي الواقعة بين برنو وأغاديس اما الطوارق البدويون الحقيقيون- طــوارق أولامون فيسكنون على الحدود الشمالية لتمبكتو ومنهم انقســم الفــرع القــوى أو لامون الشرقيون والذين يملكون كثيراً من الجمال والخيول، وتتكون كل واحدة من هذه القبائل من مجموعة تضم حوالي مائة الف شخص، اما القبيلة الرئيسية الثانية في الطوارق فهي الهجرس وبين هاتين القبيلتين الرئيسيتين تنزل قبيلــة طــوارق أجداكين، قبيلة الفقهاء المشعوذين وتسكن قبيلة التسجرن الى الشرق من البــلاد التي يسكنها طوارق دار الطوارق الى الشمال من اولامودين الشرق وتتحدث قبيلتا أدسن وكيجرس لغة واحدة، وكانت الغلبة القبلية في البداية لايتسن ولكنها زالــت وآلت الى يد اكيل-جرس.

اما التبو او التيبو فيقومون بنفس أدوار الطوارق وينتشــرون أيضــاً فــى شمالي السودان خاصة في الجزء الشرقي وبشكل رئيسي في طرق القوافــل فــى الصحراء بدءً بفزان وانتهاءً ببرنو وودّاى ويجمعون الضرائب من القوافل التــى تمر بهم، اما تبو رشاد او تبو راشدى وتعني تبو الصخور فيسمون بذلــك لانــهم يسكنون متفرقين بين الجبال التى تقع بالقرب من الحدود الجنوبية الشرقية لفزان، ويسكن عدد منهم في كهوف هذه الجبال.

اما فيما يخص التقسيمات الداخلية مثل ولايات الدولة والمحافظــات فعــدد منها يقع في اماكن غير التى حددها الجغرافيون في خرطهم حتى الحديثــة منــها وكذلك تسمية بعض القبائل جديدة تماماً، وقد رأينا نماذج من ذلك في دارفور ذات الشيء في دار فرتيت ودار النوبة، وأغلب القبائل العربية التــى كــانت تجــاور

دارفور ودار وداى كانت مجهولة ونفس الشيء بالنسبة لبرجوب ودار تروج ودار الجناخرة.

إن المندرا حسب ما اكد لى أحد البرنو -والذى كنت التقيه فى منزل سلطان دارفور- فيعبرها نهر شارى والذى يروى أطراف ماسينا عاصمة باقرمى وحسب ماقال صديقى البرناوى فان سارى هو الاسم الحقيقى للنهر لكنه حرف اليوم ليصبح شارى، اما اسم تساد او تشاد المكتوب على خرطنا ليشير الى البحيرة الكبيرة التى تقع بعد باقرمى فى بلاد البرنو فان هذا الاسم لم يكن معروفاً للبرنو الذين يطلقون على الكل أى البحيرة والنهر- بحر شارى- (فى مصر يطلق اسم بحر على النيل) وهو صالح للملاحة وتجوبه المراكب الصغيرة باستمرار.

يعتقد البرنو جازمين بان بلادهم هى أرض البركة، فقط لانه وقع تشابه لفظى سلاج يعتقدونه حجة، اذ يدعون أن سفينة نوح قد رست فى أرضهم بعد الطوفان والدليل ان الكلمة برنو كما يزعمون تتكون من مقطعين "بر" و "نوح" واللتان جمعتا لتكونا "برنوح" أى أرض نوح ثم صارت برنو. فى برنو كما فى دارفور ووداى وباقرمى فان الحكام الذين يحملون لقب ملك يحكمون المقاطعات لكن ملك مندرا لغناه واهمية بلاده فيحمل لقب سلطان ويحمل هذا اللقب ايضاً حاكم كنكو وكلاهما يشبه باشا حقيقى يحكم مقاطعته نيابة عن القسطنطينية، فكلاهما ينصب من قبل سلطان برنو ويحكم سلطان كنكو على رأس خمسة ملوك يقيم كل منهم فى برنى، أى عاصمة، وتقع إحدى هذه العواصم الخمس فى لوقون مقر سلطان كنكو.

اما كانم فيحكمها "اليفه" وهو اسم يطلق على حاكم هذه المقاطعة وقد كان أليفه كانم هو الذى انقذ برنو وباقرمى ووداى وحتى دارفور من غزوات الفلاتة الاصلاحيين "بروتستانت" فهو الذى اوقف زحفهم بعد أن خرج الفلاتة من دار ملاّ يقودهم احد العلماء على السودان الشرقى وهدد بالاستيلاء على ثلاثة أرباع السودان، ويخبرنا الشيخ ان هذه الحرب قد اجتاحت عدداً من البلدان فى نفس الوقت الذى دعمت فيه الوهابية المسلحة ثورات للبدو فى غربى الجزيرة العربية.

اما ادغيس أو أغاديس كما يسميها الجغرافيون فهى مقاطعة مجهولة نسبياً والموقع الاكثر اعتباراً فى هذا الجزء من السودان يسمى ادغيس ايضاً والى الشرق من هذه المحافظة مايعرفه المغاربة بالسودان التجارى.

بعد اغاديس تأتى أفناو وهى ارض ممتدة ومعها تتم معظم التجارة مع تونس وطرابلس وبلاد المغرب عموماً، وهذه المدن نادراً ماتذكر فى الخرط ولافناو علاقات تجارية ثابتة مع تونس، واكبر مدن هذه المقاطعة هى هوسا وكشنا، ونوفى، وهذه الاسماء هى أيضاً اسماء لثلاثة تقسيمات للبلاد، ويطلق الجغرافيون الاوربيون على أفناو اسم هوسا، الاسم الذى لا احد من السودانيين والمغاربة الذين التقيتهم فى مصر يعرف ان يطلق على غير عاصمة افناو ولايعرفونه ابداً كاسم لدولة.

اما دار تنبكتو فلا احتاج الى الحديث عنها، فهى معروفة وخاصة باسم مدينتها العاصمة تنبكتو، اما دار ملاّ او دار الفلاتة فهى ذات امتداد معتبر، ويقول الشيخ ان فلاتة شرق دار ملاّ ذوى رؤوس كبيرة وجباه عريضة، وافواه كبيرة، اما اولئك الذين هم فى الغرب وخاصة شمال غرب ملاّ فرؤوسهم منتظمة نسبياً.

ويوجد الفلاتة منتشرين فى كل مكان ابتداء من دارفور وحتى السينغامبى رحلاً ومقيمين باعداد كبيرة ويحتلون ثلثى الجزء الغربى من الاقاليم الجنوبية من دويلات السودان الاسلامى وهنالك يقومون بالادوار التى يقوم بها التبو والطوارق وباختصار يوجد الفلاتة فى كل السودان حتى كردفان، وابتداء من دارفور حيث توجد لديهم بعض القرى مثل التى فى أسافل جبل مرة، فهم كثر فى كل دولة لان حروب الاصلاح قذفت بهم فى كل ارجاء السودان الاسلامى.

ويذكر التونسى أنه راى فلاتة يشغلون مناصب عليا فى كل من دارفور وودای ففى كتاب رحلة الى دارفور (تشحيذ الاذهان) نرى ان الفكى مالك الفوتاوى يتمتع بنفوذ قوى لدى السلطان، من جهة اخرى نرى ان مشاعر الرعب وتارة الاعجاب بالفلاتة التى أثارتها حروبهم قد ربطت باسم أولئك "الوحوش" فكرة مرعبة، واشياء خرافية قادتهم الى تملك قوة السحر ضد قبائل السودان وعلى

ضوء هذه العلاقة فهم بامكانهم فرض كل مايريدونه على قبائل جاهلة متخوفة تؤمن بالخرافة وتكفي الاشارة باليد لتوقع بهم فى الرعب او التعجب او الاعجاب.

لنقل الان شيئاً عن محاولة رسم خريطة وداى المضافة الى هذه الرحلة لقد اتبعت فى رسم هذه الخريطة نفس الخطوات التى اتبعتها فى رسم خريطة دارفور، فالمسافات قد وصفت بالتقريب، ولعلى يمكن أن اضع لكل يوم ستة فراسخ وربع، فهذا متوسط ما تقطعه القوافل فى عدد معلوم من الايام، وأحياناً تقطع فى يومين او ثلاثة او اربعة ايام اكثر من خمسة وعشرين فرسخاً لكن اذا وضعنا فى الاعتبار ان المسافرين بالقوافل السودانية عرب او غيرهم يحسبون المسافة مقدرة بعدد من الايام حتى ايام الراحة، فمثلاً فى المسافة المقدرة بخمسة عشر او عشرين يوماً من السفر يقضون اربعة أوخمسة ايام فى الراحة، ولهذا فان التقديرات التى وضعناها تمثل المسافات جغرافياً لتقريب الحقيقة.

إن طول وداى من الشمال الى الجنوب يساوى ثلاثين يوماً، وعرضها أى من الشرق الى الغرب يساوى حوالى عشرين يوماً وعرضها النهائى فى الشمال اكثر قليلاً مماهو عليه فى الجنوب، وان مساحة وداى مأهولة بالسكان اكثر من مساحة دارفور، والكثافة السكانية اكبر.

وعدا الجانب الشرقى فان وداى محاطة بقبائل عربية شبه مستقلة لاتخضع لسطان وداى، وعلاقتهم بسلطان وداى هى نفس العلاقة التى بين سلطان دارفور وتلك القبائل العربية المحيطة بدارفور، وقبائل البديات "بنى بديات" وهم بدو رحل يعيشون على مسافة يومين او ثلاثة من حدود وداى الشمالية ولهم طباع تشبه نمط الحياة العربية لكنهم ليسوا من أصول عربية ولايتكلمون لغتهم.

ومازالت وداى تسمى ودّاى- برقو ودارصليح، والاسم الاخير هو الاكثر شيوعاً فى كل السودان، واسم وداى هو الاكثر استخداماً بعد دارصليح، والودايون لايسمون بلدهم الا ودّاى ونادراً مايستخدمون اسم برقو، وهذا الاسم لايستخدم الا فى اجزاء محدودة من السودان.

اما التقسيمات الادارية الرئيسية في وداي فمقسمة بحسب الاتجاهات فتوجد خمسة أقسام رئيسية وهي محافظـات: الشمـال، الشـرق، الغـرب، البطيحـة، والبطحاء، أي "الاراضي المنخفضة" ويحمل حكام هذه المحافظات اسـم عقـداء، وهم: عقيد الريح، ويحكم الشمال، وعقيد الصباح، ويحكم الشرق، وهي المحافظة الحدودية مع دارفور والتي يسكنها المساليت وهؤلاء يشكلون قبيلة كبيرة العـدد، وعقيد الغرب، ويحكم الغرب، وعقيد البطيحاء، ويحكم المنطقة الواقعة من البطحة الوسطى وحتى أقصى الجنوب، وعقيد البطحاء، ويحكم المنطقة من وسـط وداي والى الجنوب حتى وادي البطيحاء.

واسم بطحاء وتصغيرها بطيحاء هما اسمان لواديين كبيرين عريقين همـا عبارة عن اراضي منخفضة يجري الواديان فيها من الشرق الى الغرب، ويقسمان دارصليح الى ثلاث مناطق غير متساوية.

تتكون اسافل البطيحاء من واد رملي أبيض جميـل تحفـه علـى جانبيـه الاشجار ويبلغ عرضه حوالي نصف ساعة مشياً على الاقدام ويمتد في خط مستقيم تقريباً تغمره مياه الامطار الموسمية، وعندما يقل الماء يصبح صافياً جداً يعطـي منظراً رائعاً للرمال من تحته، وحسب مايقول التونسي، بانه نادراً ماينقطع سـيل الماء في هذا الوادي، لكن تقل سرعته ويضيق مجراه، امانهر بني راشد فيجـف أحياناً ويغور الماء في الرمل ويتبخر جزء منه وفي الشتاء يضعف تيـار المـاء، فحسب توزيع فصول السنة في وداي فان الصيف هو موسـم الامطـار ويـاتي مباشرة بعد الشتاء، وهذا مايعطي الفصول الترتيب التـالي: الشتـاء، الصيـف، الخريف، الربيع.

تكون المياه اكثر وفرة في اثناء الحر الغائظ، وعندما ياتي الربيع والشتـاء بصفة خاصة لاتستطيع درجات الحرارة المتواضعة من تبخير كميات كبيرة مـن المياه تحد البطيحة من الشمال والجنوب كميات من الاشجار، ومابعدهما مبـاشرة قرى ومزارع، وبعد نصف ساعة من السير نحو الجنوب يسكن الكاشميرة وهـي

قبيلة كبيرة تسكن عدداً من القرى من بينها أم حروية والتى بها أكثر من خمسمائة رجل قادر على حمل السلاح وكانت مقراً لاقامة الشيخ التونسى لعدد من الشهور.

اما البطحة او البطحاء فهى على بعد ستة او سبعة ايام الى الجنوب من البطيحة، أى حوالى خمسة واربعين فرسخاً، والوادى يحتل نفس الموقع وربما نفس الطول والعرض كماهو فى البطيحة، لكن مياه البطحة اكثر وفرة ولاتجف أبداً، ففى موسم الامطار تتجمع مياه الواديين وتشبه أنهاراً كبيرة، وبالتالى تنعزل القبائل التى تسكن مابعد الواديين لفترة حتى تجف المياه ويتفرع من البطيحة نهر الفترى.

بجانب الحكام الرئيسين الذين تحدثنا عنهم سالفاً، يوجد ملوك برتب ثانوية يحكمون بعض المقاطعات والديار والقبائل، وأغلب هؤلاء الملوك يتبعون لعقداء المناطق التى يعيشون فيها.

وكذلك القبائل العربية التى تسكن مابعد الحدود لها علاقة أحياناً بعقيد المنطقة التى ينزلون بالقرب منها، لان السلطان يرسل كل عام فى طلب ضريبة الحماية، والتى تفرض على القبائل بشكل عشوائى احياناً ممايجعل البعض يرفضها.

وتخضع لحاكم الغرب تقريباً قبائل البنى غياتية (غيات) والبنى زبدة. وللكاشميرة ملك يخضع لعقيد البطيحاء، اما جناخرة وداى وهم عبيد تحت خدمة السلطان والذين تم جمعهم لخيراً فى تنظيم أشبه بالعبيدية التابعين لسلطان الفور، فهم تحت امرة ملك يحكم عدداً من القرى التى يقطنها هؤلاء الرقيق بين وارة والغرب، والى الشمال من المنطقة التى يقطنها الجناخرة تقع منطقة جبلية مأهولة بالسكان ويحكمها ملك يسمى ملك الجبل، ويبدو انه يتبع مباشرة لسلطان ودّاى اكثر منه الى عقيد الشمال.

وهناك قبائل اخرى ولكل قبيلة ملكها مثل: الكوكا، الكوركوس، البيقو، الداجو، الموبى، البرقد، الحيماد، البندلة، الفترى، وهؤلاء فى الجنوب والغرب، وهناك البرتى والميمة، القمر، المسمجى، المداقو، البلالا، ومجموعة من الداجو

والهيلات فى الشمال، والمساليت فى الشرق بجانب مسيجة البطيحة والاب بكر والمرقى، اما القبائل العربية فى ودّاى فهى السلامات والراشدية وهؤلاء يقيمون داخل حدود وداى، ولكل منها شيخ تتبع له، وهذا الشيخ يتبع لاقرب عقيد فى المنطقة التى ينزل فيها، ويحكم الفترى خمسة ملوك يتزعمهم الملك المقيم فى باوا.

وكل حاكم يمثل السلطان فى مقاطعته، ويعتبر نفسه الحاكم الاعلى ويحكم مايراه حتى وان كان ظالماً، ولكل عقيد الحق فى حفظ النظام والدفاع عن مقاطعته.

تمثل قبيلة الكوكة التي تسكن الى الشمال الشرقى من الفرتى قبيلة منفصلة منذ زمن بعيد عن الكوكة الموجودين فى جنوب شرق ودّاى، وقد وقع هذا الانفصال كما يقول الهلالى بعد نزاع دموى، وقد شكت هذه القبيلة التى ترى نفسها مهددة الى السلطان فحكم لها بان منحها حكم البطحة حيث أقامت منذ ذلك الوقت.

أن الكوكة الذين يسكنون الزاوية الجنوبية الشرقية لدار صليح يشكلون جزءاً من الجناخرة، والذين يكونون قبيلة كبيرة تشتهر بجمال نسائها فكل الفتيات الجميلات اللاتى كان اهل وداى يخطفوهن عند غاراتهم فى دار الجناخرة كن يقتدن حريماً للسلطان، ويذكر ان السلطان نصح منذ زمن قديم بارسال حملة الى ارض الكوكة والجناخرة المجوس لاستجلاب الفتيات والنساء والرجال والاطفال والاسر وترحيلهم للاقامة فى جنوب ودّاى حتى يتسنى له الحصول على مايحتاجه من نساء شرعيات او سرارى فى كل عام، وقد عمل السلطان بهذه النصيحة، ومنذ ذلك الزمن يرسل حاكم كوكا كل عام أجمل فتياتها حريماً للسلطان وكانت الارسالية السنوية تتراوح مابين المائة والمائة وخمسين من الفتيات العزراوات اللاتى لاتتجاوز أعمارهن عن الاربعة عشر عاماً.

ويقيم السلطان فى مدينة وارة، وهى مدينة صغيرة، اعطانى الشيخ خريطة لها، وهى محاطة بالجبال التى تشكل سوراً طبيعياً وحصناً لها، وحسب تقييمى للمسافات التى أعطانى اياها شيخى فتقع عند خط ١٣ شمالا و ٢١ او ٢٢° شرقاً

بالتقريب، ولاتبعد كثيراً عن دار تاما، لان الحرب التى وقعت بين التاما وجيوش وداى، والتى سنتحدث عنها، وقعت على بعد خمسة ايام من وارة، داخل ارض التاما.

ان دار التاما التى كانت غالباً تحت سيطرة الحكام الفور، قد سقطت مرات عدة على يد الوداويين، وهى بلد زراعية تتخللها الجبال، ويقيم ملك التاما فى قمة الجبل الرئيسى وهو جبل التاما.

يقسم وارة من الشمال الى الجنوب شارع واسع ينتهى بميدان فسيح امام قصر السلطان يسمى الفاشر، وتسمى المدينة أيضا الفاشر، ليس كاسم علم لكن كاسم لمكان يقيم فيه السلطان، وهذه التسمية تطلق على مقر السلطان ولو خارج وارة.

فى برنو وباقرمى وبعض المحافظات الاخرى مثل كتكو تستخدم كلمة برنى بدلاً عن فاشر، فعندما نسمع عبارة برنى باقرمى نفهم أن المراد بها هو مقر السلطان، وايضاً كل الاماكن التى يقيم فيها السلطان داخل الدولة، ولعهد بعيد كانت عاصمة الباقرمى فى ماسينا التى يمر بها نهر شارى، وماسينا هو الاسم الذى يطلقه عليها سكانها، اما عند بقية سكان باقرمى فيسمونها كارنك، اما اسم ماسينا فقد كتبتها كما ينطقها من سمعتها منهم فى القاهرة والذين سافروا مرات عديدة الى برنى باقرمى.

يتسع نهر شارى بشكل عجيب بالقرب من ماسينا حيث يسمى "ميتو" كما يقول الهلالى– يمتد عرضه مع الافق، فلايكاد المرأ اذا وقف فى أحد شاطئيه أن يرى شخصاً اخر على الشاطيء الاخر، ومعروف انه حتى فى فترة انخفاض المياه يصل عرض النهر فى بعض الاماكن الى ستمائة متر، وينبع نهر شارى من جبال مندرة، ويجرى من الجنوب الى الشمال ويصب فى بحيرة شارى، لقد ذكر لى الفكى الهلالى عدة مرات ان نهر ايرو يأخذ اسم بحر السلامات عندما يعبر أراضى العرب السلامات، وبالتالى فان هذا الاسم يطلق على هذا الجزء فقط من نهر ايرو وليس نهراً خاصاً ونفس الشيء بالنسبة لبحر لم التيمان، ويبقى أن يقال

ان الايرو مجرى مائي ضخم وعميق ويشكل قوساً ممتداً في دارقلا، ويتبع نـــهر راشد مجرى مقوساً مماثلاً، هنالك ملاحظة يجب أن يضعـــها المسافرون فـــى الاعتبار وهي انه لايوجد نهر معروف يجرى طوال العام سوى نهر شارى.

وينبع نهر إيرو من ازوم الذى ينبع من الاجزاء الغربية لجبل مـــرة فـــى دارفور، ويعبر مسافة طويلة ومتنوعة، ويمتلىء في موسم الامطار ثم يفقد مياهه تدريجياً اثناء جريانه، وفى بعض أوقات العام يجف النـــهر وينقطـــع ويتلاشـــى، وهناك مجار اخرى أضعف منه وتجف فى فصل الصيف وتصل الى ذات النهاية، ولهذا فان نهر إيرو يبدأ فى فقد مياهه بمجرد خروجه من وداى ودخوله الـــى دار ملاً حيث يفقد مياهه في الاراضى الرملية مما يجعل مجراه فى نهايته ضيقاً حتى يتلاشى، ولعل هذا هو السبب الذى جعل الجغرافيين يختلفون فى وجـــود وعـــدم وجود نهر إيرو، وبحر الغزال، وبحر الفترى...الخ.

يصب نهر إيرو وبحر الغزال وعدد اخر من الاودية والخيران فى شـــارى الكبير على مايبدو، يفيض نهر أم التيمان عندما تصب الامطار مثل الشيء الـــذى يحدث مع نيل مصر، ومع تراجع المياه يزرع الاهالى الاماكن التـــى كـــانت قـــد غمرتها المياه.

اما بحر أبيض فيجرى بين كتكو وبرنو من الجنوب الى الشمال، ثم يذهب ليصب مع إيبو فى شارى، وله مجرى ضيق أشبه بقناة القاهرة لكنه اسرع.

كل هذه المعلومات جمعتها مع الشيخ التونسى من أشخاص سودانيين يجب أن نذكرهم هنا طالما لم يذكروا في كتاب رحلة الى دارفور "تشحيذ الاذهان".

ان هذه النقاط والمعلومات ستثير وتقود ابحاث الرحالة الاوربيـــن الذيـــن سيكونون الاوائل فى هذا الميدان ليجدوا المتعة والشرف برؤية هذه البلاد البكـــر، عالم وسط افريقيا المغلق منذ سنوات والمحفوف بالمخاطر للذيـــن لـــم يجـــهزوا لرحلاتهم لمدة طويلة ولايعرفون أسرار اللغة العربية- لغة المســـلمين المقدســـة- والذين لم يتأسلموا- أو يظهروا اسلامهم لاجل ســـلامتهم، والـــذى لايســـتطيع ان

يتقمص شخصية الرجل سهل القياد المؤمن القادر على مواجهة شراسة مسلمي السودان من لم يتمكن من كل هذا يجب الايفكر في السفر وأن يلزم بيته.

نذكر أن رحلات دونهام الى مندرة جاءت بنتائج متواضعة، اذ يجد المرء صعوبة في السفر بملابس حمراء انجليزية، يستلزم الامر ارتداء جبة دارفورية أو وداوية لجوب بلاد دارفور او وداي، ويجب تدكين لون البشرة حتى لايثير اللون الابيض نظر الزنج السود كالفحم، ويجب أيضاً الاقامة لعدة مواسم في كوبي وتندلتي وواره والتعرف على السكان المحليين والتجار والنخاسة، يجب كل ذلك بل والتغاضي عن أشياء كثيرة أيضاً يجب الاتغضب احداً، يمكنك أن تتبع صائدى الرقيق والتجار المحليين حتى حدود الفرتيت الجنوبية، او حتى الى ارض الجناخرة ويمكنك أخيراً التعرف على حدود السودان الجنوبية وموقع جبال القمر وعلى مواقع تجارية وحضارية كثيرة يمكن دراستها أثناء الرحلة الى السودان.

أى شرف ينتظر الرحالة الشجعان والمثابرين متقدى الذكاء الذين يقضون ست او ثمان أو حتى عشر سنوات للتحضير للرحلة ويكتشف خطوة خطوة افريقيا المجهولة. من بعدها يجب البحث عن وسائل تمسح من على وجه الارض دروب الالم والعار التي عبرها يجر كل عام الاف العبيد، لحم انساني يباع في الاسواق أو يترك تطعمه الكواسر، ويجب أن تدخل الى قلب افريقيا أدوات جديدة واحتياجات جديدة واستبدال تجارة الرقيق بعلاقات تجارية جديدة، وحتى لاتترك كميات هائلة من أموال الاوربيين تهرب الى داخل السودان وتبقى بلا فوائد حتى لمالكيها، يقال انه لايستطيع المرأ ان يتخيل كمية العملات الفضية التي دخلت الى تلك البلاد.

وسنرى لاحقاً عند الاستيلاء على خزينة سلطان ما مابداخل خزانته من هذه العملات[1]

---

[1] هذه الفقرة تعكس مدى الجشع الذي يضمره الاوربيون والطمع الذي أبداه افريقيا، فانهم لاينظرون الى كميات البضائع التي يأخذونها من افريقيا وحتى البشر الذين سيقوا الى اسواق النخاسة فيما وراء البحار كل ذلك لاينظرون اليه، ويتأسفون على القليل من العملات الاوربية التي تكون بحوزة التجار والسلاطين.

والبرينة، هذه اللعب هي اول ماتربط السودان بالجزائر، ويتغير هؤلاء الاطفال تدريجياً عبر أدوات اكثر جدية وجدوى. ويصبح الاطفال رجالاً، ولاحقاً يفتح لهؤلاء الرجال طريق الرب وينادي فيهم مبشر في الصحراء...... ان مسلمي افريقيا الفرنسية وقد حملوا الى هؤلاء الزنج الذين مازالوا في مهد الانسانية المنتوجات الصناعية، يتحدثون اليهم عن أمة أرسلها الله الى افريقيا، امة من الصفوة يسرهم أن يطعموا الجائع ويرووا الظاميء وهي تتصل بشعوب العالم اجمع، لانها القبلة الكبرى حيث المائدة الالهية مفتوحة لكل الناس، وحيث يأخذ الجميع خبز الحياة وخمرة الذكاء وملح الحكمة كنتيجة ضرورية لمحاولة التربية في شمال افريقيا والسودان ويجب أن تحطم بالنية والعمل تجارة الرقيق، ويجب أن يرغم ملاك الرقيق على الاحترام اللازم لخلق الله الرحيم، ولبني الانسان، وان يحترموا بماقعلوا لهؤلاءِ المساكين الذين يسلبون كل عام وبضربات منظمة مثلما تقطع الغابات ومن ثم يساقون قطعاناً يباعون في البلاد الاسلامية[1] هذه التجارة هي احد الالام الاسلامية، وهي موضع تحقير عند امم اوربا المستنيرة منذ وقت طويل، أضف الى ذلك أن محمد علي قد عمل بكل ما اوتي من قوة في تنشيط هذه التجارة الدنيئة. وأعرف أن عدداً من الرقيق الذين يباعون خارج السودان يعتبرون أعضاءً جداً في العائلة مسخرين لخدمتها ويصبحون ملكاً لها، ويدعون لتبرير أفعالهم الشنيعة أن هؤلاء الرقيق سعداء لانهم لايجدون مايجدونه هنا في بلادهم "يالها من طريقة غريبة للتنصل من الجرم"

الا يعلم الناس كم من هؤلاء العبيد، رجال وأطفال ونساء يموتون قبل الوصول الى مصر، او المغرب، او القسطنطينية والى كل البلاد التي يعيش فيها

[1] يحاول المترجم هنا عبثاً أن يلحق تجارة الرقيق الافريقي بالمسلمين وبالبلاد الاسلامية، بينما أحد الحقيقة هي أن الاوربيين هم الذين قادوا هذه التجارة ووسعوا من دائرتها واستنزفوا القارة الافريقية من سكانها وطاقاتهم عبيداً الى الاراضي الجديدة في الامريكتين وحسرر الهيمنة البلدان والدول الاوربية، وقد استمرت هذه التجارة لاكثر من ثلاثة قرون سلب البعض الاوربيون افريقيا من خيراتها وزهرة شبابها، وهي الجريمة التي لن تغتفر لهؤلاء مهما تبرءوا منها، كما رفض الاسلام الرق عموماً منذ اكثر من اربعة عشر قرناً في وقت كانت فيه اوربا ترزح في نير الديكتاتورية والملكيات المطلقة والطبقيات المفرطة، وكان الرق يمارس بشكل بشع في اوربا القديمة والوسيطة والحديثة بإقرار تام من موروثاتها الدينية والفلسفية.

المسلمون ويحكمها المسلمون، يموت الالاف عند الغزو، والالاف فى الطريق، ثم الاف اخرون فى هذه البلاد قبل التعود على نمط العيش والعمل غير المعهود بالنسبة لهم، وهناك الاف يخضعون والاف يخرجون من السودان لعبور الصحراء والاف ليتحملوا برد سوريا واسيا الصغرى وتركيا وفارس، وتموت الاماء فى اعمار مبكرة، اذ تموت الزنجيات والحبشيات فى اعمار لاتتجاوز الاربعين، وعند العشرين يكن قد عجزن لانهن يصبحن منذ سن الثامنة او العاشرة سرارى للمسلمين، وكم يبقى من الاطفال الذين يولدون بعد الامراض وسوء التغذية؟

بحمد الله لقد اخذت الدولتان مسموعتا الصوت في العالم- فرنسا وانجلترا على نفسيهما أن تكونا شرطيين للامم المتخلفة، فقد بدانا فى تكميم تجارة الرقيق، ففى المتوسط وصلت هذه التجارة الى ادنى معدلاتها اذ صارت اعداد محدودة جداً من السفن التى تعبر الى شمال البحر تحمل أطفالاً او رجالاً او نساءً للبيع، لكن مازالت تهرب اعداد كبيرة عبر البحر الاحمر وعبر البر. ماعادت المجوسية موجودة والتى يمثل الرق احد وجوهها فلماذا يمارس حتى زمن كهذا؟ لماذا حافظ محمد على، على هذه الممارسة المخزية؟ ألم ير ان الرق لم يكن عملاً منطقياً الا فى ديانة الاولمب؟ الم ير محمد على الذى حاول محاربة الشرك وامر بالتوحيد انه من الافضل أن يحارب هذه التجارة المجوسية[1] عند الحديث عن وحدانية الخالق يجب أن نعترف أيضاً بوحدة الخلق ووحدة الاسرة البشرية التى خرجت من أب واحد وأم واحدة من يد الله.

بيرون- القاهرة- يوليو ١٨٤٥.

---

[1] سبق وان اشرنا الى ان الاسلام قد حارب الرق بكل انواعه، و لم يقر سوى رق الحرب، وهذا أيضاً ضيقة لابعد الحدود، لكن المترجم يتحدث بلسان الغافل بتعاليم الاسلام، وبلسان حال المسلمين فى هذه الفترة التى يمارسون فيها الرق، وهم بذلك يخالفون تعاليم الاسلام الواضحة فى هذا الامر، وبالتالى فان النقد يقع على هذه الشريحة من المسلمين، وليس على الاسلام، ورسول الانسانية صلى الله عليه وسلم الذى بلغ رسالته وأدى امانته، وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لايضل عنها الا هالك، وهذه الشريحة تمارس الرق بايعاز من الأوربيين وتشجيعهم لأن الأوربيين هم الذين يشترون الرقيق الافريقى من شواطىء البحر المتوسط ويشحنونهم الى أوربا وامريكا.

مقدمة السيد/جومار:

ملاحظات عامة:--

ان الواقع الحالي للجزء الشمالي لافريقيا والسودان الشرقي لجدير بالتدوين في كتاب مثل كتاب (الرحله الي وداي) الرحله التي قام بها قبل سنين عديدة الشيخ محمد التونسي أحد علماء القاهرة والذي قام ايضاً بكتابة كتــــاب (الرحلـــة الـــي دارفور) والذي قام بترجمته الدكتور "بيرون" وظهر في عام ١٨٤٥م وعلــي ذات المثابرة ، فنحن مدينون له بهذا الكتاب الأول ، ولكنه قرر ايضــــاً ترجمــة هــذا الكتاب ، لأن هذا الرحالة قد بقى فترة من الزمن ، حيث كتب اهتماماتــــه الدينيــة وتسجيل مذكراته.

حقيقة بفضل هذا العالم المستشرق اتيحت لنــا الفرصـــة لمعرفــة الحالـــة العسكرية والمدنية والسياسية لمملكه كبيرة في السودان كانت مجهولة الي يومنـــا هذا ، وسوف نعرف أيضاً عن مناخها وثروتها. وكذلك عن الاخلاق والتـــاريخ ، وبدون اي شك فان الشيخ يكشف لنا الوجود الحقيقي لوداي ، وهنالك حقيقة يجب ذكرها. وهي: اننا في اوربا لم نعرف شيئاً عن هذه المنطقة الا اسمها قبل"برخارد Borchard" ويرجع الفضل الي هذا المراقب الذكي والممتاز الذي عرفنـــا بـــهذه المنطقة ، ولم يحدثنا عن العلاقات بين الطبيعة و السياسة إلا بقدر جذب الانتبـــاه لمزيد من المعرفة ، فعندما ذكر" برخارد" الجغرافيين والعلماء "وداي" ، فانها لـــم تكن ذات شهرة مثل دارفور ، ولم يذكر "براون Brown " الـــذي قضـــي ثـــلاث سنوات في دارفور الا اسم "وداي" بل كان هناك رحالـــــه آخـــرون مـــن امثـــال "هورنمان Hornman " "ودي ستزن DeCitizen " "ودي ليـــون DeLione " "ودي انهام DeEnham" ، واخرون زاروا المنطقة ولم يتحدثوا عن وداي أبداً ، وفـــي تلك الفترة فان الموقع الجغرافي لوداي يرشحها لان تلعـــب دوراً فـــي العلاقـــات التجارية ، والاحداث تؤكد ذلك ، فقط كانت تحتاج الي فرصه تحملها الي الساحة التجارية خاصة وانها قد قامت بهذا الجانب التجاري ، وكانت دارفور منذ قـــرون

عده تصدر الي مصر منتجاتها الزراعية ، والبضاعة والعبيد ، وكان كل العـــالم يعرف قوافل دارفور والتي كانت تضم آلاف الجمال ، وتدر الملايين من الاموال كعائدات لتلك البضائع .

وكانت مملكة وداي بعيده كل البعد لتنافس دولة الفور ، ومن ناحية اخري كانت الحروب بين الدولتين تمنع الوداي من تصدير بضاعتها مع الفور لتصل الي شواطيء النيل ، وكانت الفرصة غير المتوقعة هي الغزو الفرنسي لمصـــر عـــام ١٧٩٨م وطرد المماليك وقواتهم نحو الصعيد ، حيث توغلوا جنوباً الي مـــا بعـد الشلال الأول وبدأوا ببلاد النوبة ودنقلا وحتي سنار وكردفان وكان يمكنهم البقـاء فيها لولا تهورهم في العودة مرة أخري الي مصر لينازعوا محمد علي الحكـــم ، حيث اصبح الوريث للجيش الفرنسي بخطأ مفاجيء وبدأ في تكوين الجيش وطرد المماليك للمرة الثانية ، حيث استقر جيش من المصريين في ســـنار وكردفـــان ، وكانت هناك شبه حرب مع الدولة المجاورة ، فكانت تجارة دارفور مع القاهرة قد تدهورت او قد توقفت تماماً ومنذ ذلك التاريخ بدأت العلاقات التجارية بيـــن وداي وفزان ثم مع طرابلس وبنغازي ، واخذت القوافل تسلك طريقين جديدين ، حيـــث استقبل البحر المتوسط وأوربا ولأول مرة بضائع مباشرة مـــن وداي ، بـدون أي واسطة ، وسوف نستعرض التفاصيل حول النقاط الأتية:

<u>التاريـــخ:</u>

يجب ان ابين هنا صدفة تاريخية مهمة ، وهي انه في الوقت الذي ظهر فيه علي ضفاف النيل رجل خارق وهو المسمي محمد علي ملك مصر ، في نفس ذلك العصر أي عام ١٨٠٤م ظهر في وداي السلطان عبد الكريم صابون وكان ينتمي علي حسب معلومات الراوي الي الجيل السادس من أبناء السلطان الأول لهذا البلد صليح او صالح الذي أقام الإسلام وأقام الحكم الوراثي فيها ، وقبل ذلـــك كـــانت وداي مملكة وثنية مثل ممالك الفرتيت والجناخرة وغيرها من القبائل الجنوبية .

أما فيما يخص السلطان صابون فقد اشتهر خلال فترة حكمه الـــذي اتســـم بقصره وبريقه وقد اشتهر بصفات يشترك في بعضها مـــع محمـــد علـــي منـــها

الصرامة والذكاء والاستقامة والحكمة واخيراً الرغبة في التميز وأحياناً استعمال بعض الوسائل القاسية. كان السلطان صابون أصغر سناً من محمد علي ، وقد وصل الي الحكم قبله بقليل ، ومات قبله أيضاً ، كان صابون يهتم بالتجارة مثل محمد علي ، ويبعث بالقوافل الي مصر كما بعث اليه بالهدايا للاستقبال الذي وجده تجار الوداي بالقاهرة فقامت علاقات إخاء بين الاميرين ، وعندما اشتدت مؤامرات الفور قبل مجيء محمد علي بقليل ، أرسل محمد علي بجيش الي كردفان فاصبحت دار فور بين قوتين عدوتين لها ، فأصبح من الصعوبة بالنسبة للمسافرين الدخول أو الاقامة في دار فور ، ومثل مارأينا في كتاب الرحلة الي دارفور "أن هذا الوضع قد استمر بالرغم من موت أبي مدين[١] وموت محمد علي.

ان السلطان صابون ترك سمعة بأنه سلطان ذكي عادل وحكيم وانه رجل ذو بأس شديد، ورجل حرب بل رجل خير وكرم، وقد اخمد وبقوة أثناء حكمه النهب بعض القبائل، وباتفاق مع سلطان برنو فقد قام بحملات ضد الباقرمي، بقصد تأديب السلطان بسبب جبروته وسوء أخلاقه وأخيراً أرسي السلام في طرق امبراطوريته.

وهذه بعض الصفات التي يختلف فيها محمد علي، وانني اعتذر للقارىء بأن أتحدث عن هذه المواضيع، برغم من انني كنت متحفظاً لوجود الاختلاف بين الرجلين وبين الدولتين.

إن تلك الاحداث الكثيرة والتي لا نعرف عنها الكثير، قد رواها الشيخ محمد التونسي وهي احداث كثيرة وعجيبة، أخذها شخصياً من وداي عندما اقام فيها فترة طويلة، وقد أخذ تلك الروايات من ابطالها انفسهم، وذكر لنا مجموعة من الاحداث اظهرت لنا الانسان والمكان بألوان زاهية، إن مؤلفنا قام بتعريف أصول الاسرة المالكة في وداي علي الأقل منذ زمن السلطان صليح، والذين خلفوه: عروس

(١) أبو مدين : هو الامير محمد ابو مدين بن السلطان عبد الرحمن الرشيد ، واخو السلطان محمد فضل، تربى بمصر مجهولاً، اختلف مع اخيه في الحكم وهرب الي كردفان ومنها الي القاهرة عام ١٨٣٤م حيث وعده محمد علي باشا بالانتقام له من أخيه بتسيير حملة الي دارفور وتنصيبه سلطاناً عليها الا ان الحملة لم تتم وتوفي ابو مدين في ظروف غامضة .
ينظر: تشحيذ الأذهان ص ٣٤١.

الكبير، عروس الصغير، جودة، صالح، وأخيراً في حوالي عام ١٨٠٤م أو ١٨٠٥م برز السلطان محمد عبد الكريم الذي لقب بصابون، هذا الامير قد مات ميتة شنيعة عام ١٨١١م علي حسب رواية الشيخ، ولكن رواية برخارد تشير الي انه مات في بداية عام ١٨١٥م، حيث أن عام ١٨١٦م كان يحكم فيه يوسف عبدالقادر بن صابون الملقب بخريفين، وبعد ذلك حكم راغب بن صابون، ومحمد شريف أخ صابون، ان هذا الاخير لم يستول علي الحكم الا بمساعدة أمير دار فور السلطان محمد حسين، وقد قام بحملة ضد البرنو ويقال ان السلطان محمد حسين كان يحكم بالعدل ولكن يجب ان يشار الي انه لايزال يوجد هناك من يطالب بالعرش وهو ابن لصابون وهو ابنه الأول، وقد ارسله الي القاهرة وعمره ثلاثة عشر عاماً لتلقي العلم هناك، وكان السلطان صابون الذي كان بدوره عالماً أراد ان يتلقي ابنه العلم من علماء الأزهر المعروفين بغزارة العلم، ولكن الأمير الشاب بعد الف جولة لم يصل الي القاهرة الا في عام ١٨٢٧م أي بعد احدي عشرة سنه، من مغادرته وارة، وفي هذا الموضوع يجب قراءة مغامراته التي دونت في كتيب غير معروف لدي الكثيرين، وادين فيه بالفضل للعالم السيد: رينوار Renurar (سكرتير الجمعية الملكية الجغرافية بلندن) والذي سمي:

The story of Jafar son of the sultan of wadai, First published in the United kifgdum, jornal, for march, April and may, London, ١٨٥٠.

قصة جعفر بن سلطان وداى، الطبعة الاولى، المملكة المتحدة، جورنال مارس، ابريل، ومايو، لندن ١٨٥٠م.

فبدل أن يرسل السلطان صابون ابنه عبر طريق النيل الى القاهرة، فقد أرسله الى بنغازى عن طريق الصحراء، أى الى الشمال مباشرة، وكانت ترافقه قافلة قوامها خمسمائة جمل، ولكن الامير الصغير قبض عليه وعذب من قبل باشا طرابلس، ومن طرابلس قام الامير بعدة محاولات للوصول الى هدفه، ولخيراً وبفضل الحماية الانجليزية استطاع أن يصل الى مصر.

ومن ناحية اخرى علمنا من مذكرات لم تكن ذات طابع فضولـــي، ولكنـــها كانت ذات طابع علمي، والتي كتبها:"فلجانس فرسنل" Filgas Fersenal أن ولـــي العهد جعفر بعد محاولات عدة للاستيلاء على الحكم من عمه السلطان شريف قـــد انسحب الى دارنقا عام ١٨٤٦م ثم سافر الى دارفور عام ١٨٤٩م وكان دائماً في انتظار استرجاع العرش الذى كان مستحيلاً.

والحديث عن البائس جعفر يقودنا الى الحديث عن علاقاته بوداى ليس فقط لانها تساعدنا في معرفة الاسرة التي قدمت بالوراثة تسعة ملوك للدولـــة، ولكـــن عندما نتابع مذكرات جعفر تجدهم ثلاثة عشر ملكاً. وعلى الرغم مـــن ان الامـــير جعفر قد سلك طريق وداى البحر المتوسط بامر والده قبل حوالى خمسة وثلاثيـــن عاماً وهذا الطريق غير امن الا انه يؤكد لنا الاهمية التى كان يعطيـــها الســـلطان صابون لهذا الطريق منذ أمد بعيد، وبالطبع يجب قطع الصحراء الصعبة والتـــي كانت مليئة بقطاع الطرق ويمكن للانسان أن يعرض نفسه للعطش، ولكـــن هـــذا الطريق كان قصيراً، ويذكر احد الرواة بانهم كانوا يتلقون مكافات عندما يمـــرون بفزان، وايضا عند الوصول الى بنغازى، ومن هنا يمكن للمـــرأ أن يســـافر عـــن طريق البحر الى الاسكندرية أو الى طرابلس، ولكن كما ذكرت ذلك سابقاً، ليست هناك مقارنة مع قوافل دارفور والتى تسافر الى النيل مباشرة منذ زمن سحيق.

الفلاتة والوهابية:-

قلت ان هناك تشابهاً بين الاحداث في مصر وفي وداى، وهناك ملاحظـــة اخرى لاتقل اهمية، بان هناك أحداث وقعت في نفس الزمن تقريباً دعوتـــي اقـــوم بمقارنة اخرى كما فعلها الشيخ محمد التونسي، وكانت لها اهميـــة كـــبرى مـــن الاصلاح التجارى والسياسى، ذلك هو الاصلاح الدينى الذى ادخل عـــن طريـــق الفلاتة او الفولة وكان الاثر فى انشاء امبراطورية الفلاتة، حيث ظهر فجـــاة فـــى نهاية القرن فقيه من بلاد الفلاتة يدعى الزاكى، كان يعيب على رجـــال الدولـــة، وبصفة عامة على كل الناس في السودان بأنهم قد تخلوا عـــن الطريـــق القويـــم

والسوى للاسلام، وتبعوا الطريق غير السوى، فانهم يشربون الخمر، ويمارسون عادات بعيدة كل البعد عن مبادىء القرآن، انها تقريباً نفس الاشياء التى كان ينتقدها الشيخ محمد بن عبدالوهاب ويأخذها على مواطنيه في نجد، والذى كان المؤسس الاول للطريقة الوهابية، وكان كل من محمد بن سعود ومن بعده ابنه عبدالعزيز كانا قائدين للجيش الذى كان يحتاجه المصلح محمد بن عبدالوهاب لنشر فكرته النقية، ان فتوحاتهم في الجزيرة العربية قد ازدادت في نهاية القرن الثامن عشر، ولخيراً وقعت مكة المكرمة في يد سعود بن عبدالعزيز يوم ١٨٠٢/١٢/٢٥ الموافق عام ١٢١٧هـ، ووقعت المدينة المنورة عام ١٨٠٥م، ولكن الفلاكى الزاكي اعلن عن فكرته الاصلاحية في السودان عام ١٨٠٠م، وقد جمع جيشاً كبيراً واستولى على دار ميلا، ومينا، وكشنا، واقنو، وأقدس، وبرنو، أى كل بلاد السودان تقريباً وقد توقفت فتوحات الفلاتة في بلاد البرنو عندما انتصر على الزاكي الشيخ محمد الامين الكانمي، الذى لجأ اليه سلطان برنو.

وهناك سقوط سعود بن عبدالعزيز امام بغداد في عام ١٨٠٨م، ومنذ عام ١٧٩٩م الى عام ١٨٠٥م مدد الوهابيون الاصلاحيون فتوحاتهم واستولوا على الحجاز ونجد واقاموا المملكة وهزموا الدولة العثمانية، كما نجد في الفترة من عام ١٧٩٩م الى عام ١٨٠٥م استولى الفلاتيون الاصلاحيون على ستة ممالك في السودان واسسوا دولتهم الكبيرة، ان الوهابيين قد سبقوا الفلاتة واستمروا في الحرب بعدهم، ولكن الوهابيين لم ينشئوا نواة قوة سياسية[1] ، اما الفلاتيون فقد استطاعوا ان ينشئوا امبراطورية قوية تشمل اجزاء كبيرة من السودان، تمتد من

(١) لا اتفق مع كاتب المقدمة فيما ذهب اليه من أن الوهابيين لم ينشئوا نواة لقوة سياسية، فقد استطاعوا منذ أول يوم بايع فيه السعوديون الشيخ محمد بن عبدالوهاب تكوين النواة السياسية للمملكة السعودية واستطاعت بذلك ان تنتصر على أعدائها حرباً وسلماً، حتى نشأت مملكة قوية تفجرت على ايديها ثروة البترول التي عم نفعها كل العالم الاسلامي وغير الاسلامي وتوحدت على يديها شعوب منطقة الجزيرة العربية لأول مرة في تاريخها، وأصبحت المملكة السعودية اليوم غرة في جبين الدول الاسلامية والعربية استقراراً ونماءً، بينما سقطت دولة الفولاني منذ نهاية القرن التاسع عشر على يد الانجليز، وتفتت دولتهم لتصبح ولاية ضمن ولايات دولة نيجيريا الفيدرالية وانتشر الفولاني في كل انحاء افريقيا.

تنبكيو الى برنو، الى الجزء الاوسط من افريقيا جنوب الصحـــراء والتـــي ســبق تعريفها في بداية الكتاب.

ومن ناحية اخرى فان قبائل من الفلاتة قد استقرت في وداى ودارفور، وقد خرج من تلك القبائل رجال مؤثرون بكفاءتهم ونكائهم، وقاموا بســـهام فـــي تلـــك الممالك، ولعلنا نتفق على الاعتراف بكفاءة رجال تلك القبيلة، وقد عرفنا ذلك مـــن خلال سفر كلابرتون، وايضا من تقرير السلطان بيلو سلطان سكتو، ويبدو انه من خلال حكم الذين اتوا من بعد لم تنحط الامبراطورية كثيراً، وعندما ننظر الان الى زمن الحملة الفرنسية لانستطيع الا أن نقول: ان تلك الاحداث وقعت خلال او بعد تلك الحملة.

كانت تلك الهزة التى احدثها وجود قوة عسكرية كبيرة على ضفاف النيـــل وفي العالم الاسلامي قد أعطت الاشارة والقوة الروحية للاصلاحيين أن يتحركـــوا في ان واحد، في الجزيرة العربية وفي افريقيا، ويلاحظ أنه منذ عام ١٨٩٨م ومنذ وصولى الى القاهرة، فان الجنرال بونابرت قد فتح علاقات اخـــوة مـــع ســـلطان دارفور من ناحية، ومع شريف مكة من ناحية اخرى لكى يضمن لمصر علاقاتها التجارية ورفاهيتها، وفى نفس الوقت لتعطيل او تحذير العدوان الدينى، وهذا يعود الى الحكمة والنباهة اللتين يتمتع بهما الجنرال بونابرت، من يستطيع ان يقـــول أو ان يقود هذا الاتصال الازدواجى فى الجزيرة العربية وافريقيا، ولم يمـــر علـــى وصوله الا اربع سنوات فقط، وهل الاحداث ستسمح لخليفته أن يتابع هذه السياسة.

العادات والتقاليد:-

إن الوثائق التاريخية لمؤلفنا بالرغم من حداثتها الا انها لاتمثل نفس الاهمية بالنظر اليها من ناحية العادات والتقاليد، ووضع المرأة والحالة العسكرية، القبـــائل المختلفة والسكان بصفة عامة واخيراً الرق كما كان موجوداً.

وفي كل الاحوال المذكورة فان علاقات الشيخ قد نتج عنها ملاحظات كثيرة لم تكن متوقعة من اتباع محمد[1]، وهذا الشيخ بطبيعة المسلم المتحمس ان يصبح مصلحاً يستجيب لرغبات حب استطلاع الاوربيين.

وكان هناك في وداي عادات وتقاليد لاتخلو من الغرابة، وسأذكر مثالاً وحداً لذلك، فقد كان في قصر السلطان سبعة ابواب تؤدي الى غرفة السلطان والتي يعقد فيها الجلسات، فاذا كان هناك زائر الى مجلس السلطان يطبق عليه هذا القانون، مهما كانت مكانته حتى على الوزير الاول، فعلى الزائر ان يترك في كل باب قطعة من ملابسه:

في الباب الاول يترك حذاءه، وفي الباب الثاني يترك عمامته، ثم يترك قميصه، ثم طربوشه الى اخر ذلك، وعندما يصل الى الباب السابع قد يصل عارياً تماماً أمام السلطان[2]، وكان هناك حجاب تحجب السلطان، وهذه القاعدة انشئت لحمايته.

اذا استجوب السلطان شخصاً ما يجب عليه أن يجلس القرفصاء ويصفق بيديه، ويتمايل يميناً وشمالاً الى ان يمس بجبهته التراب ويقول: اطيع سيدي وسيد والدي وسيد جدي.

كل الاحتفالات كانت تصاحبها الات ولاتخلو من الصخب، فالالات الموسيقية كثيرة وتصاحب جميع الاحتفالات مدنية وعسكرية، كان الموظفون الكبار وضباط العرش وغيرهم من الموظفين كانوا بأعداد كبيرة في وارة.

والذي يجب ملاحظته هو نظام التفتيش المعمول به في وداي، فكل موظف يجب ان يخضع للتفتيش من مفتشين مختصين، وهؤلاء يؤدون مهامهم بفعالية ويظهرون الحزم والشدة عندما يكتشفون ان هناك تجاوزاً او جرماً.

---

(1) يقصد الكاتب باتباع محمد" المسلمين وهي عبارة يقصد بها الطعن في ممارسات المسلمين من اهل السودان، خاصة فيما يخص تجارة الرقيق كما سيأتي.

(2) ورد في نص المخطوط بان الداخل على السلطان يخلع ملابسه تدريجياً حتى اذا ماوصل الباب السابع لم يبق له سوى السروال، فيأخذ ملابسه المخلوعة ويحزمها ثم يبدأ برنامج المقابلة.
ينظر: المخطوط ص ١٣٧.

اما عن وضع الرقيق فيجب أن نقارن بين مذكرات الشيخ وملاحظات الرحالة الاوربيين، فقد كان صيد العبيد يمارس في جنوب وداى عند الجناخرة، مثلما يفعل في جنوب دارفور عند الفرتيت، وكان هذا الصيد ينظم بطريقة منظمة وقانونية، وكان السلطان يستخرج رخص الصيد مثلما يستخرج التصريح في اوربا لصيد الارانب او الايائل ومع ان هذا العمل البشع الذى يمارس ليس له مايبرره فان الشيخ الجليل وجد المبررات للاستعباد وتجارة الرقيق، وكانت من ضمن مبرراته أن الحرب التى كانت تشن ضد السود ماكانت الا لانهم كانوا أقواماً مجوساً وثنيين، انهم اناس لم يعتنقوا بعد الايمان الحقيقي، وذلك لان النبي صلى الله عليه وسلم قد اباح استعمال القوة لادخال الناس في الاسلام[1]، وهذا هو السبب الوحيد الذى ادى الى تطبيق هذه القاعدة، أى خطف ملايين البؤساء ونقلهم الى كل اجزاء الارض، وكانوا يتركون ثلاثة ارباع هؤلاء في الطريق، ويبيعونهم ويشترونهم مثل الحشرات النجسة، وهذا العمل يمارس قبل قرون دون أن يتوقف الجلادون، ودون ان يقاوم الضحايا[2].

وعلى كل يجب أن نذكر ان رحالتنا يشجب الهجوم على الكفار قبل دعوتهم لاعتناق الدين المحمدى، ودون ان توجه اليهم انذارات متكررة وهذا لايمنع بأنه عندما يقبض على هؤلاء فان بيعهم حلال دائما لانهم وثنيون وبدون شك فان هذه

---

[1] إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأمر المسلمين بادخال الناس بالقوة في الاسلام بهذا التصميم المفروض، فالاسلام يقرر بأن "لا إكراه في الدين" ولم يخالف الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الامر وسار على هديه المسلمون من بعده ولهذا عاش المسيحيون واليهود والوثنيون في بلاد الاسلام ولازالوا دون رهبة او خوف، ولكن المستشرقين يرددون هذه المقولة بأن الاسلام ينتشر بالسيف فقط وذلك لتشويه صورته وعقائده والتشهير بأهله.

[2] في هذه السطور يتحسر الكاتب ويتألم من تصرفات المسلمين الافارقة إزاء الرق وتجارته، وعلى الرغم من ان تجارة الرق كانت قائمة خلال هذه الفترة الا ان المسيح كانوا يمارسونها وكان الاوربيون في مقدمة تجار الرق في افريقيا، وهم الذين قننوا هذه التجارة وروجوا لها في كل القارات ونقلوا الافارقة كعبيد الى الاراضي الجديدة في الامريكتين وجزر الهند الغربية واوربا واستمرت هذه التجارة الرائجة لاكثر من ثلاثة قرون حيث بدأت في حوالي القرن الرابع عشر الميلادي ولم تتوقف الا في بداية القرن العشرين، حيث أفرغت افريقيا من شبابها وتركت للجهل والتخلف والمرض حتى اليوم، وبالتالي فان محاولة الاوربيين اليائسة لالصاق تهمة الرق بالاسلام والمسلمين هي محاولة مفروضة لتمسح تاريخهم الكريه مع الافارقة. وهناك حقيقة يجب أن نعرفها وهي أن بعض السلاطين والتجار المسلمين في افريقيا قد مارسوا هذه التجارة ولكن هؤلاء لايمثلون كل المسلمين فهم قلة قليلة، وامرهم هذا يخالف الاسلام؛ لان شر الناس من باع الناس، ولهذا ينبغي التفريق بين روح الاسلام وممارسات بعض المسلمين كما ان فعل هذه القلة لايمكن تعميمه، كما انها اذا قارناه بعمل الاوربيين نعده كالقطرة في بحر.

هي نظرته للامور، وفي اثناء سفره وجد البربرية في بعض الممارسات، فمثلا اذا اشترى احدهم عبداً بمال كثير، فخوفاً من أن يهرب يقيده في الليل فيربط قدميه بحبلين ويضع في عنقه الجنزير على وتد مثبتة في الارض وقد اعترف الشيخ محمد التونسي نفسه بانه تعب من ممارسة هذا العمل والشيخ محمد التونسي هو رجل ممتاز وحكيم ووفي لدينه، ان الفكرة الحكيمة لرحالتنا تنعكس في تصوره للحالة الاخلاقية للمسلمين وقد اعلن ان الثقافة العلمية والفنون لاتتعارضان مع الدين المحمدي ولامع الورع والتدين الصادق وهو معجب بالحضارة الاوربية، وبطريقة الاوربيين في العمل والصناعة والفنون لاجل تطور الانسانية، وفي رأيه انه يمكن للشرقيين ان يتعلموا الدراسات العلمية دون المساس بالعقيدة، وقال: ان العلماء كانوا مخطئين عندما ابعدوا الحضارة الغربية وحددوا رفاهية المسلمين في الماديات والرغبات الشنيعة، وتركوهم في ظلمات الجهل، وهنا نعترف بأن التفكير والسفر قد أثرا في تكوين وتاهيل هذا الرجل، واستطاع أن يحب الحضارة الحديثة دون ان يغير من عقيدته الدينية، ودهشنا عندما عرفنا ان السلطان ينجذب للحداثة وفي نظام دكتاتوري مثل نظام وداي، والمؤلف قد ذكر أمثلة لماحصل لصابون نفسه السلطان غير العادي: منها:-

ان يوماً ما اراد أن يغير الموازين، ثم فيما بعد صاغ عملة، وكلا الشيئين ذات فائدة، ولكنه أجبر على تركهما وكان الراي العام قد ثار ضد هذه الفكرة وشكل خطورة لصابون لمقاومة هذه الثورة، ودخل الشيخ في تفاصيل كثيرة فيما يتعلق بوضع المراة في وداي، وقد تكلم عن زينتهن ودلالهن، وكذلك تكلم عن الاشغال الشاقة التي كن يقمن بها في الريف، وقرأنا بكل دهشة مذكراته عن التعذيب الذي كانت تتعرض له النساء المتزوجات الزانيات، واترك الفرصة للحكايات الماجنة وبعض اللوحات التي نجدها مكررة نوعاً ما وفي اكثر من مكان.

عند الفرتيت المجوس توجد هناك موانع قاسية فيما يتعلق بالزواج، أدهشت الشيخ نفسه، مثلا، ان الزواج غير مسموح به بين الاهل والحلفاء مهما كانت درجة القرابة، ولايستطيع الرجل الزواج ببنت عمه، وهذا الزواج يجيزه الاسلام،

وهذه الممارسة على قول الشيخ يجب أن نتذكر اذا تذكرنا جـــهل هـؤلاء القـــوم المتوحشون ونظرنا الى ممارساتهم اليومية ان كلا الجنسين عاريين تمامـــا مـــن الملابس.

فيما يتعلق بالزواج عند الوادى فان الشيخ قد ذكر بعض المعلومات المنفرة منه، فان دوائر القضاء بسيطة جداً ولكنها صارمة للغاية فان احكامها لاتســتأنف، وعندما يصدر الحكم فان السلطان نفسه لايستطيع تغييره، اما الاحكام التى تصدر ضد المجرمين فان القائمة طويلة جداً ومخيفة، فان التعذيب مخيف بل هو أصعب مماهو فى الصين، بل الواحد يشمئز من تعددها وفى نفس الوقــت لانســتطيع الا الدفاع عن هذا القانون الظالم ونحن فى ذلك المكان البعيد عملنا ان لانكون بعيدين كل البعد عن الحضارة وقد شعرنا بالاهمية ليس فقــط ان نذكــر بــالخوف هــذا المنحدر السحيق بل بكرج هذه العقوبات فهناك عقوبات خاصة لبعض الجرائـــم، مثال واحد لذلك وهو حالة الدائن الذى يتأخر فى سداد ديونـــه، ولنــترك للشيــخ براعته تحكى حتى لاتدخل الشك فى هذا المثال.

"عندما يلتقى الدائن مع مدينه الذى تاخر عن الدفع يامره باسم السلطان أن يتوقف حالاً فى المكان الذى وجده فيه، ويقوم برسم خط حول المدين الذى لايســتطيع أن يغادر المكان مهما كانت الظروف ويظل فى هذا المكان الى ان يقوم بسداد دينه او ان يضمنه احد اصدقائه ويلتمس له الرحمة، والويل لمن يهرب، والويـــل ايضـــاً للدائن الذى يحبس شخصاً دون سند حقيقى ســـارى المفعـــول، وهـــو مـــايعرف بالخيانة.

وحسب كلام الراوى فان الوداى رجال شجعان ويتقدمون كثيراً على الفور فى البسالة وهم يتسابقون الى الموت دون تفكير فيه، وهم يلاقونه دون خوف، وقد ذكر كثيراً من امثلة الشجاعة فى كتابه، والشخص الذى يظهر الخوف فى الحرب يجلب اليه كراهية النساء ويجد صعوبة فى الزواج، وبـــالرغم مـــن ان طبيعتـــهم توصف بالشجاعة الا ان لديهم عادات وتقاليد يميزون بها الشجعان، وهذه العـــادة تتمثل فى تثبيت المحاجم تحت الاذنين وينفخ فى هذه المحاجم حتى يظـــهر علـــى

الجسم تتوء يشبه فاكهة الدوم، وتسمى هذه بدومة الشجاعة، وهذا العمل يمكن أن نقارنه بما نلاحظه عند الغال[1]، فعندما يبرز احد الشباب الغاليين شجاعة في القتال، او في صيد الاسود او الحيوانات المتوحشة الاخرى فقد يتلقى حلقة يلبسها في اذنه الشمال، وحلقتين اذا اظهر شجاعة اكثر من مرة.

ان جيش وداى لهو اقل بكثير من جيش دارفور، ولكنه مدرب للغاية وعلى استعداد دائم حتى ولو لم يكن السلطان في حالة حرب مع جيرانه، ان الاسلحة والدروع مصانة دائماً، وامور الحرب تحددها القوانين العسكرية، ولكننا نلاحظ ان هناك استراتيجيات فطرية، لهذا فان في افريقيا مثلما في كل العالم كانت فنون الحرب دائماً متقدمة والحرب دائماً تصاحبها الموسيقى والالات والاغاني الحربية، والشيخ قد حفظ كثيراً من تلك الاغاني، ونستطيع أن نقرأ في كتابه أغاني كثيرة للوداى وكذلك وصف الالات الموسيقية المستعملة ونلاحظ ان معظم الاغاني دونت بدقة بعد سماعها، وهناك أيضاً عادة حربية جدير بنا ان نذكرها، الا وهي المبارزة في صراخ خاص، وهو نوع جديد تماماً، ذلك اذا كان هناك شتم أريد الثأر فيه، او نزاع بين رجلين أراد احدهما الانتقام من الاخر، يناديه اثناء المعركة بان يخرج اليه، للمبارزة، فان رفض الخروج أو تراجع او هرب، يكون قد فقد شرفه وضاع، وعلى زوجته أن تطلب الطلاق منه، ولايجد احداً أن يعطيه ابنته او اخته للزواج منها، وهذه القاعدة تطبق أيضاً على المتنافسين في وظيفة الدولة في حالة خلع احدهما، وتولية اخر مكانه، فيضمرها المخلوع في نفسه الى أن تقوم الحرب فينادي غريمه الذى خلفه ويتحداه ان يقاتل في الحرب ببسالة حتى يفدى وظيفته، فان لبى النداء وحارب بشجاعة يكون قد سدد دين الشرف وفدى وظيفته، وبالتالي تتوقف المنافسة نهائياً، واذا حدث العكس، بأن دعى ولم يقاتل ببسالة ولم يقبل التحدى يخلع من وظيفته ويجرد من مسئوليته وتعطى لغريمه بل اذا هرب

[1] الغال: أو الغالة، من القبائل الاوربية القديمة، وكانت تقطن فيما يعرف بفرنسا الآن وقد كانت فرنسا تسمى بلاد الغال وعقب النهضة الاوربية فر الكثيرون منهم الى الارياف واصبحوا يعرفون عن معان الاصالة والشجاعة التي برزت في اوروبا خلال العصور الوسطى.

من عدوه يمكن لغريمه أن يقتله دون عقاب يناله وهذا هو الشرف عند هؤلاء الرجال أشباه الوحوش وبهذه الطريقة فان الصراعات والمبارزات الخاصة كلها ترجع للوطن وشرف الوطن كما قال الشيخ هناك أيضاً عادة أخرى يجب ملاحظتها عند الفرتيت وهم شعب وثنى كما ذكرت من قبل، فمن هؤلاء من يبنى مسكنه الطبيعى فى الاشجار، داخل جذوع الشجر، وقد يحملون الى بيوتهم غذاءهم من الحبوب، ولكى يبنوا هذا الكوخ يتخلصون من الفروع التى لم تكن ذات قيمة، ويقيمون لها ارضية وسقفاً ومن ثم الحجرة، ومن الافضل لهم أن يخفوا كل معالم السكن وقد يتعجب بعض الناس من هذا الفعل، وهنا نجد تشابهاً بما يحدث لهؤلاء مع مايحدث في جزيرة فيجي وفى دلتا الاورنيوك، والهدف الاول للفرتيت هو الهروب من صيادى البشر وربما الهروب من الحيوانات المفترسة التى تتواجد بكثرة عندهم.

أن الصناعة كما فهمنا كانت متقدمة فى وداى، والسكان المحليون يصنعون أشياء صغيرة، معظم المنتجات الغذائية كانت تدخل عن طريق التجارة، اما عن الزراعة فهناك فنون كثيرة فيها، اما الصناعة فهناك الغزل وصناعة أقمشة القطن، وهناك ورش الصناعة الحديد، وتذويب المعادن، وأخرى لصناعة الادوات الزراعية والسلاح النارى والاقواس والسهام والدرق والحراب.. وكان هناك ايضاً صناعة تلوين الملابس.

اما التجارة فكانت متقدمة جداً خاصة الاستيراد، وكانوا يصدرون الصمغ العربى، العاج، التمر هندى، ريش النعام، السنسنة، والجلود التى تصنع منها القرب، وأخيراً هناك تجارة الرقيق، التى تمارس بكثافة أما البضائع المستوردة، فمثل الزجاج، المرجان، الطرابيش، الاقمشة القطنية المختلفة، الملايات، والحرير الى غير ذلك، ويستوردون أيضاً النحاس الاحمر والاصفر، والقسطير، البن، الصابون، التباكو، الكبريت، الملح، الامواس، السكاكين، السروج، وأيضاً الورق، وبعض الكتب الدينية، والات الكتابة، وأخيرة العملة، وخاصة القرش الاسبانى، ويسمى عندهم الريال أبو مدفع كما هو الحال فى مصر، لانهم يشبهون اعمدة

هرقل التي على القرش بالمدافع، واستيراد العملة كانت التجارة التي تــدر ربحــاً كبيراً، كما يفعل كاتب علاقات الامير جعفر.

ويوجد بين الطبقات العليا في وداى من يكتبون بالفارسية، وهو كما يقــول الامير، يرجع الى اصولهم الفارسية وهذا كلام غريب، وقــد رفضــه المؤلــف الانجليزى ولكن يبدو ان الشيخ التونسي قد ايد هذا الكلام عندما ذكــر أن قبيلــة العريقات التي تسكن جنوب وداى يقال أن اصولها عراقية، ومنها جاء اسمهم، اذن كلام الامير جعفر لم يكن عبارة عن حدوتة، من ناحية اخرى فان الشيخ تكلم عن رغبة عدد من امراء الوداى في العلم، وخاصة السلطان صابون، الذى كان يفضل الاطباء والعلماء، وهذا هو السبب الذى جعله يستقبل كاتبنا ووالده بكرم خــاص، وهنا اريد ان أقول: ان كلمة عالم أو علماء تعني الرجال الذين كتبوا فــي الفقــه الاسلامي.

اما عن اللغة التي كان يتحدث بها في وداى فقــد وجدهــا الشيــخ خشنــة وفقيره، وانها في تغير دائم، كما انها تباين لهجات ولغات الامم والقبائل القريبــة منها بل الاختلاف بين اللهجات عامة حتى بين القبائل المتلاصقة وسنجد في نهاية ملاحظات الدكتور بيرون، أن لغة الوداى لها مفردات كثيرة جداً تتفرع منها عدة لغات مثل لغات، دارفور، لغات فرتيت، لغات البرنو، لغات الباقرمي، ولغات بلاد التبو.

<u>الجغرافيا:-</u>

تحدثت قليلاً عن الزمن الذى بدأت فيه اوربا معرفة وداى واضف الى ذلك احداث كثيرة: فقد ذكر لي احد الشباب المســتشرقين ويســمى بروســتر روزى، والذى ذهب الى السنغال عام ١٨١٦م ومنها دخل الى افريقيا الوسطى عن طريق شبه طريق منجو بارك[1]، وقد ذكر لي طريقاً يؤدى من شينو بولى الى مكة، أن هذا الطريق يمر ببرنو، كوكا، باقرمي، وداى، دارفور، كردفان، ثم سنار ثم شمال

---

(1) منجو بارك: رحالة فرنسي جاء الى القارة الافريقية وكان مهتما بنهر النيجر في غرب افريقيا وهو الذى اكتشف منابع نهر النيجــر العظيم.

الحبشة الى ميناء مصوع، ان هذا الطريق الذى يعبر افريقيا من أقصاها الى أقصاها، ومن الغرب الى الشرق هو فى الواقع نفس الطريق الذى سلك منذ دخول الاسلام الى السنغال وزامبيا، وكان يسلكه سكان افريقيا الغربية للذهاب الى الحج، ان ستزن عرف وداى تحت اسم صليح، او موبا على حسب الرواية التى ذكرها له احد رجال البرنو فى القاهرة، بينما يؤكد روزخارد ان لهذا البلد ثلاثة اسماء: برقو، دار وداى، ودار صليح، وقد ذكر زينتر معلومات ضعيفة عن هذه المملكة حسب رواية احد رجال البرنو، ونحن نعلم ان هذا الرحالة الذكى كان مستشاراً لامبراطور روسيا، وكان يكتب قبل بورخارد، وقد ذكر معلومات مفيدة عن جغرافية شبه الجزيرة العربية وافريقيا، وقال اندرين بالبى أن الذين اعطوا اسم "وداى" لهذه المملكة هم سكان فزان والصحراء ولكن سكان تلك المنطقة يسمونها بدار صليح، والبرنو يطلقون عليها اسم برقو، ولكن الاسم الحقيقى لهذه المنطقة كما قال عالم الجغرافيا هى موبا، واذا كان هذا صحيحاً فانه لامر غريب ان يسقط هذا الاسم من نقد بورخارد الذى كان دقيقاً جداً فى معلوماته، ان دائرة المعارف الجغرافية التى كتبها (هوفى موراى) والتى ظهرت بعد كتاب بالبى أكدت هذا الكلام، وذكر هذه المملكة باسم برقو، وتحت اسم صليح واسم وداي أو موبا، ان اسم موبا ليس له اي اشتقاق خارجي، ولكن له علاقة برحلة ستزن التي ذكرتها من قبل، ونذكر أن بورخارد قد ذكر ان لهذه المملكة ثلاثة أسماء وداي وسماها البرنو والفزان والمغاربة، برقو، ويطلقها سكان دار فور وكردفان، صليح ويطلقها سكان وداي أنفسهم، ويميل "فيرستيل" الي الاعتقاد بأن تسمية برقو(برقو-بورقو) قد اطلق عن طريق الخطأ، وقد خلطوا إسمين لدولتين مختلفتين، ويتحفظ الدكتور بيرون من تسمية برقو، وبين رأيه ليس فقط علي شهادة الشيخ محمد التونسي، ولكن علي ما سمعه هو نفسه من الفقيه الهلالي(له صورة في هذا الكتاب)، ولكن الوداييين يشمئزون من ذكر هذا الاسم، لأن الذين أطلقوه هم الأجانب، ويفضلون استعمال اسم دار صالح أو صليح، إن اشتقاق هذا الاسم "برقو" يأتي تقريباً من القبائل التي تقطن شمال هذه المملكة الي فيا بابو، والتي تسمي تيبو توبو تيبو، لذا

وجب التمييز بأسم: تيبو بوقو، أو برقو، بسبب الجوار، لهذا لا يوجد شمال وداي أو برقو دولة بهذا الاسم اذن ليست هناك ضرورة مهما كان السبب القـــاء هـــذا الاسم علي وداي، ان الاسم المفضل للسكان الأصليـــين هـــو دار صـــالح أو دار صليح مثلما هو مكتوب في هذا الكتاب، وأخيراً كلمة صُيلح كما ذكر فرسنل مـــع اختلاف طفيف في النطق، يجب ان تنطق الكلمة باللغة العربية، بوضع الفتحة كما فعل بورنخارد: دار صَليح، أو مع الفتخة: دار صليح.

ان الوضع الجغرافي لوارة عاصمة وداي غير مؤكد، وهذا يجب ذكـــره، ليس فقط لأن الخرائط التي تخص هذه الدولة ليست منظمـــة، بـــل لأن البحـــوث الطويلة التي اجريت علي المعلومات الصحيحة والخاطئة لم تصل الي أي نتيجـــة مرضية، وأقول بأنني وبكل صعوبة اطلعت علي كل المراسلات، وخلطت الطرق الصحيحة، وكنت اعتمد علي النقاط الثابتة، مثل: الخرطوم، سنار،الأبيض، وأيضاً علي كوبي، وهذه النقطة الأخيرة هي الأقرب، وقد عرفها براون، وبكل صعوبة، جمعت لهذا العمل المعلومات، واستعملت الحساب علي الفضاء أو المسافة التـــي يمكن ان تقطع خلال يوم واحد، او خلال ساعة واحدة، عن طريق وسائل السـفر المختلفة: من الفرسان أو القوافل أو المرتجلة، محملين أو غير محمليـــن، وكـــان وجب عليّ أن أختلف معهم حتي أقوم برسم الخريطة من خلال هذه المعلومـــات، ولكن لم نقدم شيئاً دقيقاً.

مثلاً هذه المعلومات نتجت عن رحلة براون الي دارفور، والتي سماها بخط طول كوبيه العاصمة، والتي حددها بمسافات قمرية كثيرة، وعن احتجاب كثير من الكواكب عن المشتري المطابق دائماً، ويجب أن يكون في خط عرض ونقطة ثابتة غير متحركة لكي يحدد موقع واره، وفي الواقع هناك آراء كثيرة عن المسافة بين كوبية وواره، وكثيرون يحددون اتجاهها بصفة غير دقيقة، ولكن هناك المقارنـــة بين الأبيض وكوبيه تؤكد أن كوبيه تقع في الغرب، بعيداً عن الوصف الذي ذكره براون، واذا أخذنا المسافة باليوم، وهي أقل المسافات وحتي اذا افترضنا أنها فـــي خط مستقيم، ولم نعط اليوم القيمة الحقيقية مثلاً: سبع، ثمان، تسع دقائق(أو ميـــل

جغرافي) فهي تحمل كوبيه الي الغرب كما ذكرها براون، وبالتالي فان وجود واره تقع في الغرب في نفس الأتجاه، كما وضع العالم براون روبيل كوبيه في هذا المكان في خريطته الصغيرة التي عملها لكردفان دون ان يهتم بنتائج براون، وليست هناك صعوبة في اظهار بيان الرحلات المختلفة جداً، وتفسير هذا الاختلاف بدرجة كبيرة، ولكن الظروف تختلف عندما يكون الأمر خاص برسم خريطة، فالاتجاهات والمسافات يجب أن تذكر بتحديد دقيق دون أي استثناء، فهناك الكثير من الخرائط التي تظهر وتقول أنها حقيقية دون أن يبينوا آراءهم علي حقائق دقيقه، ودون أن يشير المؤلفون الي الحجج التي يستندون عليها، ولم تأخذنا الدهشة في خروج مثل هذه الكتب، بل لم تتحسن المعلومات حتي في الكتب التي صدرت حديثاً وهي تمثل في أحسن الأحوال أحسن الكتب الملفقة التي تقرأ بشكل جيد، هذه الملاحظات لا تنطبق اطلاقاً علي النظرة الجغرافية المصاحبة لهذا الكتاب، إن الدكتور بيرون لم يفعل ولا يريد أن يفعل و يكتب الا ما يمليه علية الشيخ، فهو يكتب الأماكن وأسمائها بكل دقة، مع تحديد حدودها، كما أنه في العادة لم يرسم خريطة لأي بلد الإ بعد مضي زمن سحيق فانه من الأجدي أن نملك من الان لوحة مرسومة يمكن أن نقرأ منها سهولة تحديد الأماكن والأقاليم، والتقسيمات الأدارية والحدود التي تميز الأحواض والوديان، وأماكن القبائل العربية، ومدونات كثيرة تسهل قراءة هذا الكتاب بكل يسر.

لم تكن هناك حملة مصرية منذ زمن بعيد الي دارفور أو الي وداي، فكان لا يمكن أن نقوم بحملة لجلب الأدوات العلمية، ولهذا فان محاولة الخريطة هذه في هذا الكتاب لها اهميتها، وقد تعود بالفائدة بالنسبة للدراسات والرحالة.

ولكن هناك شيء مؤسف هو أننا لم نستطع تحديد عاصمة وداي بالنسبة لكوبيه والأبيض، وحتي أتمكن من القيام بذلك مع صعوبته، سأحاول أن أسأل عدة أسئلة، وتحديد جزء من المعلومات حتي نحس بأننا في الوقت الراهن لم نكن متأكدين من مكان العاصمة، ويمكن أن نقول خلافاً لخريطة (براون) فإن عدة خرائط حديثة تضع واره موازية لكوبيه في جهة الشمال، منها خرائط: السيد رتر،

السيد كايو، السيد سيفانو، والسيد زيمر مان،وآخرون يضعونها في الجنوب، منها خرائط: الكولونيل لوك، والسيد ماك كوين، الذي وضعها علي درجة ٢,٥ جنوباً، وخريطة السيد كيبر، وخريطة نبذة دارفور، وهناك خريطة حديثة للسيد قابوريو، تضع واره علي بعد ثلاث درجات شمال كوبيه، علي خط طول ١٧ درجة، ليست ببعيد عن بحيرة تشاد، ويبدو من ذلك: أن معظم الجغرافيين الحديثين قد قرروا بطريقة تعسفية، أو من خلال رسومات مختلفة جداً تحديد موقعها، وسأفضي الي معلومات أخذت من الرحالة انفسهم.

يجب اولاً ان نتحدث عن الفواصل التي تفصل دارفور عن وداي، فكل الدلائل تشير الي أن الفاصل عبارة عن مساحة صحراوية تقطع مسافتها خلال ثلاثة أيام، ويقول آخرون خلال يوم ونصف، وآخرون خلال يومين: وهناك اختلافات كثيرة في هذا الموضوع، وقال السيد كونيف في كتاب(اوراق جمعية الجغرافيين) إن المسافة بين دارفور ووداي هي تسع ساعات فقط وأن أراضيها تتكون من الرمل المخلوط بالطين وأن المكان خال من السكان، وفيها أشجار كثيرة، وبعض الغابات الكثيفة(مثلما هناك الصحراء التي تفصل بين كردفان ودارفور، وبها كثير من شجر التبلدي) .

ان التفاصيل التي ذكرت عن المحطات مثل كوبيه أو تندلتي الي واره قد تقلل قليلاً من الشكوك، ولكننا نختلف في أسماء المحطات وعددها، علي حسب رؤية براون، فاننا نذهب من كوبيه الي كبكابيه ثم الي دار مساليت، ثم نعبر الحدود الي أم دخن ثم نأتي الي ابو شارب ثم الي واره، وتقطع هذه المسافة في أحدعشر يوماً ونصف اليوم من كبكابيه، ومن خلال معلومات أخري فان واره تقع علي بعد ثلاثة أيام من كوبيه في الغرب والغرب الشمالي، أي اربعة عشريوماً من عاصمة الي أخري، وهناك رأي آخر يقدر هذه المسافة بثلاثة وعشرين يوماً، وآخر يقدرها بتسعةعشر يوماً ونصف اليوم حسب كلام بورخارد، أي أقل من درجة ونصف تقريباً.

وقال الفقيه ابراهيم نقلاً عن رواية فرسنل أن بين كبكابية وواره خمسة وعشرون يوماً ونصف اليوم، بدلاً من أحدعشر يوماً ونصف التي ذكرها براون، أي نصف المسافة هذه، وهو نفس الطريق الذي يمر عادة بأم دخن وأبوشارب.

والخلاف أيضاً كبير حول الطريق من دارفور الي واره عن طريق دارنقا، إن نقطة الانطلاق هي الريل، وتقع علي بعد ستة أيام الـــي الجنــوب والجنــوب الشرقي من كوبيه، أما براون فقد قال إننا نتجه دائماً الشمال، أو الي الغرب ســتة عشر يوماً ونصف في اتجاه واحد، وتسعة أيام في الاتجاه المعاكس، أما قول الفقيه ابراهيم فاننا نذهب كثيراً الي الجنوب وليس الي الشمال خمسة وعشرون يوماً بدل سبعة عشر يوماً، أما مجمل الأيام بين الريل وواره فتتفـــاوت مـــا بيـــن خمســـة وعشرين يوماً ونصف، وتسعة وخمسين يوماً ونصف، الحقيقة أن هناك خطأ فـــي خريطة الكاتب الأنجليزي التي تقدر المسافة بتسعة وخمسين يوماً، إن النسبة التي دعا اليها براون من خريطته عن متوسط اليوم ليس فيها كثير مبالغة، فـــهو قـــد حددها بربع درجه طول، وهذه المسافة أي مســـافة أربعـــة أيـــام عـــن الدرجـــة الواحدة(او ستة فراسخ) فهذا يتطابق مع الطريق الذي نسلكه في المتوسط، والذي يتم قطعه في سبع ساعات الي ثمان مشياً علي الأقدام.

والأن كيف نصدق الفقيه ابراهيم، فربما يكون قد حسب اليوم في أقل مـــن خمسة فراسخ، ان حساب تسعة عشر يوماً ونصف الي عشرين يوماً علـــي خـــط مستقيم من كوبية الي واره قد يطابق حساب مسافة الستة أيام من كوبية الي ريل، وخمسة وعشرون يوماً ونصف من ريل الي واره، ولكنها ليست نفس المسافة بين كوبية وكبكابية وزغاوة اضافة الي واره، فاذا تطابقت المسافات الستة تماماً مـــع ماذكره براون والشيخ، فسوف نحصل علي مثلثين مقفولين، ثم نصل الي نتيجـــة تقريبية ومرضية عن اختلاف خطوط العرض علي هاتين النقطتيـــن المتبـــاعدتين للغاية.

وهناك مواضيع اخرى مختلفة وردت فى الرسومات، ويشار الى انه اذا لم نستطع حتى الان تحديد موقع واره بالنسبة لدارفور فاننا ايضاً قد لانستطيع تحديده

بالنسبة لبنغازى أو فزان أو بيلما وكوكا برنو الى كانم ولوقن واخيراً الـــى كـــانو وكشنا وأفناو، وبالرغم من اننا لانملك رسومات بين وداى وكل هذه الامـــاكن الا ان المسافات بينها وبين واره كانت بعيدة جداً، مايجعل ورود الخطأ وعدم الدقـــة امر لامفر منه بالنسبة لخطوط الطول والعرض.

وكنت اعتقد في البداية باننى أخذت قاعدة الانطلاق وهو خـــط ذو ابعـــاد متباعدة ومعروفة وهي: سنار وسكتو (وهما متوازيتـــان) ووزعـــت بعـــد ذلـــك بالتقريب كل الاماكن السودانية الواقعة على هذا الخط على حسب المسافات التـــي ذكرها الشيخ ورحالة اخرون، وكانت واره تقع ضمن هذه الاماكن، وهكذا عرفت أن الشيخ يحسب اثنين وتسعين يوماً على الاقل بين سنار وأفناو (كشنا) فى ســـبع مسافات، ولكن خط طول كشنا معروف نوعاً ما بالنسبة لسكتو، ولكـــن يجـــب ان نترك ايضا هذا الخلط لذات الاسباب التى ذكرتها.

ولكى أوجز قد امتنع عن مقارنة عدة رسومات وشرحها، ونقبل كذلـــك أن الطرق التى يسلكها الرحالة وطرق الرحلات اليومية يمكن أن تفسر عدد الايـــام، وباختصار فهناك اختلافات كثيرة تعيق تحديد مواقع عواصم دارفور وداى اليوم.

اما بالنسبة لوضع واره، فالامر مازال صعباً لتحديدها، لانه مازالت هنـــاك شكوك بالنسبة لخط طول كوبية ذاتها، وعلى كل حال فهناك احتمـــال ان تكـــون العاصمة واره تقع الى الشمال قليلاً اكثر منه جنوب كوبية وعلى حســـب كـــلام الشيخ فان مساحة وداى اكثر من خمسين يوماً مشياً على الاقدام طولياً من الشمال الى الجنوب ومسيرة أربعة وعشرين يوماً من الشرق الى الغرب، وعلى حســـب معلومات السيد فرسنل فالمسافة هى خمسون يوماً فى مثلها، وبذلك فهى بلد واسع لكنه ليس أطول من دارفور.

وقد ذكر الشيخ الكثير من المعلومات التى يمثلها مشى اليوم الواحد لكى يحدد مساحة المملكة ويحصل على نتائج سواء بالنسبة للسكان او بالنسبة للاراضى المزروعة، ولكن لانستطيع الا ذكر شيء واحد وهو أن مساحة وداى هى على الاقل مساوية لمساحة دارفور، هذا اذا لم تكن اكبر منها.

اما بالنسبة للسكان فمن الصعب معرفة أى معلومة محددة، ان البلد مقسم الى قبائل ويجب أن نميز بين تلك القبائل: خمس قبائل سماها الرحالة بالقبائل الاصلية او الملكية وهى القبائل التى اعتنقت الدين الاسلامى قبل غيرها، ودائما يتم اختيار السلطان من هذه القبائل، ولايسمح لاى أسرة اخرى ان تحكم من غير تلك القبائل، واى قبيلة من غير هذه القبائل الخمس لايسمح لها أن تشارك فى هذا الشرف.

وذكرنا فيما سبق أن جنوب وداى تسكنه قبائل ذات أصول شرقية، وواحدة من هذه القبائل ادعت انها من اصل عراقى، وهذا ما أكده كتاب الامير جعفر.

أن بلاد الخناجرة التى تقع فى جنوب المملكة تسكنه قبائل وثنية كما ذكرت من قبل، ومن الخطأ أن نعتبر هذه القبائل متوحشة لانهم يصنعون الحديد بشكل جيد وكذلك يجيدون صناعة الابنوس، ولهم فنون اخرى، ونحن نخطئ أيضا فى تسمية كل القبائل الوثنية بأنها أكلة لحوم البشر، وبالرغم من وجود استثناء فى بلاد الفرتيت جنوب دارفور، ولكنه ليس من السهل حمل الجناخرة على اعتناق الاسلام.

ويجب ان نعترف أن المسلمين حقاً لهم طريقة فى الحياة مختلفة عن حياة الافارقة، ان قبائل عربية كثيرة سكنت جنوب وداى كانت تشارك فى الحملات التى يرسلها السلطان او يسمح بها لاصطياد الجناخرة وهى التى تجهز للجلابة أو تجار الرقيق وكانت مهمتهم اقتياد العبيد الى القوافل، ومن ثم حملهم الى الاسواق العامة، حيث يبيعونهم بالعدد، ولان هذه التجارة مربحة جداً، ولهذا لاندهش من اصرار تجار الرقيق فى ممارستها، الامر الذى يحول دون الغائها.

وهناك ملاحظة وهي أن الدول الخمس التي تقع موازية ومتجـــاورة فـــي الدرجة ١٤ شمالاً وهي: كردفان ودارفور ووداي وباقرمي وبرنو، لكـــل واحـــدة منها قبيلة وثنية في الجنوب وهي بر تروج، فرتيت، جناجرة، كردي، وكرداوي، وتعتبر هذه القبائل الوثنية ملكاً لتلك الدول وهم: تروج جنوب كردفان، وفرتيـــت جنوب دارفور، وجناخرة جنوب وداي، وكردي جنوب باقرمي، وكرداوي جنوب برنو، ولكل دولة الحق في اصطياد تلك القبائل، وقد ذكر الشيخ تفـــاصيل كثـــيرة ومثيرة حول تلك الممارسة وقد دهشنا لان الباشا الذي يحكـــم كردفـــان لصـــالح سلطان مصر كان يقوم بنفس اعمال سلاطين دارفور ووداي، وهناك ايضاً النوبة جنوب سنار، وهناك قانون لم يكن مرغوباً فيه، وهو أن لمصر الحق فـــي اتخـــاذ المواطنين المحليين كعمال لها في الرمال التي تحوي الذهب في النيل الازرق في فازوغلي وفي فازيقورو وعلى ضفاف نومات، ان الارض خصبة للغاية وهـــؤلاء الوحوش كما يسمونهم كثيرون، يزرعون الارض ويحصدون الحبوب، وقد علمنا من تقارير السيد ارنو، ان السكان الذين يكسنون اعالي النيل الابيض وحتى خـــط عرض ٤ لهم طبع مميز وهادئ، على الرغم من انهم يملكون اســـلحة ممتـــازة، ويعيشون على الحبوب وبعض النباتات ذات السيقان والالبان، وعلى الرغم مـــن انهم يقومون بتربية عدد كبير من البهائم، وليس ببعيد أن تكون هناك علاقة طبيعية بين مصر وتلك القبائل الكبيرة التي تملك أرضاً خصبة ومنتجة.

وساعود الي وداي واقول: أن أرضها اكثر خصوبة من ارض دارفور وأن مناخها أفضل من مناخ دارفور، وتقع بين مداري الســـرطان والجـــدي وبالتـــالي معرضة للعواصف والرياح العنيفة والتي تثير غباراً لايمكن مقاومتـــه وتســـتمر العواصف لشهر كامل عقب الخريف، والذي يبدأ عادة في دارفـــور ووداي مـــن شهر يونية ويستمر في يولية وأغسطس وجزء من سبتمبر، ولهذا نجد كل اراضي وداي تغطيها الجداول والمياه الجارية من خلال الامطار الغزيرة كما تغطيها غابة كثيفة ذات خضرة دائمة طوال العام، وتنتج الحبوب مثل (الذرة والدخن) وتكـــثر فيها الفواكه طوال العام بشكل عجيب وكل هذه المنتجات موجودة في دارفور.

كما أن الحيوانات كثيرة في وداي والمراعي غنية، فالقبائل العربيــة فيــها تربي الخيول والمواشي بكميات كبيرة، وهناك شيء لابد من معرفته عن جغرافية وداي وهو علم وصف المياه (الهيدروغرافيا) ففي وداي يوجد حوضان كبــيران تحدثت عنهما في البداية، وهنا يمكن القول: ان الشيخ لــم يستطع تجميــع كـل المعلومات اللازمة للجغرافيين، الا انه قدم معلومات هامة صحح بها أخطاء قديمة، وفتح بها أفاقاً جديدة فعلى حسب معلومات الشيخ بان هناك واد كبير (بحر ايــرو) يقع جنوب وداي ويتجه من الشرق الى الغرب، وهذا الوادي يحمل اسماء كثــيرة منها: بحر سلامات، وام التيمان، وفي الغرب ايضا يجري وادي كبير يسمى بحر الغزال وهو يتجه الى الشمال والشمال الغربي.

اما في داخل البلاد فهناك واديان كبيران يستعرضان، تصب فيهما وديــان ذات مصبات مختلفة، ومجرى غير محدد، وهما: بطحــة وبطيحــة، ويجــب أن نعرف ان مجاري المياه تتوقف في موسم الصيف، وتجري في الخريف وتصــب في بحر الغزال ويبدو أن الذين أخبروا السيد فرسنل أن احد هذه الوديان يســمى البطيحة، ويعرفه براون بوادي مسلات، وهو أمر ظل يقلقنا منذ زمن بعيد لــولا حذق فرسنل باشارته الى ان اسم مسلات مثل اسم مســلاتي (جمــع مســاليت او مصاليت) اسم لقبيلة ذكرت في كتاب (الرحلة الى دارفور).

وعلى كل حال فان المجرى من الشمال الى الغرب الــذي ذكــره بــراون (يمكن في الحقيقة ان يكون تعسفياً) لانه يختلف كثيراً عن مجرى البطحــة الــذي يتجه من الغرب الى الجنوب الغربي، وليست هناك أي قوة تستطيع أن تقــول أن اتجاهه الى الغرب، سواء هذا المجرى أو المجاري الاخرى، خاصة وأن الجــزء الشرقي من وادي في هذا الجانب مرتفع جداً، وهو ما يؤكد التخمين الذي وضعناه في مقدمة كتاب الرحلة الي دار فور بالنسبة لهذا الخط المستقيم:

أعالي النيل والسودان الأوسط:-

لا يمكننا في هذا المكان أن نتفحص أو نناقش المستندات الجغرافية الضعيفة التي بحوزتنا فيما يخص البلاد التي تقع بين وداي والبحيرة الوسطى(أو بحيرة تشاد) ذلك ان امتداد هذه المساحة هي أيضاً مشكوك فيها بسبب الشك الذي يحوم حول موقع واره بالنسبة لخط الطول.

إن أي شخص يدرس هذه المنابع دراسة متأنية يصل الي أن أسماء مثل: بحر كلا ودار كلا (أوقلا) فترى، بحر فترى وبحيرة فترى حتي بحر الغزال، لايجد لها في الوقت الحالي تطبيق صادق في اماكن معروفة على ارض الواقع، ان حدود كانم هي ايضا مشكوك فيها، ان تحديد تلك الاماكن مرة اخرى على خريطة دون الحصول على معلومات تصبح تحركات مشكوك فيها تقريباً والياً لن تكون ذات فائدة فقط تكون اضافة جديدة لتعقيدات السرد الموجود، ولازال الامر مبهماً حتي الان، فهناك تساؤلات تصعب الاجابة عنها فمثلا: ماهي الوديان التي تصب في بحيرة فترى، او بحيرة تشاد من ناحية الشرق؟ وماهي الوديان التي تخرج منها؟ هل لهذه البحيرات تصريفات ما؟ واين تنتهي مجارى المياه الاتي من الشرق؟ الاتجاه والاهمية والمصب النهائي للمياه التى تجرى فى وداى والاماكن التى تحيط بها، كل هذه التساؤلات مازالت تشكل معضلة للاستكشافات القادمة للاوربيين الذين اتوا محملين بأدواتهم، وكانوا يلاحظون الاشياء بدقة.

ولهذا فلنكتفى بالخرائط الموجودة انتظاراً لمعرفة المصطلحات وتعاقب الاماكن، ولانستعمل هذه الخرائط الابحذر.

هناك سؤال مهم، ولكنه متقدم قليلاً ويستحق منا الوقفة للخطة: وهى مسألة النيل الابيض الاعلى (فى سودان وادى النيل الان) فهناك جدل كبير دار بين الرحالة المشهورين والعلماء والكتاب، وقبل هذا الجدل كان لى رأيي ولم تثنيني عنه تلك الملاحظات، بل ربما جاءت لتؤكده اذن اننى لن أتناول هذه النقطة بصفة عامة وبخطوط عريضة.

ان السيد ارنو الذى وصل الى النيل الابيض حتى الخط ٤٢ر٤من خط العرض شمالاً قد عين اتجاهين لمجرى النيل الاعلى، احدهما يخرج الى الجنوب الغربى، والاخر الى الجنوب الشرقى، (مع فرع لهذا الاخير يخيل للشخص بانه فرع يجرى من الشمال الى الشرق)، واضاف السيد ارنو فى كتابه ان النيل اذا وصل الى هذا الارتفاع يكون ارتياده صعباً بالنسبة للمراكب الاستكشافية، ان الصخور تكون شلالات فتكون عقبة للملاحة، ان المجرى هنا ضيق ولكنه ليس عميقاً وكأننا نقترب من المنبع، وبعد ذلك بثمان سنين يصل الاب اقناس كنوبليشر، ودلابامش محملين بأجهزة (بفضل اكتشافات السيد أرنو) صعدا الى مسافة ثلاثة وثلاثين ميلاً جغرافياً الى الجنوب، أى خط عرض ٩ر٤ شمالاً، وكان فى شهر يناير فتسلق الاب اقناس جبلاً يدعى لوقويك، ومن هنا رأى النيل ومجراه بلا نهاية وعلى مد البصر فى الاقليم الجنوبى الغربى ويسير على سلاسل من الجبال، وفى هذه النقطة كان متوسط عمق النهر مترين وثلاثين سنتمتراً، وعرضه حوالى مائة وثمانين متراً، وقالوا له ان النهر صالح للملاحة من هنا ولمسافة شهر،... وكان المحترم اكنوبليشر يعرف لغة المواطنين المحليين والتى تعلمها فى الخرطوم، وكان يتلقى ويفهم مباشرة ويجيب على كل الاسئلة، ونشك ايضاً فى العلاقة التى يمكن أن تكون بين بحيرة نياس (التى ذكرها الدكتور كرابف وقال انها تقع على خط ٤ درجة جنوب خط الاستواء، ولها اطوال متساوية كما يقال مثل الضفتين المتعارضتين لافريقيا) وبين مجرى النهر الكبير، ولكن الذى لاشك فيه هو وجود وادى كبير وبعيد جداً فى الجنوب، والذى ذكره لنا قبل أربعة وعشرين عاماً السيد كونيف، ومن هذا كله فان كل المعلومات المشتركة تقول: ان المياه تجرى خمسة وعشرين يوماً على الاقل جنوب باقرمى وودای لتصب فى النيل الابيض.

ذكرت كل التقارير ذلك الوادى الكبير وهو كالنيل الابيض يجرى فى اتجاه بلاد البيض، لكن هذا النهر لايمثل الا رافداً من روافد النيل او النيل نفسه الذى ياتى من الاقليم الجنوبى ومن مسافة بعيدة جداً أى حوالى ٨٤ يوماً حسب التقارير الاخرى، وها هى اجابة اخرى مدهشة ذكرها لنا الشيخ نفسه، واخذها من الفقيه

مدني الفوتاوي، حيث ذكر أن بعثة استكشافية من اهل دارفور دخلت في يوم ما بلاد الفرتيت وسارت الى اقصى الحدود الجنوبية لهذا البلد لمسافة خمسة شهور حتى وصلوا الى مستنقع عريض للغاية حيث لم يستطيعوا تمييز الاشخاص الذين يقفون على الضفة الاخرى الا بصعوبة، وكانت هذه الرحلة في عهد السلطان عمر.

واعتقد من العبث أن اتحدث عن جبل كلمنجارو والذى يقع على الخط ٤° جنوب، والذى رآه الرحالتان: ريمان وكريف، وهو مغطى بالجليد الدائم، كما هو الحال بالنسبة لجبل كينيا الذى يقع غرب جبل كلمنجارو على خط ١° جنوب، وهذا الجليد الدائم على هذا الجبل يؤكد ارتفاعه الشاهق أى حوالى ٤٠٠٠ر٤ متر فوق سطح البحر على اقل تقدير، وهذا الجليد المتراكم يذوب فى بعض الفصول وخاصة فى فصل الامطار الموسمية، ولهذافان انقطاع الفيضان لايمكن أن يتغير من موعده لان موعد ذوبان الجليد هو نفس موسم هطول الامطار الاستوائية، واذا كان الامر كذلك فان حوض النيل يمتد الى جبل كينيا فى جانبه الشمالى، وكذلك الى الجزء الشمالى لسلسلة الجبال التى ينتهى اليها جبل كينيا والتى تغذى المنابع العليا للنيل، ان المساحة التى تغطيها هذه التقديرات مهما كانت درجة صحتها فانها تعد كبيرة جداً، وهى خارجة عن البحوث التى قام بها الاوربيون والتى يجب ان نحافظ عليها بدل الطعن فيها، واكرر انه ليس هناك أى فعل أو دليل مقبول الى الان كذب فكرة أن الفرع الرئيسى للنيل الابيض يقع على بعد الدرجة ٤° شمالاً وينبع من الاقليم الجنوبى او من الجنوب والجنوب الغربى.

والان اقول حديثاً موجزاً عن مياه السودان الاوسط فيبدو ان السيد فيرزنل قد راى ان بحر تشاد اليوم قد يكون هو النيجر الحقيقى للقدماء، وأنا أقول: ان هذه التخمينات قد تكون صحيحة لانها ترتكز على تقديرات جديدة حيث من المؤكد ان كمية المياه التى يحملها هذا النهر الى كوارا والى أسفل من كاكوندا يؤكد ان لها منابع بعيدة جداً فى الشرق، لان لها روافد كثيرة وأيضا لها منابع وروافد فى السودان، وهنا يجب ان نفكر فى كتاب الميجور دنهام الذى كان منذ زمن بعيد كان

في مندرا جنوب بحيرة تشاد، فقد رای من البعد وفی نفس الاتجاه جبـــالاً شديـــدة الارتفاع تمتد على مدى البصر، وبالتالي يمكننا ان نتخيل منذ ذلك الوقت ان ذلـــك الاتجاه هو منبع الشاد ومن الممكن ان نقول انه لايخرج من هذا الاتجاه الارافـــد واحد من روافد النهر، وان راسه بعيد تجاه الشرق، ويخرج من جبـــل مندفـــي، وهناك سلسلة كبيرة من الجبال الصغيرة تتجه من الشمال الغربي الـــى الجنـــوب الشرقي تجمع بين جبال المندرة والجبال التي ينبع منها النيل، او الى روافد بحـــر الهنود ولكن من الصعب جداً ان ننفي وجود نظام لعلم الجبال فی وســط افريقيـــا خاصة وان هناك عملاً يؤكد وجود نظام متقدم لعلم الجبال وذلك من خلال تقرير ووقا الافريقي من كمكول (موقع على بعد ٦٨ يوماً شرقي كلبار الجديدة) يحكـــي هذا الرجل ان بلاده مليئة بالجبال وان كثيراً من هذه الجبال عالية الارتفاع وتكون دائماً مغطاة بالجليد والبرد، وقد قبلت هذه الفكرة على بساطتهالانها تتفق ومبادىء الجغرافيا الفيزيائية، ولكن يجب ملاحظة شيء ما، وهـــو ان البســاطة الشديـــدة وليست قاعدة ثابتة، ولكنها نوع من التعقيد تهبه لنا الطبيعة مع مواكبـــة القوانيـــن المختلفة وهذا هو السبب الذي يخفي لنا الحقيقة دائماً، مما يفقد المســألة ويؤخـــر كثيراً الحل الكامل لمشكلة المياه الكبيرة في افريقيا.

ان المساحة الكبيرة التي تفصل بين تنبكتو وبوسا يمتد طولها لاكـــثر مـــن ثلاثمائة فرسخ مازالت غير مستكشفة وغير معروفة ومن يستطيع تحديد أی مـــن الروافد يصب في النهر الكبير من هذه المساحة؟ ومن يستطيع ان يثبت بانه ليـــس هناك فرع للنهر بين تلكما النقطتان؟ فالامر يتطلب أن يستكشف منطقة الجبال فی بوسا، والطلوع الى كوارا، على الاقل في مستوى سكتو، والطلوع الى الشاد، ثـــم الى المنبع البعيد لهذا الرافد الكبير تجاه الشرق، لاسيما وانه يوجد هناك شك كبير بالنسبة لمجاری مياه افريقيا الاستوائية.

اذن مشكلة النيجر لم تنته تماماً، فماذا نقول عن البحيرة الوســطی وعـــن بحيرة تشاد، اللتين لم تستكشفا بعد تماماً مما يجعل الامر ينتظـــر طوافـــاً كـــاملاً

ويحتاج الى مثابرة وتفحص دقيقين لكل المجارى التى تصب فيه فنحن محتــاجون الى معرفة مستوياته المختلفة ونهاياته اذا لم يكن هناك شيء اخر غير النيجر.

وللمرة الثانية ينبغى أن نلاحظ ان نهر ايبو الذى يصب فيه ليس له رافــد على الضفة اليسرى، ولا احد اليوم يؤيد فكرة ان مياه بحيرة تشـاد تصـب فـى حوض النيل، ان مستوى بحيرة تشاد فى الواقع منخفض من مستوى النهر ولكــن ماهو الطول الاقصى لبحيرة فترى والتى لم يصفها أى اوربى راها بعينه، ليــس هناك ادنى شك فى الاماكن الهامة التى تقع بين برنو وسكتو، وكذلك ليس هنــاك شك فى الاماكن التى تقع جنوب شرق برنو، وأيضاً بالنسبة لمدينة لوقون عاصمة باقرمى، هذه الاماكن حددت بشكل تقريبى فى خريطة سفر أودنى وكذلك ظهرت فى خرائط كلابرتون ودنهام، وهناك أيضاً اماكن وضعت تقريباً شمال بحيرة تشاد وبجوار كانم وفترى، واذا كانت البيانات التى جمعها الرحالة الافارقة كافية لبنــاء خريطة لكل الاقاليم فان المعلومات أيضا متوفرة اليوم، خاصة وأن السيد فرنفل قد جمع كماً كبيراً من المعلومات بخصوص هذا الموضوع لم يتوافر مثلها من قبـل، ولكن بالنسبة للادلة التى طرحتها آنفاً فانه من الصعوبة بمكان ان تحدد من خلالها خطاً واضحاً يلبى طموح الاشخاص طالبى الدقة، وعلى كل حال فحينما نجد نقاطاً كثيرة محددة ومختلفة فهذه الخرائط للرحالة الافارقة تكــون ذات اهميــة كبــيرة لمعلومات اضافية بالنسبة لنا خاصة عن العالم الشرقى.

فى هذا الخط وفى هذه المساحة التى تقع بين سكتو وكردفان فــان الشيــخ محمد التونسى قدم لنا مسافات تقريبية تصلح كمادة للمقارنة، هذا الخط الكبير الذى يمتد لما بين ٨٨ الى ٩٢ يوماً مشياً بين الفنو وسنار، وهى مسافة كبيرة وأيام اكثر بكثير مماذكره السيد فرزنل فى خرائطه ولانستطيع نحن الان أن نــترجم بدقــة جغرافية المعلومات التى قدمها لنا كاتبنا، حيث قدم لنا مســافات تقريبيــة، فمثــلا المسافة بين الابيض وتندلتى من عشرة الى اثنى عشر يوماً، ومن أقدس الى الفنو من اربعة الى خمسة أيام، ومن سنار الى الابيض مابين خمسة عشر يوماً الى ستة عشر.. من ناحية اخرى فان السيد فرزنل قد جمع خرائط تجمع بين الاماكن بيــن

الشمال والجنوب أو الى اسفل منها وموازية، اوتقع في اتجاه منحرف الى الجنوب، فاذا تحصلنا على نقاط محددة كما قلت فهذه الخطوط تكون خريطة المستقبل.

وهاهي امثلة لذلك: من لوقون الى واره نحسب واحداً وعشرين يوماً، ومن كانو الى باقرمي سبعة وأربعين يوماً، ومن بحيرة فتري الى لوقون خمسة وأربعين يوماً، ومن باقرمي الى كانم تسعة أيام، الى غير ذلك.

وباختصار شديد فاننا نرى أن هناك الكثير من الاسئلة المعلقة ليس فقط بالنسبة للبلدان التي تقع غرب وداى الى برنو ثم الى اقصى الغرب من ذلك وكذلك هناك الكثير من الاسئلة المعلقة حول الاودية التي تجرى في هذه البلدان وكذلك بالنسبة لنظام كل المياه الجارية والراكدة في هذه المساحة والتي تشمل ايضا المنطقة بين خط الاستواء والخط الذي يربط تنبكتو وكردفان- في وسط هذه الشكوك يجب أن نشيد بالجهود التي قامت بها الجغرافيا في الجانب الشرقي فقد خطت خطوات كبيرة يمكن تلخيصها في الاتي:-

١- النظر بعين التأكيد بان النيل ينبع من أقاليم بعيدة في الجنوب او الى الجنوب الغربي على خط ٤درجات شمالاً بالقرب من خط الاستواء.

٢- تيقنا بأنّ دارفور أو جزءاً كبيراً منها ينتمي الى حوض النيل.

٣- ان المياه التي تجرى في وداى هي مياه تنتمي الى حوض بحيرة تشاد.

٤- الوديان التي لها أسماء مختلفة مثل: بحر الاداء، او (أدا) كي الاك، ابلس، كدادا، تصب في النيل في الدرجة ٩ ونصف شمالاً، وكان يعتقد والى زمن بعيد بانها منبع النهر، وماهي الاروافد كبيرة كالنيل الازرق الذي يصب في النيل عند الخرطوم.

٥- يوجد بين دارفور وبحيرة تشاد مملكة مزدحمة بالسكان، ولها دراية بالحروب وقد اخذت ذلك من الحضارة الاسلامية، هذه المملكة غنية بمنتجاتها وكان موقعها أميز من موقع دارفور فتمكنت من اقامة علاقات تجارية مع أوربا.

وفى الوقت الحالي يمكن أن يكون الكثير من الاسئلة الجغرافية الهامة عن افريقيا قد حلّت أو فى طريقها للحل، وذلك بسبب تضحية وشجاعة الدكتور ريتشاردسون.

قوافل دارفور:-

هناك طريق معبد يربط بين وداى وباقرمى مباشرة مع الساحل الاستوائي لافريقيا وهذا الطريق الذى فتح للتجارة هو اقصر بكثير من الطريق الذى يمر بمصر وقد تحدثنا فى كتاب الرحلة الى دارفور عن قوافل وداى التى كانت تتجه الى البحر الابيض المتوسط اولا عن طريق فزان: واليوم اصبحت العلوم والمعارف متقدمة جداً فقد ذهب السيد فرزنل الى تلك الاماكن، وبنفسه اخذ معلومات مهمة من السكان الاصليين فى جالو، تحدثت عن الاصل التاريخى لتلك القوافل وماكانت تقوم به قبل ست وثلاثين عاماً ومايمكن التنبؤ به عن مستقبل هذه الاستكشافات وكذلك عن مستقبل ميناء بنغازى.

ومن الفائدة أن نقارن هذه التقارير بتقرير هذا الشيخ الذى قال للسلطان صابون كل مايسر عن هذه العلاقات التجارية الاولى، ولانه كان معاصراً وشاهد عيان لمايكتب، فقد كانت لعلاقته بعض الاهمية.

كانت وداى ومنذ زمن بعيد ترسل القوافل الى فزان وكان اول رجل يقوم بهذه المحاولة هو احد المغاربة من قبيلة اولاد على، وقد ذهب هذا الرجل من جالو الى السودان مع مجموعة قليلة، وقد ضاع فى الصحراء حتى وجدته مجموعة من قبيلة البديات (قبيلة تسكن شمال شرق وداى) وأحضرته أمام السلطان صابون، فاقترح عليه هذا الاخير بان يأخذ معه قافلة الى المغرب وعن طريق مباشر (مستقيم) فاستطاع ذلك الرجل ان يقود تلك القافلة الى جالو بعد خمسة عشر يوماً قضاها فى الصحراء وعندما عاد الى واره كافأه السلطان صابون عن رحلته هذه، ووعده بحملة اخرى اكبر نطاقاً وتذهب مباشرة الى درنة وبنغازى شمالاً تاركاً من الان طريق فزان وطرابلس الى طريق جالو بنغازى، وهذه القافلة ضاعت ايضاً فى الصحراء، فقد انتهى ماؤهم ومات العبيد والتجار باعداد كبيرة،

وكذلك ماتت جمالهم وكانت الكارثة كبيرة، واستطاعت فلول تلك القافلة أن تصل الى جالو، وتم ارسال جمال الى مكان الكارثة، حيث تركت البضائع، وقد استطاعوا حمل جزء كبير من تلك البضائع، وبعد ذلك سلك الشيخ نفسه هذا الطريق للرجوع من وداى الى المغرب، وقد انضم الى قافلة تاهت بدورها فى البداية، ولكن لحسن الحظ وصلت هذه القافلة الى الابار بسرعة، وكانت لهم بعد ذلك قضية مع التبو الذين يشكلون عقبة اخرى ومشاكل توسع فيها الشيخ طويلاً.

ان خارطة الشيخ الى القطرون، يعنى مدخل فزان ويجب ان اتوقف بهذه الكلمات القليلة عن طريق وداى التجارى، واترك القارئ مع مراسلات كاتبنا ومذكرات السيد فرزنل.

أبوقرن:-

مثلما ذكر الشيخ اسم ابوقرن، فاننى لايمكننى أن اترك الحديث عن هذا الحيوان الذى ذكره العالم الذى كان قنصلاً فى جدة، فهو اول من ذكر وجوده فى وداى بنفس هذا الاسم (ابوقرن) يعني: وحيد القرن، ويقال له: مونوسورس، وقد قارنه بالقارن (حيوان اسطورى بجسم الحصان كان الاقدمون يقدسونه ويبرز له قرن وسط الجبين) حيوان اسطورى بالنسبة للحيوانات الاليفة، وكذلك بالنسبة للجبين الذى رسموه له فى اوربا، ولكن هذا الحيوان له وجود حقيقى فى هذا الجزء من افريقيا.

أبوقرن يختلف عن وحيد القرن الحقيقى، هذا الاخير معروف تماماً فى افريقيا، ويسمى فى مصر: الخرتيت، والجغرافى الادريسى يسميه الكركدن، الذى تجده بالقرب من سرنديب (سيلان) ولكن اسم كركدن يستعمل ايضا فى اعالى النيل ونجد هذا الاسم فى المراسلات القديمة بين الهند والصين والتى كتبها (رينودون).

اما الوداى فنجدهم يتفقون على ان وصف وحيد قرنهم يختلف عن وحيد القرن العادى، او عن وحيد القرن الذى له قرنان هذا التميز الذى قام به المحليون

يرتكز بالضرورة الى صفات خاصة ولكن الثابت ان وحيد القرن الافريقي له قرون وسط الانف، ويقولون ان قرون ابوقرن مزروعة في جبينه.

أتانا كلودبليشر بملاحظات مهمة وحديثة عن اعالي النيل الابيض حيث يوجد حيوان مسلح بقرن مائل موضوع في اسفل جبينه بين العينين، هذا الحيوان بالنسبة للرحالة يختلف عن وحيد القرن المعروف لان جلده خال تماماً من التجاعيد، والان أعود الى شهادة شيخنا انها بالطبع ليست شهادة احد رجال الطبيعة ولكن كشهادة أى اوربى دخل الى باقرمى أو وداى وبالتحديد في المنطقة بين الدولتين حيث وقعت تلك الاحداث التى يرويها الشيخ.

فقد قام السلطان صابون بحملة ضد سلطان باقرمى المستبد، حيث وصلت الجيوش الى الاراضى التى تفصل بين الدولتين، هذه الاراضى تغطيها غابات كثيفة مليئة بالاسود والافيال وأبى قرن، يقول الشيخ فعندما كان احد جواسيس الجيش يقوم بتنظيف الطريق خرج ابوقرن كبير واتجه مسرعاً نحوهم، فقتل كثيراً منهم، فقد كان يضرب بقرنه كل من يلاقيه ويهاجم بشراسة الى ان وصل الى وسط الجيش ومن شدة الخوف تزعزع كل الجيش وظل السلطان وحيداً مكشوفاً دون حراسة وفجأة ظهر عبد باسل يحمل سكيناً طويلة ووقف امام الحيوان وانتظره، وعندما هجم عليه وقع على الارض وقطع عراقيب الحيوان، ومن خلال تقرير الوداى ان ابى قرن حيوان نادر الظهور، ومن هنا كان سبب الخوف هو تلك الروايات والمبالغات التى تنسج حوله، ان حديث الشيخ هنا يطابق حديث السيد فرزنل حول الحيوان ومكان وجوده بين وداى وباقرمى.

الخاتمة:-

من كل ماسبق تتضح لنا اهمية مملكة وداى سواء اعتبرنا ذلك من الناحية العلمية التى ستقدمها فى المستقبل الاستكشافات فى افريقيا الوسطى، واذا نظرنا للمستقبل بالنسبة للعلاقات السياسية والاجتماعية والتجارية لسكان السودان الشرقى، واذا كان الامر كذلك فنستطيع أن نعتبر هذه الرحلة لهذا البلد لاول مرة

ينشر مثلها، بالرغم من عدم الجودة لان الكتاب لم يكن نتاج قلم أوربى[1]، فتأمل ان يجذب هذا الكتاب فضول وانتباه الجمهور.

وهنا نعتقد باننا يجب أن ننبه القارئ بالاستطراد والتطويل والتكرار الذى لابد من ملاحظته، واذا كان القارئ يتأثر ببعض الغرائب وبعض الفقرات التى تبدو سانجة وملطخة بقليل من السخافة فنرجو من القارئ أن يتغاضى عن ذلك بسبب سلامة النية والصدق، وتثبيت الرواية، ان القارئ يمكنه أن يعترف بان البساطة لاتمنع من السمو وانها أفكار أمليت من عقل عادل ورجل حكيم وفيلسوف.

هذه الاشياء ليست بغريبة على الشيخ محمد التونسى، اننا نطلب الغفران له لبعض اللوحات الفاضحة بالنسبة لبعض التقاليد الافريقية، وكذلك بالنسبة لكثرة الاستدلالات الشعرية، وهذا العيب[2] له امثلة عند الكتاب المعاصرين، وان الكاتب يلجأ الى مثل هذا العلم أما لتفسير حدث او لتبرير ملاحظة، اذن الطريقة الشرقية هى الطاغية فى هذا الكتاب ويجب أن تطغى كماهو الحال فى كتاب: الرحلة الى دارفور الذى نشر عام ١٨٤٥م بنفس ملاحظات البساطة والسذاجة، ان تعاطف الجمهور مع احداث الكتاب جعلته يقبل لأول مرة لغة الشيخ الطيب محمد بن عمر التونسى، واعتقد باننا استطعنا ان نحافظ على كتابه دون تزوير واننا لم نغير ماورد فيه من تقاليد شرقية، وحتى فى الحالات التى تبدو ضد الذوق السليم، ولكن ايمان الرحالة وسلامة نيته قد جعلت له رضى القارئ الاوربى، فسلامة النية هذه

---

[1] مقدم الكتاب المترجم يصفه بعدم الجودة لانه لم يكن نتاج قلم أوربى، وهو حديث غير صائب، ومتناقض مع ماسبق وأن ذكره بانه كتاب نادر ووحيد، لكن ربما اختلف معه فى المنهج، فان مناهج التأليف فى الشرق العربى تختلف عن مناهج الغرب الاوربى وهذا امر طبيعى لايقلل من شأن الكتاب الذى يعتبر مصدراً مهما لتاريخ السودان الاوسط ولم يصل حتى الكتاب الاوربيين الذين زاروا المنطقة الى الدقة والمنهجية التى كتب بها التونسى كتابه.

[2] كثرة الاستدلال بالشعر ليس بالامر المعيب فى كتابة التاريخ، خاصة وان الادب بانواعه يعتبر مصدراً مهماً للتاريخ، واضحاً فى تراثنا الاسلامى، فقد كان معاوية بن ابى سفيان يلتمس من عبيد بن شرية الذى يروى له الأخبار بأن يأتيه بالاشعار التى وردت فى الأحداث، فيقول: سألتك الامر بشعر فيما قاله أحد (لاذكره)، وكان معاوية يستمتع بالشعر وأيضاً يعتبر الشعر هو الدليل على صدق الخبر، فيقول: "وأيك الله أتيت وذكرت عجباً من حديثك عن عاد، وقد علمت أن الشعر ديوان العرب والدليل على أحاديثها وأفعالها، والحاكم بينهم فى الجاهلية، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن من الشعر لحكمة." ينظر: د. حسين نصار، نشأة الكتابة التاريخية، ص ١٧، ١٨.

ليست موضع شك وان كنا احياناً يمكن ان نشك فيها وهذا مثال لذلك: فمثلا رواية الشيخ عن غزوة السلطان صابون ضد الزاني ومرتكب المحارم سلطان بـــاقرمى، هذه يمكن أن ترفض ويشك فيها، ولكن الرحالة الانجليزى "كلابرتون" قد احضـــر الى انجلترا مخطوطة عربية تكلمت فى جزء منها عن (باقر-مى) أو (بـــاقرمى) وقرأنا فى هذه المخطوطة ان هذا البلد قد افلس تماما، لان ســلطانه تحلـل عـن العادات الى ابعد درجة الى ان تزوج بابنته، عندئذ أرسل الله صابون أمـير وداى لتحطيمه وسلب بلده عقاباً له على هذا الكفر، والشيء المؤكد أن الشيخ لايعـــرف مراسلات كلابرتون، ولا كلابرتون يعرف رحلة الشيخ التونسي.

وهناك ايضاً مراسلات الامير جعفر التى أوردت هــذا الحــدث، وكذلـك بوهارو.

اقول كلمة عن اللوحات التى حواها هذا الكتاب: كان هناك شك يدور مــن قبل حول خريطة بيرون التقريبية، وهناك الصور الكثيرة التى ذكرت فى الكتـــاب عن اشخاص من وسط افريقيا هذه الصور رسمت من الطبيعة، وقد رسمها فنـــان ذكى، فرنسي الجنسية يدعى السيد ماشيرو، وكان لابد أن يقدموا امامه (وهذا ليس بالامر السهل) وهم اشخاص من وداى، ومن برنو، ومن مندرا، ممن كانوا وقتئـذ موجودين بالقاهرة، وقد لجأنا الى الحيل، وتدخل ايضاً السلطان ابومدين ســـلطان دارفور، وهؤلاء الاشخاص يجهلون مايفعل الرسام، ومن بيـــن هـــؤلاء: الفقيـه الهلالي، الذى اعطى بيرون معلومات مفصلة عن وداى، وان رسومات الاســلحة والملابس التى قام بها نفس الفنان من خلال النماذج الاصلية التى قدمت له، ومما تجب معرفته انه كان من الطبيعى أن يحضر الى القاهرة رجال من وداى، ومــن دارفور ومن باقرمي، ومن مندرا منهم من جاء للدراسة فى الجامع الكبير الازهر، والاخرون فى طريقهم الى الحج.

اما الخرائط فقد رسمت بناء على املاءات الشيخ، ومن خلال المقاييس التى ذكرها، كل الامم اليوم تتجه بانظارها الى وسط افريقيا، فمثلا فرنسا تمتلك الكثير من الابواب التى ستوصلها الى هناك قريباً اما انجلترا فلأن عزتها بالرحالة منـــذ

زمن بعيد، وكذلك الامر بالنسبة لبقية اوربا التي تنظر الـــى مستقبل العلاقـات التجارية ولتقدم علوم الملاحظة والرصد، كما أن وداى بعـد اكتشـاف الطريـق المباشر الى البحر اصبحت من النقاط القريبة جداً من السواحل الاوربية وكذلك برنو وباقرمي، ومن البديهي انه كان لوداى اهمية خاصة وان اوائل الرحالة الذين دخلوها وتعدوها كانوا ينتقلون من اكتشاف الى اكتشاف، فهناك مثلاً الكثير من العلامات المدهشة، وكانت لهم اكتشافات مهمة بالنسبة لعلم الاجنـاس الجغرافـي واللغويات.

وقد لاحظنا اخيراً وجود شعب اسود بدائي يملك حروفاً وكتابة خاصة بـه، وهو بلد موبي، وقد كتب لغتها السيد نوري الذى حللها من ناحية القواعد وتبـدو أنها بنيت بانتظام اذا حكمنا عليها من خلال عينة ذكرها السيد فورب، هذا البلد له مدارس وكتب أيضاً، وقد وجدت في وثيقة قديمـة وهـي عبـارة عـن اطلس انجليزى.. خريطة لافريقيا مع خرافة تدعو للفضول من أربعة أسطر ترجمتـها الحرفية كالتالي:-

"لقد علمت من أناس مؤمنين، قالوا ان البلد الذى يقع شمال ساحل غانا على بعـد حوالى مائة فرسخ تقريباً، هذا البلد مسكون بالبيض، او على الاقل سكان يختلفون عن السود، وانهم يلبسون الملابس، ويكتبون ويصنعون الحريـر، وكثير منـهم يحتفلون بيوم سبات المسيحي (الاحد) ومؤلف الخريطة لم يذكـر مصـدر هـذه المعلومات" لكن من الفضول ان نلاحظ ماينتجون في بدايات هذه الحضارة وقد مر عليها قرنان في مثل هذا الطقس، ان هذا العمل الفردى يبدو قد تلاشى تماماً عـن الانظار، ولهذا السبب تخيلت بأنه جدير بان اذكره هنا، ولكن كم مـن المشـاكل أثارت الفضول والبحث عن مستكشفين جدد، انه عالم افضل من العلماء القدمـاء في علم الاجناس الجغرافي، ولهذا أرسلت أوربا المهتمة اليوم بالعلم الى افريقيـا جهة اعالى النيل العالم المحترم كنوبليشر على خطى مواطننا الفرنسي السيد أرنو وفي نفس الوقت أرسلت اوربا علماء الطبيعة مثل بـارون ملـر الـى الشـرق والجنوب وكراين وريغية وليفنثون واوسـول الـى الشمـال، والسـيد الدكتـور

ريتشاردسون واعوانه وكثيرين ذهبوا بعده الى الجزائر والسنغال وناميبيا.. وغير ذلك.

ان النهضة الصناعية في اوربا اليوم قد جرفت معها كــل انــواع التقـدم ووسائل الحضارة، وكان من المستحيل الايحدث تغيير مستقبلي لافريقيـا خاصـة العبودية وتجارة الرقيق الداخلية، ان محبى الحروب وصيادى البشر سـيصبحون مع مرور الوقت اما رؤساء للقوافل التجارية واما تجاراً هادئين، وهكذا قيــل اذا عرف الافارقة ماتحويه ارضهم من كنوز غير نافذة، وانها قريبــة مــن اوربـا عشرات المرات من المستعمرات فى اسيا ومستعمرات العــالم الجديـد، فانـهم سيجهزون ليبيعوا لنا منتجاتهم وليس سكانهم وستصبح كل من: طرابلس وتونـس واخيراً المغرب مثل مصر والجزائر بوابات من خلالها تستهلك صناعتنــا ويتـم تبادلها مع المنتجات او المواد الغنية التى تملكها افريقيا، هذه الثورة لابد منها وكل يوم يقترب وقتها، ومصر التى تحررت نوعاً ما قد تكون مثــالا لبــاقى افريقيـا، وستقل مرور العبيد من خلال وادى النيل من منبعه الى مصبه، أى فى خط طول ١٢٠٠ فرسخ وهذه التجارة الكريهة لاتجد طريقها الى تركيا او فارس او الــهند، ومنذ زمن بعيد اعتادت القوافل الا تحمل من شواطئ النيل شيئا سـوى ثـروات الارض وبالتالى ستربح افريقيا اكثر مماتخسر، وستكتسب مصر قوة جديدة، وهذا هو الموضوع الذى انتقد فيه سيد مصر الذى عرف بذكائه التجاري، وقـد قصـد تقريباً ان يحتفظ بعلاقات جيدة مع اهل دينه، ويهيىء امبراطوريته التى يعدها فى نفس الوقت بتنمية كبيرة فى الجيش والبحرية، وكأن السياسة والدين طلبا منه هذه التضحية الروتينية، انه خطأ كبير جداً لايفلت منه أحياناً حتى الرجال العظام، وهنا فان عبقرية محمد على تركته ولم يقم بتحجيم هذه التجــارة الحزينـة الا مؤخـراً (تجارة العبيد) انه لم يستطع انهاء هذه التجارة ولكنه غيرها، فقد قدم الى مصــر أمير ذكى فقط فى مصالحه، وكان متأكدا من مساندة فرنسا وانجلترا له، ولحسـن الحظ انه كان موافقاً لهذه المسألة وقد نجح بدون صعوبة وكان تدخل تركيا لتعطيل هذه التغييرات دون فائدة حيث بدا واضحاً منذ نصف قرن تاثير وقـوة السلطان

على الساحل الافريقى وعلى ضفاف النيل حيث اخذت هذه التجارة فـــى التدنـــى باستمرار الا فى طرابلس فانها ظلت تحتفظ على طول خط الاســـتواء بعلاقـــات حقيقية ذات طابع استعمارى.

ان الاحتلال الحالى لسواكن ومصوع فى الحبشة لايتصور الابسبب احتلال الجزيرة العربية التى تقع فى واجهة هذه المدن، ولكن هل حقاً اخضعت الجزيـــرة للاستعمار؟ ان النار التى أوقدها الوهابيون من قبل لاتنتظر الاشرارة لتشتعل مـــن جديد، وابراهيم باشا موجوداً لاطفائها.

جومار،،،

ملاحظة حول كتيب (تاريخ جعفر)

حتى يتمكن القارئ من القيام بمقارنة بين مراسلات الشيخ ومراسلات الامير جعفر، ذكرت هنا بعض الفقرات لمراسلات الامير جعفر:

ان وداى مملكة وراثية مدى الحياة، ويقول جعفر إنه الابن الحادى عشر لرجل ابيض، وان عمه نصب على عرش باقرمى عن طريق السلطان صابون بعد طرد سلطان هذه المملكة عام ١٨٠٤م بسبب حياته الاباحية، وانه توجد في باقرمى بحيرة هادئة يمكن الدوران حولها خلال خمسة عشر يوماً، ان باقرمى مثل وداى فيها الجبال والهضاب والوديان الكبيرة والصغيرة، ومناخها حار جداً وفي نهاية الصيف تهطل امطار غزيرة.

وفى باقرمى أنواع مختلفة من الفواكه ويوجد فيها البن بكميات كبيرة وبشكل سلعة تصديرية، وليس فيها المناجم والذهب والاحجار الكريمة، وتعتمد تجارة باقرمى على الرقيق بشكل اساسى، وكذلك سن الفيل وريش النعام، ويتغذى شعبها بالارز او الدخن، وكذلك لحوم الحيوانات الاليفة والسمك، بالاضافة الى المنتجات الوفيرة حول البحيرات والوديان.

وتظهر على ارضها الزرافة وفرس النهر ولكن لايوجد فيها التمساح، اما العساكر ففيها اعداد كبيرة وهم مسلحون بالاقواس والحراب والدرق المصنوعة من جلد الجاموس، او من جلد فرس النهر، ويحمل بعضهم السيوف والاسلحة النارية التى يحصلون عليها من طرابلس، ويوجد فى العاصمة اربع وحدات عسكرية، والقوة الاصلية هى الفرسان الذين يركبون على خيول ممتازة ذات اصل عربى.

ومدينة واره بنيت بالطوب المصنوع من الطين المجفف على الشمس ومساكنها ذات طابق واحد فقط ماعدا القصر والجامع الكبير اللذان بنيا بالحجر والصقالات، وحريم السلطان يحرسهن عدد من الرجال الخصيان، وتأتى عائدات الدولة من الضرائب المفروضة على منتجات الأرض، اما الاقاليم فتدفع الضرائب نقدية فى واره وفى موعد محدد، وقيمة المبلغ تحدد بطريقة غريبة جداً، فقد كانوا

يعلقون الاموال على فرع شجرة ما حتى ينكسر هذا الفرع، وعندئذ يقولـــون: ان الاتاوة كاملة.

والمحمديون كثيرون جداً، وهم الاغلب، والوثنيون ايضاً كثيرون وهنـــاك أيضاً عباد النار، وبعض المسيحين الاولين، وهم سود، وهناك آخـــرون لونـــهم نحاسي، ويسكنون الجبل، وهنا أضاف ناشر المراسلات مايلي:

ان وجود قبيلة ليست مسلمة ولاوثنية ليس هو الشيء الملفت فقد سمعنا عدة مرات عن وجود مؤسسة مسيحية جنوب جبل كمرى فى الداخل ويفترض بعـــض الناس بأن هؤلاء القوم مسيحيون لانه ليست لهم مساجد وان الوانهم تختلف عـــن الوان جيرانهم، والبعض الاخر يعتقد بانهم يهود ينتمون الى قبيلة تشتتت منذ زمن بعيد، على كل حال، فانه من المؤكد وجود اسرة معزولة فى قلـــب افريقيـــا لـــها عادات مختلفة تماماً عن عادات الزنوج، وفيما يخص هذه النقطة نقدم هذا الجـــزء من رسالة رسمية بتاريخ ٢٤فبراير ١٨١٧م، حيث جاء فيها:

يجب أن اعرفكم ماعلمته عن وجود قبائل مسيحية فى قلب افريقيا، وكانوا يعرفون بأنهم جنس زنجي قوى جداً، ولكنني لم استطع اكتشاف أى ملاحظة تـــدل على ان لهم صفة دينية، صليب او أى شعار اخر، وعندما يأتون الى السوق فانهم يعتنقون الاسلام فوراً، وهناك الكاتب الفرنسي الذى مكث خمسة وعشرين عامـــاً فى خدمة باشا طرابلس حيث قال:

ان كثيراً من هؤلاء قد اختيروا من بين اكثر الناس جمالاً، وعندما وصلنـــا الى الميناء سمعنا على ظهر احدى السفن المسيحية اجراس المساء، وفى الحـــال عندما سمع هؤلاء الذين كانوا فى الميناء، تلك الاجراس فرحوا، نـــادوا رفاقـــهم وسلموا عليهم بالاحضان، حيث وصفوا لهم تلك السفينة التـــى أتـــت منـــها تلـــك الاصوات ورددوا كلمة: (كمنانى) وهى كلمة محرفة من الايطالية، وعندما سألهم المترجم قالوا: ان فى مدينتهم الاصلية يوجد مبنى كبير دون صنم او برش او كنبة وفي هذا المبنى كانوا يستمعون الى نصح الراهب.

وهناك شيء اخر يدعو الى الفضول، وهو أن اخر بيه لبنغازى كــان قــد احضر فى شبابه كعبد، قال انه يتذكر احتفالات فى بلاده تشبه الصلوات المسيحية وكانوا يستعملون النبيذ المقدس.. ان عدم الختان بالاضافة الى استخدام الاجــراس والنبيذ كل ذلك يؤكد بأن الاسلام لم يكن يسيطر على هذا البلد، ويبدو لــــى مــن خلال هذه المراسلات المختلفة انه فى الوقت الذى فكر فيه الرحالة الجدد الدخول الى قلب القارة حتى يقتربوا من اماكن الحدث الذى اخذته من اسـطورة خريطــة هيرمان فول، يبدو ان هذا الحدث قد اهمل تماماً فى ذلك الوقت.

الفصل الاول

في سبب ارتحالي من دارفور الى وداى

إعلم انى بعد ذهاب والدى من دارفور أقمت سبع سنين وكسور وكنت فى تلك المدة أجوس خلالها وأتفيأ ظلالها، وأجول فى بلدانها، واعاشر سكانها، فكنت طوراً بمشرقها، وطوراً بمغربها، وطوراً بصعيدها، ولخر بمهب شمالها، على حد قول الشاعر:

يوماً بحزوى ويوماً بالعقيق وبال　　　عذيب يوماً ويوماً بالخليصا(١)

ومع ذلك مادخلت بلدة الا واجتمعت على كبرائها، ولا ولجت قرية الا نادمت علماءها، استقصي منهم أعمال قل وجل، واستمطر الوبل والطل، انتهز الفرص ولا أدع فى قلبى محلاً للقصص، حتى عرفت قليلها وجليلها، ومأمورها واميرها، ولما أتممت عرفان ماكان مجهولاً، ونلت من كل ماطلبته مأمولاً، توجهت آمالي للاستقرار، واكتساب الدرهم والدينار، فبينما انا قار فى مكاني راض بما الله اعطاني، منهمك فى طلب معاشي، مقبل على كل امر فيه ارتياشي، اذ جاءني من والدى كتاب فيه بعد السلام:

انى اريد ان اتوجه الى أمي بتونس، واريد ان لا اخلف وراء ظهرى أحداً ممن له علقة بي، فاذا اتاك كتابي هذا فعجل الينا بالقدوم، ليكون الشمل بسلككم منظوم، واياك أن تترك احداً من العيال، وليكن ذلك من غير اسهال، والسلام.

فحين عرفت مضمونه اهتززت للسفر، وتأهبت فى ايام يسيرة، ولم أدر مايجرى به القدر، وخرجت من البلدة التى انا فيها بجميع ماعندى من العيال، وتوجهت الى الفاشر لاخذ الاذن فى السفر، الذى استقر عليه الحال، فحال حلولى بفاشر السلطان، بلغنى ان السلطان محمد عبدالكريم سلطان وداى، غزا قبيلة

(١) يقال هذا البيت للرجل كثير الترحال، كما هو حال هذا الشاعر الذى اخذه يوماً بالعقيق وآخر فى عذيب، وثالثاً بالخليصا، وهى اماكن متباعدة.

التاما[1]، وهي قبيلة عظيمة لها حاكم مخصوص بها، يسمى سلطاناً كما تقدم ذلك، وأرضهم كلها جبال، وهي (أي قبيلة التاما) من رعايا الفور، فارجف بدارفور أن السلطان المذكور غير مقتصر على قبيلة التاما بل يريد اخذ مملكة الفور أيضـــاً، وسمع السلطان محمد فضل ذلك[2]، فرجف فؤاده وطار رقـــاده، واظـــهر الات السفر والمحاربة، ونوه على الرحيل في أيام متقاربة، فلما استقر بي الحال، دخلت عليه لأستاذنه في السفر الى والدي كما أمر، فعبس وتولى، واستتر[3] بشره الذي كان لاهل المجلس تحلى، وقال: عجباً لأبيك وأفعاله ومايبدو لدينا مـــن أعمالـــه، أيظن اننا لانستشعر بما أضمره ويخفي علينا الأمر الذي دبره، ايريد أن يـــاخذك عنده، ويريح فؤاده الا لما يعلم أن سلطانه قادم علينا، وأن جيشه عن قريب واصل الينا، فأراد بأخذك نجاتك من قسطل المحاربة، ومن وقع السيوف وقت المضاربة، ونحن لاندعك أن تتوجه اليه، فلا نطمع بأن تقربك عينيه، ثم أمر الشيـــخ عبـــدالله دُكسا، الاحتفاظ عليّ، حتى ينفصل الحال، والشيخ عبدالله دُكسا هو الاب[4] (شيخ)

---

(١) التاما: قبيلة افريقية مؤثرة في احداث السودان الاوسط، وتقع دار تاما غرب دار قمر على الحدود بين وداي ودارفـــور، وكـــانت دائماً همزة وصل بين الدولتين، ولكنها كانت تابعة لدولة الفور، ولها نظامها الاداري الخاص بها، وتدفع جزية سنوية لدارفور ونظراً لموقعها الاستراتيجي كانت كثيرة النزاع مع الدول المجاورة لها خاصة المساليت ووداي.

ينظر: Macmichael, H.A: Nubian elements in Darfer. S.N.R. (١٩١٨). P.٨٥.

(٢) السلطان محمد فضل: هو ابن السلطان عبدالرحمن الرشيد، وكان اكبر اولاده حين اعتلائه العرش، فقلده الاب شيخ والفقيـــه مـــالك الفوتاوي السلطنة، تولى سلطنة واسعة بعد ان مهد له ابوه البلاد، واخضع له العباد، فسار على نهج ابيه من القوة، فشهد عصره حروباً مع الدول المجاورة خاصة وداي، واستطاع ان يحافظ على دولة الفور ويوطد علاقاته مع الخارج وكان الشيخ احمد بن عمر التونســـي احد شهود العيان لدولته. ينظر: تشحيذ الاذهان ص ١٢٩.

(٣) في الاصل: واستبشر بشره.

(٤) الاب شيخ: هو منصب رفيع في دولة الفور، بل يعتبر اهم المناصب وأشدها خطراً، فهو الرجل الثاني بعد السلطان، وهـــو الوزير الاعظم، أي رئيس الوزراء، والقائد العام للجيش، فضلاً عن حكمه لاحدى ولايات دارفور الاربع، والمعـــروف في دولـــة الفور لا يتولى منصب الاب شيخ الا احد خصي وان تولاه محمد كرا في عهد السلطان عبدالرحمن الرشيد وهو مـــن الاحرار، وسبب ذلك يقال ان محمد كرا قد التحق بحرس السلطان تيراب وأصبح مشرفاً على تربية اولاده ومصالحه الخاصة، ويقـــال أنـــه خصى نفسه بيده ليدفع عن نفسه تهمة خيانة سيده، فالحقه السلطان بخدمة احد الوزراء فابدى مهارة فائقة في عمله فكل ذلك أهله في التدخل في شؤون السلطنة العليا حتى تمكن من مساعدة السلطان عبدالرحمن الرشيد في الوصول الى كرسي السلطنة بعـــد وفـــاة اخيه السلطان تيراب، فعينه في منصب الاب شيخ، فاتسع نفوذه فبالاضافة الى مهامه المذكورة أصبح الاب شيخ هـــو المرجـــع في تفسير قانون دالي، وهو القانون الذي تحكم به سلاطين الفور دولتهم.

ينظر: نعوم شقير، تاريخ السودان وجغرافيته، ج٣، ص ١٣٦. - تشحيذ الاذهان، ص ٦٢، هامش ٨.

الذيولي عوضاً عن الشيخ محمد كراء الذى أسلفنا ذكره[١] ، فأخذني الشيخ عبدالله، ووضعني انا ومن معي في دار امام داره ووكل بحراستي عشرة أنفار من أتباعه فجاءوا بحذافيرهم، وجلسوا على باب الدار، وفي سقيفتها، ومنعوني الخروج من باب الدار وكانوا بالليل يتناوبون الحراسة على التعاقب، اثنين اثنين، لكن كانوا لايمنعون اتباعي من الخروج لقضاء شئوني، فلما رأيت ذلك داخلني من الغم ما الله به عليم، وبقيت في واد من الفكر أهيم، لكن صانعت كبيرهم بالاحسان، وصرت ادعوه لطعامي واجعله في كل رأي أمامي، ومن لطف الله تعالى كان في طبعه رقة، فلاطفني وصار يقوم لقيامي، ويسرع بقضاء مرامي، وبقيت على تلك الحال حتى نفذ زادي، وقل اعتدادي، فطلبت ان ارسل الى اقطاعي واتي بشيء منها يكون به استمتاعي، فمنعت ذلك، وكان مانعي هو الفقيه مالك، فطفقت أبيع من رقيقي، فتنكر لي كل منهم بعد ان كان رفيقي، فتحيلت إذ ذاك احدي الجواري وفرت، ولم ادر في اي محل استقرت، فأردت الخروج نهاراً للبحث عنها[٢] ، فمنعت منه جهاراً، وقيل لي: إن في خروجك بالنهار عصياناً لأمر السلطان، وإن بلغه(لأعلن)[٣] منا الانتقام لهذا الشان، فاصبر الي ان يجن البهيم، وينقطع التهويم، وأذهب معك حيث تريد، وما انا لك الا كأحد العبيد، فأصغيت[٤] لقوله الجميل، وصبرت حتي جن الليل، فخرجت وتبعني هو وواحد من أتباعه، فتوجهت الي دار الفقيه مالك، واخبرته بفرار الجارية، وان دموعي على فقدها جارية، فتأسف علي حالي في الظاهر، وأعد خروجي في الليل من المناكر، وقال:

أعلم ياولدي إن مولانا السلطان شديد الغيظ علي أبيك، وإن علم بخروجك ربما يؤذيك، فإن حدث لك بعد هذا أمر مهم أرسل اليّ وأنا أسعي فيه بجهدي، فقلت له: كيف أصنع في هذه القضية التي دهتني بكل بلية، فقال: كن خالي البال، مطمئن الحال، وأنا أرسل الي كل الجهات، وأسأل عن جاريتك كاملة الصفات،

---

(١) عبارة: "أسلفنا ذكره" يقصد بها وروده ذكره في كتاب لبهجة الأذهان.

(٢) في الأصل: للبحث عليها والصواب: عنها.

(٣) في الأصل: وإن بلغه لأنا من الانتقام.

(٤) في الأصل: فصغيت.

فقلت: يامولاي قد فني زادي، وكثر لفقانه سهادي، وبعـت إحـدي[1] الجـواري لأقوت بثمنها الزراري، فهلا تستأذن لي حضرة المشار اليه في إتيان شيء مـن الغلال، يحسن لي به الحال، فقال: لك عليّ ذلك، ورب هذا الليل الحالك، فخرجت من عنده مغتبطاً بمقاله، شاكراً لأفضاله، وتوجهت الي داري، فمكثت مدة لم يظهر لما قاله أثر، ولا جاني عن الجارية ولا عن الاذن بمجييء الغلال خبر، فعرفت ان الأمر مموّه عليّ، وان كل ما قاله أمامي لا يغني شيئاً، فكتبت له ورقه فيها بعد ما يليق بمقام والدي العزيز، إن الانتظار يرث الاصفرار، وان من علامـة الإيمـان الوفاء بوعد اللسان، وقد صبرت أمداً طويلاً، ولم أر من إنجاز الوعـد كثـيراً أو قليلاً وقد قال تعالي في الكتاب المكنون:

" يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون[2] "

واعلم مولاي اني صرت صفر اليدين من الغلة والعين، وقد نفذ ثمن الجارية التي بعناها، والأمر محتاج الي الأقوات التي القلب[3] أواها، فالمؤمل مـن مـولاي أن يبرد حر الألباب، برد الجواب، وارسلته صحبة أحد الحـراس[4] ، فغـاب مليـاً وحضر وأخرج لي جواباً فيه بعد التحية: ان المال لا يدخر الا لمثل هذا الحـال، وقد طلبنا من حضرة السلطان اطلاقك[5] ، فهاج غضبه وأوري لهبه، ولم يرد لي جواباً شافياً، فأصبر حتي يحكم الله بأمره، وهو خير الحاكمين، ولولا أنك من أهل البيت المكرمين، لكان الأمر علي غير ذلك والسلام.

فلما قرأته وفهمت ما حواه، زاد لهيب القلـب وجـواه، فصـبرت علـي مضض، لعدم قضاء الغرض، وبعد ذلك بأيام، أبق مني جاريتان وغلام، فندمـت علي إباق الرقيق، وصليت بإباقهم نار الحريق، وقطعت الرسائل بيني وبين الفقيه مالك، ولم اعلمه بشيء من ذلك، وحينئذٍ لم يبق عندي الا جارية عوراء وسـرية

---

[1] في الأصل : أحد الجواري.

[2] سورة الصف، الآية (٢).

[3] في الأصل: "الي القلوب أواها"

[4] في الأصل : أحد الحارسين.

[5] في الأصل : مطلق بك والصواب: طلاقك.

لعمي، وأخري لي، وعبدين سداسيين، فما راعني أن أصبحت فلم أجد سـريتي، فقامت لذلك قيامتي، فصرت كالطائر الذي لا يجد مناماً مـن ضيق الأقفـاص فدعوت رئيس[1] الحرس، وأعلمته بما حدث، فتحزن وتحسر، وتلهف وتضجـر، وسلاني ببعض الكلام حتي أمسي المساء، فخرجت معه قاصداً دار الفقيه مـالك المذكور، لاحكي له ما وقع من الأمور، وبينما أنا واياه سائرين، اذ دهمتنا كبة من الخيل، وكان السلطان في تلك المدة يطوف بالليل بنفسه، ويتولي الحرس خوفاً من الجواسيس والدخلاء[2]، بل كلما وجد انساناً مجهولاً قتله، فقتل اناساً كثيرين علي ذلك الحال، لأن اذ ذاك السلطان محمد عبد الكريم لم يرجع الي بلاده، فقال أحـد الفرسان: من انتم، فقلت أنا الشريف محمد بن الشريف عمر التونسي، فقال لـي: قف مكانك، حتي يأتي سيدنا، فوقفت، فتلاحقت الخيل وأحاطت[3] بي، وصـاحبي كان حين سمع بوقع حوافر الخيل فرّ كما يفر الطير، وبعد هنيئة جاء السـلطان، ومن لطف الله تعالي أن جاء معه أحد وزرائه، وكـان مـن أحبـابي، واخلـص أصحابي، يقال له الملك سليمان تير، فوقف السلطان، وقال : من هذا، فقـال لـه الفارس الأول وكان يعرفني: هذا الرجل الذي أبوه فـي دار برقـو، فقـال لـي السلطان: يا هذا، ما الذي أخرجك في هذه الساعة، فشكوت لـه حـالي وضيـاع رقيقي ومالي، وأسناني تصتك من الفزع، فقال: أليس قد وكلنا بك جماعـة مـن الحراس، فقلت نعم، ومنهم جاءني الضر والبـأس، لانـهم يمنعونـي الخـروج، ولايمنعون رقيقي، حتي لم يبق لي منهم أحد، واني تحيلت علي الخروج في هـذه الساعة، لأذهب الي دار الفقيه مالك، وأخبره بما وقع لي من الضنك والمهالك لعله يخبر مولانا، اما أن يمن باطلاقي، أو يأمر بقتلي، فانه خير من إبقائي علي هـذه الحالة، فقال السلطان: ولم؟ فقلت: يا أمير المؤمنين، انه قـد نفـذ زادي، وفنـي اعتدادي، وفرت جواريي، وبقيت أياماً لا أذوق طعاماً، ولقد أصابني من الجوع ما

[1] في الأصل : فدعوت برئيس الحرس .....
[2] في الأصل : "والدخيل".
[3] في الأصل :" احتاطوا بي".

متعني الهجوع حتي انني لاضطراري اختلست حفنة من عليق حمار جاري، واكلتها كما تاكل الدواب، وقد لصقت يدي بالتراب، فحينئذٍ تقدم الملك سليمان تير، وقبل ركبة الملك، وقال: أعز الله مولانا، ان هذا الرجل مظلوم، وهو هنا الآن وقدره لديك معلوم، وعادة آبائك كعادة سعادتك، اكرام الأشراف والنظر إليهم بعين الرحمة والاشفاق، فنتوسل الي سيدنا أن لا يؤاخذه بذنب أبيه، وان يغمره بالاحسان وللجميل يوليه، فلما سمع السلطان مقاله هزته أريحية الكرم، ونخوة حسن المكارم والشيم، وقال: قد رفعنا عنك الحراس وأبحنا لك الاجتماع بالناس، لكن لا نطلق لك السراح، الا إن تحققنا أن ملك البرقو ترك الحرب وراح، فاستبشرت بذهاب الأنكاد، وأملت أن اليسر قد عاد، فقلت اسأل مولانا أن يطلق يدي لضيعتي لتكون منها معيشتي، فانه لاضر بعد بؤس، ولا عطر بعد عُرس، حتي يأذن لي مولاي بالرحيل، ولك عند الله الثواب الجزيل، فأجابني لمطلوبي، وأنالني اقصي مرغوبي، وقال: قد اطلقنا يدك لضيعتك، فرجعت وانا فرح بما حصل، مسرور بنيل الأمل، وكان من وقت ما رسم عليّ الي تلك الليلة أكثر من اربعة أشهر، فذقت اذ ذاك حلاوة الأمن، بعد مرارة الخوف والجزع، وقلت هذا مصداق قوله صلي الله عليه وسلم:

" لو كان العسر في جحر ضب لتبعه اليسر حتي يخرجه "[1]

ومصداق قوله تعالي:

"فان مع العسر يسرا"[2] ..

ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: " لن يغلبه عسر يسرين"[3]

ومن قبيل ماوقع لى من العسر ماحُكى أن الشيخ الامام الحافظ ابا حفص ابن شاهين المحدث، كان فى دكان رجل عطار فى بغداد، وكان ذلك العطار يقرأ على الشيخ جزءً من الحديث، وبينما هو ذات يوم فى الدكان المذكور اذ جاءه

---

(1) الحديث : رواه الطبراني، وفيه ابراهيم النخعي، وهو ضعيف، مجمع الزوائد ٧/١٣٩ .

(2) سورة الانشراح، الآية:٥،٦ .

(3) أخرجه القرطبي في تفسيره (٢٠/١٠٧) رواه الحاكم في المستدرك عن أنس مرسلاً (٢٠/٥٢).

رجل من الطوافين الذين يطوفون بالعطريات في الأزقة، ومعه خمسة دراهم وطبق، وكان رجلاً مسناً، فقال للعطار: اعطني بهذه الدراهم أصنافاً من العطر سماها له، فاخذ العطار الدراهم ووضع له في الطبق من العطر مايساوي الخمسة دراهم، فأخذها الرجل وانتقل من محله واراد أن يذهب، فزلقت برجله وانكب الطبق بما فيه على الارض، فجزع الرجل جزعاً عظيماً، وصار يحثو التراب على رأسه، فلما رأه الشيخ على الحالة، رق له، وقال له: ياهذا، لاتجزع هكذا، واعلم بأن أمور الدنيا كلها أهون من ذلك، فقال له: يامولاي لقد علم الله تعالى اني لست جازعاً على الخمسة دراهم، واني لأعلم أنها شيء يسير، ولقد كنت في القافلة الفلانية في السنة الفلانية وأنا أحد التجار، وضاع مني اذ ذاك هميان[1] فيه أربعة الاف دينار، وفصوص يواقيت، وماس تساوي أربعة الاف أيضاً، فماجزعت ولاهلعت، وذلك لاني أعلم ان عندي غيرها، ولكن يامولاي أني الان في قل[2]، ولم يبق عندي من العين الا هذه الخمسة دراهم، وقد ولد لي ليلة البارحة مولود، واحتجت أن اتي لأمه بما تحتاجه النفسا[3]، وخفت ان اشتريت لها بهذه الدراهم أبقى بغير رأس مال، ولا أقدر على التكسب، فخطر ببالي أن أشترى بها عطراً، وأطوف به صدر النهار، لعلي أحفظ رأس مالي واستفضل منها شيئاً أسد به رمق النفسا، فلما انكب الطبق علمت أنه لايعني إلا الفرار، فجزعت لذلك، فقال الشيخ أبوحفص للعطار: أجمع له من الأرض من العطر ماتقدر على جمعه، وكمل له مانقص، وأجرك على الله، فامتثل العطار وجمع ماقدر على جمعه، وكمل له من عنده، وكان أمام دكان العطار، دكان آخر جالس عليه رجل من الجند، وكان يسمع حكاية الطواف فقام وقال للشيخ أبي حفص: يامولانا أريد من فضلك أن تشرف منزلي أنت وهذا الرجل الفقير، فقال الشيخ في سره لعله يريد أن يعطيه مايسد به رمق النفسا، ويعينه على حاله، فأخذه الشيخ وتوجه به الى دار الجندي،

---

(1) الهميان: شيء ليحفظ فيه النقود والاشياء النفيسة.

(2) في قل: أي في شح وفقر.

(3) النفساء أو النفسا هي المرأة التي انجبت حديثاً ولم يتجاوز عمره الاربعين يوماً.

متقاربتين ويقطع الجلدة التي بينهما (ثم) يقطع كذلك كل حد أربعة او خمسة، ثم يضع القرن ويجذب الدم، وبعدما يكتفي من اخذ الدم يقلع القرن، ولايضغط على محله بيده، ولابشيء اخر بل يضع في محل الجروح قطناً، فيحبس الدم هنا ويجمد، ويبقى كالغدة ويباهين الغدتين[1] يفتخرون، ومن لا غدتين له، يسمى عندهم جباناً فيهان ولايكرم، وهاتان الغدتان يقال لهما في عرفهم دومتان تشبيهاً لهما بالدوم، الذي هو ثمر المقل، ويعيّرون الأعراب، الذين لم يكن لهم غدد مثلهم، ويقولون هذا من الجبن والخوف، ولو كانوا شجعاناً لكانت لهم دومات، لانهم يعتقدون ان الشجاعة انحصرت فيهم، وان شجاعة غيرهم مهما بلغت[2] فهي بالنسبة لهم كلا شيئ؛ وكلهم عاريوا [3] الرؤوس كما ذكرنا الا كبيرهم، فعلى رأسه عرقية سوداء، وعلى كتفه ملاءة تدعى عندهم بالملحفة، فنزلوا عن خيولهم بعيداً عنا، ودعونا فسرنا اليهم، فقال كبيرهم: ان العقيد[4] يسلم عليكم، فحيينا، ودعونا له وللسلطان، ثم قال لنا: من أنتم، وماذا تريدون، فقلنا له كما قلنا اولاً، فدعانا وكتب أسماءنا فرداً فرداً، وكم مع كل انسان منا من جمل، ومابضاعته وما اسمه، وماقبيلته، وماحاجته، ثم قال لنا: قيلوا وبعد القيلولة إرحلوا بنا الى دار الفقيه، فقلنا له: سمعاً وطاعة، فقيلنا وأكلنا وشربنا ونمنا، حتى انبسط الظل، وانكسر حر الشمس، فأمرونا بالتحميل، فحملنا، وركبوا خيولهم واحاطوا بنا، وسرنا سيراً حثيثاً فدخلنا البلد التي فيها العقيد آخر النهار، قبل غروب الشمس بقليل، فأدخلونا في دار العقيد، فوجدنا داراً في وسطها بطحاً واسعة، تقرب من رميلة القاهرة فأشاروا لنا على جهة منها، فأنخنا المطي فيها، وبعد أن رتبنا مايلزمنا ترتيبه دعونا فقمنا جميعاً فأدخلونا وسط الدار، واجلسونا بازاء ستارة، ساتر من المرهبيب، وخرج لنا رجل وقال: إن العقيد يسلم عليكم، فرددنا السلام، فقال لنا العقيد من وراء الساتر: من انتم؟ وماذا تريدون؟ ومن أين اقبلتم؟ وما معكم من البضائع؟ فقلنا له ماقلناه

---

(1) في الأصل: ويغدين الغدتين.

(2) في الأصل: وان شجاعة غيرهم وان بلغت....

(3) في الأصل: عاريون الرؤوس....

(4) العقيد: هو حاكم الاقليم الشرقي من دولة الوداي، كما هو مبين في هذا الكتاب....

وقل (له) يخرج في هذه الساعة بعض الشواني يتجسسون الاخبار، وأرسل فرساناً يذهبون الى اطراف البلاد، وينظرون ماحدث، ويأتون بالاخبار، فقال الوزير: سمعاً وطاعة، وذهب الى قائد البحر وامره بأخراج احدى الشواني[1] كما امر الملك، واخرج فرساناً كذلك، فاخرج قائد البحر احدى الشواني وشحنها بالرجالة فجرفوا بالمجاديف، وساروا ملججين[2]، فلما ابتعدوا عن الساحل سمعوا انساناً ينادي ياغياث المستغيثين يا غياث المستغيثين ثلاث مرات، فنادوه لبيك لبيك، ويمموا نحوه وادركوه، واذا هو رجل في اخر رمق، فأخرجوه من البحر وسالوه عن حاله فقال: انا كنت في سفينة وقد انكسرت وتمزق شمل أهلها مابين غريق وناج ولي ثلاثة ايام وأنا اسبح، ولو لم تدركوني في هذه الساعة لهلكت، فاخذوه ورجعوا من حيث اتوا، فلما اصبح قائد البحر وجد السفينة والرجال الذين ارسلهم، فسألهم لمَ لمْ يذهبوا؟ فحكوا له القصة واروه الرجل الذي وجدوه، فقص عليه قصته، فقال السلطان: سبحان من ارقني لغريق في البحر حتى انجاه من ظلمات ثلاث: ظلمة الليل وظلمة الوحدة وظلمة البحر، فسبحان القادر على كل شيء.

قال الشاعر:

إن الامور اذا التوت وتعقدت … نزل القضاء من الكريم فحلها

فاصبر لها فلعلها ولعلها … ولعل من عقد الامور يحلها

ولنرجع الى ماكنا بصدده، فبت ليلتي وانا في غاية من السرور، ولما أصبح الصباح جاءنا فلقاوي[3] من طرف الاب شيخ عبدالله دكسا، واخذ الحراس بأجمعهم، كفانا الله همهم، وفي ضحى ذلك النهار توجهت الى دار الفقيه مالك وأعلمته بماحصل، فأظهر الفرح والاستبشار، وان كان في قلبه المقيم المقعد من

---

[1] في الاصل: أحد الشوان: وهو خطأ والصواب احدى.

[2] ملججين: أي سائرين الى لجة البحر ووسطه.

(٣) فلقاوي: الفلط المفرد، وجمعه فلاقة، ويقوم الفلاقة عادة بخدمة السلطان وحراسته كما يقومون بحمل الرجمة وخدمة الضيوف في القصر.

ينظر: تشحيذ الاذهان، ص ١٥٤.

حر النار، ثم اني أرسلت الى ضيعتي وقوتُ عائلتي ومكثت في الفاشر حتى توالت الأمطار بصبيها المدرار، فامرت بالرجوع الى أبي الجُدُول[1]، وأن اقيم بـــها ولا أحول، فارتحلت على الفور اليها، واقمت بين أظهر اهلها، واكـــثرت مـــن زرع الحبوب لاسيما الدخن المرغوب، فنشأ زرعي على احسن حال، حتى تفاءل لـــي الناس بحسن الحال، ولازال كذلك حتى امتلأ سنبله حباً، ومالت قلوب الناس اليـــه حباً، وقبل إبان حصاده بقليل، قدم عليّ من ملوك الفور ملك جليـــل والزمنـــي أن اصاحبه في سفره، واكون جليسه في حضره، ووعدني بكل جميل ان وافقته على ذلك، فارتحلت معه من ابي الجدول رغبة في رفده، وطمعاً فـــي انجـــاز وعـــده، فسرت معه مسيرة يوم، وبت معه في بلدة له فيها اصهار، فمنعوه الذهاب وضيفوه ضيافة حسنة، وهو يلاطفني ويحييني، واذا دعوته[2] يلبيني، وبينما انا احسن معه حالي، بالبيان الحالي، اذ وصل الينا أحد رسل السلطان المدعوين بالفلاقنة في تلك الاوطان، فحيى الملك ومن حضر، وقال: أيكم ابن الشريف عمر؟ فقلت لـــه أنـــا ذاك، جعلت فداك، فقال: إن السلطان يدعوك اليه، لتشرف بـــالمثول بيـــن يديـــه، فأجبت بالسمع والطاعة، وجزعت حتى ظهر اثر الجزع للملك والجماعـــة، فقـــال لي: لم هذا الجزع والخوف والفزع؟ فقلت لاني لا أعلم لماذا يدعوني فقـــال: دع عنك هذا الوسواس، فما عليك في هذا الطلب من بأس.

وعلى ذكر لفظ ماعليك من باس تذكرت حكاية وقعت من بعـــض الملـــوك وصورتها أنه كان له نديم ينادمه على الشراب، وكان له على الملك عادة، وهـــي انه كلما نادمه ليلة يعطيه جائزة، فوقع انه نادمه في احدى الليالي ولم يجزه بشيء، ثم انقضى المجلس وذهب الى داره، فقامت اليه زوجته فلم تر معه شيئاً، فقـــالت له: اين الجائزة؟ فقال لم يعطني شيئاً، فقالت: أنا اعطيك، ثـــم دعـــت بجواريـــها

---

(1) أبو الجدول: منطقة كبرى تقع جنوب الفاشر، وكانت زمن المؤلف تشتمل على عدة قرى بينها وبين سوق الدحاج مسافة ســـتة ايام.

ينظر: تشحيذ الأذهان ص ٦٠.

(2) في الأصل: (واذا دعوت).

فحضرن، وأعطت كل واحدة منهن خفاً، وهي الاخرى ونزلت في ساحة قفــــاه[1] وتبعنها في ذلك حتى انضجنه، ولما أصبح الصباح نوى الملــك علــى الشــرب، فارسل للنديم يدعوه ليحضر المجلس فلم يقدر على الذهـــاب، لان قفــاه أصبــح متورماً للغاية، فكتب للملك ما أصابه في ليلته تلك، وكتب في اخرها بيتين يقـــول فيهما شعراً:

وتراسلت بيض الاكف كأنها الـ ... ـضيق عند مجالس الاعراس

وتتابعت سود الخفاف كأنهـــــا ... وقع المطارق من يدي خاس

فلما وقف الملك على الرقعة والبيتين كاد أن يهلك من الضحك، ودعا بالقاضي ورمى له الرقعة، وقال له: أجب عن هذين البيتين، فاجاب عنهما بقوله:

فاصبر على أخلاقهن ولا تكن ... متغلقاً الاخلاق النـــــاس

واعلم اذا اختلفت عليك فانه ... مافي وقوفك ساعة من باس

فارسل اليه الملك البيتين وجائزة حسنة.. أهـ.

ومما يلحق بهذه الحكاية، ماوقع لأبي نواس، وهو أن الخليفة هارون الرشيد دعا باحدى جواريه، وقال لها اني معطيك لأبي نواس، وايـــاك أن تمكنيــه مــن نفسك، بل كل ماطلب منك خذي الخف وانزلي في ساحة قفـــاه، فقـــالت: ســمعاً وطاعة، ثم دعا بأبي نواس وأعطاه الجارية، ففرح وأخذها وتوجه بها الى منزله، ولما كان الليل أراد فيها مايريد الرجل من أهله، فنزلت في ساحة قفاه، فقال لـــها: ولم ذلك؟ فكانت لاتتكلم حتى ظن أبونواس أنها من البكم، وصـــارت كلمــا مــد أبونواس يده اليها نزلت في ساحة قفاه حتى أنضجته، فأصبح متورماً فلما أصبــح دعاه الخليفة، فلما مثل بين يديه، قال له: كيف كانت ليلتك يا أبانواس؟ قال: بخير يا أمير المؤمنين، الا أن أمير المؤمنين عودها عادة قبيحة، يشير بذلك أنها كــانت تفعل بالخليفة ذلك، فضحك عليه وقال له: وقبح ما أردت.

---

[1] "ونزلت في ساحة قفاه: أي نزلت ضرباً على ظهره".

ولنرجع الى ماتحن بصدده، فلما احلولك[1] الليل خرجت على نية قضاء الحاجة، وأمرت غلامى أن يسرج لى دابتى، ويخرجها ظاهر البلد، ويقف بها حتى آتيه، ففعل، وغافلت القوم حتى ناموا، وخرجت وركبت دابتى وتوجهت أنا وغلامى وسرنا مجدين، فما أصبح الصباح الا وأنا بأبى الجدول، فدخلت الدار، فاخبرت بان القلقاوى كان بائتاً عندهم فى الليلة الماضية، فأخذت زادى ووصيت أهلى وركبت دابة أخرى، وخرجت وجديت فى السير، ولم يقر لى قرار حتى دخلت القاشر وتوجهت الى دار الفقيه مالك، فاستأذنت فى الدخول عليه، فاذن لى، فلما حضرت مجلسه رحب بى وأحسن ملقاى، وقال لى: إن مولانا السلطان أطلق سراحك، وأطال للسفر باعك، وأجل لك ثمانية أيام لاغير، فارجع وأت بأهلك، واسرع كما يسرع الطير، فقلت: إن لى زرعاً قرب حصاده، فهلا يمهلنى مولاى حتى احصده، فقال: ان مولانا السلطان يريد أن يرسل الفقيه أحمد أبوسارة رسولاً الى سلطان الوداى، ومرسلاً معه هدية ويريد أن تكون فى صحبته، فان أردت فجهز نفسك وسافر، وان أبيت فلا تطمع فى السفر بعدها، وتكون قد خالفت أباك، بمكثك بعد ذهاب الرسول المذكور، وأما ماتعنى من الزرع، فأمره يسير بالنسبة لما هو أمامك، وأنت امرؤ عاقل، فاختر لنفسك مايحلو، فقلت له: أنا الولد وانت الوالد، فبرأيك أستدل، وبفيئك أستظل ولاغنى لى عن مشورتك، ولا أفعل الا ماتأمرنى به والسلام.

فقال: يابنى انى نصحتك كما أمر الله، فاذا عزمت فتوكل على الله واقطع الرأى الآن أمامى، لأعلم ما اتفق عليه رأيك، وأخبر به حضرة مولانا السلطان، فقلت: يامولاى على السفر قد أثبتّ عزمى خصوصاً بصحبة الفقيه احمد أبى سارة، فانه من خلص الاخوان، بل هو كالوالد الشفوق، فقال: اذن فبادر لما انت عليه عازم، واسأل الله يقيك المكاره والمغارم، فخرجت من عنده وتوجهت الى أبى الجدول، وأخذت أهلى، وتركت جميع زرعى على سوقه، وقد آن نفاق سوقه، لكن جمعت أناساً كثيرين وأشهدتهم انى قد وهبت الزرع لخادم لى كان يدعى عبدالله جراب،

[1] احلولك: أى اشتدت ظلمته، وأصبح حالكاً، أى مظلماً.

وأخذت أهلي وارتحلت، فلما وصلت الفاشر دخلت على الفقيه مالك، فأعطاني حال دخولي عليه منشوراً من السلطان فيه الاذن لي بالسفر، والوصية علـــيّ لجميـــع العمال، خصوصاً لعامل الولاية الغربية، وأن يركب معنا، بجيشه حتى نصل الـــى المحل الذى نأمن على أنفسنا وعيالنا، وقال لي: خذ المنشور وارحـــل فـــي هـــذه الساعة، وأدرك الفقيه أحمد أبوسارة، فانه في انتظارك في كبكابية[1] ، فقلت سمعاً وطاعة، واخذت المنشور وودعته، وبت ليلتي، وأصبحـــت مرتحـــلاً، فوصلـــت كبكابية بعد يومين، ونزلت بسوق الدجاج، في بيت السيد أحمد الصغير، وهو ابن أخ السيد احمد البدوى الذى كان اخذني من مصر، فاقمت عنده نحو ثلاثة عشـــر يوماً، حتى اجتمع[2] علينا اناس كثيرون، يريدون السفر الى بلاد وداى ثم ارتحلنا الى الولاية الغربية، وهي بلاد المساليط[3] ، فسافرنا مدة خمسة أيام، ونزلنا علـــى ملك الولاية الغربية في سادسها فدخلنا عليه وأطلعناه على الامر السلطاني الـــذى معي، ومع الفقيه أحمد أبوسارة، فهش وبش واجاب بالسمع والطاعة، ووعدنا انـــه سيذهب معنا بجيش الى محل الاطمئنان، كما وعد الله موسى ابـــن عمـــران[4] ، فاستطلنا الميعاد، وخفنا على زادنا من النفاد، فقال الحق أقول، وعنه لا أحول، انى في هذه المدة مشغول، ولا اقدر فيها على تبليغكم المامول، فـــان رضيتـــم حبـــاً وكرامة وان أبيتم فبالسلامة، فقلنا له في الذروة والتحارب[5] فأبى، وعن مقصدنـــا

---

[1] كبكابية: اسم مركب من كلمتين "كبي-كابية" ومعناها في لغة الفور الفوادرو فهم؛ وهي اسم مدينة كبيرة كانت منذ زمن التونسي آهلة بالسكان وتقع على بعد ٩٢ ميلاً غرب الفاشر، وهي سوق كبير لمنتجات اقليم جبل مرة، كانت مسرحاً لمعارك سلاطين الفـــور مع الوداي خاصة في عصر السلطان احمد بكر (١٦٨٢-١٧٢٢) وكانت اشهرها والتي انتصر فيها سلطان دارفور على الـــوداي والتي اوردها التونسي في هذا الكتاب، ولازالت كبكابية حتى اليوم من اهم مدن ولاية شمال دارفور.

[2] في الأصل "اجتمعت"

[3] المساليط او المساليت: خليط من الزنوج والنوبة والعرب يتكلمون لهجة خاصة بهم تبلغ مساحة بلادهم حوالي ٣٠٠٠ ميل مربع ويحدها من الغرب والجنوب دار وداي وصليح، ومن الشمال دارقمر ودار تاما، ومن الشرق الفور وهي قبيلة ذات تاريخ عريـــق معقل، وهي من اهم القبائل التي صمدت في الغرب ضد الاستعمار الفرنسي ١٨٧٠م واوقفته في بلاد وداي بعد ان ضعفت دولة الفور التي كان المساليت يتبعون لها، انضم المساليت الى دولة السودان في عام ١٩٢٠م بموجب اتفاقية قلاني، وتقع بلادهم ضمـــن ولاية غرب دارفور الآن.

ينظر: Mocmichael: op.cit.pp. ٨٠-٨٨- تشحيذ الأذهان ص ١٢٦ - قبائل السودان- احمد عبدالله ادم ص ٣٠٩.

[4] يريد: ان الله قد وعد موسى بن عمران بالذهاب الى سيناء بعد ثلاثين يوماً، يقضيها موسى صائماً.

[5] عبارة" فقلنا له في الذروة والتحارب" أي حاولنا خداعه وترويضه، كما يروض الجمل النافر بتخليل وملامسة شعر سنامه......

نبا[1]، فلما رأيناه عزم على التصميم، وأبى الا موعد الكليم، رضينا بمـــا قـــال، وانتظرنا مايؤول اليه الحال، فلما تمت العدة شكونا له مالقينا من الشدة، فوعدنـــا بالرحيل بعد ثلاثة أيام، ولم ندر انه كعرقوب من اللئام، فمضت ثلاثة فـــي ثلاثـــة فسئمنا المقام، وعزمنا على الرجوع الى المقام، ولما راى منا ذلك همهم ودمـــدم، وتأسف وتندم واعتذر بأعذار موجبة للقبول، وقال بعد ثلاثة نرحل والله المـــأمول فصبرنا له رغماً عنا، وبعد الثلاثة جئناه وقلنا له: انجز حر ماوعد وسح خـــال اذا رعد[2]، فخرج بجيشه وجنده وارتحل بنا مسيرة ثلاثة أيام كـــانت عندنـــا كانـــها أحلام، ونزل في رابع النهار على بيت له في آخر إيالته. أقام به أسبوعاً، يجمـــع في خيله ورجله، وقد طال علينا المطال، وخشينا تغير الحال، فوفدت عليه في تلك المدة وفود وأي وفود، حتى امتلأ السهل من كثرة الجنود، ولما رأى كثرة العساكر التي قدمت عليه وكثافة الجند الذي صار بين يديه، اذن بالرحيل، وأمرنا بالتحميل، فارتحلنا ضحى من النهار، ودخلنا في وسط ذلك الجيش الجرار، فرأينـــا جيشـــاً عرمرماً، وجنداً كثيفاً متراكماً، فدخلنا الخلاء الكائن بين الدارين، الفـــاصل بيـــن الحكومتين، فرأينا فيها من الوحوش والغزلان والأرانب والفيلة مالايحصى عدده، ولقد رأيت في ذلك النهار أن الأرنب يخرج في وسط الصيـــف، ويجـــرى حتـــى يتعب، فيقتل ولايجد للخلاص مناصاً فقتلوا من تلك الوحوش ماشاء الله أن يقتلوا، حتى جاء وقت القائلة وقال الملك وقلنا[3]، وشووا من تلك اللحوم وأطعمونا فأكلنا كفايتنا ثم ارتحلنا وسرنا قليلاً، فوقف الملك وأراد أن يرجع فأبيت وقلت لـــه: إن رجعت رجعنا معك، لأننا الآن في الخلاء، ولا نأمن على أنفسنا، فاعتذر بـــأعذار واهية، وقال: ان لي أشغالاً، فقلنا له: ليست أهم من هذا[4]، فعند ذلك عين لنا قائداً من قواده ومعه مايئوف عن خمسين فارساً، وأمره أن يصاحبنا حتى نبلغ مأمننـــا، ونقول له ارجع وأوصاه وأكد عليه وودعنا الملك وانكفأ راجعاً، وصحبنـــا قـــائده

---

[1] نبا: أي كلّ ولم يقطع بقول الشاعر: لاالقوم كهى انا السيف نبا صبح من العزم والنعر أي
[2] (وسح خال اذا رعد) أي ان السحب اذا أرعدت أمطرت.
[3] (وقال الملك وقلنا) أي نزل وقت القيلولة فنزلوا معه حتى قيلوا القيل.
[4] في الأصل: "لا أهم من هذا"...

المذكور الى العصر، وأراد الرجوع، فما مكناه، وقلنا له: كيف تتركنا هاهنا مع اننا قوم عزل، وأن ظهر علينا أربعة شاكى السلاح[1] لأخذوا مالنا وأرواحنا ويبقى دمنا في ذمتك، فقال: اعلموا أنكم قد دنوتم من زراعة الوداى ونحن لانأمن أن يروناوهم لنا أعداء، فيأتونا وتقع[2] الحرب بيننا وبينهم، وتكونون انتم السبب في ذلك، فتوسلنا له بكل ولى ونبى، ووقفنا له في الذروة والقارب، حتى مهلت عريكته ولانت سجيته، فمشى معنا بعد ذلك نحو ربع ساعة، وتوقف عن الذهاب وقال: لاأقدر ان أقدم من هاهنا قدماً واحداً، وحلف انه لم يسبق لاحد وصل بالعساكر[3] الى هذا المحل، الا أنتم ثم عين معنا أحد الأدلاء، وودعنا وانكفأ يركض هو وجماعته.

فلما كان بعد ذهاب القائد بقليل استوحشنا، وصار كأنّ الأيك كله رجال (الوداى) وداخلنا من الخوف مايعظم وصفه، وما أمسى المساء وفى أحد منا رمق من الخوف، فلما ادلهم الغسق، أنخنا المطايا، ولخوفنا من السباع جمعنا حطباً كثيراً، وأججنا الركايا[4]، وبتنا في أقبح ليلة من الخوف، ولم يكتحل بالنوم فيها الا كل بليد، لان زئير الأسد وعواء الضباع والذئاب، قد أخذ باسماعنا[5]، ولقد رأينا في تلك الغابة من الفيلة ما لاتقدر على حصره، ورأينا أنياب الأفيال الميتة منها، ما اصفر من الشمس، حتى ضرب الى السواد، ومنها الناب الذى لايقله البازك ومنها الناب المفلوق قطعتين، ومن كل صنف من الانياب المذكورة رأينا شيئاً كثيراً.

فبتنا حارسين لامتعتنا وأرواحنا الى الصباح وماطلعت الشمس الا ونحن قد اتممنا التحميل، وأخذت العيس في الرحيل، فسافرنا نحو ثلاث ساعات، ثم دخلنا في أرض يظهر أنها كانت مزروعة، وعند ذلك وقف الدليل، وقال مالى للمجاوزة

---

(1) "أربعة شاكى السلاح" أى مسلحين.

(2) فى الأصل "ويقع الحرب"......

(3) فى الأصل "لم يسبق لاحد وصول بالعساكر الى هذا المحل......"

(4) أججنا الركايا: أى أشعلنا النار على الحطب....

(5) فى الأصل اخذلنا بأسماعنا....

عن هذا المحل من سبيل، وودعنا وانصرف يهرول خائفاً على نفسه، وسرنا نحن نحو ربع ساعة، فما راعنا الا وأناس قد اقبلوا شاكين السلاح[1] ، بأيديهم الحراب والرماح، ورمونا بالسلاح فوقفنا وقلنا لهم لاترمونا، فنحن ضيوف، فقالوا لنا:قفوا مكانكم، حتى نعلم الملك[2] بكم، فوقفنا في الحر، ومامكنونا من الدخول تحت الفيء فئيأنا ظلال المطي، ووقفوا امامنا بالسلاح، ومانعونا من الغدو والرواح، ووجهوا أحدهم ليعلم الملك، فغاب نحو نصف ساعة وقدم الملك علينا في نحو عشرة فرسان، في عنق كل فرس من خيلهم ناقوس من نحاس، حاد الرنين، فجاءوا حتى قربوا منا، ونزلوا عن خيولهم، في ظل شجرة، ودعونا فجئنا اليهم، فانتدب واحداً [3] من اتباعه، فقال لنا: ان الملك يسلم عليكم، لان العادة أن الملك وان كان حاضراً لايبتدئ بالكلام بل يتكلم واحد من اتباعه، فرددنا عليه السلام ثم قال: يقول لكم: من انتم؟ ومن أين اقبلتم؟ وماذا تريدون؟ فقلنا له: نحن جئنا من دارفور، فمنا من هو تاجر[4] ، ومعنا رسول من سلطان الفور الى السلطان، ومنا من ليس بتاجر كابن الشريف عمر التونسي، فكتب أسماءنا في ورقة كانت معه، وركب الملك في خمسة فرسان، وأبقى معنا خمسة، وأولئك الرجال الأول، وقال: مكانكم حتى يأتيكم أمري، فأنخنا مطايانا، وجلسنا في ظل تلك الشجرة، وطلبنا ماءً فأتونا به، ومكثنا كذلك نحو ساعتين، ثم ماراعنا الا وكردوس من الخيل قد أقبل وفي عنق كل فرس جرس، وثيابهم كأثواب نساء فلاحي[5] مصر، التي تسمى بالبذاوي، عاريي[6] الرؤوس، وفي خد [7] كل انسان منهم غدة، اشبه بغدة الطاعون من أثر الحجامة، وماذاك الا أن الحاجم وقت الحجامة بعد أن يجذب الجلدة بالقربة حتى تتورم، ثم يمسك الجلدة بين أصبعيه ويقطع بالموس قطعتين

---

[1] شاكين السلاح، أي حاملين السلاح...

[2] المقصود بالملك هنا هو أمير الناحية وليس ملك الوداي.

[3] في الاصل: فانتدب واحد" وهو خطأ والصواب واحداً لانه مفعول.

[4] في الاصل "فمنا ماهو تاجر... والصواب: من هو، لانها للعاقل.

[5] في الاصل" فلاحين مصر..."

[6] في الاصل" عارين الرؤوس..."

[7] في الاصل "وفي أخدعي كل انسان..."

متقاربتين ويقطع الجلدة التي بينهما (ثم) يقطع كذلك كل حد أربعة او خمسة، ثم يضع القرن ويجذب الدم، وبعدما يكتفي من اخذ الدم يقلع القرن، ولايضغط على محله بيده، ولابشيء اخر بل يضع في محل الجروح قطناً، فيحبس الدم هنا ويجمد، ويبقى كالغدة وبهاتين الغدتين[1] يفتخرون، ومن لا غدتين له، يسمى عندهم جباناً فيهان ولايكرم، وهاتان الغدتان يقال لهما في عرفهم دومتان تشبيهاً لهما بالدوم، الذي هو ثمر المقل، ويعيّرون الأعراب، الذين لم يكن لهم غدد مثلهم، ويقولون هذا من الجبن والخوف، ولو كانوا شجعاناً لكانت لهم دومات، لانهم يعتقدون ان الشجاعة انحصرت فيهم، وان شجاعة غيرهم مهما بلغت[2] فهي بالنسبة لهم كلا شيئ وكلهم عاريوا [3] الرؤوس كما ذكرنا الا كبيرهم، فعلى رأسه عرقية سوداء، وعلى كتفه ملاءة تدعى عندهم بالملحفة، فنزلوا عن خيولهم بعيداً عنا، ودعونا فسرنا اليهم، فقال كبيرهم: ان العقيد[4] يسلم عليكم، فحييناه ودعونا له وللسلطان، ثم قال لنا: من أنتم، وماذا تريدون، فقلنا له كما قلنا اولاً، فدعانا وكتب أسامنا فرداً فرداً، وكم مع كل انسان منا من جمل، ومابضاعته وما اسمه، وماقبيلته، وماحاجته، ثم قال لنا: قيلوا وبعد القيلولة إرحلوا بنا الى دار الفقيه، فقلنا له: سمعاً وطاعة، فقيلنا وأكلنا وشربنا ونمنا، حتى انبسط الظل، وانكسر حر الشمس، فأمرونا بالتحميل، فحملنا، وركبوا خيولهم واحاطوا بنا، وسرنا سيراً حثيثاً فدخلنا البلد التي فيها العقيد آخر النهار، قبل غروب الشمس بقليل، فأدخلونا في دار العقيد، فوجدنا داراً في وسطها بطحاً واسعة، تقرب من رميلة القاهرة فأشاروا لنا على جهة منها، فأنخنا المطي فيها، وبعد أن رتبنا مايلزمنا ترتيبه دعونا فقمنا جميعاً فأدخلونا وسط الدار، واجلسونا بازاء ستارة، ساتر من المرهبيب، وخرج لنا رجل وقال: إن العقيد يسلم عليكم، فرددنا السلام، فقال لنا العقيد من وراء الساتر: من انتم؟ وماذا تريدون؟ ومن أين اقبلتم؟ وما معكم من البضائع؟ فقلنا له ماقلناه

---

[1] في الأصل: وبهاتين الغدتين.

[2] في الأصل: وان شجاعة غيرهم وان بلغت....

[3] في الأصل: عاريون الرؤوس....

[4] العقيد: هو حاكم الاقليم الشرقي من دولة الوداي، كما هو مبين في هذا الكتاب....

اولاً وثانياً، فسأل كلا منا عن اسمه ونسبه، ومن أى بلد مجيئه، فاخبرنا عن ذلك كله، فقال بعد ذلك مرحبا بكم، وانتم ضيوف مولانا السلطان، قوموا الى موضعكم، ها انا ارسل الى مولانا السلطان خبركم، وانتظر ماذا يكون جوابه فقمنا إلى رحالنا (وقام) هو وأخرج فارسا فى تلك الساعة، وأعطاه مكتوباً للسلطان، وجعل القائمة التى فيها اسماؤنا طيه، فخرج الفارس من ساعته، وأقمنا فى انتظاره سبعة أيام وفى كل ليلة تأتينا منه ضيافة، وكان ذلك العقيد يسمى جاب الله وهو حاكم الولاية الشرقية، ويسمى فى عرفهم عقيد الصباح، أى حاكم الجهة التى يصبح منها الصباح، فلما كان اليوم الثامن لم نشعر الا وكردوس من الخيل والرجل أقبل، ومعهم طبل من خشب، طويلة كالكوبة المسماه فى عرف المصريين بالدرابكة، له صوت حاد ومعهم أبواق، كل بوق يقرب طوله من ثلاثة أذرع، له صوت غليظ مفزع، فحين قربوا من البلدة ضرب الطبل، ونفخت البوقات، فخرج العقيد جاب الله وجماعته، وتلقوا القادمين، فدخلوا فى دار العقيد وفى عنق كل فرس من خيلهم ناقوس، وأغشية خيل الجميع كلها من جلد احمر، وكلهم فى ذلك سواء، العقيد والملك والاتباع، وحين نزلوا من خيولهم واستقر بهم المجلس، دعونا فذهبنا اليهم وجلسنا امامهم، فقال أحدهم: ان السلطان يسلم عليكم، فرددنا السلام وقرأنا الفاتحة ودعونا للسلطان بالنصر والظفر، فقال لنا احدهم، وكان يسمى كامكلاك[1] ناصر، من أنتم؟ ومن اين اقبلتم؟ وماذا تريدون؟ وما معكم من البضائع؟ فاخبرناه عن اسمائنا كما أخبرنا العقيد وغيره، فوجده موافقاً، فأمرنا بالأهبة للسفر، وأن الرحيل فى غد، فبتنا فرحين، ولما أصبح الصباح ارتحلنا، وركب الكامكلاك وجماعته، وساروا بنا يومين، وفى مغرب اليوم الثالث أنزلونا فى بلد يقال له عبالى، ينزلون كل مسافر أتاهم من مملكة غير مملكتهم، فمكث بها ثلاثة أيام، أشبه بمايفعل من الكرانتينا فى أمصار الافرنج، وأمصارنا الآن، وأما أهل وداى فانهم لايعرفون

[1] الكامكلاك: والجمع كماكلة، وهم مستشارو السلطان الذين يحضرون مجلسه عند النظر فى الدعاوى والنازعات ولهم نفوذ كبير فى تسيير شئون الدولة فى سلطنة الوداى ويمكن تشبيههم بالاجاويد فى المحاكم الاهلية فى دارفور، وايضاً بالمحلفين فى القضاء الانجليزى. ينظر Voyage all Darfour p.١٦٢.

الكرانتينا، بل وجدوا أسلافهم كذلك يفعلون ففعلوا مثلـــهم، فأنخنـــا فـــي عبـــالي المذكورة، وبتنا ضيقي الصدر[1]، لحبسنا عن احبابنا، ولما كان بعد العشـــاء لـــم نشعر الابعص المسمى زروق قد أقبل، وذلك (بعد) أن بلغه اني جئت مع الفقيـــه أحمد أبي سارة وكان والدى اذ ذاك توجه الى تونس بعد ان يئس من قدومي عليه، فلما علم بقدومي استأذن السلطان في نقلي من عبالي في تلك الساعة، فـــأذن لـــه، فجاء وأمرني أن أحمل جمالي فحملت، وتوجه بي الى دار أبي، وكانت في طرف البلد وقريبة جداً من عبالي، فما مشينا نحو خمس دقائق الا وقد أنخنا في دارنـــا، وبت مع عمي في انعم ليلة[2]، فلما اصبحت رأيت عمي، وحيوط الدار حمرا كما أخبرني أسحاق الرمال، فتعجبت من ذلك، وأولم عمي وليمة لقدومي، ودعا الناس للطعام، وازدحمت الدار من المسلمين عليّ، ولما كان وقت المساء حضرت لنا من بيت السلطان ضيافة عظيمة، فيها اثنتى عشرة باطية[3]، والباطية في عرفهم أناء عميق مربع من خشب مستطيل، في كل طرف من طرفيه عروتان، في كل عروة سلسلة، وهذه الباطية قصعة، في كل قصعة أربعة سلاسل، يقلها أربعة من العبيد، فكانت جملة العبيد الحاملين للجفان ثمانية وأربعين عبداً، يقدمهم طواشي[4] صغير، من طرف السلطان، يسمي في عرفهم طويرة، لأن جميع العبيد الذيـــن يرسلـــهم السلطان يسمون طويرات، وهم الذين يسمون في عرف الفور بكوركـــوا، فتقـــدم الطويرة المذكور، وقال: ان السلطان يسلم عليك يا ابن الشريف، وقد أرسل لـــك هذا العشاء ضيافة، فقبلناه ودعونا للسلطان، وأعطينا العبيد الحاملين جفنة منـــها، فأكلوا حتي شبعوا، وبقيت فيها بقية، وهذه القصاع كانت كلها مملـــوءة بالطعـــام الفاخر، فكان منها اثنتان[5] مملوءتان بأرز مصنوع بعسل يسمي في عرف مصر

---

(1) في الأصل "وبتنا ضيقين الصدر...
(2) في الأصل "بانعم ليلة...
(3) في الأصل اثني عشر باطية، وهو سهواً ؛ والصواب: اثنى عشرة باطية.
(4) الطواشي: مفرد الجمع طواشية وهو العبد الخصي.
ينظر: تشحيذ الأذهان ص ١٧٩.
(5) في الأصل : منها اثنان مملوءتان.

بالزردة، واثنتان[1] مملوءتان بالدجاج المقلو في السمن، واثنتان مملوءتان بفـــروخ الحمام، وأربعة مملوءة بالعصيدة المتقنة، والأدم العظيم، وواحدة مملوءة بـــالفطير الجميل، وعليه العسل الذي لا نظير له، وواحدة مملوءة باللحم المحمر في السمن، وجميع ما ذكر من الدجاج والحمام واللحم المعمول في الســـمن بحيـث لـو أراد الانسان أن يصفي السمن منها لملأ قدراً، فأكلنا وفرقنا علـــي الجـيران والعبيـد والخدم، وبقي من الحمام والدجاج واللحم شيء كثير، وفي ثاني ليلة أرســـل لنـا السلطان سبع جفان مملوءة كذلك، وفي الليلة الثالثة كذلك أيضاً، وفي ثالث الأيـام حضر لدارنا الكامكلاك ومعه الشيخ محمد رئيس ترجمة السلطان، وهـــو كبقيـة التراجمة يسمي في عرفهم خشم الكلام، واخذوا مني الهدية التي أريـــد إهداءهـا للسلطان.

وكانت قليلة، فمنها عشرة أرطال من القهوة اليمني، وعشرة أرطـــال مـن كعب الطيب، وعشرة أرطال من الصابون، وحلقتان من السلك النحاس الأصفـــر، زنة كل حلقة رطلان، فكتبوا جميع ذلك وذهبوا به، وبعد ساعة حضروا وقالوا إن السلطان يسلم عليك، وقبل هديتك، وكانت هديتي من أصغر الهدايا وأخسها منزلة، لكن انما قبلها لحبه[2] في والدي، ولما كان المساء حضـــر عندنـــا طـويـرة مـن طويرات السلطان، ومعه بقجة وسريتين عظيمتين، احداهما بكر والأخري ثيـب، لكن الثيب أجمل من البكر، وأحسن زينة، وقال: إن مولانا السلطان أهـــدي لـك هاتين[3] السريتين وهذه الثياب، فدعونا للسلطان، وقرأنا له الفاتحة، وبتنـــا ليلتنـا تلك، ولما كان ضحي الغد أتي طويرة ومعه أناس حاملون لأشياء كثيرة، وجمـــال محملة، فوضعوا ما علي أعناقهم، وانزلوا الحمول، وقال الطويرة: إن الســـلطان أهدي لك هذه الأشياء، فاذا فيها خمسة[4] جرار من العسل وعشرة سمناً، وجملان

(1) في الأصل: "اثنتان مملوءتان".

(2) في الأصل: "لحبها في والدي".

(3) في الأصل: هذين السريتين.

(4) المفرد جرٌ أو جرة والجمع جرار، وعادة يستعمله أهل دارفور ووداي في نقل الماء وحفظه بارداً ويصنع من الطين ... ثم يحرق ويلون ويزخرف.

من البُر، وجمل من السمك المملح، وجمل من التكاكي[1]، وجواد أزرق، عليه سرج يقوده عبدٌ سباعي وجاريتان للخدمة، فقبلنا ذلك ودعونا للسلطان، (ثم) فتحنا البقجة، فاذا فيها ثوبان من أرفع مايوجد من الثياب، احدهما أبيض والثانى أسود، يساوى كل ثوب منهما رأسين من الرقيق، وطاقة من البفتة الانجليزية وكان فى الهدية ثوران سمينان للذبح، وناقة للذبح أيضاً.

وبعد قليل أخذ يتفقدنى بالألطاف حتى انه ارسل لى مرة قفتين صغيرتين، فى كل قفة منهما مائة بيضة من بيض دجاج الوادى وماذاك الا ان الدجاج المذكور وحش فيبيض فى وقت الربيع فى الخلاء بيضاً كثيراً، ويجمعه اهل تلك النواحى،فيجتمع عندهم منه شيء كثير، وعليهم للسلطان عادة فيه، فى كل سنة يأتون بها، فيجمعون للسلطان فى كل سنة اكثر من مائة حمل بعير[2] منه، فلما كنت هناك فى تلك السنة، وجاءوا بعوائد البيض، فرقه السلطان على أرباب دولته بحسب مقاماتهم ونالنى منه القفتان.

فمكثت فى دار وداى اربعة أشهر ولم أر السلطان، ولا رآنى الى أن قدر الله عليّ واحترقت يدى من البارود، وذلك أنى كنت أريد أن اشترى زوج طبنجات، فاردت اختبار زندهما، فوضعت فى قلب إحداهما[3] باروداً من جراب فيه بارود، فحين اتكأت على الغماز، ثار البارود، (وكانت[4] هناك) شرارة وقعت على الجراب وكان فيه نحو ثلاثة أرطال، فارتفع اللهب الى الجو، فاحرق يدى اليمنى وذراعى الى قرب الكتف، واحترق معى رجل يسمى شمس، كان خادماً لأبى، فقاسيت من الألم غاية المشقة حتى أشرفت على الموت، وبلغ السلطان خبري، فتألم ووصف لعلاجي زيت الزيتون القديم، فأرسل لي قدرة زيت عمره

---

[1] التكاكي: المفرد: تكية، وهو نوع من القماش يصنع محلياً في دار فور ووداي من القطن المحلي، ويباع في الاسواق في شكل قطع يفصلها الناس ويلبسونها خاصة الفقراء وأواسط الناس.

[2] هذا العدد مبالغ فيه، ولكنه يعبر عن كثرة هذا النوع من البيض في وداي في فصل الخريف، وليس الربيع.

[3] في الأصل: "في قلبه احدهما..."

[4] في الأصل " وكان شرارة..."

أكثر من ستين سنة، حتي احمرّ وامرار[1] ، فكان هو دوائي، ولمـــا شفـــاني الله، وركبت وصليت الجمعة مع السلطان، أخبر بخروجي، فسرّ، ولما كان الليل أرسل لي طويرة، فاحضرني عنده، وكان في محل ليس فيه غيره، فسلم عليّ، وادنـــاني ورحب بي ولاطفني، وأمرني بطلب العلم، وحضني عليه، وأن ألازم درس الفقيه السيد احمد الفاسي، فامتثلت أمره، ولازمت درس الفقيه السيد احمد المذكور مـــدة سنة، فحضرت عليه كتاب أبي الحسن، شارح رسالة أبي زيد القيرواني المـــالكي، وربع كتاب الاجارة من شرح الشيخ احمد الدرديري، علي مختصر الشيخ خليـــل، حتي ظهر لي منه عدم الود فقطعته.

[1] إمرار : أي اصبح مراً، هكذا يريد المؤلف.

الفصل الثاني

في طول دار وداي وعرضها وما اشتملت عليه من الطوائف وكيفية ارضها وأسماء أجناس ما فيها من الامر على اختلاف أحوالهم وتباين اشكالهم

إعلم إن المنفرد في ملكه بالبقاء والدوام، الفعال في خلقه مايشاء من الاحكام، لختار من اصطفاه من عباده علي حسب مراده، وتجلي عليهم بما لا سمه الباسط من الأنوار، فجعل كلاً منهم حاكماً علي قطر من الأقطار، وان مما افتخر بها ملوك السودان، وشاع ذكرها في جميع الأقطار والبلدان مملكة أولاد صليح، المسماة دار وداي، فهي كالورد بين الأزهار، وكجنة تجري من تحتها الأنهار، لما جعل الله فيها من انواع الخيرات، وما بسط لأهلها من البركات، فكم فيها من نهر راق سال فصار كاللجين، وحديقة تفتحت أزهارها، فكادت تنظر كأنسان العين وكم فيها من أراك أرض علي شاطئ النهر ثياباً، وبلبل غرد علي ذلك الأراك فأزال عن القلوب إزعاجاً، هذا وإن طول مملكة الوداي كطول مملكة الفور، وعرضها أقل من عرضها، فهي لخف أرضاً، فشتان ما بين اليوم والأمس، وأين القمر من الشمس، وأين الروض من القفار، وأين الجنة من النار، نعم وان كان في دار فور بعض أماكن تقرب صفاتها من صفات أرض الوداي، الا أن أكثرها أقوازاً [1] بعيدة عن الماء، شديدة الظمأ، تري اهلها أخذهم النحول والاصفرار، وأضر بهم العطش أتم إضرار، يقترون علي أنفسهم في شرب الماء، كأنهم في سفينة ضلت عن مقصودها، ولم تعرف افي أرض هي أم في سماء، وأما أرض الوداي فمعظمها أنهار دافقة، وأشجار باسقة، عليها طيور بالألحان ناطقة، فلا تجد من دار الصباح التي هي أول بلاد الوداي من ناحية المشرق الي البحر الذي هو أقصي مملكة الوداي من جهة الغرب مفازة، يحتاج فيها الي حمل الماء، بل كلها آبار وأنهار، ومزارع وأشجار، وذلك مسافة نحو اثني عشر يوماً للمسافر.. وكلها عامرة آهلة ما عدا بعض أماكن قليلة، لا تعد لقلتها، ولذلك أذا أعطي الانسان في

---

[1] أقواز: جمع قوزه والقوز هو عبارة عن أراضي رملية مرتفعة تصلح للزراعة، خاصة المحاصيل كالدخن والسمسم والفول السوداني وهي من افضل أماكن الرعي خاصة في الخريف لنمو الاعشاب فيها وخلوها من الذباب.

دار وداي إقطاعاً ولو بلداً واحداً، أحسن من أن يعطى في دار الفور عشرة بلاد، لعمار هذه وخراب تلك، فاذا تقرر ذلك علمت ما بينهما من التفاوت، ولو رأيتها لقلت أين الثريا من يد المتناول أو قلت أين الثريا من الثري، وأين الحسام من المنجل ومن أعابها فقد غدا شعراً:

كضرائر الحسناء قلن لوجهها حسداً وبغضاً إنه لدميم

على أن أهل الوداي وإن كانوا أقل تمدناً [١] فهم أكرم نفساً وأشفق على الغرباء، ولهذا {فإن} سلطانها أكرم السلاطين على الاطلاق، وأحسنهم سياسة بالاتفاق، من رأى دار مملكته يهيم ويقول: إن هذا المقام كريم، لأن واره قد وضعت بين ثلاثة جبال، وليس لها إلا طريقان في اي حال من الأحوال، أحدهما لو وقف فيه عشرة رجال لمنعوا من يريد الدخول فيها [٢]، وإن كانوا بعدد الرمل والحصا، وثانيهما لو وقف فيه شخصان لمنعا من يريد الدخول فيها[٣]، وأرض واره أرض طيبة، جلدة بين الصلابة والرملية، بخلاف تندلتي[٤] التي هي قاعدة مملكة الفور، فإن أرضها رمل كرمل عالج تغوص فيه الاقدام، ويثور منه النقع على الدوام، وفي واره أبنية جميلة بالنسبة الي ابنية تندلتي، لأن جميع البيوت التي في تندلتي من قصب الدخن، حيوطاً وبيوتاً ونهاية الأمر أن لكل بيت زريبة من الشوك، ومحل السلطان هو وغيره في ذلك سواء، ما عدا أن في بيت السلطان أربعة[٥] بيوت مبنية بالطوب، جعلها مخزناً للأمتعة، خوفاً عليها من النار.

وأما بيوت واره فأكثرها بناء وحيوط كالأسوار، خصوصاً بيت السلطان، فأن فيه القصور والمشربات والأسوار العظيمة، وليس عليه زريبة من الشوك، بل عليه سور من البناء محيط به إحاطة الهالة بالقمر والأكمام بالثمر، كما أن أرض

---

(١) في الأصل :"وإن كانت أقل تمدناً.. "

(٢) في الأصل : "لمنعوا من يريد الدخول الى واره .. "

(٣) في الأصل : "لمنعا من يريد الدخول اليه .. "

(٤) تندلتي : وهي عاصمة مملكة الفور، والتي بناها السلطان عبدالرحمن الرشيد (١٧٨٧ـ١٨٠٢م) وسميت فيما بعد بالفاشر، وأصل تسمية تندلتي كانت للرهد الكبير الذي أسست على حافته عاصمة الفور .

ينظر: تشحيذ الأذهان ص ٩٤

(٥) .... والصواب : أربعة " .

الوداي أحسن من أرض الفور، وليس في دار فور أرض تشبه أرض الوداي، إلا الجانب الغربي الذي يقرب من جهة الوداي، وأما أرض الوداي فكلها من الحسـن بمكان، وبلاد الوداي عامرة آهلة، بخلاف بلاد الفور، فإن أكثر البلاد فيــها إمـا خراب او كاد، لكثرة الظلم والفسق الذي علي الرعية من قبل الحكام، ولا تجد في دار فور بلداً عامرة كما ينبغي، إلا بلداً صاحبها ذو شوكة وجاه وما عـــدا ذلـك فخراب، {أهلها} يقاسون الذل والهوان خصوصاً في الزمن الذي كنت فيه هناك[1]، فإن السلطان كان صغيراً قد اكتنفته رعونة الشباب، فكان لا يتأمل في أحـــوال الرعايا، ولا يرفع عن المظلوم الرزايا، بل كان منهمكاً في لذاته، يقطـع بالكـأس واللهو أكثر أوقاته، فقصاري أمره إمرأة يتخذها[2]، أو كاس ينهلها، أو دابة حسنة يركبها، {وكان الملوك[3]} قد أثقلوا الوطأة علي الرعايا، وجلبوا لـــها المصـائب والبلايا، فلا يقدر أحد من الرعايا {أن} يقتني مالاً، ولا من أشراف الناس أن يكتب اجلالاً، لانه في تلك المدة ساد رعاع[4] الناس أكابرها واستوزر العبيد، وأهمــل الكرام الأماجيد: فصار كل منهم يقول:

أري الناس َمخسوفاً بهم غير أنهم ... علي الأرض لم يقلب عليهم صعيدُها

وما الخسف أن تلقي أسافل بلدة ... أعاليها بـل أن تســود عبيدهـــا

ومما ينسب الي ذلك هذا التخميس:

ليالي تقضــي بالوصـــال عرمتها ... بتيت وأبت أن لا يلعم وضيعُها

ولا تعجبوا إن زمر يوماً مريضها ... تغيرت الأيـام واسـود بيضُهــا

---

[1] هنا صب المؤلف جام غضبه علي مملكة الفور وحكامها وأهلها فجاء حديثه عنها غير منصف ومتناقض أحياناً مع ما أورده عنها في كتابه تشحيذ الأذهان، وسنري في هذا الكتاب عندما نحاول المقارنة بين الدولتين، وهذا دأب الكثيرين من الرحالة والشعراء مع الملـــوك والأمراء.

[2] في الأصل: "امرأة يتخذها .." يريد المؤلف: امرأة يعاشرها جنسياً.

[3] في الأصل: "وكانت الملوك قد أثقلت الوطأة".

[4] في الأصل: "سادت".

وعادت أسود الا عند ذاك قرودها

وقد صار للجهال فينا رياسة ... وهم ككلاب في الأنام جلاسة

فيا صاح إن داموا ودامت خساسة ... ففي الموت فوز للأصيل وراحة

إذا حكمت أحرار قوم عبيدها

خلافاً للسلطان المرحوم محمد عبدالكريم صابون، فانه أوسع الناس عدلاً، وأعمرهم إحساناً وفضلاً، فلا تجد في زمنه مظلوماً يشتكي دهره ولا ولافقيرا يشتكي فقره، وقد أعطي القوس باريها،وأنزل الدار بانيها، فأقام حدود الله في عباده، وانتشر عدله في جميع بلاده، فكل الناس عنه راضون، إلا من كان في قلبه مرض، واستولي عليه داء الحسد، والعجب من الدهر كيف ينقص المسرات ويقلبها بالاحزان والاساوات، لانه اقتنصه في عنفوان شبابه، وجرع اصحابه كأس مصابه، وطالما خدمه بالظفر في الحرب، وأذاق أعاديه من يد أجناده الحتوف والكروب حتي خرّب إقليم باقرمه الفجار، وثني باقليم التامه الفجرة الكفار[1]، حتى ارتعدت من هيبته فرانص[2] الفور وسلطانها، وخشيت أن يسطو عليها ويخرجها من اوطانها، لكن لاعتب على الدنيا في هذه الاعمال، لانها تكمن في كأس مسراتها الداء العضال، ورحم الله الحريري حيث قال:

يا خاطب الدنيا الدنية انها ... شرك الردى وقرارة الأكدار

دار متى ما أضحكت في يومها ... أبكت غداً تباً لها من دار

وإذا أظل سحابها لم ينتقع ... منه صدى لجهامة الفرار

غارتها لاتنقضي وأسيرها ... لايفتدى بجلائل الأخطار

---

(1) لقد غالى الكاتب هنا، وحاد عن الحق بوصفه للتاما والباقرمه بالفجار والكفار، لأن هذه الدول والشعوب كانت مسلمة منذ قرون عدة قبل قيام دولة وداي، وبها تراث إسلامي كبير [illegible]، ولكن حماس الكاتب لدولة وداي وللأسباب التي ذكرناها حمله على وصف أعدائها بكل ذميم.

(2) في الأصل: "فرائص الفور..".

ومن أفعال الدنيا بالانسان وابدالها المسرة بعد الاحـــزان، مــا وقــع للخلفــاء الراشدين، وكيف تدانت آجالهم، وقرب الي الله ارتحالهم، وقد قالوا في قصر مدة سيدنا عمر بن عبدالعزيز، الامام العادل في بني أمية حين قال بعض الناس: كيف أن أعمار ملوك بني أمية تطول سنين مع ماهم عليه من الجور والعسف المبيـــن، ويقصر عمر عمر بن عبدالعزيز الذي هو بينهم كالذهب الابريز، لما كـــان فـــي أيامه من العدل الزائد، ان الدنيا دار محن وأكدار، وهم وغبار، ولو طـــالت مـــدة عمر بن عبدالعزيز لرجعت الدنيا الي حال الشباب، مع أنها صـــارت عجـــوزاً[١] شمطاء، كما ورد عن النبي الأواب، لم لا وقد كان رضي الله عنه من الزهد فـــي أرفع مكان، وهو الذي أبطل سب علي رضي الله عنه علي المنابر[٢]، فاســـتبدله بقوله تعالي:"إن الله يأمر بالعدل والإحسان"[٣] وقد ذكر {ان} فـــي أيامـــه رعـــت الذئاب مع الأغنام، ولم تعتد عليها، بأذن الملك العلام.

نادرة: مما اتفق مع عدله رضي الله عنه أنه جاءه رســـول مـــن طـــرف ملـــوك الأكراد، فبالغ في اكرامه وزاده، ولما وضعت المائدة كان فيها حجلتان[٤] مقلوتان، فلما رآهما الرسول وعلم انهما من الحجل، بكي وأفرط في البكاء، فســـأله ســـيدنا عمر رضي الله عنه عن سبب بكائه فأجاب بعد تمنع وقال:ياسيدي إني كنت فـــي أول أمري قاطعاً للطريق، فبينما أنا ذات يوم واقفاً في الطريق،{قدم الـــي} أحـــد التجار راكباً علي بغله، وتحته خرج مملوء من المال، فتعرضت له وأخذت البغلـــة منه، وأردت قتله، فقال يا هذا أليس مرادك المال، فقلت نعم، قال لي خذ هذه البغلة وما عليها وأعتقني لوجه الله الواحد القهار، فقلت لا سبيل لذلك، ثم أخذت يده اريد قتله، فلما رآني صممت علي قتله قال لي أأنت فاعل حقيقة، فقلت إي والله، فقـــال هل لك في أن تتركني حتي أصلي ركعتين، فقلت له لك ذلك، فقام فتوضأ وصلي،

---

(١) في الأصل: "صارت عجوز شمطاء".

(٢) كان الأمويون قد ابتدعوا سب علي رضي الله عنه علي المنابر، منذ عصر معاوية، وذلك للخلافات السياسية الكبرى بين علي ومعاوية، حيث اتهم الاخير علياً بمشاركته في مقتل سيدنا عثمان بن عفان، فيما عرف بالفتنة الكبرى، وظل الأمر كذلك حتى أبطله الخليفة عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه.

(٣) سورة النحل الآية ٩٠.

(٤) الحجلة جمعها حجل، والحجل الذكر من القبج، يقول صاحب القاموس المحيط: أن لحمه معتدل، وابلاع نصف مثقال من كبده يمنع الصرع، والاستعاط بمرارته كل شهر مرة يذكي الذهن جداً ويقوي البصر. ينظر: الفيروز بادي، فصل الحاء، والام ص ٣.

ثم قال لي أنشدك الله الذي لا اله الا هو أن[1] تتركني، فقلت لا أفعل ولا بد لي من قتلك، فالتفت حينئذ يميناً وشمالاً فرأي حجلتين علي شجرة فنادي بصوته ايتها الحجلتان أشهدا عليّ اني قتلت ظلماً، فضحكت منه وقتلته بعد ذلك، وأخذت البقلة وما عليها، فلما رأيت هاتين الحجلتين تذكرت تلك الواقعة، فقال له سيدنا عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، لقد شهدا عليك عند من أقادك ثم أمر به فقتل أه.

ولذلك كانت مدة السلطان محمد عبدالكريم صابون قصيرة جداً، لانه لو طالت مدته لملك دارفور وغيرها، وكان يقال: إن شباب الدنيا رجع لها، فكانت أيامه مواسم، وثغر المسرة به باسم، فكان غضبه لله ورضاه لله وكان رعاياه لا يبغون عنه بديلا، ولا يريدون عن حكمه تحويلا، فكانت بلاده آهلة بالقاطن، عامرة بالساكن، مع أنهم جموع مجمعة، فكان فيها المساليت والميمة والداجو والكشمرة والقرعان، وقبائل الوداي الخمس، والكوكة، والجناخرة، والبرقد، وكل من هذه القبائل له جهة يسكنها، فأما المساليت فسكنتهم دار الصباح، أي الجهه الشرقية من دار الوداي، وهي غربي دار الفور، وبينهم وبين مساليت الفور معاملات ونسب وقرابة، وسعة بلادهم نحو يومين عرضاً وثمانية أيام طولاً: وهم أناس ليسوا بالطوال ولا بالقصار وسوادهم يميل الي الاصفرار، وهذه القبيلة عالم عظيم في دار الوداي وأكثر بلادهم سهل، وان كان فيها جبال قليلة.

وأما الوداي الذين هم أصل المملكة، فهم ساكنون وسط البلاد، ومنهم أكثر الأمراء والأجناد،وبلادهم جبال منها الجبل المسمي بأبي السنون[2] ، وهو أعظم جبل، وأهله يزعمون أنهم أصل للوداي، ومنهم ظهرت السلاطين وتفرعت، ومنها(جبل) ملنقه وهو جبل آخر يجزي ابو السنون بنحو فراسخ، وأكثر السناويين[3] يغلب علي لونهم السواد الداكن، وهم أناس طوال ضخام الأجسام كأنهم من رجال العمالقة، وأما ملنقه فهم أقل منهم سواداً، يقرب لونهم الي الصفرة، وأما الكشمره فهم بالقرب من واره، مسافة يومين من الجهة القبلية أي

---

(1) في الأصل "أنشدك الله الذي لا اله الا هو إلا ما تركتني .."

(2) في الأصل: "المسمي بأبو السنون" وقد سار عليه في كل البحث دون تغيير .

(3) " السناويون" هم سكان جبل ابو السنون .

ومسكنهم في البطيحة، وهي واد جميل كثير المياه، تزرع عليه أنواع الخضروات والتوابل كالفلفل والكزبرة، والثوم والبصل وطائفة الكشوه علي شفير[1] هذا الوادي، بمعني أنهم بالقرب منهم، وهو عالم عظيم[2]، ومسافة بلادهم نحو أربعة أيام طولاً واربع ساعات[3] عرضاً، فتري قراهم مصطفة بقرب شفير الوادي المذكور، كتصفيف الدر علي عجور الخرز، هذا وبلادهم عامرة بالقاطن، آهلة بالساكن، يخرج من أقل حلة منها اذا وقع النفير نحو الخمسمائة مقاتل، ما عدا الصغير، ولقد كان المرحوم السلطان محمد عبدالكريم صابون اقطع والدي فيها خمس بلاد، فكانت أحسن من خمسين بلداً من بلاد الفور، لكثرة منافعها، وفي ظني أن قبيلة الكشموه لو استقرت كلها وانفردت من غيرها، لكانت وحدها جيشاً عظيماً، وهم أكثر الرعايا انقياداً، واغناهم مالاً وأولاداً، واحوالهم وسط، وليس فيها شطط، وهم بين الطوال والقصار، وبين السواد والاحمرار، ولغتهم غير الوداي، ولهم ملك يحكم علي القبيلة ويفعل ما يختار.وأما الكوكة فمأواهم جهة المغرب والجنوب وهم ثلاث فصائل، كل منها لدي أهل الوداي محبوب، منها فصيلة لا يوجد أحسن من نسائها في الجمال، ويفضلون علي بنات الحبش ربات الدلال، فتري الجارية منهنّ تسر الناظرين بجمالها، وتفتك العشاق بدلالها، قد أقامت حرب الغرام علي ساق، ونور جمالها في ميدان الصبابة يهيم النساك، ويبليهم[4] بالاشواق، وهم طائفة عظيمة، عامرة قراها، كثيرة مياهها ومرعاها، غير أن أهلها ليسوا ضخام الأجسام، لكن مع الطول والاعتدال، وعدم النحافة والهزال، ومن هذه القبيلة جواري الملوك والسلطان، لأن أهل الوداي يزعمون أن ما عدا الخمس قبائل {هم قبائل الوداي} البقية عبيد يباعون ويشترون بغير تقييد.

وأما القرعان فمأواهم من دار الوداي جهة الشمال، وهم قبيلة عظيمة الأموال كثيرة الخيل والجمال، قد اشتملت علي فصائل عديدة كل فصيلة قد صارت أحوالها شديدة، وهم أناس صغار الأجسام، غلب علي الوانهم الاحمرار

---

(1) شفير الوادي : أي شاطئه .

(2) وهو أي الوادي عالم عظيم .

(3) الساعة هنا ليست المدة الزمنية المحددة بستين دقيقة الآن وانما هي مدة مقدرة في ذلك الزمان قد تزيد علي ساعة اليوم.

(4) في الأصل : "تهيم النساك وتبلاهم بالأشواق " .

دون بقية الألوان، فتري الوانهم تقرب من الوان المصريين، كأنهم ليسوا من السودان، ولم أشاهد بلدهم، ولا نحوت قصدهم، غير أني شاهدت كثيراً منهم في الوداي، فرأيت نساءهم من أبدع النساء جمالاً، وافتكها لحظاً وارماها نبالاً، والعجب أن الوداي لا يألفونهنّ، لبياض الوانهنّ، فالجارية منهنّ لا يتغالي في ثمنها لبياض لونها، نعم وإن كنا قررنا أن كلما خلص الانسان من شدة السواد كان عندهم دليلاً علي خلوصه من الرق، لكن إن خرج الي البياض أبغضوه، فلا يألفون الإ ما كان بلون الحبشة، وهو أعظم مرغوبهم، وقد قدمنا أن السيد محمد المروجي الطرابلسي كان قد أهدي للسلطان جاريتين {إحداهما} بيضاء {والأخري} حبشية وذكرنا أنه أحب الحبشية، ونالت منه حظوة، وأما البيضاء فلم يدن منها، وبقيت كُل كُل[1] حتي ماتت.

وأما الداجو فهم في جهة الجنوب، وبينهم وبين الكوكة مسافه قريبة، لأنهم يتاخمونهم[2] في الأراضي، وهم أناس غلب السواد علي أجسامهم، واستولت الوحشية علي قلوبهم، فهم عند الوداي بمنزلة البرتي عند الفور، إلا أن البرتي يسكنون شمال الفور، {والداجو} في الجنوب، وبالجملة فلعدم طول المكث هناك اضطربت أحوالهم.

وهناك قبائل أخري مختلطة بما ذكرنا، نسيت أسماءهم وأماكنهم.

وأما الجناخرة فأصلهم عبيد السلطان، وهم مقام العبيدية في دارالفور، وهم طائفة عظيمة وأمم جسيمة، قد سكنوا جنوب الوداي، لكن من جهة المشرق، واتصلوا بالمساليت، لكن مع ذلك لا تختلط أنسابهم بهم ولا يمتزج حسبهم بحسبهم، وأما الميمة فهو شعب عظيم، ذو قبائل وفصائل، وهم أناس حالكوا السواد، كأن الوانهم المداد[3] ، قد سكنوا الجنوب بين المغرب والمشرق، ولم يكن بينهم وبين الداجو والكوكة فرق، وما بين {هذه المنطقة[4] }ووراه الي الجنوب جموع مجمعة، وبلاد

---

[1] لفظة كُل كُل لعله يقصد بها أنها ظلت فتاه دون أن يقربها أحد .

[2] في الأصل : "متاخمون..." .

[3] الحديث عن سواد الميمة مبالغ فيه حسب مسوحاتهم الموجودة في السودان، فتغلب علي الوانهم السمرة الفاتحة، وهم مسالمون يحبون الاستقرار و العمل بالزراعة والاتجار.

[4] في الأصل: "وما بين ذلك من وراه " .

واسعة أهاليها مختلطة الأنساب، فترى في البلد الجنسين والثلاثة والاربعة والاكثر، خصوصاً البرقد، فان بلادهم غير منتظمة لبعضها، بل يجد الانسان هنا بلدة، وهنا بلدتين أو ثلاث، وهنا عدة بلاد وكلهم غلبت عليهم الطباع القبيحة، فيألفون الخيانة والفضيحة، وأكثر بضاعتهم السرقة والخيانة، بل لا يعرفون المودة والأمانة، وهم أناس سود الألوان، نحاف الأبدان، قصيرهم أكثر من طويلهم، وعزيزهم في الطبع كحقيرهم، فهم آفة بلاد الوداي ومنهم الحدادون والصيادون، وهم اقل الناس اعتباراً، وأحقرهم عند الوداى مقداراً، لأخلاقهم الخبيثة، وطباعهم الخسيسة[١].

وقد احاط بدار الوداى عرب، فمن جهة المغرب عرب الزبدة والعريقات، وعرب البحر، وهذه القبائل الثلاث[٢]، من الغنى والقوة بالرجال فى أعلى مكان، ولقد أخبرنى الفقيه موسى عقيد الزبدة أخو الامام بدرالدين، امام السلطان، أن عرب الزيدة هؤلاء من عرب اليمن، ونسبتهم الى زبيد[٣]، وانهم من حمير، وكذا اخبرنا الفقيه العريقى ترجمان السلطان، ان العريقات[٤]، من عرب العراق، وانهم من بنى لخم وجذام، واما عرب البحر فجموع مجمعة ولكل منها برية واسعة، وكلهم تحت قائد واحد، وكلهم اصحاب بقر واباس ومتاع ورياش، وكنت اعرف عقيدهم، وكان يسمى مسعود، وهو رجل كثير الأعوان والجنود.

ومن جهة الشمال المحاميد، وهى قبيلة عظيمة، ذات فصائل وبطون وهى صاحبة[٥]، ابل ونعم، وخيول وغنم، ورقيق ولجين ومرجان يحلو لنظر العين، واصحاب عدة كاملة، ورماح عاملة.

---

(١) حديث المؤلف عن البرقد فيه شئ من الغلو، لأن البرقد فى السودان لم يكونوا بهذا الوصف، فقد عرفوا بالهدوء والاستقرار فى ديارهم وتحسوها، وهم الان فى مقدمة القبائل المتعلمة فى دارفور، ولهم تاريخ اسلامى حافل مع جيرانهم الفور.

(٢) فى الاصل: هذه القبائل الثلاثة.

(٣) زبيد: بلدة كانت عامرة فى جنوب اليمن، وكانت فيها معاهد علمية كبرى خلال العصر العباسى وماتلاه، وكان يهاجر اليها الطلاب والعلماء من مصر وشرق افريقيا والحجاز، وبعد مرحلة هاجرت قبائلها واستقر جزء منها فى شرق السودان وهى معروفة الان بقبائل الزبيدية، وواصل جزء منها هجرته غرباً واستقر باقليم وداى وهم الزبدة.

(٤) العريقات: من عريق او عراق، ويقال انهم هاجروا من العراق، وهم من عرب لخم وجذام وهم من القحطانين الذين هاجروا الى شمال الجزيرة العربية واستقر جزء منهم فى العراق، ولاسباب سياسية هاجروا الى مصر وشمال افريقيا ثم الى بلاد السودان.

(٥) فى الاصل: وهى اصحاب ابل.

ومن جهة الجنوب عرب المسيرية[1] والفلان وهمـــا قبيلتـــان عظيمتـــان اصحاب بقر جمعها غفير وعددها كثير، وليس بين الفور والوداى عرب، لضيـــق المكان لان بينهما مسافة يوم بل اقل للمسافر الذى يمشى على مهل، ويتبع لـــدار الوداى تامة كما قدمنا والباقرمة وركا[2] وفراوقيه[3]، لان كلاً من هؤلاء الملـــوك ماعدا باقرمة يعطى خراجين، خراجاً لسلطان الفور، وخراجاً لســـلطان الـــوداى، ولانجد قبيلة من القبائل التى بدارفور الا (ونجد) مثلها فى دار الـــوداى، مـــاعداً التنجر والتموركة فليس منهما فى دار الوداى احد.

ومن جهة الشمالممايلى المشرق قبيلة البديات وهـــم قـــوم مـــن اعجـــام السودان، الا أنهم كالبدو فى ركوب الخيل ومرعاها والاقتيـــات بلبانـــها، ولكـــل ماذكرنا من القبائل ملك حاكم عليها يسمى فى اصطلاح الفـــور ســـلطاناً وفـــى اصطلاح الوداى ملكاً، لانهم يقولون ان لاسلطان هناك الا سلطانهم، وماعداً ذلـــك فجميع سلاطين الدنيا عندهم ملوك، ولايقدر احد من الناس ان يقول نحن فى بلادنا لنا سلطان، واذا (حدث بان قال احد الناس[4]) ذلك، فان كان غريباً عرفوه ونهوه، وقالوا له لاتقل بعد اليوم انه لايوجد فى الدنيا سلطان[5]، ابداً الا سلطاننا، وماعداً ذلك فهم ملوك، وان كان من أهل البلد عنفوه ووبخوه، ومن العجب انهم يســـمون السلطان بلغتهم يقولوا: "ملك ملك كلك نيكاتيني" ومعنى ذلـــك: ملكنـــا الله يعطيـــه

---

(1) المسيرية: من القبائل العربية التى هاجرت الى السودان قديماً، وينتمون الى مجموعة عرب جهينة، من جنوب الجزيرة العربية، والـــتى هاجرت الى مصر ومنها الى شمال افريقيا ثم الى السودان الغربى ثم الى سودان وادى النيل واستقروا فى غرب الســـودان مـــع بـــنى عمومتهم الرزيقات والتعايشة والحبانية والحوازمة وبنى هلبة والحمر، واستوطن جزء كبير منهم فى اقليم تشاد، وهم الان من اقـــوى القبائل العربية فى تشاد وعاصمتهم ام حجر وكبكابية، وبعد دخولهم السودان انقسموا الى مسيرية زرق ومسيرية حمر، ويعملـــون جميعاً فى الرعى ولهم تأثير قوى على كل الدول التى نشأت فى غرب افريقيا.

ينظر: الشيخ ابراهيم صالح: المرجع السابق، ص ١٥٣

(2) ركا: او ركة: قبيلة من القرعيت يقطنون أقصى جنوب دارفور وشمال غرب بحر الغزال، وجزء منهم يسكن اقليم وداى، ويقال انهم سكان جبل مرة الاصليون، ثم اخرجوا منه بواسطة الداجو، ثم التنجر والفور وكذلك القبائل العربية.

ينظر: Macmichuel :OP.CIT.P.٨٥

(3) فراوقية: أو فراوجية، احدى قبائل القرعيت القوية، كانت لها مملكة زمن المؤلف تتبع لدولة الفور تحت حكم أبابعا، وتقع بلادهم فى جنوب دارفور ولهم اسهامات واضحة فى تمكين دولة الفور وكذلك دولة الوداى.

ينظر: Macmichuel: op.cit.p.١٨٣

(4) فى الأصل: فاذا رفع وقال ذلك ان كان غريباً

(5) فى الأصل: انه لايوجد فى الدنيا سلطاناً

الحياة، والمراد الله يطيل حياة ملكنا، لان لغتهم صعبة جداً، وفيها كافات كثيرة، ومن العجب أنهم يسمون الله "كلك" والولد الصغير "كلك" والعجوز "منجوكلك" واكثر أسمائهم تنتهي بالكاف، كما تبدأ بها كما يسمون أحد الكماكلة، وللرجل الصالح" كرك "والقرعة كيرك "وكل كلامهم على هذا المنوال، وكنت في احد الايام[١] سمعت أحد الكبرتو يغني بنفيره، فسألت العقيد احمد ود مختار عما يقوله فقال لي انه يقول "كتتك تدارزنه كالانيامي" فسألته عن معنى ذلك بالعربية فقال: معناه أيها الطائر الجائع هلم فكل" يعني انه يقتل الاعداء حتى يشبع الطير من لحومهم، ولقلة مكثي في بلادهم وكثرة اللغة العربية لم احتج ان اتعلم لغتهم، ومع ذلك كنت عرفت منها جملاً تغني الانسان في أحوالة الضرورية كأسماء الماء والخبز واللحم، وأسماء الأواني والثياب، (ولكن) نسيتها بعد طول العهد وعدم المكالمة، ولاتظن أن جميع مافي الوداي من القبائل لغتهم واحدة، بل كل قبيلة لها لغة مستقلة لاتشبه الأخرى كما أن سنحهم متغايرة، لأن سنحة الوداي مغايرة لسنحة الكشمرة، فالوداي كبار الرؤوس، مستديرو الوجه، ضخام الكراديس طوال القدود، والغالب ان ذكورهم أجمل من إناثهم.

أما الكشمرة، فطوال الوجوه، متوسطون في طول القدود وضخامة الكراديس، والبرقد صغار الرؤوس، نحاف الابدان، قصار القامة يغلب عليهم السواد، أما الكوكة فصفر الألوان، صغار الأجسام، نساؤهم أجمل من ذكورهم، والحاصل أن لكل منهم سنحة يتميز بها عن غيره، بحيث لو رأيت منهم شخصين معا كل شخص من قبيلة لادركت من سنحتيهما أن لكل شخص منهما قبيلة وهكذا.

تنبيه:-

اعلم أن اهل الوداي كانوا متوحشين لم يتخللهم التمدن الا منذ زمن قريب، لأنهم كانوا قبل ذلك تقرب طبيعتهم من طبيعة أهل الصين ضناً منهم على ملكهم وبلادهم، فكانوا اذا أتاهم غريب ودخل بلادهم منعوه من الذهاب الى بلده حتى يموت، لكنه في اكرام من المأكل والمشرب والملبس، ولايمكنوه من العود الى

---

[١] في الأصل: "وكنت في بعض الايام..."

دياره أبداً [١] (واستمروا على ذلك) حتى ملكهم السلطان صالح، وكان رجلاً عاقلاً جليل القدر، يخشى الله ويتقيه فاتفق أن جاء[٢] في أيامه بعض التجـــار، فبــاعوا وربحوا، ثم تركهم رجعوا الى أوطانهم، فانجرت اليهم القوافل قليلاً قليـــلاً حتـى ملكهم ولده المرحوم السلطان محمد عبدالكريم صابون، فكثرت لديــه الخـيرات، وفاضت على يده البركات، وأعطى التجار عطايا عظيمة[٣] حتى رغبهم في العود الى بلاده فتسامعت به الاقطار، وانهلت[٤] عليه أرباب البضائع انهلال الامطـــار، ووفد اليه العلماء والشعراء من الأمصار، فكانت مدته ربيعاً وغيثاً مريعــاً، وقــع ذلك على حد قول الشاعر:

يا أيها الملك الذي بصلاحه صلح الجميع

أنت الزمان فإن عدلـ ـت فكله أبداً ربيع

فكان رضوان الله عليه مابه عيب يشينه، سوى كرمه على حد قوله:

وليس لهم عيب سوى أن ضيفهم يصحبهم ينسى الاحبة والاهلا (٥)

او على حد قوله:

لاعيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب (٦)

ومع صغر سنه كان متمسكاً بالشريعة حسب الامكان، لاتاخذه في الله لومة لائــم، فكان يقيم الحد ولو على ولده، ولم أر حد الزنا أقيم على أحد الا في بلـــده، لانــي رأيت حد زنا المحصن قد اقيم على امرأة، فحفرت لها حفرة وأوقفت فيــها الــى صدرها ورجمت حتى ماتت، وأما حد شارب الخمر، فقد رأيته في مواضع، ولحبه رحمه الله في العلم وأهله اكتنفه العلماء، فكان لايقطع أمراً الابرأيهم، وكان أكـثر أرباب دولته من اهل العلم، فكان أكبرهم منزلة في الزمن الذي كنت فيه وأقواهـم

---

(١) في الأصل: "ولايمكنوه من العود الى دياره ابداً حتى ملكهم..."

(٢) في الأصل: "فاتفق أن جاءت..."

(٣) في الأصل: "عطا جسيمة..."

(٤) في الأصل: "وانهلت عليه... ووفدت عليه العلماء..."

(٥) البيت: أي ليس لهم عيب سوى كرمهم الذي ينسي الانسان احبته واهله وهو نوع من المدح

(٦) أي لاعيب فيهم الا أن سيوفهم فيها علامات من ضرب الاعداء في الحرب وهو مدح لهم

حرمة شيخنا وأستاذنا المرحوم السيد احمد الفاسي، ويليه الامام الفقيه نور قاضي القضاة يومئذ بإقليم الوداى، وهو عربى الأصل وليس من الوداى، غير أنى نسيت من أى قبيلة هو من العرب، ويليهما فى الفضل والحرمة الامام الأجل سيدى أحمذوه لمهيدى ويليهم الوزير الأجل المحترم الفقيه محمد جميل الزعف، ويليهم الفقيه البارع على ودمهيدى، ويليهم فى الفضائل الأديب الكامل الفقيه الوالى الباقرماوى، وكان شاعراً بليغاً، فامتدح حضرة المرحوم السلطان بعدة قصائد

ولعدم اعتنائى بالشعر حينئذ لم أعلق فيها شيئاً، ولاحفظته، وكان رحمه الله تعالى (أى السلطان)لاعتنائه بأهل العلم يقدمهم فى الزكاة على غيرهم، ويغمرهم بأفضاله، ويتفقد أحوالهم، وينتقم ممن نال منهم، ويغض الطرف عن مساوئهم، ويهتم بقضاء حوائجهم اذا رفعت اليه، وكان إمامه الأعظم الإمام الفقيه محمد بدرالدين فقيهاً ضليعاً فى فقه مذهب الامام مالك، لم تر عينى فى أقاليم السودان أهيب منه، ولا أفصح منه فى الخطبة، فكان نادرة عصره، ووحيد دهره، وكذا رئيس تراجمته الفقيه محمد العريقى، كان من الفصاحة بأعلى مكان، جميل الهيئة، وممايلحق بهم الوزير الأجل الفقيه موسى عقيد الزبدة، وهو أخ الامام بدرالدين، والفقية محمد جميل الزعف، وقدمنا انه هو الذى فتح الباب الحديدى[1] للسلطان ليلة دخوله دار المملكة للتولية حين مات والده السلطان صالح.

والكثر وزرائه وأمرائه فيهم علمية وشجاعة واقداماً على الأخطار بخلاف غيرهم من الممالك، لأننا قدمنا انهم اشجع من الفور ومن الباقرمة ولايضاهيهم فى الشجاعة فى اقليم الفور الا الميدوب والزغاوة والتامة، وأشجع من البرنو وان كانت مملكة البرنو أوسع داراً وأكثر رجالاً وأقوى عدة، ولقد بلغنى عنهم حين

خرج عليهم الفلان، انهم كسروهم مراراً وحين توجه والدى من باقرمة الى برنو كان الفلان متغلبين [2] عليهم، حتى أن السلطان أحمد البرناوى فر بنفسه من مدينته ونزل فى آخر عمله بإقليم كانم، واحتضنه هناك الفقيه الصالح والوزير

---

[1] فى الأصل: "فتح الباب الحديد..."

[2] فى الأصل: "كان الفلان متغلبة عليهم..."

الناجح محمد أمين الكانمي[1] وبذل معه المجهود في جمع العساكر، ولم يزل معه الى أن رده الى مقر سلطنته وكرسي مملكته[2].

ومن غريب ما اتفق لعساكر البرنو أن السلطان أرسل أحد وزرائـــه مـــع جيش عظيم لقتال الفلان، فتوجه الجيش وكان معهم بعـض المغاربـة واعـراب البادية، فبينما هم سائرون في صحراء مستوية المهاد اذ رأوا أمامهم سواداً عظيماً قد ملأ تلك الصحراء فلما رأوا ذلك السواد وأيقنوا أنه جيش الفلان كثر خوفهم[3]، ونزل الرعب في قلوبهم وفشلوا ورجعوا على اعقابهم، وقالوا لاطاقة لنا بقتال هذا الجيش فجاء احد المغاربة الى الوزير وقال له: كيف تنصرف العساكر من سـواد لاتعلم حقيقته، فقال الوزير: من يكشف لنا عن ذلك، فقال المغربي أنا (أقوم بذلك) فقال له الوزير: أذهب، فذهب المغربي وحقق السواد فرآه نعاماً كثيراً قد اجتمـع ورفرف بأجنحته، وصار من بعد كأنه جيش مصفوف، فرجع ينادي أيـها النـاس أرجعوا، هذا نعام، فلم يلو عليه أحد وتمادوا في هزيمتهم الى أن دخلـــوا برنـي البرنو وهم في غاية الارتجاف[4]، ولما ظهر هذا الامر وفشا، خاف الفقيه محمـد أمين الكانمي أن يشيع هذا الخبر ويسمعه الفلان، فـــيزيد طمعـهم فـي الدولـة

---

(١) الشيخ محمد الأمين الكانمي، ولد في إقليم كانم ببرنو لأب كانمي وأم عربية من عرب "طرابلس" وكان والده يسكن في إقليم فزان، تعلم الشيخ الأمين القرآن بفزان وانتقل إلى الأزهر، تزود بالعلم والمعرفة، ثم أتى برنو لنشر الإسلام، وكان عالماً فصيحاً أديباً استطاع بقوة حجته أن يقارع الشيخ عثمان بن فودي ويخطئه في غزوه لبرنو، ثم جمع أهل برنو وقادهم لإخراج الفولان من برنو وأصبح أبناؤه ملوكاً لبرنو بعد أن انقضوا الأسرة السيفية التي كانت تحكم برنو لأكثر من [illegible] عام، ولازال أحفاده يحكمون في ولاية برنو. ينظر: الشيخ آدم الألوري: الإسلام في نيجيريا، ص ١١١ - والشيخ إبراهيم صالح: تاريخ الإسلام وحياة العرب في امبراطورية كانم برنو، ص١١٥ ومابعدها.

(٢) يتحدث الكاتب عن غزو الفولان لدولة البرنو، وذلك عندما غزا الشيخ عثمان بن فودي برنو في عام ١٨١٠ متهماً ملوكها بالتواطؤ مع أعدائه واستطاع أن يدخل عاصمة برنو يومئذ وهي مدينة كوكا، وخرج منها السلطان دونما بن أحمد والى إقليم كانم، وهناك التقى بالشيخ محمد الأمين الكانمي وهو من أساطين العلم والمعرفة ولايقل خطراً من الشيخ عثمان بن فودي فاستطاع أن يجمع حوله الرجال، وأن يستنفر كل أهل برنو فتكونت قوة كبرى بقيادة الشيخ الكانمي والسلطان دونما استطاعت أن تهزم الفولان وتطردهم من العاصمة، فدخل السلطان دونما عاصمته بعد أربعين يوماً.

(٣) في الأصل: فكثر خوفهم...

(٤) هذا الحديث عن خوف جيش برنو فيه شيء من المبالغة، فإنهم لو كانوا كذلك لما استطاعوا إقامة أكبر دولة إسلامية في إفريقية، وحافظوا عليها حتى كانت من أطول الدول عمراً وأكبرها مساحة إذ امتدت من الصحراء حتى النيل، واستمرت لأكثر من ألف عام، وقد وصفوا بأنهم من أشجع القبائل في إفريقيا، يقول عنهم الشيخ آدم الألوري: "أن أهل برنو هم أشهر الناس في الفروسية في إفريقية العربية" وإن كان تبرير المؤلف لذلك الخوف فيه شيء من الموضوعية؛ ينظر موجز تاريخ نيجيريا ص ٦٥، وإبراهيم طرخان: امبراطورية البرنو الإسلامية.

البرناوية، ثم طلب رؤساء الجيش الذى حصل فيه هذا الفشل وقتلهم، ثم نادى منادى السلطان فى العساكر أن يعد من هذا اليوم كل من فر من عدو لاجزاء له إلا السيف، وجمع العساكر ورتبها وخرج لقتال الفلان، فهزمهم واخرجهم من (بلاد) البرنو، وقتل منهم مقتلة عظيمة.

وأقول ان الذى دعا البرنو للفرار قبل التأمل ووقوع الحرب انما هى الحضارة التى استولت عليهم، حتى صارت لهم عادة، لانه قد شوهد أن الدولة كلما تمكنت من الحضارة كلما هابت القتال وأسبابه، وكلما كانت فى أصالة الخشونة وعدم الترفه كانت أقدم على الاهوال واقتحام المشاق والصبر على المكاره.

أماالحضارة التى تسبب الفشل والخوف فى الدول، فأقول: الحضارة هى كثرة التمتع بالمأكل والمشارب والملابس والمراكب والمناكح النفيسة حتى يصير ذلك ديدناً للنفس، فاذا جاء بعد ذلك مايعارض ذلك الديدن تشامست منه النفس وأبته، وتذكرت مألوفاتها وحنت اليها فتقول لصاحبها: مالك والقتال وارتكاب الاهوال الذى يكون سبباً للهلاك وسوء الارتباك، وترك المأكل العظيمة والمناكح الجميلة، وما أنت عليه من حسن الحال، فيخاف الانسان ويظن انه بمجرد دخوله الحرب يموت، وأن الموت متحقق عنده، وتسول له نفسه أنه إن انهزم ولم يباشر قتالاً[1] سلم من الوبال، ورجع الى مألوفاته، فيحمله ذلك على الفرار، وترك القتال، وماعلم أن الحضارة هى نهاية آجال العمران، وان خوفه عليها يكون سبباً لزوالها بالكلية، فقد ذكر العلامة ابن خلدون فى تاريخه الكبير فى الجزء الاول منه فصلاً فى هذا المعنى فقال:

إن العمران كله من بداوة وحضارة[2] ، وملكة وسوقة له عمر محسوس، كما أن للشخص الواحد من اشخاص المكونات عمراً محسوساً، وتبين فى المعقول والمنقول أن الأربعين للانسان غاية فى تزايد قواه ونموها، وانه اذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة عن النمو برهة، ثم تأخذ بعد ذلك فى الانحطاط،

---

[1] فى الاصل: " ويباشر قتالاً...."

[2] الاصل: "أن العمران كله فى بداوة وحضارة.."

والحضارة فى العمران، كذلك، لانه غاية لامزيد وراءها، وذلك أن الترف والنعمة اذا حصلا لأهل العمران دعاهم بطبعه الى مذاهب الحضارة والتحقق بعوائدها، والحضارة هى التفنن فى الترف واستجادة احواله، والكلف بالصنائع التى توقف من أصنافه وسائر فنونه، كالصنائع المهيئات للمطابخ والملابس والمبانى والفرش والآنية، وسائر الأحوال للمنزل، وللتأنق فى كل واحد من هذه صنائع كثيرة لايحتاج اليها عند البداوة، واذا بلغ التأنق فى هذه الاحوال المنزلة الغاية تبعته[1] طائفة من الشهوات، فتتلون النفس من تلك العوائد بألوان كثيرة، لايستقيم حالها معها فى دينها ولا دنياها، أما دينها فلا استحكام (فى) صنعة العوائد التى يعسر نزعها، واما دنياها فلكثرة الحاجات والمشوقات التى تطالب بها العوائد، ويعجز الكسب عن الوفاء بها، وبيانه أن المصرّ بالتفنن فى الحضارة تعظم نفقات أهله، والحضارة تتفاوت بتفاوت العمران، فمتى كانت العمارة اكثر كانت الحضارة اقل[2] لان المصر الكثير العمران يختص بالغلاء فى أسواقه وأسعار حاجاته ثم تزيدها المكوس غلاءً، لان غالب الحضارة انما يكون حينئذ نهاية الدولة فى استفحالها، وهو زمن وضع المكوس فى الدولة لكثرة خروجها حينئذ فالمكوس تعود على المباعات بالغلاء لان السوقة والتجار يتحسبون على سلعهم جميع ماينفقونه حتى مؤونة انفسهم، فيكون المكس لذلك داخلاً فى قيم المبيعات، فتعظم نفقات اهل الحضارة وتخرج عن القصد الى الاسراف، ولايجدون وليجة عن ذلك لما ملكهم من اثر العوائد وطاعاتها، فتذهب مكاسبهم كلها فى النفقات، ويتتابعون فى الاملاق والخصاصة، ويغلب عليهم الفقر، ويقل المتأفون للبائع، فتكسر الأسواق، ويفسد حال المدينة على العموم فى الأسواق والعمران.

وأما مفاد اهلها ففى ذواتهم[3] واحداً واحداً، ثمن الكد والتعب في حاجات العوائد، والتلون بالألوان، والشد في تحصيلها، وما يعود علي النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون آخر من الوانها، ولذلك يكثر منهم الفسق والشر

---

(1) فى الاصل: " تبعه طائفة..."

(2) فى الاصل: "اكثر..."

(3) فى الاصل: " واما مفاد اهلها فى ذواتهم..."

والسفسفة والتحيل علي تحصيل المعاش من وجه ومن غير وجه، وتنصرف النفس الي الفكر في ذلك، والغوص عليه، واستجماع الحيلة، فتجدهم أجرياء[1] علي الكذب والمغامرة والغش والخلاعة والسرقة والفجور في الأيمان والربا في البيوعات، ثم تجدهم لكثرة الشهوات والملاذ الناشئة عن الترف أبصر بطرق الفسق ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه، وطرح الحشمة بالخوض فيه، حتي بين الأقارب وذوي المحارم، الذين تقتضي البداوة الحياء منهم، وتجدهم أيضاً أبصر بالمكر والخديعة، يدفعون بذلك ما عساه ينالهم من القهر، وما يتوقعونه من العقاب علي تلك القبائح، حتي يصير ذلك عادة وخلقاً لأكثرهم إلا من عصمه الله تعالي، ويموج بحر المدينة بالسفلة من أهل الخلق الذميم، ويجاريهم فيها كثير من ناشئة الدولة وولدانهم، ممن أهمل عن التأديب، وأهملته الدولة من أعدائها، وغلب عليه خلق الجوار، وإن كانوا أهل الغاب، وذلك أن الناس بشر متماثلون، وإنما تفاضلوا أو تمايزوا[2] بالخلق، واكتساب الفضائل، واجتناب الرذائل، فمن استحكمت فيه صفة الرذائل بأي وجه كان، وفسد خلق الغير فيه، لم ينفعه ذكاء نسبه ولا طيب منبته، ولهذا تجد كثيراً من أعقاب البيوت وذوي الأحساب والأصالة وأهل الدول مستغرقين في أغمار، ومنتحلين للحرف الدنية في حياتهم، مما فسد من أخلاقهم، وما تلونوا به من متعة وترف وسفسفة، فإذا كثر ذلك في المدينة والأمة كان إيذاناً بخرابها، وهو معني قوله تعالي:

"وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا"[3]

ووجهه أن مكاسبهم حينئذٍ لا تنطي[4] حاجاتهم لكثرة العوائد ومطالبة النفس بها، فلا تستقيم أحوالهم، واذا فسدت أحوال الأشخاص واحداً واحداً إختل نظام المدينة وخربت، وهذا معني ما يقول بعض أهل الخواص: أن المدينة اذا أكثر فيها

---

(1) وأجرياء: جمع جريء، ويمكن أن يقول "جريئون".

(2) في الأصل: "تميزوا ...".

(3) الآية: سورة الإسراء الآية ١٦.

(4) في الأصل: "لا تفي...".

غرس النارنج[1] تأذنت بالخراب، حتي أن كثيراً من العامة يتجافي غرس النارنج بالدور، وليس المراد ذلك بأنه خاصة في النارنج، وانما معناه ان البساتين واجراء المياه[2] من توابع الحضارة، ثم إن النارنج والليمون والسرو وأمثال ذلك مما لا طعم فيه ولا منفعة له، هو من غاية الحضارة، اذ لا يقصد بها في البساتين إلا أشكالها فقط، ولا تغرس إلا بعد التفنين في مذاهب الترف، وهذا هو الطور الذي يخشي فيه هلاك المصر وخرابه لما قلناه ولقد قيل مثل ذلك في الدفلا[3]، اذ لا يقصد بها الا تلون البساتين بنورها ما بين أحمر وأبيض وهو من مذاهب الترف.

ومن مفاسد الحضارة الانهماك في الشهوات والاسترسال فيها لكثرة الترف فيقع التفنن في الشهوات البطنية من المأكل والمشرب وملاذها، ويتبع ذلك التفنن في شهوات الفرج وانواع المناكح من الزنا واللواط، فيفضي ذلك الى فساد النوع إما بواسطة لختلاط الانساب كما فى الزنا، فيجهل كل واحد ابنه اذ هم لغير رشده، لان المياه مختلطة فى الأرحام، فتفقد الشفقة الطبيعية على البنين والقيام عليهم فيهلكون، ويؤدى ذلك الى انقطاع الانساب، ومن ذلك يحصل العقوق من الولد للوالد، وغير ذلك من المفاسد باختصار.

وبالجملة فإن اشجع قبائل السودان الوداى، فانهم لايخافون الموت، ويهابون الفوت، وأجبنهم البرنو، واوسطهم الفور، وأما فى اتساع المملكة، فأوسعهم البرنو، ويليهم الفور ويليهم الوداى والباقرمة، على ان بلاد الوداى وإن صغرت إقليماً فقد عظمت خيراً عميماً، ورقيقها أجمل من رقيق الفور واحسن خدمة، ولايوجد فى بلاد السودان المتوسطة احسن من رقيق الباقرمة، لما فيهم من الرقة وحسن الخلق والقيام بخدمة أسيادهم خصوصاً الاناث منهم، وحين ملك السلطان صابون بلاد الباقرمة وإفتتن الوداى بنسائها كرهوا نساءهم، وقالوا اننا لم نتزوج الا الأن، وهؤلاء (هن) النساء وماسواهم عدم، بل يوجد فى رقيق الجناخرة الذى تجلبه

---

(1) النارنج : وهو نوع من الفواكه المنتمية من فصيلة البرتقال.

(2) " واجراء المياه " أي شق قنواتها وتصريفها.."

(3) الدفلا : يبدو أنها نوع من الزهور ذات الألوان المختلفة .

الوداى من هو فى غاية المال وحسن المعاشرة فى درجة لاتوجد فى قبلـه مـن الرقيق المجلوب من جهة الفور، مع ان جناجرة الوداى والفور متتـاخمون، وقـد قدمنا أن العساكر ربما[1] تلاقت مع بعضها فى الغزو فى بلاد الفرتيت لكن مـن العجب أن الرقيق الذى يجلب لدارفور رديىء جداً، والذى يجلب لـدار الـوداى عظيم، ويغالوا فى ثمنه[2]، ولذلك نجد انفع الرقيق فى دار الفـور هـو الرقيـق المجلوب من الوداى.

والجناخرة أمة عظيمة لايعلم عددها الا الله تعالى، تفرعت الى فروع كثيرة وقبائل شتى، مسكنها الجنوب من بلاد السودان الاسلاميين اولها من جنوب سـنار على خط مستقيم الى أن تنتهى الى جنوب كشنة[3] من بلاد المغرب مـن قبائل هؤلاء المجوس لانك[4] إذا سرت من سنار على خط مستقيم الى ناحية المغـرب تصل الى كردفان[5] بعد (خمسة عشر[6]) او ستة عشر يوماً، ثم بعد عشرة أيـام من الابيض[7] او اثنى عشر تصل الى دارفور، ثم منها ان كان من الفـاشر الـى وداى خمسة عشر يوماً للمتأنى، وعشرة للمجد فتصل الى دار وداى، ثم منـها اذا اردت التوجه الى الباقرمة فتتجه الى الغرب مع انحراف قليل الى الشمـال،

---

[1] فى الاصل "... لما تلاقت... وهو تعبير لايستقيم مع سياق الكلام...

[2] فى الاصل "... ويغالوا فى ثمنها..."

[3] كشنة: او كتسينا، ولاية من ولايات هوسا السبع وتقع شمال نيجيريا دخلها الاسلام فى القرن الخامس عشر الميلادى وتقع الى الشرق من ولاية كانو وكانت مدينة تجارية زارها الرحالة ابن بطوطة فى ذلك التاريخ، وذكر ان فيها تجاراً من المسلمين العـرب والسودان، ويسكنها ايضا الفوسا والبرنو كما زارها الشيخ محمد بن عبدالكريم المغيلى، وتولى القضاء فيها واصلح احوالها الدينية والاجتماعيـة، وبنى فيها مسجداً جامعاً كما كان لملوكها الصلات بشيوخ الازهر خاصة الشيخ السيوطى.

ينظر: د. عبدالباقى محمد كبير، المصدر السابق، ص ٣٩٨

[4] فى الاصل " لان اذا سرت...."

(٥) كردفان: او كردفال هى الاقليم الذى يلى دارفور شرقاً، ويمتد حتى الحدود مع ولاية الخرطوم، تأسـست فيها مملكة المسبعات أبناء عمومة الفور، وظلت فى ايديهم حتى الفتح التركى للسودان عام ١٨٢١م حيث انتزعت من دارفور وضمت السودان المصرى آنذاك ويسكنها العديد من القبائل العربية فى الشمال، وقبائل النوبة فى الجنوب، وتعتبر كردفان من المناطق الزراعية الهامة فى السودان تغالب الزراعة التى يعمل بها معظم سكان الاقليم.

ينظر: نعوم شقير، المرجع السابق، ص ١١٧.

[6] فى الاصل: سبع او ستة عشر يوماً... فهناك عبارة ناقصة (خمس عشر)

[7] الابيض: هى عاصمة كردفان ومن المدن المهمة فى السودان وافريقيا ففيها اكبر سوق للصمغ العربى والثانية فى افريقيا.

لأنك ان لم تنحرف وقعت في كانم، وهو أول أعمال مملكة باقرمة بعد عشــرة أو اثنى عشر يوماً[1] وان اردت التوجه الى برنو، فهناك طريقان:-

أقربهما أن تتوجه على خط مستقيم من المشرق الى المغرب، فتصل الى برنو بعد عشرين يوماً، وان توجهت عن طريق باقرمي يحتاج ان تعبر[2] بحراً عظيماً من الباقرمة وبرنو، وهذا الطريق طويل، لانه يمر فيها على برنــى منــدرة[3] وهــو عمل[4] مستقل لحاكم مستقل ويمر على احدى ممالك الكتكو، وتطول الطريق نحو خمسة وثلاثين يوماً، ثم اذا خرجت من برنو واردت التوجه الى اركز تتوجه على خط مستقيم نحو خمسة عشر يوماً وهكذا.

لكن كل قبيلة حازت مملكة من ممالك السودان الاسلاميين[5] تسمى باســم خاص، فالتى حازت سنار تسمى بالنوبة، والتى حازت كردفان تسمى بـــالتروج، والتى حازت دارفور تسمى بالفرتيت والتى حازت وداى تسمى بالجناخرة، والتى حازت الباقرمى والبرنو تسمى بالكرداويين وهكذا، وإن كان كل من حازوا مملكة من (الممالك هم عبارة عن) شعوب وقبائل وبطون وفصـــائل لأنــك اذا قست السودان الاسلاميين بمن حازاهم من هؤلاء المجوس تجد الاسلاميين بالنسبة لـــهم كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض، فان قلت كيف يتأتى للاسلاميين الغلـــب علـــى هؤلاء مع أنهم أضعافهم، قلت انما غلبهم الاسلاميون لارتباط كلمتهم واجتماعـــهم على رأى واحد، وهؤلاء المجوس كلمتهم منحلة، ولايعاونون بعضهم وزيادة على ذلك ان بين أهل كل بلدتين منهم عداوة فيأتى العدو لهذه البلـــدة فيحـــارب أهلـــها ويسبى نساءها وأولادها[6] وأهل البلدة الاخرى، ينظرونهم بشـــذراً ولايعينوهـــم، وحين يخلصون من هذه يأتون الاخرى، فيفعلون بها كما فعلوا بالأولى، وأهل بلد

---

(1) في الأصل: أو اثني عشرة يوماً" وهو خطأ والصواب... اثني عشر يوماً"

(2) في الأصل: ان تعدي بحراً... فعبارة تعدي تعني تعبر حسب لهجة أهل دارفور ووداي.

(3) مندرة: اقليم شاسع يقع جنوب اقليم باقرمة، بالقرب من كتكو، داخل حدود دولة الكمرون الحالية، وكان خاضعاً لدولة السرنو" ويحكمها حاكم مستقل يحمل لقب سلطان.

ينظر: الترجمة الفرنسية .... Voyage au Waday PP.١٣-١٤..

(4) في الأصل: .... وهي عمل."

(5) درج المؤلف على تسمية أهل السودان المسلمين بالاسلاميين ويريد بذلك ان يميزهم عن غيرهم من السكان الوثنيين.

(6) في الأصل" وأولادهم..."

لخر ينظرون اليهم ولايساعدونهم وهكذا، والا لو كانوا يجتمعون كما تجتمع القبائل الاسلامية لما قدر عليهم أحد، كيف وطول مسافة بلادهم أكثر من شهرين للمجـــد وثلاثة أشهر للمثاني، وقد ذكرنا سابقاً أن السرايا التي تذهب من الفور والـــوداى تغيب ستة أشهر، ثلاثة ذهاباً وثلاثة أياباً مع انهم لايقطعون[1] البلاد ولايصلـــون الى نهايتها، وانما متى تمت لهم ثلاثة أشهر وهم ذاهبون يرجعون، وقد أخـــبرني شيخنا الفقيه مدني الفوتاوى ان سرية من سرايا الفور توغلت في بلاد الفرتيـــت[2] في طلب المكسب واجمعوا أمرهم انهم لا يرجعوا[3] الا إذا أتوا علي آخر البـــلاد وعرفوا نهايتها، فدام بهم الأمر حتي مضي عليهم الزمن نحو خمسة أشهر وهـــم ذاهبون ورجعت جميع السرايا ولم يرجعوا هم، حتى ظن أهلـــهم أنـــهم أصيبـــوا بجائحة أهلكتهم، وبعد هذه المدة انتهوا الي بحر عظيم متسع لا يري من كان واقفاً علي احد ساحليه الواقف علي الساحل الآخر إلا بشق الأنفس، فرأوا علي الساحل الثاني أناساً عليهم ثياب حمر، فتعجبوا منهم وتحيروا في الوصـــول اليـــهم لقدم المركب الذي يوصلهم اليهم، وأخبروا أن أولئك النـــاس[4] حيـــن رأوا العســـاكر وكثرتهم خافوا علي أنفسهم وفروا هاربين، قال الفقيه مدني المذكور: ثم اني سألت كثيراً[5] ممن توجهوا في تلك السرايا فلم أجد من يخبرني في ذلك خـــبراً شافيـــاً، وبقيت متحيراً مدة، حتى عثرت علي رجل ممن كان قد سافر كثيراً الـــي بـــلاد الفرتيت فسألته عن هذا البحر وهؤلاء الناس فقال: أنهم أشبه شيء بالـــهنود، والله اعلم بحقيقة الحال.

وهؤلاء السودان علي كثرتهم لكل قبيلة منهم سيما تميزهم علي بعضهم[6]، عن بعضهم (فمثلاً) يبردون أسنانهم بالمبرد ماعدا الأضراس وهؤلاء يسمون بنده،

---

[1] "لايقطعون البلاد" أي لايعرفونها من بدايتها الى نهايتها...

[2] بلاد الفرتيت: زمن المؤلف كانت الفرتيت يسكنون في أقصى جنوب دارفور، وجنوب وداي، والفرتيت قبائل وثنية زنجيـــة أهمـــها رونجة، وبندلا وبنقا وبنجا وفراوجية وكريش وغير هؤلاء، ويقال ان الفرتيت كانوا هم سكان جبل مرة الأصليون ثم طردهم الداجـــو والتنجور والفور فاتجهوا جنوباً وسكنوا في جنوب السودان.

[3] في الأصل: "انهم لا يرجعون..."

[4] في الأصل: "ان تلك الأناس..."

[5] في الأصل: "اني سألت من كثير ممن توجه ....."

[6] في الأصل: "سيما تميزهم ما عدا هم .. والسيما هي العلامات او الوشم الذي يوضع على الوجه .."

وبعضهم يثقبون شفاههم العلوية والسفلية ثقوباً متتابعة وهــؤلاء يســمون كــارا، وبعضهم يثقبون الأذن من حافة الصيوان ثقوباً متتابعة، وهؤلاء يســمون درتــه، ومنهم من يشرط وجهه بالموس ثلاث شرطات في كل وجنة، وهــؤلاء يســمون الشلك.

واما بلادهم فهي أخصب البلاد وأحسنها هواءً، وقد قيل إن المطر عندهــم كثير جداً حتى أن بعضهم لا ينقطع عنه المطر إلا شهرين فــي الســنة وعندهــم ضروب من الكمأة، منها ضرب عظيم جداً يسمونه الأبو، يشوونــه فــي الجمــر فيكون على هيئة مخ البيض لوناً وطعماً، ولكثرة الأمطارْ كثرت الأشجــار فــي بلادهم، وتأكدوا أن أكثرها مما يثمر، والعجب منهم مع وحشيتهم وعدم استئناسهم ومخالطتهم (لأهل) المدن يعرفون بعض الصنائع العجيبة التي لا يمكن اتقان مثلها إلا في المدن العظيمة من بلاد الأوربا، منها كراسي الأبنــوس التــي يصنعونــها لجلوس ملوكهم، فترى الكرسي منها يبهر النظر ويحير الفكر، من حيثية صنعتــه وصقالته وملاسته، ولا تفي عبارة المجاز بما فيه من الإتقــان، ومنــها صناعــة الحراب والسكاكين التي لا يمكن إتقانها في غير بلادهم، إلا إن كــان فــي بــلاد الإنكليز، ومن أعجب ما رأيته عندهم الشبكات التي يشربون فيــها التابــا، فانــها غريبة الإتقان جداً، كأنها عملت في إحدى مدائن الاوربا لانهم يعملونها مع الحديد الخالص النقي، فيعملون الشبك طول فتر أو شبر ويعملوا له حجراً مــن الطيــن ويلبسونه بالحديد وقضيب الشبك ليس معتدلاً، بل فيه انحناء كما يوجد في شبكات أهل اوربا[1]، بإتقان الصناعة لأنك اذا رأيت الشبك منهم لا تظنه أنه من الحديد، بل ربما جزمت أنه صيغ من فضه الصقالية، لونه وحسن صناعتــه، وكــذا مــا يصنعونه من الدمالج والأساور، فانه غريب جداً، مع أنهم لا يصنعون الثياب ولا يلبسونها، بل عرايا الأجساد، والرجال يستّرون عوراتهم بشقــة صغــيرة، قليلــة العرض وطولها نحو ذراعين وأكثر، وعرضها أقل مــن شــبر، وتســمى بلغــة

[1] في الأصل: "أهل الاوربت..".

الفرتيت جوكو. وأما نساؤهم فيستترون[1] بأوراق الشجر من القُبُلِ لا غير، وأما الدُبُر فيتركونه عارياً بلا ستر[2].

عجيبة من قبائل الفرتيت الكائنين بين دار فور وكردفان قبيلة تسمي جنقيه[3]، وهم أهل بقر، وأبقارهم[4] صغيرة الأجسام، كبيرة القرون، ولكل واحد منهم من البقر عدد كثير، وهؤلاء عراة لا يسترون عوراتهم، إناثاً وذكوراً، وهذه القبيلة من أقوي الفرتيت بأساً، وأشدها مراساً، لا يدركها طالب، ولا ينجو منها هارب، لشدة عَدْوها وقوة أعصابها، ومن عاداتهم أنهم يبيتون في الرماد إناثاً وذكوراً، وذلك أن اناثهم بعد حلب البقر وأخذ البانها وقضاء مصالحهنّ، يأخذنّ آنية ويذهبنّ الي الخلاء فيجمعنّ روث البقر الذي وجدنه ويجعلنه أكداساً اكداساً، كل إمرأة تجعل أكداساً أمام بيتها، ومتي جف الكداس تلهب فيه النار وتتركه يحترق من نفسه، فاذا كان بعد العشاء وأراد الرجل النوم جاءته امرأته بقطعة من الزبد فادهن بها جسمه{ثم} يدخل في الرماد المذكور فيبيت فيه فاذا اصبح ذهب الي غدير فاغتسل فيه ومن العجب أنه ينام في الرماد المذكور وأن الرماد لا يدخل في خياشيمه بالتنفس وكيف يطيق ذلك، وهل تلك[5] عادة اعتادوها، وانهم يدخلون اجسامهم في الرماد ما عدا رؤوسهم، ولهم في ذلك بصارة[6]، ومن العجب أيضاً أنهم لايسمون بقرهم، بل كل انسان منهم يختار بقرة بقرونها، بان تكون قرون بقرة كلها علي هيئتها،{علي نحو خاص} فمنهم من يجعلها معوجة الي الامام، ومنهم من يجعلها معوجة الي الخلف، ومنهم من يجعلها معوجة ذات اليمين، ومنهم من يجعلها معوجة ذات الشمال، ومنهم من يجعلها متعالية، ومنهم من يجعلها

---

(1) في الأصل: " فيسترون .. " .

(2) ظاهرة العري في القبائل الافريقية عموماً والبلية خصوصاً مرتبطة بالعادات والتقاليد الروحية والمعتقدات الدينية لكن هذه الظاهرة أخذت تقل الآن بسبب التداخل السكاني والهجرات من الشمال الى الجنوب ومن الجنوب الى الشمال، كما أخذ الاسلام ينتشر بسرعة وسط هذه القبائل.

(3) الجنقيه أو الجنقاوي: تعبير يطلقه أهل دار فور وكردفان على القبائل النيلية في جنوب السودان، خاصة الدينكا والشلك والنوير .

(4) في الأصل: " وبقرهم صغيرة.. " .

(5) في الأصل: " وهل ذلك عادة" .

(6) بصارة: أي بصيرة، أي رؤية ووجهة نظر، وهي كلمة يستعملها أهل دار فور ووداي غالباً .

ملتوية[1] وهكذا، ولقد سمعت خبر هؤلاء القوم من عدة أناس ممن وصل بأبقاره الي بلادهم وحكوا هذا الخبر، والعهدة عليهم، ولقد رأيت بقرات من بقرهم، وبقرهم صغير الأجسام كبير القرون وقرونها متلاقية كالهلالين والله اعلم بحقيقة ذلك.

والحاصل أن الفرتيت أمة عظيمة وأجناس مختلفة، وهم مجوس لا يتدينون بدين، فكل من غلبهم تدينوا بدينه، وانا اعرف من أسماء أجناسهم عدة، وهي النوبة[2] والتروج[3] والشلك[4] والمجقة والجنقيه[5] ، والشالا[6] والبيقو[7] والرتو والكاره[8] والبنزة والقلة والفراوقية والفنقرو والبايا والجناخرة والنارة والدنقو والكوكة، وما عرفت منهم إلا قليلاً من جل ساغة[9] ، من قبل أن أخرج من دار الفور بسنة، كان {هذا الرجل} قد ذهب الي الغزو علي عادته، وكان بعض المكوك استأذن السلطان في الغزو فلما خلص من دار الفور وأراد ان يدخل الفرتيت جاءه قوم من أعراب البادية وأخبروه أنهم مروا علي أمة عظيمة من الفرتيت لم يروا غاز قط، ومدحوا له في حسن رقيقهم، فتوجه اليها ومكث يغزوها أياماً،{ولكنه} رجع مغلولاً ولم يكسب منهم إلا القليل، فاجتمعت {١٥ من تلك القبائل} علي بعض

---

[1] في الأصل: "ملوية..".

[2] النوبة: حسب المصطلح في السودان لا ينتمون الى قبائل الفرتيت فهم أجناس افريقية قديمة سكنت جبال جنوب كردفان ولهم صلات مع قبائل غرب وشمال السودان أكثر من صلاتهم مع قبائل جنوب السودان، وقاموا بدور كبير في كل الاحداث الوطنية التي أدت الى قيام السودان الحالي.

[3] التروج: زمن المؤلف تطلق علي القبائل التي تسكن جبل تقلي بجنوب كردفان، حيث جلب السلطان تيراب أعداداً منهم وأسكنهم مدينة كبكابية لخدمة الدولة في الجيش والمواقع المختلفة وأطلق عليهم اسم العبيدية.

[4] الشلك من القبائل النيلية التي تسكن اعالي النيل، وينتمون الى مجموعة الدينكا، ولهم حياتهم الخاصة ووحدتهم الخاص ويعمل معظمهم في تربية الأبقار، وليست لهم علاقة بقبائل الفرتيت إلا الجوار.

[5] الجنقية: سبق تعريفهم انظر ص

[6] الشالا: مملكة من ممالك الفرتيت في جنوب بحر الغزال والمؤرخ دار بيضاء، وصفها المؤرخون بأنها من أدسم الممالك لكثرة الأمطار عندهم لأنها لا تنقطع إلا شهرين فقط، ولارتفاع درجة الرطوبة.

[7] البيقو: يقال ان موطنهم الأصلي في منطقة بحر الغزال، وأنهم هاجروا منها الي دار فور منذ زمن بعيد حيث منحهم سلطان دار فور أرضاً يزرعون بها، بشرط أن يقدموا للحريم السلطاني فتاة كل عام ولما كانت أم السلطان محمد فضل (١٨٠٢-١٨٣٩م) تنتمي الى هذه القبيلة فقد اعفاهم من هذا التقليد ومنحهم حريتهم وفرض عقوبة الإعدام علي من يتحرش في ابنائهم.

[8] الكارة: ضمن مجموعة قبائل الفرتيت بجنوب بحر الغزال، ولهم ملك يحكمهم وهي من القبائل القوية.

[9] جل ساغة: هو أحد التجار الذين التقاهم المؤلف لتوثيق معلوماته، وكلمة ساغة معناها إسحق بلغة عرب دارفور.

عسكره فاخبروهم أنهم قوم جبارون يأكلون الآدمي حياً، فقلت له وكيف ذلك؟ قال: لما توغلنا في بلادهم خرج علينا من قرية من قراهم عالم عظيم، بأيديهم كرابيج طوال معوجة، وهذه الكرابيج حادة الشفرة كالموس، وخرجت نساؤهم خلفهم على رؤوسهن القداح ملأنه بالعصيدة، مغطاة وحين تلاقينا صار الرجل منهم يهجم على الرجل منا ويضربه بالكرباج على كتفه، فحين يسيل الدم يمد يده الي زوجته فتدني منه القدح الذي فيه العصيدة، فيقطع منها لقمة ويغمسها في الدم ويأكلها وهكذا، ومتي قتلوا منا واحداً أكلوه، ففررنا منهم، فقلت: وما يقال لهذه[1] القبيلة قبحها الله، فقال هم أعجيفه والله أعلم بحقيقة الحال، لأنه كما ذكرنا أنهم عالم عظيم قد سكنوا الجنوب من أول بلاد السودان من جهة المشرق الي آخره من المغرب الي دارسلا، التي هي قاعدة ملك الفلان، وهي بلاد واسعة، وهؤلاء الفلان عالم عظيم، والعجب منهم أنهم كانوا أحقر أهل السودان، وأهل السودان كانوا يحقرونهم، ويقولون أنهم أولاد الحرباء، أي أنهم لا أب لهم معروف، بل إن أمهم الأصلية نامت فجامعها ذكر الحرباء فحملت منه بأبيهم الذي تناسلوا منه[2] ، وهم يزعمون أنهم من أولاد سيدنا عمار بن ياسر أحد الصحابة الأعلام الأجلاء والفضلاء والله أعلم بحقيقة الحال.

وأقول ان أهل السودان انما اخترعوا لهم هذه المقالة أعني قولهم أنهم أولاد حرباء ليذلوهم بذلك، لكن الحق يقال أن هؤلاء القوم فيهم علمية ومعرفة بالنسبة الي غيرهم من أهل السودان وهم يرون أن جميع أهل ممالك السودان عصاة، بل يكفرون بعضهم ويقولون إنهم استحقوا الجهاد لأنهم غيروا وبدلوا في شريعة الاسلام، فأسقطوا الحدود وأخذوا أثمانها، أي جعلوها مالية، وهذا محرم منهي عنه شرعاً، وابتدعوا مظالم كثيرة، واعتقدوا أنها مباحة، وجاهروا بالمعاصي، كالزنا

---

[1] في الأصل: " وما يقال لهؤلاء القبيلة ".

[2] الحديث عن قبائل الفلان أو الفولاني كثير في كتب التاريخ، وربما يقصد المؤلف قبائل {الامبررو} وهم فرع من الفولاني والذين ما زالوا يعيشون البداوة والوحشية، أما الحديث عن أصولهم كما ذكر المؤلف بأنهم أبناء حرباء، فهو خيال محض وهو ضمن الأساطير الافريقية حول كثير من القضايا، لأن الفولاني قبائل كبيرة هاجرت الي افريقيا منذ قبل الميلاد ضمن الهجرات الاسيوية، وتوغلوا في افريقيا تدريجياً من الشمال الي الجنوب وعندما ظهر الاسلام في افريقيا كانوا من اوائل القبائل الافريقية اسلاماً وظهر دورهم الاسلامي في افريقيا علي يد الشيخ عثمان بن فودي في بداية القرن التاسع عشر الميلادي.

وشرب الخمر، والملاهي كالغناء والرقص وأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، ومنعوا الزكاة فلا يؤدونها، وهذه الأمور يجب القتال على كل واحد منها[1] ، ولما قوي عزمهم على ذلك قام منهم رجل يسمى بالفقيه الزاكي وجمع الجموع، وكان رجلاً متنفذاً عندهم، وأرسل الي ملك ملاّ[2] رسولاً معه كتاب يقول فيه: من عبد الله الزاكي الي ملك ملاّ أما بعد : فان الله حدد حدوداً فتعديتموها، وفرض فرائض فأهملتموها، ونهى عن محرمات فارتكبتموها، وأنا أنهاك عن جميع ما حرم الله ورسوله، وآمرك باتباع الشريعة الغراء، بأن تبطل المكوس، وتقيم الحدود، وتتمسك أنت وأهل مملكتك بشرائع الاسلام، وتتوب الي الله مما أنت(فيه)، لأنه ليس لكم من الإسلام إلا الاسم، وإن أبيت فاني مقاتلك على ذلك، كما قاتل الصديق مانعي الزكاة.

فلما وصل الخبر الي ملك البلدة وقرأ الجواب، قام وقعد(ثم) قال: يهددني بالقتال هذا الفلاني، ويعد عليّ هذه القبائح، ويزعم أننا لسنا مسلمين، ويتجرأ عليّ بذلك، لا أتركه أبداً، فجهز السلطان جيشاً كثيفاً وأرسله اليه، وأمر رئيس الجيش بالقتال حتى لا تقوم للفلان بعدها قائمة، وأوصاه إن ظفر بالزاكي ألا يقتله[3]، بل يقبض عليه حتى يأتي به اليه ليوقفه على أقواله ويسأله عن[4] أفعاله، ثم بعد ذلك يرى فيه رأيه، فخرج الجيش وتوجه الي الفلان، وبلغ الخبر للفقيه الزاكي فقال: هذا ما كنا نبغي فجمع أصحابه وركب هو على بعير تواضعاً منه وليس على البعير وطاء الا فروه من فرو الضأن وتوشح بسيفه، وصف أصحابه ووعظهم وقال لهم: أعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف، وهؤلاء القوم أرادوا قتالنا ظلماً منهم، لأننا نصحناهم، فكان جزاؤنا عندهم القتال، وقد قال الله تعالى " تلك الدار

---

[1] في الأصل : " يجب القتال على كل فرد منها .. "

[2] ملاّ أو مليّ أو مالي، هي أسماء لمملكة مالي الاسلامية والتي نشأت على حوض النيجر عقب سقوط دولة غانة عام ٤٦٥هـ ١٠٦٨م على يد المرابطين، وكانت مالي عبارة عن ولاية من ولايات دولة غانة فأصبحت تسير على يد قبائل الماندينج حتى وصلت الى الازدهار في عصر ملكها منسا موسى (١٣٠٧-١٣٣٢م) ثم أخذت تضمحل بعد ذلك حتى سقطت في يد قبائل السنغي الثائرة، وكانت مالي من أهم الدول الاسلامية التي نشرت الاسلام في حوض النيجر، وربما يتحدث المؤلف عن ولاية من ولايات دولة مالي.
ينظر : ابراهيم طرخان : دولة مالي الاسلامية.

[3] في الأصل : " فلا يقتله.. " .

[4] في الأصل : " ويسأله على أفعاله .. " .

الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين[1] ..". فأصبروا علي قتال أعدائكم، وأبشروا بالنصر والفـــرج، لقولــه عليـه الصــلاة والسلام: " لو بغي جبل علي جبل لدُكَّ الباغي[2] " فثبت بكلامه قلوبـــهم، ووطـــن علي الموت نفوسهم. ولاقوا جيش الفلان، فكان أن هزموهم بسرعة[3] ، واستولوا علي اسلابهم وخيولهم ورجع الوزير الي الملك بالخيبة والوبال،{ثم} زحف الفقيــه الزاكي في أصحابه حتي حاصر الملك، فخرج الزاكي في جنده وأعوانه، صفـــوة الفلان الي[4] الملك فانهزم جيش الملك هزيمة شنعاء، ودخل الفقيـــه الزاكـــي دار المملكة، فقتل من العلماء وأعوان الملك ماشاء الله أن يقتل، وأرسل وراء الملـــك سرية فجاءت به، فأمر بقتله، وبعد أن مهد الامور بدار ملاّ جمع العساكر وأقـــام في ملاّ نائباً عنه، وأمره أن يقيم الشرع، ولا يأخذ إلا الزكاة وخراج الأرض علي القانون الشرعي، وأن يجعل ذلك في بيت مال المسلمين، وخرج قـــاصداً مملكـــة كشنا[5] ، وكان بينه وبينها نحواً من أربعين مرحلة، فالتحمها بالجيش ولم تصبـــه آفة، وسمع به العلماء فجاءوا اليه يهرعون لأنه كلما حصله[6] من الأموال يفرقـــه علي الجيوش ولا يأخذ لنفسه شيئاً، وكان في سفره يصوم النهار ولا يقعد ســـاعة بغير وضوء، ولما وصل الي كشنا خرج اليه ملكها وكان قد بلغه ما وقـــع بـــدار ملاّ، فجمع له الجموع{وذهب اليه} حتي وصله[7] ، فراسله الفقيه الزاكي كما راسل ملك ملاّ، فمزق كتاب الزاكي وسبه وخرج اليه في جيش غـــير كثيـــف، فنصـــر الزاكي{علي الملك} وقتله واستولي علي ملكه والسرايا في البلاد، فاستأصل جميع الأموال السلطانية وبسط العدل علي الرعايا فأحبوه، وضيق عليهم فـــي الأمـــور الشرعية، ونادي مناديه الا كل من سمع المؤذن يؤذن للصلاة ولـــم يبـــادر الـــي

(1) سورة القصص ، الآية ٨٣ .

(2) الحديث : رواه ابن الجوزي في العلل المتناهية، ورواه ابن ابي حاتم في علل الحديث، ينظر: موسوعة أطراف الحديث ٦/٧٤٩ .

(3) في الأصل : " فكان بأسرع ما هزموهم .. " .

(4) في الأصل : " علي الفلان " .

(5) كشنا : سبق تعريفها، ينظر ص

(6) في الأصل : "كل ما حصل له من الأموال .." .

(7) في الأصل : " فجمع له الجموع حتي وصل اليه فراسله الفقيه الزاكي .. " .

المسجد فتمه هدر[1] ، وأبطل الخمور والمكوس، ومكث هناك ماشاء الله لـه أن يمكث حتي تمهدت له البلاد وأقام فيها عاملاً من طرفه،[ثم] جمع العساكر وقـال: إني آليت علي نفسي أن لا أترك ملكاً من ملوك السودان الظلمة إلا وفعلت به كما فعلت بهذين الملكين، ولأملأن الأرض عدلاً كما ملئت جوراً، ثم خرج بهم الـى مملكة نفه[2] ومن عجيب الاتفاق ان خروجه وافق خروج سعود بـن عبدالعزيـز الوهابي من الدرعية الى مكة والمدينة[3] ، مدعيـاً أن النـاس تركـوا الشريعـة والتزموا البدع، ولذلك هدم قباب الأولياء والصحابة التي بالمدينة ومكة، وكان لـه شرطي يضرب الناس اذا أذن المؤذن للصلاة ولم يدخلوا المسجد[4] ، وحرم شرب

---

(1) فحكم بقتل من لا يصلي في المسجد، فيه نوع من التشديد، وهو أمر لا يقره الشرع بالرغم من أن البلاد وما وصلت اليه من فساد وبعد عن الدين يتطلب شيئاً من التشدد، لكنه لا يصل الى حد القتل لمن لم يلب الصلاة في المسجد.

(2) نفه أو نوفي هي قبائل تسكن على ضفاف نهر النيجر الشمالية، في الجهات الغابية لبلاد يوروبا في الضفاف الغربية، وقد سكنت هذه المناطق منذ القدم، وكانت عاصمتهم مدينة رابا، ولهم سلطان يحكمهم حتى ظهور الشيخ عثمان بن فودي حيث أدخلها ضمن مملكته، وانتشر فيها الاسلام بشكل واسع، ثم نقلت العاصمة الى مدينة بداء ومن أهم مدنها بالنجي ولابجي، والتسع هذه المملكة ضمن جمهورية نيجيريا الفدرالية :

ينظر : آدم عبد الله الالوري : الاسلام في نيجيريا والشيخ عثمان بن فودي الفلاني الطبعة الثالثة ١٩٧٨،ص: ١٢١ .

(3) تولى الأمير سعود بن محمد بن مقرن إمارة الدرعية في بداية القرن الثامن عشر الميلادي (الثاني عشر الهجري) واليه تنسب المملكـة السعودية والتي نشأت نتيجة اتفاق بين الشيخ محمد بن عبدالوهاب بن سليمان التميمي النجدي صاحب الدعوة الاسـلامية في أمـده والأمير محمد بن سعود بن محمد، حيث انتقل اليه الشيخ في الدرعية فوجد منه تأييداً لمذهبه الذي يدعو الى اصلاح المجتمع المسلم مما علق به من عادات وتقاليد بعيدة عن الاسلام وتعاليمه فدعاه الى التمسك بالكتاب والسنة المطهرة، واتباع اثار السلف الصالح، فعرفت حركته بالسلفية نتيجة لذلك، ويعتبر هذا الاتفاق بين الرجلين اساس النهضة الدينية والسياسية التي انطلقت في الجزيرة العربية كلها، في التـاريخ الحديث فقد قاد الرجلان كتائب الجهاد بالسنان واللسان على كل المناوئين لدعوتهما فكان النصر حليفهما حيث استوليا علـى نجد والحجاز وكان ذلك تمهيداً لقيام المملكة العربية السعودية التي انطلقت من الرياض عاصمة لها، فاجتمع شمل القبائل في هذه البلاد ولاول مرة في تاريخها تحت راية دولة واحدة، وقد ساعد تفجر البترول في تمكين أمر السعوديين، فانعكس ذلك بشكل ايجابي على الامـاكن المقدسة، فسهلت كل الصعوبات للمسلمين في اداء فريضة الحج والعمرة، مما يعتبر امتداداً مستمراً وحياتياً لهذه الحركة الاسلامية في الوقت بينما تجد الحركات المماثلة لها قد انقطع مدها وواجهتها المشكلات بمجرد وفاة زعمائها وذلك مثل حركة الشيخ عثمان بن فـودي في نيجيريا، وحركة الشيخ عمر الفوتي في النيجر والسنغال، والحركة المهدية في السودان.

ينظر : د.حسين مؤنس، اطلس تاريخ الاسلام، ص ٢٦١،

د.عبدالباقي محمد كبيرو، المصدر السابق ص ٤٢٠،

(4) إن امر حث الشيخ محمد بن عبدالوهاب المسلمين على التمسك بالدين، وزجر المتهاونين في أداء فرائضه هو امر شرعي، وهو مستحسن قبيل "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" وكان عمر رضي الله عنه يجوب الأسواق والطرقات والدرة في يده تعلو رأس كـل متطـفل متهاون يسعى لاماتة الدين في النفوس، وليت العالم الاسلامي كله ينحو نحو المملكة السعودية في هذا الأمر. اما قرار الشيخ الزاكي بقتل من لايصلي في المسجد، فهو امر لايقره الشرع لان الارض كلها مسجد للمسلمين لقوله صلى الله عليه وسـلم" جعلـت لي الارض مسجداً وتربها طهوراً، فأيما رجل ادركته الصلاة فليصل" ، وبالتالي لايجوز قتل المسلم الذي لايصلي في المسجد.

التنباك[1] والدخان، ونهى الناس عن قراءة الدلائل[2]، والتوسل بالاولياء والانبياء، بل لايقول الانسان الا بالله، وكان اذا سمع انساناً يحلف بالنبي يضربه ويقول لــه: تب يامشرك، ويجلده[3]، فكانت عقيدة الزاكي هذا تشبه عقيدة الوهابيين في أمور كثيرة وكان خروجهما في زمن واحد.

ولما وصل الفقيه الزاكي الى مدينة نفه خرج اليه أهلــها صحبــة ملكــهم فقاتلهم وهزمهم واستولى على المدينة، وهي أعظم مدينة توجد في بلاد السودان، بما فيها من الخيرات وحسن اخلاق اهلها، لان اكثر اهلها اهل تجارة، يتوجـــهون الى تنبكتو[4] والي كشنة وغيرها، فيأتون بالمتاجر العظيمة، وهذه المملكة محازية لمملكة مراكش من بلاد المغرب.

ومما اتفق من كثرة غني[5] أهلها، أن تاجراً حلّ بـــها[وأراد أن] يمتحــن أهلــها بأمواله، وكان معه نحواً من ألف رأس رقيق وخمسمائة بعير، ولما دخلها جـــاءه التجار مسلمين عليه ومهنئين له بالقدوم، فلم يحفل بهم لعدم معرفته إياهم، فاغتاظ

---

(1) التنباك أو التمباك، ويسمى في دارفور "التابا" ويستخلص من ورق نبات يزرع في دارفور، ويخمر ثم يجعل في شكل أقماع مخروطية وبعد تجفيفه يدق في مهراس حتى يصير دقيقاً ثم يخمر مرة أخرى بعد خلطه بالعطرون ومواد أخرى، فتصبح رائحته كريهــة تصيب الانسان بالدوار اذا شمه وبالتالي فهو نوع من المخدرات، وأثبتت الدراسات العلمية مدى اضراره الصحية بالانسان فهو من مسببات مرض سرطان الفم، ولهذا فان حرمته لاشك فيها، أما الدخان في ذلك الزمان، فهو نفس التابا، ويطلق عليها اسم دخان، وقد يستعمله البعض وهو طازج في شكل لفافات بالورق ويدخنها، وبذلك فان مايسرى من حكم على التنباك يسرى على الدخان.

ينظر: تشحيذ الأذهان، ص ٣٠٠.

(2) الدلائل: المقصود هو كتاب دلائل الخيرات.

(3) لعل الشيخ محق في ذلك، لنهي الاسلام عن الحلف بغير الله، حيث جاء في الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت) وبالتالي فإن الحلف بالنبي أو الشيوخ أو الآباء أو بالطلاق، كل ذلك منهي عنه شرعاً.

(4) تمبكتو: أو تنبكت أو تمبكت، مدينة أسسها طوارق مغشرن على الشاطئ الاعلى لنهر النيجر، وهي في مدخل الصحراء، وتنبكت كلمة من مقطعين: "تن" ومعناها بئر على لغة الطوارق، وبكتو اسم المرأة التي كانت تحرسها، أسست سنة ١١٠٠م فأصبحت مأوى للتجار المسلمين وقصدها العلماء وطلبة العلم من كل الأنحاء، قال عنها السعدي: " ما دنستها عبادة الأوثان، وما سجد على اديمها قط لغير الرحمن" فتطورت سريعاً بتوافد العلماء والتجار عليها من شمال افريقيا ومصر والحجاز وحتى من بلاد فارس، فأصبحت مساجدها عامرة بالعلماء والطلاب، خاصة مسجد سنكوري، ومسجد سيدي يحي التادلي وغيرهما، وقد زارها الرحالة الحسن الوزان في القرن العاشر الهجري (١٦م) ووجد ان الكتب فيها أغلى من الذهب وقد بلغت تنبكت شأواً بعيداً في عالم العلم والتجارة في عصر اسكيا الحاج محمد حاكم دولة سنغي (١٤٩١-١٥٢٨م) حيث زارها الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي بعد خروجه من المغرب والصحراء بسبب ثورته على اليهود في المغرب، كما كان لحكامها مراسلات مع الشيخ السيوطي، واستمرت تنبكت عامرة حتى وقعت في يد المراكشيين (١٥٩٠-١٧٥٠) ثم الفولاني ١٨٢٧م، ثم وقعت أخيراً في يد الفرنسيين عام ١٨٧٨.

ينظر: د. عبد الباقي محمد كبير: الدور الثقافي للشيخ احمد بابا التنبكتي، بحث بمجلة الدراسات الافريقية عدد ٩.

(5) في الأصل: " من كثرة غناء أهلها".

منه رئيس التجار وأخفي غيظه في نفسه ولم يبده، غير أنه تعمد أن يغيظه أيضاً، {فجاءوا}[١] وسألوه ما معه مما يباع، فقال لهم: معي هذا الرقيق لكن لا أبيعه الا لشخص واحد، هو والابل والحبال والأجربة والآنية كلها، فمن يقدر علي ذلك يتقدم اليّ، ومن {لا يقدر فلا يتقدم[٢] اليّ} فسمعوا منه ذلك، وقالوا له استرح الان وسيأتيك من يأخذ منك ذلك فمكث نحو ثلاثة أيام، وكان بلغه أن في هذا البلد شخصاً لا تعرف أمواله لكثرتها، وكان هو رئيس التجار الذي جاء ولم يحفل به مع من اتاه للتهنئة، فلما كان اليوم الرابع أرسل اليه الرئيس المذكور أحد عبيده أحقرهم لديه وأقلهم مالاً، وكان يسمي سعيداً، وقال له: إذهب واشتر جميع ماعند هذا الرجل، ولا تبق معه شيئاً، وأهل هذا البلد يتعاملون بالودع، فلبس العبد أفخر ثيابه وتوجه الي التاجر، فلما رآه احتفل به، وظن أنه رئيس التجار، ولما استقر به الجلوس قال له العبد: إني أريد أن تعرض عليّ ما معك من الرقيق إن كنت تريد بيعه، فاني محتاج لأن أرسل شيئاً من الرقيق الي بعض الجهات، وبلغني أنك تريد بيعه كله صفقة واحدة، وهذا أحسن لي من أن اشتري من كل جهة بعضاً، فأنعم عليه بذلك وعرض عليه أحسن ماعنده فقال له العبد اترك أحسن ما عندك وأقبح ما عندك، وهات شيئاً من الوسط نقومه بقيمة تسري علي باقيه، وكان كذلك، فجاءه التاجر بعبد وجارية، فاشترى منه كل رأس بستين ألف ودعه، وأخذ يده على ذلك، وكذا الحبال والأجربة والآنية وجميع ماعنده ولم يبق له الا أم ولده، ووعده بعد ثلاثة أيام يأتي ويقبض المال، فلما كان في اليوم الثالث لبس الرجل أفخر ثيابه وتوجه الى رئيس التجار ظناً منه أنه هو الذى اشترى منه الرقيق فدخل داراً تشهد لبانيها بالثروة، فرأى هناك ازدحاماً وأناساً[٣] كثيرين، وصاحب المنزل جالس كأنه ملك من الملوك والناس داخلون عليه وخارجون من عنده، فسلم الرجل على صاحب الدار فرد عليه السلام وتشاغل عنه، ولم يحفل به حتي قضي جل أشغاله، ثم بعد ذلك توجه الي الضيف وقال له: ألك حاجة، قال نعم جئت لآخذ ثمن

(١) في الأصل: " تعمد أن يغيظه أيضاً فسألوه " .
(٢) في الأصل: "فمن يقدر علي ذلك يتقدم اليّ ومن لا فلا فسمعوا" .
(٣) في : " فرأى هناك ازدحاماً وأناس كثيرين " . وهو خطأ والصواب رأى ازدحاماً وأناساً .

الرقيق، فقال له وما الرقيق الذي جئت تأخذ ثمنه، قال: الرقيق الذي اشتريته مني أول البارحة قال له ياهذا إنك غلطان، وأنا لي كذا وكذا سنة ما اشـــتريت رقيقـــاً، وإذا أردت أن تشتري مني فأنا أبيع لك ما تريد، ولو عشرة آلاف رقيق، فتحـــير الرجل وقال للتاجر: ألست[1] رئيس التجار فلان، قال نعم، قال وهل يقدر غـــيرك أن يشتري مني ألف رأس من الرقيق بأدواتها صفقة واحدة، قال نعم إن لي نحـــواً من ثلاثين عبداً تاجراً، وأقلهم يقدر أن يشتري أعظم مما ذكرت، فأصبر الآن حتى نرسل وراء العبيد وننظر من الذي اشتري منك ذلك، فجلس الرجل متعجبـــاً مـــن تلك الحال، فاذا بعبد من عبيد التاجر قد أقبل علي سيده وقبل يده وحكي له أنه في ذلك اليوم اشتري من الرقيق كذا، ومن الذهب كذا، ومن الودع كذا، وأنه يريد أن يرسل الرقيق الي ناحية كذا، والرجل الغريب فزع[2] يسمع ولا يبدي شيئاً فلما أتم مقاله لسيده قال له سيده: هل اشتريت من هذا الرجل أول البارحة رقيقاً، فقال لـــه العبد لا والله، وماذا أصنع بالرقيق وهو عندي كثير، فقال له سيده: أرســـل الـــي أخوانك حتي يأتوا ونسألهم أن كان منهم أحد اشتري منه الرقيق يدفع ثمنه، لأنـــه رجل غريب، ويجب علينا أن نسعي في قضاء مصالحه، فكان كذلك، وبعد ساعة جاء كثير من العبيد وكل منهم يعرض علي سيده ما اشتراه وما باعـــه، وســـألهم سيدهم عن من اشتري الرقيق، وكل منهم يحلف ويقول أنا ما اشتريت رقيقاً حتي طال الحال علي الرجل، وظن أن رقيقه قد ضاع، فقال: سيدهم انظروا من اشتري هذا الرقيق منكم، فقال: أن صنفتي حزري يكون سعيد هو الذي اشتراه، لأنه قـــد بلغني أنه اشتري رقيقاً كثيراً صفقة واحدة، فقال سيدهم أحضروه لعنـــه الله، هـــو الذي يفعل هذه الأفاعيل، فما كان الا قليل حتي حضر، فسأله سيده هل أنت الـــذي اشتريت الرقيق، قال نعم، ومن أعلمكم بذلك، قالوا له هذا صاحب الرقيـــق جـــاء يطلب ثمنه، فالتفت اليه وقال له يا هذا بئس ما صنعت، جئت وشكوتني الي سيدي من غير ذنب مني، فهلا أتيت الي داري وطلبت مني ثمن رقيقك وأخذته بغير أن تشكوني، قم معي وأقبض مالك، وصار يوبخه علي اتيانه الي دار سيده، فقام معه،

---

[1] في الأصل: "أليس رئيس التجار".
[2] في الأصل: "والرجل الغريب باهتاً يسمع".

فلما وصل العبد الي داره رأي من الرجل ما أبهره من كثرة الرقيق والمال، ففتح العبد مخزناً له وابتدأوا يعدون الثمن، ولم يبرح(مكانه) حتي قبض جميع المال من ثمن الرقيق والحبال والأجربة والأبل، وبعد ذلك قال له العبد اني تبت الي الله ورسوله من اليوم أن اشتري من مثلك شيئاً، أنفتنني وتفضحني وتشكوني[1] الي سيدي مع أني اشتريت أضعاف ما اشتريته منك وسيدي لا يعلم، فعند ذلك صغرت عند الرجل نفسه، وحلف أن لا يقيم في هذا البلد، وعرف أن ماله بالنسبة الي مال أقل رجل فيها ليس بشيء، وجهز حاله وخرج منها مسرعاً، وحكي لي رجل من أهل فزان أنه توجه الي نفه ومكث فيها أربعين يوماً، فلم ير بلداً أحسن منها، ولا من أهلها، ولا أرخص من أسعارها، ولا أكثر من خيراتها، حتي أنه تعشقها، قال: ولما إيت مكثت في الطريق أكثر من أربعين يوماً وأنا أري نفسي فيها، فتعلق قلبي بها.

ونرجع لحديث الفلان، ولما استولي الفقيه الزاكي عليها استخارها[2] وحسنت في عينيه، فأمر أن تبني له فيها داراً، ويجعلها دار ملكه وقاعدة سلطنته، فيتوجه الي أي محل أراد، ثم يعود اليها، فمكث فيها نحو عام لا يخرج منها، حتي أراح جيشه، ومهد الأمور ورتب قواعد الدولة، وأخذ الخراج وأعطي العطايات، وتوجه منها الي غضواء، وهي المدينة المشهورة بحسن الرقيق، لأنه لا يوجد احسن من الرقيق الذي يجلب من هذه المدينة، وهي قاعدة اقليمها وهو عمل واسع، فحاربها الزاكي واستولي عليها كأستئلائه علي غيرها، وتوجه منها الي أنكر، ومنها الي برنو، كما ذكرنا، ولما استولي علي المملكة أقام بها، وخرج ملكها فاراً بنفسه الي كانم[3]، فتلقاه الفقيه محمد أمين الكانمي وأنزله هو وعساكره خير نزل، وصار يجمع له العساكر من الآفاق ويرغبهم بالاعطاءات، ويرغبهم بأن عزيمته دفع العدو عن البلاد،(وأخذ) يعظهم ويحرضهم علي قتال عدوهم، ويعرفهم أن هذا الفلاني باغ عليهم، لأنهم مسلمون ولم يرتكبوا محرماً يوجب

---

[1] في الأصل: " وتشكيني ".

[2] " استخارها " يعني استخار الله في أمرها ".

[3] كانم: هذه الأحداث هي الثورة التي قادها الشيخ عثمان بن فودي في نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر "كما سبق التعريف.

القتال، وأما ما يقوله من أنهم خالفوا الشرع وتبعوا أهواءهم، انما هي عله اقترحها ليقال إنما قاتلهم علي الدين، وهو في نفس الأمر طالب ملك، ومكث علي ذلك سنة كاملة، حتي جمع جيشاً عظيماً ثم أخذ السلطان وتوجه بالعساكر الي برني برنو بعد التوبة والاستغفار والتضرع الي الله الواحد القهار، وطلب النصر علي أعدائهم الفجار، ولما وصل الي البرني خرج لهم الفلان، ووقع القتال، وكان يوماً مشهوداً، فهزمهم جماعة السلطان، واستلموا منهم مالايحصي كثرة، وفر الزاكي بمن بقي معه، ودخل السلطان البرني مؤيداً منصوراً ببركة الفقيه محمد أمين الكانمي المذكور وصار له الأمر والنهي علي جميع القواد والأمراء، وجدد السلطان ما انهدم من الشرف والمجد، وقد كان سائر ملوك السودان خائفاً[1] من الفلان، ونزل الرعب في قلوبهم، فلما هزمهم البرنو قويت قلوبهم، وذهب ما كانوا يجدونه من الخوف.أ.هـ

وأقول: إن جميع ما جري لبلاد السودان من كشنه الي برنو إنما كان سببه الحضارة وما فيها من الترف الذي ذكره العلامة ابن خلدون في تاريخه، فأنهم لما ألفوا الأماكن الجميلة، والمآكل الشهية، والمناكح الحسنة وتمكنوا منها، كرهت نفوسهم القتال{وأقبلت} علي الحياة خوفاً من فوات ما ألفوه، ورضيوا بعار الهزيمة، وفاتهم التمدح بفخر الغنيمة.

فان قلت: كيف تكون الحضارة بهذه المثابة مع أن طوائف الافرنج لما عظمت حضارتها اتسعت ممالكها، وأخافوا عدوهم، واشتدت شوكتهم وانقلبت علي أعدائهم وطاعتهم، ولو كانت الحضارة مؤدية لما ذكر لكانوا متفرقين أيادي سبأ، وأموالهم وأولادهم في يد أعدائهم نهباً، لأنهم بلغوا الغاية القصوي من الترف، وأخذوا من كل حدب وطرف.

قلت: نعم أما ماذكرتم من حضارة الافرنج فأمر لا ينكر، لكن فرق بين الحضارتين، لأن حضارة أهل السودان إنما هي مقصورة علي المآكل والمشارب والمناكح والمباني والفرش والأواني والمراكب والأغاني مع الجهل بالعلوم العقلية والرياضية التي لا يتميز الإنسان عن الحيوان بدونها، كالهندسة وقانون الحرب

---

[1] في الأصل: "خائفاً..".

والطبيعة والطب والكيمياء وحياة الحيوان، وعلم النبات وخواص الأشياء، بل من تفقه منهم اقتصر علي كتب مذهبه فعرف ما فيها، وحضر قليلاً من علم التوحيد والنحو، وهذا هو الذي عندهم يسمي عالماً، واذا رأوا من يمارس كتب الفنون التي ذكرنا بعضها نسبوه الي الجنون والفلسفة أو الاعتزال، مع أن هذا ظلم منهم، حتي أن علم المنطق الذي يصوب الفكر عن الخطأ حرمه بعضهم، مع أن به تقام الأدلة وتتركب الأقضية، وتؤلف القياسات، وتستنتج النتائج، وهذا جاء من أمرين: الأول: عدم أعتبارهم من أول الزمن، لأنهم لو كانوا رأوا أسلافهم يتدارسون هذه الفنون لو رغبوا فيها.

والثاني: أنهم اعتادوا الراحة، والمعالجة في هذه الفنون تتعب قرائحهم وتذهب براحتهم، خصوصاً وولاة الأمور لم يعتنوا بهذه الأمور، ولا يجيزون بها، والناس علي دين ملوكهم، فرق بين حضارة مع علوم حكمية باعثة علي حب الوطن والقتال عليه، مغرية علي شرف النفس، جاذبة اليه، وحضارة ليس فيها إلا لذة المآكل والمشارب والجهل البسيط بالعلوم المذكورة فما كان هو إلا بهيمة ترعي، مهما جاعت ومهما شبعت رقدت، ومهما شبق جامع، وقصاري الأمر إن الانسان منهم لا يعرف من الحرف إلا الدنية أو الفلاحة والتجارة مع عدم الاتقان، وأما الافرنج فلتعلمهم العلوم المذكورة عرفوا طبائع الأشياء، فاخترعوا الآلات العظيمة، والتحف الأنيقة، فتري كل ما عملوه متقناً، سواء كان من آلات الحرب كالسلاح، أو من الملابس كالثياب، أو من الأواني، أو من التراكيب النافعة للأمراض، وعرفوا أنواع السموم القاتلة، والجداول وعلم جر الأثقال[1]، حتي أن العشرة منهم ربما أقلوا[2] مالم تقله المائة منا.

فإن قلت قد تقرر أن الأفرنج المذكورين عندنا معاشر المسلمين كفار، وحب الكفار كبيرة ربما جرت الي الكفر، قلت: ان كان حبهم من جهة الدين والاعتقاد لا من جهة كونهم فعلوا كذا وكذا، أجمل من فعلنا، بل لا أسلم أن هذا

---

(1) يقصد المؤلف بعلم جر الأثقال، رياضة رفع الأثقال التي يجمعها الأسلاك بالتمارين الشاقة والمتمرسة، حيث أصبحت اليوم تقام لها الدورات العالمية، والتي عرفت باسم "ألعاب القوي".

(2) كلمة "أقلوا" بمعني رفعوا.

حب لهم، بل هو من قبيل حكاية الواقع، وأنا أعوذ بالله أن أكون مائل القلب اليـــهم في اعتقاد أو دين، فان قلت: يمكننا أن نتعلم تلك الحرف والصنـــائع منـــهم، إمـــا بالذهاب الي بلادهم، أو بجلب معلمين منهم بالأجرة الوافرة، لكن إنما يمنعنا مـــن ذلك أن علينا خمسة أوقات مفروضة، وإذا أوغلنا في تلك الحرف والفنون ربمـــا شغلتنا عنها، مع أننا مسئولون عنها، ومعاقبون علي تركـــها، قلـــت لا نسلم أن الاشتغال بتلك الحرف والفنون يلهي عن الصلاة والعبادة، بل المتدين مني جـاءه وقت عبادته ترك حرفته وبادر اليها، وغير المتدين سواء كان فارغاً أو مشغولاً لا يعبأ بالوقت، ويسرف حتي تفوته العبادة.

ولنرجع الي ما نحن بصدده فنقول:

وبالجملة فالخالق جل جلاله جعل أحوال العالم علي حكم علمها، وجعـــل منـــهم الشجاع والجبان والمتدين، والمفرط والذكي والبليد، والجواد والبخيل، في كل نوع من الأنواع، إلا أن بعضهم يغلب علي كذا دون كذا، وبعضهم لا كـــذا ولا كـــذا، وشأن الوداي في ذلك شأن الفور، فلهذا {نجد طبيعة حياتـــهم متقاربـــة} وبينـــهما مشابهة في الكلام والشجاعة والجبن، والكبر والتواضع، وحب الراحة والميل الي الزينة، والافتخار والأنتقام ممن قدروا عليه من الأعداء، وإهمال بعـــض الأمـــور المهمة، والاشتغال بسفاسف الأمور، إلا أن الفور فيهم بُخـــل لا يكـــاد يوصـــف خصوصاً أعجامهم، وأما ملوكهم فكرائم[1]، لأنـــهم ليســـوا مـــن الفـــور علـــي الصحيح[2]، وفي الفور طيش وعدم تؤدة، وإن كان هؤلاء{أي الفور} ســـود فـــي إقليم أشعث أغبر، وهؤلاء{أي الوداي} بيض في اقليم عظيم الخيرات، ونجد طباع الوداي تشابه طباع الفرنساوية حتي في الكرانتينة إلا في البخل فأن أكثرهم كرماء ولايوجد مثل كرمهم إلا في العرب، وفي مجلس الملك فأن الأمر للكماكلة أربـــاب الشوري، وهم أهل البلد، فأن خالفهم السلطان سطوا عليه كما تفعل أهل فرنســـا،

---

(1) "كرائم" أي كرماء، أو كرام.

(2) عبارة "لأنهم ليسوا من الفور" هذه تبدو بعيدة لأن الرواية التقليدية تذكر أن جد ملوك الفور هو سليمان صولونج بن أحمد المعقور، وهو عربي من تونس، لكن سليمان ولد من أم فوراوية وتشاوسط الفور وتزوج منهم وأنجب أبناءه الذين ذابوا في الفـــور وأصبحـــوا حكامهم يتكلمون بلغاتهم ويتحدثون بلغتهم وبالتالي أصبحوا من الفور في واقع الأمر، أما النسب العربي فهو بعيد، وهي رواية قـــد تكون ضعيفة، لأن عادة ملوك افريقيا المسلمين ينسبون أصولهم إلى العرب حباً في الاسلام.

وطبائع الباقرما والكنكو كطبائع الايطاليا، حتي في اقلال كلامهم وأحوالهم، وطباع البرقد والتاما والزغاوة والميدوب كطبائع الأروام في الخيانة وعدم الأمن، وفي الذل اذا وقع في الأسر، وطبائع الفلان كطبائع الموسكوف[1] في حب الغلبة علي سائر الأقاليم، وكثرة العساكر والجنود، لكن في الديانة كطبائع السيتانبول[2]، لأنهم ربما قتلوا المرء علي ترك فضيلة واحدة وحكموا بكفره، وطباع البرنو كطباع الإنجليز في القساوة والزينة وكثرة الأموال، وطباع الداجو والبيقو كطبائع فلاحي الإقليم المصري، فانهم يحبون الكسل والقذارة والأوساخ، ويتحملون التكاليف الشاقة من الحكام، من السخر وأخذ الأبناء والبنات،وهم لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلا، بل لا خصوصية لهاتين[3] القبيلتين، بل البرتي والمساليت أكثر تحملاً منهم مع أنهم أكثر مالاً ورجالاً، لكن يخافون من قعقعة السلاح كما تخاف الغنم من الذئب، فتجد الرجل من الفور يسوق المائتين من البرتي أمامه بعصاه[4]، فسبحان من هذه حكمته لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

---

(1) ربما يقصد بالموسكوف "الروس" من أهل موسكو.

(2) السيتانبول: ربما يقصد "الأتراك".

(3) في الأصل: "لهاتين" وهو خطأ.

(4) لم يسمع مثل هذا الكلام في دارفور من قبل، ولا أدري من أين وجده المؤلف.

الفصل الثالث

في أحوال دار وداي وعوائدهم

وعوائد ملوكهم وأسماء مناصبهم

لما كان الخالق الاكبر تنزهت ذاتـــه وتقدســت صفاتـــه مخالفــاً لجميــع مصنوعاته فلايماثله أحد في ذاته ولافي صفاته ولافي أفعاله، نوّع العوائد كما نوّع الفوائد، وجعل زينة قوم شينة آخرين، ولو شاء لجعلهم امة واحدة، ولكن بتنـــوع العادات واختلاف الاصطلاحات يعلم اللبيب الحاذق أن الحكمة الالهية اقتضت لكل قوم مااعتادوا عليه: ويشق عليهم تغيير عوائدهم دينية كانت أو دنيوية، فاذا تقرر ذلك أقول: إن عادة الوداي تقرب من عادة الفور في بعض الأحوال وتخالفها فــي البعض الأخر، أما وجه القرب ففي المأكل والمشارب وملابس النساء وزينتهـــين، فانها وان لم تكن بينهما مماثلة كلية في ذلك فهي قريبة منها مبتــدأ، ولمــا وجــه المخالفة ففي أسماء المناصب وعوائد الحكم وترتيب الديوان والكرم الذي لايدرك شأوه، فكلهم كرام فقيرهم كغنيهم وكل يجود على قدر حاله، وقبل أن نذكر العوائد وأسماء المناصب نذكر السلطنة وبناء الملك، وكيف يتوارثونه وماعاداتهم في ذلك فنقول:-

اني لما استوطنت دار وداي وصليت الجمعة في مسجدهم الجامع سمعت الامـــام يدعو للسلطان في الخطبة يقول: اللهم أنصر الســـلطان محمـــد عبدالكريـــم ابـــن السلطان محمد صالح بن السلطان محمد جودة بن السلطان صليح، فســـألت مـــن مسنيهم هل أحد يعرف كيف كان ابتدأ أمر السلطان صليح، والى أي قبيلة ينسب، فاختلفت الأراء فبعضهم يقول هو مسناوي من قبيلة يقال لها المسناوية، نسبة لجبل عندهم يقال له ابو السنون[١] ، وهذه القبيلة أعظم قبائل الوداي شرفاً ورفعة، ثم اني

---

(١) أبو السنون/ أو: أب سنونة: اسم يطلق على جبل في وداي وإليه تنسب قبيلة السنونين أو أبي سنونة، كانت هذه القبيلة على الوثنية ثم اعتنق أفرادها الاسلام على يد السلطان صليح، واستطاع بواسطتهم أن ينشر الاسلام في وداي فاعتنقه بعض القبائل منها طائعة، وارتبط السلطان صليح بهذه القبائل الاربع برباط المصاهرة ومنها جميعا نشأت الاسرة الحاكمة في وداي، كما ورد في اصل هذا الكتاب.
ينظر: الترجمة الفرنسية Voyage au Waday,PP.69-73

رأيت في خاتم السلطان (عبارة) السلطان محمد عبدالكريم بن السلطان صالح العباسي، فبحثت عن هذا النسب الشريف من أين وصل الى هؤلاء الاعجام حتى امتزج بهم وصار كأنه منهم، فمن قائل يقول: إن هذا النسب مفترى، وإنه لاعلاقة له بالعرب البتة، ومن قائل ان هذا النسب حق الا أنا لانعلم وقت دخوله فينا، ثم سألت العقيد احمد من رؤساء الدولة ودهاتهم فاخبرني أن التتار لما تغلبوا على بغداد وخربوا بيت ملك العباسيين انتقلت الخلافة الى مصر وبقيت كذلك حتى تغلب الاتراك والمماليك على الخلفاء وذلك بعد دولة الفاطميين تفرقت أولاد الخلفاء في البلاد وكان منهم رجل فر الى أرض الحجاز واستوطن بها حتى وُلدَ له ولد فسمى ولده صالحاً، فلما كبر صالح اجتمع مع حجاج علماء سنار[1] ، وكان فقيها ورعاً عابداً فأحبوه وكان رجلاً كثير السياحة في البلاد فحكوا له عن بلدهم ومافيها وشوقوه لرؤيتها، فتوجه معهم اليها ولم يطل الاقامة بها، لما رأى فيها من الفسق والفجور فخاف على نفسه وفر وتنقل في سياحته من بلد الى آخر حتى نزل بجبل ابى السنون باقليم وداي، وكانوا مجوساً لايعرفون الاسلام ولا الكفر، فدخل بينهم وصار يعبد الله ويصلي ويصوم ويكثر الذكر والقراءة فاحبه السيناويون[2] ، وسألوه لاى شيء يفعل ذلك، فقال:عبادة لله، فقالوا له: وما الله؟ فقال: الذى خلق السموات والارض والليل والنهار، والشمس والقمر والكواكب والاشجار والأنهار فهداهم الله على يده وأسلموا، فعلمهم سوراً من القرآن والصلاة والصيام، ومازال بهم حتى تمكن الايمان من قلوبهم، وكانوا طائفة عظيمة فسموه شيخاً، وكان ياخذ الزكاة من أغنيائهم فيصرفها في فقرائهم، ثم قال لهم: ان الله أمرنا بالجهاد فهلموا نجاهد من لم يوحد الله، فاجابوه فخرجوا معه الى أقرب القبائل بجوارهم فأرسل لهم رسولاً يدعوهم الى الاسلام فأسلموا وذهب الى طائفة اخرى فاسلمت وهكذا

---

(1) سنار: هي عاصمة مملكة الفونج والتي تطلق عليها أيضا مملكة سنار، كما عرفت باسم السلطنة الزرقاء، قامت هذه المملكة على أنقاض مملكة علوة المسيحية أوائل القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي على يد زعيم الفونج عمارة دنقس وحليفه عبدالله جماع شيخ عرب القواسمة من جهة وعظمت سنار خلال القرن السادس عشر الميلادي وامتدت مساحتها من سواكن شرقاً الى النيل غرباً ومن أقصى شمال دنقلا جنوباً الى الشلال الثالث شمالاً، وقامت بدور كبير في نشر الاسلام والثقافة العربية في السودان وكانت معاصرة لدولتي الفور وتقلي في الغرب، واستمرت سنار في العطاء الحضاري حتى غزاها الاتراك بقيادة محمد علي باشا عام ١٨٢٠م.

(2) في الأصل "فأحبوه السناويون..."

حتى أسلم منهم اربع طوائف[1] من أعظم طوائف السودان، وهم أهـل المملكـة الآن، ومن عاداتهم ان الملك اذا لم تكن امـه مـن هـذه الطوائـف الاربـع[2]، لايرضون بولايته، ثم جاهدوا بقية طوائف السودان، فمن اسلم منهم بـدون قتال عندهم يسمى حراً، ومن لم يسلم الا بالقتال يسمى رقيقاً لكن السناويين[3]، وثلاث طوائف[4] هم اهل بيت الملك ولما اتسعت المملكة سموه سلطاناً وجعلوا الملك في عقبه، وأخبرني رجل يسمى الشريف سميح أن سلطان الوداى وسـلطان الفـور وسلطان كردفان أولاد رجل واحد[5]، وان صليح وسولون سلمان[6]، والمسبع[7] اخوان وانهم من عرب فزارة، وكانوا أصحاب ثروة وخير وصلاح فسـكن كـل منهم اقليماً، فاماصليح فانه نزل عند السناويين كما تقدم، واما سلون سلمان فانـه

---

[1] في الاصل "اربعة طوائف.." وهو خطأ والصواب أربع طوائف.

[2] في الاصل "الطوائف الاربعة.."

[3] في الاصل "ولكن السناوتون.." وهو خطأ والصواب السناويين

[4] في الاصل وثلاثة طوائف...."

[5] هذه الرواية والتي تقول: ان سليمان سولون سلطان الفور والسلطان مسبع سلطان المسبعات والسلطان صليح سلطان الوداي أخوة لأب وأم، رواية جديدة وجديرة بالبحث لان ماورد في المصادر التاريخية هو ان سليمان سولون ومسبع اخوان و لم نجد مايسند هـذه الرواية الجديدة.

[6] سليمان سولون(بفتح السين) هو أول سلاطين دارفور المسلمين والذي حكم حوالي منتصف القرن السابع عشر الميلادي واستمر حكم احفاده حتى عام ١٩١٦، واختلط بنسب هذا السلطان الغموض فهناك رواية تقليدية تقول انه عربي من بني هلال وانه اتصل بالفور عن طريق المصاهرة، وانه ابن احمد المعقور الذي ترك مطروداً لدى سلطان الفور الذي زوجه ابنته خيرة، والتي جاء من نسلها اسم "الكيرا" الذين حكموا دارفور وانجبت خيرة سليمان الذي لقب بسولونج، أي العربي على لسان الفور، مايدل انه يتحدث العربية ويدين بالاسلام دين العرب، وورث سليمان ملك الفور واستطاع أن ينتزع الحكم من التنجر بعد حروب طويلة بلغت حوالي ثلاث وثلاثين معركة كما اخضع قبائل دارفور القوية يومئذ كالبرقد والزغاوة والبرتي والداجو والبيقو والمساليت ثم اغلب القبائل العربية كالبني هلبة والتعايشة والرزيقات والهبانية وبالتالي رسم معالم دولته وقضى على كل الحركات الثائرة لحكمه خاصة من قبل التنجر وبذلك اقام دولة قوية دينها الاسلام، والذي اخذ ينتشر بقوة في ربوع دارفور وتوفي في عام ١٦٧٠م ودفن في طرة، وخلفه ابنه موسى عقربيه.

ينظر:

Macmichael:OP.CT.P.92

نعوم شقير، تاريخ السودان وجغرافيته، ص ٤٠٠.

[7] المسبع: تذكر الروايات أن مسبع (تومسام) هو اخ السلطان سليمان سولون، وقد اقتسما الدولة بعد تأسيسها فكان لسليمان اقليم دارفور ولاخيه مسبع (تومسام) اقليم (كردفان) (المسبعات) تابعا لدارفور وظل الحكم في ابنائه حتى عهد السلطان تيراب الذي اعلن فيه السلطان هاشم المسبعاوي عصيانه على دارفور وقطع الاتاوة عنها بتدخل من سلطان سنار فقام السلطان تيراب بغزو كردفان وطرد السلطان هاشم وتمكن من هزيمة العبدلاب واحتل اماسيهم.

نزل عند الكونجارة(١) ، وحين تقوى بالرجال اخذ الملك من التنجر(٢) وقد ذكرنـــا ذلك سابقا في الكلام(٣) ، عن دارفور والذى دعانا للاختلاف فـــى نســب هـؤلاء الملوك كونهم لم يحفظوا أنسابهم في كتاب، ولم يقع من علماء الفـــور ولاعلمـــاء الوداى تاليف في أنسابهم وانما يخبطون خبط عشواء، واذا سؤل احدهم عن ذلـــك قصارى أمره أن يقول بلغنى كذا وكذا، وهى دعوى بلا دليل، والله أعلم بحقيقـــة الحال، لكن القول بأنه من فزارة وان جده وجد سلطان الفور وسلطان الســـبعات واحد، يكون الجد الفزارى هو السادس للثلاثة لان الســـلطان محمـــد عبدالكريـــم الملقب بصابون رحمة الله عليه ابن السلطان محمد صالح ابن السلطان محمد جودة الملقب بخريف التيمان ومعنى خريف التيمان عندهم: المـــزدوج الخيـــرات، لان الخريف عندهم هو زمن نزول المطر والزراعة والتيمان هما التوأمـــان اللـــذان يولدان معاً في بطن واحد، فشبهت السنوات بالخريف الذى تـــأتى أمطـــاره قـــدر ماتأتى فى خريفين لأنه كان جواداً كريماً، اذا وجه عنايته الى شخص أغناه كما اذا جاء الخريف عظيماً لصاحب الزراعة، ابن السلطان محمد عروس وهو صليـــح الأصغر بن الشيخ صليح بن الفزارى، وكذا السلطان محمد فضل الفوراوى بـــن المرحوم السلطان عبدالرحمن الملقب بالرشيد بن السلطان أحمد بكر بن الســـلطان

---

(١) الكنجارة: يكوّن الفرع الرئيسي الثاني من قبائل الفور وهما الكيرا والكنجارة وهم الأصل الأول الذى تفرع منه الكيرا بالصـــفرة وهي الفرع الذى استطاع أن يؤسس دولة الفور على يد السلطان سليمان سولونق.

(٢) التنجر: اختلفت الروايات التاريخية في أصل التنجر الذين كانوا يحكمون دارفور قبل سلطنة الفور فهناك رواية تقول بأنهم من عـــرب بني هلال وان جدهم هو رفاعة (شاو ودرشيد) وهو احد اهم ملوكهم وله قصر منيف مازالت اثاره باقية في صحراء شمال دارفور وقد كتب لهم نسب يوصلهم الى ابى زيد الهلالي ولهم معارك كلامية وصحيح قوية في ذلك، وهناك رواية أخرى أن التنجر خليط من النوبيين وبني هلال، وانهم هاجروا من بلاد النوبة الى دارفور في القرنين الرابع عشر والخامس عشر للميلاد واستطاعوا أن ينشئوا دولة كـــبرى امتدت بين اقليم تشاد وكردفان بعد أن اسقطوا دولة الداجو في شرق وجنوب جبل مرة واستمروا في حكم دولتهم حـــتى ضعفت واستطاعت اسرة كيرا الفوراوية انتزاع الحكم منهم ولازالت جماعات منهم موزعة بين دارفور ووداى وبرنو.

ينظر:

Borth, H: Tvarels and Discoveries in North and Central Africa, Vol, 3P.430

Arkel, A.J: the History of Darfur.S.N.R.Part 2.PP 207-218

Lampen,G.d.History oif Darfur part, ١, P.183

(٣) في الأصل " في الكلام على الفور...... والصواب – " عن الفور..."

سلمان بن السلطان سلون بن السلطان سلمان الفزارى[1] ، وكذا السلطان هاشم الذى كان على كردفان، الا انى لا أعلم أجداده الا المسبع بن الفزارة، واما على القول بان سلطان الوداى من العباسيين فيكون كله جد منفرد غير جد سلطان الفور والمسبعات، وهذا القول هوالاليق به، وبكرمه وعلو همته لانه كان من مكارم الاخلاق وعلو الهمة والتقوى والصلاح والجود بمكان عظيم، فكان فى مكارم اخلاقه يضاهي المأمون بن الرشيد العباسي وكان فى كرمه يفوق الرشيد والبرمك بل لو سبق حاتماً بيوم لما ذكر حاتم على ألسنة العرب فى الشعر والنثر، وأما شجاعته وبراعته فأشهر من أن تعرف وسأذكر كلا من هذه الأوصاف مفصلاً فشتان مابين بخل الفور وجبنهم وشجاعة الوداى وكرمهم، والعرق دساس فدل ذلك على اختلاف أصل السلطانين[2] ٠

[1] الفزارى: نسبة الى بنى فزارة وهم من العرب العدنانية كانوا يعيشون فى أواسط الجزيرة العربية بجوار مضارب قبائل جهينة القحطانية ولذا كانت المصاهرة بين القبيلتين امراً واضحاً كما كانت هجرة القبيلتين الى مصر قد حدثت فى وقت واحد، ومن مصر الى شمال افريقية فحدث شيء من الاندماج بعد الهجرة والواقع الجديد ولما كانت جهينة هى الاكثر مالاً وعدداً وعتاداً ذابت فيها فزارة وأصبحت فرعاً منها خاصة فى القبائل التى هاجرت الى السودان وانتشرت قبائل فزارة برعى الابل فى دارفور وكردفان.

ينظر:

محمد عوض محمد (السودان الشمالي، ص ٢٣٠)

[2] يبدو ان المؤلف قد اقر بأن الصفات الشخصية من كرم وشجاعة دليل على الأصالة والعروبة وبالتالي استبعد أن يكون الفور الذين وصفهم بالجبن والبخل اخوة للوداى الذين وصفهم بالشجاعة والكرم وهذه المعايير غير سليمة لأن كل قبيلة فيها الشجاع والكريم وفيها الجبان والبخيل وتلك هى حكمة الله فى خلقه، لكن هناك ظروف اجتماعية وبيئية قد تؤثر فى بروز تلك الصفات عند البعض وضمورها عند آخرين.

ذكر ما وقع بين الوداى والفور

من العهد وما وقع من نقض العهد والحروب والملاحمة

حكى لى الحاج نصر السناوى وكان من مسنيهم ناهز الثمانين، ان السلطان سلون سلمان جد سلطان الفور اجتمع مع السلطان صليح جد سلطان الوداى فى الخلا الكائن بين الايالتين وتعاهدا الايخون أحدهما صاحبه، وقاسا المسافة الكائنة بينهما وقسماها بالسوية، واخذا مسامير كبيرة[1]، من الحديد وضرباها فى الاشجار العظيمة وجعلاها حداً حاجزاً بين المملكتين وحين كنت متوجهاً من دارفور الى دار وداى صحبة الفقيه احمد ابى سارة والجيش الذى كان يشيعنا رأيت فى وسط الغابة التى[2] ذكرت، ان الارانب والوحوش فيها كثيرة، ثلاث شجرات على خط واحد فى جذع كل شجرة منها قضيب من الحديد غائص فى جذع الشجرة وبارز منه نحو شبر فتعجبت لذلك وسألت الفقيه أحمد أبى سارة، فأخبرنى أن هذا هو الحد الكائن بين مملكة الفور والوداى وأظن أن القضيب منها لا أقل من أن يكون طوله ذراعاً ونصف لان جذع الشجرة منها من لايعتنقه الرجل العظيم الباع، فلا أقل من أن يكون المسمار داخلاً منه فى سمكها نحو ذراع، والبارز منه نحو الشبر ولخوفهم على المارين تنوه[3] حتى اعوج منه مع طول الجذع ولطول العهد نمت الشجرة واندمل جرحها حتى صار كانه منها، وحلف كل منهما لصاحبه انه لايتجاوز هذا الحد بخيانة، وقرآ الفاتحة، ان كل من تجاوزه قاصداً ضرر صاحبه لانصره الله عليه، واشهدوا على ذلك من حضرهما من أكابر دولتيهما، وتفرقا على ذلك فلما ماتا وورث الملك أبناؤهما[4]، (طمع كل واحد منهما) فى أخذ مملكة الاخر وضمها الى مملكته لاتساع الايالة وارتفاع

---

(1) فى الأصل "واخذا مسامير كبارا..."

(2) فى الأصل "الغابة الذى ذكرت..."

(3) فى الأصل: "تنوه" أى ثنوه- الانثناء- ومعناه الالتواء.

(4) فى الأصل "أبناءهما.." وهو خطأ والصواب: ابناؤهما.."

الصيت ونشر الذكر، وهذه هي عادة الملوك فأراد الله ان السلطان أحمد بكر[١] حين تولى في دارفور كان صغيراً لايملك من نفسه شيئاً ولايقدر على التصرف في الأمور وكان الحكم والامر والنهي لوزرائه، فبلغ خبره الى سلطان الوداى وكان انذاك السلطان محمد عروس، فتاقت نفسه أن يتوجه الى دارفور ويملكها، فمنعه أهل الرأى والحزم من وزرائه فأبى عليهم، وقال لابد من ذلك، ولا اترك ولداً صغيراً يتمتع في مملكة مثل هذه، فقال له أحد وزرائه: ايد الله مولانا انما الصغير (هو) الذى لارجال معه (ونرى) أن قادة الرجال مساعدون للصغير (اذن) فهو غير صغير، أرأيت لو قدر الله عليك وخلفت ولداً بين ظهرانينا وجاءنا العدو، أفلا نذب عنه بأرواحنا فكيف (اذا يسلمه الفور لنا) فقال: دعوا عنكم هذا الكلام فانى لابد لي من ذلك وحينئذ (لا) يمكنهم الا الطاعة، فخرجوا وكان له (أى سلطان وداى) ولدان، فخلف أنجبهما واحبهما لديه ملكاً في بلاده واخذ الثانى معه وخرج بنصف العسكر وترك النصف لحماية البلد والذب عنها، ولما دخل في ايالة الفور صار لايتعرض لأحد فيها بسوء ويقول: هذه رعايا لاعلاقة لي بها وانما أنا قاصد الملك فتوغل في دار الفور حتى قرب من بيت السلطان (الكائن) في المكان المسمى بقرلي، فنفر جنود الفور وذهبوا الى السلطان وكان صغيراً كما ذكرنا، وقالوا له ان الوداى قد جاءوا يريدون أخذ بلادنا فقال لهم السلطان أحمد بكر: ماحيلتي وأنا صغير ولا أقدر على مشاق الحروب ولا أعرف كيف أصنع فيها، فقالوا له: لاتخف بأس شيء فانما نريد أن تركب معنا وتقف في القلب، ونحن نقاتل عنك وعن بلادنا فما أمكنه مخالفتهم فامتثل وخرج من بيته، والتفوا عليه، وكان الوزراء قد كتبوا لجميع الأفاق بشحذ العساكر، للذب عن البلد فحضرته جنود تملأ السهل والوعر، ومن جملتها أهل البلاد الذين تركهم سلطان الوداى

---

(١) احمد بكر: يقول المؤرخون انه حكم دارفور أربعين عاماً من عام ١٦٨٢-١٧٢٢م، كان فاضلاً فأحبه رعيته لما اشتهر به من الحزم واليه يرجع الفضل في تعميم الاسلام في بلاد دارفور حيث اعتنى هذا السلطان ببناء المساجد والخلاوى واستقدم عدداً من المشايخ من مختلف البلاد، ومنحهم أراضي واعفاهم من الضرائب وجعل عاصمته في قرلي احياناً وفي جبل مرة، وفي ابو هـــــل احياناً أخرى، واستطاع أن يهزم قبائل المسر ويخضعها لدولته واستعان بامراء المماليك في جلب السلاح لمواجهة غارات الوداى على دارفور.
ينظر:
Lampen G.D. op.Ct.PP.183

وراءه وقال (عنهم) هؤلاء رعايا لاعلاقة لي بهم فاجتمعوا وأحاطوا بـــه إحاطـــة الخاتم بالأصبع، ووقع القتال وكان يوماً عبوساً ولشؤم الغدر ووخامته جاء النـــاس لابن السلطان وقالوا له إن أباك انما جاء بك الى هنا وترك أخاك خليفة في البلاد كراهة فيك ومرامة أن تموت في الحرب ويتملك أخوك البـــلاد، فـــأخذ نصـــف العساكر وانهزم بها الى دار وداى وترك والده في أشد المضايقة فضـــاق الحـــال وقل الجند، وتكاثرت عليه الفور وفي كل يوم يزيدون والـــوداى فـــي كـــل يـــوم ينقصون، وحلف السلطان ان لايوجه وجه جـــواده لجهـــة المغـــرب لأن الفـــرار (عندهم) قبيح من رعاعيهم فما بالك بالملوك فوقع القتال بين السلطانين سبعة أيام، وفي اليوم الثامن انكسرت عساكر الوداى من الجناحين وبقى السلطان ثابتـــاً فـــي القلب وثار النقع وارتفع الغبار من حوافر الخيل حتى صار النهار كالحندس ورأى الوزراء وأرباب الدولة أن انهزامهم وترك السلطان في وسط الأعداء مـــن أقبـــح المعايب فأداروا وجه جواد السلطان الى المغرب ولم يشعر، وساروا بقية يومـــهم والعساكر محيطون بهم، يذبون عنهم، فأبلوا بلاءً حسناً وكلما سأل السلطان وقال: الى أين أنا سائر؟ قالوا: للمشرق ولم يزالوا كذلك مدة أربعة أيام، فلما كان اليـــوم الخامس انقطعت العساكر عنهم وخلا الجو، ظهر الحال للسلطان انه انهزم وأنـــه متوجه لبلاده، فقال لهم خنتم يا وداى، فقالوا، لوخنا لانهزمنا وتركناك للعدو، لكن كثر علينا المدد، وقل منا الحد فرجعنا بك سالمين فقال لهم: ماذا فعل فلان، يعني ولده فقالوا: اخذ نصف العسكر ورجع الى دار وداى فاستشاط غيظاً، وعض على أنامله وقال: حينئذ الحق معكم ثم انه توجه الى إيالته وحين وصـــل الـــى فـــاشره المسمى بواره وجد ولديه يقتتلان، ولم يغلب أحدهما الأخر، لأن الـــذى فـــي دار المملكة كان متمكنا في العدة والرجال، وكذا الذى فر من والده كان معه عســـكر عظيم فتكافئا، ولم يغلب أحد منهما صاحبه وحين جاء أبوهما بطل القتال وخـــرج الذى كان في دار المملكة واصطفا صفين ودخل أبوهما في دار ملكه ودعا بولديه فحضرا بين يديه، فقال للذى رجع عنه في الحرب، ما الذى حملك على ذلك؟ فقال حب المملكة وعدم عدلك، فقال له والده كيف يتصور العدل في ذلـــك؟ لأنـــي ان أبقيتكما معا في دار الخلافة كان ذلك جالباً للخراب لان كلا منكما يريد أن يتناول

الحكم، ويقع مايقع وان أخذت أخاك وتركتك قال أخوك كما قلت، ولايسوغ لى أن أوكل اجنبياً ولى ولدان، ولكن حيثما خالفت أمرى ورجعت بالعساكر وكنت سبباً فى خذلانى وانهزامى أمام العدو، وأشمت بى أعدائى لأفعلن بك ماتستحقه، ثم أمر بالقبض عليه وتكحيله بمرواد محماة، فأعمى بصره وبقى كذلك الى أن مات.

أقول: وهذا قليل فى جزائه لانه تسبب بهذا الفعل (فى) مفاسد وأمور عظيمة، أولها العقوق وثانيها انهزام السلطان من عدوه وثالثها سفك الدماء الذى وقع حين قاتل أخاه ثم وقعت الهدنة بين الملكين حتى ماتا، فولى عوضاً عن السلطان عروس ولده جودة الملقب بخريف التيمان، وولى عوضاً عن السلطان احمد بكر ولده عمر[1]، فملك عمر فى إيالته فى أرغد عيش ثمان سنين ولما رأى كثرة الجنود ورفاهة. الحال حدثته نفسه بأخذ مملكة وداى، فخرج فى عسكر كثيف ونصحه وزراؤه فلم يقبل (ولم) يزل سائراً حتى بلغ إيالة وداى فجعل لايمر بقرية الاخربها[2]، ولا بغلال الا أحرقها ولابأناس الا قتلهم وعظم شره فالتجأ الناس لسلطانهم فلما تحقق السلطان جودة الخبر، ركب فيمن حضر عنده من الجيوش وارسل للافاق بحشد الرجال والسلاح والكراع، فاجابوه وانهلوا عليه كما ينهل الغيث المدرار، فما وصل الى العدو حتى امتلأ السهل والوعر، و (كان) الفور (قد) امتلأت[3] ايديهم من الغنائم وطمعوا فى أخذ المملكة وظنوا عجز الوداى عن ملاقاة مثلهم فما راعهم الا وقد طلعت عليهم نواصى الخيل تعلوها الرايات السلطانية وتتالت المواكب، وكلما جاء كردوس من الخيل أكبوا رؤوسهم على قرابيس سروجهم ودخلوا للحرب، فاحاطوا بالفور من كل جانب مع ما أعطاهم الله من الشجاعة والاقدام، لأن الرجل من الوداى يقابل عشرة من الفور ولايبالى ولشجاعة الوداى كان الرجل منهم اذا أراد قتال الفوراوى يرميه الفوراوى

---

(1) السلطان عمر: امتد حكمه لدار فور من ١٧٣٢-١٧٣٩ وتذكر بعض المراجع انه لم يكن ابن السلطان احمد ابكر، بل حفيده وانه خلف اباه السلطان محمد دورة بن السلطان احمد ابكر ويذكر نعوم شقير أن عمر هذا من أعدل سلاطين دارفور وأكثرهم محافظة على الكتاب والسنة، كما ورد أيضا أنه كان قاسياً على أعدائه حتى لقب بعمر ليل أى عمر "الحمار" لعناده وقسوته. ينظر نعـوم شقير: تاريخ السودان،حـ٢، ص ١١٥-١١٦ Lampen G.D.OP.Cit.PP.185-186

(2) فى الاصل "...أخربها..."

(3) فى الاصل "...امتلات..."

بالسلاح عن بعد فيقول له الوداوى اصبر لاترم فانني أتيك، ويقدم عليه لايخشى من رميه حتى يعانقه ويلزمه حتى يموت أحدهما وحين رأى عساكر الفور انهم أبلوا بما لاطاقة لهم به، رجعوا القهقرى، وتبعهم الوداى حتى كشفوهم ولم يأت السلطان جودة الا وهم منهزمون، وقتل السلطان عمر، وداسته الخيل، ولم يعثروا على شلوه[1] ، واغتنم الوداى خيل الفور وأسلابهم ودوابهم وتبعوهم يقتلون ويأسرون حتى اخرجوهم من إيالتهم، ولما رجع الفل[2] منهم الى إيالتهم ودار ملكهم ولوا ابا القاسم[3] ابن السلطان احمد بكر سلطاناً عليهم، وانقادوا له، فمكث في أرغد عيش سبع سنين (و) لانقضاء أجله تذكر ان يأخذ ثأر أخيه السلطان عمر من الوداى فعمد يجمع الجموع، ويهيىء العدة حتى جمع جيشاً لايعده العاد، ولايحصره الحاصر، وأصبح راحلاً بهذا الجيش الى دار وداى وحين دخل في إيالة الوداى ارسل وزيراً من وزرائه الى جهة الصعيد[4] منها ومعه نحو عشرة آلاف من الخيل والرجال (فقام) بنهب الأموال وفعل ما أقره به السلطان (ثم) توجه السلطان ببقية العساكر قاصداً دار ملك الوداى، ولما بلغ السلطان جوده ان السلطان ابا القاسم توغل في بلده، وفعل مافعل ارتحل من محل سلطنته وتوجه جهة الجنوب كأنه فار منها، ولما وصل الخبر الى السلطان أبى القاسم أن السلطان جوده قد فر وارتحل من دار ملكه، طمع، وأعجبته نفسه، وأيقن ببلوغ الأمل، وأصبح متوغلاً في البلاد، وأما السلطان جوده فانه سار ناحية الجنوب مدة يومين وانعطف في اليوم الثالث الى ناحية المشرق، واستمر سائراً حتى حال بين

---

[1] الشلو: بالكسر، والجمع أشلاء، وهو العضو والجسد من كل شيء وكل مسلوخ أكل منه شيء وبقيت منه بقية." ينظر: القاموس المحيط ج٤ فصل الشين، باب الواو.

[2] الفل: والجمع فلول، وهي المجموعات من العساكر المهزومة.

[3] السلطان أبو القاسم: هو ابن السلطان احمد بكر: حكم سلطنة دارفور في الفترة ١٧٣٩-١٧٥٢م وجاء حكمه بعد ابن اخيه السلطان عمر، ويذكر المؤرخون ان السلطان ابا القاسم بدأ عهده بمحاباة جماعات العبيد دون الاحرار، واستبدلت وظائف الحكم والادارة بالعبيد، فكره الناس حكمه، ثم دخل في حرب مع الوداى عازماً الثأر لاخيه، وتحمله تعيه الاخبار باختفائه اثناء الحرب نصب اهل دارفور اخيه محمد تيراب عرش السلطنة وعندما ظهر للناس أن ابا القاسم لم يمت وانما أصابته بعض القبائل العربية جريحاً وآوته حتى شفي وجاء الى الفاشر، اصر عليه رجال الدولة أن يتنازل لاخيه تيراب عن السلطنة، لكنه رفض وقاوم هذه الفكرة، فاضطر تيراب ورجاله الى خنقه حتى الموت ودفن في مدافن سلاطين الفور بطرة. ينظر: Lampen, G.D.OP.Cit.P.186 تشحيذ الاذهان، ص ٧٣

[4] الصعيد: أي الجنوب في اصطلاح اهل غرب السودان، والريح: أي الشمال، والصباح: يعني الشرق.

السلطان أبي القاسم وبين دارفور، وكان حين فشى الخبر ان السلطان جوده (قد) فر من مقر سلطنته، كان أحد وزراء السلطان أبي القاسم حاضراً فقال: لااظن ذلك، لأن الرجل لم يقاتلنا ولم يعاملنا، ولا رأى منا طيباً ولاخبيثاً، فكيف يفر ويترك بلاده وبلاد أبيه بغير مايوجب ذلك، وسيتضح لمولانا الأمر ان شاء الله تعالى، ثم لما كان عند المساء أمر بنعجة حلوب فجيء بها وأمر بغسلها بالماء والصابون، فغسلت حتى لم يبق بها درن ولاوسخ، ثم أمر باناء فغسل، وأمر بحالب فغسل يديه وحلبها، وأخذ اللبن ووضعه على سقف عريش للسلطان، ولما أصبح دعا باللبن فأحضر بين يديه فرآه اسود، فجاء به الى السلطان وقال يامولانا يقولون ان الرجل فر، وهو سار ليله لم يكتحل بنوم، فقال السلطان: ومن أين لك ذلك؟ قال: أما ترى اللبن بعد بياضه، وبلغني أن بعض جهال الفور رأوا سيرة[1] دخن بعد حصاده وقبل دراسته وعندها امرأة عجوز، فصاروا يمشون بالقلال ويعطون منها لدوابهم، فكانت تلك العجوز تقول لهم: مساكين يا أولادي افعلوا ماشئتم، فان جوده لايترككم هكذا، وسوف يأتي ويسوقكم كالغنم وكان (السلطان جوده) عندما رأى عساكر الفور، أمر أحد وزرائه المسمى بالعقيد قوت (أن يأخذ) قوة من اثني عشر ألفا من الخيل وأن يكمن في محل ولايتحرك منه ولو فنيت عساكره الا اذا دعاه، فامتثل الأمر، وكمن المذكور في المحل الذي أمر بالكمون فيه (ثم) التقى الجمعان، فياله من يوم ومأأصعبه[2]، ارتفع فيه القتام حتى اسود النهار ورؤيت النجوم نهاراً، ولقد شاهدت موضع هذه الواقعة مجدبة حمراء من مستنقع الدم، ورأيت رجالاً ممن شاهد هذه الواقعة، يفظع ذلك من هول مارأى يومئذ، وكان يوماً كان الضرب فيه يقد، والطعن يهد، ولما اختلط العسكران مع بعضهما كان من شدة الاختلاط لايتميز الوداوي من الفوراوي، وحينئذ خاف السلطان جوده أن يغتاله أحد جند الفور وهو لايدري، فأمر باحضار العقيد قوت، فما كان الا كلا ولا[3] حتى حضر بجيشه كالسيل اذا سال، والرمل اذا انهال، فوجد

[1] سيرة دخن: عبارة عن كومة للذرة بعد قطعها، ويطلق عليه اسم المرق أيضا.
[2] في الأصل: ماكان أصعبه.
[3] "... فما كان الا كلا ولا" عبارة يستعملها الكاتب، وتعني قصر المدة، أي فما كان الا كلمح البصر"

الاختلاط العظيم، فتحير أمره وتوقف عن الحملة خوفاً من مضرة قبيلتـــه، ولمـــا رأى السلطان أرسل اليه أن احمل ولاتخشى شيئاً واضرب كل من كـــان أمـــامك فحمل بجيشه حملة عظيمة قتل بها عالماً عظيماً وانفرز[1] الجيشان بعد الاختـــلاط ولما رأى الوداى انفراد جيش الفور عن جيشهم حملوا عليهم حملة واحدة، وحمل معهم العقيد قوت بجماعته وكانوا مرتاحين لم يلحقهم تعب، فبذلـــوا جـــهدهم فـــى عدوهم، فلم يكن الاكلمح البصر او هو اقرب حتى انهزم الجيش الفوراوى، وقتل سلطانه وتضعضعت اركانه وصاروا[2] بين قتيل وجريح وأسير، والسيف يعمـــل فى اقفيتهم فلم ينجوا إلابراس طمرة[3] وكانوا حين انهزامهم ينـــوون الـــى باجـــة المغرب لذهول عقولهم عن جهة بلادهم، فارسل لهم السلطان جوده فرساناً علـــى آثارهم ينادونهم يافور ليست هذه طريقكم، حتى استيقظوا وتوجـــهوا الـــى جهـــة بلادهم، وغنم الوداى أسلابهم وسلاحهم واموالهم، ومن جملة ذلك نساء الســـلطان اللاتى كن صحبته لأن من عادة ملوك السودان ســـواء كـــان الفـــور أو الـــوداى لايتوجهون الى سفر الا ويكون معهم جماعة من نسائهم ولقد شاهدت حين كنـــت فى دار وداى عجوزتين بلغتا من العمر نحو التسعين، وأخبرت أنهما من أسيرات الفور اللاتى كن مع السلطان ابى القاسم، وبعد انقضاء الثأر رجع السلطان جـــوده الى مقر سلطنته مؤيداً منصوراً، وامتلأت أيدى العساكر بالاموال وبعد ثلاثة أيـــام من هزيمة الفور وقتل سلطانهم قدم الوزير الذى كان (قد) ارسله ظاناً أن سلطانه (قد) ملك البلاد وقتل سلطان الوداى، ولم يعلم بما وقع لسلطانه وعسكره، وذلـــك كان سبباً لدنو أجله وأجل من مات معـــه، فخـــرج اليـــه احـــد وزراء الســـلطان واعترضه[4] وعاقه عن السير (ثم هجم عليه) وقتله وقتل جماعته قتلا ذريعاً ولـــم ينج من القتل الا القليل، فيا لها من وقعة أنست حـــرب البســـوس[5]، وأزعجـــت

[1] "انفرز الجيشان" أي تمايزا.

[2] في الأصل: وساروا.

[3] براس طمرة: أي لم ينجوا إلا بعد جهد جهيد.

[4] في الأصل: "وعارضه".

[5] حرب البسوس: هي تلك الحرب التي وقعت في الجاهلية بسبب ناقة البسوس وهي العجوز صاحبة الناقة بعدأن قتلها حساس، وجاء أهل البسوس وقتلوا قاتل الناقة، فاشتعلت الحرب بين القبيلتين كان من أبطالها كليب والمهلهل واستمرت لاكثر من اربعين عاماً افنـت الرجال ويتمت الأطفال فأصبحت مثلا يضرب لكثرة القتلى في الحرب.

طيور البرواح من أشباحها بقد الأجسام وتطيير الرؤوس، ولقد أخبرني الثقاة عـن أموات تلك الواقعة المهولة، أن الأرض كانت مغطـــاة بـــالأموات وأن الطيـور والسباع جررن منها الأقوات، وأنها لما جافت الأرض من نتن تلك الرمـــم، أمـر السلطان جوده بدفن تلك الامم، فما وجدوا لدفنها طريقاً الا أنهم شقوا لـــها قليبـاً وركموهم[1] فيه وهالوا عليهم التراب، وكانت عندهم في تلك السنة مـــن أعجـب العجائب، وحين رجع الفور الى بلادهم ولوا عليهم السلطان محمد تيراب[2] وكان رجلاً يحب الخلاعة، ويميل للمجون كماتقدم فمكث ثلاثاً وثلاثين سنة لم يخطر له غزو الوداي على بال، فوقعت بينهما هدنة وهدايا وسلكت الطريق بين المملكتين، لان السلطان تيراب لم يغزو في تلك المدة الا غزوتين، الاولـــى غـــزوة العـــرب الرزيقات كما ذكرنا والثانية غزوة كردفان، ووقع الهدنة بين السلطانين وتواصلاً بالهدايا الى الآن.

---

(١) "وركموهم "من التراكم" أي وضع بعضهم فوق بعض.

(٢) محمد تيراب: هو احد ابرز سلاطين دارفور، تولى الحكم بعد اخيه أبي القاسم، ويقول المؤرخون بأنه كره الحرب فأقام في بلده أمـيراً يحيا سلطاناً مدة ثلاث وثلاثين سنة، ووصف بأنه كان كريماً حليماً واسع الصدر حميد التدبير "كانت أيامه كلها خصباً ودعة ورخـــاء، أستمر حتى لقبوه "بأرض الشام" لما لهذه الأرض من خصوبة وخضرة وجمال وجودة انتاج كناية عن أعماله الحميدة لاهله مواطنيه. وعندما أعلن سلطان المسبعات المدعو هاشم العصيان على دارفور وأخذ يغير على أطرافها الشرقية، ويهدد أمنها، جرد السلطان تيراب كتـائب جيش وقاده بنفسه لتأديب السلطان هاشم فهزمه وهرب هاشم واستجار بملك العبدلاب فسار اليه واوقع بهم جميعاً هزائم متلاحقـــة، وهزم الملك عدلان الثاني وجيوشه وترك اتباعه المنصورة غنيمة لجيش الفور، وقد اصبحت رمزاً لقوة الدولة يحتفل بها كل عـــام عنـد إطلاقها وواصل السلطان تيراب زحفه في بلاد العبدلاب حتى وصل الى امدرمان الحالية وعسكر فيها، وحاول عبور النيل الى الغرب فلم يفلح فبنى سوراً عظيماً في امدرمان ثم مرض واخذ في العودة ثم توفي في بارة وحمل الى جبل مرة حيث دفن في طرة. ينظر: نعوم شقير: تاريخ السودان، ج٢، ص ١٣٧، تشحيذ الاذهان، ص ٧٤-٩١.

الفصل الرابع

في نبذة من سيرة السلطان عبدالكريم الملقب بصابون، وكيف كان اول أمره، وكيف وصل اليه الملك، وما وقع بينه وبين اخوته، وكم حارب من البلاد وكم قهر من الملوك وفي مناقبه وسيرته حسبما شاهدته ورأيته وبلغني من الثقاة.

اعلم ان السلطان محمد عبدالكريم هو اول أولاد السلطان محمد صالح وكانت أمه ساوية[1]، وكان له أخوان أحدهما أحمد والثاني أصيل، وكان صابون أحسن أخويه عقلاً وعلماً وصلاحاً وديانة وكانت أمه مبغوضة عند السلطان، وأم أحمد هي المحظية، فنشب صابون لبغض أمه، لكن كان يكرم أباه ويعلي منزلته بقلبه وذكائه وفطنته وكان لحبه لأم أحمد وأم أصيل ولى أقاربهما المناصب الجليلة وجعلهم وزراءه وأرباب دولته حتى صار لهم الأمر والنهي بدار وداي وكان السلطان لبغضه في أم صابون أخرجها من بيته هي وولدها، وأجرى عليها رزقاً، فنشأ صابون على أكمل حالة، حتى بلغ مبلغ الرجال (وكان لرجاحة[2] عقله) لايميل الى لهو ولانساء ولاشرب خمر، بل كان مستغرقاً أوقاته في القرآن والمذاكرة والصلاة والعبادة، وكانت آماله معلقة بالمملكة فكان يهيء لها كل ماقدر عليه من خيل وسلاح ورجال ودروع وسيوف، ثم رأى نفع البندق من الأعراب الذين يسافرون الى وداي للتجارة، وذلك لانه لما رآهم حاملين للبندق وكان لايعرفه، سألهم، ماهذا، فقالوا هذا السلاح نذب به عن انفسنا فقال: وكيف يمكن الذب بهذا مع أنه غير قاطع، فقالوا أن تضع فيه باروداً وتقوس[3] به هكذا، وأروه

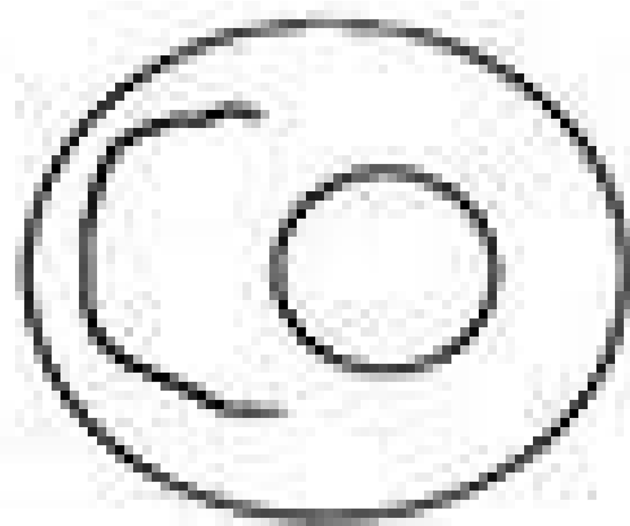
---

[1] ساوية، أي من السو، Sao وهي احدى القبائل القديمة التي سكنت حول بحيرة تشاد، وكانت لهم ممالك قديمة وصلت مرحلة متقدمة من الحضارة حسب الاكتشافات الأثرية الحديثة وتصفهم المصادر التاريخية بأنهم ضخام الأجسام أقوياء، وكانت الشعوب الكانمية التي أنشأت دولة كانم برنو، وهي أول دولة اسلامية في هذه المنطقة، قد قامت هذه القبائل بقهر قبائل السو وهزمتهم فرحلوا الى الأحراش الجنوبية ودخل البعض منهم في الاسلام. ينظر تفاصيل ذلك في ابراهيم طرخان- مملكة البرنو الاسلامية، - الشيخ ابراهيم صالح بن يونس: تاريخ الاسلام وحياة العرب في امبراطورية كانم برنو.

[2] في الأصل: "لكن لعقله.."

[3] التقويس: يعني التصويب بالسلاح الناري أي التدقيق عند اطلاق النار بغرض الاصابة.

التقويس وكيفية التصمير فتعلقت آماله بذلك وأراد تحقيقه، فخرج معهم الى الخلاء ونقبوا غرضاً للتقويس وقوسوا عليه وأصابوه فأعجبه ذلك فكان لايرى بندقية الا اشتراها من صاحبها بأقصى ثمن ولايرى قوسا أو (نوعا من السلاح)[1] الا اشتراه كذلك، حتى جمع من ذلك شيئا كثيراً واقتنى عبيداً (وجاب[2]) لهم معلمين من الأعراب المذكورين يعلمونهم التقويس بالبندق، وحين رآه وزراء أبيه يفعل ذلك خافوا من استيلائه على الملك بعد موت أبيه، فذهبوا الى أبيه وحملوا عليه بأن قالوا له إن ابنك صابون لم يبق بينه وبين أن يكون سلطاناً إلا أن يدعيها لأنه لم يترك شيئاً من الاستعدادات الا استعد به من خيل وكراع وسلاح ورجال ونظنه عن قريب يقاتلك، فاستشاط السلطان غضباً وأمرهم بالقبض عليه ففرحوا بذلك وظنوا أنهم بلغوا مأمولهم فأرسلوا له ملكاً من ملوك التراقنة يقال لهم الغربان وهم رسل الغضب بمعنى أن السلطان اذا غضب على أحد الملوك وأراد القبض عليه يرسل اليه هؤلاء التراقنة، فذهب الملك مع طائفته الى دار ابن السلطان ولبخته[3] كان جالساً على محل عال في بيته يقال له[4] الترجة، وهو بناء مستدير أشبه بالمصطبة في البناء لافي الاستدارة، ويبنى بين الزريبة وحائط الدار، لان لكل دار حائطاً وبعدها زريبة هكذا.......



والترجة تكون بينهما عالية يشرف من يجلس عليها على من يمر على الدار من الخارج ومن يأتيه، فرأى التراقنة قادمين عليه، وعرف مقصودهم فدعا حينئذ بجنده وعبيده وأمرهم أن يخرجوا خارج الدار، وأن يصطفوا صفاً واحداً وأن يمنعوا التراقنة من الوصول الى الدار، ويبادروهم أولاً بالسؤال فردوا وامتثلوا الأمر، وخرجوا متهيئين بآلات الحرب ووقفوا صفاً واحداً كأنه بنيان مرصوص،

---

(1) في الأصل (ولا أنواع شيء من السلاح...)

(2) وجاب لهم معلمين، أي أحضر لهم معلمين ونرى ان المؤلف يكثر من الكلمات بالدارجة المصرية

(3) ولبخته: أي لحسن حظه.

(4) في الأصل: يقال لهم الترجة.

وحالوا بينهم وبين الدار، وجاء[1] التراقنة فوجدوا هؤلاء علي هذه الحالـــة، فمـا قدروا علي الوصول الي الدار، فوقفوا فسألهم جماعة ابن السـلطان عـن سـبب مجيئهم فأخبروا أنهم مأمورون بالقبض علي ابن السلطان، فقيل لهم لا سبيل الـي ذلك إلا بعد موتنا أجمعين، فلما رأي الغربان أن لا سبيل الي القبض علـي ابـن السلطان إلا بعد مقاتلة هؤلاء، استأذنوا السلطان في القتال وقالوا له ما وقع مـن ابنه، وأنهم لن يصلوا اليه إلا بعد تفرق جمعه، فارتبك عليه الأمر، وتحير، وعلـم أنه إن أمرهم بالقبض عليه{لا بد أن تسفك دماء[2] }أناس كثيرين، وربما توقد نار لا يمكن إطفاؤها، ففكر في أمره، ثم أمر باحضـــار العلمـــاء، فحضـر القـارئ والخطيب والمفتون، فلما مثلوا بين يديه أمرهم أن يتوجهوا الـــي أبنـه صـابون ويحذروه عاقبة العقوق، ويعلموه أنه إن امتثل لأمر أبيه كان أحسن له، فتوجـــهوا اليه وأعلموه بما قال أبوه، وحذروه من المخالفة، فقال أنا ممتثل لأمر الله مطلقـــاً، ولأمر أبي إن كان من عند نفسه، وأما كون وزرائه ووزراء السوء يغرونه علـــي القبض عليّ بغير ذنب، لا أمتثل ابداً، فإن أرادني أمتثل له يعرفني ذنبي وأنا مطيع لأمره، وأما كوني أسلم نفسي ويقبض عليّ إبتغاء مرضات وزرائه لا يمكن ذلـك أبداً، وأذب عن نفسي حتي أموت كريماً، فلما ذهبوا الي السلطان وأعلموه بما قال ولده علم أن الحق معه، فتركه وأمر برد العساكر الي محلها، ومكث ابن السلطان في بيته ساراً قاراً مدة أشهر، فاتفق أن السلطان مرض وثقل مرضـــه، وكـانت أعظم نسائه لا ولد لها، وخافت إن تولي أحد أولاد ضرائرها أهانها وربما قتلـــها، وعلمت أن صابون وإن كان ابن ضرتها، إلا أنه رجل عاقل تقي حليم، اذا مـــات أبوه وولي مكانه يكرمها ويجل مقامها، فأرسلت اليه سراً أن استعد للسلطة، فـــإن أباك مريض، فأرسل صابون من وقته الي أتباعه فـــي آفـاق وداي أن يجتمعـــوا سريعاً، وكل من جاء منهم لا يدخل واره، بل يقيم بالبلاد القريبة من واره كـــالبلد المسمي بحجير ونموو وعبالي، حتي يأتيهم أمره فكان كذلك، واجتمعوا سريعاً[3] ،

---

[1] في الأصل: وجائت التراقنة.

[2] في الأصل : " ولابد يسفك دماء أناس كثيرين.." .

[3] في الأصل : " واجتمعوا في لأقرب وقت.." .

وسارت الرسل تتردد بينه وبين امرأة أبيه مدة أيام حتي قضي[1] السلطان نحبه، وكان الوقت ضحي فأرسلت الي صابون تقول له: إن أباك قد توفي فاعجل وتلاقي أمرك في هذه الليلة، وإلا خرج المُلك من يدك، فأرسل في الحال الي عساكره يعلمهم بأن يتأهبوا، وأن لا يأتي العشاء إلا وهم مجتمعون عنده، ونادي خواصه[2] واستشارهم، كيف يفعل في الدخول في دار السلطان، فتحيروا في الدخول من الباب المصفح بالحديد، وهذا الباب هو الباب الرابع لأن بيت سلطان الوداي له سبعة أبواب، كلها سهلة الدخول إلا الباب الرابع، لانه مصفح بالحديد، ومحكم غاية الاحكام، فانتدب الفقيه موسي أخ الامام بدر الدين إمام السلطان صابون، وكان خادماً عنده،(فسأله السلطان صابون قائلاً) أو تقدر علي ذلك ياسيدي؟ قال: نعم، قال اذن فافعل ما شئت، فقام علي الفور وأخذ حجراً وشج به رأسه حتي سال دمه، ومزق أثوابه، ودخل دار السلطان، فلما رأي الخدمة والبوابون ذلك قالوا له: ما شأنك يا موسي، ومن فعل بك ذلك؟ قال: اني خدمت ابن السلطان بنصح وكافأني بما ترون، فقالوا له، ما الذي فعلته حتي فعل بك هذا الفعل؟ فقال لا ذنب لي إلا أني نصحته وحذرته من مخالفة أبيه وحرضته علي الامتثال لأمره، فما وسعه إلا أن شجني ومزق أثوابي وانا جئت أشكوه الي السلطان، فقالوا له: ألم ننهك عن خدمة هذا الوغد الأحمق مدة وأنت تأبي، ذلك جزاؤك ما حل بك فقال: جزاكم الله خيراً، قد نصحتم وأبلغتم، ولكن إذا وقع القضاء عمي البصير، فقالوا له: كن معنا حتي نرفع دعواك الي السلطان فقال: نعَمْ ما أشرتم به، وقعد معهم من داخل الباب الرابع، هذا ما كان من أمر صابون.

وأما ما كان من أمر الوزراء فإنهم اطلعوا علي موت السلطان، ولسوء بختهم[3] كان ابنا[4] السلطان: أحمد وأخوه أصيل اللذان{ يقربان لهؤلا الوزراء} كانا غائبين يتضيفان[5] في البلاد، ويظلمان عباد الله في أموالهم وأعراضهم،

---

[1] في الأصل: " حتي أن السلطان قضي نحبه.. " .

[2] في الأصل : " ونادي أصحابه .. " .

[3] يريد : ولسوء حظهم ..

[4] في الأصل : " كان ابن السلطان وهم صبيا .. " .

[5] يتضيفان : أي يطلبان الضيافة، وهو نوع من الجباية يقوم بها أقرباء السلطان ..

فأرسلوا لهما بالخبر وحرضوهما علي القدوم سريعاً، وكتموا موت السلطان حتي يأتيا، ولم يعلموا أن الأمور تحكمت، وربح من ربح وخسر من خسر، وما ورث الله صابوناً مملكة أبيه إلا لكونه صالحاً عاقلاً كريماً، وهذا مصداق قوله تعالي علي بعض التفاسير: " ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون[١] " وعلي بعضها أن الأرض هي الجنة، وقولي إلا لكونه صالحاً عاقلاً ليس مرادي أن اللام للعلة، إذ أفعال الله لا تعلل، بل هي لام العاقبة كما في قوله تعالي: "وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون[٢] " ولما أمسي المساء، وسدل الظلام أستاره، اجتمعت عساكر صابون حتي ملأت بطحاء القاشر وخرج صابون في زمرة من أصحابه، وتقدم حتي وقف علي باب دار السلطان، وكان التراقنة نائمين أمام الباب، لأن العادة أن كل ليلة يبيت أحد التراقنة بجماعته أمام الباب فخاف صابون أن يشعروا به، فمشي هو وجماعته حفاة علي رؤوس أصابعهم، حتي دخلوا من الباب الأول والثاني والثالث، وجاءوا الي الباب الحديدي، الذي هو الرابع، فطرق صابون الباب طرقاً خفيفاً فاستشعر موسي، وكان قد اتخذ البواب صاحباً، وأخذ منه المفتاح ووضعه تحت رأسه ونام، فلما طرق الباب وأحس به، قام مسرعاً وفتحه، فقال له البواب لمن تفتح الباب في هذا الليل يا موسي، فلم يعر[٣] جواباً حتي دخل ابن السلطان وجماعته، والتفت موسي فرأي حربة من كبار الحراب صورتها هكذا...

فأخذها وقال للبواب النائم الذي قال له لمن تفتح الباب في هذا الليل يا موسي، أتدري لمن فتحت الباب؟ قال لا، قال فتحته لسيدك وسيد أمك وأبيك، وطعنه بالحربة في بطنه، فأخرج إمعاءه وجذبها منه، وطعن بها آخر وآخر حتي قتل نحو خمسةعشر رجلاً، وكان السلطان قبل دخوله للدار أوقف الفرسان أمامها[٤]، يمنعون الامدادات التي تأتي من أعدائه، وأوقف الرجل علي فم الباب أمام التراقنة، ودخل الدار بما ينوف عن خمسمائة رجل، ولما طعن موسي هؤلاء

---

(١) سورة الأنبياء، الآية رقم ١٠٥ .

(٢) سورة الذاريات، الآية ٥٦ .

(٣) في الأصل : "فلم يعر .. " .

(٤) في الأصل : " أوقف الفرسان أمام الدار وهو تكرار عل .. " .

الرجال تحرك وساعده الباقون بقتل جماعة السلطان واستيقظ جماعة السلطان من سنتهم فوجدوا الطعن أحر من الجمر، فمنهم من قاتل حتي قتل، ومنهم من أسلم نفسه لجماعة صابون وصار منهم وكان مع السلطان بندقية، فأطلقها في عريش الحرس، فالتهبت ناراً، وامتدت النار منها لغيرها، فأضاءت حتي صار الليل كالنهار، وكان هذا الفعل من لطف الله تعالي، لأن بذلك الضوء حصلت أمور عجيبة، أولها أنهم عرفوا أعداءهم فقتلوهم، ثانيها أن الأعداء اندهشوا حين رأوا النار اشتعلت بغتة، ثالثها أن حرارة النار أخرجت من كان كامناً، وفعل به ما فعل، ولولا ذلك لخيف علي صابون من خائن يخونه، ولما ملك الجماعة الدار وأمن السلطان صابون من الأعداء، دخل الدار حتي وقف علي شلو أبيه وهو مسجي والنساء محدقات[1] به، فبكي قليلاً واحتسب مصيبته بأبيه عند الله تعالي، ثم طلب شارات الملك فأحضرت، وهي خاتم موروث من آبائهم، وسيف وحجاب وكرسي، فأحضرت كلها إلا الكرسي لم يعلم له موضع، فاستشاط غضباً، وقبض علي نساء أبيه، وألزمهنّ به فانكرنّ وحلفنّ أنهنّ لا يعلمنّ له محلاً، وأصررنّ علي ذلك فحبسهنّ ووكل بهنّ حرساً من الطواشية، وأمر بقية الجواري والخدم بالبحث عنه[2]، وأن كل من جاء به يعطي جعلاً عظيماً بعد عتقه فما كان إلا كلمح البصر حتي جاء به بعض الغلمان، وقال هاهو وجدته في محل كذا من الدار، فأخذه السلطان وضمه لشاراته، ووضعها في المحل اللائق لوضعها، وكان ذلك كله والقتال دائر، ونار الحرب تضطرم، وما ذاك إلا لأن التراقنة أفاقوا من نومهم، فرأوا الرجال واقفين بأسلحتهم، فقالوا لهم من أنتم، قالوا نحن جماعة السلطان صابون، فأنكروا ذلك وقالوا متي صار صابون سلطاناً حتي تقولوا ذلك، فغضبت[3] جماعة السلطان لقولهم وقالوا هو السلطان، وقد ملك الدار فأما أن تسلموا أنفسكم، وإلا قتلناكم، فدار القتال بينهم، وبينما هم في تلك الحال إذ جاء وزراء السلطان المتوفي مع أخوال أحمد وأصيل، فوجدوا الدار قد ملكت واستقر

---

(1) في الأصل: " والنساء محدقين... ".
(2) في الأصل: " بالبحث عليه... ".
(3) في الأصل: " فغضبوا جماعة السلطان... ".

صابون فيها، فأرادوا الدخول عليه فمنعوا: فنشبت الحرب بينهم، ودام القتال بينهم حتي الصباح، ولما أصبح الصباح جاء الأمراء والملوك وبلغهم ما وقع، فاختاروا صابون لحلمه وعدله، ومالوا معه وقاتلوا أولئك، فتقوي السلطان صابون وتزايد مدده حتي صار في جيش عظيم، وما جاء الضحي إلا والأعداء مغلوبون ما بين قتيل وجريح وفار، وغنم أصحاب السلطان صابون أسلابهم وخيلهم وسلاحهم، ولما كان الغد حضر أحمد وأصيل أخوا السلطان صابون ومعهما جيش، وأرادا أن يفتحا الدار علي صابون، فمنعهما عساكر صابون، فثارت[1] الحرب بينهم نهاراً كاملاً وانهزم أحمد وأصيل متفرقين، فأما أحمد فإنه توجه الي أخواله في قبيلة يقال لها أبودرق، وأما أصيل فأمه كانت من مساليت وداي، الذين تحت حكم عقيد الصباح[2]، فتوجه اليهم، ومنهم سار الي دارفور ـ وسيأتي خبر القبض عليه فيما بعد إن شاء الله تعالي.

ولما بلغ الخبر الي السلطان صابون أن أخويه فرا وانهزم جيشهما حمد الله الذي فرج عنه تلك الكربة، لأن الكماكلة الكبار والوزراء العظام، كانوا كلهم من أهل أم أحمد، وهو لغضب السلطان صالح علي أمه لم يول أحداً من أهلها منصباً، ولما انهزم الأعداء وراق الحال خرج السلطان صابون الي[3] ديوانه وانعقدت له البيعة بحضور العلماء، وولي أقاربه في المناصب الجليلة، وأطاعته البلاد، وانقادوا له، منها ما انقاد له رغبة، ومنهما ما انقاد له رهبة حين نظروا ما وقع لأخيه أحمد وجماعته، لأنهم لم يقدروا علي احصاء القتلي وكان الدم يوم قتاله لجيش أحمد يسيل كالنهر، وهو معني قول الشاعر:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذي ... حتي يُراقَ علي جوانبه الدما

وكان القتال المذكور في أواسط رجب الفرد أظنه من سنة ١٢١٩ (١٨٠٤م) فمكث في بيته سارا قاراً بقية رجب وشعبان كله، وفي مستهل رمضان توجه لقتال لأخيه أحمد، وذلك أنه بلغه أن أخاه جيش جيشاً عظيماً وساعده علي جمعه بعض

---

[1] في الأصل: " فثار الحرب..." .

[2] عقيد الصباح: أي عقيد الشرق .

[3] في الأصل: " في ديوانه..." .

أخواله ممن انهزم يوم الواقعة، وكانوا من الوزراء العظـــام، فخـاف السـلطان صابون غب ذلك الأمر إن تراخي فيه أن (يفتتن به[1]) الناس، ويكـــثر جيشـه، ويتسع الخرق علي الراقع، وهذه عادة كل ملك حازم لرأيه، لأن أول الغيث قطـر ثم ينهمر، فخرج في ثالث ليلة من رمضان في جيش كثيف، وكان بينه وبين أخيه أحمد يومين سفراً معتدلاً، فسري ليله أجمع، وسار جل نهاره وقبل العصر وصل الي محل معسكر أخيه، والتقي الجمعان، وكان الوزراء الذين مع أخيه أحمد(قـد) أشاعوا أن السلطان صابون عاقٌ لوالده، وأن والده حيٌ وهو يريد قتله وأخذ الملك منه، فنفرت عن صابون طباع الناس واستقبحوا فعله، وانحرفت قلوبهم عنه، وبلغ الخبر الي السلطان صابون، فعلم أنها حيلة دُبِّرَتْ لتنفير الناس عنه، فلما وصـل أرسل اليهم يقول لهم: أنه قد بلغني أنكم تقولون أن والدي حي، وأنا أريـد قتلـه وأخذ الملك منه فإن كان قولكم صحيحاً أروني أبي، وأنا أسلم له نفسي يفعل فيـها ما يشاء، وإن كنتم تخافون مني عليه فأنا عندي أناس أمنـــاء أتقيـاء ترضونـهم وأرضاهم، فأبرزوه لهم، فإن أخبروني أنه هو أسلمت له نفسي يفعل فيها ما يشاء، فلما أبلغهم الرسول مقاله ردوا عليه أشنع رد، وقالوا له إنا لا نمكنـك ولا نمكـن غيرك من رؤيته بعد أن وقع ما وقع، فلما بلغه ذلك زحف عليهم بالعساكر وتوضأ وصلى ودعا الله أمام الناس وطلب النصر على الأعداء فنشب القتال بينـهم، فلـم يكن إلا كلمحة بارق أو خطفة بائق[2] ،حتى ولوا الأدبار وركنوا الى الفرار، فلمـا رأى السلطان انهم يريدون الانهزام أرسل أمامهم جيشاً قطـع عليـهم طريقـهم، وأعدمهم توقيفهم ونادى مناديه: ألاكل من قبض على أحمد أخي فله عندنـا مـن الحمراء كذا وكذا وذكر أمراً جميلاً، فما جاء المغرب الا وأحمد في قبضة الأسر، وجيء به ذليلاً حقيراً، فأمر بتصفيده ثم جيء بأكثر اقارب أحمـد مقرنيـن فـي الأصفاد فحملهم السلطان معه الى أن حل ركابه بقاعدة مملكته وقصـر سـلطنته وبات في غبطة وسرور، ولما أصبح ضُرِبتْ الطبول وجمعـت الجمـوع وكـان محفله ياله من محفل وخرج السلطان الى الفاشر والرايات تعلوه، وركـب أهـل

[1] في الأصل: "يفتتن الناس ...".

[2] "أو خطفة بائق" أي أسرع من خطافة الصقر الخارج لفريسته.

المملكة والرقيق، ووقف كل من الأمراء في موقفه وجلس كل من أرباب المراتب في محله المعد لجلوسه واصطفت التراجمة وحضرت الغربان زمراً زمراً لابسين حلل الانتقام ،روعين بسمائهم جميع الأنام ووقفوا في المحل المعد لوقوفهم وأمر بمجيء أحمد وأقاربه وشيعته فجيء بهم في أسوأ حالة يحجلون في قيودهم، وأوقفوهم أمام السلطان وأحمد أمامهم فقال السلطان لأحمد: يا ايها الفار الخائن الفاسق الماجن القاهر الظالم الطاغي الغاشم أتظن أن مثلك يصلح لأن يكون أميراً أو رئيساً أو مشيراً حتى تطمع في إمامة الأنام وراية الأحكام، كلا ساء ماتوهمت، وبئس ماظننت، أنت لا تصلح أن تكون راعياً لعباد الملك العلام، ولاتصلح لرعي الأغنام طالما ظلمت وتجبرت وطغيت وتكبرت، فكم من مخدرة[1] هتكت، وكم من أناس ظلمت وكم من (دماء[2]) سفكت، لقد تعديت حدود الله التي قال فلا تعتدوها وارتكبت من الفواحش التي قال الله ولاتقربوها، فان كنت كاذباً فيما ادعيته، برهن عن نفسك وانفه[3]، فقال أحمد بقلب جريء وجنان قوي: أسكت فض الله فمك، وأهلكك وأعدمك يا أيها الجبان العاق لوالده المطرود من رحمة المنان، لقد غلط الدهر في سؤددك وعن قريب يراجع عقله فيك، أتظن أني أخشى بأسك، أو أخاف مرامك، وأنا أعلم أنك لاتقدر (على) شيء أكثر من قولك أقتلوه والقتل عندي أهون من وقوفي بين يدي لئيم مثلك، فعند ذلك قال السلطان للعلماء ومن حضر من أرباب الشرع، أفتوني في هذا المارق، فقالوا جزاء الخارج عن طاعة الامام الذي انعقدت له البيعة من الأنام أن يقتل أو يصلب أو تقطع يده ورجله من خلاف، لقوله الله تعالى "انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض)[4]،

فعند ذلك أمر السلطان بأن تحمى مراود الحديد ويكحل بها، فكان كذلك ثم التفت الى وزراء أبيه وقال لهم ياوزراء السوء أين ماكنتم تدعونه في حياة أبي وتزعمون أني عاق لوالدي، وأشعتم من ذلك ما أشعتم وماقصدكم الاقتلي وتولية

---

[1] مخدرة هتكت... أي ربة خدر وهي الفتاة العذراء

[2] في الاصل " دم"

[3] في الاصل " انفه"

[4] سورة المائدة الآية ٣٣.

ابن بنتكم، والآن ولله الحمد قد ثبت كذبكم وتزويركم، ثم أمر الكبرتو وهم الموكلون بقتل من يأمر السلطان بقتله، وهم الذين يضربون البوقات أمام السلطان بأن يقتلوهم فأحاطوا[1] وشرعوا في قتلهم بعصي ذوات رؤوس عظيمة كالمسماة في عرف الترك بالدبابير كما هي عادتهم، وسنتكلم فيما بعد عن[2] عوائد الفور والوداي في القصاص والقتل والحبس وكيفية سجنهم وتعذيبهم لمن غضبوا عليه إن شاء الله تعالى. فكانوا لقوة قلوبهم وعدم اكتراثهم بالقتل يتسابقون إليه وكل منهم يمد عنقه للقتل قبل صاحبه رغبة في الموت وخوفاً من عار الجبن لأن الجبان عندهم لايعد من الرجال فلا يزوجونه من أعظم انسابهم، بل يخرجونه من حسابهم، ولم أسمع فيما سمعت بأشجع من هؤلاء، ولقد رأيت[3]، في بعض التواريخ أن بعض الخلفاء خرج عليه خارج يقال له نعيم، وجيش جيوشاً عظيمة، فعاقاه الخليفة حتى ظفر به، فلما أحضر بين يديه أمر بقتله، ففرش له النطع، وجرد السياف سيفه وقام على رأسه، والتفت الخليفة الى نعيم فرآه غير مكترث ولامنزعج، ثابت الجنان لم يظهر عليه من أثر الرعب شيء، فاستنطقه الخليفة ليختبر جاله، فقال له يا نعيم ان كانت[4] لك حجة فأت بها، فقال نعيم أما اذا اذن لي أمير المؤمنين فالحمدلله الذي جبر بك الدين ولم بك شعث المسلمين ولاعذر لي الا أن أقول وأنشد:-

أرى الموت بين النطع والسيف كأنه ... يلاحظني من حيث لا ألتفتُ

وأكبر ظني إنك اليوم قاتلي ... وأي امرئ مما قضى الله يفلتُ

وما جزعي من أن أموت وإنني ... لأعلم أن الموت شيء مؤقتُ

ولكن ورائي صبية قد تركتهم ... وأحشاؤهم من وحشتي تتفتتُ

كأني أراهم حين أنعى إليهم ... وقد خمشوا تلك الخدود وصوتوا

---

(1) في الأصل " فاحاطوا هم"

(2) في الأصل " فيما بعد على"

(3) في الأصل " ولقد كنت رأيت"

(4) في الأصل " ان كانت لك حجة"

فإن عشت عاشوا آمنين بغبطة   (أذود[1]) الردى عنهم وإن مت مُوتوا

فذرفت عينا الخليفة رحمة عليه، وقال له: وهبتك لله ولصبيتك يـاتعيم، ثـم أمـر باطلاقه وفكه من وثاقه وأحسن اليه ورده الى حبيبته مغتبطاً مسروراً ومن هـذا القبيل ماحكي أن النعمان بن المنذر[2] بن ماء السماء كان ملك العـرب بـالحيرة وكان قد قسم الأيام الى يومين، يوم سرور ويوم بؤس، ففي يوم السـرور لايقـع بصره على انسان ألا أحسن اليه وجمله، وفي يوم البؤس لايقع نظره فيـه علـى أجنبي الاقتله فاتفق أنه قصده رجل من الأعراب يطلب احسانه فصادفه في يـوم بؤسه، فلما مثل بين يديه امر بقتله في الحال، فقال الاعرابي: والله ان الموت أحب اليّ من كل شيء ولكن أريد من الملك أن يمهلني ثلاثة أيام أرجـع فيـها لأهلـي وأعلمهم بما حدث وعندي للناس ودايع إن أنامتُ الأن ربما ضاعت على أصحابها فأردُها اليهم وإني ليفعل بي الملك ماهو فاعل، فقال الملك إعطني كفيلاً واذهـب فالتفت الأعرابي الى أحد وزراء الملك وخاطبه من دون الحاضرين، وطلب منـه أن يضمنه وأنشده في ذلك شعراً نسيته لا أعلم منه الاقوله:-

يا أخا الاخوان جُدلي   بضمـانـي الـتـزام

فهزت الوزير أريحية الكرم وعلو الهمة وحسن الشيم، وضمن الأعرابي وأطلقـه فركب على دابته وتوجه الى أهله وأعلمهم، وفعل مايلزمه فعله، ثم رجـع فكأنـه تاخر قليلاً وأصبح النعمان في اليوم الثالث يقول للوزير إن لم يـأت مـن كفلتـه (فسوف) تسد مسدة، فقال الوزير: وهو كذلك، لكن لاسبيل للملـك علـيّ إلابعـد عصر هذا النهار، فإن لم يأت (فسوف) أسد مسده، فلما كان العصر قال النعمـان لوزيره تهيأ لوفاء ضمانك، فقال: وهو كذلك، فتهيأ الوزير ونودي السياف فحضر، وأخذ الوزير الى محل القتل، واجتمعت عليه الناس مابين باك وصارخ وبينما هم كذلك اذا بالأعرابي قد قدم وهو ينادي: خلوا من الرجل، ها أنا جئت أوفي بضمانه

---

[1] في الأصل" اذا سواه الردى عنهم" وهو كلام لاينسجم مع سياق البيت.

[2] النعمان بن المنذر، بن ماء السماء ملك الحيرة، وكانت الحيرة دولة عربية تابعة لملوك الفرس، مواجهة لمملكة الغساسنة العربية في الشام التي كانت بدورها تابعة للروم وكانت الحروب بين الدولتين عظيمة، استمرت حتى ظهور الاسلام وفتح بلاد فارس والروم فذابت الدولتان في جسم الدول الاسلامية وكان النعمان من أشهر ملوك الحيرة.

فأمسك السياف يده، وأعلموا الملك، فأمر باحضارهما، فلما مثلا بين يديه قال لهما: ماراًيت أعجب منكما في حسن الوفاء وعلو الهمة، وقد عفوت عنكما وأبطلت يوم بؤسي إكراماً لكما.

ومن هذا القبيل ماحكي لي الشريف محمد بن الشريف ابراهيم الملقب بكتاب (العشرى) أن أهل سنار قال كان عندهم أن الرجل اذا قتل (رجلا) آخر يُمسك القاتل رجلَ المقتول ويجلس حتى يأتي أهل المقتول فيقتصون منه، فاتُفقَ أن رجلاً قتل آخر عند عشيقة لهما ومسك رجلَهُ وجلَسَ حتى جاء أهله، وكان للمقتول ستة إخوان ذكور غيره وأبوه وأمه، فسألوا القاتل لم قتلت أخانا، قال قتلته، قال أترضى ان نقتلك فيه؟ قال نعم، الا أني أريد من أفضالكم أن تمهلوني ثلاثة أيام أذهب فيها لأهلي وأودعهم وآتيكم فقالوا له: هذا جبن منك، وتريد أن تفر من القتل فإن[1] كنت جباناً فلست حينئذ بكفؤ لأخينا، فلا نقتلك فيه وكان من عادتهم لايقتلون الا من شجاع فان كان القاتل جباناً تركوه ونظروا أشجع أقاربه فقتلوه فيه، فقال لهم الرجل: لا والله ما أنا بجبان ولعنة الله على كل جبان لكن عذرى واضح هو الذى ألزمنى أن أرجع الى أهلي، فقالوا ائتنا بكفيل ونحن نتركك، فاختار من الناس الحاضرين رجلاً توسم فيه الخير، وسأله أن يكفله حتى يرجع فهزت الرجل النخوة فضمنه[2] (ثم) شرطوا عليه إن لم يأت بعد ثلاثة أيام فسيقتلونه بأخيهم، فرضى (أى الضامن) وأشهد على نفسه بذلك، ثم ركب القاتل راحلته وودعهم وانطلق الى أهله، فلما وصل اليهم وأعلمهم بما جرى له وكان حديث عهد بعرس، فقالت له زوجه لاتدخل عليّ واذهب فأوف بضمانك وقال أبوه وإخوته كذلك، فاغتسل وتطيب وركب راحلته وقفل راجعاً ليوف بضمانه، فعرض له أسد عاقه عن مسيره فنزل وقاتله حتى قتله، وأخذ قطعة من جلدة رأسه علامة على صحة قوله، فلما كان عشية اليوم الثالث جاء أهل المقتول للضامن وقالوا له: قد ظهر أن صاحبك قد خان فقم وأوف لنا بالضمان فقام من ساعته وتوجه بهم الى محل القتل وبينما هم محدقون به وشارعون فى قتله إذ جاءهم القاتل ينادى ياويلكم خلوا عن

---

[1] في الأصل " وان كنت.. "

[2] في الأصل " وضمنه "

الرجل، ها أنا جئت أوفي بضماني، فخلوا عنه وحين رأى أبو المقتول أن القـــاتل (قد) جاء ولم يفر، دعا بأولاده كلهم، ودخل بهم داره وأغلقها عليه وعليهم وقـــال لهم: يا بني ماذا ترون في أمر هذا الرجل وهل هو أعلى همة أم الـــذى ضمنـــه، فاتفقوا على أنهما كفرقدين فى السماء، فقال لهم أبوهم الـــرأى عنـــدى (أن) هـــذا الرجل لايقتل لحسن وفائه، فقال أحد أولاده نترك دم أخينا يذهب هدراً لايكون ذلك أبداً، فحلف أبوهم بالطلاق ثلاثاً ان[1] لايقتل، وكل من ناله بسوء كان هو خصمه، وأغلق عليهم الدار وخرج (ثم) دعا بالرجل وقال له: قد عفونا عنك فاذهب الـــى سربك، فأبى الرجل وقال: لايمكن ذلك أبداً، أ أكون قاتل ولـــدك وثمـــرة فـــؤادك وأعيش بعده هذا ممالايكون، فقال له أبو المقتول: قد عفونا عنك، والحمـــد لله إن قتل مني ولد فقد بقي أولاد، وتركه ومضي، فمكث القاتل ثلاثة أيام وهو ينادي يا أهل الثأر هلموا وخذوا بثأر إبنكم مني، فلم يأته أحد، فلما أعياه الأمر ركب راحلته وانقلب الي أهله أغبط إنسان.

ولما قتل السلطان أعداءه من أخوال أحمد وغيره، أظهر في الناس العـــدل، وحسنت سيرته في الممالك، وهرع[2] العالم الي سدته من كل حدب ينسلون كأنهم الي نصب يوفضون، فقمع الجبابرة الذين كانوا يدعون بالعفاريت، وأمـــن السبل التي كان يخشي من سلوكها كل قرن حزين حتي كانت المرأة تسلكها محملـــة[3] في النهار لا تخشي إلا الواحد القهار، ومكث علي ذلك مدة، لكن كان في قلبه من أخيه أصيل ما يمنع الهدوء والمقيل، لكنه صابر حتي يحدث الله بعد ذلـــك أمـــراً، فاتفق أن السلطان غزا دار تاما[4] وخرب[5] ديار أهلها، وشتت شملـــهم، ومـــزق

---

[1] في الأصل "... بالطلاق الثلاث انه..."

[2] في الأصل: " وهرعت العالم ... ".

[3] يقصد: أن المرأة تسلك هذا الطريق وهي تحمل حاجياتها دون خوف من أحد.

[4] دار تاما: تقع غرب دار فور علي حدود وداي وكانت دائماً عرضة وصل بين دارفور ووداي وكانت خاضعة لدارفور، وأحياناً تغزوها وداي وتنتزعها، ولهذا كانت منطقة صراع بين الدولتين وقد اشتهرت بزراعاتها الواسعة، ورحاتها الكثالين ينظر:

تشحيذ الأذهان ص ١٣٦

[5] في الأصل: " وأخرب ... ".

جمعهم كما يأتي بيان ذلك، وكان ملك تامه ينتمي[1] الي سلطان الفور{ فأغاظ هذا الفعل سلطان الفور يومئذ، وهو السلطان محمد الفضل[2] {وأخذ يفكر} في مكيدة} يكيد بها السلطان صابون، فاستشار[3] وزراءه في ذلك، فأشاروا عليه أن يلتفت الي أصيل وينعم عليه بانعامات وافرة، ثم يفاوضه في شأن توليته سلطاناً علي دار وداي، فانه يرغب في ذلك {أي أصيل} ويأخذ عليه العهد بأن يعطيه في كل سنه كذا وكذا من المال، فمتي أَخَذْتَ عليه العهد بذلك أن تأمره بمكاتبة أمراء دولة صابون،{وأن} يعدهم الوعود[4] الحسنة ليفسدهم عليه، فإذا أتته الكتب منهم بأن قلوبهم معه يهيء له جيشاً كثيفاً يذهب معه فيأخذ[5] منه وداي، وتصير من جملة ممالكه، وحينئذ إما أن يقبض علي صابون ويفعل فيه ما يشاء، وإما أن يقتل في الحرب فيكفيه الله شره، وإما أن يهيم علي وجهه فلا تقوم له قائمة، فقبل السلطان[6] محمد فضل ذلك {العرض} ودعا بأصيل بعد أن كان عنده في زوايا الإهمال لا يعتني به أحد، فأنعم عليه وأعطاه خيلاً ورقيقاً وحوله في دار حسنة، ووصله بأموال جزيلة، وأخذ عليه العهد علي حسب ما قال وزراؤه، وأصبح أصيل في أبهة وناموس، وارتفع جبينه بعد الخمول، وعرفته الناس، وشاع علي ألسنتهم[7] بأنه ملك دار وداي، وكتب جملة كتب وأرسلها الي وزراء السلطان صابون ليفسدهم عليه، ووعدهم بكل جميل، فأخذوا الكتب وأطلعوا السلطان

---

[1] يقصد الكاتب : أن ملك تامه يتبع لدولة الفور.

[2] السلطان محمد الفضل: حكم دار فور في الفترة (١٨٠٢ - ١٨٣٩م / ١٢١٦ - ١٢٥٤هـ) كان يلقب بفخر السلاطين، نظراً لأعماله الخيرة واتساع الدولة في عهده، تولي الحكم بعد أبيه السلطان عبد الرحمن الرشيد وكان صغيراً فتولى الأب شيخ محمد كرا أمر تربيته وتوليه العرش وكان حكيماً مدبراً، ويذكر المؤرخون أن أمه، كانت خادمة من قبيلة البيقو تسمى أم بوسه، وبعد توليه العرش حرر قبيلة أمه، وحرم استرقاقها، وكانت له حروب مع وداي انتصر فيها ووطد حكمه في البلاد.

ينظر : نعوم شقير : تاريخ السودان ص ١٣٠.

موسى المبارك، تاريخ دار فور السياسي ص ١١٥.

[3] في الأصل : " واستشار .. ".

[4] في الأصل : " ويوعدهم المواعيد .. ".

[5] في الأصل : " فيأخذ لك وداي وتصير من جملة الممالك .... ".

[6] في الأصل : " فقبل ذلك السلطان .... ".

[7] في الأصل : " وشاع علي ألسنة الناس .... ".

صابون عليها، فلما رآها فرح واستبشر بقرب الفرج، وقال لعظماء وزرائـــه[1] : كاتبوه بأنكم معه بالقلب والقالب، لأنني مضيق عليكم ومتعبكم غاية التعب، وكلكم مقيمون معي مع الكراهة، لعدم وجود غيري، وأخبروه بأنه غير محتاج الي معونة السلطان محمد فضل، لأن في ذلك عاراً عظيماً، لأن مملكتنـــا بعـد أن كــانت[2] مستقلة تكون تابعة ويفوز غيرنا بخيرها، ولا يصبح[3] من الســـلطنة إلا الإســـم، وهذا عار يبقي الي الأبد، فإن كنت تألف بلادك، وتأخذك عليها غـــيرة، إيـــاك أن ترضي بأن تكون[4] تحت سلطان الفور، وانما الرأى عندنا أن تختلس نفسك وتأتى الى المحل الفلانى وترسل الينا[5] ونحن نأتيك بأجمعنا ونـــترك صـــابون وحـــده، ونأخذك وندخل بك البلد، ويبقى صابون فى قبضتك تتصرف فيه كيـــف تشـــاء، ونقسم بالله وآياته لئن جئتنا بجيش الفور وسلطانهم لانطيع لك أبداً ولو لم يبق فى دار وداى الارجل واحد، فاختر لنفسك مايحلو (لك)، ونحذر سعادتك من أن تطلع على كتابنا هذا أحد من الوداى أو الفور لأنك إن أطلعت عليه أحداً مـــن الـــوداى لانأمن أن يبلغ مافيه الى السلطان صابون فيقتلنا وأنت تعلم ماعليه أخوك من الحدة والعتو، وإن أطلعت عليه أحداً من الفور لانأمن أن يفسد بينك وبين السلطان قبـــل أن تبلغ مقصدك، والموعد بيننا محل كذا،فنحن نمكث فيه حتى تأتينا فمتى قربـــت منه فأرسل لنا رسولاً يعلمنا بقدومك ونحن تحت أمرك إن شاء الله تعـــالى، فلمـــا وصل الكتاب الي أصيل ورآه انخدع، واطمأن بما فيه، لا سيما وقد رأي فيه أختام الوزراء الكبار والكماكلة العظام، ورأي أن ذلك أنفع له، فأغلق بابه وأمر الخـــدم والبوابين أن كل من سأل عنه يقولون "له" إنه مريض، وترك جميع أمواله ورقيقه، ولم يأخذ معه إلا خادماً واحداً، وركب بعيد العشاء وسار الليل كله والنهار، ولـــم يسترح إلا وقت القائلة، ثم ركب وسار الليل كله فقطع شقة عظيمة، وفي ثالث يوم وصل الي المحل الذي سماه له الوزراء، فاختفي هناك، وأرسل اليهم كتاباً يعلمهم

---

(1) في الأصل: " وقال لعظماء وزرائه كاتبوه .... " .

(2) في الأصل : " بعد أن تكون .... " .

(3) في الأصل : " ولا يكون ذلك من السلطنة إلا الأسم .... " .

(4) في الاصل "بأن تكون في امت"

(5) في الاصل "وترسل حلفنا.."

بأنه جاء علي حسب وعدهم، فما كان إلا كلمح البصر حتي أقبل عليه جيش فسمعوا[1] وأطاعوا، والتفوا حوله[2] وتوجهوا به الي المحل المعلوم، فرأي فيه من السرادق والخيول والعلامات السلطانية ما أدهشته وحقق ظنه، ورأي جيشاً يعجز العاد أن يعده، فأمل الخير والنصر، وجاء أولئك الوزراء وهنأوه بالسلامة، وأكبوا علي أقدامه يقبلونها وهو يعدهم[3] بكل جميل، وكان ذلك كله مكيدة من السلطان صابون، وهو الذي رتب هذه الأمور وأعدها، وأخذ العهود علي الوزراء والكماكلة، بأنهم لا يخونوه[4] وحلفهم إيماناً بالغة، ووعدهم إن قبضوا[5] علي أصيل أن يكافئهم[6] بكل خير، وبعد ان استوثق منهم أرسلهم اليه في تلك الأبهة من الخيول والسرادق، حتي أنه أرسل اليه[7] سرادقه نفسه، وكان من جملة وصاياه لهم، أنهم لا يتوانوا في القبض عليه، وأنهم متي قبضوا عليه{أن} يرسلوه في طائفة من الفرسان الأشداء ويأخذون عليهم العهود أنهم لا يخونوا[8] فيما استؤمنوا عليه، ولما دخل أصيل في المعسكر واستقر، أرسل الي كل جهات الوداي مناشير سلطانية، يحرضهم علي القدوم علي أعتابه، ويحذرهم الخلاف وعاقبته، ولم يعلم أن هذا كله حيلة دبرت عليه، ليخرج من بين أظهر الفور ويسهل من قبضه.

أقول: ومثل هذه الحيلة لا ينخدع بها إلا كل غر أحمق، لأنه لو كان فيه أدني عقل، وتأمل في هيئة المعسكر والعلامات السلطانية، والسرادق، وجميع ما هيىء له، لعلم لفطنته أن الوزراء لا يمكنهم إخراج شارات الملك وسرادقه إلا بإذن منه، لكنه لغباوته لم يتأمل في شيء من ذلك ولقد اجتمعتُ معه في

---

(1) في الأصل: " وسمعوا له وأطاعوا ... ".
(2) في الأصل: " والتفوا عليه .. ".
(3) في الأصل: " وهو يوعدهم ... ".
(4) في الأصل: " بأنهم لا يخونونه .. ".
(5) في الأصل: " أن قبضوا له علي أصيل ".
(6) في الأصل: " انه يكافئهم. ".
(7) في الأصل: " أنه أرسل له سرادقه نفسه، يريد سرادقه الشخصي .. ".
(8) في الأصل: " أنهم لا يخونونه ... ".

دارفور[1] مراراً وتكراراً، ورأيت فيه من الكبر ما لو فرق علـــي أهـل الأرض لوسعهم، مع أنه كان في غاية من الفقر والمسكنة، وحين كان يضمني معه مجلس كان ينظر اليّ بشر وأحقد عداوة، ولم يكن بيني وبينه معاملة قط، لكنه لما بلغه أن والدي وزيراً للسلطان صابون بغضني لذلك، وهذه غاية الجهل والحماقة، وحيـــن رأي أصيل إقبال الوزراء والكماكلة عليه تيقن أن حاله صلح، وأن الدهر خدمـــه، ولم يشعر بأن الدهر أفسد حاله فساداً لا يرجي صلاحه، على حد قول الشاعر:

عجوز تمنت أن تكون فتيةً ... وقد يبس الجنبان واحدودب الظهرُ

تروح الى العطار تبغي شبابها ... وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر

فما كان في سعيه من دار فور الي دار وداي إلا كالباحث عن حتفـــه بظلفـــه أو الجادع مارن أنفه بكفه، وكان رأي الوزراء أنهم يدخلون به الي دار وداي حتـــي يصلوا الي واره ويقبضوا عليه هناك، فأراد الله غير ذلك، وعجل له النكـــد مـــن جميع المسالك، وما ذاك إلا أن بعض الملوك صمم علي خيانة الســـلطان ونجـــدة أصيل، لما قام في صدره من الفساد، لأن حضرة السلطان لا يُمكّنُ ظالمـــاً مـــن الظلم، ولا مفسداً من الفساد، وهذا البعض يعلم أنه ما دام صابون سلطاناً لا يتمكن من {تنفيذ} أغراضه، ويتمكن منها مع أصيل، فجنح اليه بقلبه، وأفشي ذلك، وقـــال لبقية الأمراء: أراكم غررتم بالرجل، وجئتم{ به} لمقتله، مع أنه ابن ملككم، وفـــي ظني أنه أولي من صابون بالملك، لأنكم تعلمون ما عليه صابون من الجـــبروت[2] والعتو وسفك الدماء وعدم قبول نصحكم، فإن[3] كنتم تسمعون نصحي تجعلون هذا الهزل جداً، وتكونوا مع هذا الرجل بالقلب والقالب{وأن} تغيير الدول فيه رحمـــة عظيمة، فحين سمعوا منه هذا القول علموا أنه صبأ[4] ، وإن لم يتداركوه{فسوف} يفسد حيلتهم، فقبضوا عليه من غير سؤال، وقيدوه، ثم وكلوا بـــه مـــن يحفظـــه،

---

[1] كان مؤلف الكتاب قد جاء الي دار فور باحثاً عن والده فوجده قد رحل الى وداي، فمكث في الفاشر مدة من الزمن ينتظـــر الأذن من سلطان الفور للسفر الي والده فتأخر الأذن لسنوات لأنه مرهون بالعلاقات بين الدولتين كما سبق تفصيله.

[2] في الأصل: " الجبر " .

[3] في الأصل: " وإن" .

[4] صبأ أي ارتد وخرج عن الطاعة.

وقاموا كلهم ودخلوا علي أصيل وقبضوا عليه في تلك الساعة، خوفاً من أن يسري[1] اليه خبر ذلك الملك، أو تسمع شيعة ذلك الملك فتشب نار يعسر إطفاؤها، وبعد أن قبضوا عليه صفدوه وجمعوا يده الي عنقه بجامعة متينة، وأركبوه بعيراً، وأرسلوا معه ألف فارس بعد أن أخذوا العهود عليهم بعدم الخيانة، وأمروهم أن يتوجهوا به الي واره، وجعلوا أمرهم الي كامكلاك كَدَرْمَي وهو ابن خالة السلطان صابون، وكان أشفق الناس عليه، فأخذ عسكره وتوجه وسري به الليل أجمع،{وفي ذلك} الليل إرتحل الوزراء بالعساكر وسروا خوفاً من أن يحدث أمر، فوجدوا الكامكلاك كَدَرْمَي قد وصل بمن معه الي قرية هناك فسألوه هل حدث شيء؟ فقال: لا، فتوجهوا وتركوه يأتي علي رسله، وتعجلوا السفر الي واره فوصلوها في ثالث يوم، ودخلوا علي السلطان وأخبروه بما وقع، فابتهج فرحاً، وأمر بسجن الملك الخائن،{وعند الصباح[2]} ارسل ملكاً من ملوك الترافنة{ومعه} طائفة ليأتوا[3] بأصيل صحبة الكامكلاك كَدَرْمَي، فذهبوا، وفي اليوم الثالث[4] وصل أصيل مقيداً علي البعير، وخرج السلطان الي[5] الفاشر في أكمل زينة، وضربت الطبول والجوقات، وخفقت الأعلام علي رأسه، وأصيل راكب علي البعير ثم أمر السلطان بدخوله في وسط الحلقة، وقال له يا خائن يا غادر أتريد أن تُمَلّك بلادنا لأعدائنا، لأجل قضاء شهواتك، ثم أمر بقتله في الحال، شر قتله، وأراح الله العباد والبلاد منه، وكان يوم سرور في وداي، لم ينظر مثله قط، ثم أمر السلطان بإحضار الملك الذي خان فأحضر، فأمر بقتله أيضاً، فقتل وطرح شلوه مع شلو أصيل في بطحاء الفاشر من وقت الضحي الي المساء، ثم أمر بدفنهما، وهذه من أغرب الوقائع، ولم أسمع بملك خدع كما خدع أصيل، إلا جذيمة الأبرش ملك العرب فإنه انخدع للزباء، وهذه كانت ملكة أيضاً مات أبوها ولم يعقب غيرها، وكانت في مملكة واسعة، فأحب جذيمة أن يتزوجها، وكانت تكره الرجال، فأرسل لها جذيمة

---

(1) في الأصل: "أن يسي".

(2) في الأصل: "واصبح".

(3) في الأصل: "يأتون بأصيل".

(4) في الأصل: "وبعد ثالث يوم..".

(5) في الأصل: "في الفاشر".

أني خاطبك لنفسي، فعلمت أنها متي امتنعت قاتلها جذيمة، وأخذ ملكها قهراً عليها، فخدعته بحيلها، وأرسلت تقول له: إن السيف أصاب القراب، ووالله انك لكفؤ كريم، وطالما كنت أراود نفسي أن أخاطبك في هذا الشأن، لكن لا يخفى عليك الحياء الذي تتمتع به النساء من تمام أغراضهن، والحمد الله الذي ألهمك لهذا الشأن، فاذا أتاك كتابي هذا فبادر بالقدوم، ليكون الشمل بملكك منتظماً، فلما قرأ الكتاب أعجب(به) وأصبح مرتحلاً، وكان له ابن بنت يقال له قصير، جاء الى الملك حين بلغه ذلك، وقال له أيها الملك أتنخدع من امرأة، فقال لا خدعة، فقال قصير: لا يسمع لقصير قول، فصار مثلاً، ولما وصل جذيمة الي الذباء تلقته أعظم ملتقي، وأخرجت له العلوفات والضيافات، وحضرت لديه وعقد عليها، فإطمأنت نفسه، ووثق بها، ورد مابقي ما معه من العساكر وبقي في نفر قليل، ولما دخل عليها في قصرها أعظمت ملتقاه وتأمل فلم يجدها تأهبت ولا تزينت بشيء، فأحس بالشر، وقد غلقت عليه الأبواب، وبقي وحيداً، ثم أنها غابت عنه قليلاً وعادت اليه مكشوفة السوءة وأرته سوءتها، وقالت له أنظر متاع عروس فرأي عانة كاد شعرها أن يكون لمة، فقال لا أري متاع أمة بنظري، فعند ذلك دعت بجواريها وقالت (لهن) إفرشن نطعاً ففرشنه، وأمرت حاجماً أن يبضع راهشيتيه[1] فبضعهما وتركت دمهُ سائلاً حتي مات، وكانت في أثناء ذلك تقول لجواريها: أختفن دم سيدكن، فقال جذيمة: دعينه فإنه دم أهدره صاحبه، وهكذا معني قول الشاعر:

فقدمت الأديم كراهشيه ... وألفي قولها كذباً ومينا

ثم أن قصيراً أخذ بثأر خاله منها وقتلها هي وقومها، ومع أن جذيمة وقعته مشهورة، فلا يقبل الحكام بها، وإنما ذكرنا صدرها لمناسبة الخدعة على سبيل الاستطراد وإنما قتل صابون أخاه والملك الذي كان صبأ اليه، لأن الرجل الحازم

(1) راهشيه: المقصود هنا عرق الوريد الذي يحمل الدم من القلب واليه.

صلي الله عليه وسلم: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين"[1] ومن هذا القبيل ماقيل أنه لما تزهد النعمان الأعور ملك بعده ابنه المنذر وانتهى ملكه في زمن فيروز بن يزدجرد، ثم ملك ابنه الأسود وهو الذي انتصر[2] على غسان عرب الشام واسر عدداً[3] من ملوكهم وأراد أن يعفو عنهم، وكان للأسود ابن عم يقال له أبوزبية قتل له آل غسان أخا في بعض الوقائع، فقال قصيدته المشهور يغرى الأسود على قتلهم فمنها:-

ما كل يوم ينال المرء ما طلبا ... ولا يسوغه المقدار ما وهبا
وأحزم الناس من إن فرصة عرضت ... لم يجعل السبب الموصول منقضبا
وأنصف الناس في كل المواطن من ... سقى المعادين بالكأس التي شربا
وليس يظلمهم من راح يضربهم ... بحد سيف به من قبلهم ضربا
والعفو إلا عن الأكفاء مكرمة ... من قال غير الذي قد قلته كذبا
قتلت عمرا وتستبقي يزيد لقد ... رأيت رأيا يجر الويل والحربا
لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها ... إن كنت شهماً فأتبع رأسها الذنبا
هم جردوا السيف فاجعلهم له جزراً ... وأوقدوا النار فاجعلهم لها حطباً
إن تعف عنهم يقول الناس كلهم ... لم يعف حلماً ولكن عفوه رهبا
هم أهلة غسان ومجدهم ... عال فإن حاولوا ملكاً فلا عجباً
وعرضوا بفداء واصفين لنا ... خيلاً وإبلاً تروق العجم والعربا
أيحلبون دماً منا ونحلبهم ... رسلاً لقد شرفونا في الورى حلبا
علام تقبل منهم فدية وهم ... لا فضة قبلوا منا ولا ذهبا

وقد آن الاوان أن نحبس القلم عن طغيانه ونرده عن الجموح بألواء عنانه، ونشرع في ذكر الوقائع التي جرت بين السلطان صابون وأقرانه والحروب التي حصلت منه الى آخر زمانه.

---

[1] الحديث: اخرجه ابن ماجه في سننه، وصححه رقم (٣٩٨٢) ورواه الطبراني في الاوسط والكبير عن طريق اسماعيل بن ابراهيم الحلبي عن كثير بن عبدالله المزني، وهما ضعيفان، وقد وثقا. مجمع الزوائد ٧/٩٠.

[2] في الاصل "نصر" والصواب انتصر "

[3] في الاصل "عدد" وهو خطأ والصواب: عدداً

الفصل الخامس

في ذكر ما وقع من السلطان صابون من الحروب وقهر الملوك وملك البلاد

إعلم أن القادر الذى لايعجزه شيء تقدست ذاته وتنزهت صفاته جعل الملوك فى الأكوان كالرؤوس من الأبدان، والرأس هو الرئيس، وهو محل العقل على بعض الأقوال، وهو أشرف أعضاء الانسان لأن فيه من الحواس الظاهرة وهى السمع والبصر والشم والذوق، وفيه الحواس الباطنية بتمامها، وهى: الحس والخيال والمفكرة والمدبرة والمتصرفة، كما أن السلطان محل جمع الكلمة ومحل العدل والظلم والانصاف والذب عن البلاد، والرأفة والرحمة والانتقام من الظالم للمظلوم واقامة الحدود والتجاوز والعفو، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (السلطان ظل الله فى الأرض، ياوى اليه المسكين وبه ينتصر المظلوم)[1] وقال عليه الصلاة والسلام " (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)[2] اذا تقرر ذلك من حيث إن السلطان محل القوة والنجدة فمن الواجب عليه أن يأمر بالمعروف وينه عن المنكر، وفى الحديث: "من راى منكم منكراً فليغيره اما بيده او بلسانه أو بقلبه وهو اضعف الايمان"[3] ولا احد أجَدّ [4] من السلطان خصوصاً كسلطان الوداى فان جميع أهل بلاده ينقادون لكلمته مطيعون لأوامره، متجنبون لنواهيه، ولذلك لما تمكن السلطان صابون فى السلطنة، وثبت قدمه فيها لم يدع منكراً الاغيره ولامعروفاً مع مستحقه الافعله ومن جملة ذلك تغييره للمنكر الذى ارتكبه الحاج

---

(1) الحديث رواه البزار، وفيه سعيد بن سنان أبومهدى، وهو متروك مجمع الزوائد ٥/١٩٦ (ضعيف).

(2) الحديث اخرجه البخارى فى صحيحه ج٥ ص ١٨١ واخرجه القرطبى فى تفسيره وقال حديث صحيح ٥/٢٥٨.

(3) نص الحديث: من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان" رواه مسلم، رياض الصالحين، ص ١٠٠.

(4) عبارة "ولا أحد أجَدّ" أى لا احد اكثر جدية من السلطان صابون سلطان وداى.

أحمد سلطان الباقرمة[١] وذلك ان السلطان المذكور طغى وارتكب الفواحش التي نهى الله عن فعلها منها أنه أباح الظلم لقواده يظلمون كيف شاءوا، ولايقبل فيهم شكوى من أحد، فاتفق أنه لما كثر الظلم على الرعايا اجتمع كثير من كبراء أهل القرى والضياع وشكوا الى العلماء ماتابهم من عسف العمال وجورهم وأن السلطان لايقبل فيهم من أحد شكوى، والتمسوا منهم أن يتوجهوا الى السلطان، وأن ينهوه ويبالغوا فى نهيه، عسى أن يرتدع ويأمر قواده بالكف عنهم فكان كذلك، واجتمع جميع العلماء وتوجهو اليه فلما دخلوا عليه عرف مقامهم واحسن ملقاهم وبعد أن استقر بهم المجلس سألهم عن سبب اجتماعهم ودخولهم عليه، فسكتوا، وكان فيهم رجل مسن يسمى الفقيه الوالي، فقال يامولانا السلطان إنّا جئناك لننهاك عن أمور صدرت من قوادك فإن كان لك بها علم تلتمس من سعادتك أمرهم بابطالها وان لم يكن لك بها علم تزجرهم وتردهم، فقال السلطان وماهي، فقالوا له الظلم لأنهم ماتركوا قلباً بارداً[٢] وانت السلطان وهم لايظلمون إلا باسمك والرعايا لاتخشى إلا منك، وأنت المسئول يوم القيامة، ثم ضرب له مثلا فقال: يامولانا السلطان ارايت ان كان لك زرع وقرب أوان[٣] حصاده وهو في غاية من الخصب وكان في وسطه شجرة كبيرة قد عششت فيها الطيور وصارت تأكل مافى الزرع من الحب ولم ينفع فيها الزجر وأعياك الأمر. فماذا تفعل بالشجرة فقال السلطان أقطعها، فقال الفقيه: إعلم يامولانا إن الرعايا هي الزرع وأنت الشجرة وعساكرك الطيور، وقد حصل منهم من فساد الزرع مالايتحمل، ونحن نخاف الآن على الشجرة من القطع لأن صاحب الزرع الذى هو الله لايرضى بالظلم، أما سمعت قول الشاعر:-

---

(١) الباقرمة: أو الباقرمي: قبيلة مختلطة الدماء الحامية والزنجية اختلطت مع قبائل البلالة، وأسسوا دولة جنوب بحيرة تشاد في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي، وبسطوا سلطانهم على شعوب المنطقة من العرب والفولان وقد تأثرت الدولة بالاسلام القادم اليها من برنو ومن الشرق، وكانت عاصمتهم تسمى مسينا عندما زار الرحالة بارث Barth المنطقة منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، وكانت معاصرة لدولة الوداي. ينظر: دائرة المعارف الاسلامية، مادة (بقرمي).

(٢) ماتركوا قلباً بارداً" أي لم يتركوا قلباً هادئاً أو نفساً هادئة وهو كناية عن الذعر والخوف الذي أدخلوه في نفوس الناس.

(٣) في الأصل .."وقرب إبان حصاده."

لاتظلمنَّ أحداً ماكنتَ مقتدراً   فالظلم آخــرهُ يأتيك بالندم

تنـام عيناك والمظلوم منتبـهٌ   يدعو عليك وعينُ الله لم تنمِ

وفي الحِكم المأثورة: "..

الظلم إن دام دمّرْ، والعدل إن دام عمّرْ.. "

وقال الشاعر:-

ألا قولوا لرجلٍ قد تعود   على ظلمي ولم يخش الرقيا

نصبتُ له سهاماً في الليالي   وأرجو أن تكون له مصيباً

وفي الحديث: عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة[1] فضحك السـلطان منهم، وقال لهم: ترون أن هذه الطيور تعيش من غير طعام وشراب، قالوا: لا، قال لهم: هم لا يأخذون منهم الا أتاواتهم قالوا له أتاواتهم عليك، وأنت معطيهم الاقطاعيات من أجل ذلك، فقال لهم: كل إنسان أعرف بوسم قدحه، أما الرعايا فـهم رعايـاى والعساكر عساكرى وأنتم لادخل لكم فى ذلك، أنتم لادخل لكم إلا فى رجل يريد أن يتعلم شرائع الدين أو يسأل عن مسألة، أما هذا فلا يعنيكم ولولا أن الناس يقولـون أن السلطان بطش بالعلماء، لما تركت منكم أحداً، ثم دعا بأمرائه وقال[2] لأحدهم: أنت الصقر وقال للآخر أنت البازى، وقال للآخر: أنت الحـدأة، ولآخـر أنـت الرخم[3] ولآخر أنت النسر ووسمهم بأسماء طيور (جارحة) والعلمـاء جالسـون ينظرون ذلك ويسمعونه، فخرجوا من عنده على غير صـورة ذامـون لأفعالـه، ومازاده ذلك إلاعتواً فأجتمع العلماء مرة ثانية ودخلوا عليه، وذلك حين ضج الناس من شدة الظلم، وصار يقع بينهم وبين جند السلطان مقاتلات عظيمة وتسفك دمـاء الناس فخربت[4] لذلك عدة قرى وضياع، فقالوا ندخل عليه، ولو كان فـى هـذه

---

[1] نص الحديث "عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة، قيام ليلها وصيام نهارها" رواه الاصبهاني بسنده عـن ابي هريـرة، الـترغيب والترهيب ٣/١٦٧.

[2] في الاصل " فقال"

[3] في الاصل "الرخمة" والصواب الرخم، وهو صقر جارح.

[4] في الاصل" فخرب لذلك عدة قرى"

المرة هلاكنا فلما مثلوا بين يديه عرف حقهم وأنزلهم منازلهم فلما استقر بهم الجلوس سألهم عن سبب مجيئهم فأخبروه أنهم جاءوا يوفون بعهد الله الذى أخذه عليهم فى قوله تعالى: "وإذ أخذ اللهُ ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه"[1] فقال: قولوا ماتريدون، فقال أحدهم: قال الله تعالى: "ويضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين"[2] وقال آخر حديثاً قدسياً وهو قوله تعالى (على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم) "ياعبادى إنى خلقتُ الظلمَ وحرمتُهُ علىّ نفسى وجعلتُهُ بينكم محرماً فلا تظالموا"[3] أو كما قال، وقال آخر: قال النبى صلى الله عليه وسلم "يقول الله تعالى يوم القيامة: "اناالملك الجبار لا أتجاوز عن ظلم ظالم ولو مثقال ذرة فإن تجاوزت عن ظلم ظالم فأنا ظالم"[4] وقال آخر: قال عليه الصلاة والسلام: "الظلم إن دام دمَّر، والعدل إن دام عمَّر" وكل واحد منهم قال كلاماً فى شأن ذلك، فلما أتموا قال لهم السلطان: أفى هذا الصدد جئتم؟ قالوا نعم، قال قد سمعنا وعصينا، انصرفوا عنى، وإن خاطبتمونى فى شيء من هذا الأمر بعد هذا جازيتكم بما تستحقونه، فقام العلماء من مجلسه مغضبين وتمادى هو على تلك الأفعال وبلغ خبره الى السلطان صابون فقال: حسبه الله، ألم يكفه ذلك حتى أنه أباح ماحرم الله ورسوله، وهو أنه كانت له أخت متزوجة بأحد الوزراء فغضبت من زوجها لأمر حدث بينهما وجاءت شاكية لأخيها تريد أن يخاطب زوجها فى شأنها ويصالحها معه، فلما رآها حسنت فى عينه لأنها كانت من الجمال بمحل وكان هو سكران[5] أيضاً فتعلقت آماله بها وصبر الى الصباح، ولما أصبح دعا بزوجها ثم أمره

---

[1] سورة آل عمران، الآية ١٨٧.

[2] سورة الأنبياء، الآية ٤٧.

[3] الحديث (ياعبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا) أى إنى حرمت على نفسى الظلم وعلى عبادى فلا تظالموا، ينظر الأحاديث القدسية ١/٢٦٤ صحيح مسلم باب تحريم الظلم ج٤/١ وما بعدها- حديث صحيح

[4] نص الحديث "قال النبى صلى الله عليه وسلم: يقول الله تعالى يوم القيامة: " اناالملك الجبار لا أتجاوز عن ظلم ظالم ولو مثقال ذرة فإن تجاوزت عن ظلم ظالم فأنا ظالم".

[5] فى الأصل: وكان هو سكراناً.

بطلاقها فطلقها وأراد أن يصطفيها لنفسه فخاف أن يقوم عليه النكير، فجمع العلماء وسألهم عن مسوغ يبيح له نكاحها[1] فقالوا لامسوغ لك، وهذه حرمتها بنص القرآن، فجعل لمن يلتمس له مسوغاً مالا عظيماً، فقالوا لامسوغ فغضب عليهم ولخرجهم وكان أحد[2] العلماء الذين يميلون الى الشهوات غائباً عن ذلك المجلس، فلما بلغه الخبر جاء الى دار السلطان واستأذن ودخل عليه، فلما استقر به المجلس: قال بلغني خبر كذا وكذا، يعني قصة السلطان مع العلماء في شأن أخته، فقال له السلطان قد كان ذلك، وكلهم قالوا: لامسوغ فماذا تقول، قال، إن لك مسوغاً لذلك، قال له السلطان: (و) ماهو؟ قال: أماتعلم أن أباك كان متزوجاً بأكثر من أربع، قال نعم، قال ومازاد عن الأربع فهو حرام، وأولادهن أولاد زناً وماء الزاني لاحرمة له في مذهب الشافعي، فيسوغ حينئذ ان تتزوجها[3] ففرح السلطان فرحاً عظيماً وأجازه على ذلك بجائزة سنية وبلغ العلماء خبره، فأرسلوا للسلطان يقولون: إن ما أفتاك به فلان باطل لايحل في مذهبنا فقال لهم السلطان قد تقلدت مذهب الشافعي فأجابوه من اين لنا أن أم هذه (المرأة) من الزائدات على الأربع والتحرى في مثل هذه أولى، فلم يلتفت الى قولهم، ولاعبىء به بل عقد على أخته ودخل بها جهاراً.

وبعد ذلك بمدة كانت له إبنة متزوجة فجاءت من دار زوجها للسلام على أبيها فدخلت عليه وهو سكران فتعلقت آماله بها وأرسل خلف بعلها فأحضره وأمره بطلاقها فطلقها، لكنه خاف أن يسأل في شأنها أحداً من العلماء فصار يخلو

---

(1) يميل الكاتب احياناً الى اسلوب الاثارة من أجل تبرير أعمال السلطان صابون من الناحية الشرعية.

(2) في الاصل " وكان بعض العلماء."

(3) في هذه القضية وهي "زواج الأخ من اخته بنت الزنا ورد فيها " المخلوقة من ماء الرجل "زناه الزانية" عند الشافعية فقط لانها أجنبية عنه، اذ لايثبت لها توارث ولاغيره من أحكام النسب ولكن يكره له نكاحها خروجاً من الخلاف. نهاية المحتاج شرح المنهاج، الفقه الشافعي ٦/٢٧٢ فاذا كانت تحل الرجل الذي زنا بامها، فمن باب اولى تحل له على مذهب اليه الشافعية.

وقال بعض العلماء بتحريم ذلك أي تحريم نكاح المخلوقة من ماء الرجل الزاني بعموم الاية "... وبناتكم واخواتكم." فانها بنت فتدخل في العموم كما هو مذهب ابوحنيفة ومالك واحمد بن حنبل وقد حكي عن الشافعي شيء من اباحتها لانها ليست بنتاً شرعية فكما لم تدخل في قوله (يوصيكم الله في اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين) فانها لاترث بالاجماع فكذلك لاتدخل في هذه الاية: ينظر: تفسير ابن كثير ج١/٤٦٩ في تفسير سورة النساء.

بها ويراودها عن نفسها فتقول له أنت أبي كيف يسوغ لك أن تسألني في مثل هذا، فيقول لها أني أحبك، وأريد أن خيري لايكون لغيري فتفر منه، وداما على ذلك واختلف الناس في هذا الأمر فمنهم من يقول إنه تمكن منها ومنهم من يقول إنها لم ترض أن تمكنه من نفسها، وبلغ خبره السلطان صابون، فقال حسبه الله تعالى، اذا أراد الله بأمر هيأ أسبابه، واذا أراد بقوم سوءً فلا مرد له، وهذه الأفعال الصادرة من هذا السلطان هي مصداق قوله تعالى "واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا"[1] ولما أراد الله هلاك هذا السلطان على يد السلطان صابون قيض له وزراء سوءٍ فدخلوا عليه وقالوا له: يامولانا إننا أفقرنا البلاد وأفنينا العباد من الظلم والجور، وكان الأليق ألا نتعرض لرعايا، بل نتعرض لغيرهم من رعايا غيرنا من الملوك، فقال لهم: وهل تعلمون أحداً من الملوك رعاياه أغنى من رعايانا أو قريب منا؟ فقالوا نعم، رعايا الوداي بقربنا، وهم[2] اصحاب ابل وغنم وبقر ورقيق وفضة، فقال: أغزوها وهاتوا كلما قدرتم عليه من الاموال فقام احد الوزراء المسمي بالفشا[3] وهو عندهم كناية عن الأب شيخ في دارفور وقال: يأذن لي مولاي ان أتوجه الي رعية وداي ثم بعدي يتوجه من يتوجه، فأذن له السلطان في ذلك، فركب في خيله ورجله، واقتحم بلاد وداي، على حين غفلة فقتل وسبى وغنم أموالاً عظيمة، ورجع مسروراً بما تحصل عليه فلما رأى السلطان ماأحضره[4] الفشا من الأموال أعجبه ذلك وقال: لايتوجه غيرك، وأمره أن يتوجه[5] الي الوداي ثانياً وأن يتوغل فيها فمكث نحو خمسة عشر يوماً وكر راجعاً، فغنم أكثر مما غنمه في المرة الأولى وحصل بينه وبين أصحاب الاموال مقاتلة فقتلوا[6] منهم أناساً ورجع ملآن اليد، وذهب الناس الى

---

(1) سورة الاسراء، الآية ١٦.

(2) في الأصل : "... وهي اصحاب..."

(3) يذكر المؤلف ان الفشا بوازية الوشيخ في سلطنة دارفور وهو كناية رئيس الوزراء .

(4) في الأصل "ماحابه الفشا."

(5) في الأصل "ان يتوجه على..."

(6) في الأصل " وقتلوا منهم."

السلطان صابون فشكوا له ماحصل لهم من الفشا وما أخذ منهم من الأموال، فتعجب من ذلك وقال: كيف يغزونا ولسنا له بأعداء ونحن مسلمون وهم مسلمون، إنّ هذا لشيء عجاب ثم إنه كتب الى سلطان الباقرمي يقول له:بعد السلام، أما بعد فإن الفشا قد اقتحم بلادي وأخذ أموال رعاياي وهتك حرمتي وسبى وغنم، وهذا شيء لم نعهده ولايحل في شرع من الشرائع، فاذا أتاك كتابي هذا فأمره برد الأموال الى أربابها وإياك أن ترسله ثانياً، وأرسله اليه صحبة هدية، فلما وصله الرسول لم يكن منه إلا أن حبس الرسول ولم يرد له جواباً، وبعد ذلك بأيام جاء الناس الى السلطان صابون يشكون له ماحل بهم من الفشا، وقد نهب أموالهم وسبى عيالهم وقتل رجالهم، فاغتاظ السلطان صابون لذلك، وترقب الرسول أن يعود اليه فعاد[1] فأرسل له رسولا آخر بكتاب من عنده يقول فيه: أما بعد فقد كنا أرسلنا اليكم كتاباً قبل هذا صحبه رسولنا فذكرتكم فيه ماحصل من الفشا من الظلم ونهب الأموال ونلتمس منكم رد ما أخذه الفشا لأنه مال مسلمين لا يحل لامريء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يأكل منه شيئاً وبينما نحن[2] في انتظار الرسول ورد الجواب إذ جاءتنا الرعايا بحالة تسيء الصديق وتسر العدو وشكوا إلينا أن الفشا أغار عليهم ثانية ولم يترك في مراحهم صارخة ولا صاهلة، وقد عسر علينا هذا الأمر، فاذا أتاك كتابي هذا فرد علينا ما اخذه عاملك وإلا رددناه كرهاً.. والسلام

فلما قرأ سلطان باقرمة كتاب السلطان ضحك وقال: كيف يطمع صابون في استرداد مال أخذته من أصحابه[3] ؟ هذا لايكون أبداً ثم انه أرسل الى السلطان صابون أحد الرسل بكتاب يقول فيه:– أمابعد... فقد وصلني كتابك الأول والثاني، وفهمنا ماتضمنا، والسلام. فلما قرأ السلطان صابون[4] الكتاب هاج غضبه وتزايد لهيبه وحلف إنه لايرجع إلا بعد اقتحامه دار باقرمة، وإما له أو عليه، ثم دعا

---

[1] في الأصل "... فأعاد..."

[2] هذه العبارة " وبينما نحن في انتظار الرسول" تدل على أن المؤلف كان يكتب عن راو يروي له هذه القصة، وفي الغالب يكون والده الذي كان وزيراً في حكومة السلطان صابون.

[3] في الأصل " كيف يطمع صابون أن اخذ مالا وارده...."

[4] في الأصل "... فلما قرأ الكتاب السلطان صابون..."

القاضي[1] ووالدي واستشارهما في أمر سلطان بالرمة وتحليله لمحارم الله عز وجل، وذكر لهما كيف تزوج بأخته وماشاع عنه بأمر ابنته فقالا (له) إن صح هذا عنه فقد حل قتاله، ثم ذكر لهما قصة نهبه لأموال الرعايا بلا سابقة بينهما فاستكتمهما الخبر و(عندما) أصبح دعا بالكماكلة وقال لهم: إني ضيق الصدر مشغول البال، مبلبل البلبال، قد سئمت نفسي المقام في هذه الدار، وأريد أن أتوجه الى دار جدي السلطان جوده، وكان السلطان جوده قد اتخذ داراً بعيدة عن داره بنحو ثمان ساعات فاركبوا بنا الى هناك فقالوا: سمعاً وطاعة، فأمر السلطان بخيوله فاسرجت وبثقله فحمل وأمر قائد العرب أن يُحضر إبلاً كثيرة فأحضر ماكان عنده، وأرسل في طلب الباقي، وضرب السلطان الطبل وخرج في جيشه ولم يزل[2] سائراً حتى وصل الى[3] دار جده فأقام بها ثلاثا ثم أصبح راحلاً فظن الوزراء والعساكر أنه يريد الرجوع الى دار ملكه، فما كان منه إلا أن وجه جواده الي جهة الجنوب، وسار، فلم يكن لهم بد من أن يتبعوه، فتبعوه وهم لا يدرون أين يتوجه، فتقدم اليه أحدهم وقال: أيد الله مولانا، الي أين القوم؟ قال: الي دار جدي عروس، وكان جده السلطان عروس قد اتخذ داراً بينه وبين داره، مسافة يومين، ولم يمكث بها إلا أياماً قلائل، فلم يزل سائراً حتي نزل بها وأقام (فيها) ثلاثة أيام أيضاً، ثم أصبح مرتحلاً الي جهة الجنوب، فسأله بعض الوزراء،(قائلين): الي أين يتوجه مولانا؟ فقال: أريد أن أتجول في مملكتي وأنظر أحوال رعيتي، وإياكم أن

---

[1] في الأصل "... ثم دعا بالقاضي."

[2] في الأصل "... ومازال سائرة..."

[3] في الأصل " حتى وصل الدار..."

تسألوني بعدها، فأمسكوا، وسافر يومه ذاك[1] حتي أمسى، ثم[2] نزل، وأصبح راحلاً يجد السير حتي أمسي ثم نزل[3]، ومشي بهم علي تلك الحال سبعة أيام، وفي اليوم الثامن أصبح مقيماً، ودعا بأكابر دولته ووزرائه وأجناده وقال لهم: إعلموا أني متوجه الي باقرمة، واني مقيم هنا سبعة أيام تستعدون فيها، فمن لم يأت معه عسكره فليرسل، ومن لم يكن معه ابل فليأت بأبله، ومن كان ناقص خيل او سلاح فليتمم، واني بعد ذلك متوجه الي باقرمة، فقالوا: سمعاً وطاعة ثم خرجوا من عنده وتفاوضوا في الأمر،وعظموه وقالوا كيف يخرج بنا غير مستعدين ويأتي الي هنا[4] ثم يقول لنا استعدوا، كيف نستعد من هنا في سبعة أيام، مع أنه لو أقام هنا شهراً كاملاً لما أمكننا[5] الاستعداد، مع أن أعدائنا أقوياء كثيرى[6] الجند، خيلاً ورجلاً، واذا لم نستعد لهم غاية الاستعداد لا يمكننا التوجه اليهم، وإذا توجهنا اليهم علي هذه الحالة لأفنونا وقتلوا سلطاننا، وبقي مثلة بين القبائل، وهذه ليست من أحوال الملوك، فمن منا يراجعه في ذلك ويرده الي داره حتي نستعد ونتهيأ للحرب، فقام الرسول الذي أرسله من قبل الي دار باقرمه من طرف السلطان صابون وقال: أنا أرده الي داره،{ولكن ماذا تدفعون لي إن رددته[7] }؟ فقالوا لك علينا مائه رأس من عتاق الخيل، ومائة عبد، ومائة من الأبل، فرضي وأخذ عليهم وثيقة بذلك، ولما كان المساء دخل علي السلطان وانتظر حتي خلا المجلس، ودنا من السلطان وقال: أيد الله مولانا، ماهذه الفعلة التي فعلتها؟ قال: وما هي؟ قال: إنك خرجت بالناس علي غير أهبة، تريد أن تقتحم به داراً ملآنة بالفرسان

---

(1) في الأصل "وسافر يومذاك..."

(2) في الأصل" ونزل.."

(3) في الأصل "ونزل.."

(4) في الأصل " الي ما هنا.."

(5) في الأصل " أقام شهراً كاملاً ما أمكننا.."

(6) في الأصل " كثيرون الجند.." وهو خطأ نحوي ويعرف لغوياً بلغة أكلوني البراغيث.

(7) في الأصل " وإذا أنا رددته فماذا لي.."

والرجالة، أقوام أشداء أقوياء لا يخطر لهم الموت علي بال[1] ، فانك تريد اتلاف عساكرك، وتمزيق جمعهم، علي أننا لو دخلنا دارهم بهذه[2] الحالة، وقابلنا[3] أحد وزرائهم كالفشا، لما قدرنا[4] علي قتاله، فقال له السلطان: أحق ما تقول؟فقال: إي والله، فقال السلطان: إذن نسعي[5] بحيث نرجع في الغد إن شاء الله، ولا نلقي بأنفسنا الي التهلكة، فخرج الرسول من عنده فرحاً بمقاله، ظاناً أنه ثبطه، وبشر الناس بذلك، فبات المعسكر في سرور عظيم ولما جاء الصباح ضرب السلطان طبول الرحيل بعد أن كان ناويا على الإقامة ولما قُدّم له جواده وركب دعا الرجل المذكور فحضر فلما مثُل بين يديه قال: إني أريد ان أبقيك ها هنا، ولا أريد أن تكون معي في هذه السفرة، لأنك رجل جبان كما أخفتني البارحة (تريد أن) تفسد قلوبهم ثم أمر بالقبض عليه فقبض (ثم) نظر الى شجرة هناك وقال[6] : قيدوه في أصل هذه الشجرة فقيدوه وجعلوا الشجرة بين ساقيه وأمر أن يمكث معه من يطعمه ويسقيه حتي يرجع وجعل عليه حرساً وتوجه، وحين رأى[7] الناس منه ذلك أرسل كل منهم الي وكيله أن يجهز له ما أراد وسافر السلطان يومه ذاك، ونزل عند المساء وبات، ولما أصبح أمر بالرحيل وبعد أن كان متوجهاً جهة الجنوب توجه الي جهة المغرب، وهي جهة دار باقرمه، وسافر يومه أجمع وبات عند المساء، وأقام هناك سبعة أيام، ومن يوم خروجه من واره{كانت} والعساكر تلاحقه وتكثر جنوده، والعالم يزداد {حوله}حتي صار في جيش يملأ السهل والوعر، هذا مع عدم الاستعداد، أما لو أخذ{الناس} واستعدوا للسفر لكان الجيش لا يعرف أوله من آخره، لكن عساكر الوداي وملوكهم كانوا خائفين من

---

(1) يريد أن يقول بأنهم لا يبالون بالموت لشجاعتهم .

(2) في الأصل: مع هذه الحالة.

(3) في الأصل: "وقابل احد وزرائهم كالفشا"

(4) في الأصل " ماقدرنا..."

(5) في الأصل " اذن سعيا بحث ان شاء الله نرجع في غد..."

(6) في الاقل "... فقال.."

(7) في الأصل: " وحين رأت الناس" .

باقرمه، لما سمعوا من قوتهم وكثرتهم، فكان كل منهم خائفاً على نفسه، وقطع لذته مما كان فيه من نعيم، فاجتمعوا ثانياً وتفاوضوا في ذلك، وقالوا: كيف يغلبنا الرجل وحده، السنا برجال، كيف لا نقدر على رده، فقام ابن عمة السلطان، وكان يسمي الكامكلاك كدرمي وقال: عليّ أن أتحيل عليه حتي يرجع بكم الي واره، ويمكث فيها أربعة أشهر، ثم إذا أراد أن يرتحل لا يمكنني أن أعارضه، فقالوا له إن قدرت علي إرجاعه الي واره ليمكث فيها ولو شهراً فلك علينا[1] جميع ماذكرناه لفلان، يعنون الرسول الذي حبسه السلطان، وبعد ذلك ندبر الأمر مانوي، فقال لهم عليّ(القيام) بذلك فظنوا أنهم بلغوا مأمولهم، لكون كدرمي المذكور من ذوي قرابته، وكان في غاية الحظوة والقبول عنده، بحيث كانت له كلمة لا ترد، وبينه وبين السلطان محبة عظيمة، فدخل الكامكلاك كدرمي علي السلطان وقال: يا سيدي وسيد أبي أنت تعلم حبي فيك ونصحي لك، وأنت عندي خير من الدنيا وما فيها، وما يسوؤك يسوؤني، فقال له السلطان أعلم ذلك فقال: يا سيدي إني لك ناصح وعليك مشفق، وأريد أن أقول لك كلمة إن قبلتها مني كانت هي عين الفوز والنجاح، فقال له السلطان: قل فإنك عندي لست بالدون، فقال: يا مولاي إنا خرجنا علي غير أهبة،وأعداؤنا في غاية القوة والكثرة، ونخشي علي أنفسنا وعليك إن نحن توجهنا اليهم علي هذه الحالة، فقال له السلطان: وما نجني حينئذ وقد خرجنا وقربنا من بلاد العدو، فقال يا مولاي: لا أريد من تفضلاتك إلا الرجوع[2] بنا الي واره، ونمكث فيها شهراً ثم نخرج في عدة وعتاد[3] {حتي} نقاتل عدوك وأنت في غاية القوة، ونرجو بسعادة مولانا أن ينصرنا الله عليهم، فقال له السلطان قد سمعت قولك وعرفته نصحاً، وسأرجع في غد إن شاء الله تعالي، وبات الأمر علي ذلك، ولما أصبح الصباح ضربت طبول الرحيل، وركب السلطان، وكان

---

[1] في الأصل: "فلك علي".

[2] في الأصل: "إلا ترجع".

[3] في الأصل: "في عدة وعديد".

الكامكلاك كدرمي أشاع أن السلطان راجع في[1] الغد، فبات العساكر في غاية من الفرح والسرور، وحين ركب السلطان توجه أصحاب الأعلام تجـــاه وارة، ورأي السلطان ذلك، فعرف أنه من إشاعة كدرمي، فدعا باحضاره، فلما حضـــــر قـــال لكبار {القواد} خذوه[2]، فقبضوا عليه وأجلسوه للقتل فلما رآه أرباب الدّولة ندموا، وجاءوا بأجمعهم ووقفوا أمام السلطان يقبلون الأرض، متشفعين فيه، فلم يقبل منهم شفاعة، فجاءوا الي والدي وسألوه في ذلك، فتوجه الي السلطان، وشفع عنده فـــي كدرمي فشفعه السلطان لكن قال له: خذه {بعيداً} عنا فلا يتوجه معنا، ولـــيرجع[3] الي وارة، لأنه يحب المكث فيها، ولذلك يحب رجوعي اليها، فأنا أرده اليها، فقال له والدي تمم إحسانك وأنعم عليه بالذهاب معك كما كان، وقد تاب الي الله ورسوله ألا يعود لمثلها ففعل، وسافر من وقته ذاك، ودخل في الخلاء الكائن بين باقرمـــه ووداي، وهو خلاء عظيم كله[4] إجام[5] شائك الأشجار ضخمها، وإجامــه مـــأوي للسباع والفيلة والكركدن المسمي عندهم بأبي قرن وفي مصر بالخرتيت، وكـــان السلطان قد رتب لقطع الأشجار وإزالة الأحجار من الطريق وتمهيدها عقيديـــن مع كل عقيد أربعة آلاف عبد يمشون أمام الجيش بنحو ساعة،{يحملون في} أيديهم الفؤوس والبلط يقطعون الأشجار ويمهدون الطرق، فسار السلطان والجيش وسار العبيد أمامه كما هي العادة، وبينما العبيد يقطعون في الأشجار، وكانوا في غيضة مشتبكة، إذ خرج عليهم كركدن عظيم، وهاج فيهم، وقتل منهم أناســـاً، فانـــهزموا منه، وأوقع الله الرعب في قلوبهم، فلم يلو أحد منهم علي آخر، ثم الذين بعدهـــم.. هكذا، وتوقف الجيش عن التقدم الي الأمام، حتي أدي الأمر لوقـــوف الســـلطان، وحين[6] رأي السلطان أن الجيش متوقف عن السير سأل عن الخبر، فقالوا له قـــد

---

[1] في الأصل: " أن السلطان في غد راجع ".
[2] في الأصل: " تأخذوه .. ".
[3] في الأصل: " فليرجع ".
[4] في الأصل: " كلها ... ".
[5] إجام: الآجام: جمع أجمة، الشجر الكثيف الملتف.
[6] في الأصل: " وحينما .. ".

خرج علي الجيش كركدن وهاج فيهم، والناس يريدون قتله، وهذا سبب الوقوف وبينما السلطان واقف فر الناس من أمامه[1] .. ولم يبق معه إلا القليل فتأمل السلطان واذا بالكركدن قد أقبل نحوه، فقال السلطان لمن حوله: ألا رجل يخرج ويريحنا من هذا الكلب، وكان له عبد يقال له أجمعين، طويل[2] القامة حسن الخلقة، ليس بالغليظ ولا بالرقيق، وكان معه درقة وحراب، فرمي الحراب وخرج بالدرقة والسكين، وهذه السكين من طولها تكاد تكون[3] سيفاً، وهكذا سكاكين الوداي التي يلبسونها في أيديهم، فأصلت السكين في يده اليمني، والدرقة في اليسري، وقصد الوحش، فلما قرب منه رآه الوحش وقصده أيضاً، فتثبت له أجمعين حتي جاءه وأراد أن يطعنه بقرنه فاستلقي أجمعين علي الأرض والسكين في يده، فهجم[4] الوحش عليه، فضربه أجمعين بالسكين فعقره،(ثم نهض مسرعاً نحو حرابه) فأخذها ورجع الي الوحش وطعنه بكبراهنّ في لبته فأثبته، وحين رأي الجيش ذلك أقبل منهم أناس علي الكركدن يطعنونه بحرابهم وما علموا أن الأمر غير محتاج اليهم، وكان ذلك كله علي[5] مرأي من السلطان، فلما علم السلطان أن الكركدن قد هلك سار وسار الجيش، وأمر السلطان أن يُجَرّ شلو الكركدن فجرّ، وما زالوا يجرونه حتي خلص السلطان والجيش[6] من الوعر، فساروا في محل سهل رحب، فوقف السلطان واستوقف الجيش، وأمر باحضار القواد الذين كانوا أمام الجيش فحضروا كلهم بين يديه، ونادي بالكبرتو والتراقنة فوقفوا خلف الناس، فقال السلطان للقواد ومن حضر[7] (من الناس): يا أهل وداي، أين شجاعتكم ومدافعتكم لعدوكم، قد ذهبت والله في هذا اليوم، ولم يبق منها شيء،

---

(1) في الأصل: " فرت الناس من أمامه ومن بين يديه .." .
(2) في الأصل: " وهذا العبد طويل القامة " .
(3) في الأصل: " تكاد أن تكون سيفاً " .
(4) في الأصل: " فثبت الوحش عليه .." .
(5) في الأصل: " مرأي .." .
(6) في الأصل: " خلص السلطان بالجيش ..." .
(7) في الأصل: " ومن حضره... " .

وإذا كنتم تفعلون هكذا أمام وحش لا سلاح معه ولا عقل ولا تدبير له، فكيـــف اذا صرتم أمام عدوكم، وجاءكم[1] بخيله ورجله وسيفه وترســــه، وحـــاولكم وطلـــب غرتكم أكنتم مسلميّ له؟ فقالوا: لا، قال: لا بد أن تسلموني له وتنجون بأنفســـكم، والدليل على ذلك أنكم نجوتم بأنفسكم أمام الوحش فأمام العـــدو أولـــي وأحـــري، وحينئذ أنتم منافقون غادرون، والأن من حيث أنكم[2] تضمرون الجبن في{أنفسكم} كنتم تنذروني لأكون علي بصيرة من أمري، وأنا الآن لا آمن أن أكون معكم، ولا أن ألقي بكم عدواً، ثم قال: أين الكبرتو؟ فقالوا[3] لبيك، فقال لهم: خذوا فلاناً وفلاناً يعني القواد الذين كانوا سائرين أمام الجيش، وكذلك قواد العبيديه، وكان فيهم قائد العرب{الذين} يسمون الجماعته[4] ، فأخذهم الكبرتو أخذة رابيه، وقتلوهم في تلـــك الساعة، ثم دعا بأجمعين الذي قتل الوحش، وكان من جملة الحجاب، وجعله عقيد الجماعته، وهو منصب جليل يركب مع قائده أكثر من الفي فارس، ويصحبه مثلهم من الرجل، وصاحب هذا المنصب يسمي عقيد الجماعته، والجماعته عـــرب مـــن عربان البادية أصحاب بقر، وهم في الرفاهية ووسع الحال كالعرب الرزيقات في دار فور، إلا أن قائدهم في دار فور لا يقدر أن يأخذ كرائم أموالهم إلا برضائهم[5] ، بخلاف{ذلك} في دار وداي فإنه {أي القائد} يأخذ منهم ما أراد، وقائد الرزيقـــات في دار فور كالرسول فقط، أعني أنه يعطي جميع مايتحصل معـــه مـــن المـــال للسلطان، ولا يأخذ[6] لنفسه منه إلا مقداراً يسيراً، بخلاف عقيد الجماعته فـــي دار وداي فإنه يأخذ من المتحصل مقداراً عظيماً كما يأخذ السلطان، لأن مأكله وملبسه وخيله ومعاش رجاله كله منه، {ثم قام السلطان بإجراء آخر} بأن ولي عبـــداً مـــن

---

(1) في الأصل: " وجاكم .. " .

(2) في الأصل: " والأمن حيث انكم تعلمون الجبن من أنفسكم.. " .

(3) في الأصل: " فقال لبيك" والصواب فقالوا، لأنهم جمع.

(4) الجماعته أو الجماعية: كما أورده الكاتب بأنهم من القبائل العربية التي كانت تحت حكم وداي، ولهم منصب في الدولة بولاء العقيد، وهو الملاكيه ويوازي منصب المقدوم في دار فور.

(5) في الأصل: " إلا برضاهم .. " .

(6) في الأصل: " ولم يأخذ .. " .

عبيده أيضاً يقال له الله جابو{ولاه منصب} عقيد الصباح، وهو في عرف أهل مصر حاكم الشرقية، وفي عرف دار فور كالمقدوم، إلا أن أهل دار فور ليس عندهم هذا المنصب، لأن الأقاليم الشرقية في دار فور كلها عرب باديه طوائف متعددة، ولكل طائفة حاكم، وإن نزل عليهم حاكم عمومي يسمي المقدوم { فنصب الله جابو} عقيداً {عوضاً عن عقيد الصباح العربي سابق الذكر} ثم زاد السلطان{من عطاء العبيدية} وعوضهم عن جميع من[1] قتلوا، وأمر بدفن القتلي، وحذر باقي الوزراء والأجناد من مثل هذا، خصوصاً من ولاهم في تلك الساعة، وقال لهم: كل من فر من حرب شيء ليس له جزاء عندي إلا هذا، يعني القتل، فأذعنوا له بالسمع والطاعة، ورضوا أن كل من فر منهم يكون جزاؤه القتل، وعاهدوه علي ذلك، ولم تنفر نفوسهم من هذا الفعل، لأنهم يعتقدون أن طاعة السلطان طاعة لله ورسوله، وأن مخالفته يكفر، وعندهم تعظيم السلطان أمر واجب كالعبادات بل ربما تهاونوا بالعبادة ولم يتهاونوا بأمر السلطان[2]، ولذلك لا تقام دعوي ولا خصومة، سواء كان في بيت القاضي أم في بيت غيره من الحكام إلا بعد قراءة الفاتحة للسلطان والدعاء له بالنصر علي أعداءه، وحفظه من جميع الآفات، ومن أعجب ما أتفق أن في أيام السلطان محمد جوده جد السلطان محمد صابون خرجت إحدي نساء قواد السلطان لحاجة، فرأت السلطان في موكبه وأبهته، وقد خطه الشيب، فلما رجعت الي سكنها، واجتمعت ببعلها بالليل، حدثته أنها رأت موكب السلطان، وانها رأت السلطان وكان من جملة ما قالته له أن الموكب جميل والسلطان جميل لولا أن الشيب لعب بعارضيه، فليت له عمراً جديداً، فلما سمع منها ذلك، قام عليها وضربها ضرباً مؤلماً قائلاً لها: أتقولين أن الشيب لعب بعارضي سيدنا، ليسمعك بعض الأعداء فيحتقره ويقول أنه صار لا يقدر علي الحرب، وبعد أن أوجعها ضرباً شد وثاقها وتركها كذلك الي الصباح،

---

[1] في الأصل: " عن جميع ما قتلوا ... ".

[2] صيغة الولاء للسلطان هي عامة في عالمنا العربي والإسلامي، وليس حكراً على دولة أو شعب دون آخر.

ثم توجه الى السلطان وأعلمه بالقصة، وختم قوله بأن قال: أني[1] تركتها مكتوفة فمرني فيها بأمر، فشكره السلطان على ذلك، وخلع عليه، وأمر باطلاقها لكونها جريمة، وانه بتوبتها أن لاتعود لمثل ذلك فعل، وهذا الأمر وان كان على غير مراد السلطان إلا أنهم[2] يجب ان يغالوا في مدحه كل المغالاة ويشتغل بعضهم ببعض ليسلم هو، والا لوتركوا ذلك لانقلبوا على السلطان وقتلوه.

فائدة:-

جميع أهل الوداي يعتقدون أن كل من تولى السلطنة عليهم يكون ولياً وان لم يكن ولياً قبل ذلك، بل وإن كان قبل ذلك فاسقاً، وأصل ذلك ماروى عن غير واحد أن السلطان محمد عروس كان (قد) منع جميع الناس أن يذكروا اسمه على ألسنتهم[3] في حضر ولاسفر، وبث لمعرفة ذلك عجائز وأولاد أو شباناً يتجسسون على الناس و (أن) من سمعوه ذكر السلطان على لسانه أخبروه به[4] فيقول له السلطان: ألم أنهك عن ذكر اسمي؟ فيقول نعم، فيقول له: إنك قد ذكرته البارحة في الوقت الفلاني مع فلان وفلان، وظننت اني لا أعلم بك فيصفر وجه الرجل فيقول: تبت الى الله، فاتفق أن رجلاً من القواد صعد على جبل ودخل مغارة فيه مخافة أن يسمعه أحد، وقال فيه بصوت خفي: السلطان عروس، السلطان عروس، السلطان عروس، وظن أنه لم يسمعه أحد، وكان بأمر القدر أن رجلاً من الجواسيس رآه وهو صاعد الجبل، فتتبعه[5] من بعيد بحيث لايراه حتى دخل في المغارة فصغى اليه[6] حتى سمع ذكر السلطان ثلاثاً، وأخفى نفسه حتى نزل الذاكر فتوجه الجاسوس وأخبر السلطان بخبره فأرسل وراءه، فلما مثل بين يديه

---

[1] في الأصل : اني قد تركتها...."

[2] في الأصل "وان كان على غير مراد السلطان الا ان السلطان يجب.."

[3] في الأصل ".. على لسانهم.."

[4] في الأصل "... اخبروا به السلطان فيقول له السلطان.."

[5] في الأصل ".. فتبعه.."

[6] في الأصل "... فصغى له.."

قال له: ألم أنهكم عن ذكر إسمي قال له نعم، قال له السلطان ولِمَ خالفتني وذكرت اسمي، قال لا لم أخالفك ولم أذكر اسم مولانا في شيء، فقال أتحلف أنك ماذكرت إسمي أبداً، قال أحلف، قال له كيف تحلف يا كاذب، وأنت البارحة توجهت الى الجبل الفلاني ودخلت الغار الذى (فيه[1]) وذكرتني ثلاثاً فَبُهِتَ الرجل، وانتقع لونه، وقال فعلت ذلك ولا أظن أن سيدنا وَلِيٌ وصاحب مكاشفة حتى يطلع على أمري، فقام أهل المجلس ولعنوه، وقالوا: كيف تشك في ولاية مولانا، إعلم أنه لايتولى علينا سلطان الا أن يصير ولياً. (ثم قال له السلطان) قد عفوت عنك هذه المرة وإن عدت الى مثلها قتلتك فخرج الرجل وهو يقول: سيدنا ولي، فسمع بهذه القصة الغوغاء من الناس فاعتقدوا أن السلطان ولي أهـ.

ثم ان السلطان سافر من وقته الى دار باقرمة حتى دخلها ولما صار في إيالة باقرمة امتنع عن التعرض لأهل الضياع والقرى، بل كلما حاذى ضيعة أو قرية أرسل الى علمائها ورؤسائها فحضروا بين يديه فيلين لهم الخطاب، ويحسن اليهم واذا اتى معبداً او محل ولي معتقد تصدق فيه، وأحسن الى خدمه وكف أيدي العساكر عن ظلم الرعايا ما أمكن، فبسط الرعايا أيديهم بالدعاء له والنصر على عدوه، وسار ولم يلق كيداً الى أن بقي بينه وبين برني باقرمة (أي عاصمة باقرمة) سوى مسافة أربع ساعات فبات هناك وبعد العشاء دعا بقواد العبيدية وقال لهم: إني غير محتاج لكم في الغد، لأن الأرض الان سهلة لاشجر ولاحجر، فاذا سمعتم طبل التحميل ضُرِبَ تسيروا (وتستعدوا للحرب) وأرجو ان تكفوني شر الأعداء (لوحدكم[2]) ثم دعا بقائد الشرقية المسمى عقيد الصباح[3] وقال له: كم معك من الخيل؟ قال عشرة آلاف، قال قد أمرت العبيدية أن يتوجهوا وقت ضرب طبل التحميل، فلتكن أنت بعساكرك خلفهم، ولاتتخلف عنهم وأرجو عند مجيئي

---

[1] في الأصل "... ودخلت الغار الذي هناك..."

[2] في الأصل "... وأرجو ان تكفون شر الاعداء ولاتحتاجون الى غيركم."

[3] في الأصل "... المسمى بعقيد الصباح."

اليكم[1] أجد الأمر قد تم ما أحببت، فقال سمعاً وطاعة، ثم دعا بأجمعين عقيد الجماينة وقال له: كم معك من الخيل قال: معي نحو الثلاثة آلاف، قال إني أمرت عقيد الصباح أن يتوجه خلف العبيدية بجيشه وقت ضرب طبل التحميل، وكن أنت خلفه واعلم أني إذا أتيت ووجدتكم لم تفرغوا مما أنتم فيه قتلتكم، ثم نادى بالكامكلاك كدرمي وقال له: كم معك من الخيل؟ فقال: معي نحو أربعة آلاف، قال: إعلم أنك أسأتني في الطريق، وإساءتك لم تبرح مؤثرة معي ولايمحيها من قلبي الافعل جميل، فأنا أريد أن تتوجه بأصحابك وقت ضرب طبل التحميل خلف جيش أجمعين وإن لم تفعل ماأنت أهل له[2] لاتنفعك شفاعة شافع قط، وإن أتيتكم ووجدت الأمر على غير ماأحب فلا تلوموا إلا أنفسكم، فقال: سمعاً وطاعة، وبات العسكر على تلك الحالة وأمر السلطان بضرب طبل التحميل قبل وقته بنحو ساعة فضرب، وسافر في ذلك الوقت كل من أذن له السلطان في السفر، فلما أصبح الصباح ركب السلطان في بقية العساكر وصار يمشي رويداً رويداً.

لقد أخبرني جاب الله عقيد الصباح حين كنت عنده، إنه لما توجه صحبة العساكر خلف العبيدية ووصلوا الى فاشر بالرمة وجدوا الفشا وكبر أولاد السلطان المسمى بشقمة معسكرين خارج الفاشر، وحين سمعوا بوصولنا ركبوا خيولهم، وكان معهما من العساكر ماينوف عن عشرين ألفاً من الخيل عدا الرجّل، فصدمتهم العبيدية صدمة منكرة وحالت عليهم خيلنا ورأوا من جماعتنا مالم يكن في حسبانهم فلم تكن الاساعة حتى انكسرت اجنحتهما وخرج شقمة يقاتل ويحرض الجيش على القتال، وكان شجاعاً فاتكاً وسمع بقية العساكر بضجة القتال فلحقوا بأصحابهم واجتمع منهم جيش عظيم ظننا أننا لاننفع معهم بشيء كل ذلك وامدادنا تتزايد، فلما لحقنا أجمعين بعساكره صاح صيحة واحدة وقال: وافرحاه سيظهر في

[1] في الاصل ".. وارجو ان انا جيتكم اجد الامر قد تم."

[2] في الاصل ".. ما انت اهله.."

هذه النهار الشجاع من الجبان وأكب رأسه في قربوص سرجه، وفعل[1] جماعتــه كفعله ودخل في الحرب وطعن فيهم طعنا أحر من الجمر، فلم يكن الاكلمحة بارق حتى تضعضع جيشهم، ولما وصل الكامكلاك كدرمي فعل كفعل أجمعين فرأوا أن المدد زاد عليهم، وكانوا أول مرة ظنوا أن الطليعة الأولى هى جيش الوداى فلمـــا رأوا الجيش يتزايد انكسرت قلوبهم وعلموا أنهم لاطاقة لهم بالقتال فولوا الأدبــار، وتبعهم عساكر الوداى يقتلون ويأسرون خصوصاً وهم لاسلطان لـــهم وأخـبرني جاب الله عقيد الصباح أن الباقرمة لما بلغهم الخبر أن السلطان صابون غازيـــهم دخلوا على سلطانهم وأخبروه فقال هذا كذب صراح، كيف يغزونا صابون مع قلة عساكره، وهو يخشانا دائماً فقالوا[2] قد سمعنا ذلك فقال لم تسمعوا شيئاً، وانمـــاهو كذب اختلقتموه، فحلفوا له أيماناً مغلظة فلم يصدقهم وقال: إنما أردتم ازعاجي بهذا الكلام، ترومون خروجي من مملكتي حتى[3] تفعلوا ماتريدون فسكتوا عنه، فلمـــا قرب السلطان صابون من ايالتهم دخل عليه الفشا وقال له: ما (سبب) قعـــودك[4] وقد جاءنا[5] سلطان الوداى صابون طالباً لقتالنا ونهب أموالنا فقال لـــه السلطان اكلكم كرهتموني حتى انت ايضاً، وكنت واثقاً بك، والان لا اثق باحد منكم وجاءت

---

[1] في الأصل "... وفعله.."

[2] في الأصل "... فقالوا لا قد سمعنا.."

[3] في الأصل "... حتى انكم تفعلون.."

[4] في الأصل "...مقعودك.."

[5] في الأصل "... وقد جانا.."

القمصوا[١] وهي أكبر نساء السلطان كاياكري[٢] في دارفور والهبابة[٣] في دار وداي، ومسكت[٤] الفشا من أطواقه وقالت (له) ياعبد السوء أهكذا جزاء من رباك ونصبك في المنصب الجليل أتريد أن تغدر به وتخرجه من وطنه حتى أنكم تقتلونه[٥] بالوداي يا أكذب العالمين هل سبق ان سلطان الوداي غزانا من مدة مئين من السنين [٦] وكيف يغزونا وهو يتقي شرنا وخيلنا تجوس خلال داره في كل سنة مرة ومرتين وتنهب أمواله وهو يخشى سطوة الملك دائماً فقال الفشا: أما اذا وصل الأمر لهذا فاني والله لا أقول لكم بعدها كلمة، ولو جاء الوداي الى البرني، لكن لكم علي حقوق[٧] ويلزمني أن أؤدي حق العبودية، فها أنا خارج بجيش ومعسكر بظاهر الفاشر ومتى جاء العدو قاتلت (بقدر) طاقتي حتى أكون كافأت صنيعكم حتى إذا بليت بما لاطاقة لي به ذهبت على وجهي والسلام، فقالت القمصو ياعدو نفسه اتسحرنا بهذه الألفاظ وأنت فيك كفاءة لمقابلة العدو وحدك، ولاتحتاج لاعلام السلطان، انك غزوت الوداي في بلادهم مراراً والرجل الذي يقدر ان يغزو سلطاناً في مملكته كيف لايقدر أن يدفعه من بلده، وانما رأيتم أن تولوا شقة عليكم سلطاناً تريدون إخراج السلطان من داره، حتى إذا بقي بينكم

---

(١) القمصوا أو القمسو هو لقب الزوجة الأولى للسلطان وهو مأخوذ من نظام دولة الفونج حيث تتمتع القمصو بنفوذ كبير داخل القصر خاصة فيما يخص نساء السلطان وأولاده فهي بمثابة الرئيسة في ادارة شئون الاسرة المالكة ولديها اقطاعيات كبرى تخول لها مشروعيتها الادارية وتتصدى للمعضلات التي تطرأ داخل القصر والتي يمكن ان تشغل السلطان عن الأمور الهامة في الدولة.. ينظر: د.عبدالباقي محمد كبير: الدولة الاسلامية في غرب افريقية في القرن العاشر الهجري (١٦م) رسالة دكتوراة غير منشورة جامعة الأزهر جمهورية مصر العربية، ص ٢٦٦.

(٢) اياكري: لقب يطلق في دارفور على السيدة الأولى في القصر السلطاني، سواء كانت هذه السيدة أم السلطان أو أخته الكبرى، أو زوجة السلطان الأولى وهو يقابل لقب ملكة... ينظر تشحيذ الأذهان، ص ٩٣.

(٣) الهبابة: جرت عادة في وداي ان شيخ القبيلة اذا رأى بنتاً جميلة في بلاده ان يحضرها للسلطان لتقدم له هدية بعد بلوغها وهذه البنت المحجوزة يطلق عليها اسم "هبابة" وبالتالي يمنع التقرب منها أو خطبتها أو الزواج منها، فاذا قدمت للسلطان فان اعجبته اختارها وان لم تعجبه اعطاها لاحد رجال حاشيته، ويبدو أن لها نفوذاً كبيراً في القصر.

(٤) في الاصل ".. ومسكته.."

(٥) في الاصل ".. وتقتلون عليه بالوداي.."

(٦) حديث سلطانة الباقرمة هذا يدل على مدى ضعف دولة وداي قبل تولية السلطان صابون وليس أدل على ذلك من غزو الفشا لبلاد الوداي دون اكتراث لعواقب ذلك الغزو، وهذا كان غزو السلطان صابون ثم مهاجمة كبرى كما واضح من سياق الحديث.

(٧) في الاصل ".. لكن لنا ولكم عليّ حقوق.."

فعلتم به ماأردتم وأوليتم شقمة ورجعتم به سلطاناً، فخرج مغضباً وسمع شقمة بهذا الأمر فدخل على أبيه وقال له: يا أبت إن العدو قد جاء فاخرج بنا الى قتاله، فقال يا بني ماقدر أحد على إخراجي من داري أتريد أن تخرجني منها بهذه الحيلة مع أني أبوك ومانقصتك حقاً وقد صرفتك في كثير من الأمور وأنا حيّ فكيف ترضى لنفسك بهذه الفعلة الشنيعة، فتبرم شقمة وحلف له إن الأمر صحيح وأن الوداى قد أقبلوا في جيش عظيم لاقبل لأحد به فلم يصدق، وقامت القصمو ومسكته من لحيته وقالت له: عار عليك تخدع أباك وتريد قتله وماهذا جزاؤه منك ياعاق، فغضب منها وخرج مغضباً وقال: انا لله، ذهبت مملكة الباقرمة، ولما رأى الناس أن الكلام لاينفع مع السلطان أحمد منهم من فر ومنهم من بقي وعسكر الفشا وشقمة بظاهر الفاشر حتى جاء الجيش "واذا أراد الله بقوم سوءً فلا مرد له ومالهم من دونه من وال[1]" ولهذا لما اراد الله اهلاك سلطانهم طمس على بصيرته وجعل الران[2] على قلبه على حد قولهم، اذا اراد الله بأناس سوءً سلب أهل العقول عقولهم حتى ينفذ قضاءه فيهم، فقاتل الفشا وشقمة ومن حضر من العساكر وأبلوا بلاءً حسناً ومات من جماعتهم خلق كثير، وسمع أولاد السلطان فأتوا واصطلوا الحرب وقاتل كل منهم على حسب قدرته[3] وكان عسكر الباقرمة يظنون[4] ان عساكر الوداى قليلة، وأنهم قدموا لأول مرة[5] فرأوا بعد ذلك أن الجيش كثير والمدد يتزايد ورأوا قوماً الموت أحبّ اليهم من الحياة ففروا وولوا الأدبار، فلما انكشفوا تبعهم الوداى وأخذوهم قتلا وسبياً، فغنم الوداى غنيمة عظيمة ولم ينج من نجا من عساكر (الباقرمي) إلابرأس طمرة، ودخل الوداى الى مدينة باقرمة حتى وصلوا الى برنى السلطان وكان الأمر قد تحقق عند السلطان أحمد أن الوداى قد جاءوا وأراد أن

---

(1) سورة الرعد الآية ١١

(2) وجعل الران على قلبه... أي جعل الحلب والغزية على قلبه التباساً من قوله تعالى في شأن الكفار "كلا بل ران على قلوبهم ماكانوا يكسبون"

(3) في الاصل "..كل منهم على قدره منه.."

(4) في الاصل".. يظنوا."

(5) في الاصل "..وانهم هم الذين قدموا اول مرة فراوا.

يخرج الى القتال فمنعته القصصر والنساء، وقلن له: كيف تخرج لأقوام عبيدك أشد منهم بأساً، وانما يخرج الملك لمن يكون نظيره أو أعلى منه فسمع كلامهن، ومكث في البرني وبينما هو كذلك اذ سمع جلبة العساكر وبلعنات عساكره وقد انهزمت فصرخ في عبيده فأتوا فأمرهم بغلق الأبواب وأن يقعدوا فوق سور البرني فاجتمع له نحو اربعة الاف وقعدوا على السور بعد ان اغلقوا الأبواب ولما كسر العساكر القشا وشقمة وغيرهما أقبلوا نحو البرني يهرعون، فلما دنوا منه لم يرعهم الاوقع الحسام كالمطر، فمات منهم خلق واجفلوا ثم رجعوا، فوقعت عليهم السهام كمامر فوقفوا على ذلك مدة فمات منهم خلق كثير، وبينما هم على تلك الحالة إذ أقبل السلطان بالجيش العظيم، فانقلبت الدنيا من الجلبة وصهيل الخيل وصوت البندق والطبول حتى لايسمع السامع من يناديه وكأن السماء انقلبت على الأرض، ومن وقع حوافز الخيل وارتفاع الأصوات، ولازال (السلطان) سائراً حتى وقف على باب البرني (ثم) قال: أهكذا أوصيتكم ألم أقل لكم ان أتيت فوجدتكم[1] ما أتممتم أمراً فلاتلوموا الا أنفسكم فارتجفت قلوبهم وصرخ كل عقيد في جماعته، فأقبلوا من كل حدب ينسلون كانهم الى نصب يوفضون، ووقع عليهم النبل كالمطر ولم يبالوا به حتى وقفوا تحت الجدار وصار يركب بعضهم بعضاً حتى وصلوا[2] الى شرافات السور[3] (ونظراً) لكثرتهم لم يبالوا بمن فيه[4] من العبيد (ولابكثرة عتادهم) فلم يكن غير ساعة حتى امتلأ البرني بعساكر الوداي[5] ودار القتال بينهم وبين عساكر البرني لساعة ثم (انكشفت عساكر الباقرمة) وقُتِلَ منهم من قتل (ثم) فُتِحَ الباب واقتحم (عسكر الوداي) الدار وكانت ساعة يشيب لهولها الطفل الصغير وصاحت النساء والصبيان، وحينئذ ضربت الطبول وزعقت الأبواق[6] كل ذلك

---

(1) في الأصل "..ان ان أتيت فوجدتكم.."

(2) في الأصل "..حتى انهم وصلوا.."

(3) في الأصل ".. السورة بالصاه..."

(4) في الأصل ".. لم يبالوا كما معه.."

(5) في الأصل ".. حتى امتلا البرن من عساكر السلطان.."

(6) في الأصل ".. وزعقت البوقات.."

والسلطان صابون واقفا[1] على باب الدار وكان قد أمر العساكر ان كل من ظفر بالسلطان أحمد يأتي به حياً ولايقتله وكان السلطان صابون ينتظر أن يأتوا به فلم يأت به أحد، بل رأى العساكر راجعين بالفيء فسألهم أين السلطان فقالوا مارأيناه ولانعلم أين هو، فارتاب السلطان لذلك وظن أنه فر فأصابه القلق[2] لذلك لأنه لو فر وخرج خارج البرني ستجتمع (حوله) من جماعته عساكر عظيمة وتتجدد الحرب وتشب نار الفتنة ولايرتاح[3] السلطان صابون فاختار عددا من القواد[4] والفرسان وأمرهم أن يذهبوا كل مذهب ويلتمسونه في كل جهة، ومتى سمعوا به في جهة ما ان يطاردوه وألايرجعوا إلابعد القبض عليه، فكان كذلك ثم خرج السلطان صابون من المدينة وعسكر بظاهرها وهو كاشف البال، سيء الحال، لايقر له قرار، فدخل[5] عليه العلماء واشراف الناس يهنئونه بمايسر الله له من الظفر والفتح والنصر، فوجدوه على تلك الحالة فأنكروا حاله وتجاسر عليه بعضهم وقال له يامولانا هذا يوم السرور هذا يوم التهنئة فما لنا نرى مولانا عليه أثر القلق كأنه فاته شيء يعز عليه، فقال: ولم لايكون ذلك وقد فاتني مطلوبي، فقيل له ما الذي فاتك، فقال:ملك هذه البلدة لا أعلم أين ذهب أقُتِلَ في من قتل أم فر في من فر[6] فان كانت الأولى فقد راح واستراح، وإن تكن الثانية فقد تعب وأتعب فقال والدي: ان الاستقصاء في هذا الأمر لايعسر على مولانا فليرسل مولانا الآن جماعة من أبنائه يأتون بأهل الرجل المشكوك في موته فيجلسن في خيمة ثم يأمروا بحمل جميع الأموات الذين في البرني ويعرضوا[7] عليهن واحداً بعد واحد فمتى رأينه عرفنه، فان لم يعرفنه في الأموات يحق لمولانا حينئذ أن يرتاب،

[1] في الأصل "..والسلطان صابون واقف.."
[2] في الأصل "..والقلق لذلك...."
[3] في الأصل "..ولايحصل السلطان صابون راحة.."
[4] في الأصل "..فاركب عدة من القواد...."
[5] في الأصل "..فدخلت عليه العلماء....."
[6] في الأصل "..اقتل فيمن قتل أو فر فيمن فر.."
[7] في الأصل "..ويعرضهم عليهن.."

فارتاح السلطان لذلك، ودعا بالقائد أجمعين وأمره بذلك فذهب القائد أجمعين في الحال وأتى بنساء السلطان أحمد، وكان العساكر قد فعلوا بهن مافعلوا[1] من هتك الستر وانتهاك الحرمات[2] وتجريدهن من الملابس الثمينة، وذلك كان بغير اذن السلطان، وما (حدث) ذلك إلا من شغل بال السلطان صابون بأمر السلطان أحمد وعدم وجوده[3] ، وحين رأت العساكر أن السلطان صابون غير ملتفت لضبط الأموال وحفظ حريم المملكة، فعلوا مافعلوا، وجاء بهن أجمعين على غير صورتهن[4] المعروفة وتركهن على بعد، وجاء الى السلطان وأعلمه بماحصل لهن وأنهن عاريات، فأمر لهن السلطان بما يسترهن من الثياب الفاخرة، وكان كذلك فلبسن وجيىء بهن، ووضعن في قبة ضربت لهن قريباً من سرادق السلطان، وجيىء بالأموات وعرضوا[5] عليهن واحداً بعد واحد يتأملن فيهم ولم يفعلن شيئاً حتى عرضوا عليهن رجلاً مسناً رقيقاً نحيفاً، فلما رأينه صحن كلهن بصوت عال وترامين عليه يقبلن أقدامه ويديه، فعرف أنه هو السلطان فسئلن فقلن هو هو، فجيىء به الى السلطان فرآه وأمر بدفنه، وحينئذ حصل للسلطان سرور وراحة، وذهب ماكان بوجده[6] من القلق، ثم دعا بالقمصو فحضرت بين يديه، وسألها عن ابنة السلطان أحمد وأخته فعرفته اياهما فرآهما من الجمال بمكان، ثم سألها عن أموال السلطان أحمد أين هي؟ فأخبرته أنها كانت في البرني وقد نهبها العساكر، وفي ذلك الوقت جاء الخبر الى السلطان صابون ان العساكر رأوا في دار السلطان أحمد بيتاً مربعاً عليه باب من حديد فكسروا الباب بعد جهد فوجوده ملآن بالريالات الفرانساوية وأن العساكر الآن يتناهبونه ويقتتلون عليه فأرسل السلطان قائداً بعسكره لمنع النهب من بيت السلطان أحمد، وأن تضبط تلك الأموال للدولة

---

(1) في الأصل "..قد فعلت بهن مافعلت.."

(2) في الأصل ".. وانتهاك حرمة.."

(3) في الأصل ".. وعدم وجدانه.."

(4) في الأصل ".. على غير صورة...."

(5) في الأصل ".. فعرضوهم عليهن.."

(6) في الأصل "..وذهب ماكان عنده.."

وكان الأمر كذلك، وفى الحال جاء أهل المدينة من العلماء والأشـــراف ووجـوه الناس وهم حاثون التراب على رؤوسهم شاكين ماحصل لهم من نهب الأمـــوال وهتك الحرائر فغضب السلطان لانتهاك حرمة الله تعالى، وأمر مناديه أن ينـــادى فى المدينة أن كل من وجد داخلاً فى الدار ينهب منها أو يفعل فيها قبيحاً فلا يلومن الا نفسه، وأمر بالعساكر التراقنة، أن يأخذوا عساكرهم ويدخلوا[1] المدينة، وكـل من رأوه من العساكر يفعل فعلاً غير مرضى يقبضوا[2] عليه ويأتوا[3] بـــه الـى السلطان، فكان كذلك، فكفت[4] الأيدى عن النهب، أخبرني والدى عليـه سـحائب الرحمة والرضوان أن السلطان صابون أخذ بيده صبيحة يوم الفتح ودخـل معـه دارسلطان الباقرمة حتي وقف على البيت الذى قيل له ملآن بالريالات[5] وكان مع السلطان بعض خواصه، قال: فرأينا بيتاً مربعاً مساحته نحو عشريـن قدمـاً فـى مثلها، ملآن من جلود البقر المملوءة بالريات من جداره الى سقفه وكان عليه باب مصفح بالحديد ورأيناه ناقصاً نحو عشرة جلود، فأمر السلطان ببقر جلد منها فبقر، فاذا هى من الريالات المسماه بأبى مدفع، فأحصيت فاذا هى أربعـــة الاف، فعلـم السلطان أن الذى ضاع نحو أربعين ألفاً وأمر بنقل مابقى الى خزينته وعثر علـى أماكن كانت مملوءة بالثياب ونهبت وأماكن أخرى أعمى الله عنها اعينهم فبقيـت وتألم السلطان على فقد ذلك، وحكى لى الشريف سميح وكان حاضراً تلك الواقعة وهو رجل من الأشراف وذوى المعارف وهو من أهل البلدة المسماة بنمرو، وهى بلد بقرب واره فيها يسكن التجار المستوطنون بـــدار وداى، فقـال: إن عسـاكر الوداى حين عثروا على تلك الأموال كان الرجل منهم يملأ حجره من الريـــالات

---

(1) فى الأصل "..ويدخلون.."

(2) فى الأصل "..يقبضون عليه..."

(3) فى الأصل "..ويأتون به.."

(4) فى الأصل "..فانكفت الايدى.."

(5) فى الأصل ".. من الريالات.."

ويأتى الى بعض التجار فيقول له(هل) عندك تابا[1] فيقول له نعم، فيصب ما فى حجره من الريالات ويقول خذ هذه واعطنى تابا، فيأخذها التاجر ويعطيه نحو رطل من التابا وقطعة من النطرون[2] نحو أوقية فيفرح بها العسكرى ويظن أنه غلب التاجر مع أن الريالات التى كانت فى حجره أكثر من أربعمائة ريال، وفى ذلك النهار كل التجار كانوا مشغولين بجمع المال والقراره ولايدرى أحد منهم عن الأخر، وعساكر الوداى كانوا يفعلون ذلك لجهلهم بالريالات وعدم معرفة قيمتها، بل أخبرنى أنهم حين رأوها قالوا: وماهذه ولأى شيء تنفع، فقال أحدهم اصبروا حتى آخذ منها شيئاً وأذهب به الى التجار فان قبلوه أخذنا منها والاتركناها فقالوا نعم ما أشرت، فملأ حجره منها وذهب الى أول تاجر ورمى بها إليه وقال له: إعطنى تابا، فلما أعطاه التاجر ذهب اليهم وقال إن التجار يقبلونها فطفقوا يأخذون منها وليس هذا بعجيب فى أهل السودان لعدم معرفتهم بالمعاملة، وقد وجد فى العساكر المصرية ماهو من هذا القبيل فقد شاهدت فى فى غزوة المورة[3] لما فتحت مسلونجة[4] مثل ذلك وهو أن أحد العساكر المصرية تتبع القتلى من الاروام ليرى السلب الجيد فيأخذه فجاء الى قتيل فوجده متحزماً بمشمع فحله من وسطه ورآه ملآن بالريالات ففرح وترك السلب ولم يأخذ الا الحزام المشمع، وذهب الى محل بعيد عن الناس وعد الريالات فوجدها مائتين وخمسين ريالا، ففرح غاية الفرح، وكان الريال اذ ذاك باثنى عشر قرشا، فقال فى نفسه هذه والله نعمة

---

(1) التابا: نوع من النباتات المخدرة يستعمله أهل السودان بكثرة ويزرع في ولايات غرب البلاد خاصة ولاية شمال دارفور ويطلق عليه التمباك والصعوط... الخ وقد أفتى بعض العلماء بحرمته لأنه ضار بالصحة.

(2) النطرون أو المطرون وهو من المعادن المهمة في افريقيا ويستخرج من الصحراء الافريقية ويستعمل في صنع الأطعمة وسقي الحيوانات خاصة الجمال ويستخدم أيضا في تخمير التمباك.

(3) المورة: هي منطقة في جنوب بلاد اليونان وقد خاض محمد علي باشا ملك مصر الحرب فيها ضد الدولة العثمانية عندما كانت تسيطر عليه فكرة تكوين دولة مستقلة عن الدولة العثمانية بدعم من بريطانيا ولهذا خاض حرب المورة وحارب السعوديين بقيادة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وأسرة آل سعود، كما فتح السودان عام ١٨٢٠م وكان الشيخ محمد بن عمر التونسي مؤلف هذا الكتاب ضمن الجيش الذي ذهب الى المورة وقد عين في وظيفة واعظ في الآلاى الثامن من مشاة الجيش المصري.ينظر: عبدالرحمن الرافعي: عصر محمد علي ص ٢٥. تشحيذ الأذهان: ص ٢٥

(4) مسلونجة: مدينة يونانية تقع في اقليم المورة جنوب بلاد اليونان وقد شارك مؤلفنا في حربها التي خاضها محمد علي باشا ملك مصر ضد بلاد اليونان.

عظيمة هذه ثلاثة الاف قرش رزقني بها الله أتعيش عليها وأرسل الى أهلي منها، وكان الوقت ليلاً فلما أصبح تأمل في أحد الريالات فوجده أصفر فظنه نحاساً فرماه، فتأمل في آخر فإذا هو أصفر أيضاً فتأمل فيها كلها فاذا هي كلها صفراء[1] ، وهي "فئة" ريالين، ولعدم معرفته بها ظن أنها نحاس، فصار يبكي وينتحب ويقول: واسوء بختاه، فمر به رجل من أصحابنا لاينبغي الافصاح عن اسمه وقال له: ياهذا مالك تبكي، فحكى له القصة وقال لسوء بختي رأيت الريالات كلها نحاساً فقال له أرني إياها فاراه إياها[2] فعرفها إنها (فئة) ريالين، فقال له مسكين لاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم، وأين تذهب بهذه ومن يأخذها منك، فقال له الرجل: بالله عليك إن كنت تعرف طريقاً لبيعها فخذ منها ماشئت وبعه لي فقال له صاحبنا أتيمني الريال فيها بعشرين فضة فقال له قد فعلت، فكان مع صاحبنا خمسة وعشرون قرشاً فأعطاها (اياه) وأخذ منه خمسين دبلوناً، ولو كان معه غيرها لأخذها كلها، ثم قال للرجل اصبر حتى أذهب الى المعسكر وآتيك بمائة قرش وآخذ بقيتها فقال له وهو كذلك فسار يهرول حتى بلغ المعسكر وأخذ مائة قرش ورجع على عقبه يهرول فرأى الرجل اجتمعت عليه الناس وعرفوه أنها ريالين، وكل دبلون منها بستة عشر ريالا فرانسة فصار يتلهف غيظاً على صاحبنا الذى أخذ منه الخمسين، ولقد بلغنى أنه لما ذهب صاحبنا يأتيه بالمائة قرش رجع الرجل الى بكائه ونواحه على نفسه، فمر به رجل آخر وسأله عن سبب بكائه فأخبره بالقصة فقال له الرجل أرني هذه الريالات فأراه إياها فعرفها الرجل أنها ريالين فقال له اتعطيني منها خمسة وأنا أدلك على صفتها فقال له أعطيك، فأخذ منه خمسة ثم قال له استيقظ وافهم واعلم أن كل ريال من هذه بستة عشر ريالاً من الفرانسة فتلهف الرجل حينئذ على الخمسين التي أخذها صاحبنا وحين سمعه صاحبنا يتلهف ويتحسر عليه اختفى ورجع من حيث أتى، وعلم أنه إن ظهر أخذت منه الخمسون دبلوناً.

---

[1] في الأصل "... كلها صفر..."

[2] في الأصل "... فاراه اياه..."

ونرجع الى سياقة الخبر فصاروا يأخذون من الريالات ومن الثياب ويذهبون الى التجار والتجار يأخذون ذلك منهم بأبخس قيمة، ولما منع السلطان صابون النهب من بيت السلطان (أحمد) ومن بيوت أهل المدينة صار العساكر يتسلقون ضيع[1] الأمراء والقواد وأجناد الباقرمة، والسلطان صابون لايشعر بذلك وأهل المدينة لايتكلمون، ظنا منهم انه بأمر السلطان فأخذوا من الأموال مالايحصر ووقع بيهم الفشل والمخاصمات في شان الأموال ووصلت الدعاوى للسلطان وأعلمَ بذلك فضبط[2] ، جميع مابقي من أموال القواد ومنع النهب عنها (كما) أُخبِرَ (السلطان) أن التجار قد أخذوا من الأموال مالايحصر بأبخس ثمن، فكتم ذلك ولم يتفوه بشيء، ولما ضبط الأموال واستقامت الأحوال أرسل الى كافة التجار فاحضرهم بين يديه وقال لهم: انه قد بلغني أن جميع أموال دولة باقرمة من سلطان وقواد قد حزتموها واختتموها[3] بامور تافهة، وأنا لا أحسدكم في ذلك لأنكم تجار، خرجتم من المعسكر للمكسب، ولكنكم [4] تعلمون أن ليس لأحد أن يأخذ كل المال[5] اما ما اشتريتموه من رقيق وبقر وغنم وثياب وحلى كمرجان وأساور فهو لكم لاينازعكم فيه أحد، وأما ما كان من فضة كالريالات وآلات الحرب كالسيوف والرماح والبندق والدروع واللبوس أو زينة الدولة كالسروج وعدد الخيل فهي لي ولا اخذها الا بثمنها الذي اختتموها به، ثم انه وكل بكل تاجر أمناء وأمرهم أن يذهبوا صحبة التجار وأن يستقصوا جميع ماعندهم من قبيل ماذكر ويأتون به اليه[6] وحذرهم من الخيانة والميل مع التجار، فذهبوا معهم وبعد ساعات جاءوا ومعهم اموال كثيرة[7] تكل عن الوصف، ولقد بلغني انهم فتشوا

---

(1) في الأصل "بينة الامراء.." ولعلها ضيعة، والجمع ضياع أو ضيع وهي المنازل العامرة."

(2) في الأصل ".. ولما علم ضبط جميع مابقي.."

(3) في الأصل ".. قد حزتموه واختتموه...."

(4) في الأصل "..ولكنا انتم تعلمون.."

(5) في الأصل "..ولكنا انتم تعلمون ان المال كله ليس على حد...."

(6) في الأصل".. ويأتون به اليه بين يديه.."

(7) في الأصل ".. ومعهم اموال شتى.."

جميع أمتعة التجار وبيوتهم وخيامهم وأنهم استاصلوا جميع ماوجدوه معاشكر، ولم يتمكن التجار من أن يخفوا شيئاً منها فلما جيىء بها ضبطت للسلطان ووضعت فى صينية[1] وكانت كثيرة جداً وأوصى السلطان التجار وطيب خاطرهم (ولهذا فقد رخص الرقيق فى ذلك الوقت حتى أن الجارية الحسناء بيعت بثلاثة ريالات، وماوجد لها مشتر والعبد السداسي بريال واحد، وامتلأت أيدى العساكر والتجار بالرقيق من السبى (ثم) أذِنَ السلطان للتجار بالسفر بالرقيق وكذلك الأمراء والأجناد وندب قواداً من العساكر لذلك، وان لايمْتنعْ أحد من جهة يريد التوجه اليها، فمن أراد التوجه الى دار وداى يتوجه، ومن أراد التوجه الى دار برنو[2] يتوجه، ومن اراد التوجه الى مندرة يتوجه ومن أراد أن يتوجه للكنكو[3] يتوجه، فأصبح[4] الناس مسافرين كل منهم الى الجهة التى أرادها، وفى كل جهة عساكر من طرف السلطان صابون يؤمنون السبل خوفاً من عساكر الباقرمة الشاردين وقد أصاب العسكر مرض من كثرة العالم وازدحام الناس[5] فانتقل السلطان الى مكان آخر حسن الهواء وصار يبث السرايافى كل جهة من البلاد لأجل الاتيان بعساكر الباقرمة أينما وجدوا[6] (كما) أرسل قواداً لضبط أموال القواد بالضيع الخارجة عن المدينة، وأمر مناديه أن ينادى فى المدينة كل من كانت عنده أموال للقواد أو للسلطان أحمد من أهل البلد ولم يات بها للسلطان صابون ثم ظهرت عليه بعد ذلك لايلومن الانفسه، فاجتمع من ذلك مال كثير فبسط السلطان يده بالعطاء وأنعم على

---

(1) ربما يكون المقصود بالصينية بأنها وضعت فى شكل دائرة."

(2) دار برنو: فى عصر المؤلف ضعفت دولة البرنو التى كانت تحكم كل اقليم بحيرة تشاد والنيجر والصحراء حتى فزان ويمتد تاريخها الزاهر الى القرن الحادى عشر الميلادى واستطاعت ان تنشر الاسلام فى كل ربوع السودان الأوسط وامتد حكمها حتى القرن العشرين عندما أسقطها الاستعمار الأوربى. ينظر: ابراهيم طرخان، امبراطورية البرنو الاسلامية - احمد شلبى موسوعة التاريخ الاسلامى ج٦ ص ٣٢٨.

(3) الكنكو: اقليم يقع الى جنوب اقليم باقرمى وتخترقه نهر شارى ويعتبر اقليم كنكو من أغنى بلاد السودان الأوسط ولهذا حمل حاكمه لقب سلطان ويتبعه خمسة حكام للاقاليم لكل منهم لقب ملك. ينظر تشحيذ الاذهان، ص ١٣٥

(4) فى الأصل "... فاصبحت الناس وهم مسافرون

(5) فى الأصل "... وحصل فى العسكر اذ ذاك مرض من كثرة العالم.

(6) فى الأصل "...مهما وجدوهم."

العلماء والأشراف وذوى الفاقات، وسمع السلطان أن القشا قطع الطريق على الناس فأرسل خلفه جيشاً وكان قد مكث فى الخلاء الكائن بين مندرة وبالقرمة على شاطىء البحر[١] فذهب الجيش وكان الجواسيس قد ذهبوا[٢] الى القشا وأخبروه فارتحل من ليله والتجأ الى برني لقون[٣]، وكان به سلطان من الكنكو يسمى السلطان صالح وكان ملكاً جليلاً فأجاره (وسار جيش السلطان صابون) حتى مكان جيش القشا فلم يجده، وأخبر أنه توجه الى برنى لقون فرجع، وكان أبى إذ ذاك استأذن السلطان فى التوجه الى برنو فأذن له وأعطاه أموالاً جمة من فضة ورقيق ومرجان وأصحبه جيشاً يحرسه حتى يصل الى محل الأمن، فسار والجيش معه حتى خرج من إيالة بالقرمة ثم رجع الجيش وسار والدى برقيقه وأهله فما راعه إلا ونواصى الخيل مقبلة عليه وانتهبوا جميع مامعه من الأموال ولم يبقوا له الأأهله برأسها، ولم يمدوا اليه يد السوء، والسبب فى ذلك أنهم سمعوا أنه صهر السلطان صابون، فقالوا إن قتلناه لن يترك السلطان ثأره، وأما الأموال فان السلطان لايتأثر بها[٤] اذا بلغه الخبر وكان معه عبدان رباهما فأراد الأعداء أخذهما فقال لهم هذان حران وليسا برقيق فتركوهما، وكانت هذه الخيول من جماعة القشا فأرسل أحدهم بكتاب الى السلطان صابون يعلمه أن جماعة القشا قد أغاروا علىّ[٥] وأخذوا جميع أموالي وتركوني لا أملك شيئاً فأرسل السلطان من وقته جيشاً كثيفاً وقال لقائد الجيش لابد وأن تعيدوا جميع ما أخذه من الشريف عمر، وإلا فإني أغزو برني لقون، فذهب الجيش الي برني لقون وأرسلوا للسلطان صالح وأعلموه بما قال السلطان صابون، فقال السلطان صالح للقشا: إن أردت أن تكون في حمايتي فرد جميع الأموال التي أخذتها من هذا الشريف وإلا فارحل عني بسلام، فإني أخاف

---

(١) المقصود بالبحر هنا شاطىء احدى الأنهار التي تصب في بحيرة تشاد.

(٢) في الأصل :"... وكانت الجواسيس قد ذهبت الى القشا..."

(٣) برني لقون: أي مدينة لقون وهي عاصمة اقليم كتكو ومقر اقامة السلطان وتقع جنوب بالقرمي.

(٤) في الأصل "... لايتأثر فيها..."

(٥) الرواية هنا على لسان والد المؤلف..."

أن يأتي السلطان صابون الي هنا ويخفر[1] ذمتي،ولا طاقة لي به، فـرد {الفشا} جميع ما أخذه عسكره، وأرسلْ لوالدي في مدينة برنو.

ثم أن السلطان أراد الرجوع الي وداي، وملَّ الإقامة في دار باقرمه فـأخذ أحد أولاد السلطان أحمد "نسيت إسمه" وولاه سلطاناً مكان أبيه، وشرط عليـه أن يدفع في كل سنة ألف رأس من الرقيق، وألف جواد وألف جمل وألف ثوب مـن النوع المسمي بالقداني[2] أو التيكو، وعاهده علي ذلك، وأصبح راحلاً بعد أن جمع له من عساكر الباقرمه جيش عظيم، ونصب له المناصب وجعل له منها أربـاب دولة وأمناً وعساكر، ولما رحل السلطان صابون الي دار وداي رجع شقمة، وكان فاراً في جهة كانم، وحين بلغه الخبر بقفول السلطان الي داره كر راجعـاً علـي البلاد، ودخل البرني وجاءه الفشا واجتمع معه[3] ، وقبض علي أخيـه الصغيـر وسجنه حتي مات صبراً، وبلغ السلطان صابون ذلك، فغاظه وأرسل مـن وقتـه العقيد أجمعين بجيشه، وضم اليه جيشاً آخر وأمره ألا يرجع إلا بعد القبض علـي الفشا وعلي شقمه، وكان قد أخذ بقية أولاد السلطان أحمد معـه الـي دار وداي، فأرسل أكبرهم مع العقيد أجمعين وأوصاه أنه هو السلطان، فتوجه العقيد أجمعيـن من ساعته تلك وجدّ في السير حتي وصل الي دار باقرمه، وحين بلغ شقمه والفشا أن العقيد أجمعين جاء بجيش كثيف، فرا وتركا البرني خالياً، فدخل أجمعين الـي البرني وأرسل الجيش خلفهما فلحقهما الجيش فقاتلاه قتالاً شديداً ثم انهزما، وافترق شقمه من الفشا ومن العساكر.. ورجع الجيش الي العقيد أجمعين غانمـاً بالسلب والخيل والأسري، فأقام أجمعين وإبن السلطان{أحمد} سلطاناً مكان أبيه بحكم أمـر السلطان صابون، وأقام معه نحواً من سبعة أشهر في كـل وقـت منـها يرسل

---

[1] ورد في حاشية المخطوط تعليق علي كلمة "ويخفر" جاء فيه قوله يخفر بضم الياء من أخفره بالألف إذا أزال خفارته وغدر به ... وأما يخفر بفتح الياء فهو خفره الثلاثي بمعني حفظه وأجاره ومنعه كما يؤخذ من القاموس أهـ.

[2] القداني أو التيكو: قماش يجلب من المغرب وبلاد برنو لكنه غير عريض كعرض الشقة منه ثوباً، ولونهما أسود، لكن القداني يري في سواده بعض حمرة فهو كلون رقاب الحمام، وقد لاحظ التونسي أن لابسه إذا كمش عرج عاتقه مسوداً من لون القداني الذي يلبسه. ينظر تشحيذ الأذهان ص: ٢١٢.

[3] في الأصل: "واجتمع عليه".

للسلطان صابون أموالاً جمة، من رقيق وخيل وثياب، وجبّي الأموال التي عاقد عليها وارسلها، وارسل للسلطان يستأذنه في العود أو الإقامة فأذن له السلطان في العود بعد أن بقي مع السلطان من يذب عنه إذا قدم عليه عدو، سواء كان شقمة أو الفشا أو غيرهما، فكان كذلك، فانتخب نحو أربعة آلاف فارس من المعدودين وأبقاهم مع السلطان وأمرهم أن يكونوا تحت أمره ونهيه، وكانت قد اجتمعت عليه من عساكر الباقرمه أمم عظيمة واستقامت أحواله، فارتحل أجمعين ببقية العساكر الي دار وداي سالماً غانماً، وبعد رحيله أراد شقمه أن يدخل البرني فقال له أرباب دولته إن العقيد أجمعين أبقى في البرني نحو أربعة آلاف فارس من المعدودين، ولا يمكننا الدخول إليها إلا بعد قتلهم، وهم في غاية من الشجاعة، فلا يقتلون إلا بعد أن يقتل منا مثلهم أو أكثر، فقال لهم: وكيف الرأي فقالوا الرأي أن ترسل الي لخواننا المقيمين في البرني أن يحرضوا [1] سفهاءهم يتخاصمون مع عساكر الوداي ويضاربونهم، وتبقي دعاواهم امام السلطان باستمرار، مع أن الوداي لا يرضون أن تعلوا عليهم عساكر الباقرمه[2]، فيقولون للسلطان نحن ما مكثنا معك هنا لنضام، وما مكثنا إلا لنعز،{والآن} أصبح عساكر الباقرمه يتعدون علينا، فإما أن تمنعهم أو أن تقع الحرب[3] بيننا وبينهم، فعند ذلك سيقول وزراء الباقرمه للسلطان، نحن الآن في قوة وجمع عظيم، وكنا محتاجين لمكث عساكر الوداي معنا، أما الآن فلا حاجة لنا بهم[4] ولا تعود علينا إقامتهم إلا بالضرر ووجع الرأس، وهؤلاء في قلوبهم قساوة فربما ثاروا علي عساكرنا وقاتلوهم، وعساكرنا لاترضى بالذل فيقع بينهم قتال عظيم ويموت منا خلق، فيكون موتهم سبباً لخراب ما بقي من بلادنا، لأن سلطان الوداي إذا سمع بقتل عساكره يرسل الينا جيشاً فيحصد شوكتنا، ويستأصل شأفتنا، واذا صار الأمر كذلك وارتحلوا دخلنا البرني

(1) في الأصل : " لهم يرحضون سفهائهم " .

(2) في الأصل : " مع أن الوداي لا يرضون أن عساكر الباقرمه تعلو عليهم " .

(3) في الأصل : " فإما أن تمنعهم وإما أن يقع بيننا وبينهم حرب " .

(4) في الأصل : " والآن لا حاجة لهم " .

وفعلنا فيه كما تحب، فقال شقمه: نعم الرأي هذا، وكتبوا من حينهم الي وزراء سلطان الباقرمه بذلك، فأجابوهم لما سألوا حباً في شقمه وبغضاً في المتولي عليهم، وحرضوا السفهاء علي مخاصمة عساكر الوداي، فصاروا يتعرضون لهم بالسفاهة، والوداي لا يرضون ذلك، فتقع بينهم ثورات، ووصل الأمر بينهم الي الضرب بالسلاح مراراً، فتحير السلطان في الأمر، لأن كلا المعسكرين يدعي أنه مظلوم، أما عساكر الباقرمه فتدعي أن عساكر الوداي يرونهم كالأرقاء، لكون سلطانهم متغلباً علينا، وأنهم يأذوننا بلا سبب، وعساكر الوداي يقولون إن هؤلاء يتعرضون لنا ويسبوننا ويسبون ملكنا بغير سبب، وما ذلك إلا لأننا قليلون في أعينهم وأغراب لا ناصر لنا، مع أننا لو لم نخف من سلطاننا أن يقول لم فعلتم ذلك، ما تركنا منهم أحداً، وحين رأي وزراء سلطان الباقرمه حيرة السلطان قالوا له: يا مولانا ماذا تريد بإقامة هؤلاء عندنا، إن كان خوفاً من شقمه أو الفشا فنحن الأن في جند عظيم، لا يقدر أحد منهما أن يصل اليك بسوء، وليس في مكثهم إلا الضرر، وقالوا له: أرسل لهم[وأمرهم بالعودة الي بلادهم} وفي الحال[1] أمر السلطان بعودة عساكر الوداي الي بلادهم، وأعطاهم كتاباً للسلطان يقول فيه، بعد ما يليق بالمقام العالي، إن أجناد الباقرمه قد كروا ودانوا وأذعنوا بالطاعة، حتي أنهم الأن في جمع عظيم، ونعلم أن سيدنا إنما أمر بابقاء عساكره معنا خوفاً علينا من غائلة المارقين، والأن قد أمنا غائلتهم بسيادة سيدنا وكثرة عساكرنا، فرأينا من الرأي أن نردهم الي سعادتك سالمين، لأنه قد حصل بينهم وبين عساكرنا ما لا يليق ولا نعلم الظالم منهم أهـ .

وأرسل بصحبة قائد الجيش هدية للسلطان صابون، وجهز الجيش أحسن جهاز وأمرهم بالرحيل فارتحلوا حتي وصلوا الي دار وداي، فلما قدموا علي السلطان إرتاع لقدومهم بغير إذن، وأرسل للقائد(أن يأتيه} فلما مثل بين يديه سأله عن سبب مجيئه فأعلمه بالقصة، وأعطاه كتاب السلطان، فلما قرأه فهم انها حيلة عملها

---

[1] في الأصل : " فحينئذ أمر السلطان بعودة عساكر الوداي " .

وزراه سلطان الباقرمه علي ملكهم، فدعا في الحال بأربعة قواد من أكابر دولتـــه، أحدهم العقيد أجمعين والثاني العقيد مقش والثالث العقيد موســـي عقيـد الزبـده، والرابع الترقناك محمد، وأمرهم أن يتأهبوا للسفر وأن يكونوا في رأي[1] العقيـــد أجمعين وأن يبحثوا عن شقمه في أي محل هو، ومتي قبضوا عليه أن يـأتوا بـه أسيراً وكذلك الفشا، وأعجلهم في السفر فتأهبوا في نحـــو خمســة عشــر يومــاً، وخرجوا بعساكرهم يجدون السير حتي وصلوا الي دار باقرمه، فوجـــدوا الفشــا وشقمه قد دخلا البرني وقبضا علي السلطان، وحاباهما العساكر المقيمون معـــه، ولم ينفعه منهم أحد بشيء، وحين بلغهم هذا الخبر إرتحلوا وجدوا في السير حتـــي دخلوا البرني، فوجدوا الجو قد خلا وشقمه والفشا قد جفلا[2] ، فخـــرج أجمعيـــن بنفسه وتوجه خلف شقمه وأرسل العقيد موسي خلف الفشا وأكد له[3] الا يرجع إلا به، وترك الترقناك محمد ضابطاً للبرني وما والاه من الخارج، وأخـــرج العقيـد مقش بجماعته خارج البرني[4] ، لربما يأتي عدو من الخارج فيتلقاه، حتي يســـتعد الترقناك ويخرج الي لقائه، وجدَّ في السير أجمعين{حتي} وجد شقمه بعساكره مقيماً بطرف كانم، فسري ليله وأصبح{فاذا} هو بجوار عساكر شقمه فأحاط به ودارت[5] الحرب بينهما فركب شقمه ودخل الحرب، وقصده أجمعين حتي وافـــاه فتضاربـا وعثر بشقمه فرسه فسقط علي الأرض فأخذه أسيراً وانهزمت عســاكره وتبعتــهم عساكر أجمعين قتلاً وأسراً وسلباً ولم ينج من نجا منهم إلا بــرأس مــن طمــرة، ورجع أجمعين كاراً علي البرني فمكث أياماً قلائل فاذا بالعقيد موسي قـــد أقبـل بغنائم عظيمة، ومعه أكثر جماعة الفشا وأولاده أسري، وأخبر أن الفشا لم ينج إلا برأسه، ولقد أخبرني العقيد موسي المذكور وهو أخ الإمام بدر الدين إمام السلطان

---

[1] أن يكونوا في رأي العقيد أجمعين" أي أن يكونوا تحت إمرته وينزلوا عند رأيه.

[2] في الصل : " أجفلا .

[3] في الأصل : " وأكد عليه " .

[4] في الأصل: " خارجاً عن البرني" .

[5] في الأصل : " وثار الحرب" .

صابون، وقد كنا أخبرنا عنه سابقاً، أنه هو الذي فتح الباب الحديدي[1] ليلة دخول السلطان صابون في دار المملكة، وفعل ما فعل، فقال لي: لما توجهت الي جهة الكنكو في أثر الفشا أخبرت أن الفشا توجه الي برني لقون ليحتمي بحماه، فطرده السلطان صالح سلطان لقون، وقال له أرحل عني وإلا قبضت عليك واسلمتك لعدوك، فارتحل وقصد غيره من ملوك الكنكو، فأبوا أن يجيروه، وقالوا: لو جئتنا من أول وهلة[2] أجرناك، فاذهب الي من أجارك أولاً يجيرك ثانياً، فخرج من عندهم متوجهاً الي مندرة، فتلاقينا معه(وبصحبته) أولاده وثقله فأحاط به الجيش، فقلت والفرحاه هذا مطلوبي، وصففت عساكري للقتال وفعل هو أيضاً، واصطدم الجيشان، فدخلت القلب أبحث عنه فما وجدته، فقلت لعله في ميمنة العساكر فذهبت اليه فلم أجده، فقلت لعله في الميسرة فذهبت اليه فلم أجده، وبينما انا أبحث عنه إذ انهزم عسكره، وتبعه عسكرنا يقتلون ويأسرون ولم أعثر له علي خبر، فحزت ثقله ونساءه وأولاده، ولم ينج إلا بنفسه مع بعض خدمه، هذا ما كان من أمره، ثم أن العقيد لخوفه علي شقمه أن يفلت أخذه في كفالته وارتحل به الي دار وداي هو وجميع العساكر، ولم يترك في برني باقرمه إلا الترقناك محمد، وجد في السير حتي دخل علي السلطان صابون، فخرج السلطان للقائه، وقام بعمل مهرجان عظيم، تزين فيه الملوك والأمراء بأحسن زينة، ولما اصطف[3] الجيش أمر السلطان بإحضار شقمه فأحضر والأغلال في عنقه والقيد في رجليه، وحين رآه السلطان علي تلك الحال أمر بنزع قيوده وأغلاله، وأدخله عليه مكرماً معظماً، فدخل والعساكر علي طبقاتهم واقفين[4] في أحسن زينة وأكمل زي، فصار يتأمل فيهم الي أن وقف بين يدي السلطان، فسأله السلطان لم فعل هذه الأفعال كلها، فقال: أدام الله عز مولانا، إني أكبر أولاد أبي، وكنت مترقباً لهذه المملكة منذ

---

[1] في الأصل: "الذي فتح الباب الحديد".

[2] في الأصل: "وقالوا لو جئتنا من أول وهلة لنا أجرناك".

[3] في الأصل: "ولما تم الجيش".

[4] في الأصل: "والعساكر علي طبقاتهم وقوف".

زمن، لأني أعلم أن أبي رجل كبير، وكان في حياته قد أوصى لي بالملك بعده، وأنا ولي عهده، فكيف ترضى نفسي أن يتولاها غيري من الأولاد الصغار الذين لا يقدرون على سياسة أنفسهم، فضلاً عن سياسة المملكة،{فأرجو من مولاي أن} يكرمني[1] بطريق المروة أفعل جهدي وطاقتي حتى أصل الى مقصودي، ومولاي لا يلومني في ذلك، فقال له السلطان صابون: لم لمْ تنه[2] أباك عن أفعاله الكريهة التي ارتكبها، فقال: أعز الله مولانا إن والدي لما كبر سنه نقص عقله، وكان من عادته أنه إذا أراد أمراً لا يستطيع أحد أن يرده عنه، وأنا ابنه فلو نهيته عن شيء استحسنه، فربما كان ذلك سبباً للعداوة والبغضاء{بيننا} لأنه لا يراني إلا صغيراً، ويقول في نفسه كيف آخذ بقول ولد كان بالأمس طفلاً صغيراً، وأنا الذي ربيته حتى كبر وبلغ مبلغ الرجال، فيحقد عليّ، لأنه لو كان يسمع نصيحة أحد كان سمع نصيحة العلماء، طالما وعظوه وبالغوا في وعظه، وهؤلاء لا يصغي ولا يلتفت اليهم، فقال له السلطان أين أخوك الذي قبضت عليه، فقال له شقمه قد قتل، فقال السلطان ومن قتله؟ فقال قتله العساكر حين دخولهم عليه، فقال السلطان: فما تظن اني فاعل بك الآن فقال: عبدك وأسيرك وفي قبضتك، ومن عادة الملوك إذا قدروا عفوا، فقال له السلطان صابون: أما إذا كان هذا ظنك فقد أصبت وعفوت عنك، وجعلتك سلطاناً مكان أبيك، على شرط أن تدفع لي ما قررته على أخيك قبلك في كل سنة فقال يا مولانا إن الصدق لمنجاة والكذب لمهلكة، وأنا الآن من بعض خدمك[3] ولا أريد أن أقول قولاً ولا أوفي به، أما ما جعله مولانا على أخي وقبلة فإنه لم يقبله إلا خوفاً، ولو كان في طواعية نفسه لما قبله، ومولانا يعلم أن دار الباكرمه قد ثلمت ثلماً لا ينجبر إلا بعد سنين عديدة، وهذه ثلاث سنين والحروب فيها{مشتعلة} وأهلها منزعجون، وأموالهم منهوبة فمن سلم من عساكر سعادتك لم

---

[1] في الأصل: " فضلاً عن سياسة المملكة فيكرمني ".

[2] في الأصل: " لم لا نهيت أباك عن أفعاله ".

[3] في الأصل: " وأنا الآن من بعض خدمك ".

يسلم[١] من يدي، ومن سلم مني لم يسلم من غيري، وهذه الضريبة لو كانت بأقرمه علي حالها الأول لكانت خفيفة، والآن بيت مالها خراب ورعاياها ضعاف، فأسأل مولانا بمكارم أخلاقه أن يخفف عنا فنحن عبيده وخدمه وليس لنا ملجأ سواه، فأعجب السلطان من فصاحته وصواب قوله فخفف عنه نصف الضريبة، وقرر عليه النصف، أعني أنه قبل أن يعطيه من كل ألف خمسمائة، وعاهده علي ذلك، ثم أمر أن يتوجه الي دار الانزال، فأنزله السلطان وأكرم نزله، وأعلي مقامه، وأذن لجميع القواد والأمراء أن يزوروه ويؤانسوه، وأرسل خيلاً مسومة وآلات البيت من فرش وأهدي اليه جواري من محاظيه، وأحسن اليه غاية الاحسان، واجتمع معه اجتماعاً خاصاً مرتين أو ثلاث، واستشفع شقمه عنده في القشا وأولاده فشفعه فيهم، فأرسل شقمه الي القشا فحضر، وأدخل علي السلطان فأكرمه احتراماً[٢] لشقمه، وأنزله في دار الانزال، وأجري عليه أرزاقاً عظيمة حتي أرضاه، وولاه منصبه الذي كان عليه، وبعد أن استراح القشا دخل شقمه علي السلطان واستأذنه في الرحيل والسفر الي بلاده، فأذن له في ذلك، وعين له يوماً معلوماً وأخرج معه عسكراً عظيماً، وجهزه بجميع ما يحتاج اليه من إبل وخيل وخيام، وأخرج له سرادقاً من سرادقاته[٣]، وخيلاً مسرجة بسروج الذهب، وأعطاه مظلة عظيمة وريشاً {كما منحه} شارات الملك وأمر الوزراء وأرباب الدولة أن يركبوا معه ويشيعوه مسافة ساعتين أو ثلاث[٤]، وأمر قائد الجيش الذي أمر بالتوجه معه أن يكون تحت أمره ونهيه بحيث لا يخالف له أمراً، وخرج السلطان صابون لديوانه وأمر بإدخال شقمه والقشا عليه فأدخلا، فكسا شقمه كسوة جميلة فيها كشمير أحمر وسيف مذهب في غاية الحسن وكسا القشا كسوة الوزراء، وقلده سيفاً وأعطاه جواداً مسرجاً بسرج مذهب، وخرجا من عنده في غاية السرور

---

[١] في الأصل: " فمن سلم من عساكر سعادتك ما سلم من يدي" .

[٢] في الأصل: " رعاية لشقمه" .

[٣] في الأصل: " سرادقاً من سرادقا نفسه" .

[٤] في الأصل: " او ثلاثة" .

والاغتباط، شاكرين لنعمه، وخرج معهما الوزراء وأرباب الدولـــة وكـــان يـوم خروجهما يوماً عظيماً ضربت فيه الأبواق والطبول، وخرجت في ذلك اليوم ربات الحجال والخدور، فأشرف السلطان من قصره ينظر ذلك المحفل العظيم، وكـــان يوماً مشهوداً كيوم دخوله بل أعظم، فمشي معه الوزراء وأرباب الدولة كما أمـــر السلطان بالا يرجعوا إلا عشية النهار، وبعد أن رجع عنه أرباب الدولة وودعـــوه بات في محله وأصبح مرتحلاً الي بلاده وجد في السير حتي وصل الـــي بلـده، فخرج للقائه الترقناك محمد وقال له إني استلمت هذا البرني من وكيل السلطان ولا أسلمه إلا بأمر، وكان السلطان صابون قد كتب له منشوراً بالولاية {جاء} فيه: من حضرة السلطان المعظم والملك المفخم المكرم خادم الحرمين الشريفين المتوكـــل علي السميع العليم السلطان محمد عبد الكريم صابون، العباسي، الي كل من يقف علي أمرنا هذا من الأمراء والأجناد والعساكر والقواد وأرباب الدولة أجمعين.

أما بعد فأننا استخرنا الله تعالي الذي لا يخيب من استخاره ووليتـــا ولدنـــا شقمه ابن المرحوم السلطان أحمد سلطان مملكة باقرمه، ســـلطاناً عـــوض أبيـــه، وجعلنا يده مطلقة[1] في الأحكام، وأوصيناه بالعدل والإنصاف، وإتبـــاع شريعـــة {ابن} عبد مناف، وقررنا عليه كل سنه ضريبة يدفعها الي خزينتنـــا المعمـــورة، وأخذنا عليه خطه وإشهاده بذلك وأيدناه بعبد الله الفشا وزيراً كما كان لأبيه، وعلي ذلك صدر أمرنا الشريف هذا، فلا يعارضه أحد من أهل المملكتين، والحـــذر ثـــم الحذر من الخلاف، وأسأل الله التوفيق لي وله ولكافة ولاة الاسلام والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

فحين طلب منه الترقناك محمد أمراً باستلام البرني أخرج له هذا المنشور وقرأه عليه، بحضور كافة الجند، فقام حينئذ الترقناك محمد وعانقه وهنأه ودخلـــوا البرني جميعاً، وفرح بذلك جميع الباقرمة فرحاً شديداً وكان يوماً مشهوداً وخـــرج الترقناك محمد بجماعته وعسكر بظاهر البرني مع العساكر القادمة مع الســـلطان

---

[1] في الأصل: " وجعلنا يده مطلوقة ".

محمد شقمة، وبعد أن استراح الجيش جهزهم السلطان محمد شقمة بجهاز عظيم وأرسل للسلطان صابون من الأموال مالايحصى، هدية وضريبة وأهدى للترقناك محمد هدية جليلة، ولجميع القواد والأمراء على قدر مراتبهم وأذن لهم في التوجه الى بلادهم.

تنبيه:-

قد رأيت كلا من شقمة والفشا جاء الى السلطان صابون، أما شقمة فكان رجلاً طويلاً[1] جسيماً في غاية من السواد، قد وخطه الشيب، كث اللحية كأن عينيه سراجان يتوقدان، وأما الفشا فكان بعكس شقمة في جميع الصفات فكان ربعة نحيف الجسم سواده الى الحمرة، خفيف اللحية تظهر عليه شهامة الرجال وحسن التدبير وبالجملة فالملوك العظام من السودان كلهم أصحاب تدبير مهابون، ترتعد فرائص من يقف بين يدى أحد منهم لما يرى من الجبروت وناموس الملوك، وذلك غير مخصوص بملك دون آخر، فأولهم ملك الفور، فهو في أبهة وحشمة ووقار، لايقدر الانسان أن يفصح بين يديه بثلاث كلمات الا المعتاد عليه، كالوزراء وأرباب الدولة ووجوه الناس الذين لهم منزلة، وأما غيرهم وان كان ذلق اللسان ثابت الجنان متى وقف بين يديه يندهش وتذهب فصاحته، فقد حكى لي أن السلطان محمد تيراب أعطى قبيلة من عرب البادية فيلاً تربيه له، فلما حل الفيل بين ظهرانيهم عسف فيهم، فصار يأكل أقواتهم ويختطف مابأيديهم ولايمكنهم قتله، لخوفهم من السلطان، وضاقوا به ذرعاً فجاءوا الى شيخهم وقالوا له: بئس مافعلت بنا (فقد) أعطاك السلطان هذا الفيل فلم تعتذر إليه بشيء بل أخذته وأتيتنا به، فساءنا في أقواتنا وأضرّ بنا غاية الضرر، فخذه ورده اليه والاقتلناه، فقال لهم الشيخ أنا لايمكنني أن أخاطب السلطان في رده، فقام رجل منهم وقال خذني معك إن كنت تخاف وأنا أخاطب السلطان فيه وإنما عليك أن تفتح الكلام بأن تقول له: الفيل، فاذا سأل وقال: مالالفيل، أردُّ أنا الجواب وأقول: فعل بنا كذا وكذا، فقال له

[1] في الأصل "... رجلاً طويلاً..."

الشيخ أتذهب معي الى الفاشر[1] قال نعم، فتأهبا للسفر وتوجها للفاشر، فصادف دخولهم يوم جمعة، فلما وقفا على باب دار السلطان اذا بأحد الوزراء راكبا في موكبه والطبول تضرب والصفافير تغني وهو في أكمل زينة، فقال البدوي للشيخ أهذا السلطان، قال لا، هذا أحد وزرائه، فارتج الرجل وندم على قدومه وقال اذا كان هذا أحد الوزراء فكيف بالسلطان نفسه؟ وبينما هما كذلك إذا بوزير كبير كأباديما قادماً[2] وبين يديه من العساكر والأمراء جمع عظيم، وهو في أكمل زينة والطبول والصفافير تضرب على رايته والفرسان تتراكض أمامه والجنايب تقاد بين يديه، فارتاح البدوي وقال أهذا السلطان؟ فقال له الشيخ لا هذا أحد الوزراء العظام، فرجف فؤاد البدوي ونسي ماكان مستحضراً له من الكلام وبينما هو يفكر فيما وهمه إذ اقبل الشيخ عبدالله أورذكا الأب في كتيبة عظيمة من الخيل والرجال والجنايب والطبول والصفافير حتى أخذ بمنافع العالم، فقال البدوي أهذا السلطان قال له لا هذا أكبر وزرائه فانقطع نفس البدوي وبقي مذعوراً[3] لايدري مايصنع، وبينما هو كذلك اذ خرج السلطان وانقلبت الأرض بأصوات الطبول وارتجت بركض الخيل وأحس بأن الخضراء انقلبت على الغبراء ووقف السلطان واصطفت العساكر فتقدم الشيخ ونادى بصوت عال: أيد الله سيدنا ونصره على عدوه، الفيل!! فقال السلطان، ماللفيل؟ فغمز الشيخ البدوي وقال له، قد فتحت لك الباب فتكلم، فانقطع وماقدر أن يجيد جواباً، فقال السلطان ماللفيل؟ فخشي الشيخ أن يبطش به السلطان لعدم رد الجواب، فقال: إنه مستوحش لوحدته فنريد من سيدنا أن يعطينا فيلاً آخر يؤانسه، فقال السلطان أعطوه فيلاً آخر يؤانسه، ففي الحال جيئ[4] بالفيل (وسلم للشيخ وصاحبه البدوي) فرجعا به الى باديتهما، فلما رأى العرب ماجاءا به قالوا لهما: ماهذا؟ نحن أرسلناكما لتريحانا من واحد فأتيتمانا

---

[1] ربما يقصد المؤلف بالفاشر عاصمة السلطنة لأن مدينة الفاشر لم تنشأ بعد لأنها نشأت في عهد السلطان "عبدالرحمن الرشيد" أما السلطان تيراب الذي ذكره المؤلف فكانت عاصمته "كريل".

[2] في الأصل: "... قادم..."

[3] في الأصل "... وبقي باهتاً..."

[4] في الأصل "... ففي الحال جاء الفيل..."

بآخر، فقال لهم صاحبهم البدوي: إعلموا أن شيخكم هذا رجل لايوجد على ظهر الأرض أثبت منه جناناً فاحمدوا الله على توليته عليكم شيخاً فرضوا بالفيلين وسكتوا اهـ.

ثم ان الناس[1] في هذا الزمن ليسوا كما في الزمن السابق، فقد كانوا في العصر الأول من السذاجة[2] بمكان، سواء كانوا ملوكاً أو رعاياً، فمما حُكيَ في ذلك أن جماعة من الفقراء بدار وداي كانوا يسمعون أن العسل حلوٌ، ولم يتيسر لهم أن يأكلوا منه، بل لم يروه، فاتفقوا مع بعضهم أن يتوجهوا الى السلطان ويسألوه في ذلك، فذهبوا الى واره وتحروا خروج السلطان فلما خرج تعرضوا له، فقال لهم، من أنتم وماذا تريدون، فقالوا نحن من فقراء رعيتك، وسمعنا أن العسل حلوٌ ومارأيناه قط، فأتينا نسأل مولانا أن يشبعنا منه، فاغتاظ منهم غيظاً عظيماً وقال هؤلاء احتقروني حتى أنهم ماسألوني إلا العسل إئتوني قربة مليئة بالعسل، فجاءوا بها فحكم عليهم أن يشربوها كلها وإن لم يشربوها سيقتلهم[3] فشربوا منها مقداراً يسيراً ثم سئموا منه، وتحيروا في أمرهم، فسجنهم السلطان في محل وأمر بوضع القربة بينهم، وأن لايخرجوا من السجن الابعد فراغها فكان كذلك.

ومما يحكى أن ثلاثة أنفار زرعوا بصلاً وفلفلاً وثوماً فأخذ كل واحد منهم حمل بعير من نوع منها ووفدوا بها الى سلطان وداي وادخلوها اليه[4] هدية فلما رأى الفلفل والبصل والثوم، وكان لايعرفها[5] فقال وماهذا، فقالوا له هذه ماتصلح به الأطعمة فرأى الفلفل أحمر جميلاً فأخذ منه قليلاً ووضعه في فيه، فأحرقه، فقال هؤلاء قوم أصحاب غش وقد جاءوا بهذه الأنواع ليقتلونا بها، فقال: أدخلوهم

---

(1) في الأصل ".. ثم ان هذا الناس.."

(2) في الأصل ".. من السذاجية."

(3) في الأصل ".. وان لم يشربوها قتلهم."

(4) في الأصل "..وادخلوها هدية عليه.."

(5) حديث المؤلف فيه مبالغة لان هؤلاء الملوك لم يكونوا من السذاجة والجهل بحيث لايعرفون حتى العسل والثوم خاصة وانه أثبت انها ضمن مزروعات بلادهم.

السجن واجعلوها[1] طعامهم حتى يستوفوها قبل فمثلوا في محبسهم ثلاث سنين، وخرج واحد منهم (شكله) أبرص، والثاني أجذم، والثالث سليماً.

ومماحكى من سذاجة الناس وبلاهتهم أن في دارفور قبيلة تسمى البرتي وهم قبيلة عظيمة من أعاجم السودان، لكنهم موصوفون بالجبن والخوف في الحروب دون قبائل السودان[2]، وكان لهم ملك يعسفهم ويأخذ من أموالهم مايريد[3] ولا يرفعون أمرهم الى السلطان خوفاً منه، فكانوا يظنون أنه هو السلطان ولايد فوق يده، فاتفق أنه ظلمَ رجلاً واستصفى جميع أمواله ولم يبق له شيئا، فخرج الرجل على وجهه هائماً، فاجتمع برجل من أهل الفاشر، خرج في حاجة وعائداً الى الفاشر فسأله البرتاوي قائلاً[4] من أين أقبلت وأين تريد؟ فأخبره الرجل بخبره ثم سأل البرتاوي قائلاً: من أنت ومن أين والى أين؟ فقال له البرتاوي أنا من البرتي ولاأدري أين أذهب[5] فقال له الرجل كيف ذلك؟ فحكى له ماوقع عليه من الظلم من الملك وأنه خرج فاراً بنفسه من العسف والجور، فقال له الرجل لم لاتشتكيه الى السلطان يخلص لك حقك منه، فقال البرتاوي أهناك سلطان غير ملكنا، فقال له الرجل نعم، فقال البرتاوي ومن يدلني عليه، فقال له الرجل أنا (أدلك عليه) فقال له أحق ماتقول؟ قال له الرجل أي والله، فسافر معه حتى وصل الى الفاشر وأوقفه الرجل بين يدى السلطان تيراب، وقال له قل ماتريد فسلم على السلطان سلام الأكفاء بأن قال له: صباح الخير يا أبا اسحاق، انه قد بلغني عنك

---

[1] في الأصل "..فقال ادخلوهم الى السجن واجعلوا طعامهم.."

[2] البرتي: قبيلة كبيرة من أصل مختلط تسكن حوض تلال الميدوب في شرق دارفور هجروا موطنهم الأصلي في تلال الفاشر بسبب ضغط سلاطين الفور وينتشرون الآن في كل منطقة شمال وشرق دارفور وهم من أكثر القبائل استقراراً وتعلماً ومسالمة، أما حديث المؤلف عنهم بأنهم جبناء ففيه مبالغة واضحة، فالبرتي مثل غيرهم من قبائل دارفور فيهم الشجعان وفيهم غير ذلك بل فيهم فرسان قادوا جيوش دولة الفور في أهم المعارك مثل الأمير قمرالدين عبدالجبار وحروبه الشرسة مع الهكي سنين التاماوي حتى بعثه السلطان الى دار مساليت لمحاربة السلطان تاج الدين حيث قتله السلطان تاج الدين في مبارزة شهيرة؛ ينظر: شريط كاسيت للمحقق برواية الشيخ محمد علي الشيخ بقرية كبم عد الفرسان نوفمبر ١٩٩٨م.

[3] في الأصل ".. ويأخذ من أموالهم ما أراد.."

[4] في الأصل ".. فسأله البرتاوي وقال له.."

[5] ولا ادري اين أذهب، جملة تشير الى الحيرة والذهول الذي تملكه فقيد بات له قضية كبرى...

انك تخوف ملكنا وقد ظلمني وأخذ مني كذا وكذا من المال، فإن كنت تقدر على خلاص حقي منه كما زعموا فخلصني، فضحك السلطان من كلامه وعرف أنه غِرٌ وفي تلك الساعة أمر باحضار ملك البرتي فأحضر، ولما دخل على السلطان التفت فرأى البرتاوى الذى ظلمه واقفاً، فنظر اليه نظرة غضب فلما رآه البرتاوى (غاضباً[١]) خاف منه ورفع يديه ووضع ظهر كفيه مسايلي وجهه، وراحتاه مسايلي الملك ووضع يديه الى جهة الملك كأنه يتقي بهما نظره، وقال له غطيت عينيك برباعيتين أنا مالي، قد ضحكوا علي وجاءوا بي الى هنا، ومعنى قوله غطيت عينيك برباعيتين أى جعلت لك بقرتين رباعيتين نظير غض بصرك عني، والرباعية هي البقرة التي لها أربع سنوات، فضحك السلطان من كلامه أكثر من الأول ثم أقبل السلطان على ملك البرتي وقال له:ألا تتقي الله في المسلمين عسفت بهم وجفوت عن طريق الحق وهم قوم غفْل، لايعرفون غيرك حتى (الصغار) يخافون منك، ثم سأل السلطان البرتاوى عمّا أخذ[٢] منه الملك، فقال: أخذ مني كذا وكذا، فأمر السلطان برد جميع أموال البرتاوى له في تلك الساعة، فرد الملك ماكان حاضراً منها في بيته بالفاشر[٣] لأن كل ملك له بيت في الفاشر يجلس فيه مدة إقامته بطرف السلطان، واذا غاب تبقى فيه جماعته حتى يأتي، وأعطى السلطان جواد ملك البرتي بسرجه وعدته للبرتاوى رهناً يبقى في يده حتى يأتيه الملك بباقي المال، وكان جواداً من عتاق الخيل وأمر السلطان البرتاوى أن يركبه، فخاف البرتاوى من ركوبه، فأمر السلطان خدمه أن يركبوه عليه، فلما ركبه ومشى به خطوات صاح قائلا: يا أبا اسحاق قتلتني ماهذا عدل منك، لأنني امرؤ ماركبت جواداً قط[٤]، فضحك السلطان من كلامه وأمر بانزاله من الجواد[٥] وأعطاه عوض ماذهب منه، وأحسن اليه، فلمارجع البرتاوى الى قومه قال: ياقوم

---

[١] فى الأصل " فلما رآه البرتاوى نظر اليه.."

[٢] فى الأصل ".. عما أخذه منه الملك.."

[٣] فى الأصل ".. فرد الملك ماكان حاضرا منها ببيت الملك الذى فى الفاشر

[٤] فى الأصل ".. لأنى امرؤ ماركبت حِملاً قط.."

[٥] فى الأصل "..وأمر بانزاله من الفرس.."

إني وجدت أبا اسحاق يخوف ملكنا، وفعل معي كيت وكيت، وصار صاحبي فمن كان فيكم مظلوماً فليذهب اليه ومن لايقدر على الوصول اليه فـــاني أوصلـــه لأن الرجل الآن صاحبي، ثم انه كانت له أبنة جميلة (فذهب بها إلى السلطان) ثم قـــال له: يا أبا اسحاق ان هذه إبنتي وأعز الناس عليّ وخطبني فيها أنـــاس كثـــيرون[1] وأبيت أن اعطيها، وقد صنعت معي معروفاً كثيراً فأحببت أن أريك اياها، فان كان لك بها حاجة فقد زوجتها منك، فنظر اليها[2] السلطان فأعجبته، فعقد عليها وهـــي أول امرأة من البرتي تزوجها سلطان، ثم بعد ذلك تزوج منهم الملـــوك حتـــى ان السلطان محمد فضل يرى أنهن من الإماء[3] فيتسرى منهن ما أراد بغير عقد[4].

ومما ينخرط في سذاجة الملوك والرعايا ووحشيتهم وعدم معرفـــة الآداب والقوانين أن أناساً من الوداى كانوا يشربون الدخان، بشبق[5] وكانوا قـــد ألفـــوه، ولايقدرون على إبعاده[6]، أعنى أنهم صار لهم عادة لايمكنهم التخلى عنـــها (ثـم) أعسروا فلم يجدوا مايشتروا به الدخان فاجتمعوا وشكوا حالهم لبعضهم وتشاوروا مع بعضهم، فاقتضى رأيهم أن يذهبوا الى السلطان ويطلبوا منه أن يعطيهم شيئـــا من الدخان أو شيئاً يشترون به الدخان، فذهبوا اليه فلما مثلوا بين يديه وسألوه فى ذلك اغتاظ غيظاً شديداً[7] وقال: هؤلاء احتقرونى حتى أنهم ماسألونى الا التافا ثم أمر ببناء دن من طين علوه أربعة أذرع، وكان عدد الرجال عشرة، فأمر بأن يملأ الدن بالدخان وأن يوضع عليه جمر كثير، وان يثقبوا عليه عشرة ثقـــوب دائريـــة ويوضع فى كل ثقب أنبوبة من القصب وأن يجلس الرجال ويشربوا الدخان مـــن

---

[1] في الأصل ".. وخطبني فيها ناس كثير.."

[2] في الأصل "..فنظرها السلطان.."

[3] في الأصل ".. يرى انهن من الاموات.."

[4] حديث الكاتب عن رؤية السلطان محمد فضل لنساء البرتي بأنهن من الاماء حديث غير صائب، لان البرتي معروفون في دارفور فهم من اكبر القبائل في جبال دارفور وكانوا من المشاركين في تأسيس دولة الفور ولهم تمكين في الدين والعلم قديماً وحديثاً.

[5] هكذا في الأصل "بشبق" أي بتلهف

[6] في الأصل " ولايقدرون على بعده"

[7] في الأصل: اغتاظ غيظاً عظيماً"

تلك الانابيب حتى يفرغ مافي الدن، وان لايسمح[1] لهم بالذهاب حتى لايبقى شيء من الدخان في الدن، فكان كذلك (حيث) مليء الدن دخاناً ووضع عليه الجمر حتى التهب الدخان وأجلس الرجال العشرة وأمروا بشرب مافي الدن من الدخان، فجذب كل واحد منهم نفساً او نفسين ثم سئموا وأرادوا الانصراف، (فمنعـــوا) وأجبروا على الشرب (حتى) أخذهم الدوار ووقعوا على الأرض مغشياً عليهم كأنهم أموات وأعلم السلطان بذلك فخلى سبيلهم.

ومن بلاهة الوداي (ايضاً) أنهم لايمكنون سلطانهم من شرب اللبن الحليب ويقولون اذا كان السلطان يشرب اللبن فماذا تشــرب الرعيــة، واتفــق أن أحــد السلاطين اقتنى بقراً حلوباً فسمعوا به فهاجوا عليه وقالوا له اما أن تخلي ســـبيل البقر وتتوب من شرب اللبن والاقتناك، فلم يمكنه الامطاوعتهم[2]

ولنرجع الى اتمام سيرة السلطان صابون وغزواته- حدثني عمــي السيد أحمد زروق قائلا:- ولما تمهدت للسلطان صابون مملكة الباقرمي وارتـــاح مــن عنائها مكث في داره سارا باراً آمناً فما راعه الا أن دخلت عليــه جماعــة مــن رعاياه مجروحين ممزقي[3] الثياب، وأعلنوا بأعلى صوتهم: مظلوميــن يامولانــا السلطان: فقال لهم: ومن ظلمكم، قالوا ملك التاما أغار علينا علــى حيــن غفلــة واستاق مواشينا وأولادنا فخرجنا لتخليصها من يد عساكره فقتلــوا منــا جماعــة وأسروا آخرين وفعلوا بنا ماترى، فاغتاظ السلطان لذلك وأرسل من حينه للسلطان محمد فضل سلطان الفور هدية وأصحبها كتاباً يقول فيه: مامعناه بعد التحيــة- أن سعادتكم يعلم أن لنا مدة مديدة لم تقع بيننا حرب، ونحـــن كـــالأخوين ورعايـــاك ورعايانا واحدة وكلمتنا واحدة وأمرنا واحد، وملك التاما من جملة أتبـــاعك، وقــد أغار على إيالتي واستاق أموال رعيتي وقتل منهم جماعة وأسر آخريــن وجــرح

---

[1] في الاصل " وان لايمكنوا من الذهاب حتى لايبقى شيء في الدن"

[2] حديث المؤلف فيه شيء من المبالغة وعدم الصواب لان من احب المأكولات والمشروبات للعامة والخاصة في هذه البلاد هــي اللــبن ومشتقاته فلا يعقل ان يترك سلطان وداي شرب اللبن بهذه الطريقة.

[3] في الاصل "..ممزقين الثياب"

منهم مثلهم، ولولا مابيننا من المصالحة والهدنة لكنا فعلنا به ماهو أهله لكن إكراما لك تركناه، وها نحن أعلمناك، فالمقصود من عالي همتكم أن تأمروا ملك التاما بردما أخذ من رعيتي عاجلاً، وأن تبالغوا في نهيه[1] بأن لايعود لمثل هذا، ولولا أني خفت من ملامك عليّ وراعيت خاطرك الشريف لوجهت اليه من ينكل عليه ويمثل به،،، والسلام.

فلما وصل الكتاب الى يد السلطان محمد فضل وقرأه وفهم مافيه، قام وقعد[2] وتوقل[3] واسترجع[4] واظهر أنه استشاط غضباً فكتب الى السلطان صابون كتاباً يقول فيه- بعد مايليق بالمقام العالي من التحيات الوافرة والأشواق المتكاثرة.

إنه قد وصل الينا كتابكم وسررنا منه بصحتكم وساءنا مافعله ذلك المارق ملك التاما، وها نحن قد أرسلنا اليه أن يرد جميع ماأخذته عساكره من ايالتكم وشددنا عليه في ذلك غاية التشديد ونرجو أن لايتغير في خاطركم من جهتنا لأن هذا الكلب قد فعل مافعل بغير اطلاعنا،،، والسلام.

فلما وصل الكتاب الى السلطان صابون وقرأه، فهم أنها حيلة من السلطان محمد فضل فقال: كذب عدو الله لو كان قوله صحيحاً وأن مافعله بغير اطلاعه لكان عزله من شدة الغضب، لكنه خدعنا بهذا الجواب وسنصبر حتى ننتظر مايؤول اليه الأمر فبعد مضي أيام قلائل وبينما السلطان صابون جالساً[5] على سرير ملكه اذ سمع ضجة وقعت وأصواتاً ارتفعت فنظر الى البطحاء التي هي أمام داره فوجدها مملوءة (بالناس[6]) مابين جريح وسليب وهم ينادون بالويل والحرب، فقال السلطان من هؤلاء ومادهمهم؟ فأخبر أنهم مساليط، وانهم جاءوا

---

(1) في الأصل " وان تبالغوا في نهيهم بان لايعود... "

(2) قام وقعد. "كناية عن الغضب الذي انتابه."

(3) وتوقل أي قال لاحول ولا قوة الا بالله.

(4) واسترجع أي قال انا لله وانا اليه راجعون.

(5) في الأصل " جالس"

(6) في الأصل "فوجدها مملوءة من العالم"

يشكون ماحل بهم من ملك التاما، فأحضرهم بين يديه وسألهم فأخبروه أن عساكر ملك التاما قد هجموا[1] عليهم واستاقوا مواشيهم وأولادهم (فلما) خرجوا لخلاصها من أيديهم قتلوا منهم ماقتلوا وجرحوا أناساً كثيرين، وها نحن جئنا نشكو حالنا الى حضرة سعادتك، فغضب السلطان وكاد يتميز غيظاً، فكتب من حينه الى سلطان الفور (كتاباً) يقول فيه:

بعد السلام إني قد أخبرت سعادتك سابق تاريخه بان ملك التاما قد اغار على إيالتي واستاق مواشي رعيتي وقتل من قتل وأسر من أسر، ولولا أنه من أتباعك لفعلت به مايستحقه وجاءني من عندك كتاب تذكر فيه أنك زجرته غاية الزجر، وأمرته برد جميع ماأخذه من إيالتي فكان الأمر بالعكس، فانه لم يرد شيئا[2] مما أخذه بل عاد وأغار وفعل أكثر مافعل في المرة الأولى، وأُقسِمُ بمن جعل سيفي قاطعاً ورمحي خارقاً لئن لم تنهه من غيه وتزجره عن سوء فعله، وتأمره برد جميع ما أخذه من السبي لأنكلنّ به ولأجعلنه مُثْلَةً بين يدي قومه وحزبه، وهاتان[3] مرتان قد أرسلت اليك فيهما، فإن عاد الثالثة علمنا أنه مخالف لسلطانه فغزوناه وطالب[4] لهتك أستارنا فهتكناه... والسلام،،،

وأرسل الخطاب صحبة تجار، وأخرج من العساكر جنداً كثيفاً وأمرهم أن يقيموا بالأطراف على أهبة (الاستعداد) ومتى سمعوا بقدوم التاما يكونوا على ظهور الخيل راكبين، ولصدور الأعداء طاعنين، ولخلاص السبي فاعلين، وأرسل الى العقيد جاب الله عقيد الصباح وأمره أن يجمع خيله ورجله، ويكون على أهبة من أمره، ومتى سمع بإغارة القوم (أن) ينجدهم ويمعن في قتل (أعدائهم)[5] فكان كذلك، ومنذ ذلك الوقت تأهب السلطان للغزو واستعد وجند الجنود وأعلن السفر[6]

---

(1) في الأصل " ان عساكر ملك التاما قد هجمت عليهم واستاقوا ابلهم"

(2) في الأصل "فانه مارد مما اخذه شيئاً"

(3) في الأصل " وهذا مرتان"

(4) في الأصل " وطالباً وهو خطأ والصواب طالب"

(5) في الأصل "ويمعن في قتلهم"

(6) في الأصل "وأعلن بالسفر"

ولما وصل الكتاب الى سلطان الفور وعلم بمافيه، تحير (في) أمره، وأظهر الغضب على ملك التاما، وأرسل للسلطان صابون كتاباً يقول فيه بعد مايليق بالجناب الكريم:

إنه قد وصلنا كتابك وساءنا (كثيرا[1]) ماساءك وقد كنت كتبت الى ذاك الخائن الناكث المارق عن الطاعة برد جميع ماأخذه وحذرته غاية الحذر عن العود الى مثلها، ولكن عاد عليه لؤمة وقاده الى الغدر ظلمه وأرجو من أخي وصديقي أن لايؤاخذني بفعله، وإن عاد الى مثلها ليعلمن عاقبة بغيه، فإن هذا الظالم ظنّ أن حصنه يقيه، وجبله يحميه، فلأنكلنّ به أتم النَكال، ولاسقينه كؤوس الخَبال، بدون أن يتعب أخي ويذهب اليه، فأرد جميع ماأخذه الظالم إليه، وهانحن قد أرسلنا اليه من أتباعنا الملك احمد جراب بكتاب منا، فإن خالفنا فيما أمرناه به أريناه عاقبة وبال أمره... والسلام..

ودعا السلطان محمد فضل بالملك أحمد جراب وأمره بالتوجه الى الحال الى جبل تاما وكتب اليه كتباً لايدرى مافيها، كما سلم (رسول) السلطان صابون كتاب سيده وأمره بالتوجه اليه، فلما وصل الكتاب الى السلطان صابون وفهم مضمونه تردد في أمره، وأراد أن يفرق ماجمعه من العساكر، فأشار اليه بعض أرباب الحل والعقد بإبقاء الأمر على ماهو عليه، وكان والدي قد قفل من دار برنو الى وداي واستقر في ظل السلطان صابون ورجع الى وزارته فكان من جملة من أشار على السلطان بإبقاء الأمر على ماهو عليه، وذهب الجواسيس الى السلطان محمد فضل وأخبروه أنه (أي السلطان صابون) متهيىء الى السفر الى جبل تاما وأنه ينتظر عودة أموال رعاياه، وإن لم تعد على الفور سافر اليه، وبينما السلطان منتظراً للأخبار ورد اليه الخبر بأنّ ملك التاما قد أغار على طرف الإيالة بجند كثيف وفيهم عساكر من الفور[2] وأخذوا من الماشية (عدداً كبيراً) وحين(ارتفع[3]

[1] في الأصل " وساءنا واسعا ماساءك"
[2] في الأصل " وفيهم عساكر من عساكر كالفور"
[3] في الأصل "وحين وقع الصباح"

الصباح ركب عساكر الوداى وتعرضوا لهم فوقع بينهم قتال عظيم وكثروا علـــى عساكر الوداى حتى كشفوهم[1] بعدما قتلوا منهم قتلى كثيرين، وبلغ الخـــبر الـــى جاب الله عقيد الصباح فركب فى خيله ورجله وتعرض للتاما، وحال بينهم وبيـــن بلادهم وخلص السبى من أيديهم، وقتل منهم خلقاً كثيراً[2] وأسر منهم من رجالاتهم عدة أناس منهم من هو من جماعة الملك أحمد جراب، فلما سمع السلطان صابون هذا الخبر أمر بالرحيل، فرحل بجيش يملأ السهل والوعر، وتوجه الى جبل تاما، ومازال يجد (فى) السير حتى وصل الى إيالة التاما فوجدها إيالة عظيمـــة، لكـن أكثرها جبال وشجر مشتبك وأهل التاما لايعسر عليهم السلوك فيها، لالفتهم بـــها، وعساكر الوداى لايمكنهم سلوكها لالفتهم السهل، فصار التامـــا يكمنـــون[3] بيـــن الأشجار وكلما عثروا على قوم من الوداى قتلوهم، فقتلوا مـــن عســاكر الـــوداى مجموعة[4] عظيمة، ففطن[5] السلطان (صابون) لهذا الامر، فأمر بقطـــع جميـــع الأشجار وجعلها أكداساً وأحرقها بالنار، ولم يبق فى الإيالة وعر ألا الجبل، فزحف على الجبل وأحاط به من كل الجهات (ثم) خرج عساكر التاما ووقفوا فى أعـــالى الجبل يرمون عساكر الوداى بالحجارة[6] فمات من الحجارة خلق كثـــير، ووقـــف بقية عساكر التاما يحرضونهم على قتال عساكر الـــوداى، وكلمـــا أراد عســاكر الوداى الصعود الى الجبل من جهة دحرجوا عليهم الحجارة فيموتون، وكان والدى لا ذاك (قد) جمع طائفة من المغاربة من أهل فزان وطرابلس الغرب وابن غازى، فلما أعياهم الأمر قال لجماعته كل منكم يأخذ بندقيته (واذهبوا) مع العساكر وقفوا أنتم بعيداً من مرمى الأحجار وكلما رأيتم رجلاً من عساكر التاما يدحرج حجـــراً على العساكر قوسوا عليه حتى تطلع العساكر (الجبل)، فكان الأمر كذلك وكـــانوا

---

(1) فى الأصل "حتى كشفوهم"

(2) فى الأصل "وقتل منهم خلقاً كثيرة"

(3) فى الأصل "فصارت التامة تكمن بين الأشجار"

(4) فى الأصل "فقتلوا من عساكر الوداى جملة عظيمة.."

(5) فى الأصل "..وفطن السلطان صابون.."

(6) فى الأصل "..يرمون عساكر الوداى بالحجارة لاغير.."

اثنين وعشرين نفراً، فخرجوا مع العساكر حتى وقفوا أسفل الجبل تحت شجرة كبيرة وعملوا حائطاً صغيراً أشبه بمتراس وكمنوا خلفه، وكلما رأوا أحداً من التاما على الجبل يدحرج الحجارة أو يحرض على ذلك قوسوا عليه، فقتلوا منهم جماعة، وانتبه لهم التاما وقصدوهم بالأحجار فشدخوا منهم رؤوس جماعة، وكان عمى السيد أحمد باشا رئيسا عليهم، فلم يبق سليماً غيره، وستة أنفار واستقروا بجذع الشجرة وصاروا يقوسون بالبندق على التعاقب، وكان التاما[1] يتعجبون من الرصاص كيف يصل اليهم الى أعلى الجبل ويقتلهم، فمات منهم خلق كثير، وصاروا كلما رأوا دخان البارود هربوا وربما ناموا على الأرض فرصدهم[2] المغاربة، وصاروا كلما رفع الشاب من التاما رأسه قوسوا عليه وأصابوه، ودام الأمر على ذلك الى قرب العصر، فانكشفوا، وصعد الوداى الى أعلى الجبل، وفى صدر النهار جاء انسان الى السلطان صابون وأعلمه أنه يعرف للجبل طريقاً سهلاً يمكن منه صعود العساكر بدون مشقة، فعين معه جنداً عظيماً وأمرهم بالتيقظ والاحتراز فتوجهوا معه فكان وقت صعود العساكر من جهة المغاربة هو وقت صعود العساكر الذين ذهبوا مع الجاسوس، فقتلوا من التاما خلقاً لايعلم عددهم الا الله تعالى، ودخلوا بيت ملكهم فوجدوه بلقعاً لم يجدوا فيه شيئا، وفر الملك فلم يقع له على خبر، وحين سمع السلطان بفراره تأسف غاية التأسف وحزن واغتم، إذ لم يقع فى يده، وأنزلوا من الجبل النساء والأولاد والبقر والغنم مالايحصى كثرة، وأمر السلطان صابون بهدم بيت الملك وإحراقه هو وجميع ماعلى الجبل من الأبنية (كما أمر) بكسر الأوانى وقطع الأشجار وان لايتركوا للتاما شيئا ينتفع به، فمكث العساكر فى الجبل نحو سبعة أيام يحرقون الدور ويكسرون الأوانى ويحفرون فى البيوت ويأخذون[3] الغلال حتى تركوا الجبل بلقعاً كأن لم يكن به أبليس، ثم نزلوامن الجبل، فأرسل السلطان السرايا فى الإيالة من كل جانب،

---

(1) فى الأصل .. وكانا التاما تتعجب من الرصاص..."

(2) فى الأصل "..فرصدوهم المغاربة.."

(3) فى الأصل ".. ويأخذون الغلال ويحفرون البيوت.."

فمكثت قليلاً ثم رجعت ومعها من الغنائم شيء كثير، ومعها رؤوس القتلى على أطراف الرماح، ثم ذهبت مرات وعادت ودام هذا الحال مدة ثلاثة أشهر وعساكر السلطان يخوضون في دار تاما ويقتلون ويأسرون ويحرقون البنيان ويهدمونه ويكسرون الأواني ويأخذون كل ماوجدوه نافعاً حتى تركوها بلاقع، وارتحل السلطان بعد ذلك الى بلده منصوراً مؤيداً.

تنبيه:-

جبل التاما هذا ليس عالياً جداً[١] وانما يعسر سلوكه لضيق طريقه ووعرها الا ماكان من الطريق التي ذهب منها الجيش مع الجاسوس، وهو جبل واسع فيه أنهار دافقة وعيون باسقة وأشجار ملتفة، وسعته فرسخان في مثلها وفيه عدة بلاد غير بلد الملك.

تنبيه آخر:-

قد قاسى أهل الوداي من التاما مالم يقاسوه من غيرهم لأن في التاما من المكر والحيل مالايوجد في غيرهم، فكان لايقبل الرجل منهم حتى يقتل من الوداي اثنين أو ثلاثة، وكان التاماوي يخرج فيجعل نفسه ميتاً[٢] فاذا اقترب منه الوداوي يريد سلبه يصبر التاماوي حتى يصل[٣] الوداوي عنده فيضربه بالسكين فيقتله، ولو كان التاماوي في آخر رمق من الحياة، ولولا كثرة الوداي وقلة التاما لما قدروا عليهم[٤]

تنبيه آخر:

لما خرج السلطان صابون الى جبل التاما وبلغ ذلك السلطان محمد فضل ظن أن التاما يغلبون الوداي، لما بلغه من حصانة جبلهم ووعر أرضهم، فجمع عساكره هو الآخر واستحضر أدوات السفر وبقي منتظراً[٥]، وفي كل يوم يرسل أناساً ويأتيه آخرون، فكان كلما بلغه أن التاما قتلوا من الوداي أو غلبوهم يسرّ بذلك، وكان قصده أن التاما اذا غلبوا الوداي فيرحل بجيشه ويدخل دار الوداي.

---

(١) في الأصل "... جبل التاما هذا جبل ليس عالياً..."

(٢) في الأصل :... وكان يخرج التاماوي فيجعل نفسه انه مات.."

(٣) في الأصل " حتى يقي الوداي عنده.."

(٤) في الأصل "...لما كانوا قدروا عليهم."

(٥) في الأصل "... وبقي مستوقفاً.."

وهم على ضعف، فيأخذ المملكة منهم ويجعلها تابعة لمملكة الفور، ويحتج على السلطان صابون (بقوله) إنى كنت أريد أن آخذ لك حقك من ملك التاما فما صبرت بل حقرت ذمتي في رعيتي وغزوتهم بظلمك وتعديك لم تنتصر عليهم، وكان اذا سمع بأن الوداى غلبوا يغتم لذلك فما راعه الا والمنهزمون داخلون عليه أفواجاً أفواجاً يقولون: أغثنا يامولانا السلطان من السلطان صابون، فانه قتل رجالنا وسبى ذرارينا ونساءنا ونهب أموالنا، وهدم دورنا وقطع أشجارنا وترك بلادنا يباناً كأن لم تغن بالأمس على حد قول الشاعر:-

كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

فقام وقعد وعسر عليه، وكبر لديه، وقال حقرني وحقر ذمتي في رعيتي ونادى في عساكره بالأهبة، فاجتمع عليه أرباب دولته ومنعوه من الذهاب وقالوا له: الحق مع الرجل، فإنه اشتكى مراراً فلم تشكه فدعه يفعل ماأراد بخصمه ولاتتعرض له بسوء، الا إن دخل في إيالتنا فحينئذ يجب أن ندفع عن حريمنا وبلدنا فثبطوه، وأنا إذ ذاك كنت في دارفور[1]، وأن أبي أرسل لي بالقدوم عليه، وبعدما تهيأت للسفر ومنعني (أي السلطان محمد فضل) عن السفر ولم يأذن لي إلابعد رجوع السلطان صابون من تاما الى بلده وقد ذكرت ذلك سابقاً فلا فائدة في الإعادة وحين بلغ الخبر الى السلطان صابون بأنّ السلطان محمد فضل اغتم لما حصل للتاما من الخذلان والقهر، وعلم أن كل ماكان يرسله من الكتب كان خديعة ومكرا منه، وأراد (السلطان صابون) المبالغة في (اذلال التاما) فصبر حتى رجع اهل الجبل الى جبلهم ورجع الملك الى مقره، وبنوا وسكنوا وزرعوا حتى قارب الزرع وقت الحصاد فأرسل أربعة قواد من أمرائه مع كل قائد أكثر من عشرة آلاف من الخيل والرجل وامرهم بفساد زرع التاما، وقطع ماخلف من الأشجار، وإحراق البيوت وكسر الأواني وأسر ماقدروا على اسره، وقتل من أمكنهم، وأن لايغفلوا عن التيقظ والاحتراز، وأن لايمشوا إلا ليلا، ولايخبروا أحدا بمقصدهم، وأن يتفرقوا في الجهات الأربع وأن كل قائد يفسد جهة، وأن الرسل تتردد بينهم ليكونوا على

---

[1] أي ابن المؤلف كان اذ ذاك في دارفور قبل أن يسافر الى وداي حيث كان ابوه وزيراً للسلطان صابون، كما سبق تفصيله في الفصل الاول من هذا الكتاب.

بصيرة من امرهم، فسار الجيش حتى نزل بدار تاما فعبث بالزرع وأتلفه وأحرق الأماكن وأغار وسبى (ثم) نزل لهم التاما[1] وقاتلوهم قتالا عظيما، وباع السوداى أنفسهم فأبلوا بلاءً حسنا ونصروا على التاما، فهزموهم وقتلوهم قتلا ذريعا وسبوا نساءهم وأولادهم وأتلفوا زراعاتهم غاية التلف، وكروا راجعين ومعهم من الغنائم مالا يحصى، فضاق ذرع ملك التاما لذلك، وساء حاله، وصار يأخذ الميرة من دارفور، وجلا عنه جل أهل البلاد حتى صارت البلدة التي فيها مائة رجل ليس فيها عشرة من الرجال، فلما رأى ملك التاما ذلك شكى حاله الى سلطان الفور، فأرسل له حبا[2] وبقراً وغنما وأمره أن يفرقها في جماعته وأن يأمرهم بعمارة البلاد وأرسل الى السلطان صابون كتابا يقول فيه بعد اهداء مايليق بالملك السعيد:-

إن ملك التاما قد جوزى ببغيه وظلمه، وعوقب على تعديه وجرمه، والآن قد فاء الى أمر الله، وندم على مافرط في جنب الله وجاء تائبا، فارجوك أن تتجاوز عن ذنبه، وتكف عن إذايته وعتبه، فلما وصل الكتاب الى السلطان صابون أرسل (اليه خطابا) يقول فيه:

قد وصلني كتاب أخي بالاعتذار عن الخائن الغدار وقبل ذلك فرط مني يمين ولست فيه أمين أن أكرر عليه العقوبة حتى يعلم أن في البيدا رجالا، من تعرض لها يلقى اهوَلا والخير بالخير والبادى أكرم، والشر بالشر والبادى أظلم ورحم الله الشاعر حيث يقول:

فبالقتل قتل وبالسوام مثله ... وبالشل شل الغائظ المغصوب

وليت شعرى اذا كنت تعلم أنه من اتباعك ويرعوى لأحكامك لم لمْ تقدر[3] على منعه حين راسلتك فيه مرارا وشكوت اليك سرا وجهاراً أما كتبت لى تقول انه خالف أمرك السامي، وتعدى طوره وركبه متن التعامى فكيف ترجع الان بالشفقة والحنو عليه، وهل هو إلا لئيم قال فيه الشاعر العظيم:-

---

(1) في الأصل "... ونزلت التاما لهم."

(2) المراد بالحب هنا الحبوب، وهي الذرة.

(3) في الأصل " لم لاقدرت..."

اذا انت أكرمت الكريم ملكته   وإن انت أكرمت اللئيم تمردا

وانى أحلف بآبائى الكرام وأجدادى الفخام لابد أن أعرفه[1] قدره حتى أنه لايتعدى طوره، فالمعذرة اليك والسلام.....

فلما بلغ الكتاب الى السلطان محمد فضل أغتاظ اشد الغيظ، وشاور أرباب دولته فيما يفعل مع السلطان صابون، فاختلفت آراؤهم فمنهم من يقول نغزوه ونعرفه قدره، ومنهم من يقول نصالحه ونتركه مع صاحبه[2] ، فأرسل الى ملك التاما يخبره بما حصل بينه وبين السلطان صابون، ولم تفت الا أيام قلائل حتى أرسل السلطان صابون جيشا كثيفا ينوف عن خمسين ألف فارس وراجل ودخلوا دار التاما من عدة جهات واستاقوا جميع ماعرض لهم من المواشى، وأسروا من النساء والأولاد، وقتلوا من الرجال ما الله به عليم، وكان من جملة المواشى مواشى ملك التاما وعبيده، فثار الصياح وبلغ الخبر الى ملك التاما، فخرج بجميع جيشه وقصد المعركة، وكان أحد قواد الوداى ومعه نحو سبعة آلاف من الخيل جاء من ظهر الجبل من الطريق السهلة الارتقاء فصادف نزول ملك التاما (مقتفيا) أثر الوداى (تاركا ذراريه وأمواله فأعقبه هذا القائد) بجماعته وصعد الجبل واستاصل جميع ماوجد فيه من النساء والاولاد والماشية، ونزل سريعا وأوقد النار فى البيوت واشتد[3] فى النكاية بهم.

وأما ملك التاما فانه لحق الجيش وناوشهم القتال، فدفعوا الأموال أمامهم مع بعض الجند ووقفوا لقتاله، فصدمهم بخيله ورجله فكانت بينهم ساعة يالها من ساعة، وبينما هو فى المعركة إذ بلغه الخبر أن جميع مافى الجبل قد أخذوا وأحرقت البيوت فتحير فى أمره فقسم جماعته حيث أخذ بعضها وتوجه الى جهة العسكر (الذين أخذوا الأموال والأولاد فى الجبل) لكنه لم يصادفهم لأنهم سلكوا طريقا غير التى سلكها، وأما الجماعة الذين أبقاهم أمام الجيش فإنهم انهزموا بعد ذهاب ملكهم وقُتل منهم رجال كثيرون ثم تبعهم الوداى يقتلون ويأسرون ويأخذون

---

[1] فى الاصل "..لابد مأعرفه قدره...."

[2] فى الاصل : ونتركه بينه وبين صاحبه.."

[3] فى الاصل ".. واعظم النكاية.."

الأسلاب، واقتحم ملك التاما المشقة وذهب يقص أثر القوم فلم يعثر عليهم حتى (تجاوزوا الحدود ولقيهم) فى أول إيالة الوداى فلما رآهم خرجوا من ايالته خاف إن لحق بهم وسمع به عقيد الصباح (سيقوم بتجييش الجيوش ومن ثم) إما أن يواجه[1] القتل أو الأسر، فانكفا راجعا وما استفاد من حركته تلك الانقما، ولما رجع الى الجبل وجد القوم قد اتموا خرابه[2] وأخذوا لبابه، على حد قول الشاعر:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر[3]

فعظم (الامر) عليه وكبر لديه فجمع أرباب شوراه وقال لهم اورونى كيف أصنع، قد فتحنا على أنفسنا باباً من الشر بمعاداة هذا الرجل، كما أن سلطان الفور قد خلى بيننا وبينه ولم يفعل[4] شيئا، فاتفق رأيهم أن يصالحوه ويجعلوا له عليهم مالا معلوما يؤدونه له فى كل سنة (مقابل) أن يرفع عنهم الغزو، فكتب الى السلطان صابون كتابا يقول بعد تقبيل الأقدام....

إن العبد اعترف بذنبه وآب الى ربه والعفو من شيم الكرام، وقد رأيت أن أكونَ خادما للسدة الشريفة، وأريد أن تقرر عليّ مالا أدفعه فى كل سنة، وتؤمنى على أهلى ومالى كما تفعل مع بقية ملوك الطوائف الذين خدموا اعتابك وقاموا على بابك، وأطلب من مراحم مولاى أن لايشتط علينا فى الطلب ليوردنا بحار العطب، لان الحال قد حال، والمال قد مال، والكف صفر والديار قفر، وأمل من افضال مولانا نواله ومكارمه واجلاله أن لايأتى رسولنا منه إلا بكتاب عهده لنا من الغارة الشعواء والمصيبة الدهماء،، والسلام....

فلما وصل الكتاب الى السلطان صابون وقرأه وفهم مضمونه اجاب سؤاله وكتب له (قائلا):

---

(1) فى الاصل "..خاف ان لحقهم وسمع عقيد الصباح بحركهم ويحشدون به فاما ان يقتلونه او يأخذوا عليه.."

(2) فى الاصل "..قد اتموا اخرابه.."

(3) البيت: كناية عن الخراب الذى حل بدار حبيبته هند حيث ارتحلت من الربع مع قومها فجاء ووقف على اطلالها...

(4) فى الاصل "..ومافعل شيئا.."

اما بعد فقد وصلني كتابك وفهمت ماانطوى عليه ومن جاءنا تائبا قبلناه ومعتذرا عذرناه، وقد فرضت عليك في كل سنة مائة فرس وألف راس من الرقيق شرط أن تؤمن السبل وتعطي الطاعة حقها، وقد اجبناك الى سؤالك اقتداءً بقول الشاعر:

اقبل معاذير من يأتيك معتذرا ... إن كان قد بَرَّ فيما قال أو فَجَرا

والسلام....

فلما وصل الكتاب الى ملك التاما وفهم مضمونه كتب الى السلطان صابون (قائلا): قد دخلت تحت طاعتك وصرت واحدا من جماعتك وأسأل مولانا من مراحمه أن يخفف عنامن عدد الرقيق فانا لانقدر عليه لأنّا في أرض ليس بجوارها فرتيت وأن كان عندنا شيء من الرقيق فكله من الشراء لامن الكسب، ولانطيق أكثر من مائة رأس في كل عام والسلام....

فلما وصل الكتاب الى السلطان صابون علم صحة قوله، فصفح عنه وقال يكفيني أنه صار من أتباعي، وكتب له كتابا يقول فيه:

من حضرة عبدالله أمير المؤمنين[1] السلطان محمد عبدالكريم صابون العباسي إلى كل من يقف على كتابنا هذا من الوزراء والأحفاد والأمراء والقواد، دام إجلالهم، أما بعد... فان الملك أحمد ملك التاما قد التمس من مراحمنا أن نكف عنه الغارة ونامنه في أهله وأولاده ورعاياه وبلاده وأن يكون واحداً من رعايانا وشرط على نفسه أن يدفع لنا كل سنة مائة فرس ومائة من الرقيق، واعتذر عما مضى من أفعاله فقبلنا عذره ورضينا شرطه، وشرطنا عليه امن السبل وأن يكون مواليا لمن والانا ومعاديا لمن عادانا، فاذا فعل ذلك فعليه منا أمان الله وأمان رسوله، فلا تلج خيلنا دياره ولاتقلع آثاره، وقد ارسلنا اليه على وجه الهدية سيفا وخلعة علامة من مكارمنا على تثبيته في ملكه مادام متبعا للسنة والكتاب واقفا على قدم العبودية على الأعتاب مؤديا لما فرضناه عليه ممتثلا لأوامرنا العلية التي تصدر اليه.. والسلام.....

---

[1] هذا اللقب مقتبس من دواوين العصر العباسي وكذلك العصر الراشدي خاصة كتابات الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أما لقب "العباسي" فكما ورد من قبل بأن سلاطين الوداي يدعون الانتساب الى العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم.

واخرج والسلطان سيفا وكسوة وارسلها (اليه) صحبة الكتاب فلما وصل الكتاب الى ملك التاما فرح غاية الفرح، وجهز المائة فرس والمائة رأس من الرقيق في الحال وأرسلها مع أحد ذوى قرابته فلما وصل الى واره وأخبر بها السلطان أمر بحضوره بين يديه واذا بيده كتاب (جاء) فيه:

من عبدالله أحمد ملك التاما خادم أمير المؤمنين الى حضرة أمير المؤمنين وخادم الحرمين الشريفين سيدى وابن سيدى السلطان محمد عبدالكريم صابون بعد تقبيل مواطىء أقدامه، والدعاء له بنصر أعلامه أن الواصل لحضرة سعادتك ابن عمى وأعز الناس عندى وصحبته ماهو مقرر على عبدك من الخيل والرقيق، وأرجو من مكارم سيدى وتفضلاته أن ينعم بقبولها مع غض الطرف عن قبحها وحسنها وأسأل مولاى أن يديم سعادته ويزيد سيادته والسلام.........

فلما قرا السلطان كتابه أعجبه منه تواضعه، وقبل المال وكان كله مختارا من الخيل المسومة والرقيق المنقح، فأكرم الرسول وأنزله أحسن نزل، ثم كتب له كتابا بوصول الاموال، وكساه وأرسله الى ملكه.. اهـ.

ولما بلغ الخبر الى السلطان محمد فضل بأن ملك التاما قرر على نفسه في كل سنة مائة رأس من الخيل ومائة رأس رقيق أشتاط غضبا وقال كيف يكون تابعي ويجعل على نفسه لغيرى مالا، هذا شيء لا أرضى به، إما أن يكون تابعي خاصة، أو يكون تابعا لغيرى، خاصة، وفي الحال كتب الى ملك التاما يقول له:

إنه قد بلغني أنك قررت على نفسك مائة رأس من الخيل ومائة رأس من الرقيق للسلطان صابون ودفعت له مال سنة وجاءك منه كتاب بالعهد والتثبيت في مملكتك والحال انك لى تابع، ولأعتابى منسوب فقل (لى) اتقدر على دفع ديوانين، أم تريد أن تنزع طاعتي وتكون للسلطان صابون خاصة أم كيف الحال. فلما وصل الكتاب الى ملك التاما أرسل الى السلطان محمد فضل كتابا معناه أن سيادتك أرسلت تستفهم منى فاعلم سعادتك أن مابلغك صحيح، وأني على ماتعلم من دفع المبلغ لاعتابك كما كتبت (وانى) انما دفعت هذا المال وقاية لعرضى ومالى وفداء عن نفسى لأنى الآن ضعيف، وقد نهكتنى الحرب، وهذا الرجل لا أقدر على محاربته، فأنا أفعل ذلك مهادنة حتى أتقوى وأقطع يد الطاعة بعد ذلك ولا أبالى والسلام...

فلما وصل الكتاب الى السلطان محمد فضل اطمان وصفا خاطره بعد التكدر وأماالسلطان صابون فانه بعد أن علم أن ملك التاما صار من اتباعه أمر التجار أن يذهبوا الى بلاده ويبيعوا بضائعهم للتاما[١] ، إما نقدا وإما نسيئة[٢] وكل ذلك قصده أن يعرف هل هذا الصلح صحيح، أم هو أمر ظاهرى فقط فسلكت الطريق ووقع الأمن وزال الخوف، ودخل التاما بلاد الوداى ينادون من وجدوه من أولادهم ونسائهم وذوى قرابتهم ومن قدروا على سرقته سرقوه، ومن قدروا على إغرائه على الفرار أغروه حتى خلصوا من اولادهم ونسائهم جمع غفير، (وحينما) علم السلطان صابون بذلك لم يمنعهم[٣] لما بينهم من عقد الصلح، بل قال لهم كل من وجدتموه سارقا لاحد من الرقيق (التاما) اذنتكم بقتله، لأن هذا خيانة والخيانة ضد العهد أما من أظهر نفسه وطلب الفداء فلا لوم عليه، واشتغل السلطان صابون بأحواله.

وفى تلك الايام جاء[٤] الى السلطان صابون أعرابى من عرب بادية درنا وابن غازى جاء به اناس[٥] من القبيلة المسماة بالبديات[٦] وهى قبيلة من الأعاجم يسكنون أطراف الوداى وهم بأعراب البادية أشبه فاخبروا أنهم وجدوه ضالا يلادرى اين يتوجه وقد أثر فيه العطش تأثيرا شديدا وأنهم ماراوه إلا فى آخر رمق من الحياة، فسقوه الماء وأراحوه في باديتهم نحو شهر، ثم قدموا به الى

---

(١) في الاصل "..على التاما.."

(٢) نسيئة "..اى مداينة وهو اسلوب متبع في الجاهلية ثم حرمه القران..."

(٣) في الاصل: "..وعلم السلطان بذلك فما حجر عليهم.."

(٤) في الاصل: "وصل الى السلطان.."

(٥) في الاصل قدموا به على السلطان.."

(٦) البديات: من مجموعات الزغاوة كانت مضاربهم الاولى في ودن wun وودحلة Wanyanga على الحدود الليبية التشادية ثم هاجروا تدريجيا من الشمال الى الجنوب وتعتبر منطقة أم حجر المركز الرئيسي الاول للبديات بعد هجرتهم ثم توسعوا أخيرا في منطقة هاى في تشاد وتتكون مجموعة البديات من عدة عشائر تنقسم بدورها الى قسمين رئيسين هما: البليا Bilia وبتواصدون شرق فدا والبروقات ويسكنون غرب وارة، ويقدر بالاحتمال عدد البديات في ايدى في الستينات من القرن التاسع عشر بحوالي عشرين ألف نسمة ولكن هذا العدد قد تقلص وهاجر عدد منهم الى ليبيا وسكنوا وسط الفرعات وزرع أمرون الى وادى هور كما هاجرت أعداد مقدرة منهم الى دار زغاوة وانتشروا في انحاء دارفور واليوم اعدادهم في السودان اكثر من أعدادهم في تشاد.

ينظر: Nachtigial, Sahara and Sudan, iv Wadai and Darfur, Landon, ١٩٧١. P.١٣٧.

السلطان فسأله السلطان ممن انت[1] فقال أنا من القبيلة المسماة بـأولاد علـى[2] خرجنا نحو خمسين فارسا طالبين المكسبة والغارة على السودان، فضللنا الطريق ونفذ الماء، فأرسلوا منا ثلاثة يبحثون عن الماء فكنت أحدهـم فضللـت وهمـت وصرت لا أدرى أين أتوجه فركضت فرسي حتى كل وتعب ومابقى بـه حـراك، فنزلت عنه وتركته وصرت أسعى راجلا بعد ذلك ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع اشتد بى الحر وعطشت وكدت أموت ظمأ ولولا قيض الله لى هؤلاء السـودان لمـت، فقال له السلطان كم مكثت بدون شرب ماء فقال له: ستة أيام ماذقت فيها مـاء[3] فصار الناس مابين مصدق ومكذب.

وكنت اذ ذاك خلصت من سجن سلطان الفور وقدمت على وداى فاجتمعت على ذلك البدوى وكان اسمه عليا[4] فسألته عن قصته فأخبرنى كما سمعت، فأنعم عليه السلطان ببعض الرقيق وأربعة خيول[5] وأعطاه عشرة من العبيـد علمـهم التقويس بالبندق وأصابة الغرض، فكثيرا ماكان يقول لو أعطيت إذناً بالذهاب من الطريق التى جئنا منها لكثر الخير على السلطان، اذا سلكت، لأنها أقرب الطـرق الى بر العرب، فلما سمع منه السلطان هذا الكلام أخرج قافلة ونادى فى الملأ[6] الا كل من يريد التجارة الى درنا وابن غازى فليجهز نفسه ويخرج مع هـذه القافلـة وأرسل وراء مشائخ البديات فاحضرهم وأمرهم أن يتوجهوا بالقافلة (عبر بلادهم) وأن تكون فى ضمانهم الى المكان[7] الذى وجدوا فيه البـدوى والـتزم البـدوى باستدلال القافلة بعد ذلك الى الطريق (التى سلكها) فخرجت قافلة عظيمة وصحبها السيد الشريف احمد الفاسى الذى كان استوزره السلطان عوضا عن والدى وهـو

---

[1] فى الاصل ممن انت " اى من اى قبيلة انت وهو تعبير متعارف عليه فى تشاد ودارفور"

[2] اولاد علي : قبائل عربية تنتشر فى الواحات الشرقية لليبيا على الحدود المصرية وتمتد مضاربهم الى الجزء الغربى والصعيد فى مصر.

[3] هذا الخبر فيه شيء من المبالغة لانه بحسب المقاييس العلمية فان الانسان لايستطيع ان يعيش ستة ايام دون شربة ماء خاصة فى مثل تلك البيئة الصحراوية القاحلة.

[4] فى الاصل " وكان اسمه علي... وهو خطأ والصواب عليا.."

[5] فى الاصل ".. واربعة جواد...."

[6] فى الاصل " ونادى فى جمهور وغيره.."

[7] فى الاصل ".. الى حيث ماوجدوا فيه البدوى.."

رجل من فضلاء [1] اهل العلم وأجلهم، جيد الحفظ والرواية متعمقاً[2] فـــي الفقـــه وكتب الحديث، يحفظ موطأ الإمام مالك عن ظهر قلب[3] وله المام بفن التشريح[4] ولقد رأيته يقرا في الدروس وحضرته في تشريح العين، وتكلم عن ذلـــك كلامـــا جيدا وأما علم المعقول فله فيه مايقوّم لسانه ويصحح فكره لكن مع ما أعطـــاه الله من الفضل كان أحمق وغر الصدر، فاستوحش فيه أهل البلد وثقل عليـــهم أمـــره حتى أدى الأمر الى أنهم قتلوه كما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى..

تنبيـــه:-

أنما فرح السلطان صابون باكتشاف[5] هذه الطريق مع أن أهل الوداى مـــن قديـــم الزمان لايعرفون إلاطريق فزان، ومنها تجلب لهم جميع المصالح (وذلـــك) لمـــا حصل من السلطان المنتصر الشريف[6] في حق والدى حين سافر بأموال السلطان صابون وأراد الذهاب بها الى طرابلس المغرب، وأراد المنتصر قتله فلمـــا بلـــغ السلطان صابون ذلك تكدر خاطره منه، ولو لا مشقة البعد ومابينهما من المفازات المعطشة لغزاه، وحين سمع بهذه الطريق فرح واجتهد في سلوكها (وكان) ســـبب تغير السلطان المنتصر على والدى (هو أنه) لما أراد التوجه الى تونس تذاكر مع السلطان صابون في شان ذلك، والتمس منه الاذن في السفر[7] فســـأله الســـلطان

---

(1) في الاصل وهو رجل كان من فضلاء اهل العلم..."

(2) في الاصل "... متوغلا في الفقه.."

(3) في الاصل "على ظهر قلب.."

(4) التشريح: الذي قصده الباحث هو علم الجراحة الطبية

(5) في الاصل : باحداث هذه الطريق.."

(6) السلطان المنتصر الشريف: هو من السلاطين المتأخرين في حكم فزان، ذلك أن مدعم الكبير ويدعى المنتصر محمد الفاسي ينحدر من اسرة مغربية حكمت فزان، منذ عام ١٥٧٨م في عهد الاتراك بعد ان اشار اليهم بضرورة الاستيلاء على فزان لأن ذلك سيمكنهم مـــن التحكم في اهم طرق القوافل التجارية ويفتح امام الاتراك الطريق واسعا للتوغل في بلاد السودان اضافة الى ان الوالي رأى في الحملة على فزان فرصة للتخلص من شغب الجنود وصرفهم الى ميادين بعيدة عن العاصمة طرابلس بعد ان بلغت تعدياتهم حدا يفوق الوصف فبعد موت درغوث غرقت طرابلس في موجة من الفوضى والارباك وكانت الانقلابات العسكرية واللعب برؤوس الولاة اللعبة المفضلة لدى جند الانكشارية وبعد انسحاب الوالي عقب الحملة وتولى المنتصر حكم فزان واستمرت في عقبه لمدة ثلاثة قرون حيث كتـــب مؤلفنـــا التونسي عن نهايتها في هذا الكتاب. ينظر: مصطفى حوحة، تاريخ فزان، تحقيق حبيب وداعة الحناوي جامعة الفاتح- ليبيـــا- ١٩٧٩، ص ٣٢.

(7) في الاصل " في التصرف في السفر.."

صابون (عن) أى البلاد بعد فزان، فقال له والدى طرابلس، فقال له السلطان لابد أن أثمان الرقيق فى طرابلس أغلى من أثمانها فى فزان، وأثمان البضائع فى طرابلس أرخص من أثمانها فى فزان، فقال له والدى نعم، فقال له السلطان هل لك فى أن أرسل معك رجلا من أمنائى ومعه رقيق لى فتبيعه لى فى طرابلس وتشترى لى ثمنه كذا وكذا من البضائع، فقال له والدى حبا وكرامة، فعين السلطان صابون رجلا من امنائه وأرسل معه مايئوف عن ثلاثمائة من الرقيق وأمره أن يكون تحت طاعة والدى، يأتمر بأمره وينتهى بنهيه، فلما وصلا الى فزان وكان اذ ذاك متوليها السلطان محمد المنتصر فرح بقدوم القافلة لأن أكثر منافعه منها، فباع التجار رقيقهم فى بلده وأبى ابى ان يبيع فيها وكذلك أمين[1] السلطان صابون، فلما بلغ الخبر الى السلطان المنتصر دعا بوالدى وقال له، أنت الذى دللت سلطان الوداى على إرسال رقيقه الى طرابلس وعدم بيعه هنا، فأنكر ذلك والدى، وقال له إن السلطان صابون بلغه الخبر أن الرقيق فى طرابلس أغلا منه فى فزان، فأرسل رقيقه مع خادمه وأمره أن يتوجه الى هناك، فقال له: لم تجر عادة بذلك، وماوقع هذا الاباستدلالك وأظهر له عين الغضب، ولو لا أن الله أمسك لسانه لقال خذوه، وخرج والدى من عنده فى غاية الغم والخوف على نفسه وماله، ولما كان عند المساء جاءه الحاج عثمان وزير المنتصر وقال: يامولاى تدارك أمرك بهدية وقدمها الى السلطان عسى أن تنفعك، فإنه مضمر لك سوءاً، فلما سمع والدى منه ذلك أخرج من أحسن الجوارى ستا، فادخلهن عليه هدية، فرفض ان يقبلهن، فشفع فى قبولهن الحاج عثمان المذكور، فحصل منه الصفح وإن كان بقى فى نفسه مابقى، وتلافى والدى أمره وخرج مسافرا الى طرابلس، فدعاه السلطان وأمره أن ياخذ تابع السلطان صابون ورقيقه معه فابى وقال معاذ الله أن آخذه معى، ومالى وله، هو رجل من طرف السلطان وأنا رجل غريب لاعلاقة لى به، فاصر[2] عليه السلطان المنتصر ان يسافر معه، فأبى والدى وحلف إلا يصاحبه فى طريق، وخرج والدى الى طرابلس وترك امين السلطان صابون فى فزان ليلحقه فى

---

[1] فى الأصل " وابى ابى ان يبيع فيها هو وامين السلطان كذلك.."

[2] فى الأصل " فاكد عليه السلطان.."

طرابلس بعد أيام حين بلغ الخبر الى يوسف باشا[1] حاكم طرابلس أن المنتصر فعل كذا وكره قدوم هذا الرقيق الى طرابلس أضمر له سوءاً، لأن فزان من أعمال طرابلس والباشا هو الذي ولى المنتصر عليها، ثم عظمت الأمور بينهما الى أن آل الأمر الى قتل المنتصر واستيلاء محمد المكني[2] حاكما عليها من قبل يوسف باشا.

وبيان ذلك أن يوسف باشا بعد أن وصل اليه والدي وأعلمه بماحصل من المنتصر، حقد عليه وفكر في حيلة يكيده بها، ليظهر عصيانه، فاستشار بعض أرباب دولته في ذلك فأشاروا عليه بأن يرسل بضاعة الى برنو على طريق فزان مع امين له بكتاب معه من عنده على عامل فزان وكتاب الى سلطان برنو فندب محمد المكني الى ذلك وكان محمد المكني قبل ذلك أحد حجابه، فأرسل معه أربعة أحمال من البضائع خلاف الهدايا وجهزه وأمره أن يسافر الى برنو عن طريق فزان، وكتب الى المنتصر كتابا يقول فيه:

---

(1) يوسف باشا قرامانلي: جاء بعد حكم والده الطويل والذي استمر من ١٧٤٥ وحتى نهاية عام ١٧٩٣ حيث بدأت الأحوال تضطرب بسبب الثورات التي بدأت في عهد أبيه، واشتدت في أيامه حيث غرقت الدولة في الديون الأجنبية فعجل ذلك من نهاية حكمه وخلفه ابنه علي باشا آخر سلاطين الأسرة القرامانلية فعجز عن دفع الديون الأوربية، فشنت فرنسا وانجلترا الحرب على طرابلس بالقنابل فعزل علي باشا من الحكم وبذلك انتهى عصر الأسرة القرمانلية وعادت ليبيا الى الدولة العثمانية من الناحية الرسمية واستمرت على ذلك حتى بدأ الغزو الايطالي عليها عام ١٩١١م.

ينظر: مصطفى حومة: تاريخ فزان، ص ٥٩.

(2) محمد المكني: جاء في رواية ابن غلبون: (وكانت بالخلافة لولاء المكني علي ومحمد الغزيل" وهما ينتميان الى أسرة المكني الطرابلسية جاء جد الأسرة الى طرابلس في ولاية مراد باشا في مجموعة من الصفاقسيين ليشتغلوا بالتجارة والزراعة والصناعة لمهارتهم في ذلك وعين المكني رئيسا عليهم، واستطاع المكني أن يدعم نفوذه ويكسب ثقة الوالي ويحصل على عضوية مجلس ادارة الولاية، وتعد أسرة المكني من كبار تجار طرابلس ولهم فيها نفوذ سياسي واقتصادي كبير، ولهم تجارة رائجة مع السودان وكانوا يتحينون الفرصة دائما ليكون لهم نفوذ وسيطرة على الطريق التجاري بين طرابلس والسودان، وفي محاولة احتكار هذه التجارة حاولوا اقناع السلطات العثمانية في طرابلس لاعطائهم حكم فزان مقابل تأمين تجارة القوافل في تلك الأنحاء ودفع خراجها بصورة منتظمة لديوان الولاية، ذلك الخراج الذي كان يشكل موردا هاما من موارد الولاية، وقد برز محمد المكني كأحد كبار مساعدي باشا طرابلس ومن المقربين اليه وكانت له اليد الطولى في قمع الثورات والتي صاحبت تولي يوسف باشا ولاية طرابلس فكان يتمتع بشخصية كبرى وعندما توفي والده أطلق عليه لقب "بك النوبة" أي المسئول عن جمع الخراج من فزان، فكان يسافر اليها في كل عام لتسلم الخراج حتى حدثت هذه القصة التي ذكرها كاتبنا واستولى بذلك المكني على حكم فزان. ينظر" مصطفى حومة: تاريخ فزان، ص ٧٥.

ينظر: مذكرات الرحالة الانجليزي جون فرانسيس ١٨١٨، ترجمة د. مصطفى جودة، الدار العربية للكتاب طرابلس ١٣٩٠هـ ١٩٧٦م ص.

الى حضرة ولدنا العزيز محمد المنتصر ونائبنا بإيالة فزان أما بعد: فانه قد تعلقت إرادتنا بتوجيه تابعنا المكرم الأجل محمد المكنى الى دار برنو ببضائع للسلطان البرناوى[1] وكتاب وهدية، وأمرناه أن يتوجه بها عن طريق ايالتكم فهو وارد اليكم وواصل ان شاء الله بين يديكم، فاذا وصل اليكم المذكور يتمنى أن تلقوا نظركم عليه، وترافقوه بقافلة متوجهة الى دار برنو، وإن أحتاج الى ظهر أو دراهم فاعطوه على طرفنا ونرجو ألا يكون منكم فى ذلك تقصير... والسلام،،،،

فلما وصل محمد المكنى الى فزان أنزله السلطان المنتصر فى دار الانزال وأكرمه ثلاثة أيام وفى اليوم الرابع توجه اليه المكنى وأعطاه كتاب الباشا، فلما علم مافيه غاظه ذلك، وسكت على مضض، وصادف حلول المكنى فى فزان خروج قافلة متوجهة الى برنو، فصحبها المكنى وتوجه معها، وغاب نحو ستة أشهر، وجاء ومعه من الرقيق شيء كثير، فدخل فزان وملأ أربع دوز[2] بالرقيق، فارسل السلطان محمد المنتصر الناس للمكنى يلتمسون منه شراء الرقيق، ليأخذ المكسب من المشترى، فأبى المكنى أن يبيع منه شيئا وقال: هذا مال الباشا ولم يإذن لى فى بيعه هنا، ثم طلب من المنتصر ازوادا يقوت بها الرقيق وشدد فى الطلب، فاغتاظ المنتصر منه وكتب له اوامر الى عامل سبهة[3]أن يعطيه ماطلبه وقال له:أرحل والاقتلتك، فخرج المكنى على غير صورة[4] ،وتوجه بالرقيق الى سبهة، وطلب من العامل أن يعطيه الأزواد، فأبى وقال: ليس للسلطان شيء عندى، فألح عليه المكنى فى الطلب، وقال له: إعلم أنك اذا لم تعطنى ماطلبته ومات (عدد من[5] الرقيق) سيغرمك الباشا ضعفه، فخاف العامل وجمع له من الزاد ما أراد، وطلب منه ظهراً[6] فاكترى له مايقله، وسافر حتى أتى الباشا، وقد مات له من الرقيق جملة، من التعب وعدم الراحة فسأله الباشا عن سبب موت

---

[1] كانت العلاقة التجارية بين برنو وطرابلس عامرة من العصور الوسطى فقد كان طريق طرابلس فزان برنو احد الطرق الهامة التى يسلكها تجار برنو وتجار الريفية.

[2] دوز: هو نوع من المتاجر التى كانت تعد فى أسواق الرقيق، ويسع عددا معينا من الرقيق وكانت برنو أحد الأسواق الهامة لجلب الرقيق من افريقيا.

[3] سبهة، أو سبها: إحدى المدن الليبية الكبرى فى وسط الصحراء جنوباً، وهى المحطة الرئيسية للدخول الى بلاد السودان.

[4] كناية عن الغضب والخوف والذى انتابه بعد تهديد المنتصر له.

[5] فى الاصل " ومات فيه شيء.."

[6] الظهر " هو دابة الركوب."

الرقيق، وعما فعل معه المنتصر فأعلمه بجميع ماحصل، فاغتـاظ الباشـا لذلـك وأضمر له سوءً، وبعد أن راق باله(اى المكنى) أراد الباشا أن يجرد عسكرا لفزان يقاتل المنتصر ويملكها له، فسمع محمد المكنى بذلك فحضر أمام الباشا واسـتأذن في التكلم فأذن له، فقال: إنه قد بلغني من سعادتك انك تريد أن ترسـل عسكرا لفزان، قال نعم، قال كم ترسل من العساكر، قال الباشا نحو أربعـة آلاف، قـال ليحسب مولاى كلفة الأربعة آلاف من أرزاق وأقوات وظـهر وحـافر وسـلاح وبارود (فقام الباشا بحساب ذلك) فكان أكثر من خراج فزان، لأن خراج فـزان إذ ذاك نحو خمسة آلاف فرانسة فى كل سنة، وكلها ليست عينا بل العين منها الثلـث والثلث الثانى رقيق، والثالث جنازير وقيود وجلود ونحـو ذلـك، وذلـك لكـون الجنازير والقيود يأتى[1] أهل القوافل بكثير منها لأنهم يجعلون العبيد الكبـار فـى الجنازير بالنهار حتى وهم سائرون ويقيدونهم بالقيود فى الليل، فعندما[2] يأتون الى فزان ويبيعون الرقيق تبقى عندهم القيود والجنازير بـلا منفعـة ولافـائدة فـى عودتهم[3] بها الى السودان، فيبيعونها بأرخص ثمن، وكذلك الجلود، لأنهم يـأتون بأجربة[4] من جلود البقر فيها ازواد الرقيق، ومتى باعوا الرقيق باعوهـا ايضـا، فقال اى المكنى كيف يصرف مولانا من المال مايزيد على خراج ستة سنين، فقال الباشا وكيف اصنع، فقال المكنى إن أنعمت علىّ بحكم فزان ثلاث سنين دبرت لك أمراً لاتكون فيه خسارة عليك: فقال الباشا قله فإن كان صوابا حكمتك فى فـزان ست سنين، فقال المكنى:الرأى عندى أن تكتب أوامر لجميع من له شوكة فى فزان بأن ولينا أحمد ابن عم المنتصر سلطانا عليكم، فإيـاكم أن يسـتفزكم المنتصـر وتقاتلوا معه، والحذر من الخلاف (وأن) تكتب لأحمد منشـورا بالتوليـة وعـزل المنتصر، ثم تكتب لى فرمانا بولايتى وتعطينى مائتى فارس وألفى ريال فرانسة[5] وعشرين كسوة وخلعة للسلطان احمد وخلعة لى، وأن ادبر أمرى فى ذلك، ففـرح

---

(1) في الأصل "تاتي"

(2) في الأصل "فلما..."

(3) في الأصل "في عودهم".

(4) الأجربة: جمع جراب، والجراب إناء يصنع من جلد البقر أو الضب ويحفظ فيه الأغذية خاصة الحبوب ويحمل فيه البضائع الثمينة.

(5) ريال فرانسة: هو الريال الفرنسي الذي كان يعد أحد العملات الرئيسية في شمال افريقيا والسودان الغربي.

يوسف باشا وأخرج معه مائتي فارس، ووازره بكاتبه الخاص المسمى بالزروق، وأعطاه ثلاثة ألف فرانسة وثلاثين كسوة، وخلعتين ملوكيتين وأعطاه من الجمال مايقله ويقل عساكره، وخرج من طرابلس وتوجه الى فزان ومازال يَجِدُّ في السير حتى وصل الى البلد المسمى بسوكنة[1] وهي أول بلاد الفزان فنزل بها وأرسل الى رئيسها فأحضره، وبمجرد حضوره ألقى عليه كسوة جميلة وقرأ عليه المنشور الخاص به وفيه الانذار والتحريض على عدم مساعدة السلطان محمد المنتصر، وأن الولاية لابن عمه أحمد، فقال رئيس البلدة ووجوه أهل البلد سمعا وطاعة وأصبح مرتحلا من هناك بعد أن كسا من وجوه أهل البلد مايستحق الكسوة، الى أن أتى للمحل المسمى بسبهة، فأحضر رئيسها وعالمها الشيخ عبدالرحمن، وأخلع عليهما،[2] وقرأ لهما فرمان الباشا، فاذعنا بالسمع والطاعة، وأصبح راحلا الى أن حل قرب المدينة، وهي قاعدة المملكة وتسمى مرزق[3] فأرسل الى المنتصر يقول له، إني جئت بأمر من الباشا اريد أن تحضر عندي لتسمعه، أو تأذن لي بالدخول الى عندك، وكان المنتصر قد بلغه الخبر قبل وصول العساكر فاغلق أبواب المدينة ووضع الحراس بالبندق وأمرهم ان يضربوا كل من دنا من السور من العساكر، وأن يبذلوا الجهد في الاحتراس ففعلوا، وجاء المكني بعساكر فلم يدعه[4] يقرب من السور، وكان المكني قد جلب معه مدفعين صغيرين بعجلهما (حملا) على الجمال فوضع المدافع وركبها على العجل ورمى بهما على السور، فاثر فيه، وأصابت إحدى الكرات[5] يد رجل فذهبت بها، ولما كان من الليل دعا

---

[1] قرية سوكنة: تقع على الطريق الصحاري بين طرابلس وفزان، تقوم على واد رحب امتدها من الجنوب الجبال السوداء وجبال ودان من الشرق ومن الغرب سلسلة جبال بعيدة، وكانت تتبع لولاية طرابلس.

ينظر: كتاب من طرابلس الى فزان مذكرات الرحالة الانجليزي ليون فرانسيس ليون ص ٥٧ - ٥٨ .

[2] واخلع عليهما " اى كساهما بالخلع السلطانية"

[3] مدينة مرزق: هي عاصمة إقليم فزان، وتبعد عن طرابلس مسافة حوالي شهر بالجمال، وتعتبر أهم محطة تجارية بين بلاد السودان وطرابلس، وقد تحدث المؤلف عنها بشيء من التفصيل في هذا الكتاب

ينظر: من طرابلس الى فزان ومذكرات الرحالة الانجليزي فرانسيس ليون ص ٧٢ .

[4] في الاصل " فلم يدعوه"

[5] احدى الكرات " أي إحدى الطلقات النارية.

المكنى برجل وأعطاه كتابا وأمره أن يتسور السور ويذهب به الى أحمد، وكـــان الرجل عياراً سلالا ، فاخذه وتسلق من السور

ولم يره[1] الحرس، فتوجه به الى أحمد وأعطا إياه،، فلما فضه وجد فيه:

الى حضرة السلطان أحمد، أما بعد.. فاننا جئنا بأمر من حضرة الباشا وإنك أنـــت السلطان، وأن المنتصر معزول، فإذا أتاك كتابى هذا قم واجتهد فى اطفاء الفتنـــة وافتح الأبواب وخالف المنتصر فى كل مايفعله.. والسلام،،،

فلما علم مضمونه قام قائما ودخل على ابن عمه المنتصر وقال له: أنت ابن عمي، وأنا وأنت رجل واحد قال له نعم، فقال له أحمد فاذا كان كذلك لِمْ أقفلت الأبـــواب ووضعت الحرس وأمرته بالقتال، فقال (المنتصر) يا ابن عمي إني أخاف أن تكون حيلة دبرت علينا وعاقبتها تكون سوءا، فقال أحمد دع عنك هـــذا الفعل وافتح الأبواب والاقاتلتك، (ثم) نادى فى العسكر فأقبلوا عليه[2] وقال لهم: كل منكم فـــى رتبته التي هو عليها يزيد ولاينقص وقد ال الملك اليّ فافتحوا الأبـــواب وأنزلـــوا الحرس، فقالوا سمعا وطاعة، وقاموا وفتحوا الأبواب وأنزلوا الحـــرس، وخـــرج السلطان أحمد بنفسه وأدخل المكنى بعساكره وأنزله بدار الضيافة، واستضافه تلك الليلة، ومن الغد أرسلوا لأرباب الدولة كلهم، فحضروا الى الديوان وجاء المكنـــى والزروق وقام الزروق واقفا على قدميه فقام كل من فى الديوان (ثم) قرا عليـــهم كتاب تولية أحمد، وعزل المنتصر وكان مضمونه (بأن):

صدر هذا الأمر العالي من حضرة الوزير يوسف باشا قرامانلي الى حضرة علماء فزان وامرائها وعساكرها واجنادها، اما بعد، فإن محمد المنتصر قد أعطي نعمـــة فلم يرعها، وولي ولاية فلم يُرِدْ إبقاءها واطلق لنفسه هواها، فرعت فـــى أوخـــم المراعي ونَسِيَ قوله عليه الصلاة والسلام: "كلم راع" ولم يكفه ذلك حتى عصـــى أمرى مرارا، وقد نصحته سرا وجهارا، وحين لج فى طغيانه وعمي عن إصلاح شأنه عاقبته بعزله عن منصب فزان، ووليت عوضا عنه أحمد النـــاصر العظيـــم الشان، فاسمعوا له وأطيعوا وقد أمرناه بتقوى الله فيما ولى عليـــه، وأن يعـــاملكم

---

[1] فى الاصل " ولم يطره"

[2] فى الاصل " فاقبلوا اليه.."

بالشرع الشريف في جميع الأمور لديه، وبذلك ينجو من القصـــاص يـوم يؤخـذ بالنواصي، والحذر ثم الحذر من الخلاف والسلام..ولما أن اتم الكتاب قام هو على الديوان ودعا للباشا وللسلطان، وضربت النوبة السلطانية وأطلقت المدافع ووفد[1] الناس لتهنئته وقام الزروق والمكني وخرجا الى محل سكناهما، وأقاما فيه ثلاثا ثم اجتمعا بأحمد الناصر وقالا له: إعلم أننا نريد الرجوع الى طرابلس ونخشى عليك غائلة المنتصر بعد ذهابنا، ونحن لك من الناصحين وعليك من الخائفين، فإن كنت تقبل نصحنا فاقبض على المنتصر واستصف أمواله، ثم اقتله، وإلا فمـا دام حيـا فإنه ينتقض عليك ولايستقيم لك أمر والسلام، فلما سمع أحمد كلامهما قام من وقته وساعته وقعد في ديوانه ودعا بالمنتصر فلما حضر أمر بالقبض عليـــه، فقبـض عليه، فقال له المنتصر: لم قبضتني، فقال له إعلم أني وليت هذا الأمر، وليس في خزينتي من المال شيء ومال المملكة كله عندك، فان اردت أن أطلق (صراحـك) ادفع جميع المال الذي عندك، ثم أمر به الى السجن فسجن حتى دفع جميع ماعنده من المال والمتاع، ولم يبق في بيته شيء، ثم أمر بخنقه بالليل (فقتل) ولما شـــاع الخبر بموته دخل المكني مع الزروق على السلطان أحمد وهو جالس في ديوانـــه، فطلب منه المكني المال الذي أخذه من المنتصر وقال له هذا (المال) للباشا، فدفعه اليه السلطان أحمد بقوائمه ثم قال له المكني: اننا نريد السفر لأن فزان ليست بدار اقامة فهيىء لنا ماصرفه الباشا على العساكر، فقال له السلطان أحمد الم تكن قـــد أخذت جميع أموال السلطان المنتصر، قال نعم اخذتها، فقال له أما فيها كفاية لـــك وللباشا، قال المكني: لا، لأن العادة أن مال المعزول والمقتول يأخذه الباشا بـــدون أن يحسب عليه وأما ماصرفه على العساكر فيؤخذ من المتولي، فإما أن تدفع لـــي جميع ماصرفه الباشا على هذا الجيش وإما أن تترك المملكة لصاحبها يديرها برايه فاستثل السلطان أحمد وقال له، كم قدر هذا المال، فقال (المكني) بأنه قد صـــرف على هذه العساكر من ارزاق ومأكل وملبس ومركب ومحمل وخدمة ماينوف على اثني عشر ألف ريال فرانسا[2] فإما أن تدفعها أو تدفع ستة آلاف مثقال من الذهب،

---

(1) في الأصل " ووفدت الناس لديه"

(2) في الأصل " من الفرانسا"

فقال السلطان أحمد إني دخلت في هذا الأمر على خزينة فارغة، وأريد أن أقرر على البلاد مافرضته عليّ فاسهلني حتى أجمعه، فقال له العجلة العجلة، فقال له السلطان أحمد اذ لا أقل من خمسة عشر يوما فقال له المكني لك ذلك، لكن بعدها لا أمهلك يوما واحدا، ثم طلب[1] السلطان أحمد دفتر أسماء البلاد، فوجد فيه[2] مائة بلد غير المدينة، ففرقوا الاثنى عشر ألف دينار على البلاد من سوكنة التي هي أول البلاد من ناحية الشمال الى القطرون التي هي أول البلاد من ناحية الجنوب، وهي ناحية الوداي، ومن زويلة التي هي في المشرق الى الشباطي التي هي في المغرب، كل بلد بحسب مايليق بها، وكتب السلطان أحمد أوامر الى جميع البلاد، كل أمر مضمونه:

الى فلان رئيس البلد الفلانية أما بعد، فإننا التمسنا الاعانة منكم على المبلغ الذي صرفه حضرة الباشا على العساكر الذين[3] قدموا صحبة المكني والزروق وخصكم منه كذا وكذا ريالا، فحال حلول أمرنا اليكم تجمعوا المبلغ المذكور وترسلوه صحبة امين من طرفكم سريعا بدون تلكؤ، والحذر من المخالفة والتعطيل، والسلام..

ثم ختم الأوامر وأمر النجابين[4] بتوصيل كل كتاب الى من هو له فركب النجابون في الحال، وذهبوا بالكتب كل مذهب وكان المكني قد نسخ من دفتر أسماء البلاد نسخة ثم ذهب الى دار نزله وكتب منها مائة كتاب (جاء فيها):

الى رئيس البلد الفلانية أما بعد، فإن السلطان أحمد أرسل يلتمس منكم دفع ماهو كذا وكذا ريالا فإياكم أن ترسلوا له شيئا من ذلك لأن المبلغ المذكور (يمكن ان يدفعه هو) ومن بُخله أراد أن يغرمكم إياه والسلام..

وكان أهل البلاد حين جاءهم النجابون الأول بالكتب اهتموا وجمعوا أنفسهم ووزعوا المبلغ على الرجال كل بحسب طاقته فما راعهم الاورسل المكني قد أتتهم بالكتب فلما قرأوها تربصوا وتراخوا ولم يظهروا عصيانا (وتوقفوا) حتى ينظروا

---

(1) في الأصل " ثم دعا السلطان احمد بدفتر اسماء البلاد"

(2) في الأصل " فوجد به"

(3) في الأصل " الذي قدموا"

(4) النجابون" جمع نجاب او نجيب وهم الذين يركبون الجمال النجيبة السريعة لتوصيل الاخبار والاوامر السلطانية .

الى مايؤول اليه الأمر، فمضت الخمسة عشر يوما ولم يأت أحد بشيء، وفي اليوم السادس عشر أمر المكني جماعته أن يلبسوا سلاحهم ويأخذوا اهبتهم كأنهم يريدون الحرب واصطحبهم ومعهم الزروق ودخلوا على السلطان أحمد وهو جالس في ديوانه، فرحب بهم وأكرمهم فقال له المكني يا أحمد هات الدراهم التي جمعتها، فقد طال[1] بنا المقام ونريد السفر ووعدنا قد تم البارحة، فقال السلطان أحمد لم ياتني شيء الى الآن، فاظهر المكني الغضب وقال: يا بارد أتريد أن نمكث معك طوال الدهر ونترك حديث سيدنا الباشا لأجل خاطرك، ثم نادى يازروق ماذا عندك من الأمر، فقام الزروق واقفا على قدميه وقال: يا أرباب الديوان اعلموا أن السلطان أحمد رجل لايصلح للسلطنة وهو معزول كما أمر بذلك سيدنا يوسف باشا، ومد اليه يده فجذبه من كرسيه فأكبه على الأرض وقال لأعوانه الواقفين خذوه فأخذه الأعوان في الحال، ومزقوا ماعليه من الثياب وقالوا (للمكني) مر فيه بأمرك، فقال المكني اذهبوا به الى السجن وثقلوا أغلاله وقيدوه فجمعوا يده على عنقه وسحبوه مهانا ذليلا ثم فعلوا به ما امرهم المكني، وفي الحال[2] جلس المكني على كرسي المملكة وأرسل الحجاب والأعوان ودعا جميع أرباب الديوان كالقاضي والمفتين وكبار التجار والوزراء وأرباب المناصب فحضروا وجلس كل في المحل المعد لجلوسه وأخرج الزروق فرمانا ووقف على قدميه ووقف كل من كان حاضرا ثم قرا الزروق المنشور بتولية المكني حاكما على فزان وعزل المتولي[3] عليها، وكان قد اجتمع في دار المملكة أناس كثيرون، وبعد أن قرىء المنشور ضربت النوبة السلطانية وأطلقت المدافع ووقع في تلك الساعة ازدحام فاختطف أحد العسكر الفقراء عمامة رجل ورآه المكني فأمر بمجيئه بين يديه، فلما مثل بين يديه سأله لمَ خطفت العمامة، هل احتقاراً[4] لي حتى يقال انني غير عادل، ثم أمر به فضرب خمسمائة كرباج، وخرج الناس يرتجفون[5] خوفاً، وكان

---

[1] في الاصل " لانه طال بنا"

[2] في الاصل "وكان المكني قعد في الحال"

[3] في الاصل " المتوالي"

[4] في الاصل " لم خطفت العمامة احتقاراً لي"

[5] في الاصل " وخرج الناس يرجفون"

هناك جماعة[1] من أولاد ملوك فزان فحينما[2] رأوا عنف المكني ومافعل فـــروا، (حيث) فر بعضهم الى بلاد السودان وبعضهم الى ابن غازى، ثم بعد ذلك جــاءت أم أحمد الناصر الى المكني وسألته في اطلاق ولدها من السجن، وتوســلت اليــه بجماعة من أمراء الدولة، فقال لن اطلقه حتى آخذ منه كلفة العساكر، وكـــان قـد بلغه أن أمه لديها[3] مال عظيم اكتنزته من مال أبيه، فشدد فـــي طلبـــه، وعلـق إطلاقه على حضور المال، فصارت العجوز تحضر له المال شيئا فشيئا حتى لـم يبق عندها شيء ينفع، ثم أمر بخنقه ليلا فخنق، فجاءت أمه تطلب فكاكـــه فــأمر بإعطائه لها، وأخرجوه لها ميتا فطار عقلها فقالت له، بأي جرم قتلته، قال قتلتـــه قصاصا بالمنتصر (فقد) قتله (ابنك) بغير حق، ثم قبض على وزيـــرى المنتصــر الحاج عثمان وأخيه الحاج يوسف واستصفى أموالهما وأطال سجنهما، ففر الحـــاج يوسف (بواسطة) حيلة دبرت له وبقي الحاج عثمان في السجن الـــى أن مـــرض وأشرف على الموت فأخبر المكني بشدة مرضه فأمر بإخراجه الى داره، فـــأخرج ثم مات بعد أيام قلائل، واستوزر المكني بعدهما الوزير الكامل المرحوم أبابكر بن خلوم، وكان فتى عاقلا رئيسا جوادا سخي الكف، من عرب أوجلة.

ثم عسف المكني بأهل فزان عسفا قبيحا، وجعل على كل بئر من آبـــارهم ريالا فرانسا وجعل على كل مائتي نخلة ريالا كذلك، وتحسب من أصل المـــائتين كل جبارة لها جرائد، وهذا خلاف مايأخذه من الجنايات، وكان لمـــرزق قـــاعدة مملكة فزان سبعة أبواب فأغلقها، ولم يبق إلا باباً واحدا، وأوقف[4] على الأبـــواب مكاسين[5] يأخذون على كل حمل من الأحمال الداخلة ريالين فرانسا، سواء كـــان مملوءا خيشا أو حريرا، وزاد في مكس الرقيق سدس مثقال ذهبا.

---

(1) في الأصل " وكان هناك من أولاد ملوك فزان جماعة"

(2) في الأصل " حين رأوا"

(3) في الأصل " وكان قد بلغه ان امه عندها"

(4) في الأصل " واحدث على الأبواب..."

(5) مكاسين " أي جامعي الضرائب في الطرقات"

ثم غزاه أولاد سليمان[١] وهم قبيلة عظيمة من أعراب البادية فقتل منهم كثيرا وهزمهم (وكان) سبب اغارتهم عليه أنهم كانوا آمنين[٢] ليوسف، وكان الباشا واكلاً اليهم طريق فزان يؤمنونها من كل قاطع طريق، ولهم عليه عوائد وخلع في سنة، وكان كبيرهم يسمى سيف النصر، وكان منهم بطن يسمون أولاد بشر، فتحيل يوسف باشا وألقى العداوة بين جماعة سيف النصر وأولاد بشر، وأراد قتل أحمد بن سيف النصر، ففطن (أحمد لذلك وخرج من طرابلس ليلا بحيلة تمت له) وعصى أمر الباشا، وصار ينهب القوافل ويقطع الطريق على المارين، فدعا الباشا أولاد بشر وكساهم ووعدهم[٣] خيراً وأسنى جائزتهم، وأخرج معهم عسكرا لقتال أولاد سيف النصر، فذهبوا صحبة العساكر وقاتلوا أولاد سيف النصر وثقلت الوطأة على أولاد سيف النصر فانكشفوا وأجلوا الى فزان، فظنوا أنهم يملكونها من يد المكني ففعل بهم ماذكرنا وانهزموا في البراري والقفار ثم إن يوسف باشا غدر بأولاد بشر وقتل منهم أناساً من كبارهم، فافلت منه من أفلت وبقي الحيان عدوين له، وذلك من طمعه وسوء تدبيره وغدره، وأول غدر وقع منه (كان) بأخيه أحمد باشا، وذلك أن السلطان سليم خان [٤] عليه سحائب الرحمة، أعطى مملكة طرابلس

---

١. أولاد سليمان: قبيلة عربية كبيرة كانت تسيطر على الطريق التجاري بين طرابلس وفزان، وكانت أفرادها مرهوبي الجانب ولايستطيع أحد العبور على هذه الطريق الا بعد دفع الأتاوة لهم ولهذا كانت الحرب بينهم وبين والي طرابلس وحاكم فزان تكاد لاتتوقف حتى أعلنوا الحرب على والي طرابلس، فوضع الوالي خطة حربية وهاجمهم بقوة كبرى فهزمهم وهربوا الى الحدود المصرية ومن هناك أخذوا يشنون الحملات على الطرق، لكن الوالي شدد عليهم بعد عودتهم الى ديارهم وأباد معظمهم وتفرق الباقون بين القبائل ولكن لايزال أهل الصحراء يحفظون سيرتهم ومغامراتهم.

ينظر: الرحالة ليون فرانسيس ص ٤٥-٤٦.

(٢) آمنين " أي طائعين ومنقادين"

(٣) في الأصل " وأوعدهم"

(٤) السلطان سليم خان، هو ابن السلطان بايزيد الثاني حكم الدولة العثمانية في الفترة من ١٥١٢ الى ١٥٢٠ بعد ان تنازل له ابوه عن الحكم واستطاع التخلص من اخيه احمد عام ١٥١٣ وكانت الدولة العثمانية تشهد صراعات وثورات في الشرق والغرب فقاد جيوشه واتجه نحو بلاد فارس، وفي مدينة تبريز التقى بجيوش الشاه اسماعيل الصفوي في سهل تشالديران فهزمه واستولى على بلاد فارس عام ١٥١٤م وفي طريق عودته سمع بخروج المماليك بقيادة السلطان الغوري لملاقاته والتقى بهم في مرج دابق فهزمهم وقتل السلطان الغوري في المعركة، وفرت فلوله الى مصر فتبعهم السلطان سليم حتى التقى بهم في منطقة الريدانية بقرب العباسية الحالية فانهزم السلطان طومان باي قائد المماليك ودخل السلطان سليم القاهرة عام ١٥١٧م وقبض على طومان باي وقتله فسقطت دولة المماليك وانضمت الى الدولة العثمانية كل من مصر والشام والحجاز واستمر السلطان سليم في جهوده الشرقية حتى توفي عام ١٥٢١ وخلفه ابنه الوحيد السلطان سليمان.

ينظر: د.عبدالعزيز الشناوي، الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ج١ ص ٣١٠.

المغرب لعلي باشا برغل ووجه معه العمارة السلطانية صحبة قبودان باشا وكان إذ ذاك حسين باشا، ولما قدم الأسطول الى طرابلس وكان واليها هو أحمد باشا قرامانلي[1] أخو يوسف باشا، فارسل علي باشا كتابا الى علماء أهل البلد وأرباب الحل والعقد فيها مضمونه:

أن مولانا السلطان سليم خان، عز نصره تفضل عليّ وأعطاني طرابلس مملكة لي وها أنا قد جئتكم بأمره، فانظروا ماذا ترون وردوا لي جوابي سريعا وأن ابطأتم بعد ست ساعات هدمت عليكم سور البلد بالمدفع وأخذتها عنوة وأفعل بكل منكم مايستحقه، وحين وصل الكتاب الى يد أهل العلم افتوا أنه لايجوز قتال عساكر السلطان فإن قتالهم كفر، فدار أحمد باشا واخوه يوسف باشا على الناس يسألونهم النجدة فأبوا عليهم، وقالوا لايمكننا قتال عساكر السلطان، ونحن مامورون بطاعته من الله ورسوله، وحين رأيا ذلك خافا إن أقاما بالمدينة (أن) يدخل عليهما علي باشا ويقبضهما ويرسلهما الى القسطنطينية أو يقتلهما أو يؤبد سجنهما، فخرجا ليلا الى تونس بنسائهما وأولادهما وخدمهما وأتباعهما، وأرسلا الى المرحوم حمودة[2] باشا يعلمانه بقدومهما، فأرسل لمقابلتهما الوزير مصطفى كاهية فأدخلهما (تونس) في موكب عظيم وأنزلهما داراً واسعة جميلة، وأجرى لهما من الأرزاق مايزيد عن كفايتهما فمكثا في تونس (مدة) في أرغد عيش وأهنئه (وكانت مدتهما سنة وستة أشهر ثم إن علي باشا طمعت نفسه فأخذ جزيرة جربا، ومع أنها كانت من أعمال طرابلس وأن صاحب تونس أخذها ظلما (الا أنها أصبحت تتبع لتونس) حتى أرسل اليها علي باشا أسطوله فملكها، فوقع الخبر على المرحوم حمودة باشا

---

(1) أحمد باشا قرمانلي: هو مؤسس الأسرة القرمانلية التي كان لها الفضل في تأسيس الدولة الليبية في حدودها الحالية، وكان أحمد تركي الأصل عمل جنديا في الأسطول التركي في طرابلس، واستقر فيها، ودخل في أهلها وتزوج منهم واستعرب وكان شابا موهوبا طموحا، وكانت البلاد قد عانت الكثير من فساد الحكم التركي خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين فقرر ضرورة أن يحكم البلاد، وبعد مقتل الوالي خليل باشا عام ١٧١٢م تمكن أحمد باشا بتأييد من أهل البلاد، ومندوب السلطان العثماني بتولية أمر ليبيا فوافق السلطان على ذلك، فسارع أحمد بالقضاء على العناصر العسكرية التي أنهكت البلاد بأن دبر لهم مذبحة كبيرة، وأسس قوة عسكرية ليبية واستطاع بهذه القوة أن يثبت نفسه في الحكم، وأن يجمع ثروات طائلة من الرسوم على التجارة التي تأتي من السودان وفزان وأنشأ أسطولا قويا في البحر المتوسط، وقاد به الجهاد البحري ضد الأساطيل الأوربية، فسارعت أوربا وأمريكا لكسب وده كما اضطر السلطات العثمانية على الاعتراف له بتوريث السلطة في أبنائه من بعده فاستمر حكمهم لليبيا حتى عام ١٧٩٣م.

(2) حمودة باشا هو (والي تونس من قبل الدولة العثمانية في ذلك التاريخ).

فعظم عليه وكبر لديه وقال: هذا الرجل أخذ طرابلس بغير حق، وأن مولانا السلطان سليم ما أعطاه طرابلس هذه، بل أعطاه طرابلس الشام، وعلى سبيل الغلط جاء وملكها، ومانازعناه فطمع فيما في أيدينا ثم دعا لأحمد باشا صاحب طرابلس ولأخيه يوسف وقال لهما، إني أريد أن أخرج معكما عسكرا يأخذ لكما البلد من يد علي باشا برغل ويمكنكما من البلد، لكن لا أفعل ذلك الا إن ضمنتما لي مصروف العساكر التي تذهب معكما، فضمنا له ذلك، وكتب أحمد باشا بذلك كتابا اشهد فيه على نفسه وجميع من حضر من أرباب الدولة وختمه بخاتمه وكتب بعده أخوه يوسف وكان يسمى اذ ذاك يوسف بك، وقال إني أشهد على نفسي أني التزمت بجميع المصاريف التي لزمت العساكر من جزية والدنا العظيم من خزينة والدنا العظيم حمودة باشا وأن ادفعها اليه إن قدر الله على أخي أحمد باشا بالذي لابد منه فأكون أنا المسئول بدفع المبلغ بعده...... والسلام

وختمه بخاتمه، وانعقد الأمر على ذلك ثم أخرج المرحوم حمودة باشا طائفتين عظيمتين من الترك ومن طائفة البربر المسماة بزواوة، وجعل نظر الجميع للمرحوم مصطفى كاهية وأمر أحمد باشا صاحب طرابلس أن يكاتب أكابر أهل بلده ووجوه الدولة سرا ويعلمهم أنه قادم اليهم[1] بالعساكر التونسية، فكان كذلك، ولما وصلت الكتب الى طرابلس وقرأها أربابها فرحوا غاية الفرح، لأن أحمد باشا كان رجلا حليماً، وعلي باشا برغل كان رجلا جبارا وثقلت وطأته على البلد وجار وقبض على كثير من وجوه الناس واستصفى أموالهم، وحين جاءت العساكر الى طرابلس أراد علي باشا برغل أن يقاتل فخذلوه وامتنعوا عن القتال، ولما رأى الأمر آل به الى ذلك ركب في سفينته وهرب الى ثغر الاسكندرية ودخل أحمد باشا الى دار ملكه، وأحسن الى مصطفى كاهية والى امراء العسكر، فأرسل صحبتهما هدية سنية الى المرحوم حمودة باشا ورحل المرحوم مصطفى كاهية بعساكره الى تونس وبقي أحمد باشا وأخوه يوسف بيك فابقى يوسف أخاه نحو أربعة أشهر وأحسن الى الطوبجية وربط معهم[2] وجعل أمره سراً وفي يوم من

---

[1] في الأصل " قادم عليهم"

[2] وربط معهم: أي اتفق معهم على استلام الحكم من اخيه احمد.

الأيام خرج أحمد باشا الى النزهة فى المنشية، وهى بلد عظيمة أمام طرابلس، كلها بساتين وكل بستان فيه بيت أو قصر على حسب أحوال الناس، وكل رجل من أهل طرابلس له محل فى المنشية يتنزه فيه، وأكثر أهل طرابلس يمكثون فى المدينة للبيع والشراء والأخذ والعطاء، طول نهارهم، وعند المغرب يتوجهون الى دورهم بالمنشية وهى أنزه مكان يوجد بطرابلس.

ولما خرج أحمد باشا الى المنشية تخلف عنه أخوه يوسف، وكان من عادته أن يذهب معه أينما[1] ذهب، فتعلل بوجع فى راسه وتخلف وترك أخاه وعندما ابتعد (أخوه) عن المدينة أغلق (يوسف بك) باب المدينة، وأمر الطوبجية أن يوجهوا المدافع الى جهة المنشية، وبلغ الخبر الى أحمد بأن المدينة قد أغلق بابها، فكر راجعا خوفاً من[2] أن يكون قد طرقها عدو، فلما قرب من السور ماراعه إلا المدافع قد أطلقت عليه وعلى أصحابه، فمات منهم جمع غفير، فانقلب احمد باشا بمن معه من أولاده وبعض العساكر، وجعل يَجِدُّ فى السير حتى نزل بمِصراتا وهى بلد عظيمة كلها عساكر، لان أهلها كلهم أولاد أتراك، وأكثر عسكر طرابلس منها، فاستنجدهم أحمد باشا أن يرجعوا معه الى طرابلس لحرب يوسف أخيه فلم يجد عندهم مايسره، وارتحل عنهم وجد فى السير الى أن وصل الى مصر، ودخل على واليها صاحب السعادة الحاج محمد على باشا، وكان إذ ذاك مقيما بالثغر الاسكندرى، فأعظم ملقاه وأجرى له أرزاقا، وبعد أيام من ذلك وصل الخبر الى يوسف باشا بأن أخاه فى مصر، فاحضر سفينة وأنزل فيها حريم أخيه وبقية عياله وزودهم وأمر قبودان السفينة أن يوصلهم الى أخيه أحمد باشا بالثغر السكندرى، ثم إنه قطع يده من المرحوم حمودة باشا ولم يوف بالمبلغ الذى كان (قد) أشهد به على نفسه وجحد إحسانه وظلمه ولله درُّ القائل حيث يقول:-

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

(١) فى الاصل "مهما ذهب".
(٢) فى الاصل "خوفا ان يكون".

لكن المرحوم حمودة باشا لم يعامله بأفعاله، بل حين رأى منه ذلك تركه ولم يعاتبه ولم يطلب[1] منه مالا ولانوالاً، وأغرب ما وقع من يوسف باشا المذكور أنه لما مات الى رحمة الله تعالى المرحوم حمودة باشا جاء رجل من الحمارنة الى يوسف باشا وهم من أعراب بادية تونس وبشره بموته، فخلع عليه وأكرمه وفرح غاية الفرح كأنه بشر بموت أعظم أعدائه.

ونرجع الى سياق قصة السلطان[2] صابون، وهو أنه لما فتحت له طريق أوجله أعتمد عليها وأرسل قوافل منها مراراً، ولما كانت مصر من أوجلة أقرب من طرابلس، جاءت اليها القافلة وذهب بعضها الى ابن غازى لقربها أيضاً، وبلغ الخبر الى السلطان صابون أن قافلته تلج مصر وأن بها حاكما عادلا جليلاً، فأرسل اليه هدية وكتابا يطلب منه المودة واتصال القلوب، فأرسل حضرة ولده عمر عسكر باشا هدية للسلطان صابون واصحبها القاووش[3] ونفرين من أتباعه وكتاب يدل على ما التمسه السلطان صابون من والده[4] وفي اثناء ذلك[5] فطنت القبيلة المسماة بزغاوة[6] بمرور القافلة عليهم، وعلموا أنها ليست بذات شوكة فاعتدوا لنهب القافلة ووصل القاووش بالكتاب الى السلطان (صابون) فاكرمه[7] ومن معه، {ثم} أرسل قافلة صحبة القاووش {نفسه} وأعطاه هدية جليلة،{لحاكم مصر} ولما جازوا بلاد الزغاوة خرجوا عليهم وكبسوهم وقتلوا القاووش والمقاتلة من أهل

---

(1) في الأصل " ومايطلب منه مالا.."

(2) عودنا الكاتب على اقحام قصص واحداث طويلة يقطع بها سياق الحديث ثم يعود اليه بعد حديث طويل.

(3) القاووش: "أحد القواد المقربين الى السلطان.."

(4) وهذا دليل واضح على نمو العلاقات بين وداي ودول شمال افريقيا خاصة مصر وطرابلس وكانت التجارة تقوم بدور كبير في توطيد العلاقات بين شمال افريقيا وسودانها.

(5) في الأصل " وكان اذ ذاك"

(6) الزغاوة: من قبائل البربر الحامية التي هاجرت الى افريقيا منذ عصور قديمة، كان موطنهم الأصلي شمال افريقيا والصحراء الافريقية ثم انحدروا جنوبا حيث وادي البحر وبحيرة تشاد وقبائل دارفور وذلك نتيجة لعوامل سياسية وظروف طبيعية فاختلطوا بالزنوج في هذه البلاد فتغيرت اشكالهم والوانهم ولازالت هجراتهم مستمرة من الشمال الى الجنوب وهم في حركة دائمة يمتازون بالخشونة والنشاط يشتغلون بالزراعة والتجارة والرعي، واستقر معظمهم في شمال دارفور وينتشر الباقون في كل انحاء السودان واقليم تشاد ويتحدثون العربية بجانب لغتهم المحلية وهم عريقون في الاسلام.
ينظر: Macmichael OP.Cit.P.٥٤ عبدالباقي محمد كبير، الدول الاسلامية في غرب افريقية في القرن العاشر الهجري ص ٤١.

(7) في الأصل " واكرمه"

القافلة، واخذوا ما فيها من الاموال،(وحينما) بلغ الخبر الي السلطان صابون ارسل جيشا كثيفا فقتل من الزغاوة مقتلة عظيمة،وحين بلغ الخبر الي حضـــرة الوزيــر الحاج ابراهيم باشا ووالده المعظم، اغتاظا لذلك وجهزا جيشا كثيفا على كردفـــان لنصر المرحوم محمد بك الدفتردار وقصد بذلك نكاية الســـلطان محمـــد فضـــل فأرجف في دارفور أن عساكر مصر قامعة، وخافوا أشد الخوف فقصد الدفتردار كردفان[1] وعارضه عبد السلطان المقيم بكردفان وهو المدعو مسلم، فقتله العسكر في الحرب، وملك كردفان وماوالاها وبقيت في يد حضرة ولى النعـم الـــى الآن، وهى سنة ١٢٥٣هـــ (١٨٣٧).

ثم أن السلطان صابون جهز قافلة عظيمة خرج فيها المرحوم السيد أحمـــد الفاسي ومعه من الأموال ما لايحصى كثرة، وأمرهم بالتوجه الـــى مصـــر عـــن طريق[2] أوجلة، وأخرج معهم جندا كثيفا لحمايتهم حتـــى دخلـــوا دار الزغـــاوة، ودخلوا بلاد البديات، ومنها ضربوا البر فضلوا الطريق ونفد ماعندهم من المـــاء حتى أن الشربة من الماء القواح بيعت بسبعين فرانسا، وذبحوا إبلا كثيرة وصاروا يعصرون الفرث ويأخذون الماء الذى فيه ويعرضونه للهواء حتـــى يـــبرد (ثـــم يشربونه) وبيعت الشربة فيه بسبعة فرانسا، وهكذا حدثني المرابط عمر المصراتى ومن كان معه والعهدة عليهم، ولما أشتد العطش بالناس مات رقيقهم وكثـــير مـــن أحرارهم وأيقنوا بالهلاك، وكان الشريف أحمد الفاسى معهم كما ذكرنا وكان عنده ماء كثير فطلبوا منه ماءً (لانقاذ حياتهم[3]) من الهلكة، فأبى وقال أنا صاحب عيال وفى هذا الماء حياة لنفسي وعيالى وهؤلاء العيال صغار، وأنا مسئول عنهم يـــوم

---

(١) ورد في هامش المخطوط عبارة تقول: "كف على ان استهلاك محمد على باشا لكردفان من السودان" ولعل هذه العبارة جاءت من الناقل وهى اشارة الى تصحيح الخطأ التاريخي الذى وقع فيه المؤلف ذلك ان حملة الدفتردار كانت على سودان وادى النيل وكانت ربما انتقاما من محمد على باشا على المعلمين والشايقية الذين قتلوا ابنه اسماعيل باشا في منطقة شندى بالسودان بقيادة المك نمر ملك الجعليين.

ينظر: في ذلك كل من: عبدالرحمن الرافعي، عصر محمد على، ص ٣٤١.

مكي شبيكة: السودان عبر القرون، ص ٤٥١.

نعوم شقير: تاريخ السودان وجغرافيته، ص ٤٦١.

(٢) في الاصل: " على طريق"

(٣) في الاصل: " فطلبوا منه ماء لحياة انفسهم من الهلكة.."

القيامة ولن[1] أكون سببا فى موتهم، فقالوا له بع لنا الماء بما تريد من الثمن واكتب علينا وثائق، فأبى ايضا ولما رأى أهل القافلة أن العطش قاتلهم لامحالة، قالوا للشريف إما أن تعطينا الماء طوعا أو نأخذه كرهاً عنك، ثم أفعل ماتريد لأنه لايحل لك من الله أن يكون عندك الماء وتموت (نحن) عطشاً، فأبى أيضا وحين رأوه مصمماً[2] على الإباء اقتحموا عليه الخيام وأخذوا منه الماء كرهاً عنه، واقتسموه بينهم وتركوا له (نصيبه[3] من الماء) كواحد منهم، فمات جميع رقيقه من العطش ثم سهل الله عليهم ووصلوا الى جالوا بالسلامة، واكتروا جمالا ورجعوا الى المحل الذى ماتت فيه ابلهم وذهبوا فى البر فجاءوا بحمول الصمغ وسن الفيل ودهن[4] النعام، وذهبوا بها الى بنى غازى وباعوها هناك، وأنتقل الشريف أحمد الى طرابلس واستفتى العلماء فى من غَصَبَ منه الماء حتى مات رقيقه كله، أيغرم لم لا، فأفتوه بأنه يلزم أهل القافلة غرم ثمن جميع الرقيق الذى مات، فأخذ الفتوى منهم وسكت على ماعنده (ثم) رجع الى دار وداى، ولما دخل على السلطان أكرمه ورده الى وزارته، فأخرج الفتوى وضبط من أتى بصحبته من أهل القافلة وأخذ منهم جميع ماعندهم من المال، وصار يترقب كل من جاء منهم فيضبطه ويستصفى امواله، بمقتضى ماسمعه من الفتوى، حتى أخذ عوض ماله بل أكثر منه بأضعاف مضاعفة، وذلك كان سبباً فى[5] موته بعد موت السلطان صابون، ذلك أنه كان شديد الباس عنيف المواقف على ملوك الوداى، يؤذيهم ويسبهم ويلعنهم ولايقضى لأحد منهم حاجة الا ويأخذ منه رشوة، فلما مات السلطان صابون أتفق أهل الوداى على قتله لتلك الأمور، ولكون أمراء الأجناد كانوا يتوسلون اليه ويستشفعون لديه فى التجار الذين كان يسجنهم ويستصفى أموالهم، فكان لايقبل لهم شفاعة، (فحقدوا[6])، عليه فلما أجمع أمرهم على قتله تسوروا عليه الدار وقتلوه

---

[1] فى الأصل " ولا أكون"
[2] فى الأصل " حين رأوه صمم على الاباء."
[3] فى الأصل " وتركوا له منه "كاحدهم."
[4] دهن النعام: هو دهن يستخلص من شحم النعام ويستعمل فى معالجة الجروح الكبيرة والحروق المختلفة والالتهابات لجسم .
[5] فى الأصل " وذلك كان سببا لموته.."
[6] فى الأصل " فاحتقدوا عليه.."

ليلا وانتهبوا جميع مامعه وأدخلوه دار السلطان، وكان في مصر رجل من أهـــل طرابلس الغرب يعمل أغشية[1] السروج بالفضة المسماة في عرف أهـــل مصـــر بالقصب، فكان يعمل غواشي جيدة وكان ذلك في ابتداء دولة ولي النعـــم الحـــاج محمد علي باشا، فقدم من صناعته هدية لسعادة الوزير فأعجبه صنعه فـــأمره أن يصنع له ولمماليكه غواشي (مماثلة) وأن يأت بها لأرباب دولتـــه فـــأكبوا عليـــه، فأستفاد منهم فائدة عظيمة، وذلك قبل أن يغشوا السروج بصفائح الفضة، فكثر مال هذا السروجي وكان يسمى السيد محمد الطرابلسي وحين جاءت القافلة الوداويـــة الى مصر عن طريق جالو كان فيها رجال من المجابرة والطرابلســـية فـــاجتمعوا على السيد محمد السروجي وأخبروه بكرم السلطان صـــابون ومكـــارم أخلاقـــه، فشرهت في نفسه للذهاب الى وداي فصنع غاشيتين متمتين[2] واشـــترى جاريـــة بيضاء جركسية بعشرين كيسا، وأخرى حبشية بكراً، وأخذ الجميـــع معـــه هديـــة للسلطان، وتوجه صحبة القافلة، وتوجه بها أيضاً عمي المرحوم السيد الطاهر بن سليمان شقيق والدي وصحبه الطيب بن جلون، تاجر بالغوريـــة، وأصلـــه مـــن المغرب، وصحبها السيد محمد البنزرتي، وكانوا الثلاثة شركاء في مـــال واحـــد، وكان بينهم وبين السروجي حزازة حين كانا في مصر، فكان اذا مر بهم جالســـين أو رآهم سائرين[3] قال لمن حوله أنظر واليهود الغورية، ومازال يسبهم وهـــم لا يعيرون له جواباً، حتى وصلوا الى دار وداي، ولما دخلوا عاصمة وداي[4] أدخلَ محمد السروجي على السلطان الجاريتين والغاشيتين فوقعت هديته مـــن الســـلطان أعظم موقع، وأحبه حباً شديداً، وأستوزره وأعطاه ماينوف عن سبعمائة رأس من الرقيق، وأعطاه إبلاً وبقراً لاتحصى، وصار مقبول الكلمة، ومكث فـــي دار وداي أكثر من خمسة عشر يوماً، حتى توفي والدي الى رحمة الله تعالى وغفرانه، وكان السروجي لما دخل دار وداي سمع بصيت والدي عند الســـلطان، هـــاب عمـــي وصاحبيه فقصر لسانه عنهما، ولما مات زال عنه الخوف وبسط لسانه حتى أنـــه

---

(1) الأغشية: جمع غاشية وهي من المصنوعات الجلدية التي توضع على سروج الخيل وتزين احيانا بالفضة والجلود الملونة.

(2) متمتين: بالتاء على اللهجة السودانية او الثاء على الفصحى اي ذات الثمن غالية كناية عن الجودة.

(3) في الأصل " او راهم وهم سائرون.."

(4) في الأصل "ولما دخلوا الى دار وداي.."

إذا كان في بعض المجالس وذكرت سيرة والدي قال إنـــه دخـل جـهنم بسبعة مشاعل، وجاء الحاضرون وأخبروا عمي السيد أحمد زروق بذلك، فاغتاظ لذلـــك واضمر له سوءا (لكنه) خاف إن ضربـــه أو أهانـــه بغـير ســابقة بينـهما (أن) ينحرف[1] عنه السلطان، فاتفق أنه كان جالسا في مجلس وذكر فيه السروجي فقال بعض أهل المجلس: (إن) هذا السروجي لايعلم أهو مسلم أو نصراني، فقيل له ولِمَ ذلك؟ فقال: إنه لايركع لله ركعة، ومعناه أنه لايصلي، فسرى الغم عن عمي بسماع هذه الكلمة، (ثم سأل الراوي قائلا) أحق ماتقول؟ قال أي والله، فقال له عمي أتشهد بذلك أمام القاضي إن طُلِبْتَ للشهادة قال نعم، فقال له عمي وهل تعرف من يشهد معك على ذلك، قال كثير، فلان وفلان وفلان، وسمى جملة أناس من المخالطين له في الأوقات، فلما أصبح عمي توجه الى المحكمة وطلب السروجي فأحضر، فلمـا حضر قال (عمي) أيد الله القاضي إني أدّعي حسبة لله عز وجل إن هـــذا الرجـل تارك للصلاة[2]، فلا يركع لله ركعة، قال القاضي للسروجي[3] أحق مايقول هـــذا الرجل أنك لاتصلي، فأدعى السروجي أنه يصلي، وإن هذه الدعوة لا أصل لـــها، فطُلِبتْ من عمي البينة على صحة دعواه، فأحضر جماعة ممن ذكر فشهدوا بأنـــه لايركع لله ركعة، وأنهم عاشروه سفراً وحضراً مارأوه صلى فرضاً من فرائـــض الله، فخاف القاضي إن أجرى عليه[4] القصاص ولم يعلم السلطان ربمـــا أغتـــاظ لذلك، فكتب الدعوة بتمامها وأرسلها الى السلطان، فكتب السلطان باجراء حكم الله ولو على والده، ففرح القاضي بذلك، وأمر بضربه الضرب المؤلم فعزره وأهانه، وبسبب ذلك كرهه السلطان وحجبه عنه[5] ولما رأى ذلك طلب السفر الى بـــلاده فأذن له السلطان في ذلك، وكانت (هناك[6]) قافلة متوجهة من الطريـــق الجديـد فسافر، فيها وغنموا السلامة فوصلوا سالمين لم يصبهم من المشقة شيء، وتوجـــه

---

[1] إن ينحرف عن السلطان أي أن يتغير عنه السلطان ويعاديه.

[2] في الأصل " ان هذا الرجل تارك الصلاة..".

[3] في الأصل "قال القاضي للسروجي وقال له احق مايقول هذا الرجل..".

[4] في الأصل " فخاف القاضي انه ان اجرى عليه..".

[5] هذا الموقف يدل على مدى تمسك هؤلاء القوم بالدين..".

[6] في الأصل "وكانت القافلة متوجهة..".

السروجي بماله الى ابن غازى فقربه محمد بك بن يوسف باشا[1] (ثم) قبض عليه وأخذ جميع مامعه وتركه لايملك شيئا فتحيل حتى وصل الى مصر[2] وهو فقير الحال من المستضعفين الفقراء، ثم أن محمد بك المذكور وقع بينه وبين والده وحشة فنفر الى مصر واستجار بصاحب السعادة فأجاره، وعين له الانزالات والرواتب وكتب السروجي الى صاحب السعادة يشكو[3] محمد بيك وأنه ظلمه وأخذ أمواله فى ابن غازى، فلم يقبل ولى النعم (الشكوى) فى محمد بيك المذكور وقال: رجل فى محل ولايته وفعل فى أحد رعاياه، فإنه لاعلاقة لى به فآل أمر السروجى الى أن مات وهو يكفف الناس، نسأل الله السلامة والعافية فى الدين والدنيا والآخرة، لأن من أعطى نعمة ولم يشكر خرج منها ولم يشعر ولله در القائل:

اذا كنت فى نعمة فارعها … فان المعاصى تزيل النعم

وداوم عليها بشكر الإله … فان الإله سريع النقم

ولنمسك عنان القلم عن السباق فى ميدان هذه الأوراق إذ التطويل مورث للكسل جالب للملل، والله ورسوله أعلم بما كان ومايكون.

---

(1) هو محمد بك بن يوسف باشا القرمانلي ولاه أبوه حاكما على بني غازي وماجاورها حتى حدث له ذلك.

(2) فى الأصل " حتى وصل الى مصر وحده وهو فقير الحال.".

(3) فى الأصل " يشكو فى محمد بك"

الفصل السادس

في عوائد[1] ملوك الوداي وأسماء مراتبهم ومناصبهم وفعل السلطان معهم وسلوك الأمراء والقواد معه

إعلم أن المنفرد في سلطانه بالتأثير، الغني عن الوزير والمشير، ألهمَ كُلَّ أمة بما يصلح أحوالها وينفي عنها وبالها، ولما علم جل جلاله أن رعاع الناس لايتبعون المحجة المستقيمة إلا بقهر من سلطان قوي الشكيمة، وأنهم لو تركوا سُدَى لظلم قويهم ضعيفهم، ولم يتبعوا سنن الهدي، أفاض عليهم المعارف، وألبسهم حلل العوارف، حتي اتفقت كلمة كل أهل إقليم علي أن يجعلوا لهم زعيم، يحكم فيهم بالإنصاف، ويتجنب طريق الاعتساف، فيواسيهم بعدله، ولا يرغب عنهم بفضله، ويأخذ حقهم من ظالمهم لمظلومهم، ويقتص من كالمهم لمكلومهم، وإن أقوي ملوك السودان شكيمة وأعلاهم عزيمة وأكرمهم شيمة ملك الوداي، لأنه إن جاد ساد، وإن وهب أفاد، وبلغ الموهوب له من الغني المراد، لكن من شروط أهل الوداي أن لا يتولي عليهم إلا من كانت أمه من ذوات الأحساب، عريقة النسب، شريفة الحسب، وابن الأمة لا يكون عليهم سلطاناً البتة، بخلاف الفور، فانه يتولاه (أي ملك) من كان أبوه سلطاناً سواء كانت أمه شريفة أو أمه وضيعة، وحين كنت في دار وداي كان السلطان عليها المرحوم السلطان محمد عبد الكريم الملقب بصابون، ابن المرحوم السلطان محمد صالح أبن السلطان محمد جودة الملقب بخريف التيمان، ابن السلطان محمد عروس الأصغر ابن السلطان محمد عروس الأكبر، ابن السلطان صليح، هكذا سمعت من الإمام بدر الدين إمام السلطان صابون المذكور بناء نسب السلطان صابون علي المنبر يوم الجمعة وقت الدعاء له.

---

[1] المقصود بكلمة "عوائد" هنا هي العادات والتقاليد المتبعة في الحكم.

وأما ترتيب مناصبهم ومراتبهم فعلي خلاف ترتيب الفور، لأن الفور راعوا أعضاء السلطان فسموا بها كما تقدم[1]، وأما أهل الوداي فراعوا عمارة إيالتهم، وحب وطنهم، فرتبوا مناصبهم بحسب البلاد، فأول المناصب عندهم وأعلاها مناصب الكماكلة، وهم ثمانية، أربعة أكبر من أربعة، وهؤلاء الكماكلة هم الذين يقضون الدعاوي وعليهم مدار الشوري، فلا يبلغون السلطان إلا أهم الأمور، لكن الأمور التي يقضون فيها يكتبون فيها جرنالاً[2]، ثم يعرض علي السلطان ليعلم ما فعلوا، ومن عادتهم أن السلطان لا ينقض حكمهم وإن ظهر خطؤه، ونهاية ما يفعل معهم أنه ينبههم إذا رأي منهم خطأً، بأن لا يعودوا لمثله، وإن تكرر ذلك منهم عزلهم، وأمضي ما حكموا به إكراماً للمنصب إلا اذا كان الحكم خطأً محضاً، فإنه يرسله الي القاضي ولا ينقضه بنفسه، ويليهم في العظم منصب المرمو[3]، وهي أم السلطان إن كانت علي قيد الحياة، فإن لم تكن فالهيابة[4] هي اكبر نساء السلطان

---

(1) تحدث المؤلف في كتابه تشحيذ الأذهان بأن أهل دار فور يعظمون سلاطينهم وفقا سموا مناصب الدولة بأعضاء جسم السلطان فمثلاً: أول مناصبهم "أرندولونج" يعني رأس السلطان، وهو منصب عظيم القدر، وهو الوحيد الذي يسير بجيشه أمام السلطان إذا كان مسافراً أو محارباً لقصده، ثم يتلوه منصب "الكامنة" يعني رقبة السلطان، وهو أكثر تعظيماً من سابقه لأنه أقرب الناس للسلطان، وفقا من عادتهم إذا قتل السلطان في الحرب، وإما الكامنة يقومون بقتله سراً، ويولون كامنه آخر للسلطان الجديد، وأما إذا مات السلطان على فراشه، فلا يقتل الكامنة، ويلقبونه بلقب: أباكوري، أي أب الفور، ويمشي بجيشه خلف جيش "أرندولونج" ثم يأتي بعدها "أبا أومانج" وهو قرين الكامنة، يعني العمود الفقري للسلطان، ووظيفته أن يمشي بجيشه خلف الجيوش لا يعقبه أحد، ورابعهم: "أباديما": يعني الساعد الأيمن للسلطان ويحكم على اثني عشر ملكاً من ملوك الفور، ويتحكم في جميع الشارات والأهبة التي للسلطان ما عدا النحاس، ثم يأتي منصب التكناوي: وهو قرين أباديما في كل شيء، وهو كناية عن ساعد السلطان الأيسر، ثم يأتي منصب الأب شيخ وهو أعلى المناصب، وليس بينه وبين السلطان فرق يذكر في ألفاظ القرارات وتنفيذها، وهو كناية عن عجزة السلطان، وهكذا نرى أسماء المناصب وتوزيعها بحسب جسم السلطان كما هو وارد ومشار إليه من المؤلف، بينما اختلف الوداي في ذلك. ينظر تشحيذ الأذهان ص ١٨٦ وما بعدها.

(2) لفظ الجرنال مأخوذ من اللغة الفرنسية يعني جريدة، لكن مقصود المؤلف هنا كلمة جرنال أي تقرير عن الحدث.

(3) المرمو في وداي، والماجيرا في برنو، ولعل هذا النظام قد انتقل من برنو إلى وداي ودار فور، فقد كان للماجيرا أم السلطان في برنو دور كبير في إدارة الدولة بما تملك من حواكير وأموال وجيوش ونشير إلى أن كل الدول الإسلامية التي نشأت في السودان الأوسط تأثرت بنظام حكمها بدولة البرنو. ينظر د. عبد الباقي محمد: الدول الإسلامية في غرب افريقية في القرن العاشر الهجري، رسالة دكتوراه (لم تنشر) ص٢٦٦.

(4) الهيابة: هي زوجة السلطان الكبرى كما هو في نظام الفور، أما في برنو فتسمي الغمسو؛ وكان لهذه المرأة دور كبير في شئون الدولة ويمكن أن تتدخل في أي وقت إذا رأت خطأ في نظام الحكم، كما أنها تتصدى لجميع مشكلات القصر التي تطرأ بين حريم السلطان وأبنائه. ينظر د. عبد الباقي: المصدر السابق ص ٢٦٦.

وأجلهن، ويليه في المعظم مناصب العُقَدِه، كعقيد[1] الصباح، وهو حـــاكم الولايـــة الشرقية، وعقيد الغرب وهو حاكم الولاية الغربية، وكل منهما تحت يـــده ملـــوك، وهما في دار وداي عوضاً عن أباديماغ والتكنياوي في دار فور، ويليـــهما فـــي المعظم مناصب الوزراء.

والكامنة[2] ليس مثل[3] الكامنة في دار فور، بل هو مثل أرندلون[4] أي اذا ركب السلطان يكون أمام الجيش، ويلي هذه المناصب كلها مناصب الترافنة، وهم رسل الغضب، هم المحافظون على جسم السلطان وداره، وتخالف هيئة ملابســهم ملابس عساكر الوداي، لأن جميع عساكر الوداي يلبسون ثياباً واســعة الأكمـام كثياب نساء مصر المسماة بالبداوية، وهؤلاء الترافنة عالم كثير، ثم بعد ذلك ملوك

---

(١) العقيد : والجمع عقداء ، وهو اللقب الذي يطلقه أهل وداي لحكام الأقاليم الأربعة، حيث كانت الدولة مقسمة إلى أربعة أقاليم كل إقليم يحكمه عقيده ويوازيه في دار فور نظام مماثل حيث قسمت دار فور إلى أربعة أقاليم لحكم كل إقليم نائب عن السلطان ولديه لقب خاص فمثلاً : التكنياوي يحكم المنطقة الشمالية، والاباديماغ ويحكم المنطقة الجنوبية الغربية لدار فور، وأباأوماغ ويحكم منطقة جنـوب شرق دار فور، ثم الأب شيخ، ويحكم المنطقة الشرقية، ويبدو أن هذا النظام قد انتقل إلى وداي ودار فور من برنو التي سبقت هذه الدول في النشأة والتنظيم الاداري الدقيق فقد كانت برنو مقسمة إلى أربعة أقاليم وقسمت الأقاليم إلى ولايات مع اختلاف في ألقاب الحكام، وفي هذا تنفرد وداي بأن نظامها هو الأقرب إلى النظم العربية من حيث التسمية لأن لفظ عقيـد ونقيـب وردت في النظـم العربيـة الإسلامية فالعقيد هو الذي يعقد له لواء الحرب : ينظر تشحيذ الأذهان ص ١٥٠ . د. عبد الباقي : مصدر سابق ص ٢٦٦ .

(٢) الكامنه : أو الكاموكيه : يذكر ماكما يكل Macmichael أن اللفظ على لغة الكانوري من برنو، ويتكون من مقطعين: "كسام" ومعناها "شخص" و"ني" ومعناها "ملك" وهو هذا الشخص يعني ظل السلطان أو نفسه أي المسؤول أمام السلطان عن المشاكل التي تحدث في الدولة، وهو ظل السلطان في كل المحافل، وفي دار فور يطلق عليه أيضاً لقب "كورينج ابا" أي "أبو الفور" ويرجع نسبـه إلى بيت فوراوي قديم، وكان يتمتع دائماً في السلطة مما أدى إلى نزاعات في الدولة، ومن ذلك ما أشار إليه ما كما يكل ذلك النـزاع الـذي نشب بين السلطان أحمد بكر والكاموكيه، ولذا كان يشغل منصباً رفيعاً في الدولة، ويستقر دائماً في العاصمة، وفي عرف الفـور، اذا مات السلطان فلا بد يقتل معه الكاموكيه كما سبقت الاشارة.

CF. Macmuuael: late on the Brvial place of fur. sultans of tura in jebel Marra.S.N.R. ox. (1926) part ٢. PP.171-178

(٣) في الأصل : " لا مثل الكامنة " .

(٤) أرونداونج: وهو منصب عظيم القدر، وصاحبه يكون برأس السلطان وهذا المنصب القاع وبلاد عظيمة وصاحبه لا يسلم عليـه إلا بـ"روامواي روانيا" يعني سلام سلام، وترفع السجادة أمامه كالسلطان، وصاحب هذا المنصب اذا كان السلطان مسافراً أو ناهضاً وظيفته أن يمشي بعساكره أمام الجيش كله لا يسبقه أحد.

ينظر تشحيذ الأذهان : ص ١٨١.

الجبال وعقدة الأعراب، كعقيد الجفاينة، وعقيد الزيدة[1]، وعقيد بني هلبه[2] وعقيد المحاميد[3]، ثم بعد العقدة الملوك، كملك البرقد[4]، وملك الداجو[5]، وملك كوكة[6] ونظائره ومن عادة سلطان الوداى أن يجلس لعموم الناس فى كل يوم اثنين وجمعة، أما يوم الاثنين فانه يجلس فى قصر فى داره مطلاً على الرحبة التى هى أمام دار السلطان المسماة بالفاشر وفى هذا الفاشر أشجار كبار ذات شوك

---

(١) الزيدة : ذكر التونسي بأن تسمية الزيدة من زبيد، وأنهم من حمير باليمن وهي ضمن المجموعة العربية التي كانت تسكن في وداي واشتهر الزيدة بالفروسية وتربية الخيل وصيد الزراف والنعام في وداي، ولتأثيرهم القوي كان لهم عقيد يحكم منطقتهم تشحيذ الأذهان ص ٢٩٢ .

(٢) بني هلبة: أو بنو حلبة من مجموعة قبائل جهينة القحطانية التي دخلت السودان من طريق الغرب والصحراء واستوطنوا في اقليم تشاد ودارفور واستقر معظمهم في منطقة عد الفرسان جنوب غرب جبل مرة، فاختلطوا بالقبائل المحلية كالفور والتاما والبرنو وغيرهم وهم من اكثر القبائل العربية استقراراً، يشتغل معظمهم بالرعي والزراعة ولهم مجموعات اخرى تقطن شرق دارفور وجنوب النيل الازرق بعد ان فرقتهم حروب المهدية، ينظر: محمد عبدالله آدم- المرجع السابق – ص ٢٥١، ومابعدها.

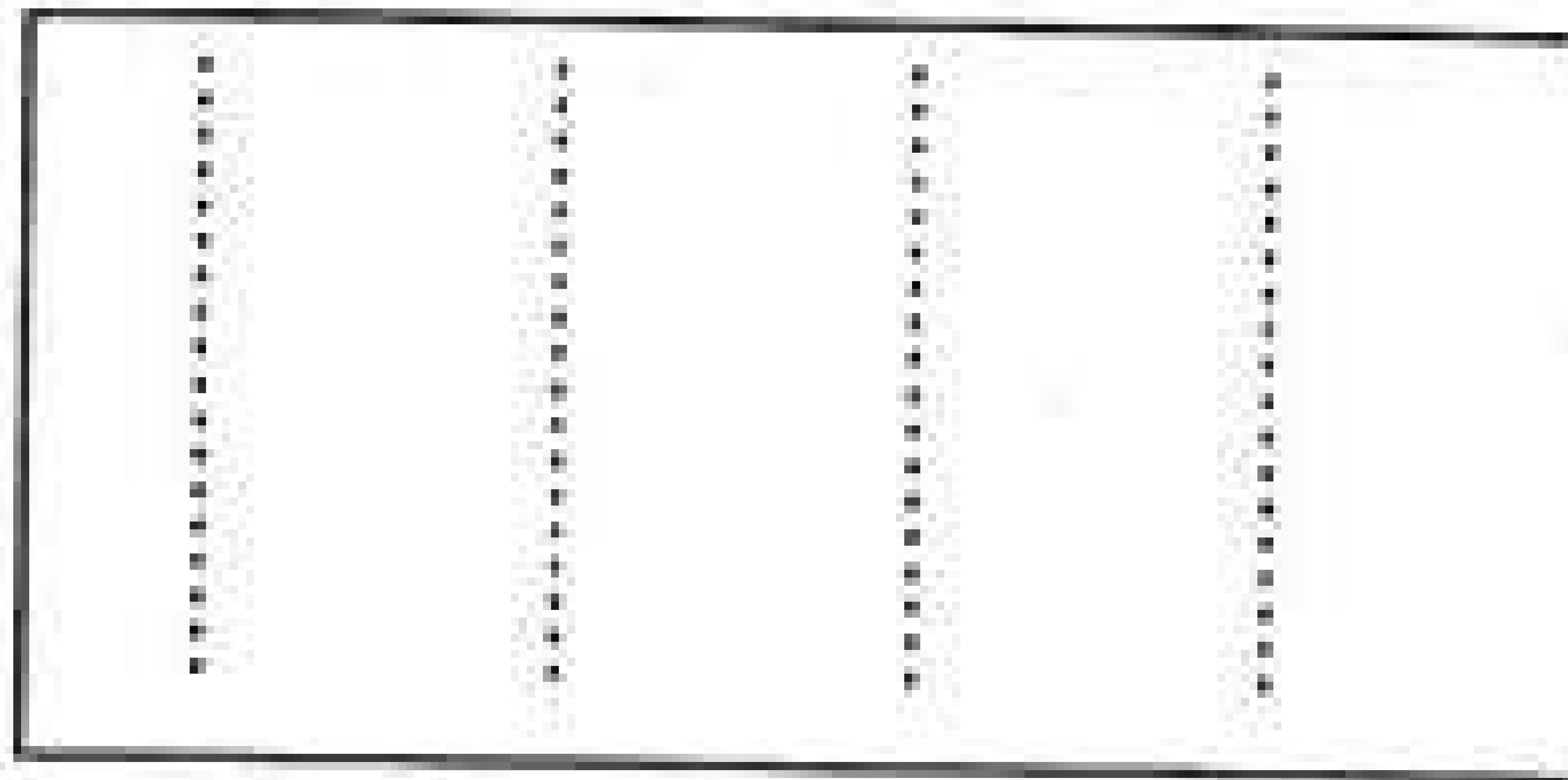
(٣) المحاميد: فرع من الرزيقات استوطنوا تشاد ودارفور، وينقسمون الى قسمين كبيرين: أم محمد وأم ضحية، ولكل فرع بطون وأفخاذ، وكان لهم تأثير كبير في دولة الوداي لاهتمامهم بتربية الخيل والفروسية.

(٤) البرقد: يقول بارث Barth انهم من اصل زنجي، ويذهب ماكمايكل الى انهم من اصل نوبي للتشابه بين لهجتهم المنقرضة ولهجة النوبة، وهناك كتابات متأخرة ترى انهم مزيج عربي نوبي نزحوا الى دارفور، وتشاد، ابان سقوط ممالك النوبة المسيحية، وتقع بلادهم في الوسط بين التاما في الجنوب الغربي والرزيقات في الجنوب والبرتي في الشرق والفور في الغرب، ولهم شعبة عظيمة في وداي يحكمهم ملك وهم من القبائل المستقرة ولهم قدم راسخة في الاسلام. ينظر: Macmicael:Ahistary of Arab in the Sudan Volsl.PP.77-79

(٥) الداجو: من أقدم العناصر السكانية في دارفور، يرى ماكمايكل انهم هاجروا من النيل الى دارفور، ويرى بالمر Palmer واركل Arkall ان الداجو هم التاجويين الذين ورد ذكرهم في مؤلفات الادريسي وابن سعيد وابن خلدون، وموطنهم بين الكانم والنوبة، واسسوا دولة مابين القرن الحادي عشر والرابع عشر الميلاديين، وسقطت على يد التنجر والعناصر العربية التي بدأت هجرتها المكثفة تصل الى اقليم تشاد ودارفور، فتفرق الداجو في كل الانحاء فنجدهم في وداي في قوز بيضا ومنقو في تشاد، ونجدهم في نيالا وام كردوس وكلوة وفي الفاشر وشرق كادوقلي جنوب كردفان. ينظر: : Palmer: Bornu Sahara and Sudan P.212
Arkell, A.J. History of Darfur. S.N.R. part 1 PP62-70

(٦) كوكة: يسكنون جنوب غرب وداي، وهم ثلاث طوائف، يقول التونسي انها كلها غريبة لدى اهل وداي ويتميزون بجمال نسائهم وقراهم عامرة ومراعيهم عامرة، ومعظم جواري الملوك والسلاطين من هذه القبيلة. وتطلق كلمة كوكة ايضا على عاصمة دولة برنو في عصرها التاسع وتقع في شرق بحيرة تشاد، ذلك ان عاصمتهم الاولى كانت انجيمي غرب البحيرة ثم انتقلوا الى غربها واسسوا عاصمتهم الجديدة وهي برني غسرغمو، وذلك بعد حروبهم مع البلالة، ثم انتقلوا الى مدينة كوكة واخيرا استقروا في ميدوغري، وهي عاصمة ولاية برنو الآن.
ينظر: صفحة ٢١٨ من هذا الكتاب. ابراهيم طرخان: المرجع السابق، ص ٢٧٥.

ابيض يسمى السيال[1] ، وهو سطران[2] بقرب دار السلطان، وسطر في آخر الفاشر، أما الذي في آخر الفاشر فانه محل جلوس الكماكلة يوم خروج السلطان،{والمعروف}[3] أنهم يغرسون حرابهم أمامهم فتصير كسطر من الحراب أمامهم هكذا:—



وهم يجلسون مقابل السلطان وأما السطر الذي يكون بقرب دار السلطان فان السلطان يقف في ظله يوم الجمعة، ويكون راكباً، ويجلس أمامه القاضي والمفتون والعلماء والأشراف وأعيان الناس على حسب طبقاتهم، وتصطف التراجمة واحداً بعد واحد،{وهم} سبعة كما هو اصطلاح الفور، لكن عادة الفور أن يسلموا على السلطان كما تقدم، أما الوداي فعادتهم بخلاف ذلك، فان الترجمان يقول: السلطان يسلم عليك يا قاضي، السلطان يسلم عليكم يا علماء الاسلام، السلطان يسلم عليكم يا أشراف، السلطان يسلم عليكم يا كماكلة، السلطان يسلم عليكم يا تراقنة، السلطان يسلم عليكم يا أمناء، السلطان يسلم عليك يا كامنة، السلطان يسلم عليكم يا ملوك الجبال، وهكذا الى أن يقول: السلطان يسلم عليكم يا حوالي واره كلكم، لعلكم طيبين، بارك الله لكم بالعافية، وكل من سلم عليه السلطان يصفق بيديه ويقع على الأرض على شقه الأيمن، ثم الأيسر، حتى يصل صدغه الى التراب، وفي تلك الحال{يكون} مع السلطان طبل صغير أشبه بالكوبه المسماة في عرف مصر بالدربكة، لها صوت حاد يسمع من بعد، ويسمى بالبردية، ومتى ضرب هذا الطبل

[1] السيال : جاء في القاموس : السيال جمع سيالة وهو نبات له شوك أبيض طويل اذا نزع خرج منه اللبن، وجاء في الترجمة الفرنسية لهذا الكتاب نقلاً عن مؤلف الكتاب: أن السيال نوع من شجر السنط، متوسط الارتفاع، ذو لحاء أخضر مائل الى السمرة، وكان في فاشر وداي حين زارها الشيخ التونسي تلك الأشجار التي ذكرها. ينظر الترجمة Vayage au Waday, p. 193

[2] سطران : يقصد صفان، وقد اعتاد على تسمية الصف بالسطر.

[3] في الأصل : " وعليهم يعرف بأنهم يغرسون حرابهم " .

يصفق جميع من في المجلس وأما العساكر الواقفون من ورائهم فمعهم[1] قطع من الحديد المسماة بالكرابيج،مع كل انسان كرباجان فيزونها فتضرب بعضها فيحصل منها صوت، وفي اثناء هز الكرابيج والتصفيق يثنون علي السلطان بصوت واحد قائلين: جاموس، الله ينصرك ياسيدي، فيسمع لذلك ضجة عظيمة، وهناك طائفة يسمونها الكبرتو[2] وهي التي تضرب النفير، وهذه الطائفة كناية عن الجلادين الذين يقتلون من أمرَ السلطانُ بقتله، فيجتمعون في ذلك اليوم، وهم جمع غفير، ويجلسون في محل عال، وبيد أغلبهم البوقات، وهي بوقات طويلة طول البوق منها عدة أشبار، كبوقات الموزيكة الفرانساوية، ولها أصوات كأنها هي، وبيد باقيهم طبول،كالطنبور الفرنساوي، المعبر عنه في مصر بالترنبيطه، فيضربون تلك الطبول، وينفخون في البوقات، وهي نحو خمسين بوقاً، فيسمع لها صوت عظيم، ولتلك البوقات صوت غليظ مرتفع، وبعد ضرب البوقات سويا[3] ، ينفرد رئيسهم وينفخ وحده في بوقه، ويقول كلاماً، فاذا سكت الكبرتو خرجت طوائف التراقنة وهم لابسون ثياب الحرب، وبأيديهم مقامع من حديد، وهذه المقامع هي المعبر عنها بالدبابيس، وعلي رؤوسهم طاسات من الفولاذ، وهي المعبر عنها بالخوذة، وعليهم دروع غير مصبوغة، لا تصل إلا لأوساطهم، لأنهم راجلون، ومن لم يكن له درع، له شاية، وهي كناية عن زبون، المسمي في عرف مصر الآن بالعنتري، وهو من جوخ أحمر، محشو بالقطن، مضروب كاللحاف، وهذه الشاية يلبسونها في الحرب، فتقيهم من السهام والسيوف، ومع كل طائفة منهم طبلان، كطبول الكبرتو، يضربون عليها ضرباً مزعجاً، فاذا ضربت طبول تلك الطوائف يخرجون من أماكنهم، ويخترقون الصفوف ويطوفون علي الحلقة مشيرين علي الجالسين كأنهم يرومون ضربهم قائلين: توبوا الي الله والي الرسول.

وامام الفاشر جبل صغير يسمي الثريا، عليه بناء{توضع} داخله النقاقير والنحاس السلطانية، كما للفور، لكن أهل الوداي لا يعظمونها كما يعظم الفور

---

[1] في الأصل: " فان معهم " .

[2] الكبرتو : هي طائفة الفرقة الموسيقية الخاصة بالسلطان ويقومون بضبط على السلطان والقيام ببعض الأحكام القضائية.

[3] في الأصل: " سواء " .

نقاقيرهم، ولا يجلدونها في كل عام كما تفعل الفور[1] وإن جلدوها لا يعلم بتجليدها أحد، فمتي خرج السلطان الي الفاشر، تضرب نقاقير النحاس وهي في أعلى الثريا، فاذا اجتمع صوت النقاقير[2] والبردية[3] وطبول الكبرتو والتراقنة والبوقات، وهزت الكرابيج، وصفق العالم بالأيدي، فيصير لذلك ضجة عظيمة.

ثم إن كان في يوم الجمعة بعد أن يسلم السلطان علي أهل الفاشر، إن كان هناك مظلوم تقدم واشتكي ظلامته.

وكيفية تقدمه هي أن ينزع ثيابه من علي صدره، ويربطها في وسطه ويدخل في الحلقة من الجهة اليمني للسلطان منحنياً، ويصفق بيديه، ولا زال ماشياً يهرول حتي يصل الي آخر الحلقة، فيكون قد مر علي السلطان فان لم يره رجع الي الموضع الذي ابتدأ منه، وحينئذ لابد أن يراه السلطان، فيسأله عن ظلامته، ويحيله علي الكماكلة إن كانت ظلامته يسيرة، فان كانت ظلامته جسيمة تولاها بنفسه حتي يظهر له الحق فيها.

---

(١) تحتفل دولة الفور في كل عام بتجليد النحاس، خاصة المنصورة التي غنمها السلطان تيراب من العبدلاب بعد أن هزمهم بالقرب من أم درمان، فتبدأ الاحتفالات عادة في الاسبوع الأول من شهر ربيع الآخر، وتستمر لمدة سبعة أيام أو عشرة، حيث يأمر السلطان بنزع جلود الطبول كلها في يوم واحد، ثم يؤتى بجلود ثيران عشر اللون من نوع بقر معروف فتدبغ ويتم التجليد وسط حفلة كبرى يحضرها السلطان وجميع الملوك والوزراء في الدولة ويقدم هؤلاء الهدايا العظيمة للسلطان، ويتم استعراض الجيش والقوة في هذا الحفل ويخرج السلطان في كامل زينته ليشاهد استعراض كل ملك علي حدة، والذبح الذبائح، ويستمر العرض لتلك المدة المقررة ثم يعود الملوك الي ممالكهم وولاياتهم.

ينظر: تشحيذ الأذهان ص ١٧٤ وما بعدها

نعوم شقير: تاريخ السودان، جـ٢، ص ١٤٤

(٢) النقاقير: جمع نقارة، وهي في دار فور عبارة عن طبل كبير من خشب، مجلد من حيوان شكله بيضاوي؛ ويجلد في الغالب بجلد ثور، وله صوت عال، وتستعمل النقارة في الأفراح غالباً، حيث يقوم بضربها أناس متخصصون.

(٣) البردية: وهي طبل ذو شكل حربي أقل من النقارة، لكن صوته أقوى من النقارة وفيه حدة وهي كالنكرية المعروفة في مصر باسم الدربكة، وتستعمل غالباً في المناسبات السلطانية.

تنبيـــه:

إعلم أن أهل الوداي فيهم من طباع أهل أوربا[1] أمور، منـــها: أن القـادم عليهم من بلد آخر لا يدخلونه في بلدهم إلا بعد اقامته في البلد المسـمي بعبـالي {مدة} ثلاثة أيام، وهذا نوع من الكرانتينة كما تقدم ذلك، ومنها أن اجتماع الكماكلة في الفاشر في كل يوم، ونظرهم في مصالح الناس، وكتابتهم الدعاوي في جرنال، وعرضها علي الملك، أشبه بالمشورة.

تنبيه آخر:

أعلم أن أهل الوداي يعظمون السلطان حتي يكادوا أن يعبدوه[2] مـن دون الله تعالي، بلغ لشدة تعظيمهم له لا يفتحون دعوة إلا بعد أن يقرأوا الفاتحة للسلطان ويدعون له بالنصر وطول العمر، وشددوا علي أنفسهم تشديداً بحيث أنهم اتفقـوا علي أن جميع طيبات الملابس والحلي الجميل، لا يكون إلا للسلطان ونسائه ولذلك لا يمكن لوزير[3] من الوزراء، أو أمير من الأمراء ولو عظمت منزلته، وعلـت علي جميع الأمراء كلمته، أن يلبس حريراً أو يضع علي سـرج فرسـه غاشيـة حرير[4] وجوخ، وإولي أن كانت مطرزة بشيء من الفضة كالعقب الذي تطرز به الغواشي في مصر، وأولي من ذلك سروج الذهب والفضة والركابات المطلية، ولم يرخص لهم إلا في غاشية من السختيان[5] الأحمر، فأعظم أمير منهم فـي ذلـك كأقلهم، ولا يقدر أحد منهم أن يجلس علي بساط أو سجادة ولو في بيته، ولا يصيغ لأهل بيته حلياً من الذهب، ولا يروح علي نفسه بمروحة من ريش النعام، ولا من الورق المنقوش التي تطوي وتنشر كما يفعله أهل أوربا، بل لا يلبسونه إلا الثياب السود والبيض من القطن، أو البفت أو الشاش، نساءً ورجالاً، وكلـهم فـي ذلـك سواء، وحلي نساء أمرائهم وإن عظموا من الفضة، وأما أوسـاط النـاس فمـن

---

(1) في الأصل: " أهل الاوربا " فقد نعود على اضافة الألف واللام لكلمة أوربا.

(2) في الأصل: " أن يعبدونه ".

(3) في الأصل: " لا يمكن أن وزيراً من الوزراء، أو أميراً من الأمراء ".

(4) في الأصل: " غاشية حريراً ".

(5) السختيان: هو جلد الغنم المدبوغ والمصبوغ.

النحاس، {وكذلك}[1] فقراء الناس{حليهم} من النحاس إن أمكن، وإلا فمن الحديد، ومتى تعدي أحد منهم واقتنى شيئاً مما هو محرم عليهم، قتل أشر قتلة، وإن كان أعظم عظيم فيهم، وانما فعل بهم ذلك لتنكسر حدة قلوبهم، لأنهم لو أطلق لهم القيد في ذلك، كانوا يرون أنه لا فرق بينهم وبين السلطان، ويكون ذلك سبباً لطغيانهم، فربما قتلوا السلطان واقتتلوا على الملك وفسدت أحوالهم، ومن شدة الضيق عليهم وتعظيمهم للسلطان ان الانسان لايقدر أن يثنى على رجل اسم الجمع، لأنهم يقولون: لاينبغى لأحد أن يثنى على أحد إلا على السلطان، فلا يوصف أحد عندهم بالكرم ومكارم الأخلاق ألا السلطان، ومن شدة الضيق عليهم أنه لايتسمى أحد باسم السلطان، فاذا تولى السلطان وكان إسمه صالحاً[2]، مثلاً فجميع من كان اسمه صالحاً يغير اسمه فى الحال، واتفق فى أيام السلطان صالح أن دخل عليه أقوام من البلاد، فاراد الترجمان أن يسميهم[3]، ليبلغهم سلام السلطان، فصار يأخذ أسماءهم واحداً بعد واحد، وكان فيهم رجل يسمى صالح فحين وصل اليه قال: السلطان يسلم عليك يافقيه صالح، وسمع السلطان بذلك، فاغتاظ وزعق على الترجمان زعقة أدهشته بصوت أشبه بصوت الطاووس، وهذه الزعقة غير مختصة بالسلطان، بل يزعقها كل من ثار غضبه منهم، فقال الترجمان بسرعة: السلطان يسلم عليك يافقيه فالح، وكان بازاء داره بئر يقال لها بئر صابون، فلما تولى السلطان صابون غير إسمها وسميت بئر عَنْبَر.

ومن عادتهم أن السلطان لايشرب من بئر معينة بل يتوجه السقاة الى (أى) بئر من الأبار[4] حوالي وارة على حين غفلة من أهلها، فيضربون من كان بالبئر بسياط فى أيديهم فيهرب الناس ويحتاط السقاة ببئر من الآبار، فيملأون أوانيهم ومتى ملأوا[5] الأواني لايتركون أحداً يقربهم، بل كل من دنا منهم يضربونه فيتنحى الناس عنهم، حتى يصلوا الى محلهم، وذلك خوفاً على السلطان من السحر

---

(1) فى الأصل: "وأما فقراء الناس فمن النحاس".

(2) فى الأصل "وكان اسمه صالح".

(3) فى الأصل "يسمسيهم ... والصواب يسميهم" أي يذكر أسمائهم أمام السلطان.

(4) فى الأصل "بئر من البئار...".

(5) فى الأصل "ملاوا ...".

والسم، فاذا عرفت للسلطان بئر معينة لايشرب إلامنها، فربما ألقى[1] الأعداء فيها شيئا من السم أو السحر فيفعلون ذلك للاحتراز، ولذلك لايردون للماء إلابعد أيـــام لأنهم يملأون جراراً كثيرة نحو العشرين أو أكثر، وكلما ملأوا جرة سدوها ســـداً محكماً وغطوها بقماش نظيف، وهذه الجرار من حيث أنها للسلطان تسمى بـــالبلك ومعنى البلك عندهم ماء السلطان.

ومن تعظيمهم للسلطان لايدخلون عليه بثيابهم ولابنعالهم ولابعمائمهم بل أى إنسان منهم جاء الى دار السلطان عليه أن يخلع نعليه عند أول باب ويدخل حافياً، وعند ثاني باب يخلع عمامته إن كان متعمماً وعند ثالث باب يخلع ثيابه من الجهة اليمنى الى الجهة اليسرى، وعند رابع باب يخلع طربوشه إن كان لابساً طربوشاً، وعند خامس باب يتحزم، وعند سادس باب يخلع الثياب من شقه الأيســـر، وعنـــد سابع باب يتحزم بثيابه وحينئذ يدخل على السلطان، وفى هذا يستوى أعظم وزير بأحقر إنسان، فيدخل على السلطان وجسمه عريان الامابين السرة الى الركبة.

ومن عادتهم أن السلطان اذا خاطب أحدهم بالعبودية لايأنف من ذلـــك بـــل يفرح وينشرح صدره، ويجيبه بقوله: نعم ياسيدى وسيد أبى وسيد جدى، واذا أمره بأى[2] أمر صفق على يديه وأمال شقه الأيمن على الأرض حتى يمـــس الـــتراب بصدغه الأيمن، ثم ينقلب على شقه الأيسر ويفعل كل ذلك، وهـــو يقـــول سمعاً وطاعة ياسيدى وسيد أبى وسيد جدى، جاموس، الله ينصرك ياسيدى...

ومن عادة ملوكهم أنهم لايجتمعون مع الناس[3] مباشرة، بل اذا كان جالســـاً بجماعة يجعل بينه وبينهم حائلاً كستارة، ويخاطبهم من داخلها وهم مـــن الخـــارج لاينظره الانسان الا اذا كان فى خلوة ولختلى مع من يريد الخلوة به.

(فائدة) من شدة تعظيمهم للسلطان ان الانسان منهم اذا كان له ديـــن علـــى آخر وماطله فى دفعه له جاء به الى مكان ما، سواء كان خالياً من الناس أو فيـــه أناس، ثم يقوم برسم خط دائرى[4] حوله، ثم يقول له: أقسمت عليك بالله ورســـوله

---

[1] فى الأصل "... فربما ألقت الأعداء."

[2] فى الأصل "... ومهما امره السلطان بأمر صفق..."

[3] فى الأصل "... يجتمعون على الناس..."

[4] فى الأصل "... يخط له خطاً كدائرة..."

الحربية، وينظر هل زادها أم نقصها، ويسأل عنه رجال المنصب فان رضوا[1] عنه ومدحوه وكانت الأموال موفورة، وعرف عنه أنه شجاع كريم غير لاه عن مصالح الدولة (فى هذه الحالة) إما أن يبقى على حاله، أو يعطى منصباً أعلى منه، وكيفية ذلك أن للمنصب رجالاً قائمين بشئونه وهم الذين يكون عزل المتولى من قبلهم، لأنهم كلما رأوا فى صاحب المنصب خللا كتبوه في جرنال[2] حَتى تجتمع عليه جملة دعاوى ثم يتوجهون (بها) الى القاشر ويشكون صاحب المنصب عند الكماكلة، فحينئذ يقوم الكماكلة باخطار السلطان فيأمر بإحضاره، ومتى حضر يعرض مامعه من الخيول والآلات الحربية على السلطان فى يوم جمعة، وتكتب كلها في قائمة، وينظر فى الدفتر مقدار ما استلمه يوم التولية، وينظر الفرق بينهما فان وجد أنه أكثر من الذى كان قبله يسأل عن دعوى رجال المنصب، وإن وُجِدَ أقل مما كان استلمه يُسألَ عن أين ضاعت هذه الأموال وكيفية استغلالها[3] وفى أى شئ صرفها، فإما أن يأتى بجواب سديد يدرأ عنه العذاب، وإلا كان عذابه شديداً، ورجال المنصب هؤلاء لاخير لهم فى المتولى أبدا، بل يخدمونه ويمتثلون لأمره فى الظاهر ويلقونه فى المهالك فى الباطن، وفى ذلك بإملاء[4] من السلطان وهم يقولون نحن خدام السلطان لاخدام العقيد او الملك بل لو فعل معهم من الاحسان مافعل ورأوا عليه خللا أو تقصيراً يبادرونه بالشكاية ولايعتبرون احسانه اليهم ثم اذا كان المعزول عُزِلَ عن غضب يبقى مدة ومتى رضى عنه السلطان أرسل الى صاحب المنصب الجديد فأحضره ثم قال له: خذ هذا عندك واكرمه لأنه شريكك فى المنصب، وهو الذى يطلعنا على أسرارك فيتوجه معه قهراً عنه، ومتى رأى منه تقصيراً شاكاه وعزله عن المنصب وتولاه ثانياً، والسر فى ذلك أن الوداى أناس لايطمأن[5] اليهم، اذا أهمل السلطان أمرهم يبطرون النعمة ويعصون

---

[1] فى الأصل "..فان ترضوا عنه..."

[2] (فى جرنال) هكذا وردت ولعله يقصد كتبوه فى ورقة فى شكل تقرير لان كلمة جرنال فرنسية وتعنى الجريدة اليومية كما سبقت الاشارة.

[3] فى الأصل "... واين ماستغله..."

[4] فى الأصل ".. باملاه من السلطان.."

[5] فى الأصل ".. اناس لايطمان اليهم."

على السلطان، فرأى السلطان أن فى انتباههم لبعضهم راحة لــه، فدبـر الأمـر وأوقعهم في بعضهم وصار ذلك سنة عندهم لاينكرونها.

ثم إن الغضب يتفاوت بعظم الذنب وحقارته فأعظمهم ذنباً مـن يفـر فـى الحرب فمن ثبت لدى[1] السلطان انه فر من القتال يقتل أشر قتلة، ويليـه الـذى يخون فى الأموال الميرية، ويضعف الشوكة السلطانية، لأن السـلطان بالرجـال، فمتى كان رب المنصب منتبها لقوة الدولة فهو العزيز عند السـلطان والمرضـى عنه.

ومن عادتهم أنهم لايركبون حماراً، ولو كان (الرجل) فقيراً، ومـن ركـب منهم حماراً عابوه واحتقروه، وان الحمير فى بلادهم لاتصلح إلا لحمل الاثقال.

ومن عادتهم ان السلطان مطلوق الحرية، يفعل ما أراد، لكن لايغير شيئـاً ماجرت به عادتهم فإن غير شيئاً حرمته العادة عندهم ربما قتلوه لذلك، ولقد بلغنى من أكابر أهل الوداى أن السلطان المرحوم محمد صابون أراد أن يغير عادتهم فى المكيال الذى يكتالون به وقال أريد أن يكون المد الذى يكال به كمد النبى صلى الله عليه وسلم فأبوا عليه وقالوا لايمكن ذلك، ولولا والدى تلطف بالسـلطان وتوسـل اليه فى إبقاء ماكان على ماكان لوقعت[2] فتنة عظيمة، وكذلك بلغنى أن السـلطان أراد أن يحدث سكة يتعامل بها الناس كسكة مصر، بأن يجعل له محـلاً لضـرب الدراهم لكثرة الفضة عنده، فأبوا عليه وقالوا: إن جدك خريف التيمـان خاطبـه بعض المغاربة فى ذلك فأبى وقال: إن أهل بلادى قوم غُفل ومتى ضربت الدراهم وذاقوا حلاوتها ذهبت غفلتهم وانتبهوا لجمع الدراهم، فتشح أنفسـهم ويتحاسـدون ويتفشى البخل فيهم، وذلك يكون سبباً للخراب، ولا أرضى أن يحصل ذلـك فـى مملكتى[3] والعجب منك كيف يقول جدك هذا وأنت تقـول بخلافـه، فاستصـوب السلطان رأيهم وترك الأمر كما كان.

---

[1] فى الأصل "... فمن ثبت فى السلطان..."

[2] فى الأصل "...لكانت وقعت فتنة..."

[3] فى الأصل "... ولا أرضى ان مملكتى يحصل فيها ذلك..."

ومن عادتهم انهم يكبرون العمائم في المواكب والمحافل، مع أن لأجل أمير في بيت لايلبس على رأسه الا عرقية سوداء أو طربوشاً، ولبسهم في الطربـــوش مخالفاً للبس الفور، لأن الفور يحبون أن يكون الطربوش مستطيلاً، فيبقـى علـى رأس أحدهم كالطرطور المديب، أما الوداي فانهم يثنون قرص الطربـوش حتـى يصير القرص الذي فيه الشرابة منخفضاً وله (جـزء) دائـرى[1] مرتفـع نحـو قيراطين، ويلبسون الثياب الواسعة التي تلبسها حريم مصر، وهو المسمى عندهـم بالبداوى والسبلة كما قدمنا ذلك، لكن السبلة في مصر لايكون الاخزاً ويكون ملوناً إما احمرا أو اصفراً أو أسود، أو غير ذلك من الألوان، وسمى السبلة لأنه يسـبل فوق جميع الملبوسات، وأما البداوى فيكون من الكتان، وهو الغالب، وقد يكون من البز كالبفت والشاش، والغالب فيه أن يكون أسود حالكاً، فكذلـــك أهـل الـوداى يلبسون الثياب الواسعة، والغالب على ثياب الأكابر أن تكون سوداء ويعتنون فـي خياطته اعتناءً عظيماً، لأن الشقة منه عرضها لايتجاوز قـيراطين، وهـي علـى أجناس منها التكاكي[2] ومنها التيكوة[3] ومنها القداني، وهو المسمى عندهم برقيـة الكلنجو[4] وهو أسود لكنه يرى من خلال سواده احمرار، وأهل مصر يسمونه رقبة الحمام كما ذكرنا ذلك سابقاً.

وأن سيوفهم كسيوف أكثر الفور محتلة ويصبغون مقبضها مـن الفضة ويطلونه بالذهب ويجلعون المقبض ينتهي بكرة مجوفة يضعون فيـها[5] صغـار

---

(1) في الأصل "..وله دائر مرتفع.."

(2) التكاكي: مفردة تكة وهو قماش من صنع أهل بحدع من القطن، حيث يغلف القطن ويحلج في آلة مصنوعة من الخشب تسمى "المرحاية" نظرا لصوتها ثم ينسج في شكل خيوط مفتولة بواسطة آلة خشبية تسمى "المترار" أو "المغزل" نظرا لحركته الدائرية السريعة، ثم ينسج في المنسج يتحكم الصانع في طرفها بواسطة آلة تسمى "النشالة" يجلس عليها الشخص ويعمل بكلتا يديه ورجليه وعادة لا يزيد عرض القماش عن نصف الذراع وتصنع منه الملابس الرجالية والنسائية المصبوغة.

(3) التيكوة: أو التيكو: قماش مغربي أسود يجلب الى وداي ودارفور من برنو أو بالأزمة عرض الشقة منه قيراطان - ينظر تشحيذ الأذهان ص ٢٦١.

(4) الكلنجو: نوع من الطيور المهاجرة التي تأتي الى بلاد السودان في فصل الخريف لأجل التوالد، حيث يتوافر لها الغذاء والمأوى والمناخ الملائم وتسمى في السودان المصرية المطرة ولونها أسود مع صوف بين ناعم لامع يكسو رقبتها فيعطيها شكلاً جميلاً.

(5) في الأصل "..يضعون فيها دقاق الحصى."

الحصى، فاذا قبض أحدهم السيف وهزه يسمع للحصا فى الكـرة صـوت وهـذا لايكون إلا لأكابر الدولة من الفور والوداى.

ومن عادتهم أن الرجل منهم يلبس فى خنقة يده سكيناً ذات حديـن طولـها نحو ثلاثة أشبار تسمى في عرفهم الكرداوى ويلبس فى ذراعه سكيناً صغيراً.

(أما) ولاية المنصب عندهم (فتكون) بلبس العمامة، أعنى أن السـلطان اذا أراد أن يقلد[1] واحداً منهم منصباً يعطيه عمامة ويسمى له اسم المنصـب، وأمـا الفور فولاية المنصب عندهم بالفير وهذا الفير عندهم هو ملحفة ذات أهداب طوال من الحرير يحزم بها المتولى أمام السلطان ويجعل هدبها من الأمام.

وليس عند الوداى من الآت الطرب كما عند الفور لأننا قدمنـا أن الفـور عندهم الصفافير[2] والتكجل[3] والغدو والدنقار[4] والنقاقير النحاس وأمـا الـوداى فماعندهم سوى البردية والنحاس وهما خاصان بالسلطان أمـا التكجـل وطبـول الكبرتو ونفيرهم فهى عند جميع الأمراء.

ومن عوائد الوداى ومثلهم كالفور[5] يجعلون على وجوه الخيل شيئاً يسمى بلغة الوداى الوجه وبلغة الفور "كارجل" نسيت أن اذكره هناك[6] فى عوائد الفـور وتذكرته هنا وهو صفيح من تنك[7] أصفر، وهو الأحسن عندهم والأغلى ثمناً، أو من صفيح تنك أبيض وهو الغالب فى دار وداى مبطن بجوخ أحمر، تجعل منـه صفيحة على وجه الجواد وصفيحتين على صدغيه، لكن فى دارفـور ينقبونـه[8]

---

[1] في الأصل ".. اذا اراد ان يعطى لواحد منهم منصباً.."

[2] الصفافير: جمع صفارة وتصنع في ذلك الزمن من البوص او القنا او غير ذلك من النباتات الـتى تكـون جلوفـها فارغـة القـصب ويتحكمون في اصواتها بواسطة ثقوب عليها، ولها صوت موسيقى شجى.

[3] التكجل: نوع من الطبل له صوت مميز عن النقارة والبردية

(4) الدنقار: وهو طبل عظيم من خشب، مجلد من جهة واحدة نحاسى الشكل، له صوت عال ويستعمل في سلطنة الفور عند استقبال السلطان.

ينظر: تشحيذ الأذهان ص ١٧١.

[5] في الأصل ".. كالفور.."

[6] عبارة "..نسيت أن أذكره هناك أى أنه نسى ان يذكره في كتابه تشحيذ الاذهان وجاء ذكره هنا مما يزيد من أهمية هـذا الكتـاب وارتباطه الوثيق بالكتاب الاول بل هو مكمل له.

[7] التنك: "...مادة معدنية كالزنك..."

[8] في الأصل ".. لكن يطبونه في دارفور اكثر من الوادى."

أكثر مما في وداي، والأصفر منه غالي الثمن حتى أنه ربما يبيع برأسين من الرقيق، وهو أحسن مايتزين به عندهم، كما أن حراب الفور أتقن من حراب الوداي وأجمل رؤية، وبالجملة فإن أهل الوداي أقل تمدناً من أهل دارفور، لكنهم أشد منهم بأساً وأقوى مراساً، حيث أن الرجل من أهل الوداي لايعبأ بعشرة رجل من الفور ولقد قدمنا ذكر شجاعة الوداي فيما وقع بينهم وبين الفور من المحاربة.

وأما زي نسائهم فقريب من زي نساء الفور إلا أنهن لايضعن الخزام[1] في انوفهن[2] بل المرأة تثقب أنفها ثقباً واسعاً وتضع في الثقب مرجانة من الطبخ المسمى عندهم بالفاو، وإن لم تقدر على ذلك وضعت عوداً، ومن عادة النساء أنهن لايطرحن السواك من أيديهن ويستكن بكل شجر وجدنه، ومتى ما أكلت الصبية منهن طعاماً فزعت الى السواك، فتستاك قائمة وقاعدة وسائرة، ولايمنعها من السواك الا النوم أو شغل مهم، ولذلك نرى أسنانهن نظيفة ورائحة أفواهن جميلة جداً، ومن عادتهن أن المرأة منهن تلبس في رقبتها ثوباً من غير خياطة وهي ان تعمد الى شقة عرضها ذراعان مثلاً، وطولها نحو خمسة أذرع أو أقل فتشقها من الوسط وتلبسها في عنقها، فتصير مستورة من الأمام والخلف وجانباها باديان لكنها تتحزم بفوطة، ولولا ذلك لبانت فخذاها وأكثر حليهن كحلي نساء الفور، إلا أن حلي نساء الفور أتقن وأجمل لتمدن أهل الفور اكثر من تمدن الوداي ويلبسن في أوساطهن الخثور وهو خرز مستطيل أحمر وأبيض وأزرق ليس بالغليظ كالمنجور الذي تلبسه نساء الفور.

ومن عادة النساء في دارفور كنساء الوداي أن يتحزمن بخيط ويأتين بخرقة عرضها نحو من شبر وطولها أكثر من ذراع فتدخل المرأة الخرقة بين فخذيها وتدخل طرفيها في الحبل المتحزمة به من الأمام ومن الخلف، وتفرده فيها ليغطي سوءتها من الأمام والخلف، بحيث لو وقعت الفوطة المتحزمة بها تكون مستورة

---

(١) الخزام: هو نوع من الحلي النسائي يلبس في الأنف، وهو للأغنياء من الذهب والمتوسطين من الفضة والفقراء من النحاس وهو على نوعين: حلقي وشوكي، فالحلقي عبارة عن حلقة فيها ثمر، وهذا النوع لمعل فيه مرجانة أما الشوكي فهو عبارة عن حلقة نصفها غليظ والنصف الآخر رفيع كالشوكة يجعل فيه اربع مرجانات بينها حبة ذهب"

ينظر: تشحيذ الأذهان ص ٢١٣.

(٢) في الأصل "... في انافهن."

العورة، وهذه الخرقة عندهم تسمى الكنفوس وبلغة العبيد تسمى الجوكو ومن عادتهن أن يكثرن من لبس الدمالج[1] والخلاخل[2] وهي نحاس أصفر.

وطيب نساء الفور الذي يتطيبن به أحسن من طيب نساء الوداي ثم إن أهل الوداي أعظم أجساماً وأطول قامة من أهل دارفور، بل ومن غيرهم، وليسوا حالكين في السواد كاهل الفور والباقرمة، بل الغالب على ألوانهم الصفرة، فلايوجد فيهم من هو حالك السواد الاقليل، وأكثر قبائلهم كذلك، كما لايوجد فيهم من هو صغير الجسم الا القليل[3] بخلاف الفور فاغلبهم سود، وليس فيهم من هو ضخم الجسم الا القليل، وأعراب باديتهم أصفى لوناً من اعراب بادية الفور[4] خصوصاً القبيلة المسماة بالمحاميد فانها تكاد تكون في ألوان أهل مصر، ولايعيبون احمرار اللون كما يعيبونه في دارفور بل عندهم الألوان كلها متساوية، وهي فطرة الله، والأسود والأحمر والأصفر عندهم على حد سواء، بل كلما قل سواد المرء كلما حسن عندهم وتمدحوا به وقالوا إن هذا من حسن الأصل، لأن عندهم إحليلاك[5] السواد من التوغل في الرق، وكلما خلص من السواد كان أقرب للحرية.

ومن عادة الأبكار أنهن لايبالغن في أكل الطعام بل منهن من لاتأكل الا الحريرة[6] وهي المسماة في عرف الأوربيين بالكريما، وذلك خوفاً من كبر بطونهن ولهذا تجدهن ضامرات، ويشددن أوساطهن شداً قوياً قصد الضمور، ولايبالغن في أكل اللحوم أيضا، وعليهن أكثر الأعمال كنساء الفور، بل أكثر لأن النساء في دار الوداي من اللاتي يذهبن الى السوق ويشترين مايحتاجه المنزل،

---

(1) الدمالج: جمع دملج وهو السوار ويصنع من الفضة Macmichael: OP.Cit.P 104

(2) الخلاخل: أو الخلاخيل: نوع من الأساور تتزين به النساء في دارفور ووداي وتلبس في الأرجل عادة ويصنع من النحاس للنساء الفقيرات وبنات الأغنياء يخلط النحاس بالتوبا الصفراء فيميل لونه إلى الاصفرار القريب من الذهب.

ينظر: تشحيذ الأذهان ص ٢١٨.

(3) في الأصل "... الاقليل..."

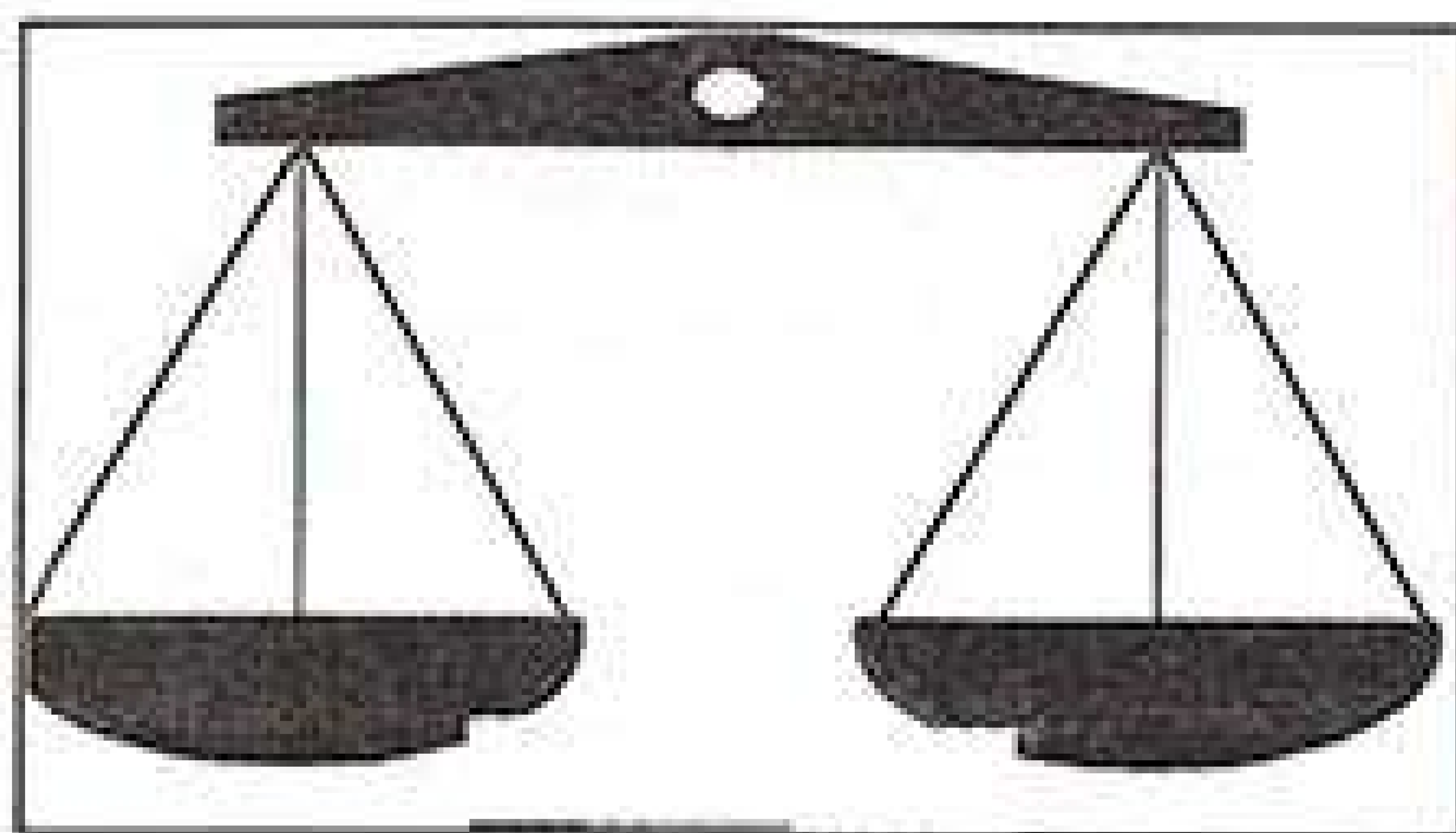
(4) حديث المؤلف عن ألوان الوداي بأنهم أكثر صفرة من أهل دارفور حديث في محله حيث أن قبائل الصحراء والبادية الشمالية، مازالوا محافظين على ملامحهم الأصلية لقلة اختلاطهم بالأفارقة بينما نجد عكس ذلك في بادية دارفور وكردفان حيث القبائل أكثر احتكاكاً بالقبائل الأفريقية فتغيرت ملامحهم وأشكالهم خاصة قبائل مثل السلامات والبني هلبة والتعايشة... وغيرهم.

(5) قوله "احليلاك السواد..." يقصد شدة السواد من قولهم: فلان حالك السواد أي شديده.

(6) الحريرة: وتعرف في دارفور بالمديدة أو النشاء وتقدم كوجبة خفيفة في رمضان، أو بعض الحالات المرضية والمرأة الوالدة.

والرجال لايعلمون ذلك، ومن عجيب صنعهن أنهن يحملن البضائع من بلد الى بلد، ولكل امرأة منهن ريكتان، والريكة[1] أشبه بالقفة فى عرف مصر، ولكل ريكة كفة من الحبال لها أربعة أحبال، فتأتى (المرأة) بعصاة غليظة وتضع طرفها فى رؤوس الحبال من أعلى والطرف الثاني كذلك، فتبقى الريكتان والحبال والعصا على هيئة ميزان هكذا

الرسم:-



اى ذى كفتين، وذراع، فتحمله المراة من الوسط حتى تعادل الكفتان، وهذا هو المسمي كرانقلي، فيجعلون فى الريكتين مايشاءوا من لحم ولبن ودقيق ومأكل ومشرب وبضاعة، ويُتَّجَرُ فيها وتحمله المرأة وتسافر به السفر البعيد كما ذكرنا، وهن يحرثن ويحصدن ويقمن بالزرع وعليهن أشق الأمور وأسهلها كالماء والحطب وجمع الأرز والتمر هندى والخروب[2] والنبق، وأما الرجال فعليهم[3] مقاتلة الأعداء والحياكة والغزل وجميع الأمور المهمة، (كرعاية) البقر والرقيق وعليهم الغزو لبلاد الفرتيت وخدمة السلطان وبناء البيوت واقتحام الأمور العظيمة بالجملة، ففى دارالفور والوداى (للرجال) اختلاط عجيب بالنساء فى الليل والنهار لان بناتهم يختلطن مع الشبان بالليل ولايمكن حجب المحبوبة عن محبها، ويتحيلن

[1] الريكة: تنطق بامالة الراء وهي اناء واسع كالقفة لكنها اكبر منها وتصنع من جريد شجر الدليب والقنا وتصمم بشكل دقيق وتسع حوالى خمسة أرباع من الذرة، وتستعمل بطريقة واسعة فى دارفور ووداى.

[2] فى الأصل "... الخرنوب" والصواب الخروب وهو نوع من ثمار الشجر تأكله الحيوانات لكثر لبنا كثيراً واحياناً يأكله الناس لان طعمه لذيذ وفيه حمضة.

[3] فى الأصل "... اما الرجال فعليها..."

في ذلك بكل حيلة يقدرن عليها[1] ولقد كان أحد التراقنة بدار وداى يهوى جارية من محاظي السلطان صابون، وكانت هى أيضا تهواه وكانت لها عند السلطان منزلة عظيمة، ومن حب السلطان فيها أنه أخذها معه فى الغزو حين توجه لقتال التاما الذى أسلفنا ذكره، فبرطلت[2] الخدام والجوارى وصارت تخرج اليه من أخبية السلطان، فثبيت عنده كما قدمنا ذلك ولقد رأيتهن فى دارفور يتحيلن بالعجائز فتأتى العجوز للغلام الذى تريد أن تدخله دار السلطان فتضفر شعره، كالمرأة[3] وتلبسه العقود والخلاخل والدمالج وتهيئه بهيئة الجوارى وتضمخه بالطيب، بحيث لايشك رائية أنه جارية، ثم تدخله دار السلطان مع مافيها من الحجر والتضييق على النساء الداخلة، خصوصاً من الطواشية الذين يقتلون الانسان ويسألون ولايسألون لم قتلتموه، وأقول إن الأمر الذى دعا النساء لهذه الأفعال كونهن مظلومات مع سلاطين السودان وملوكها، لأن السلطان فى داره أكثر من ألف امرأة جميلة تصلح لان تكون ضجيعة له، بخلاف الخدم والعجائز بل يوجد فى بيوت الملوك من عنده خمسمائة امراة ثابتة[4] من ذوات الجمال، وبالضرورة من حيث أنه آدمى لاقدرة له على الالمام بجميعهن وهن شابات قويات الغلمة وعندهن المآكل والمشارب خصوصاً ويشربن من المسكر فيهيج عليهن الشهوة، فيتحيلن بكل حيلة كما ذكرناه ولولا أنهن يظلمن، لما فعلن ذلك الأمر المنكر حتى أنه ربما كان سبباً لقتل الرجال وقتلهن وقتل من أدخلهم، فلقوة الشهوة يرمين أنفسهن فى الهلاك وسوء الارتباك، وبالجملة فهن سبب لأكثر مصائب الرجال لكن العاقل من الرجال يحزم رأيه ولايعطيهن زمامه وقيادة، وقد اتفق أن رجلين عاقلين قتلا امرأة وماذاك الا أن العرف الجارى عندهم أن المرأة لاتُجْبَرْ على أحد بل كل من أحبته تركوها وإياه، ومن اصطلاحهم أن المرأة اذا أحبت رجلاً وأختارته صارت

---

[1] الواقع الاجتماعي في دارفور وماجاورها لم يكن هذا الوضع على إطلاقه كما ذكر المؤلف وإن وجد فهو لنواحي الحياة ومتطلباته من تعاون بين الرجل والمرأة وإن بدا ذلك غريباً على بعض المجتمعات العربية.

[2] (فبرطلت) وهي كلمة عامية مصرية والمقصود أربكهم وأحاطهم.

[3] في الأصل "... فتضفر شعره كالنساء."

[4] هذا العدد مبالغ فيه لكنه يعكس كثرة نساء السلطان غير الحرائر وعادة مايلتزم السلاطين في دارفور ووداي بأربع نساء حسب ماحددت الشريعة الإسلامية.

له فإن كانوا عشرة رجال أصحاب وبينهم امرأة واحدة (يطلبونها) خيرت، فإذا اختارت أحدهم صار[1] التسعة كإخوان لها، يناديها كل منهم (بكلمة) يا أختي، وهي أيضا كذلك، فإن مالت بعدها لرجل آخر منهم ربما أوقعت بينهم عداوة لشدة الغيرة، خصوصاً اذا كانت من ذوات الجمال، وقد اتفق أن صاحبين عثرا على[2] شابة جميلة أو تعرضا لها لتختار واحداً منهما كما هي عادتهم، فاختارت أحدهما فقال لها الآخر أنت قد صرت أختي، وبقيا كذلك مدة، فملت صاحبها الأول، وأرادت أن تصاحب الثاني ومالت اليه بكليتها، وكانت جميلة كما ذكرنا فمال اليها هو الآخر ولكنه[3] خاف من اللوم والعار، وأن تقع العداوة بينه وبين صاحبه فتكون سبباً لهلاكهما، أو هلاك أحدهما فاختلا بصاحبه وقال له إني عارض لك رأياً لأتفق انا وإياك فيه على مافيه الخير، وماذاك الا أنك تعلم أن النساء فتنة للرجال وأن فلانة قد ظهرت خيانتها وألقت نفسها عليّ، وأخشى أن تكون سبباً للعداوة بيننا، وإن كنت في شك مما أقول فاختف بالليل في موضع كذا وأنا آتي كأني أسأل عنك وأنظر مايحدث بيننا، ولكن اشرط عليك أن رأيت مايسوؤك منها فإن[4] استغنيت عنها فسُبها وانهرها، وقل لها ياخائنة إياكِ وأن تعودي لي أو لصاحبي واعلمي أننا لانعادي بعضنا لأجل امرأة خائنة مثلك وإن لم تستغني[5] عنها وتمكنت محبتها منك فلا تظهر لها، وأنا اتخلص منها بجميل وأبعد عنكما مدة حتى تسلوها، فقال له صاحبه نعم مابه أشرت، ثم انه صار حتى كان الوقت الذي وعد صاحبه أن يأتي فيه فأتي ودخل الدار وكان عشيقها قد جاء أولا واختفى في مكان ما ليشاهد مايقع بينهما، وهل كلام صاحبه حق أم لا[6]، وحين دخل الرجل الدار وشعرت به قامت اليه وتلقته وبشت في وجهه وعرضت عليه الجلوس معها: فقال لها: اين أخي، فقالت له لا أعلم وبالله عليك لاتقل أخي فانه والله لايحبك ولايألفك

---

(1) في الأصل "صارت التسعة.."

(2) في الأصل "عثرا بشابة.."

(3) في الأصل "..وكانه خاف من اللوم.."

(4) في الأصل ".. فإن كان انك غني عنها.."

(5) في الأصل "..وان لم يك غني عنها.."

(6) في الأصل ".. وهل كلام صاحبه حق او لا.."

وأنت تضع الود وتصنع الصنيعة فى غير محلها، فقال لها أنا لا أعلم من صاحبى الاوداً ووفاء فقالت له إن كنت لاتصغى للكلام فيه فشأنك وإياه، ثم دنت منه ورمت نفسها عليه، فامتنع عنها وقال لها اعلمى انك صرت الآن لفلان[1] فإن تركتيه واتبعتنى كانت هذه خيانة[2] منك وان قبلتك كنت خائناً ايضا وما الذى منعك ان تختارينى أولاً، فقالت: إنى اخطأت وظننت انه يعادلك فى المروءة فظهر لى ضد ذلك، وقد ندمت الآن والقيت اليك زمام أمرى وها أنا بين يديك، فقال لها أما من جهة فلان صاحبى فلا أخونه وأما أنت فان كنت محتاجة لامر ولم يوفه لك فعلىّ وفاؤه فقالت قد زهدته[3]، ولاحاجة لى به، فان كنت تقبلنى والاهت على وجهى ولن أعاشره، ولما سمع عشيقها مادار بينهما من الكلام أخذه الغضب وظهر عليها، ولم يخاطبها بل مسكها وضربها بسكين فى أحشائها فخرت ميتة فقال له صاحبه ويلك ولم فعلت ذلك فقال: أرحت قلبى لأنى أحبها ومن حيث أنها تبغضنى فلا آمن أن أقع فى بعض المهالك بسببها ولما ماتت تحير فى أمرها فاتفقا أن يقطعاها ويحفرا لها حفرة ويلقياها فيها وكتما أمرها حتى مات القاتل ثم حكى الرجل الآخر (القصة) ولولا إخباره لما ظهر الأمر، وخائنات النساء كثير فلا بارك الله فى كل خائنة ورحم الله من قال:-

فيهن من تسوى ثمانين بكرة ... وفيهن من تعلو بجلد حمارة

وفيهن من لم يسق الله عرضها ... اذا غاب عنها الزوج راحت لجارة

فلا رحم الله خائنة النساء ... وأحرق كل الخائنات بنارة

واذكر فى هذا السياق ماجرى لأحمد بن طولون مع بعض محاظى أبيه ذلك أن أحمد أرسله أبوه داخل الدار لحاجة، فرأى محظية والده مع عبد من العبيد فخافت أن ينم أحمد لابيه عنها[4] فيقتلها، فسكت على مضض حتى دخل طولون الدار

---

[1] فى الأصل "... على اسم فلان.."

[2] فى الأصل ".. كانت منك حيا؟!.."

[3] " وقد زهدته". أى كرهته على لسان اهل دارفور ووداى.."

[4] فى الأصل ".. فخافت ان ينم احمد عليها لابيه."

فقامت الجارية وهي باكية العين، فلما رآها على تلك الحال تألم قلبه من ذلك وكان يحبها فقال لها مادهاك، فقالت بمكرها ودهائها أيُسرك أن أحمد ولدك يراودني عن نفسي، ولولا أني تحيلت عليه ووعدته وقتاً آخر لفعل[1] ما اراد أو قتلني، فاغتاظ طولون لذلك وعزم على قتل ولده، لكن لم تطاوعه نفسه بذلك فكتب الى [2] احد عماله كتاباً يقول فيه: إذا أتاك كتابي هذا فاقطع رأس حامله من غير مشورة والسلام، وطوى الكتاب ودعا بولده أحمد وقال له اذهب بكتابي هذا الى عاملنا فلان ليعمل بمافيه وأتنى عاجلاً، فامتثل أمر والده وأخذ الكتاب وامر باسراج دابته فرآه العبد الذى كان وجده مع الجارية، فأراد أن يتخذ له يداً عنده ويبغض فيه أباه لما يرى من تهاونه في قضاء حاجته فقال (له) الى اين ياسيدى فقال: ان والدى ارسلنى الى العامل فلان بكتاب يامره بأن يعمل[3] بمافيه، فقال له هل يتفضل عليّ مولاى بهذه الخدمة ويكون هو فى راحة وأنا أقضى عنه هذا (الأمر) المهم[4] فأجابه أحمد لذلك وأعطاه الكتاب، واغتنم الراحة، فلما كان ثانى يوم دخل على الملك رسول وكتاب من طرف العامل ومعه مخلاة وكتاب يقول فيه" بعد تقبيل الأيادى هاأنا قد امتثلت أمر سعادتك وهاهو رأس من أمرتنى بقتله صحبة حامل الأمر، فلما رأى الملك طولون الرأس وجدها رأس عبد من العبيد، فأرسل خلف أحمد ولده، فلما حضر قال له ويلك ماذا صنعت بالكتاب الذى أمرتك أن تذهب به الى فلان العامل، قال: قد أخذه منى فلان العبد، وأقسم عليّ بحقك أن يذهب هو، فقال له هل كان بينه وبينك شيء قبل هذا، فسكت فقال له أخبرنى على الصحيح فأخبره أنه رآه مع فلانة المحظية وأنه ستر عليهما خوفاً من الهلاك، فعند ذلك تحقق والده صدقه وقتل الجارية التى كانت وشت فيه، ورحم الله ابن عروس حيث قال:

---

(1) ف الأصل "... لكان فعل ما اراد..."

(2) ف الأصل "... فكتب الى بعض عماله..."

(3) ف الأصل : ان والدى ارسلنى الى العامل فلان بكتاب يعمل بمافيه..."

(4) ف الأصل "... اقضى عنه هذا المهم."

يا خوي قلت لي هاك — وبفلوسك جبتها لك

اللي يعمل الخير يلقاه — واللي يعمل الشر هالك

وسبب إنشاد الشيخ ابن عروس هذين البيتين انه كان صغيراً ومات أبوه وتزوجت أمه برجل كان يبغض الشيخ ابن عروس لكونه ربيبه، فأتى في يوم من الأيام بفاكهة، وكان يريد أن يأكلها وحده، فأتى ابن عروس ودخل عليه في ذلك الوقت فتنغص عليه وأراد أن يتحيل عليه ويبعده عن وجهه، بحيلة حتى يأكل تلك الفاكهة فدعاه وقال له: يا أحمد خذ هذا الدانق[1] واذهب به الى العطار وائتني منه[2] الشي الذي يقال له هاك، فصدقه الشيخ وأخذ الدانق وذهب يسأل العطارين واحداً بعد واحد، وكل من قال له أعندك هاك، يجيبه بلا، فمر على أطفال صغار معهم عقرب عظيم مربوط بخيط وهم يلعبون به ويقولون هاك، هاك، فقال لهم الشيخ هذا الحيوان هو المسمى هاك، فقالوا له نعم، فقال لهم خذوا هذا الدانق واعطوني إياه لأني بحثت عنه[3] عند العطارين فلم أجده فرضيوا وأخذوا منه الدانق فأخذ العقرب ولم يعلم أنها قتالة فسلمه الله (منها) حتى وصل الى زوج أمه فقال له: هل أتيت بهاك؟ قال نعم قال: أين هو؟ قال هاهو قال هاته ومد يده فأعطاه العقرب فلما صارت في يده لسعته بزنابها[4] لسعة عظيمة فسقط ميتاً، فأنشد الشيخ البيتين المذكورين، فويله[5] يعلم مصداق قوله تعالى: "ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله[6]" وقوله تعالى: " ومن يعمل سوءاً يجز به"[7] وقوله صلي الله عليه وسلم:" المرء يجز بعمله إن كان خيراً فخير، وإن شراً فشر" ولهذا قالوا: من حفر حفرة لأخيه أوقعه الله فيها.

---

(1) الدانق: هو عملة معدنية مصرية ويساوي سدس الدرهم.

(2) في الأصل "... خذ هذا الدانق واذهب به الى العطار واتني منه هذا الدانق.."

(3) في الأصل "... بحثت عليه..."

(4) زبانا: أي بذنبها الذي فيه الشوكة السامة.

(5) في الأصل: "ومن هنا فويله" وعبارة من هنا زائدة.

(6) سورة فاطر، الآية ٤٣.

(7) سورة النساء الآية ١٢٣.

ومن هذا القبيل ماحكي أن ملكاً من الملوك كان له نديمان وكان أحدهما يحسد الأخر لمكانه من الملك، وكان المحسود حديث عهد بصحبة الملك، لكن لفصاحته ونباهته أجل الملك قدره، وأحبه محبة عظيمة، ومن شدة حسد النديم القديم أنه صنع طعاماً جميلاً وأكثر فيه من الثوم، ثم دعا النديم الجديد الي بيته وأحضر له ذلك الطعام، وكان جميلاً، فأكل منه بقدر الكفاية، ثم بعد فراغه من الأكل قال له إن مولانا يكره رائحة الثوم غاية الكراهية[1] ، فإياك أن تدنو منه قبل زواله، واذا قدر ودعاك، فأحترز أن يشمها منك، فيكون ذلك سبباً لبغضه فيك، فتقبل[2] الرجل قوله، وذهب الي داره، ثم توجه الحاسد الي الملك وقال له: إني لك من الناصحين، فقال له الملك وما نصيحتك، قال له إنك ظننت الخير في غير أهله وقربت من لا يستحق التقرب، فقال له الملك ومن تعني بذلك، فقال: إن فلان الذي اتخذته نديماً يقول أنك أبخر الفم وأنه ينادمك علي كراهة، لقبح رائحة فمك، وإن كنت في شك مما قلته لك فادعه الآن وأمره بالدنو منك كأنك تساروه، وتري كيف يصرف وجهه عنك، فإغتاظ الملك لذلك، وأمر بإحضار النديم المذكور، وهو لا يعلم شيئاً مما كان من صاحبه، فلما جاءه رسول الملك لا يمكنه[3] إلا الإجابة، فلما مثل بين يدي الملك هش الملك في وجهه وترحب به واستدعاه، فخاف النديم أن الملك يشم منه رائحة الثوم، فصار يصرف وجهه عن الملك، فلما رأي الملك منه ذلك تحقق صدق مقالة صاحبه، فقال للنديم المذكور بت عندي في هذه الليلة لأني أريدك في أمر مهم، إذا دعوتك فأتني من باب السر الفلاني، وكان نديم السوء حاضراً، فلما سمع من الملك ذلك القول زاد حقده وقال:{في نفسه[4]} أنا وشيت فيه لأبعده عنه وما زادته الوشاية إلا تقرباً، وتركه حتي خرج من مقر الملك وقال له: أريد أن أكون معك في هذه الليلة، فقال النديم المحسود: حباً وكرامة، وتوجها معاً الي المحل الذي أمر السلطان أن يبيت فيه، وكان بين المحل ومحل[5] السلطان

---

[1] في الأصل: " إن مولانا يكره رائحة الثوم غاية الكراهية فإياك " .

[2] في الأصل: " فاستد الرجل قوله بالقبول" .

[3] في الأصل: " لم يمكنه إلا الإجابة " .

[4] في الأصل: " زاد حقده وقال أنا وشيت فيه لأبعده، ويفهم من هذه العبارة كأنه يخاطب السلطان أو المذكور ولكنه يخاطب نفسه.

[5] في الأصل: " وكان بين المحل وبين محل السلطان .. " .

مجاز طويل، فأمر السلطان أن يحفر سرادب في المجاز، وأن يغطي[١] بشيء واه، وأمر بعض العبيد أن يرصدوا[٢] هذا المحل ومتى سمعوا بوقعة انسـان فيـه أن يطموا عليه التراب، فمكث النديمان مع بعضهما يتحادثان زمناً من الليـل،ثـم إن الحاسد أظهر التناوم وتناعس مراراً[٣]، (أما) المحسود فقد أخذه النوم فنام بالفعل، فانتبه الحاسد وقال في نفسه: هذه فرصة لا أضيعها، بـل أبقـي سـاهراً حتـى يدعوالملك فلاناً فأذهب أنا اليه وأقول له يا مولانا إن فلاناً متهاون بأمرك، فـانك أمرته أن يستيقظ حتى تدعوه فلم يمتثل[٤] بل نام وحين سـمعت نـداءك أجبتـك ليغضب عليه غضباً كلياً، فمكث ساهراً حتى مضى معظم الليل[٥] فلما كان ثلـث الليل الأخير سمع نداء الملك يافلان، فقام الحاسد وأجاب النداء والمحسود مستغرق فى النوم لايشعر بشيء من ذلك، ثم فتح باب السر فصار الرجـل يـهرول فـى الظلام حتى وقع فى الحفير وسمع[٦] العبيد الوقعة فطموا عليه التراب فهلك، ولما أصبح الله الصباح استيقظ النديم فلم ير صاحبه، وعلم أن السلطان ناداه ولم يشعر بندائه لنومه[٧] (فقام) وأصلح حاله وتطيب ودخل على الملك فلما رآه تعجب، ثـم دعا بالعبيد وقال لهم (ماذا فعلتم فيما أمرتكم به البارحة، قالوا قد فعلنـا وطمينـا التراب على الذى سقط فى الحفير فسأل السلطان النديم عن صاحبه فقال: ايـد الله مولانا إنه كان معى البارحة وحادثنى حديثاً جميلاً حتـى غلبـه النعـاس فنعـس ونعست أنا بعده، ومالأدرى مافعل، غير أنى أصبحت فلم أجده، فتشكك السـلطان وأمر بنبش من فى الحفير فنبش فاذا هو النديم المذكور، فحينئذ قال السلطان للنديم المحسود ماشأنك أنت وهذا الرجل قال لا أعلم بينى وبينه الاخيراً، الا أنه دعـانى الى داره وأحضر لى طعاماً جيداً فيه ثوم كثير فأكلت منه ثم حذرنى مـن الدنـو منه، وأخبرنى إنك تكره رائحة الثوم فلما دعوتنى لم أجد بداً من الحضور اليك،

---

(١) في الأصل: " أن يحفر سرادب في المجاز ويغطيه.. ".

(٢) في الأصل: " أن يراصدوا .. ".

(٣) في الأصل: " وتناعس مراراً فأما المحسود.. "

(٤) في الأصل "فما امتثل امرك..."

(٥) في الاصل " حتى مضت عامة الليل.."

(٦) في الاصل ".. وسمعت العبيد.."

(٧) في الاصل ".. ولم يشعر بندائه لمكان النوم.."

لكن لما آذيتني خفت أن تشم رائحة الثوم فصرت أصرف وجهي عنك، هذا ما أعلمه، فعلم السلطان أن الرجل صادق وأن الذى هلك كان حاسداً له، وأن حسده قد أهلكه فأخبر السلطان الرجل المحسود بماقاله الحاسد فيه وقال له انما حفرت هذا الحفير لك، لكن لحسن نيتك نجوت ولخبث نيته وقع هو فيه.

فيما تقرر يُعلَم أن الحسد من أقبح الأمور ولهذا قال صلى الله عليه وسلم "الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب"[1] وقال الشاعر:

ألا قل لمن بات لى حاسداً | أتدرى على من أسأت الأدب
أسأت على الله فى فعله | كأنك لم ترض لى ما وهب

ولنرجع الى عوائد أهل الوداى فنقول: قد تقرر أن أهل الوداى اقل تمدنا من أهل الفور وأكثر شجاعة ووحشية وعدم استئناس، حتى مع بعضهم البعض، وشبانهم أقوى فى ذلك، خصوصاً اذا شربوا مسكراً لأنهم بعد أن يكونوا يتحادثون بلين يغلظون القول على بعضهم فيقتتلون وتسفك الدماء بينهم، ومن عادتهم أن الرجل منهم اذا تفوق[2] على أقرانه ووصف بالشجاعة يسمونه عفريتاً، وقبل تولية المرحوم السلطان محمد عبدالكريم صابون كان للعفاريت شوكة قوية حتى كان القتل والنهب يقع بعد غروب الشمس فى البئر المسمى ببير صابون، وهى قريبة جداً من الفاشر[3] بحيث لو كان احد فى البئر[4] يسمع صوته من كان فى أول واره كالبيت الذى كنا فيه وماحاذاه[5] فاذا كان ذلك يقع فى أقرب المواضع من

---

(1) الحديث رواه ابوداود والبيهقي وابن ماجة القرطبي ٥/٢٥١ ورواه ايضا ابوداود في سننه من حديث ابي هريرة وفيه اسناد عيسى وهو ضعيف انظر سنن ابن ماجة رقم (٤٢١٠)

(2) في الاصل " اذا علي على اقرانه.."

(3) المقصود بالفاشر هنا الساحة التي يستعرض فيها السلطان قواته اظهاراً لعظمة دولته.."

(4) في الاصل "..بحيث لو كان احد في البئر المسمى بئر صابون وهو تكرار مخل.."

(5) يتحدث المؤلف هنا على لسان الراوي الذي يصف له المكان.

واره فمن باب أولى أن يقع في المحال البعيدة[١] ولقد بلغنــــي أن التجـار كــانوا لايقدرون على السفر بالتجارة من بلد لآخر إلا اذا كانوا جمعــاً عظيمــاً، وكــان العفريت اذا تعشق امرأة منع غيره[٢] منها، وقتل كل من صاحبــها (ويمكنــه أن يتزوجها* قهراً رغم انف جميع من عارضه ولقد بلغني أن أحد العفاريت[٣] حجر على صبية كانت تكرهه وهو يحبها محبة عظيمة فكان يأتي الى دارها كل ليلــة، ومتى وجد عندها أحداً قتله حتى هابه الناس، وتركوا تلك الصبيــة ثـم خطبــها فرضي أبوها وأبت هي ان تكون له أهلاً، فبقيت على ذلك مدة ولم[٤] يتجاسر أحد على خطبتها بل ولاعلى مصاحبتها، وعافها[٥] الناس حتى مضى[٦] وقت تزويجها، وعاندت هي فأبت أن تتزوج به، وبقيت كذلك الى ماشاء الله، وفي أحــد الأيـام ذهبت الى السوق لتقضي بعض شئونها وكانت من الجمال بمكان، فرآهــا رجـل غريب فأحبها، وكان شجاعاً فتاكاً لايرهب الموت، ولايخشى من الفوت، فأحبــها وهام بها، ورصدها حتى قضت شئونها وخرجت من الســوق فتبيــها[٧] وســألها الصحبة والوداد، وشكا اليها مايجد من ألم الجوَى وتباريح الهوَى فقالت لــه: والله أنك لظريف واني والله لأحبك مثل حبك لي أو أكثر، ولكن قد حيــل بيــن العيـر والنزوان[٨] فقال لها ولِمَ ذلك؟ ألنت ذات بعل، فقالت لا، فقال ومايمنعك، قــالت: يمنعني رجل جبار حجر عليّ وسلط على كل من دنا اليّ، فقال: ولم لايتزوج بك، فقالت: أني والله لا أحبه ولا أريده، فقال لها: أهو ذو قرابة منك؟ قــالت لا والله، قال إذن لاتخافي فأنا أخلصك منه إن شاء الله تعالى، فقالت لــه هيـات هيـهات

---

[١] في الأصل " وإذا كان في أقرب المواضع الى واره يقع ذلك فيقع في المحال البعيدة من باب أولى.."
[٢] في الأصل ".. اذا تعشق امرأة حماها من غيره.."
* في الأصل ".. وقتل كل من صاحبها وتزوج بها قهراً على انف جميع من عارضه.."
[٣] في الأصل ".. بلغني ان بعض العفاريت.."
[٤] في الأصل ".. ولن يتجاسر احد.."
[٥] عافها الناس .. أي كرهوها..
[٦] عبارة ".. حتى مضى وقت تزويجها.. المقصود منها انها كبرت وأصبحت عانساً لأن عادة أهل تلك البلاد أن تزوج البنت وهي صغيرة.
[٧] فتبيها ".. كلمة مستعملة في أوساط الشباب الزاهلين خاصة في وداي ودارفور وتعني تودد اليها وألفها بمصاحبته
[٨] قد حيل بين العير والنزوان" وهو مثل يضرب ويقصد به ابعاد الشيء عن قرينه.

الخلاص، من ضيق الأقفاص، إعلم رحمك الله انى لست خائفة منه على نفسي بل خائفة عليك لأنك رجل تظهر عليك آثار المروءة والمكارم، وذاك رجل غاشم ظالم اذا تمكن منك ربما قتلك، فقال لها: لاتخافى عليّ من ذلك، بل أريني موضعك، ولايحصل إن شاء الله إلا مايسرك، فعند ذلك أرته دارها، فلما كان بعد العشاء جاء ودخل الدار وجلس يحادثها مع العفاف، فلما كان بعد ساعة أقبل ذلك الرجل الذى حجر عليها، وقد بلغه أن رجلاً[1] مع محبوبته، فلما دخل عليها كان الرجل جالساً معها واضعاً فخذه على فخذها، فأرادت أن تسل فخذها من تحت فخذه وتنجو بنفسها وتتركهما يفعلان ما أرادا، فأبى عليه صاحبها واتكأ عليها بفخذه فلم تقدر ان تخلص نفسها منه، وتمادى معها فى الكلام الذى كانا فيه ولم يكترث بالرجل الداخل عليهما حتى وقف[2] عليهما وقال للجالس ما الذى جاء بك الى هنا[3] فلم يرد عليه جواباً فسأله ثانياً فلم يرد له جواباً، والثالثة كذلك، فاغتاظ وسل السكين المسماة بالكرداوى وضرب بها الجالس فى فخذه حتى وصلت ذبابة السكين الى فخذ الصبية فأرادت أن تسل فخذها منه فلم تتمكن[4] فبهت الرجل (الضارب) من الجالس لقوة قلبه وعدم اكتراثه[5] (بالضربة) فاخذ سكينه وأراد الذهاب فقام اليه الرجل الجالس ومسكه من ثوبه فجذب نفسه منه، فتمزق الثوب وبقيت قطعة منه فى يد الرجل، والباقى على جسد الآخر، ثم إن الرجل أراد أن يمضى وينجو بنفسه فصكه الرجل الذى كان جالساً برجله في ظهره، فوقع على وجهه فانسلخت جبهته وانفه وبقي طريحاً على الأرض مدهوشاً لايعقل[6] نفسه، فصبر عليه الرجل حتى أفاق ثم سل سكيناً وأراد ذبحه فقال له، الرجل أقلنى أقالك الله فقال له ان تبت وحلفت انك لاتتعرض لها مادمت حيا ابقيتك[7] حياً والإقتلتك

[1] فى الأصل "..وقد بلغه ان عند محبوبته رجلاً.."
[2] فى الأصل ".. حتى ان الرجل وقف عليهما وهو تكرار ثقل.."
[3] فى الأصل " ما الذي جابك هنا.."
[4] فى الأصل ".. فما امكنها.."
[5] فى الأصل " ثم ان الرجل سل سكينه وبهت فى عدم اكتراث الجالس وقوة قلبه.."
[6] فى الأصل ".. لايعقل على نفسه.."
[7] فى الأصل ".. ابقيت عليك حياً.."

الآن فتأهب وحلف انه مابقى (حيا فلن[1]) يتعرض لها، فجذبه من أذنــه كالشــاه حتى أتى به الى الصبية وكانت جالسة تنظر مــايحصل بينــهما ومــن ســيظفر بصاحبه[2] فأوقعه بين يديها وأخبرها أنه حلف (بعدم) تعرضه لها[3] (مرة أخرى) فسألته أحق مايقول: فقال نعم قالت له خلي سبيله، فإن عاد وتعــرض لــي مــرة أخرى افعل به ماتريد فأطلقه فذهب ينفض عبرات الموت، ثم إن الرجــل الــذى خلصها من يد ذلك الغاشم خطبها من أهلها وتزوج بها فاقامت معه حتــى قضــى نحبها، وأمثال هذا كثير.

تنبيــه:-

مما اتفق أن رجلاً وامرأته (كانا)[4] مسافرين فجاءا في طريق منقطع عــن العالم وكان في هذا الطريق عفريت قاطع، فجاء عليهما، ولما صار معهما رفــع ثيابه وسلح سلحة[5] كبيرة فعف الذباب[6] على الغائط فجاء بزوج المرأة وقال له: إجلس أمام هذه السلحة وإياك أن يقع الذباب عليها وإلا قساقتلك[7]، فخاف الرجــل وجلس يذب عنها الذباب ثم عمد العفريت[8] الى المرأة أمام زوجها وجامعها، ولما قضى وطره منها أطلق سبيلها فسارا، فلما بعدا عن العفريت قالت المرأة لزوجها: أما فيك مروءة تترك الرجل يفعل بي هذا الفعل القبيح أمامك وأنت تنظر وماكفاك ذلك، حتى أنك أطعته وصرت تذب الذباب عن سلحته، فقال لها زوجــها ويلــك أتظنين أني أطعته وذببت عن سلحته الذباب، قالت نعم، قال لا والله، بــل تركــت الذباب الكبير يأكل منها ماشاء، ولو أني خفت منه كما تزعمين لما فعلــت ذلــك، فضحكت عليه وعلمت أنه جبان قليل الحيلة.

---

[1] في الأصل "... فتأهب وحلف انه مابقى يتعرض لها.."
[2] في الأصل "..ومن يظفر بصاحبه منهما.."
[3] في الأصل "... واخبرها انه حلف لاعاد يتعرض لها.."
[4] في الأصل "... ان رجلاً وامرأته مسافران.."
[5] في الأصل "وسلح سلحة اكبر مايكون.." وسلح تعني تغوط
[6] "فعف الذباب" تعني نزل وتراكب.
[7] في الأصل "... وإياك ان يقع الذباب عليها اقتلك.."
[8] في الأصل "ثم ان العفريت عمد الى المرأة.."

لكن من العجب أن الواحد منهم يغار على معشوقته، وأن يلم بـهـا غـيره، ولايغار على أخته وابنته أن يلم بها غيره، لأن منهم من يجلب لأختـه ويصفـها بالاوصاف الجميلة ليشوق اليها قلوب الناس بل منهم من اذا عفت أخته ونفرت من محبيها وبلغه ذلك زجرها وردها الى طاعته، ومنهم من يتغالى فى فعل المعروف حتى أنه يدخل الرجل الأجنبى على أهله ويتركها وأياه[1] على حد قول القائل:

أقود بحمد الله لكن كرامة ... وغيرى قواد على رغم أنفه[2]

وكذلك النساء لكثرة الغلمة والشبق لايرددن[3] قاصداً فتجد الكثر هن لديهن اصحاب غير رجالهن ولايقنعن بأزواجهن ويعرفن من بعضهن ذلك وينكرنه ولاتقدر المراة منهن ان تعاير جارتها بذلك لانها هي الاخرى[4] مثلها، كما قال القائل:

قالت لجارتها يوما تعايرها ... قرنت زوجك والقرنين يفضحه
قالت أأتركه جماً بلا قرن ... يأتيه زوجك ذو القرنين ينطحه

على أن منهن من لها زوج ولها جملة أخلاء على حد قول القائل:

أيا من ليس يرضيها خليل ... ولا ألفى خليل كل عام
أراك بقية من قوم موسى ... فهم لايصبرون على طعام

وبالجملة فطوائف السودان مشتبكون بحب النساء كاشتباك العصـارة بالأشجار، وكل منهم يصرح باسم محبوبته على حد قول القائل:

فصرح بمن تهوى ودعنى من الكنى ... فلا خير فى اللذات من دونها ستر

---

(1) هذا الحديث عن عدم غيرة أهل وداى على بناتهم ونسائهم غير صحيح على اطلاقه، بل اكثر القتل عندهم على النساء المتزوجـات بالذات فالرجل ليس له سوى القتل اذا وجد رجلاً غريباً مع زوجته، واحياناً تقتل المرأة نفسها مع عشيقها ويسأل عنها احد وكذلـك الامر بالنسبة للبنات فالأب أو الأخ اذا تأكد من فساد اخلاق ابنته او اخته فربما قتلها صيانة لعرضه

(2) البيت "يعنى انه يجلب الرجال للنساء تطوعاً منه وكرامة أما الاخرون فيجلبونهم خوفاً منهم.

(3) في الاصل ".. لايردن قاصداً.."

(4) في الاصل ".. لانها هي الاخرى كذلك.."

إلا ان اخاف الانسان منهم من التصريح ان يعرض نفسه للتلف مثـلا اذا صـرح باسم بنت ملك أو زوج ملك (بانه يحبها)[1] فان يخشى على نفسه من القتل، فلذلك العاقل منهم يكتم عند ذلك هواه، ويصبر على بلواه الا اذا عدم رشـاده وأصبح صلاحه فساده فقد يبيح بسره، يرجو بذلك كشف ضره، ولايخشى ملامة العـزال وإن أوقعه التصريح فى النكال، على حد قولى فى بعض الأحوال:

ومن فرط حبى فيك يا نور مقلتى　　خلعتُ عِذارى فيك واخرق الستر

وهمتُ فلم أخش الملام لعاذل　　لأن مماتى فى هواكم هو الفخرُ

وأما الذى يتستر فى الحب فيقول لكى يبلغ المأمول

خبأتك فى عينى مخافة عاذل　　وقد شرفت بالذات تلك المواضع

ومن فرط حبى فى جمالك إننى　　خشيت رقيبا فى هواك يصارع

وبالجملة فهذا باب واسع وبحر زاخر لو ولجنا فيه يطول الحال، ويحصل الملال، ولنرجع لما نحن بصدده ونفرق الأعنة الى ما التزمنا بإيراده وقصده.

[1] فى الأصل "... كما اذا صرح باسم بنت ملك او زوج ملك فانه يخشى.

الفصل السابع

في وفاة السلطان صابون وما تلى ذلك من الأحداث[*]

يعود الفصل في معرفة المعلومات التي تتعلق بمقتل السلطان صابون والأحداث التي ظهرت بعد ذلك الى الفقيه دليل من كبار القضاة في وداي. مر على القاهرة عام ١٢٥٧هـ (١٨٤١م) ففي وداي يذكر موت صابون بطريقتين. يرى بعضهم أنه مات بالمرض، ولكن البعض الاخر وهم الاكثرية يؤكدون انه مات ميتة شنيعة، وهذا ماحكاه لي الفقيه الهلالي ورفاقه الذاهبون معه الى الحج، انه في إحد الامسيات وبعد نزول الليل خرج صابون لزيارة والدته في قرية مومو حوالي ربع ساعة من واره في اتجاه الشمال والشمال الشرقي من المدينة، وحتى لايعرفه أحد خرج من منزله ومعه عبدين فقط ومكث مع والدته عدة ساعات ثم ركب حصانه عائداً الى واره، وفي الطريق لاحظ لصين يقودان بقرة، فأسرع نحوهما فترك اللصان البقرة وفرا، فأمر عبديه بأن يقبضا على البقرة واتجه هو لملاحقة اللصين خاف اللصان وافترقا ذهب احدهما جهة اليمين والآخر جهة الشمال قصد صابون أحدهما وضيق عليه وكاد أن يقبضه، فلما رأى السارق ذلك وهو جار بأقصى سرعته، استدار الى السلطان وصاح قائلاً له: ماذا تريد مني؟ لقد تركت لك فريستي، فقال له السلطان: أريد أن أقبض عليك فرد عليه قائلا: إني أنصحك أن ترجع، ولكن هذا النداء لم يجد استجابة من صابون، وانطلق نحو السارق الذي بدأ يجري فكاد صابون أن يلمسه ويمسكه فاستدار السارق وأرسل له حربة ثبتها في كليته، فتهاوى صابون وكاد أن يسقط من حصانه فأسرع العبدان نحوه فوجداه مغشياً عليه فحملاه وتركا البقرة، وأسرعا به نحو وارة فأوصلاه الى القصر لكن السلطان كان ينزف بغزارة ففقد الكثير من الدم، فكان الجرح غائراً لأنه فتح الكليتين على الجانبين.

---

[*] هذا الفصل مفقود تماماً من المخطوط العربي، وقمنا بترجمته من الأصل الفرنسي، وكل معلوماته جاءت من التونسي نفسه وهو مما يؤكد أن الأصل العربي قد تعرض لمشكلات عدة من النقلة والمترجمين.

وهناك رواية أخرى تقول ان الضربة كانت في صدره فتقبله وبعد ثلاثة أيام مات صابون وخلفه ابنه عبدالقادر، ولكنه مرض بعد ستة أشهر فقط من تنصيبه ومات، وخلفه أخوه محمد خريفين.

وكان خريفين عندما نصب للعرش صغيراً جداً على الحكم، فذهبت إدارة شئون السلطنة الى أعمامه الذين أصبحوا أوصياء عليه، وظل الأمر على ذلك حتى بلغ خريفين أشده واستولى على العرش، وأصبح حاكماً مطلقاً فاستعمل خريفين في البداية الرفق مع أعمامه، لكن وكالعادة فان السلطة المطلقة دون رقابة أو حدود أسكرته وحملته فيما بعد على اساءة استغلال سلطاته، فكان كثير الحركة وكان يعذب ضباطه ووزراءه بطرق عجيبة وكان يقود بنفسه الحملات لصيد العبيد من الجناخرة، وذهب يوماً ما الى دارسلا ليعاقب حاكمها، لأنه لم يدفع الضريبة التي فرضت عليه كاملة، وبعد تمام مهمته بدلا من أن يعود الى واره استقر في دارتاما، وهناك بدأ في مواصلة مكايده وأشيائه الغريبة الأخرى، فمثلا عندما يجلس أمام منزله وتهطل الأمطار بكثرة لايدخل البيت، وإنما يأمر ضباطه بأن يأخذوا قطعة كبيرة من القماش ويرفعونها فوق رأسه ليستظل تحتها من المطر حتى يتوقف وعندها يدخل منزله.

وعندما يعلم أن هناك امرأة جميلة في أى بيت متزوجة كانت أم غير متزوجة يأمر باحضارها اليه، وكان من طباعه أيضاً السكر وكان تعذيب الناس احد مطالب خريفين اليومية، وعندما يعود أحد القواد من حملة يرسله فوراً الى حملة أخرى وعملياته الاغتصابية تكاد لاتنتهي، وبدون أى سبب كان يصادر أموال أحد الافراد ليعطيها لآخر، ثم يأخذها من هذا ليردها الى الأول أو يسلمها لثالث.

ان هذا الجنون والاستبداد الشديد قد أرهق الناس ونفذ صبرهم فحدث ان اجتمع اثنان من الكماكلة أحدهما يسمى دينى والآخر يسمى قابى حاكم بنى سلامات، فتآمرا وقررا أن يضعا حداً لهذه الأشياء الغريبة وهذا العنف الذى يقوم به السلطان ويتخلصا من هذا السلطان الكريه، وفي احدى الليالي دخلا خلسة الى منزل خريفين لذبحه، ولكن النساء شعرن بذلك وخبأنه عندهن، فأشعل المتآمران

النار في المنزل، وفي اليوم الثاني ظهر السلطان وسط جيوشه وكبار رجالاته وارسل للبحث عن قبية وديبة، ولكنهما هرباً ولا أحد يعرف لهما أثراً، فصادر خريفين ممتلكاتهما وقتل كل من له علاقة بهما، أيا كان نوع هذه العلاقة، وادخل في هذا الحكم الجائر الكثير من الرجال المحترمين مثل الشريف أحمد المغربي، فكان هذا العنف الذي ارتكبه مع هؤلاء الأبرياء سبباً في مؤامرة جديدة بعد حوالي شهر من المؤامرة الأولى.

فاجتمع في مؤامرة سرية كل من الامين شريف بن مرشدى الذى كان يقوم بوظيفة الكرسي، أو نائب مسئول الادارة وجقردى أمين الخزينة والأمين توشا، والخصي يانقول كبير تجار العبيد وقرقر، الخصي الأول للسلطان، وقرروا في الاجتماع بأنه طالما عاش خريفين فليس هناك سلام أو أمن لأحد فهو رجل دم وسكر، وبالتالي سيعاقبنا جميعاً، فيجب أن نقتله بدون أى تأخير، وقبل أن يضع يده على هذا المخطط، ونجحوا في وضع السم فى الشراب الذى كان عادة يسكر به خريفين فشرب السم بعد لحظات قليلة من صبه في الشراب فداخ وفقد وعيه، ثم أجهز عليه المتآمرون وقتلوه في الحال، وبعد ذلك أرسلوا باسم السلطان في طلب أخويه ادريس وداقوى، وعندما دخل الأخوان القصر رأيا أخيهما ملقياً على الأرض وجسمه مغطى، ولكنهما لم يعلما بأنه قد مات، ثم قال لهما المتآمرون بأننا قد تلقينا أمراً من السلطان بثقب عيونكما فاستسلم البائسان للقرار دون أى مقاومة، وكان لخريفين عدد من الأبناء تحت مسئولية يانقول الذى كان يعلمهم القراءة، فأحضروهم واختاروا منهم واحداً يدعى راغب، وأعلنوه سلطاناً ثم ثقبوا أعين الباقين وطردوهم، ووضع راغب في القصر وأعلن في الحال بأنه سلطان وداى وتركوا جثة خريفين لنساء القصر ليقمن بدفنه.

تعرض راغب لرقابة شديدة من طرف المتآمرين ومنعوا الناس من الاقتراب منه، هذه المؤامرة التى تحدثنا عنها تفجرت ونجحت دون مساعدة من يعقوب أحد كبار قادة الجيش، وكان وقتذاك في البطيحة وكان يعقوب من أصل ملنقى وهى أحد القبائل الخمس التى تحكم وداى، وعندما علم بموت خريفين جمع جيوشه وتوجه نحو وارة، ولكنه أرسل قبل ذلك مبعوثين كلفهم بأن يقولوا

للمتآمرين: أنا قادم مع جيوش وأريد القتال، فقالوا له (أى المتآمرين): عليك أن تحضر ونحن نستقبلك، فظهر يعقوب وأقام معسكره فى وجهة واره، وتحدى مناصرى راغب بأن يأتوا لقتاله فرفضوا تحديه، وقالوا له: نحن فى انتظارك، فوصل يعقوب ودخل واره وفجأة برز له فرسان القاشر ومشاته، وانتشر الذعر والخوف في القصر فخشيت والدة راغب من نتائج هذه الحادثة القائمة فأرسلت رسالة سريعة الى يعقوب قالت له فيها: ان راغباً ابنى هو ابنك أيضاً وأن مصير الأمور بين يديك نحن لانريد مقاتلتك إطلاقاً فان وافقت بأن تترك السلطنة لراغب فانك سيده، ونحن نعترف لك بذلك، واذا قررت أن تعطى الحكم لشخص آخر فنحن نقبله مقدماً، فعَيِّنْ السلطان الذى تريده.

هذا الخطاب بكلماته الودية ضللت يعقوب والتى مدحت حبه الشخصى، فرد قائلاً: إن ابنك بالنسبة لى مثل إبنى وأنا بالنسبة له خادمه المخلص وسوف أقبل ماتقررينه، ثم أرسلت ليعقوب رسالة أخرى قيل له فيها: ان السلطان قد عفا عنك ويمكنك أن ترجع بهدوء.

وبعد ذلك ذهب يعقوب للتباحث مع والدة راغب، وذلك حتى يرتب معها وسيلة للتخلص من منافسيه، وعند اجتماعه بها، قال لها: هل تعتقدين أن الذين خانوا الأب وقتلوه سيتركون الابن؟ قالت الأم: لا أعتقد ذلك، فقال لها: كيف تتركين هؤلاء الرجال الخطرين يعيشون بسلام؟ فقالت: وماذا نفعل" فقال: يجب أن نقتلهم جميعاً، فقالت: لك مطلق الحرية، تصرف كمايحلو لك، فتظاهر يعقوب أولا بأن يعامل قتلة خريفين بمثل تعاملهم معه، وفى أحد الأيام جمع كل المتآمرين الخمسة وفى حضور الجنود المجتمعين والمسلحين أعدم الأمين شريف وتوشا وقرقر، وسجن جقردى ويانقول، وتحولت وظائفهم الخمس الى خمسة موظفين جدد.

وظلت الأمور هكذا ردحاً من الزمن، ولكن أم راغب شككت فى الأهمية المتزايدة ليعقوب، فعملت على التخلص منه، ونجحت فى مفاجأته والقبض عليه وقتله، ولكن بعد ذلك الحدث بأيام مرض راغب بالجدرى الذى انتشر فى تلك الأيام فى وداى ومات راغب بهذا المرض ودفن سراً فى الليل فى مقبرة

السلاطين (وكانت مقابر السلاطين في مكان مسور شمال وارة) وهذا المكان محدد بزريبة وكثير من شجر الهجليج.

وقد علم أنصار وأقرباء وأصدقاء يعقوب بما حدث، وفي الليلة التالية ذهبوا الى المقابر ولاحظوا أن هناك قبراً جديداً قد رفع، ومن ناحية أخرى فأن الوزراء قد تستروا على الأمر، وجاءوا ببديل للسلطان الشاب المرحوم، فأختاروا أبن أحد العقداء يدعى جراماً ويدعى الشاب دقوري، وكل ذلك ليعتقد الناس بــأن راغبــاً مازال حياً، وكان يأتي لراغب فقيه يعلمه القراءة وقد خبأوا وجه راغب الدخيــل وأرسلوه الى الفقيه (وكانت هناك عادة شبه ثابتة تقريباً) بأن السلاطين لايظهرون الا وجوههم ملفوفة من الذقن الى قرب العيون بطرف عمائمهم، وبقطعة توضــع على الرأس والكتف، ويلفونه مرة أو مرتين حول الوجه، وهذا النوع من التخفــي يسميه العرب اللثام.

وهكذا ظهر التلميذ المتخفي الى أستاذه ولكن الفقيه ومن الكلمــات الاولــى عرف الاستبدال وكان هذا الفقيه من الملنقى فكلم زعماء الملنقى بأن التلميذ الــذى قدم له لم يكن السلطان هذا الاعلان ذكرهم خاصة أولئك الذين كــانوا مرتبطيــن بيعقوب بالقبر الجديد الذى رأوه في مقابر السلاطين وبعد مقارنتهم بين الحــادثين تاكد لهم حادث الاستبدال فقرروا أن يكشفوا هذا الخداع ويعــاقبوا الذيــن يقفــون وراءه لانه لايحق لاحد ان ياخذ لقب وسلطة السلطان اذا لم يكن من دم السلاطين الوداي، أي اذا لم تكن امة من القبائل الخمس المختارة، ومن هذه القبائل الخمس: الملنقى والسنونيين وفي وقت المنافسات والمعارضات أو الصراع فــي أنتخــاب السلطان كل واحدة من هذه القبائل الخمس تبحث في أن تقدم سلطاناً للدولة وذلــك لأن السلطان يعامل قبيلته باحترام ويختار العديد الكبير من ضباطه ووزرائه مــن قبيلته، وكان وزراء المدعو راغب يفكرون في التخلص من أهم رجالات الملنقــى الذين يقلقونهم وقد تذكروا كيف قتل يعقوب الامــراء، أحــلاف راغــب وأرادوا تطبيقها، فارسلوالكبار رجالات الملنقى بان يحضروا كالعادة للاجتماع الســنوى، وذلك لاصلاح ماخرب من منزل السلطان، وكانت الخطــة أن يجمعــوا هــؤلاء الملنقى في وارة، ثم يقبضوا عليهم ويقتلوهم، ولكن الملنقى لم يستجيبوا وشككــوا

في هذه الدعوة التي قدمت اليهم فلما رأى الوزراء فشل حيلتهم أرسلوا اليهم كتيبة من الجيش تحت قيادة جرامي قيصر، وبلال عقيد، او حاكم قوز، وتحرك القائدان الى ملنقي للقبض على كبارهم وفي الطرف الاخر تحرك منهم قائدان هما: بـدلا يعقوب ودينه كل منهما على راس قوة لمقابلة جيوش الوزراء فـالتقوا وتقـاتلوا، فقتل جيش الملنقي قد جيشوا عدداً كبيراً من جيوش الوزراء وقتلوا قائدي الجيـش قيصر وبلال وأخذوا كمية كبيرة من الخيول والأسلحة، وبعد هذه المعركة مباشرة أرسل الملنقي خبر نصرهم الى السنونيين وشرحوا لهم سبب هذه المعركة الدامية والغير متوقعة.

وفي ذلك الوقت كان مع السنونيين طفلان من دماء السـلاطين فاختـاروا واحداً منهما يسمى: محمد عبدالعزيز داهوية وأعلنوه سلطاناً، فحكم مدة من الزمن ثم انتقل الحكم من بعده الى شريف أخ صابون، وهذا الشريف هو الذى يحكم الآن في وداى (١٢٥٩هـ) ١٨٤١م[١]

وقد حكى لى حجيج الوداى أخيراً عندما مروا بالقاهرة فـي بدايـة شـهر محرم ١٢٥٧هـ (فبراير ١٨٤١م) أن وداى تحكم بعدل من السلطان شريف حفيد السلطان صالح وأخ الشهير السلطان عبدالكريم صابون، وقد هرب شريـف مـن وداى عند تنصيب أبن أخيه عبدالقادر وذلك لخشيته من ان تشمل عيناه، وهو ممن يخشى منهم، كما أنه كان يطمع في العرش، فهرب الى سلطان الفور محمد فضل لتعينه بالجيوش لدخول واره واستلام الحكم، ومكث كثيراً في دارفـور، وأخيراً حظى بدعم السلطان محمد فضل بالجيوش بشرط أن يدفع له جزية سنوية مقدرة، فقبل شريف الشرط وغزا السلطنة دون أن يلاقي أى مقاومة وبعد ذلـك تجمـع الوداى بكثرة وتقدموا للسلطان الجديد بطلب مفاده أنه اذا أراد أن يبقـى سـلطاناً فعليه ان يتخلص من أى ارتباط مع الفور، وان لايحمل اليهم صاعاً واحداً فاضطر شريف لأن يكتب الى السلطان محمد فضل قائلا: إنني مجبر من قبل رعيتـي أن الغى تعهدى اليك، ومن المستحيل عليّ أن أظل وفياً للشروط التـي قبلتـها فـي

---

[١] هذه السنة هى التى كتب فيها هذا الكلام الذى املاه على التونسى بعض اهل وداى فى القاهرة بحضور السيد بيرون فوجد اختصاصاً منه ولاندرى كيف سقط من المخطوط وظهر فى الاصل الفرنسى.

السابق، وبعد ذلك بقليل جهز شريف حملة الى باقرمي واستولى على هـذا البلـد الذى خضع للوداى مثلما كان من قبل، وعندما رأى سلطان وداى أن حكمـه قـد رسخ وزادات قوته حاول ان يغزو كانم، واستولى على هذه الولاية وطرد منـها الوزير الحاكم المسمي: اليفا، وطرد أيضاً الامين القائد الاعلى للولايـة والفقيـه محمد الذى كان الاليفا يأتمر بأوامره، فاصبح شريف عندئذ حاكما على كانم كمـا كان أخوه صابون.

(والله وحده يعلم الحقيقة لأننى كتبت هذه المعلومات عن طريق أحد الأجانب وكل خبر تم الحصول عليه من الانسان يحتمل الصواب والخطأ.

وهاهى القصة: كيف حكى لى الفقيه دليل وهو قاض كبير فى وداى حكـى لى هنا فى القاهرة عن الملابسات حول بداية حكم السلطان شريف.

فعندما وصل صابون الى الحكم كان يحكم بـالعدل والانصـاف وبفضـل الحكمة الادارية لهذا السلطان، وكانت الحاجيات الضرورية للحياة تبـاع بأسـعار رخيصة وكان صابون يخرج منتصراً وممجداً من كل معاركه، وبعـد مماتـه آل العرش الى ابنه عبدالقادر، ثم جاء بعد عبدالقادر أخوه خريفين والذى كان صغير السن فاستولى أعمامه على تدبير الامور، وقد اساءوا تدبيرها، فقد كـانوا طغـاة متقلبين، وانتهكوا حقوق الانسان الأكثر تقديساً، فعندئذ ارسل الله الى وداى وبـاء الكوليرا بشكل كبير وشديد، فاجتاحت البلاد، وكان ذلك عام ١٢٥٣هـ (١٨٣٧م).

وبعد الكوليرا أرسل الله القحط والمجاعة وكانت الأمطار قليلة، ففر عـدد من الوداى الى البلاد المجاورة لدار سيلا، أما الذين بقوا فيـها فكـانوا فريسـة لمجاعة كبيرة وصل بهم الجوع الى أن أكلوا جثث الحيوانات النجسة، وكان أخـو صابون الصغير ويدعى شريف قد هرب عندما نصب صابون على العرش، وقـد انسحب الى دارفور، ومن هناك الى كردفان وظل فيها حتى علم بأن البـؤس قـد أرهق وداى، وان المجاعة والموت قد قللا من سكان البلاد، وعندئذ سافر شريف الى دارفور ونجح فى أن يجلس مع سلطان الفور محمد فضل فتحدث شريف اليه عن نواياه وعبر له عن رغبته فى استرجاع سلطنة الوداى وقال لـه: أن الوقـت مناسب الآن، وأن وداى أصبحت بدون موارد وأصبح جزء منها خالياً من السكان

وعندئذ أرسل محمد فضل رجالاً لبحث حالة وداى فعلم بعد ذلك الحقيقة أن البلد فى أشد حالات العوز، ولايوجد شي فى واره سوى السلطان وبعض القواد، وعلى حسب ماأكده لى القاضى دليل بانه لايوجد الاعقيدين أو قواد الجيوش، أو محافظوا المحافظات، وللاستفادة من هذه السانحة جمع محمد فضل جيشاً وسلم قيادته الى عبد السيد أحد العبيد الذين تمت تربيتهم فى القصر، فتحرك الجيش وتبعه شريف بعد أن حددت شروط المعاهدة وقبلها شريف، وقد كتب المعاهدة بيده والتزم بدفع الجزية السنوية لسلطان دارفور وتابع الجيش مسيرته حتى دخل وداى دون أن يواجه أى مقاومة، ثم قُبِضَ على السلطان فى واره، وقُتِلَ ونُصِّبَ شريف على حكم السلطنة ووُضِعَ على عرش ابائه.

وكان الفور بمجرد دخولهم وداى أخذوا يهاجمون القرى، فدمروا ونهبوا الكثير منها، وأخذوا النساء والأطفال، وعندما علم الوداى المهاجرون فى البلاد الأخرى بما يحدث فى بلادهم نسوا حالة البؤس التى أخرجتهم وعادوا مسرعين حتى يراقبوا عن قرب الظروف التى غزا فيها الفور بلادهم، ولكنهم وجدوا السلطان قد قتل وتولى شريف الحكم بدلا عنه، فقبلوا حكمه وخضعوا له، ولكن قالوا للسلطان الجديد: يجب عليك أن تخرج الفور فى الحال من بلادنا والا سوف نذبحهم جميعاً فقام السلطان شريف وجهز القائد عبدالسيد بمايلزم ثم أرسله مع جيوشه.

وفى نهاية العام فكر شريف فى أن يوفى ماوعد به السلطان محمد فضل ويدفع الدين الذى فرض عليه، ولكن اعترض الوداى على هذا المشروع وقالوا له: نحن لانريد أن نعانى مرة ثانية، فيجب ألاتدفع شيئا لسلطان الفور، ولن نعطيك ماتريد إرساله اليه، لأننا لانعترف بدينك، واذا كنت لاتريد هذا الحل فنحن أيضاً لانريدك أبداً.

فدهش شريف من هذه المعارضة القوية، وقام بارسال سفراء الى السلطان محمد فضل، وأمرهم أن يوضحوا له كيف أنه عورض فى إرادته وأن يقولوا له بانه بات من المستحيل عليه مقاومة ماطالبت به رعيته، ولهذا قامت فى تلك الأيام العداوة بين الفور والوداى وقال القاضى دليل إن هذه العداوة مازالت الى اليوم

قوية، ولهذا السبب فان قافلة حجيج وداى لهذا العام ١٢٥٧هـ (١٨٤١م) اتجهت شمالا الى المغرب وأخذت طريق أوجلة للذهاب الى القاهرة، وفى العادة كانت القافلة تتجه شرقاً تمر بدارفور، ومنها عبر السودان الى البحر الأحمر، والآن نوقف الاحداث التاريخة إن التفاصيل الدقيقة تسبب التعب والقلق والله ورسوله أعلم بماحدث.

الفصل الثامن

في قصاص الجنايات

لما كان الحق جلت قدرته وتعالت كلمته غيوراً على عباده محباً لأهل وداده فمن حبه أدّر عليهم الانعامات وجعل من أحسن اليهم في أرفع الدرجـــات، ومـــن غيرته عليهم حرم الظلم بسائر أنواعه وأنزل علينا قرآناً وأمرنا باتباعه وحدد لنـــا حدوداً وأمرنا ألانتعداها ورتب القصاص على من تجاوزها الى سواها، لكن لمـــا كان النوع الانساني لايمتثل الا لمن هو أقوى منه، ولايذعن إلالمن كـــان أعلـــى درجة منه جعل لنا الولاة لانصاف المظلوم من الظـــالم، ونـــوّع القصاصـــات ليرتدع المجرم عن المآثم، ولولا ذلك لسفكت الدماء جهاراً ونهبت الاموال، وكان ذلك جالباً للخراب وفساد الأحوال، وهذا مصداق قوله تعالى "ولكم في القصـــاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون"[1] اذا علمت ذلك فنقول: إن القصاص نوعـــان شرعي وسياسي فأما الشرعي فهو ماذكر في كتاب الله تعالى في قوله "يـــا ايـــها الذين امنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبـــد بـــالعبد والانثـــى بالانثى"[2] الاية والقصاص الشرعي قسمان: ماذكر في هذه الأية في القتل وكـــذا قوله تعالى "وكتبنا عليكم فيها أن النفس بالنفس والعين بـــالعين والأنـــف بـــالأنف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص"[3] والقسم الثـــاني الحـــدود وهـــي ماذكر في قوله تعالى "والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم"[4] ومنها ماذكر في قوله تعالى "الزانية والزاني فاجلدوا كـــل واحد منهما مائة جلدة ولاتأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الأخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين"[5] وهذا في الزاني البكر، فأمـــا مـــن أحصن وزنى فانه يرجم حتى يموت، وقد فعل ذلك النبي صلى الله عليه وسلم في

---

(1) سورة البقرة ، الآية (١٧٩)

(2) سورة البقرة، الآية (١٧٨)

(3) سورة المائدة، الآية (٤٥)

(4) سورة المائدة، الآية (٣٨)

(5) سورة النور ، الآية (٢)

من زنى، وذكر العلماء أن الرجم كان فى القرآن ونسخت تلاوته وبقى حكمه، لأن النسخ على ثلاثة أقسام: الأول نسخ الحكم والتلاوة معاً، والثاني نسخ التلاوة وابقاء الحكم، والثالث نسخ الحكم وإبقاء التلاوة ومانحن فيه من القسم الثاني، لأنه روى انه كان يقرأ فى القرآن "والشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله"[1] وهذان القسمان فى القصاص الخالص ومن الحدود ما لم ينزل فيه قرآن ولاحكم فيه المصطفى صلى الله عليه وسلم بشيء، كحد القذف وحدّ شرب الخمر، وحد شهادة (الزور) فاجتهد الأئمة المجتهدون فجُعلَ حد القذف ثمانون جلدة وحد شرب الخمر ثمانون أيضاً على قاعدة مذهب مالك وأما الشافعية فقالوا أربعون فقط، وأما قطاع الطرق فحدهم القتل كالمرتد، وكذا من خرج على الأمام العادل وعاث فى الأرض مفسداً لقوله تعالى: "انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض"[2] ثم ماكان أدنى من ذلك فهو تعذير باجتهاد الحاكم وبمايليق بحال المستوجب له.

وأما السياسي فاختلفوا فيه باختلاف الممالك، واختلاف الامم فأما الأقطار المصرية والشامية بل جميع بلاد العرب والترك فانهم رتبوا قصاصات بعضها موافقة للشرع وبعضها مخالفة، ونظروا فى ذلك لما اقتضته المصلحة فنوعوا القتل الى القتل بالسيف، كما كان فى مصر ويسمونه التضبيع، والى الاستلحام وهو قتل بالسيف لكن في الجسم كله، ويسمونه فى مصر بالتقطيع، وفى تونس بالتشطير، والى الصلب، ويسمونه فى مصر وتونس بالشنق، والى الخوزقة، وهو أن يجلس المجرم على وتد من خشب أو حديد ويدخلونه فى دبره ولايزال جالساً عليه حتى تتقطع امعاؤه ويموت، وهو موت شنيع ربما عاش صاحبه أياما، والى الشامبات وهو أن يؤتى باناء كبير من فخار فيملأ بخرق قد غمست فى الزفت أو القطران أو زيت النفط وفرش تحتها طبقة من تراب، ثم يؤتى بمن يراد قتله فتمدد ذراعاه ويؤتى بخشبة طويلة تمد على صدره وذراعيه الى أن تبلغ أطراف

---

[1] ربما توجد فى القراءات الشاذة

[2] سورة المائدة ، الآية (٣٣).

أصابع يديه، وتشد الخشبة شداً وثيقاً، ويجعل في عنقه أطواقاً من حديد، فيها سلاسل طويلة اربع أوخمس[1] ويلبس ثياباً ممزقة وتوضع على رأسه طاسة من نحاس ثم يؤتى بجمل فيوضع الاناء الفخار في إناء من النحاس، ويوضعان على الجمل ويشدان بالربط شداً محكماً، ثم يجلس الانسان الذى يراد قتله على الاناء الفخار، وتربط أطراف السلاسل في حوية البعير ربطاً جيداً بحيث لايستطيع الانسان الحركة ولا التحول، ثم يرص على الخشبة المجهولة على صدره ويديه شمع من أولها الى آخرها، ثم يسير البعير وتوقد النار في الخرق والشمع لكن في الشمع أولاً ويكون قد طلي وجهه بالزفت والقطران، ويطاف به في الأسواق عبرة لغيره، وهذه القتلة كانت في مصر أيام الغزو، وهي أنكل القتلات وأشدها تحريماً وافظعها منظراً، وآخر من قتل بهذه القتلة في مصر فيما سمعناه أمرأة يقال لها جندية، كانت تقتل النساء وهي أنها رتبت لها جماعة من الفقهاء في كل يوم خميس وليلة الجمعة يقرأون القرآن، ورتبت من الشبان القاسين القلوب الذين لايخافون الله، وأعدت أناساً وأعدت في بيتها جملة محال ثم صارت تخرج في صبح يوم الخميس وتتامل في النساء المارة في الشوارع، فمتى وجدت أمرأة عليها حلي كثير تعلقت بها وقبلت يدها وسألتها بالله أن تذهب معها[2] الى بيتها وتجبر بخاطرها مقدار ربع ساعة، فتقول لها المرأة ولم ذلك؟ فتقول لها انه كانت لي ابنة مثلك وقد ماتت واحترق قلبي وإنها كانت في هيئتك وشكلك، وأنت مثلها ماتركت منها شيئا فاسألك بالله تجبريني بالذهاب معي ليذهب بعض ما أجده وأراه من الحزن، وهذا يوم الخميس، وعندى فقهاء فتجلسي وتسمعي القرآن، واتحلى بك ثم ترجعي الى بيتك، ولم تزل بها حتى تذهب معها، فاذا وصلت بها الى بيتها تجد المرأة الفقهاء يقرأون، فتصدق كلامها، فتجلس هنيئة معها ثم تخرج كأنها تقضي بعض المصالح، فحال خروجها يدخل عليها من أعدتهم للقتل، فيدخلون عليها ويسد أحدهم فمها ويذبحونها، ويقطعون لحمها ويرمونه في جب البيت، ثم تخرج وتأتي بأخرى وهكذا فتأتي في اليوم الواحد بثلاث نساء أو أربع ولاتأتي الا بالشابات

---

[1] في الاصل "..اربعة أو خمسة... وهو خطأ.."

[2] في الاصل ".. ان تذهب بها.."

وكان آخر من قتلتها[1] شابة يقال لها عبيدة خرجت من بيتها لقضاء حاجة فعثرت عليها جندية المذكورة، وتحيلت عليها حتى ذهبت بها الى بيتها وقتلتها كما فعلت بغيرها، وكان لعبيدة المذكورة ام، ولم يكن لها ولد سواها، فانتظرتها مدة فلم تأت اليها، فلما جاء الليل ولم تأت اليها بنتها طار عقلها وذهبت الى الشارع وهي تصيح وتولول حتى اعياها الأمر، فلما كان الليل[2] وهي نائمة رأت بنتها فيما يرى النائم، فسألتها أين كنت ولم لم تأت، فأخبرتها أن امرأة يقال لها جندية سكنها بالمحل الفلاني وصفة بيتها كذا وكذا خدعتني واحتالت عليّ واخذتني لبيتها وقتلتني ورمت لحمي في الجب، وأخذت حليي وملابسي، فقامت ام البنت من النوم وتوجهت الى الحاكم وشكت له، فأعطاها أعواناً وهجموا على محل المرأة فوجدوا المرأة كما ذكر فأخرجوا من عندها امتعة كثيرة فقتلها الحاكم بالشامبات، وقتل أعوانها بالخوازيق، الى غير ذلك بصحة ذلك وعدمها: والى القتل بالحرق وهو أن يؤتى بمشاق كتان كثير ايضاً (ثم يلبس للرجل المحكوم عليه بالموت بحيث يغطى كل جسمه) ثم توقد[3] النار من عند رأسه ورجليه وجنبيه في آن واحد، فيحرق الرجل باحتراق المشاق، وقد كان من جبابرة الغز من دفن الرجل حياً، وذلك أنه أمر بحفر حفرة عميقة فحفرت (ثم) ألقى الرجل فيها مكتوفاً وطم عليه التراب، وجلس هو على الحفرة وأمر بالطعام فأحضر، فأكل حتى اكتفى هو وأصحابه فانظر الى قساوة قلب هذا الفاجر، كيف يهنأ بالطعام وقد وضع في الحفرة آدمياً من نوعه.

والى التهريس كما يصنع في تونس، وهو أن يُكتّف الذى به ذلك ويجعل في هون كبير له أربع أيادي ثقيلة كالتي يهرس بها البن في مصر ويأخذ الرجال تلك الأيدي وتهرسه حتى يصير مهروساً، ومن أبدع ماسمعت من التفنن في القتل أن مولاي اليزيد ملك المغرب غضب على يهودي وحلف بأن يقتله قتلة ماقتل بها أحد قبله، فشاور أرباب دولته في ذلك فكل أشار بما سنح له من الرأى فلم يعجبه من

---

(1) في الاصل "وأخر من قتله شابة.."

(2) في الاصل " فلما كان بالليل."

(3) في الاصل "..ثم يقاد النار من عند رأسه.."

ذلك شيئاً، ثم أطرق ملياً وأمر باحضار بتية[1] فاحضرت وأمر باحضار نجار ومسامير كثيرة فاحضر كل ذلك، فأمر النجار أن يدخل المسامير كلها في جوانب البتية وأن يجعلها صفوفاً، وأن تكون من الداخل كشوك جلد القنفذ، ففعل ثم أحضر اليهودي مكتوفاً وأدخل في البتية، ثم سدت وسمرت، ثم أمر بأن تدحرج فدحرجت مراراً ثم فتحت فوجد لحم اليهودي قد صار قطعاً صغيرة كاللحم المفروم.

ومن أنواع القتل التبحير وهو القاء الانسان في البحر بعد ان يجعل في غرارة فيها حجر ثقيل، ومن أنواعه الخنق وهو يكون لبعض المحترمين، ومن انواعه سقيا السم وهو لمن يخشى غائلته ويكون ذا شوكة، ومن أنواع القتل القتل صبراً بأن يحبس الانسان في محل يترك بدون طعام وشراب حتى يموت، ومن أنواعه القتل بالرصاص أو المدافع، وهذا أسهل لازهاق الروح، ومن أنواعه القتل بالضرب بالكرباج، أو العصى حتى يموت أيضا، وأما الحدود الشرعية فقد ضاعت فلا توجد الآن ومنذ زمن قريب كان منها قطع يد السارق وقد بطل الان، واستحسن اللومان عوضاً عنه.

وأما أهل السودان فقد أهملوا الحدود بالكلية وباعوها بالعروض خصوصاً أهل دارفور، فانهم يأخذون عوضاً عن حد الزنا وعن قصاص الشجاج عروضاً وليس عندهم شيء موافق للشرع الاقصاص القتل في بعض الأحيان، وأما القصاصات السياسية فكثيرة عندهم، وان لم تبلغ في الكثرة ماذكرناه في بر العرب، لكن أكثر قصاصهم بالحبس والضرب فيحبسون المجرمين في محل غير مسقوف أرضه تراب، وضيقاً به شوك، ويجعلون القيود في أرجلهم والأغلال في أعناقهم، والموكل بالسجن (هم) الطواشية، ورئيسهم منهم والخدمة رجال، ويشغلون المحبوسين في دبغ الجلود، وكل انسان يعطى جلد بقرة أو جلد بعير وقرضاً[2] وأناء واسعاً[3] من فخار، ويضرب له أجل، فان لم يتم دبغ الجلد الذي أعطى له في تلك المدة أبلغ الايذاء وهذا السجن لعامة الناس، أما الأمراء وأشراف

---

(1) البتية "... يبدو من وصفها انها عبارة عن صندوق خشبي كبيرة في هيئة التابوت.

(2) القرض: هو نوع من الاشجار التي يستعمل ثمارها في دبغ الجلود ويكثر في غرب السودان واقليم بحيرة تشاد ويسمى في وسط السودان بالسنط.

(3) في الاصل "وأناء من فخار واسعا.."

الناس فيحبسون في محل آخر ويكلفونهم من العمل شيئاً، ومن أقبح مساعدهم أن لايوقظون المسجونين الابالضرب بالسياط ويتناوبون عليهم، وكل صاحب نوبة لابد أن يضربهم فيسمع لهم ضجيج عظيم ومن أمر بتأبيد سجنه جعل في رجله قيد، كل فردة منه مثقوبة الحذاء ويجعل في كل ثقب مسماراً ويبرد عليهما بالمبرد ولاينزع الا بالموت، بان يأتي الحداد ويبرده بالمبرد حتى ينقطع وأما الأمراء الكبار كأولاد الملوك والوزراء والعظام فاذا غضب السلطان على أحد منهم سجنه في مغاير الجبال[١] التي كنا تحدثنا عنها سابقاً حين ذهابي الى الجبل[٢].

وللفور أنواع[٣] من القصاصات السياسية منها مايسمونه برتكابو وهو ان السلطان اذا غضب على انسان قال: وان برتكابو" ومعناها اكسروا البطيخة فيرفعون الرجل بأيديهم[٤] الى أعلى ويتخلون عنه، فينزل الرجل على ام رأسه أو على غيرها ويفعلون به مثل[٥] ذلك مراراً حتى يموت.

ومنها الشَبَحْ وهو أن الملك اذا غضب على انسان استوجب قصاصاً ولو في زعمه: قال لأعوانه شبحوه فيذهبون به الى شجرتين متقاربتين ويكونوا حفروا حفرتين متقاربتين عميقتين وأدخلوا في كل واحدة خشبة وردموها (ثم) يثبتوهما ويربطون الخشبتين في يد الانسان، وفي الشجرتين حتى لايستطيع الحركة، ثم يأتون بفروع كثيرة من شجر يقال له التوب منتن الرائحة، ومن فروع ذات شوك صغير معوج كالسنانير الصغيرة فيزيلون من شوكها مقدار ماتقبض أيديهم ثم يتناولون المشبوح بالضرب حتى يموت أو يقرب من الموت.

أما قصاص من قتل قتيلاً وثبت ذلك عليه أما باقراره أو بالبينة، فان دلت استتوب فتوب الذي يتولى قتله بنفسه فيطعنه بحربة في منحره، وأما السن والأنف

---

(١) في الاصل ".. الجبال الذي..."

(٢) يشير المؤلف هنا الى حديثه عن سجن الأمراء الفور في مغارات الجبال وذلك في كتابه تشحيذ الأذهان مما يدل على ارتباط هذين الكتابين كما أشرنا من قبل.

(٣) في الاصل "..وللفور والقصاصات السياسية انواع.."

(٤) في الاصل "..فيرفعونه على ايديهم الرجل.."

(٥) في الاصل ".. ويفعلون به كذلك مراراً.."

واليد والشج مطلقاً فقصاصها في دارفور المال فانه يدفع لمن فعل به ذلك ثمناً قد اصطلحوا عليه.

وأما أهل الوداي فالقصاصات الشرعية جارية عندهم وقصاص السلطان بالقتل أو الضرب أو الحبس الطويل، وأما القتل اذا أراد السلطان قتل انسان يقول لطائفة من أعوانه تسمى الكبرتو خذوه وطقطقوه فيأخذونه الى فضاء متسع أمام دار السلطان فيتناوبونه بعصي قصار غليظة الرؤوس كالدبابيس فيضربه أحدهم ضربة على ساحل قفاه، فاذا (ظل)[1] الرجل هكذا رافعاً رأسه من حرارة الضرب، ضربه واحد آخر على فم معدته برأس عصاه فلا يتحمل الانسان منهم أكثر من ثلاث ضربات، ومن العجب أن السلطان اذا أمر بقتل جماعة دفعة واحدة ترى كلا منهم يقدم نفسه للقتل قائلاً: أنا أول أنا أول. كما يتقدمون على شيء نفيس، وأما الضرب فعندهم سياط عراض كالزخم المعروفة الآن في العرض، ولاسمك الا أنها جلدة واحدة من جلد الجاموس الوحش، والحيوان الكركدن المسمى بالخرتيت أو ابي قرن فتراها قبل الاستعمال بها يابسة خشنة اذا ضرب بها الانسان سوطاً واحداً ينبع الدم من محل الضرب فاذا ضرب بها الانسان مائة أو الفاً مات* ولابقاء له وهذه عادتهم لقساوة قلوبهم.

وأما الحبس فانواع فيها من يؤمر بحبسه فيجلس أمام شجرة وتجعل جذورها بين رجليه ويقيد من خلف الشجرة بقيد فيمكث كذلك ماشاء الله ان يمكث حتى تأتيه عناية (الله) ومنها من يوضع في رجليه قيد قطعة واحدة بغير حلق يسمى عقرباً وصورته هكذا ◯◯ وفيها من يوضع في رجليه القيد وفي رقبته الجنزير، ويسجن في محل غير مسقوف ومنها وهو اعجبها سجن الحظ وهو ان يقال لمن اريد له السجن أن السلطان حبسك في هذا الموضع فيمكث فيه من غير قيد ولاسجان ولاحبس حتى تأتيه شفاعة وهذا (هو) صاحب الذنب الخفيف ومثل ذلك ما اذا كان لأحد على آخر حق وقابله في محل وطالبه فاعترف وماطله فانه يتركه جالساً ويأخذ حربة ويخط بها حوله دائرة ويقول له: الله ورسوله والسلطان

---

[1] في الأصل "... فاذا ظل الرجل هكذا رافعاً رأسه.."

* في الأصل "..مائة أو الفاً حين مات لابقاؤه.."

وام السلطان والتقا سياد الدار ماتخرج من هذه الدائرة حتى تعطيني حقي، فيلتزم الانسان أن يجلس في ذلك الخط حتى يتوسل الى صاحب الحق بمن يشفع عنـــده ويطلقه وإن لم يطلقه بقي كذلك ولو مدة، حتى يخلصه، فان خالف وخرج واشتكاه صاحب الحق فأخبر الدولة بذلك بحث عنه أينما كان، ويؤتى [1] بـــه ويقـــاصص قصاصاً شديداً.

وإن ادعى رجل على آخر وخطط عليه ولم تثبت الدعوى يقاصص المدعى ولذلك لايمكن لأحد أن يخطط على آخر الابعد ثبوت الدعوى بحيث لايخشى غائله ذلك. وأما الجنايات فأحكامها قريبة من أحكام الفور، ومانكرنـــاه مـــن قصـــاص الجنايات في الفور في من أحبل امرأة أو ضرب آخر فشجـــه، ســـائر فـــي دار الوداي[2] كلها، الا الحيل في الفور الحيالية كتيموركة والكراكيب[3] فاننا ذكرنا ان الرجل لايتزوج امرأة حتى تلد ولدين أو ثلاثة قبله في الحرام[4] ولاقصاص على الفاعل ولا المفعول بها بل تتباهى النساء بذلك والأولاد التي تحصل تنسب الـــى أخوالها كما تقدم ذلك مفصلاً[5] ولله في خلقه أسرار فهو الذي أقام كل أناس إقامة لايرضون بغيرها. وقد عن لي ان أمسك غاية القلم عن الجريـــان فـــي ميـــدان الحديث عن بلاد السودان وأحوالها وعوائدها وأذكر سبب انتقالي من السودان الى تونس ومنها الى مصر ومنها الى الحجاز ومنها الى مصر ثانياً ومنها الى المورة ومنها الى مصر ثانياً واذكر ماانشدته من الأشعار مدحاً وما نمقته مـــن الرســـائل نثراً ونظماً سواء كان في تهنئة أو تعزية أو مجاورة أو جواب سؤال كمـــا يـــأتي مبيناً أن شاء الله تعالى وأعقد لكل من ذلك فصلاً مستقلا لتكون رحلتنا هذه عظيمة الفائدة كثيرة العائد كالجليس المؤانس.

---

[1] في الأصل ".. ويؤتاه به.."

[2] في الأصل ".. في دار الفور كلها.."

[3] تموركة والكراكيت هما فرعان من فروع الفور والمعروف ان الفور ينقسمون الى ثلاث شعب الكنجارة والكراكيت والتموركة فاختلط الكنجارة بالعرب فجاء منهم فرع كيرا الذي حكم البلاد.: ينظر: تشحيذ الأذهان ص ١٤٤.

[4] ربما سمع المؤلف هذا الكلام شفاهة وقد يكون عند بعض القبائل الوثنية، أما الفور فهم مسلمون وحكام البلاد، وبالتالي فانه لايعقل ان يكونوا بهذه الصفة ودواوينهم اسلامية لما ثارت حالة في الاسلام.

[5] ينظر تفاصيل ذلك في تشحيذ الأذهان ص ١٤٤ ومابعدها.."

الفصل التاسع

في ذكر الحروب وكيفيها

لما كان الغالب على أمره ظاهر السلطان، وهو الذى أنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، لنوع الانسان، وأمر بالاستعداد في محكم القرآن فقال: تعالى "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم"[1] وفي ذلك برهان كاف غير محتاج للذب عن غيره، عرضة وأمواله بنفسه وخيله ورجاله بينما الملوك الذين بهم الاستيلاء والسلطان ويرون أن ذلك لهم أعظم شان، لكن لما كان منهم المقسط والقاسط والمجاهد والمرابط، كانوا هم أهل للاستعداد للزب عن الدين والعباد والبلاد، فانقسمت أحوالهم بحسب نياتهم وأظهر الله ما أكنوه في طوياتهم، فتري منهم من أراد الله نجاحه وأظهر للعالم صلاحه، يستعد لقتال أعداء الدين اقتداءً بقوله تعالي لنبيه الامين:" ياأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين[2] " وهذا هو الذي تجارته رابحة، وصفقته ناجحة، وممن أغواه إبليس وأطاع طبعه الخسيس فترك فرض الكفاية، وجاس خلال الديار بالظلم والعتو والنكاية، فكان مسمي في صدر الاسلام قاصداً أن يدخل تحت أمره الخاص والعام، لا يريد لذلك شيئاً إلا الاشتهار، ولله في خلقه أسرار.

ولما كان أهل السودان لا بندق لهم ولا مدافع، ولا سور لحجز العدو نافع، كان قتالهم بالحروب والسيوف، فيخترق الفارس منهم الصفوف، يذيق من بارزه كاس الحتوف، والرجل يقاتل في الحرب بالحراب، ومنهم من يستعمل الرمي بالنشاب، وأعدوا للوقاية الأتراس التي يسمونها الدرق، فيسترون بها البطون والوجوه والحدق، وأعدوا لوقاية الفرسان[3] الدروع والخوذ والشايات، لتقيهم ضروب السيوف وطعن الحراب والنشابات، وألبسوا خيولهم اللبوس ليقوهم بها ساعة البؤس، لكن لما كان لكل قوم في محاربهم اصطلاح وجدوا اسلافهم عليه

---

(1) سورة الانفال الآية (٦٠)

(2) سورة التحريم، الآية (٩)

(3) في الأصل : " وأعدوا الفرسان للوقاية الدروع " .

تنداح، كان اصطلاح الفور للحرب اصطلاحاً قديماً{حيث} [1] يقسم الجيش خمسة أخماس كما كان يفعله أهل الرتب الخمس الأولي: المقدمة، والثاني: الجناح الأيمن، والثالث: القلب، والرابع: الجناح الأيسر، والخامس: الساق، وعلي هذا الترتيب نشأوا، فلا يحلون لسواه، ولا يعادلون بغيره، وإن ظهر حسنه لهم وحسناه، لكن لهم في أوائل الجيش طلائع ينقطع عنهم بها الطامع، وهي غير الجواسيس الذين يأتون بالأخبار، يعلمون إن كان العدو أقام أو سار، ويسمونها الايذانات، وقد رتبوا مناصبه بحسب ذلك، فجعلوا في الأمام أروندلوك[2] وفي المقدمة الكامنه[3] ،وهو المسمي فورك أبا[4] ، وفي الميمنة أباديما، وفي القلب السلطان، وفي الميسرة التيكناوي[5] ، وفي الساقه أبا الشيخ، والامناء والوزراء في القلب مع السلطان، فاذا اصطف الجيش وكان الميدان سهلاً كان الترتيب هكذا: وإن كان وعراً اصطفوا حسب الامكان، ومن عاداتهم أن يجعلوا لأنفسهم علامة يتميز بها الجيشان عن بعضهما، بأن يتفق السلطان وأرباب دولته علي علامة يتميز جيشهم بها، ففي بعض الأحيان يجعلون العلامة في أيديهم اليمني، بأن يأخذوا من لحاء الشجر فيربطون {به} أياديهم اليمني، فإذا علم العدو بذلك وكان قد أتخذها علامة له، غيرها في الحال بعلامة أخري، ولولا تلك العلامة لقتل بعضهم بعضاً، ولغدر العدو عدوه، لأنهم كلهم سود فلا يتميز هذا عن {ذاك} إلا بالعلامة، وبالعلامة المذكورة يميزون قتلاهم بعد انقضاء الحرب، بأن{يأت} من كلا الطائفتين جماعة

---

[1] في الأصل : "كان اصطلاح الفور اصطلاحاً قديماً للحرب :".

[2] أروندلوك، أو أروندلونج: سبق تعريفه يمثل عينا بيت السلطان أو وجه السلطان حسب نظام الفور ويمتلك سلطات واسعة فيحكم علي أربعة ملوك من بلاد الوقد، ومقره في مدينة الفاشر، وهو الموظف الذي يأذن لأصحاب الدعاوي وغيرهم من يريد مقابلة السلطان المثول بين يديه، وكان حاكماً لمدينة الفاشر العاصمة ورئيس البوليس فيها حسب تعبير أركل، وهو الذي يفصل في القضايا الجنائية.

ينظر : .Arkell: op> cit, P. 140

[3] الكامنه سبق تعريفه،

ينظر : الفصل السابع من الكتاب

[4] فورك ابا: أي ابو الفور ،

ينظر : الفصل السابع من الكتاب

[5] التكناوي : أو التكناوي : أحد أمراء سلطان الفور، ويحكم علي دار الزغاوة والبرتي وما والاها .

ويتخللون القتلي[1]، فكل طائفة وجدت علامتها علي قتيل واروه التراب (ومن وجدوه بغير علامة تركوه)[2] ومن عاداتهم عند التحام الصفوف أن الخيل تكون كراديس كراديس، وأن الراجلين يكونون أمام الخيل، فاذا التحم الصف تقابل الخيل مع الخيل والراجلون مع الراجلين، لكن الفور اذا أرادوا الاقتحام أظهروا سنداً لشجاعة الفرسان، فسل الفرسان سيوفهم، وكل كردوس منهم غني أميره بغناء بلغة الفور ورد عليه باقي الفرسان، ومما سمعتهم يُغنُّونَ به في وقت حرب الشيخ محمد كرا[3] السالف الذكر، اني سمعت كردوسانية ابراهيم ودرماد[4] وأولاده وجماعته وهو مقدمهم ويقول(أناس دُيوُ باتن كابوا أناس ديُو كية كالبواني كالبو)، لكن هو يقول: (اناس ديوباين) فيقولون: هم (كالبو)، فيقول: (أناس ديوكيه)، فيقولون: (كالبواني كالبو) والفرسان حينئذ منهم لابسا درعاً وعلى رأسه خوذة، وهي المسماة عندهم بالتلي، وفي يده أيادي من حديد بولاد يسمونها كمكا، وعلي فرسه لبوس وهي كهيئة اللحاف في التطريز، لكنها من جوخ أحمر، واللبوس للفرس مركب من أربع قطع، إحداها تكون علي كفل الفرس فتستر ظهره وجنبيه، وتترك حتي تقرب من عراقيبه، والأخري تستر عنقه وصدره، والثالثة تغطي

---

(1) في الأصل: ويتخللون القتل.

(2) في الأصل: " ومن لا فلا " . أي ومن وجدوه بغير علامة تركوه.

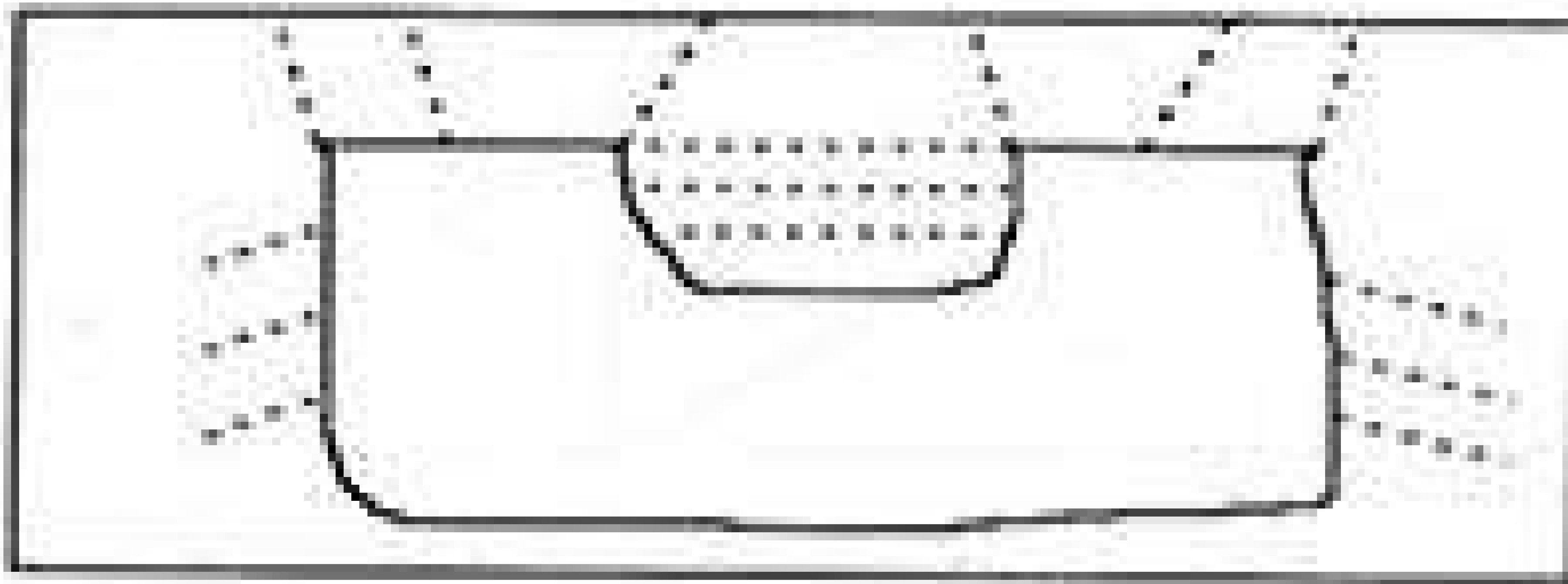
(3) الشيخ محمد كرا: كان يتولى منصب "الاب الشيخ" في دولة الفور في عهد السلطان عبدالرحمن الرشيد وهذا المنصب من أهم المناصب في دولة الفور بعد السلطان فهو الوزير الاعظم أي رئيس الوزراء والحاكم لاحد ولايات دارفور الاربع وهو المرجع الاعلى لتفسير قانون دالي وهو القانون العرفي الذي يحكم به سلاطين الفور بعد الشريعة الاسلامية، وكان هذا المنصب لخطورته لايتولاه الاعبد خصي مخلص للسلطان وقد تولاه محمد كرا وهو حر وتفسير ذلك انه التحق بحرس السلطان تيراب ثم اصبح مشرفاً على تربية أولاده ومصالحه الخاصة وبذكائه اصبح مسيطراً على شئون القصر فأوقعه خصومه في مشكلة مع السلطان فاتهم بالخيانة مع حريم السلطان فقام باخصاء نفسه بيديه حتى يظهر اخلاصه للسلطان وتمكن بمهارته ان يساعد السلطان عبدالرحمن الرشيد في تولي العرش بعد وفاة اخيه السلطان تيراب فولاه السلطان عبدالرحمن الرشيد منصب الاب شيخ مكافأة له وقد اشتهر بحنكته وحسن تدبيره في شئون الدولة واستمر في خدمتها حتى عهد السلطان محمد الفضل فكثر خصومه حتى أوقعوه في مشكلة حادة مع السلطان وخرج عليه بجنده فقاتله السلطان حتى قتله؛

ينظر: نعوم شقير، تاريخ السودان، ج٣ ص ٣٦.

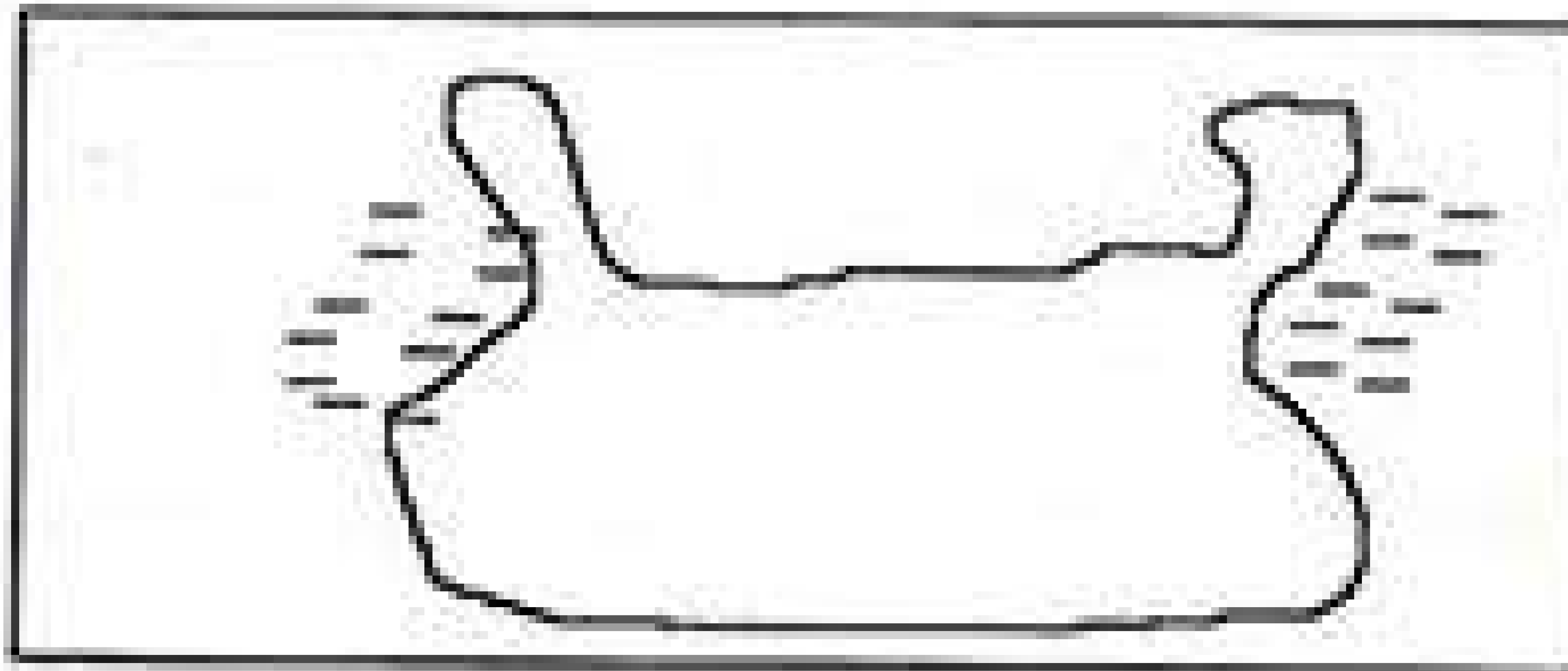
(4) ابراهيم ودرماد: وهو احد الامنا أي الوزراء المؤثرين في دولة الفور فقد تولى منصب امين امناء السلطان في عهد السلطان محمد فضل وكان شجاعاً مهاباً من الجميع وهو الذي قاتل الشيخ محمد كرا حتى قتله بعد خلافه مع السلطان محمد فضل فوطدت أسس أركان الدولة بفضل ابراهيم ودرماد وأولاده.

ينظر : شقير: تاريخ السودان ج٣ ص ١٢٥.

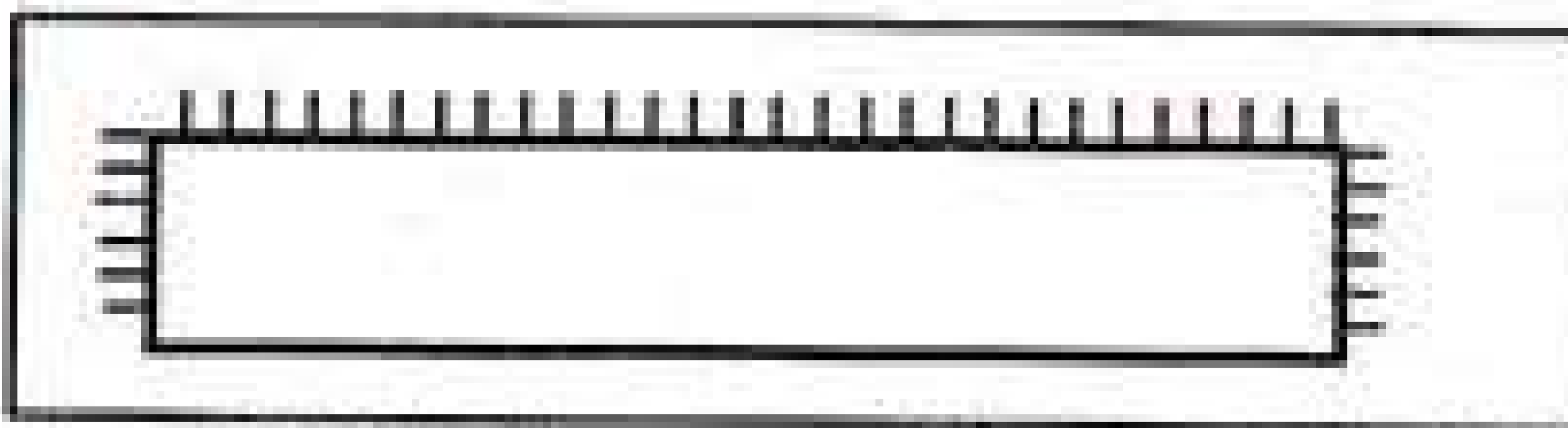
جنبيه وتتسدل حتي تصل الي ما يقرب من حوافره، والرابعـــة تغطـــي الجـــانب الثاني، وهي وإن كانت من جوخ أحمر إلا أنها مبقعة ما بين أحمر وأصفر وأبيض وأسود، ويقاربها حشو اللحاف التي يتغطي بها أهـــل مصـــر وإن خالفـــها فـــي الصورة، لأن اللحاف مربع وهي غير مربعة، لأن التي تكون من أمام فيها قطـــع مجوفة، وصورتها هكذا



فيضعون التجويف في رقبة الفرس ويربطون الخيوط العليا علي مفرقته والخيوط الأخري يربطونها بخيوط القطعة الثانية، وصورة القطعة الثانية التي توضع علي كفل الفرس هكذا:



وصورة القطعة الثالثة والرابعة وهما اللتان[1] تغطيان الجنبين هكذا:



وحين توضع كلها علي الفرس درعا أو درعين وعليهما شاية، وهي ملبوس أشبه بالجوخة، لكن محشو بالقطن مطرز كاللبوس منفعته تخفيف[2] الألم من الضـــرب

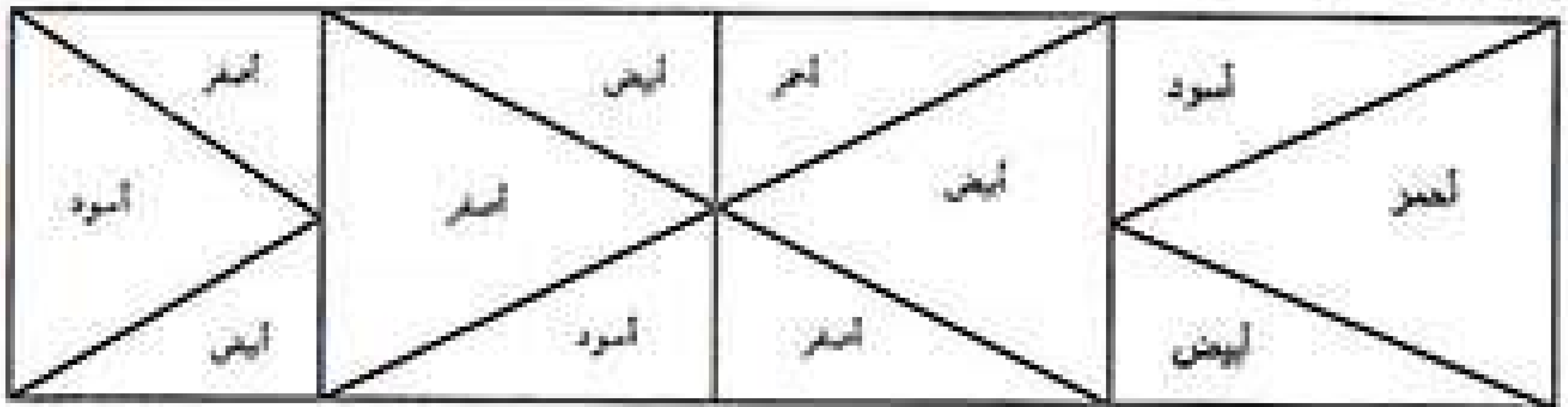
---

(1) في الأصل: "وهما اللتان يغطيان".

(2) في الأصل: "منفعته عدم الألم".

الذي يقع من الفرسان، لأن القطن للينه يدفع عن صاحبه وهو مرن سيما إن كـــان مندوفاً، والناس تختلف بحسب الفقر والغني[1].

فمنهم من تكون شايته من حرير، لكنها من قطع شتي ما بين أحمر وأصفر وأبيض وأسود شكلها هكذا:



ومنهم من تكون شايته من جوخ لكنها مفصلة كذلك، ومنهم من تكون شايته مـــن قطن أو الاجة، فكل منهم يعمل علي قدر وسعه، ومنهم من يلبس شايـــة واحـدة لعجزه عن ثمن الدرع، ومنهم من لا يلبس درعاً ولا شاية، ورأيت بعضهم قد اتخذ مايشبه الدرع من جلد التمساح، وحكي أنه وقاية كالدرع، وكذلك من النـــاس مـن يتخذ من جلد التمساح درقة هي المعبر عنها بالترس وبالمجن، فاذا علمــت ذلـك فاعلم أن الفرسان من الفور، اذا كان الواحد منهم لابساً لدرعين عليهما شايه وعلي فرسه لبوس عظيم وتحته سيفان وأقبل من بُعد يظهر للناظرين أنه شـــيء عظيـم وهذا ما يروع به الفور أعداءهم، واذا اجتمع نحو ألف فارس علي هذه الصيغـــة رأيت شيئاً عظيماً سيما وهم يروعون الناس بسل سيوفهم وعتادهم وغناء خدمــهم وأصوات صفافيرهم.

نكتة: اذا كان ذو منصب معزول عن منصبه وتولاه غيره بسعاية منه وكل منهما حقد علي الآخر وحضر للزحف يفتش المعزول عن المتولي وقت ترتيب الصفوف أو بعد الالتحام حتي يجده ويقول: يأوندايه[2] بسم الله، أي تفضل أنا وأنت ندخـــل الحرب، فإن وافقه ودخل معه في صف العدو سلم منه، وان لم يوافقه ولم يخــرج معه أشهد عليه أنه أبي أن يقاتل، وبعد انقضاء الحرب يرفع قضيتـــه للسلطان،

---

[1] في الأصل: " والغناء ".

[2] كلمة وندايه أو ونداي بمعني الشاهد أو الند كما شرحها المؤلف، وتطلق في دار فور غالباً علي المتنافسين في زواج المرأة.

ويشهد من أشهدهم، فيعزله السلطان ويوليه مكانه، وكذا إن خرج معه وقاتل قليلاً ثم فر من العدو، ولكن إن فر وقدر المعزول علي قتله قتله، وإن لم يقدر أشهد علي فراره وتركه، ثم يرفع أمره للسلطان، وكل من كان في قلبه غيظ علي آخر يفعل معه ذلك، لكن إن لم يكونا من أرباب الرتب عند السلطان وأبي أن يدخل معه الحرب أو فر من الصف أشهد أحدهما علي الآخر وتركه، وبعد الحرب يثبت شهادته للناس ثم يترك، فيبقي في غاية الاحتقار عند الناس، حتي نساؤه يطلبن الطلاق منه، ولم يزوجه أحد ابنته ولا أخته لما وقع منه، ومعني كلمة رنداي أي المعادل والنظير، كأنه يقول له يا من هو قريبي أو عديلي أو نظيري أو مثلي، وأصل إطلاقهم هذه الكلمة علي الرجلين المتزوجين بأختين، فإن كلاً منهما يقول للآخر يا رنداي، ثم توسعوا حتي قالوها لمن تولي منصباً كان القاتل يتولاه[1] قبل ذلك، وتطلق أيضاً علي من خطب امرأة وركن اليها أهلها، ثم جاءهم غيره أفسد ركونهم وتزوجها، ومثل هذا يطلب ممن تزوجها للحرب أيضاً، وكذا لو طلقها وندم علي طلاقها وأراد أن يردها وجاء غيره وعقد عليها وهدي لهم في ذلك، وأما رجالهم فيتحزمون وقت الحرب بملاحفهم ويشمرون أكمامهم، وكل رجل منهم معه درقة وحراباً لا أقل من أربعة، ثلاث منهم صغار، والرابعة كبيرة، وتسمي الفرخة، ومنهم من تكون له خمس حراب، وسادسها فرخه، ويجتمعون كراديس كراديس أيضاً ويغنون فيخرج مغنيهم ويغني بلغة الفور إن كان فوراوياً وهم يردون عليه، وإن كان عربياً بلغة العرب وأصحابه يردون عليه، ولقد سمعتهم يغنون في حرب الأب شيخ وهم يقولون:

(للي للي ويا تزول اللا صبا كريه ترك سيكو دين تكي ايلكا نون فارساً تيديو فارساً لولو تكبر)

وهذا الغناء وإن كان حين يقولونه يظهر أنه جميل لارتفاع أصواتهم كلهم به وتساويهم في النغمة إلا أنه اذا فسر بالعربية كان ركيك المعني، ولا خصوصية للغة الفور في ذلك، بل أي لغة اذا فسرت غناءها بالعربية تجده كلاماً مفككاً سمجه

---

[1] في الأصل: " إن تولي منصباً كان القاتل فيه قبل ذلك ".

السمع، ومعني ذلك: (أن الحاج أقبل من جهة الشرق فاسألوا الثور كيف حال خونته، ثم النور في وسط الفرسان، عيب يا فرسان الثور مع أخيه).

لكن كبيرهم يقول: للي للي فيقولون هم: ويا، ويسكتون فيقول كبيرهم: (ترول اللا صبا كريه نون سيتكو دين تلي ايلكا) ويسكت، فيقولون:(نون فارساً ديولو فارسا لونو نكبر)،وإن كانوا عرباً قال كبيرهم (تور الجاموس ورد المي، بدور الدم يترشرش به)، فيرد عليه أصحابه: (يريد الدم يترشرش به)، ويعيدها مره أخري ثم يقتصر علي قوله: تور الجاموس ورد المي، فيقولون هم: يريد الدم يترشرش به، ويغلون هذا ويهزون حرابهم التي في أيديهم ويصرخون فيسمع للجيش ضجيج، {أما} جيش فرتيت السلطان المسمي بالعبيدية، فيجتمعون زمراً زمراً ويغني كبيرهم: " قامبو بتي اتنابيا ويو ويو اتنابيا، ودي ويا، وري ويا، وياري أتقابيا".

وهذا الغناء غير معقول المعني لي، وسألت عن معناه كثيراً من أهل دار فور فلم يجيبوني جواباً شافياً، وسمعت من يقول:

(لولي سيد لو ججلو أياد ويدي أندو ادينبر أدي)

ومعناه بالعربية: ركبت جد الآن، لو اسم للمكان، وسيد لو معناه صاحب المكان، وججلو معناه انظر، وقوله يا دوي معناه يا انسان، وقوله دي معناه الفحل، وقوله ينبردي معناه مع فحل مثله.

فيصير معني الكلام مع القلب والتشويش وزيادة بعض كلمات، وسبك العبارة: يا صاحب المكان انظر المكان تري كل فحل يقاتل فحلاً مثله، وسمعت بعضهم{يقول}:

(لوتا لولو كملجأوه قم جوبو جني كلبو متون ديي قبلا انديو ليه) وهذا الآخر معناه ركيك، وإن كان يظهر أنه حسن بالفورأوية، لأن معني قوله: لويا لولو: مكان يا مكان، ومعني لوكلبو: أتخافون من المكان، ومعني قوله: قم جوبو قولو قم جر، وهاتان الكلمتان تقالان عند الغضب، وأصلها عندهم[1] تقالان للكلب طرداً أو زجراً له، كما تقول أهل مصر للكلب: عصاجر، فاستعملتا عندهم للشتم مطلقاً،

[1] في الأصل: " وعندهم كان أصلهما تقالان".

فاذا غضب أحدهم قال لمن يخاصمه قم جر، وإن كانتا غير معقولتي المعني جيداً، كقول الفرنساويين:" ساكري نون ديديون:.

ومعني: جيي كليو معناه لا تخافوا، وقوله نون دبي، معناه الثـــور الفحـــل، وقوله: قيلا ديوكيه، فيه جواب مقابل له، فيصير معني الكلام مع الزيادة والسبك والتقديم والتأخير:(مكان يا مكان أتخافون المكان ، قولوا قم جر لا تخافون المكان، يوجد في صف الحرب ثور فحل مع فحل مثله، أي يقاتل قرينه) وأضراب ذلــك كثير من الغناء، وأما قولنا السابق: (كالوا إيا دو قدر ابوا) فكالوا{معناها} الخوف، إيا{معناها} ام، دو قدر أبو الحصين[1] ، وديو{أي} الجماع، فيصير معني الكلام (أم الجبان يجامعها أبو الحصين).

وبالجملة فأهل دار فور يعتقدون في الغناء ما تعتقد العرب العربـــاء فـــي الشعر، وهذا الكلام عندهم في الحرب كالحماسة للعرب، وعندهم في الأفراح غناء آخر لكن لا يقلنه[2] إلا النساء، لأنهنّ المنوطات بذلك.

واذا انجر الكلام الي الحرب والفرسان والخيل فسنذكر فيما تعلق بـــالخيل وصفاتها، اذهي أعز ما اقتني، وبها يقع الارهاب، وبها يكون الطلاب، وقـــد ورد في الحديث: (الخيل معقود بنواصيها الخير الي يوم القيامة[3]) وقد قال تعالي في التحريض علي الاستعداد لنبيه الهادي للرشاد:

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن ربـــاط الخيـــل ترهبـــون بـــه عـــدو الله وعدوكم[4])

ولهذا كانت من أعز الاموال وأجل ما اقتناه الرجال، اذا تقرر ذلك فنقول:

إعلم أن الخيل في دار فور علي أجناس، أحسنها مـــا هـــوَ عنـــد الملـــوك كالسلطان وأرباب دولته، وهي الدنقلاوية[5] والمصرية، فأما الدنقلاوية فخيل عالية

---

(1) أبو الحصين: هو اليربوع، وهو حيوان أشبه بالقنفذ، يتخذ نفقاً في الأرض لسكناه، ويهاجم منازل الدجاج ليلاً ويسرف في أكل الكتاكيت.

(2) في الأصل " : لكن لا يقولوه إلا النساء " .

(3) ورد الحديث بصيغة أخرى: "الخير معقود بنواصي الخيل الي يوم القيامه " .

(4) سورة الأنفال ، الآية (٦٠) .

(5) الدنقلاوية : نسبة الي دنقلا، وهي مدينة في شمال السودان، يجلب منها البلح، والخيل في ذلك الوقت.

القوائم براقة اللون يغلب على ألوانها السواد، وتقتنيها الملوك للزينة لحسنها، وأحسن منها الخيول المصرية التي كانت تقتنيها العامة والخاصة، لأنها وأن لم تكن عالية القوائم كالدنقلاوية إلا أنها حسنة قابلة للتعليم أكثر من غيرها، وتتحمل المشاق في الكر والفر وألوانها جميلة، ويغلب على ألوانها الحمرة، فترى المكرم منها مربوع القوائم، ضامر البطن عظيم الكفل والصدر، متوسط الجيد، ينفر ضد المنايا خصوصاً خيل السلطان فإن السياس يربونهم أحسن تربية، ولذلك ترى الفرس الذي يركبه السلطان سواء سار أو وقف وعليه السلطان لا يروث ولا يبول مدة ماهو على صهوته، ولا يرفع قدماً ولا يتقدم ولا يتأخر، بل قصاري أمره أن يرفع رأسه ويضعه، وإذا وقع من فرسه أنه بال أو روث أو تزلزل عن مكانه الذي أوقف به ينزل عنه السلطان ويأخذه[1] السواس ويضربونه ضرباً مؤلماً، فلا يعود يفعل شيئاً مما وقع منه، وحين كنت هناك ورأيت خيل السلطان في غاية الحسن، سألت أحد السواس[2] عن سبب ضمورها، فأخبرني بأن طعامها دائماً من نخيل رطب يجلب من سفح جبل كسا[3]، وأن قوامها من الدخن المجروش المعجون بالعسل، حتى يصير عجيناً ثخين القوام، يعطي الفرس منه أربع قبضات في الصباح ومثلها في المساء، وبعض قبضات من قش النجيل، وتسقى في الصباح لبناً ملياً، ويداوم على ذلك، فيكتسب الفرس قوة وحسناً ويبقى ضامراً كما تراه، وأما الخيل الفوراوية، أي التي أصولها من هناك، فإنها كالبحر، عظيمة البطن شديدة البطر، إن شبعت عربدت وعبثت بيديها ورجليها، وإن ركبَ عليها الفرسان خالفت في مشيها، ولا تستقيم على الطريق بل تسير مع الاعوجاج، ويقع منها الحرن والجموح، فالحرون منها متى ما حرن لا يمكن {أن} تسيره ولو قطعته، بل كلما ضرب بالسوط رفع يديه ووقف على رجليه حتى يرى بياض بطنه، والجموح{منها} متى[4] ماجري لا يرده اللجام بل يقص اللجام بأسنانه ويأخذ

---

(1) في الأصل : " ويأخذونه السواس " .

(2) هكذا يكتب المؤلف السواس وأحياناً السياس، وهو جمع سايس وهو الذي يقوم بخدمة الفرس وتربيته.

(3) جبل كسا: من جبال جبال دار فور.

(4) في الأصل : " والجموح متى ما جرى لا يرده اللجام" .

فارسه ويظل يجري حتي انه ربما أوقعه في صف العدو، {وأيضاً} ربما أدخل[1] هذا الحرون صاحبه في الصف ورفض الخروج منه، فيحرن ويثبت حتي يقتل فارسه، وهذان الداءان أقبح شيء[2] في الخيل، وإن جاعت هزلت، لكنها تتحمل مشقة السفر والركوب، ومن عادتها أن الفرس اذا جرح في الحرب يرمي صاحبه من علي ظهره ويجمح، بخلاف الخيل الأصيلة فإن الفرس منها لو جرح مائة جرح يصبر حتي يرجع به صاحبه الي عسكره، وأحسن الخيل في دار فور خيل عرب البادية، لأن أصولها عربية، وفارسها إن طَرَدَ لَحق، وإن طُرِدَ سَبَقْ، ولو كانت هزيلة. لكن شتان مابين مرعي خيل العرب[3] ومرعي خيل الفور، وشتان ما بين تربية هؤلاء وتربية أولئك[4] . أما الفور غير السلطان وبعض خواصه فانهم يعلفون خيلهم بالدخن، والدخن عادته يكبر البطن، ويكثر الدم، والفور يركبونها للزينة ولسفر بعض الأماكن مع الراحة، وتري الامير منهم بعد كل ساعتين يغير مركوبه بآخر خوفاً عليه من التعب، وأما العرب لقلة الدخن عندهم فيطعمونها الحشيش ويسقونها اللبن الحليب دائماً، ويغسلون أجسامها بالسمن المذاب، ومن عادة العرب الإغارة، فدائماً تجد البدوي بالليل يقيد فرسه بقيد من حديد، وفي القيد سلسلة طولها نحو باع، طرفها مربوط بقائمة سريره الذي ينام عليه، ومن حيث أن الخيل استأنست بالمغازي والكر والفر، فمتي وقع في الحي ضجة تري الفرس ينهنه ويضرب برجليه الأرض فيوقظ صاحبه إن كان نائماً، وبالنهار يربطه قريباً من بيته، فمتي ما وقع في الحي صياح قامت أمرأة البدوي أو أخته أو امه أو نحوها ووضعت السرج علي الفرس وألجمته، وقام البدوي إن كان نائماً ركب أو جاء إن كان مستيقظاً فركب، وأغار مع جماعته، فلهذا تجدهم متي وقع صياح في حي خرج الفرسان كلهم في طرفة عين، ولما كان عمدة أسر العرب علي الخيل تغالوا في أثمانها بحيث يباع الفرس المشهور عندهم بأغلي قيمة، وربما وصلت الي مائة الفرس الرباعية وفحلها معها، وأعلاها عندهم ما

---

[1] في الأصل: " وكذا الحرون ربما أدخل صاحبه ".

[2] في الأصل: " وهذان الداءان أقبح داء في الخيل ".

[3] في الأصل: " لكن شتان بين مرعي خيل العرب وبين مرعي خيل الفور ".

[4] في الأصل: " وشتان ما بين تربية هؤلاء وتربية هؤلاء ".

يسبق ثلاثة كماين، وذلك أن الخيل درجات، منها ما يسبق كميناً واحداً، ومنها مـــا يسبق كمينين، ومنها ما يسبق ثلاثة، وهوأحسنها، فالذي يسبق ثلاثة كماين يضعون له في كل كمين عشرة من الخيل، وبين كل كمين مسافة نحـــو ســـاعة أو أكـــثر، فيخرج الفارس وحده أولاً ويجري قدامه حتي اذا جاء لحق بالكمين الأول خـــرج معه العشرة فوارس بخيلهم[ويتأخرون عنه[1]]فلا يصل الي الكمين الثاني إلا وحده فيخرج معه وهكذا حتي يبلغ الثلاثة.

وقد يقع في خيل العجم من الفور والوداي ما يضاهي خيول العـــرب فـــي السباق[2] ويزيد عليها بقوة احتمال المشقات، فقد اتفق أن أحد[3] التأماويين اشتري فلواً صغيراً ورباه وكان الفلو من السباق للسباق ولم يدركة طالب ولم ينـــج منـــه هارب، فلما رأي من جودة فرسه ما رأي طمع في المكسب، فاتفق أن بين الوداي والتأما وادياً ما بين شفرية مسافة قصبتين أو أكثر، فحدثته نفسه أن يتوجه الي ذلك الوادي ويخاطر بنفسه، وينظر هل ينفر[4] فرسه الـــوادي أم لا ، فذهـــب وحمـــل فرسه علي الوثوب فوثب ونفر من الشفير الي الشفير، وكان بين الشفيرين هـــويّ لو سقط فيه لهلك هو وفرسه، ولما علم ذلك من جواده صار يأخذه ويتوجه الـــي دار الوداي فيجلس في بئر من الآبار، ويتأمل في البنات اللاتي[5] يردن فوقتمـــا[6] رأي صبية جميلة اختطفها وفر، فيركب وراءه الفرسان فلا ينالون منه إلا الغبار، وإن ادركوه أتي بهم الي ذلك الوادي فيظنون أنه لا يمكنه العبـــور منـــه لسعته، فيفرحون بذلك فيضرب هو الجواد ويعبر الوادي فيأتي الفرسان خلفه فيرونه قـــد عبر وخيلهم تقف علي الشفير فيندهشون من ذلك ويرجعون خائبين، فاتفق انه اخذ صبية لم يكن لابويها غيرها، وفعل معهم مافعل بغيرهم فرجعوا بوجـــوه باســـرة وصفقة خاسرة فاغتاظ ابو الصبية وتوجه الي بلده وكان عنده من الخيل فرس انثي

---

(1) في الأصل : " ويستردون منه ".

(2) في الأصل: " في السابق ".

(3) في الأصل : " فاتفق أن بعض التأماويين. ".

(4) ينفر : هنا تعني يعبر بقفزة واحدة.

(5) في الأصل : " البنات التي يردن " .

(6) في الأصل : " فمهما رأي صبية. ".

لكنه قرب وقت نتاجها فصبر حتى ولدت وحان وقت النزوان[1] وطلبت ذلك، فأخذ قطعة من القطن المندوف ووضعها ليلاً على فرجها وربطها ربطاً جيداً وتركها الى الصباح واخذها وقد ابتلت من رطوبة فرج الفرس، فلفها في قطعة قطن أخرى ووضعها في مزود وتنكر بائساً (حيث) لبس ثياباً كثياب التاماويين وتزيى بزيهم لئلا يعرف انه من الوادي وسافر الى بلاد التاما مهاجراً يتكفف فصار يتخلل ديار القوم (ويظهر) عندهم في صفة غريب مهاجر حتى عثر على ابنته في بئر من آبارهم فلم يحدثها بل صار يراعيها اين تذهب ويتبعها من بعد حتى دخلت في البيت الذي هي فيه، فصبر حتى دخل الليل وطرق الباب قائلا ان ضيف الله مهاجر، فأدخلوه في محل الضيافة، فنظر الى الفرس الذي هو لصاحب الدار وعرف محل مبيته، فلما كان في جنح الليل وهدأ الناس قام ودخل على الفرس فحاول[2] أن يأخذه ويفر فلم يمكنه ذلك لكون الفرس مقيداً بقيد حديد متين، وفيه سلسلة متينة أيضا، فلما أعياه الأمر أخرج القطن من المزود وقربه من أنف الفرس، فحين شم رائحة رطوبة فرج الأنثى هاج والفظ واشتدت غلمته فقرب القطنة لاحليله فبالأمر المقدر إنه أمنى ووقع منه المني في القطنة، فأخذ القطنة ولفها كما كانت، ووضعها في مزوده وبات بقية ليله، ولما أصبح توجه الى بلده وكان قد ترك فرسه مربوطاً وأمر أن لاتخرج لئلا يعلو عليها بعض الخيل، فلما دخل داره لم يكن له هم الا أن أخرج القطنة التي فيها ماء الفحل ووضعها في فرج الفرس فبقيت ماشاء الله أن تبقى، فتحلل مافي القطنة من الماء من حرارة الفرج وتشربه الرحم، فحملت باذن الله تعالى، وتركها مربوطة مدة فظهر حملها ظهوراً جيداً ولما انقضت مدة الحمل وضعت فلوا كأنه أبوه، ففرح الرجل بذلك واعتنى بتربيته حتى جاء أوان ركوبه، فصار يركبه ويدربه شيئاً فشيئاً حتى تقوى عصبه وصار يصلح للغارة فأخذه وتوجه به الى ذلك الوادي وخاطر بنفسه وألجأ فرسه الى اقتحام الوادي فاقتحمه (بشكل) أعظم مما كان يقتحمه أبوه، ففرح بذلك وتوجه الى بلاد التاما، وجاء الى البئر الذي ترد فيه إبنته فصبر قليلاً حتى وردت،

---

[1] وقت النزوان: أي وقت الاستعداد للحمل.

[2] في الأصل "..وحاول ان يأخذه..."

ومما يتفاءلون به إن كانوا قاصدين حرب عدو ورأوا الخيـــل تمطـت بيديـــها[1] تفاءلوا بأنهم منصورون وإن تمطت برجليها تشاءموا[2] بالهزيمة، كمـــا أنـــهم إن رأوا الغربان تحوم أمامهم تفاءلوا بالنصر، وإن راوها خلفهم تشاءموا[3] بالهزيمة ولهم في ذلك اعتقادات لاتنزع من صدورهم.

نـــادرة:

كان للسلطان تيراب نديم يقال له الفقيه موسى تفاويض وكان طلق اللســـان حلو المنطق، فاتفق أنه حضر مع السلطان حرباً في كردفال فى ســرية، وانـــهزم الجند الذى كان معه وكان الفقيه موسى راكباً فرساً أربد، فخاف علـــى نفســه أن يدركه العدو فنزل عن الفرس ونجا بنفسه وعاد فرسه حتى دخـــل مــع عســكر السلطان فقبضوا عليه ودخلوا به الى السلطان قائلين: ان هذا فرس الفقيه موســـى ولولا أنه قتل لما عاد، فاغتم السلطان لفقده وأمر بربط فرسه مـــع خيلـــه حتـــى ينكشف الأمر، فلما كان بعد العشاء حضر الفقيه موسى ودخل على السلطان فلمـــا رآه السلطان فرح وسأله عن حاله فقال: لقد قاسيت البارحة فى الحرب مالم يقاسه أحد حتى قتل جوادى الأربد ولولا أن الله نجانى لقتلت أنا الأخر، فضحك السلطان من كلامه وعلم أنه كذاب، لكن لم يظهر له شيئاً بـــل قـــال لـــه لابـأس عليـــك، وسنعوضك خيراً منه، ولاندعك راجلاً بعد أن عرفنا من شجاعتك ماعرفنا، ولمـــا أصبح الصباح حضر الفقيه موسى فسأله السلطان عن حاله وماجرى له بـــالأمس مع الأعداء، فأخبره كما أخبره بالأمس، فقال السلطان: هاتوا للفقيه موسى فرســـاً من خيلي، وكان أوصاهم أنه إذا طلب للفقيه موسى فرساً أن يأتوا[4] لـــه بفرســـه الأربد، فأتوا به فلما رأى جواده بعينيه صاح وقال: اتق الله يا أربد تبعث قبل يوم البعث، فضحك منه السلطان والحاضرون، وكان الفقيه موسى سلط اللسان علـــى أمراء السلطان ويأخذ منهم العطايا الجسيمة، ومن لم يعطه رماه عنـــد الســـلطان

---

(1) المتمطرة" بيديها اى رجليها الأماميتين، والمقصود برجليها هو رجليها الخلفيتين.

(2) فى الأصل "... تفاءلوا بالهزيمة.."

(3) فى الأصل "..تفاءلوا بالهزيمة."

(4) فى الأصل "..يأتون له.."

بكلام يبيته به فلذلك كانوا يحترمونه، وكان يقول كلاما يعتقد أنه شعر مـــع أنـــه ملحون، ومن ذلك مامدح به بعض النساء فقال:

صَدْرِك سطيحاً كن لوحاً جبروه   صار فقير الناس كأن كابا

أهلك عزازاً[1] يحفظوا السلطان   شرطك بقرا والأربع قران[2]

هذا ولهم في الخيل مقالات ومقالات لو تتبعها الانسان لاتسع عليه الميدان ولـــهم فيها اشعار وأخبار لايحصيها العد، ولايوقف لها على حد.

تنبيـــه:ـ

اعلم أن الوداي في جميع ماذكر قريب من اصطلاح الفور، لذلك لم نعقـــد لهم فصلا مستقلاً ونهاية الأمر أنهم أقل من الفور في وصف[3] الفرس ونحو ذلك، ولايخالفون الفور الا في الغناء لانهم لايغنون ويعدون[4] الغناء في الحرب نوع من العبث وعندهم عوض الغناء بوقات الكبرتو والتكحيل وأما الفرتيت فلاخيل عندهم البتة وليس عندهم من أنواع الحيوانات الأهلية الا البقر، فانها توجد عنـــد بعـــض القبائل كقبيلة الجنقي[5] والتي ذكرنا ان عندها بقراً كثيراً من حيث انـــهم لايوجـــد عندهم الدواب المذكورة فيحملون أثاثهم ان كانوا مسافرين علـــى رؤوس نســـائهم ويحملون ملكهم على سرير، وفي أثناء الحرب على كرسي وهم حاملون له فـــان انهزموا وضعوه على الأرض وفروا.

تنبيـــه:

اعلم أن ملوك السودان لايفرون حتى اذا انهزم جيشهم فاذا رأى الملك منهم جيشه قد انهزم نزل عن فرسه إن كان فارسا راكباً أو عن أعناق الرجال ان كان من ملوك الفرتيت، لأنه يخشى أن يلحقه العار من الهزيمة وقـــد اصطلـــح أهـــل

---

(1) في الأصل "...عزوزاً".

(2) يمدح هذه المرأة بأن صدرها مثل كالفرح، وأن أهلها عزاز محترمون للسلطان وأن مهرها خيل عبارة عن بقرة وأربعة قران والقـــرا[illegible] عبارة عن امرية كبيرة تحمل مفروشات على ظهر الثور وهو كناية عن كثرة وعلاء المهر.

(3) في الأصل "...في وصه الفرس...".

(4) في الأصل "...ويعدون ان الغناء...".

(5) "الجنقي" مصطلح يطلقه أهل السودان على القبائل الوثنية عموماً.."

السودان من قديم الزمان ان الملك لايقتل من الأعداء الا اذا قتل في وقت القتال وأما إن جلس على الأرض فلا يقتله الا أوباش الناس وأما العقلاء فلايقربونه بل يأخذونه الى ملكهم فيحسن لقاءه ويكرمه ويظل مقيداً عنده لعدة أيام حتى يتفق معه على أمر ثم يرسله الى محله مكرماً، وكذا اذا عثر على القاضي أوبعض العلماء فلايقتلونهم، وكذلك يضرب الطبل والنقير فالواجب لكل هؤلاء ألايقتلونهم ولايبقونهم في الأسر، بل يطلقونهم ويرسلونهم الى بلادهم واذا ضبط ملك من ملوك الفرتيت فيحسنون اليه ويردونه الى ملكه، هذه عادتهم قديماً ولايقتلون من الأسير الامن خان أو قاتل[1] بعد الأسر أو كانوا يسمعون أنه يعيبهم ويلعنهم ويقول فيهم كلاماً فشيحاً.

واذا اسر السلطان ياخذون جميع أعوانه وخدمه ومامعه من السلاح والخيل والابل ويوقفون له اعواناً وخدماً، وان كان معه نساء يأخذوهن ولايردوهن اليه في بلاده، ويجرون عليه النفقات الى ان يمتن هذا اذا لم يكنّ جوارى (فان كن جوارى)[2] فعل بهن السلطان ماأراد من بيع أو هبة أو تسرٍ، لكن عندما غزا السلطان بلاد الباقرمة وظفر بهم وباع من نسائهم وأولادهم ما أراد، واسترقهم لتأوله أنهم كفار تبعاً لملكهم خصوصاً نساء السلطان فانه اصطفى منهن لنفسه ما أراد ووهب[3] منهن ماأراد وقد ذكرنا بعض ذلك في غزوة باقرمة فلا إعادة، وفيما ذكرنا كفاية لأرباب الدراية.

---

(1) في الأصل " الا من خان أوقاتل."

(2) في الأصل "..وهذا اذا لم يكن جوارى فعل من السلطان.."

(3) في الأصل ".. وأوهب منهن."

الفصل العاشر

فى ذكر التجارة وذكر مايتجر به

اعلم أن المغنى على الاطلاق المنزه عن الانتفاع والارتزاق لما كان غنياً مستغنياً عن كل ماسواه، ومفتقراً اليه كل من عداه،[1] نظر بعين الرحمة اليهم، وأنزل انعاماته عليهم، ومن رحمته جعل فيهم المالك والمملوك والغنى والصعلوك، وخص كل إقليم بمالا يوجد فى غيره، وربط الأسباب بالمسببات والهم الناس طرق رشادهم وماقيه صلاحهم وفسادهم، فانقسم[2] العالم الى أقسام جلية حسبما تعلقت بذلك الارادة العلية، فكان التجار من القسم الوسط الذى ليس على صاحبه شطط، ولولا التجارة لما تمتع الناس[3] ولاحصل لهم هذا الاستيناس، كيف وهى حرفة كان من جملة أهلها خير الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام، فقد روى بالأسانيد الصحيحة أنه سافر فى تجارة خديجة أم المؤمنين الى الشام، ولم ينكر ذلك أحد من أهل الاسلام، ووردت عدة أحاديث فى مدح التجارة الخالية عن التدليس والغش والخلابة، كما روى ذلك عدد[4] من الصحابة، فلهذا نجد فى كل اقليم من انتدب لهذا الخير والأمر الجسيم، ومن جملة ذلك أهل السودان فإنهم لما كانت بلادهم خالية عن الأقمشة الجميلة والبضائع الجليلة وعندهم مايحتاج اليه أهل المدن العظيمة من الخيرات العميمة، انتدب من كل اقليم لهذا الأمر المهم أناس ودخلوا فى سلك أهل التجارة ليكون لهم من الخير التماس، فجلب تجار الفور منها الرقيق والصمغ وسن الفيل والتمر هندى وحبة العين المسماه فى مصر بالشمشم والنبق والكرنو والتبلدى والجلود العظيمة التى تصنع مزادات، المعبر عنها فى مصر بالرىّ وريش النعام بنوعيه الأبيض والأسود، وكل ممانذكر له فى الأمصار، فأما الرقيق فهو ممالايستغنى عنه أهل المدن وهو أعظم مايتجر فيه، هو وسن الفيل

---

(1) فى الأصل "... ومفتقراً اليه كل ماعداه..."

(2) فى الأصل "..فانقسمت العالم..."

(3) فى الأصل "... ولولا التجارة لم تمتع الناس..."

(4) فى الأصل "..كما روى ذلك عدة من الصحابة.."

وريش النعام والصمغ والتمر هندي، وهذه بضاعة الأغنياء منهم، ومايبقى تتجـــر فيه فقراؤهم.

واما البضائع التي تروج عندهم فهي كثيرة جداً، وأكثرها مما لايعبأ به أهل المدن ويرون أن نفعه قليل فمنها المقصوص، وهو كهرمان أصفر يختلـــف فـــي الحجم، فمنه نمرة واحد، ومعنى نمرة واحد أن السبحة منه تزن رطلاً، وهو خرز مستدير مقزحح[1] يجعلنه النساء في عقودهن وهو أغلى ثمناً من غيره ولايلبســـه منهن الا بنات الأكابر، وبنات الملوك، وماقاربهن، ومنه نمـــرة اثنيـن وهـــو أن السبحتين منه تزنان رطلاً، وهو أقل من الأول ثمنا، ويلبسنه نساء أواسط النـــاس، ومنه نمرة ثلاثة، وهكذا ومنها الريش وهو خرز مستطيل كأنـــه المرمـــر، فيـــه خطوط وهو مستدير وربما وجد منه ماهو كروي وأعلى منه السوميت، وهو خرز رفيع مستطيل أسمر اللون فيه خطوط بيض وهذا تلبسه نساء الملـــوك وبناتـــهم، وربما بيعت الخرزة منه برأسين من الرقيق، وان كثر أي (الرقيق) فبرأس وقد كنا ذكرنا ذلك في حلي السودان وزينتهم، ومنها البخور، وقد كنا ذكرناه، وهو خـــرز كبير مستدير يجلب من الجليل تجعله النساء في أوساطهن فتجعل المرأة منهن في وسطها سبع حبال أو خمس، وهو مابين أخضر وأصفر وأسود منكت[2] والأســـود يسمونه المشاهرة، وأغلى منه الخرز المسمي رقاد الفاله وهو خـــرز أكـــبر مـــن المنجور وأنعم منه وأدق صناعة، فلذلك تلبسه نساء التجار ويلبس المنجور نســـاء أوساط الناس، ومنها الحوش وهو خرز صغار مابين أخضـــر وأزرق وأصفـــر يتعامل به أهل كوبية[3] ويلبسنه نساء الفقراء في أوساطهن إذ لايقدرون على شراء المنجور ومنها المرجان، وهو عندهم نوعان: الفص والمدردم، ولايعرفـــون مـــن أنواع المرجان سواها، فأما الفص فهو خرز مستطيل وهو كالمقصوص في النحر،

---

(1) مقزحح أي بألوان القوس قزح وهي الأزرق والأحمر والأصفر.

(2) منكت "... يعني فيه نكات أو نقاط..."

(3) كوبية:- من اكبر مدن دارفور عند زيارة المؤلف للمنطقة، وهي مركز تجاري هام عند ملتقى عدة طرق في شمال دارفور وتقع شمال مدينة الفاشر وكانت عامرة من جميع الجهات بقرى عديدة تمتد في سياقها على مااقترب من كوبية، ومعظم سكانها الـــــسلالة مـــن الأعراب أو السمار، وكان أكثر أمارتها من الفوارة والبرنو والحلاية وقد اندثرت معالم كوبية في الوقت الحاضر ولم يبق منها سوى الوادي الذي ما زال يحمل اسمها وهو وادي كوبية.

ينظر: Browne, W.G.OP.Cit.P.234-

ومنها القأو، وهو مرجان صناعي وهو على نوعين أيضاً: طويل ومدردم والمدردم هو الكروى والقأو المذكور رخيص، ولرخصه تلبسه نساء الفقراء والمرجان الحقيقي ينظم مع المفصوص والريش والسوميت ويجعل عقود تلبسه النساء في أعيادهن ومنها دم الرمان وهو خرز أحمر كالدم يجلب من بلاد الافرنج وهو من زجاج، وحبه على نوعين، مستطيل ومدردم وكل منهما رقيقة، وهو رخيص تلبسه نساء الفقراء في عقودهن، وفي تمائمهن وفي أذرعتهن، وتسمى الواحدة مدرعة، ومنها الطرابيش ولايأخذون الذى فيه طول وبعض ضيق ليكون على الرأس كالطرطور.

ومنها الثياب البفتة الرقيقة المسماة في مصر بالمدرات فإن الجلابة يأخذونها، والطاقة ستون ذراعاً، يقطعون كل طاقة ثلاث قطع كل قطعة عشرون ذراعاً، ويصبغونها ويذهبون بها الى هناك فيبيعون كل قطعة برأس رقيق والالاجة[1] الكسأوى، وهي أردى الالاجات وتسمى عندهم بالنخوقارى فيقطعون الالاجة قطعتين كل قطعة يسمونها قرناً تلبسها نساء الأكابر على صدورهن، وتباع القطعة منه بنصف رأس رقيق أعني بنصف ثمن رأس رقيق، ومنها الشواتر وهي المسماة في مصر بالعبك، وهو قماش غليظ من قطن في آخر قطعة منه طرز عريض أحمر، تباع القطعة منه بتسعة قروش أو عشرة تجعلها أهل مصر بطانة المراتب لجلوسهم ونومهم وبطانة لألحفتهم فيصبغها[2] الجلابة ويذهبون بها الى دارفور فيبيعون كل ستة منها برأس رقيق ان كان الرقيق غالياً، ولقد أدركته في الزمن الذى كنت فيه هناك، وأن ثلاثة شواتر برأس رقيق، ومنها الجوخ، وهو أخشن النسيج ولايلبسه في مصر الا الرعاع لرخصته، فيأخذونه ويباع للملوك ليجعلونه لبوساً لخيلهم، ومنها الحمير، فإن الحمار المصرى هناك يسأوى شيئاً كثيراً فان كان عظيماً جداً ربما بيع بعشرة رؤوس من الرقيق، ومنها السنبل والمحلب وخشب الصندل والصقر والشيبة والمرجان والقرنفل وكعب الطير والبن

[1] الالاجة: نوع من القماش كالدبلان يصنع في مصر ويباع للتجار في شكل طاقات ثم تقطع منه الالاجات وتصبغ ويشتريها كبار القوم في شكل ملاحف يتشحون بها في المناسبات وتقطع منها قطع النساء يلبسنها في صدورهن. ينظر تشحيذ الأذهان ص ٢١١.

[2] في الأصل "... فيصبغوها الجلابة."

والصابون، وجميع ماذكر يدق ويجعل في الدهن الذي يُتطيب به، ومنها النحـــاس الأحمر وهو المسمى في مصر بالقراطة، وهو كل نحاس بطل اســتعماله الابعــد صوغه ثانياً، كقتر ذهب، وهذا النحاس عندهم له ثمـــن عظيـم يصنعــون منــه الجلاس[1] لكن باضافة بعض الخارصين عليه ليقلبه من الحمرة الى بعض صفرة وتصاغ منه الدمالج[2] وهي التي تباع في دار رنكا[3] كل أربعة دمالج من الملـــح برأس رقيق، ومنها التنيان الأصفر وهو ألواح الصفيح، وهي غالية الثمـــن فـــي دارفور يجعلونها في وجوه الخيل، فالأمير الذي ليس لفرسه ذلك لايعبأ به، ومنها السلك الأصفر يأخذه الأمراء ويلوونه على أعواد حرابهم زينة، وأهـل فرأوجيــة يصنعون ذلك في الحراب بكيفية جميلة فالسلطان وأرباب الدولـــة يجلبـون مــن فرأوجية أهل الخبرة بذلك، فيلوون لهم السلوك المذكورة على أعواد حرابهم ومنها القصدير ويبادلون أهل الفاشر بخواتيمه كما ذكرنا ذلك في فصل معاملتهم، ومنها الجذور وهو خرز مستطيل أحمر وأبيض وأزرق لايلبسه في دارفور الا الخــدم، ومن لايقدر على (شراء) غيره، وانما يأخذه التجار ليبيعونه في دار ركا وفرأوجية ودار بيكا[4] وجبل شان، فهناك تلبسه نساؤهم ومنها الكحل الحجر المسمى بالأثمد في ناحية الغرب وهو حجر أزرق براق يسمى بلغة الكيماويين كبريتور الايتمون، ومنهاالإبر، وهي وان كانت بضاعة مزجاة لكنها في دارفور لها قيمة، فقد تبـــاع الألف ابرة برأس رقيق، ومنها أمواس الحلاقة، لأن الأمواس التــي تصنــع فــي دارفور حديد كال[5] ردىء، قليل النفع اذا رأيت الحالق يحلق بها كانما يسلخ رأس المحلوق، ومنها السروج واللبد التي تحتها ولايركب عليها الا أمراء الناس ومنـــها الركابات الطويلة التي كانت تركب بها الترك سابقا، ومـــن الـــدروع والســـيوف

---

(1) الجلاس أو الفلاس، وهو الكوب أو الكأس الذي يستعمل في شرب الشاي أو الماء أو غيره.

(2) الدمالج: جمع دملج وهو نوع من الزينة يصنع من النحاس تتزين به النساء كالاساور وتستعمل كحلية في بلاد السودان كافة.

ينظر :تشحيذ الأذهان ص ٣٠٢.

(3) دار رنكا: أو رونغا: تقع في شمال بحر الغزال وغرب بلاد فرأوجية وقبائل رونغا هي خمس قبائل الفرتيت في ذلك الزمان.

ينظر : تشحيذ الأذهان ص ١٤٤.

(4) دار بيكا أو بينجا: تقع أقصى جنوب دارفور وشمال بحر الغزال وقبيلة بينجه خمس قبائل الفرتيت في ذلك العصر.

ينظر : تشحيذ الأذهان ص ١٤٢.

(5) حديد كال: أي غير حاد.

المعتدلة فهي التي يتقلد بهاالأمراء ويجعلون لها قبضة مـــن فضـــة، وفـــي رأس القبضة انتفاخ على هيئة كرة، فارغ البطن يجعل فيه حصيات، فاذا أسند أحد سيفه وهزه في يده شخشخت الحصيات داخل ذلك الفراغ، ويجعل الأمير منـــهم علـــى سرج فرسه سيفين وربما طلي القبضة بالذهب ويســـمون الـــذى قبضتـــه كذلـــك أبوتومة، وكذلك الانتفاخ برأس التوم، ولايكون الا لأمرائهم العظام، وأما الأمراء الصغار فربما عملوا القبضة وانتفاخها من نحاس، ومنها الـــورق للكتابـــة وهـــو مطلوب عندهم، ومن احسن مايتجر فيه في السودان الريـــال الفرانســـا المســـى أبومدفع وهو يغلى حتى يباع رأس الرقيق بعشرة ريالات وبثمانية، مع قلة المؤونة في الحمل ومنها كبريت العمود فانه يطلب ومع رخصة هنا فانه غال هناك، ومنها كتب الفقه والحديث فان مكسبها عظيم جداً، وكان الجلابة سابقاً يأخذون الملايـــات الحجازى لأمرائهم ملاحف، والآن عندهم، وصاروا يأخذون الالاجات، فيجعلـــون الالاجة شقتين ويحبكون طرفيها ويجعلون لكل طرف هدباً طويلا، وهو المســـمى عند الملوك بالفير، اذا ولى السلطان أحدهم أعطاه فيراً واذا عزله أخذه منه، والآن يأخذون من الشيت المقلم الذي على هيئة الالاجة فيجعلون كل طاقة أربع قطـــع، ويحبكون أطرافها ويرجونها كما كانوا يفعلون بالالاجة، وقد تؤخذ لدوايات النحاس للفقهاء عندهم، والمقاشط والمطاوي، ويؤخذ الشاش لعمائمهم، كما تؤخـــذ بعـــض المراكيب وبعض البرادع[1]، لكن هذا كله بالوصية أو على سبيل الهدية، وجميع ما ذكر يجلب من مصر الي دار فور ماعدا الريش[2] والسوميت[3] فانه يجلب من الحجاز ويتوجه به الي دار فور عن طريق سنار، وكذا خشب الصندل واللبـــان والسنبل والمحلب، وأهل الوداي كذلك، إلا أن أهل الوداي لم يتمدنوا ويتوغلوا في الأشياء كما توغل أهل دار فور لأن السلطان مانعهم من ذلك، فإن الخدور الذي لا

---

(1) البرادع: جمع بردعة، وهي وطاء من الجلد محشو إما بالقطن أو الصوف ويضعها الأكابر على سروج الحمار، الزينة والراحة.

(2) الريش: خرز مستطيل أبيض، مخطط بخطوط حمراء، ويجلب من مصر، وهو معروف هناك بهذا الاسم.
ينظر: تشحيذ الأذهان ص ٦٠ .

(3) السوميت: وهو خرز من نوع الريش، لكنه أحسن منه، وشكله مستطيل صلب كأنه من رخام، وفيه خطوط حمراء تستزين به النساء في شكل سبحة يلبسنه في أعناقهن ويجلب من الهند.
ينظر الترجمة الفرنسية: ص ٢٠٨ .

يلبسه في دار فور إلا نساء فقراء الناس يلبسه في بلاد الوداي أعظم نساء الأكابر، والسروج المصرية واللبد محرمة على بلاد الوداي، ولا يركب علـــي مثلــها إلا الملك، وقد قدمنا ذلك مفصلاً، فلا يروج في دار الوداي إلا الخـــدور والنحـاس والمرجان بنوعيه والريش ودم الرعاف[1] ، وثياب البفت والملايات، وكذا ما ذكر من أنواع الطيب والدروع والسيوف والتتك لكن الأبيض لا الأصفر، وكـل ذلـك يذهب اليهم من جهة فزان، وتزيد دار الوداي على دار فور بأنها تحب الحريــر، أعني الذي يخاط به فإنهم يطرزون مدور[2] ثيابــهم البيـض بـالحرير الأحمـر والأصفر والأزرق، وهذا لم يكن عندهم وإنما ألفوه من الباقرمه، ويجلب للـــوداي التيكو والمقوداني من بلاد البرنو، وهي ثياب سود عـــرض الشقـة منــها نحـو قيراطين من جنب سحيطة، وتجلب أغلب بضائع الوداي من فزان، وفي النادر من دار فور، وأندر منه من برنو، وأما الحمير في دار الوداي فـــلا يركبـها أحـد، خصوصاً في واره التي هي الفاشر، كما يجلب[3] لدار فور خرز طـــوال طـول الخرزة نحو ثلاثة قراريط أو أكثر أبيض وأسود يسمي الثور، وهو خرز منظم في خوص كخوص الدوم أو قش كالحلفا، تنظمه النساء، بأن يجعلنَ بين كل خرزتيـن حمراوتين أو سوداوتين[4] مرجانه من المرجان الكروي الحر إن كانت "المـــرأة" غنية ومن القأو وهو المرجان الصناعي إن كانت فقـــيرة أو مـــن دم الرعـــاف، وبعض {النساء الغنيات}[5] يجعلنَ فيه فصوصاً من النمرة الثالثة، وهذه المـــدارع ربما لبسها الرجال أي الشباب، ذلك لأن الشاب اذا أحب صبية أو أحبته وصار كل منهما لا يصبر على فراق الآخر، أخذ كل منهما شيئاً من ملبوس صاحبه، فـــهي تأخذ منه خاتماً أو تأخذ منه كدمولاً، والكدمول[6] هو شقة من قطن عرضها نحـــو

---

[1] دم الرعاف وهو نوع من الخرز أحمر اللون داكن، منه ماهو اسطواني وماهو كروي، ومصنوع من الزجاج، يجلب من أوروبا.
ينظر : تشحيذ الأذهان، ص ٢١٤ .

[2] " مدور ثيابهم " أي أطرافها .

[3] في الأصل : " وإن تجلب لدار فور " .

[4] في الأصل : " بين كل خرزتين حمراً وسوداً " .

[5] في الأصل : " وبعض الأغنياء " .

[6] في الأصل : " والكدمول المذكور شقة " .

شبر، وفي طرفيها أعلام من الحرير الأحمر، عرض العلم منه نحو قيراط أو أكثر بقليل، وبين كل علمين نحو أربعة[1] قراريط، وطول الشقة المذكورة نحو ثلاثة أذرع، وهي أشبه بتكة السراويل، فأي شاب أتقن كدمولاً وأكثر حريره وأعطاه الي حبيبته هو الممدوح، وتفتخر (هي) بذلك الكدمول، وأما هو فيأخذ منها المدرعة ويجعلها في ذراعه ويفتخر بها أيضاً.

<u>نكتة:</u> حين وصلت الي دار فور وجدت لوالدي سريتين، إحداهما محظية وفي يدها مفاتيح الامور، ولها الأمر والنهي، فمن أحبته أحبه والدي ومن كرهت كرهه، وذلك لحبه فيها، فإتفق لها أنها ذات يوم جلست تنظم عقودها ومدارعهامع بعض الجواري، وجئت أنا ودخلت عليهنّ وجلست عندهنّ هنيئة، فاتفق أن جاءت صبية من بنات العرب من جيراننا بإناء فيه لبن هريسة فقدمتها لسرية من الجواري، فأصرت أن يوضع في محل داخل ويغطي حتي يحضر والدي ويراه، فدخلت وأنا يومئذ شاب يرد عيشة الشباب وشربت من اللبن حتي اكتفيت، ولم أبق منه إلا القليل، فاغتاظت مني لما فعلت، وخصوصاً الربيب مكروه، فصادف الأمر أن غابت مدرعة من مدارعها، وكانت قد تغطت بالتراب فبحثت عليها فلم تجدها، فسكتت حتي جاء والدي وأخبرته، وقالت له ولدك أخذها وأعطاها للصبية التي أهدت لنا اللبن، فقال لها والدي! ولِمَ يأخذها ويعطيها لها، فقالت: لأنه عشقها، ثم قالت له هذه المرة آخذ المدرعة، ومرة أخري يأخذ عقداً، والله يشهد أني بريء مما نسبته اليّ كله[2]، فاغتاظ والدي وظن صدقها، ولم يخاطبني بشيء، فبتنا تلك الليلة، ولما أصبحت لم أشعر إلا وأنا بعمي زروق ومعه عبدان أسودان من كبار العبيد ومعهم قيد غليظ، فقال لي عمي يا فلان إن أباك أمر بتقييدك بهذا القيد، فمد رجلك، فلم يمكنني أن أرد جواباً غير (الاستسلام) إلا أني قلت وما ذنبي حتي أقيد، فقال لي ذنبك أنك أخذت المدرعة وأعطيتها للصبية، فحلفت أني ما رأيتها، فلم يصدقوني، ووضعوا القيد في رجلي وتركوني وانصرفوا، وبقيت يومي كله جالساً في محل نومي لا أخرج منه، وأنا أبكي، وأتيَ لي بطعام فلم أطعم منه شيئاً،

---

[1] في الأصل: "أربع قراريط" وهذا خطأ والصواب أربعة.

[2] في الأصل: "[illegible] الي ذلك كله".

وبقيت كذلك يومين، وفي صبيحة اليوم الثالث جاءني عمي وقال لـــي: أن أبـــاك يقول لك إن لم تظهر المدرعة بالمعروف ضربتك ضرباً وجيعاً وأنكل بك وأجعلك مثلة بين الناس، فزاد حزني، فتوسلت الي الله بنية أن يقيلني من هـــذه الورطـــة، وندمت علي مجيئي بلاد السودان، وبقيت يومي ذلك في غاية من الحـــزن، ولـــم أقطع البكاء ولا الدعاء والتوسل الي الله بنية أن يظهر براءتي، فلمـــا كـــان عنـــد المساء أقبلت علي جارية من الجواري وبشرتني بأن المدرعة وجـــدت مغطـــاة، فحمدت الله علي ذلك، وزال عنائي، ووالدي إذ ذاك لم يكن في الدار، فلما كان بعد المغرب أقبل، وحين دخل الدار لم يكن له هم إلا أنه أرسل لي عمـــي بمثـــل مـــا أرسله في الصباح وهي تسمع، ولم تقل له وجدناها، بل استمرت ساكتة ظناً منـــها اني لم أعلم بإيجادها، فجاءني عمي وقال لي ما أرسله به والدي، فقلت أوليس أنهم وجدوها، فقال: لا أعلم، فقلت قد وجدوها وجاءني من يبشرني بذلـــك، فرجعـــوا وأخبروا والدي بلقياها، فسألها حينئذ أحق مايقول، فقالت بحزن وبرود لقيناها، لكن هو الذي أرسلها مع إحدي الجواري وطرحها هناك لأننا بحثنا في ذلك الموضـــع مراراً فما وجدناها، فلو لم يطرحها طارح من أين تأتي، فدعا والـــدي الجـــواري كلهنّ، وسألهنّ وشدد عليهن، وقال لهن إن كان أعطاها لواحدة منكـــن وطرحتـــها فلتقل وعليها الأمان، وإلا ضربتكن أجمعين حتي {عرفت} الحق، فحلفن[1] كلـــهن أنهن لا يعلمن من ذلك شيئاً، وأنهن لم يطرحنها[2] ولا رأينها إلا في ذلك المحـــل مغطاة بالتراب، فلما يئس منهن أطلقهن، وبتُّ تلك الليلة مقيداً كمـــا كنـــت، فلمـــا أصبحت اذا بعمي والعبدين السابقين فدعوني وفكوا القيدين من رجلي وتركونـــي ومضوا، فلبثت مكاني، وبكيت علي حالي، فكيف أقيد كالعبيد الخائنين، وبينما[3] أنا كذلك اذ جاءني عمي ببقجة فيها ثياب فأمرني بنزع ماعليّ والبسني مافي البقجـــة وهي ثياب فاخرة فيها ماعدا القميص والسراويل قفطان قطني وجبة جوخ خضراء جديدة وشال كشميري أخضر، وطربوش وعمامة وحزام ونعل سوداني كنعال أهل

---

[1] في الأصل : " فحلف الجواري كلهن " .

[2] في الأصل : " ولكن ما طرحناها " .

[3] في الأصل : " وكيفما أنا كذلك " .

مكة وقال لي: كلم والدك[1] فانه يدعوك فتوجهت معه اليه وقبلت يده، وحين التقبيل سقطت دموعي على يديه بغير ارادة فرأيته كبر عليه (ذلك) فقبلني بين عيني وقال لي: احمد الله اني أنا فعلت بك ذلك ولم يفعله بك حاكم أو أجنبي وعرف صدقي وثبت لديه ثم بعد أيام أدركت أنه ضاع لها عقد، وانه لم يأخذه غيري فقال لها (والدي) بأخذه اتقي الله فقد اتهمناه عن قريب فظهرت براءته، ابحثي على عقدك ولعلك تجديه كما وجدت المدرعة، فحلفت انها بحثت غاية البحث فلم تجده وصممت على اتهامي، فبينما هي تتحدث معه في ذلك، اذ أقبلت إحدي الجواري بالعقد وقالت: هاهو وجدناه في المحل الفلاني، فاستشاط والدي غيظاً وقال لها: لِمَ لَمْ تضع لنا حاجة قبل مجيئه وما ابتدأت حاجاتنا في الضياع إلابعد مجيئه، فاغتاظ لذلك وقال لها: تدخلين الكراهية بيني وبين والدي، وكلما أنهاك لاتزيدين الابغضاً ثم غضب وقال زروق هات القيد (ولم يلبث[2]) أن أحضرَ القيد فقال له (والدي) قيدها ودعها تذهب للمطبخ مع الجواري، إن هي الا جارية مثلهن فلما رأت منه الجد بكت وانتحبت وصارت تتضرع اليه وتقبل قدميه، فأبى إلا أن يقيدها وهي تبكي وتستغيث وصار عمي يشفع لها ويقبل يد أخيه فلم يسمع قوله ويتركها الابعد جهد وعناء[3] ثم انه حلف ان تعرضت لي بسوء وكذبت عليّ لينكلن بها، فتابت من ذلك الوقت وانصلح أمرها معي وأظهرت لي المودة العظيمة حتى سافرت معه الى وداي[4] وهناك عاقبها الله على كذبها الذي دبرته لي وكذلك على النمائم الدنيئة والرديئة التي سودتني بها، ولكي يعاقبها الله فقد امتحنها امتحانات قاسية ورد عليها نفس المعاناة التي عانيتها من قبل وقد عاقبها هي أيضا بأن تعيش في الحديد عدة سنين كما عشتها أنا عدة أيام بسببها ولكنها لم تجد أحداً يرحمها في سجنها البائس وهذه هي الحكاية.

في الوقت الذي كان يستعد فيه والدي لمغادرة وداي والرجوع الى تونس مازلت انا في دارفور وأرسل أبي ليخبرني بأن ألحق به حتى نسافر معاً وسلطان

---

[1] في الأصل "... والدك..."

[2] في الأصل " فلم يكن بأسرع من ان احضر والقيد معه..."

[3] في الأصل "... فما سمع قوله وتركها الابعد جهد..."

[4] من عبارة "حتى سافرت معه الى وداي الى اخر القصة سقط في الأصل وتمت اضافته من الترجمة الفرنسية.."

دارفور كما ذكرت من قبل حبسني في دارفور وعندما تأخرت عن الحضور قرر والدي السفر حالاً، وسلم كل ممتلكاته (المتمثلة) في القرى الخمس التي كان يديرها بنفسه وعائداتها ونسائه وقطيعه، سلمها لأخيه زروق والذي عينه نائباً عنه ومسئولا عن شئونه، ثم سافر عن طريق فزان، ذهب ليرى أسرته ويزور والدته ومابقي له من اخوان، وظلت خليلته في وداي فأظهرت شراستها النسائية، وأعلنت الحرب المفتوحة مع زروق، وادعت أنها في غياب والدي فهي خارج السلطات وليس لها واجب تؤديه لأحد، وكانت تريد أن تخرج بفائدة عن مقاومتها لعمي، وذهبت عدة مرات لتشكو عمي للسلطان، وقد نظروا في الأمر واعترفوا بالحقوق العادلة والكاملة لزروق، ووبخ السلطان هذه المرأة بشدة وتلقت الأمر بأن تظل امرأة مطيعة وهادئة مثل باقي النساء، وعندما غضبت من هذه الأحكام أعلنت عدأوتها المفتوحة ضد زروق، ورفضت أى تسوية أو صلح، وعندما علم السلطان بموقفها هذا أمر بسجنها داخل المنزل وتقييدها بقيود العقرب على قدميها حتى ترجع وتتوب، وكانت في حالة حمل، وعندما حان وقت وضوعها، فكر زروق في ان يطلب من السلطان ان يستسمح هذه المرأة، ولكنه خشي أن تعاود مشاكلها معه مرة أخرى، فاكتفى بأن يطلب من السلطان أن يفك عنها القيود حتى تضع فقط، وبعد الوضوع يعأود تقييدها كما كانت من قبل، وهكذا كان الاتفاق، وعندما وصلتُ أنا الى وداى وجدت هذه المرأة مقيدة بالعقرب، ان الله لاينسى الظلم والظالمين وهو ناصر المظلومين واليه يرجع الناس الذين يعانون الظلم.

ولنرجع الى ماكنا بصدده من التكلم عن التجارة فنقول: أحسن مايتجر فيه في بلاد الفور والوداي: النحاس الأحمر لأنه هو ذهبهم يصنعون منه الخلاخل والدمالج والأحزمة، ويباع في دار رنكا بيعاً جيداً، كل ثلاثة أرطال بعبد أو جارية، وفي بلاد الفور ثمانية أرطال بسداسي وإن كثر فعشرة، ولايتجاوز ثلاثة عشر رطلا أبداً[1] ويليه الخارصين ويليهما الريال الفرانساوى والزنك الأصفر

[1] في الترجمة الفرنسية" ولكن لايتجاوز ابداً الثلاثة عشر رطل سعر العبد أوسطه يعني طوله ستة أشبار ويتم القياس من القدم الى الفرع الأسفل من الأذن.

المسمى بالصفيح[1] وأما باقي ماذكرناه فيباع إلا أنه غير مرغوب كما ذكرنا هـذا مايتجر فيه الجلابة، وأما العرب الرزيقات واحزابهم[2] فيتجرون في السمن والبقر والجلود والعسل، فيجلبون السمن الى دارفور فيبيت كثيراً ولولا هم لكان الرطـل من السمن بزنته فضة، ولا يجدونه وأما عرب الزياديـة والعريقـات والزغـاوة فيجلبون الملح من بئر زغاوى[3] الى دارفور، ولولاهم لمات أهل دارفور من عدم الملح فان الملح في دارفور عزيز جداً وفي دارسلا[4] وفنقرو[5] ورنكـا أعـز فأماقي دارفور فقد يباع الكيل الملح بمثله عشرين مرة من الدخن، هـذا اذا كـان الملح قليلاً، فان كثر فيباع خمسة عشرة مرة، وان كثر اكثر من ذلك فيباع بمثلـه اثنتي عشرة مرة[6] وليس أقل من عشرة (في جميع الاحوال) وأمـا ملـح بـلاد الميدوب فذلك للأمراء وأضرابهم، وأقبح ملح يوجد على ظهر الأرض هو ملـح بئر الزغاوى، لأنه مختلط بتراب، فاذا وضع شيء منه في الطعام كان فيه تراب، ولهذا (فان) أكثر المترفهين يذوبونه في الماء ثم يصفون المـاء عنـه ويرمـون التراب، لأنه يرسب في قعر الاناء، وأما لو وجد عندهم ملح كملح رشيد[7] أو ملح تونس لتقاتلوا عليه بالسيوف، وقد تقدم أننا ذكرنا أن بعض أهل الجبـل بدارفـور يصنعون ملحاً ويسمونه بالفلقو[8]، ويجعلونه على شكل مستطيل وبه يبيعون فـي الأسواق، فنخلص من ذلك أن الملح في دارفور ثلاثة أجناس: أصـها وأكثرهـا

---

(1) في الترجمة الفرنسية "..ويعد النحاس يأتي الزنك ثم التلاري والعملة الاسبانية القديمة الدورو.."

(2) اقرأ باحزابهم أي حلفائهم واتباعهم وورد في الترجمة الفرنسية وباقي الاشياء، بما فقط العرب الذين يسكنون ضواحي دارفور.

(3) بئر زغاوى: بكسر الزين وهي بئر النطرون ويذكر براون ان اسمها بئر اللنجة وعلى مسافة قريبة منها يستخرج النطـرون الـذي يأخذه التجار الى مصر ويقال انها تبعد من الفاشر مسافة عشرة ايام ويسكن حولها عرب يقال لهم العمام وقد نزلت فيـها قافلـة الشيخ محمد بن عمر التونسي وهي في طريقها الى الفاشر.

ينظر: Browne: OP.Cit.P.187

(4) دار سلا تقع في الجنوب الغربي من دارفور وكانت تابعة لمملكة وداي وهي جزء من دار صليح أي الجزء الجنوبي الغربي منها، وقد اشتهرت اكثر في عصر دولة الداجو.

ينظر: تشحيذ الاذهان ص ١٤٠.

(5) فنقرو: تقع الى الجنوب الغربي من دارفور في بلاد الفرتيت بعد دار فروجية.

ينظر Macmicael. OP.Cit, p.183

(6) في الاصل "..اثنى عشر مرة.."

(7) رشيد: هو احد مصاب فرعي النيل على شاطئ البحر المتوسط وعلى شاطئه يجمع الملح ويباع في مصر.

(8) الفلقو: هو نوع من الملح يصنع محلياً في دارفور وتفاصيله كسائر مواضيع في هذا الكتاب.

وأردؤها ملح الزغاوى، وأندرها وأحسنها ملح الميدوب، وأوسطها كثرة ونفعاً الملح الفلقو، ومع ذلك فلا يحب الملح الا الأغنياء. وأما أكثر الفقراء فيملحون أطعمتهم بالرماد، وهو أنهم يأخذون الرماد ويجعلونه فى إناء مثقوب ويضعون عليه الماء فيقطر الماء من الثقب قليلا فيأخذون ماقطر منه ويجعلونه فى الطعام وقد ذقته فوجدت فيه مرارة، ولايكاد يسيغه انسان ذاق الملح[1] ويسمون الماء المذكور بالكنيو وهو ملح الفقراء، وأما الملح الفلقو فقد ذكر لى بعض من رآهم يصنعونه أنهم يأخذون تراباً خاصاً من محال معروفة عندهم، ويجعلونه فى آنية واسعة ويغمرونه بالماء، كما يفعل في ملح البارود، ثم يصفون الماء في إناء آخر مصنوعة فيه تقاعير على هيئة قوالب، ثم يترك ونفسه[2] حتى تتصاعد منه الرطوبة ويبقى الراسب في الحفر المذكورة فيجف ويخرج على هيئة أشكال أهرامية واذا تأمل فيها الانسان يجدها مبلورة بلورات غير منتظمة، لكنه ملح غير شفاف، أسمر اللون لكن طعمه جيد، وقد ذكرناه سابقاً بابسط[3] من هذا فراجعه إن شئت.

وأما الصناعات فأهل السودان وخصوصاً أهل دارفور ووداى لايعرفون الا الحياكة والحدادة والزراعة والغزل والصباغة، ويوجد فى دارفور أغراب من الكتكو يتعاطون الصباغة النيلية فيصبغون اللقدانى والتيكو، ويعرفون صناعة دبغ الجلود، ولهم فيها اتقان زائد، لتوفر أدواته عندهم، فيصنعون من جلود البقر والابل الأجربة العظيمة والنطوع الجميلة، ومن جلود الماعز القرب التى لانظير لها، والمزأود الصغيرة، ومن جلود الضأن السختيان وينوعونه أحمر وأخضر، فأما الأحمر فانهم بعد إحكام دبغه يصبغونه بالكلود، وهو ابر قصب أشبه بلب قصب البوص، لكنه أحمر قاني، فيؤخذ ويطبخ في الماء، وبعد غليانه جيداً يؤخذ ويدهن به الجلد فيصير أحمر كالسختيان الذي يصبغ بالدودة، وأما الأخضر فيصبغونه بالزقاب الذي هو أكسيد النحاس، فيصير أخضر ناصعاً، وهم عندهم

---

(١) ورد فى الترجمة الفرنسية فى هذا الشأن قوله "، وله طعم مرارة راسخة منفرة وترفع ضربات القلب.."
ينظر: الترجمة الفرنسية ص
(٢) ثم يترك ونفسه ".. أى يترك لوحده.."
(٣) المقصود بكلمة أبسط هنا: أى اكثر تفصيلاً من بسط الشيء اذا فرشه ونشره.

أغلي ثمناً من الأحمر، ومن العجب ان عندهم المنجدين لملبوس الخيل كما ينجد أهل مصر ألحفتهم، ويطرزون الملبوس تطريزاً عجيباً، وقد ذكرنا الملبوس سابقاً مع أدوات الحرب فراجعها إن شئت.

وأما بقية الصنايع المحتاج إليها في المدن فإنها مفقودة عندهم، لأن كلاً منهم يحلق رأس صاحبه، وصاحبه يحلق رأسه، فلا يحتاجون الي مزين وفي تعمير بيوتهم كل من أراد أن يعمر بيتاً أعانه فيه أصحابه، بشرط أن يكون الغداء والعشاء من عنده، وكذا من مات له ميت، فإن كلاً منهم يعرف كيفية الغسل والكفن، فينتدب أحد أصحابه خصوصاً الفقهاء فيغسل الميت إذا كان رجلاً، وان كانت امرأة غسلتها بعض العجائز، ولا يحتاجون الي نعش، بل يأتون بعودين يشبكون ما بينهما بحبل أو حبال صورته هكذا :



فيفرشون علي الحبال شيئاً ليناً ويضعون الميت علي الحبال، ويحملونه بين أيديهم لأعلي أعناقهم لتعسر ذلك عليهم، ويتساعدون في حفر القبر، وكل إنسان يحفرون له قبراً علي حدته، فلا يجمعون اثنين في قبر، ولا يأخذ الحامل ولا المغسل أجرة علي عمله، وكذلك القراءة والعتاقة والسبخ يجتمع الناس ويفعلونها بدون أجرة، وكل من أصيب أعانه أصحابه وأهل بلده طمعاً في ثواب الله لاغير، ونساؤهم لا يعرفون مما يعرفه نساء المدن شيئاً، أما الشابات الغنيات[1] فنهارهن مشغولات بزينتهن ما بين دهن وكحل وإصلاح شأن، وإن فرغت واحدة منهن من شأنها أقبلت علي مصلحة بيتها، أو ضفرت لها برشاً من خوص الدوم بعد صبغه ألواناً، فيصبغنه مابين أحمر وأخضر وأصفر، ويتقنون ضفره إتقاناً تاماً بحيث يتمني الشخص أن يفرشه ويجلس وينام عليه لحسنه، ثم تقبل علي وضع طعام زوجها وضيوفه، أما نساء الفقراء فشغلهن مع الرجال في الزرع في وقته، وبالحصاد في وقته، ويجرين النسلة في وقتها، ويجمعن القطن في وقته أيضا، وفي سائر السنة

---

(1) في الأصل: " الشابات الأغنياء ".

{تجد المرأة} مشغولة بقوت الأسرة[1]، ففي موسم الهجليج[2] تجمع الهجليج وتدخره وفي موسم النبق[3] تجمع النبق وتدخره لكنه ليس النبق المعروف، وفي أيام الدفري[4]. والأرز،كذلك، وفي أيام العندراب[5] كذلك، وفي أيام العرديب كذلك، وتأخذ الفأس وتذهب إلي الأرض التي يزرع زوجها فيها فتقطع ما فيها من الشوك وتجمعه معه، وإن كان له بنات كبار ذهبن معها، أو صغار سرحن، وفي كل مشية تأتي معها بحزمة حطب تطبخ منها وتستصبح[6] لأنهم لا يستصبحون إلا بنار الحطب، والفقراء منهم يستعينون علي معاشهم بشراء معزة أو شاة ومتي ولدت تقوتوا من لبنها، وبالجملة فعيشة فقرائهم كد وتعب شديد، هذا مع ظلم الحاكم وطلب الرجال للأعمال الشاقة، وللحرب وللخدمة، لأنهم كالعبيد له.

---

(1) في الأصل: " بقوتا ".

(2) الهجليج: شجر يكثر في دار فور ووداي، وهو من الأشجار الشوكية ينبت في مناطق السافنا الفقيرة، وهو شجر متعدد الفوائد ويكاد لا يرمى منه شيء، فأوراقه يصنع الطري منها ويطبخ في شكل أدام، يأكلونه مع العصيدة، وهذا الورق الطري يستعمل أيضاً في علاج الجروح المزمنة، فيمضغونه ويضعونه على الجرح فيبرأ، وإذا أخذ ثمر الهجليج وهو أخضر قبل النضج، وهرس في مهراس حتى صار كالعجين استعمل في غسل الثياب كالصابون، فيزيل الأوساخ، وكذلك جذور الشجرة ولحاؤها يستعملان في الغسل، أما إذا نضج الثمر، فيصير له غلاف أبيض رقيق، فيزيلونه ويمصون الثمر، أو ينقعونه بالماء، فيشربون من ذلك الماء اللذيذ، أو النشاء، وهي حلوة فيها شيء من المرارة، وهذا الماء في كل الأحوال علاج لأمراض المعدة كالمغص والنفاخ وغيره، أما خشب الهجليج فتصنع منه الألواح لكتابة القرآن، وأعواد القوس والعاريت بأنواعها، وكذلك السفاريك للصيد، والسروج والمهاريس ...الخ، ويستعمل خشبه الجاف في إضاءة البيوت لأنه لا دخان له، أما النواة فتكسر ويستخرج منها بذر أصفر يصنع ويعصر، فيخرج منه دهن يستعمل في العلاج وطبخ الأطعمة المختلفة. ينظر تشحيذ الأذهان ص ٣٠٨.

(3) النبق: وهو نوعان: العرن والكرنو، وهو أيضاً من الأشجار الشوكية، من أشجار السافنا الفقيرة، وينبت في دار فور ووداي بكثرة، ونجد إختلافاً في النوعين فمن حيث الشكل نجد العرن لونه أحمر ومذاقه حلو مع بعض الحموضة، أما الكرنو فلونه أصفر كثير الدقيق ومع حلاوته فيه مرارة، وهو أيضاً شجر متعدد الفوائد، خاصة النوع الثاني، فمن منافعه يهرس ويؤخذ دقيقه ويبل بالماء، ويعمل في شكل أقراص كبيرة ليجف، وتؤكل جافة أو تبل بالماء أو الروب وهو لذيذ الطعم، ويداوي الكثير من امراض المعدة، أما النواة، فتكسر ويستخرج منها بذر يسمى الكبا كبا، فيخلط بالعسل، وتؤكل بشراهة لحلاوتها، وتستعمل جذوعها في صنع الأسلحة والزراعة وغيرها، وهو من أشجار الظل الجميلة. ينظر: تشحيذ الأذهان ص ٣٠٩.

(4) في الأصل: " الدمرى " ولعله يقصد الدفري، أو الدفرة، أو عربيا ويسمى الكريب أيضاً وهو نبات كالأرز ينبت في الرهود، وبعد النضج يجمعه الأهالي وتستخرج منه الدفرة وتطبخ كالعصيدة، وتؤكل باللبن أو بالسمن، يحبها أهل دار فور.

(5) العندراب: وهو من أشجار السافنا، متوسط في الطول والغلظ، يحمل ثمراً كالعنب أحمر قاني ولا عجم فيه، وهو لذيذ جداً، ينضج في أول فصل الربيع. ينظر: تشحيذ الأذهان ص ٣١٠.

(6) في الأصل: " تستصبح منها وتستصبح منها " وهو تكرار مخل ومعنى تستصبح أي تستضيء.

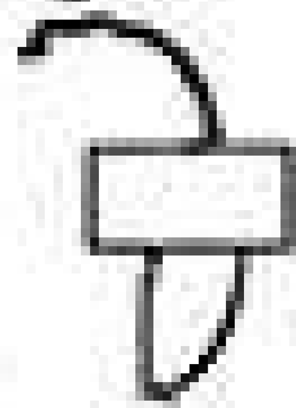
الفصل الحادي عشر

في أمراض السودان وأنواع التداوي وصحة الأقاليم والصيد

يجب علي العبد أن يعلم أن الله خص كل إقليم بما لم يوجد في غيره، وجعل في كل قبيلة خاصية لا توجد في غيرها، ولذا إذا تغرب إنسان من بلد لأخري يكون هواؤها مخالفاً لبلده فتحصل له مشقات حتي حين يتغير عليه فيعتل وربما مات، ولم يمت بطول مرضه، ولا يصح جسمه حتي يعتاد بهواء البلد التي يسكن فيها بعد طول المدة وتقوي بنيته.

ولما كان الأمر كذلك كان الأولاد الذين يتناسلون من أم وأب فوراويين مثلاً {تجدهم} أطول عمراً، فتجد الرجل له عشرة من الولد وأكثر، أقوياء أصحاء، وكذا عرب البادية هناك لا يموت الرجل منهم إلا وله أكثر من عشرة من الأولاد أو أكثر، فلو انعكس الأمر بأن تزوج فوراوي عربية تري سلالتها ضعيفة نحيفة، لا يعيش منها إلا ما قل وندر، وهذا مما يدل علي أن في البلد والجنس خاصية لا توجد في غيرهما، لأن كل ولد يولد من أبوين من فرع واحد كان أقوي بنية وأعدل صحة، وتري من انعكس فيه الأمر ضعيفاً فاسد اللون نحيفاً[1].

ورأيتهم في دار فور ووداي يستعينون علي صحة الطفل بأخذ الدم، فيأخذون الطفل حيث يستكمل أربعين يوماً من ولادته ويشرطون بطنه من الجهتين، أعني اليمني واليسري تشاريط كثيرة، وينزل منه دم كثير وحين يستكمل ثلاثة اشهر يفعلون به مثل[2] ذلك وربما هاج عليه الدم فقتله، وأكثر أمراض الطفال عندهم أبو اللسان، وصورة الألة التي يعالج بها هذا المرض تبدو هكذا

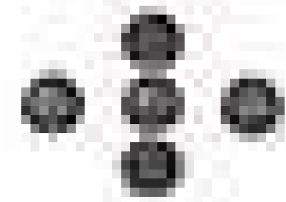


---

[1] حديث المؤلف هنا لا يتوافق مع النظرة العلمية لعلماء الهندسة الوراثية، حيث يقول هؤلاء بأن زواج الأقارب ربما يسورث بعض الأمراض التي تنقلها الأجيال بواسطة الجينات، وبالتالي فإن زواج الأباعد هو أكثر صحة وطمأنينة، وقد شجع الاسلام زواج الأباعد لما فيه من آثار صحية واجتماعية، يقول الامام الغزالي " الدنيا متاع وخير متاع الدنيا زوجة صالحة لا تنكحها قرابة، ومن الأقوال المأثورة " تباعدوا تصحوا " .

[2] في الأصل : " يفعلون به كذلك " .

وهي عبارة عن حديدة مركبة في يد من خشب ومعها قطعة خشب ناعمة، فيدخل الطبيب الخشبة أولاً حتي يوصلها الي المحل الذي فيه الزائد من الجهة الأخري، وتبقي الزائدة بين الحديده والخشبة فيُضغطا[1] معاً، فتُقْطَع الزائدة، وتخرج الحديدة والخشبة معاً، فيري علي الخشبة قطعة لحم صغيرة، ويكون الرجل الطبيبة استحضر قطعة عطرون[2]، وسحقها جيداً بين حجرين، ثم يبل الرجل أصبعه ويجعله علي المسحوق فيلتصق به، ثم يدخله في فم العليل بعد أن يكون قد أدخل الخشبة، لكن لا يوصلها الي محل الألم بل حتي يتجاوز أسنان العليل بعد أن يكون قد ادخل الخشبة ثم يدعك محل القطع بالمسحوق الذي علي أصبعه دعكاً جيداً، فيبرأ العليل بذلك، فاذا تُرِكَ أبو اللسان المذكور انحل جسم الطفل، ونشأ عنه إسهال عجيب فيكون سبباً في قتله.

ويليه مرض آخر يسمي عندهم أم صقّع، ولا يعتري إلا الأطفال أيضاً وهي استرخاء يقع في اللهاة تحدث فيها[3] بثرة فلا يشرب العليل اللبن ولا يأكل ويصفر لونه، فيدعون له الطبيب[4] فيأتي ويسحق النطرون كما تقدم، ويضع الخشبة وحدها فى فم العليل، فينزل منها دم وقيح، ثم يغمس أصبعاً مبلولاً بريقه فى النطرون ويحك به البثرة واللهاة، ويفعل[5] ذلك ثلاثة ايام فيبرأ العليل، وقد يقع للطفل إسهال مفرط لكن ينظر فى الطفل فإن كان ابن سنتين ووجدوا المقعدة بارزة من محلها حكوها بشفقة حتي يفقأوا مافيها من البثور، وينزل منها دم كثير، ثم يقللوا[6] للطفل الطعام فيبرأ، وان كان صغيراً كابن سبعة أشهر أو ثمانية أو نحوها كووه حول السرة أربع كيات هكذا 

---

[1] في الأصل: " ويتكا عليها معاً ".

[2] في الأصل: " ويكون قد استحضر علي قطعة عطرون صغيرة ".

[3] في الاصل: " وبثرة احدث فيها ".

[4] في الاصل ".. فيدعون له بالطبيب

[5] في الاصل ".. لكن يفعل ذلك ثلاثة ايام،.."

[6] في الاصل "..ويقللوا مايأكله فيبرأ.."

أعني تكون السرة في الوسط ويكون أعلاها وأسفلها وأنسيها وحشيها[1]، وقد يعترى الأطفال المرض المسمى بالغُزَيْل وهو مرض ناشىء عن إصابة في المخ فيجعل[2] الطفل يعبث بيديه ورجليه على غير الحالة المألوفة، وأهل مصر كأهل تونس يقولون إنه من الجان، وذلك حين يترك الصبي وحده في محل فيعتريه هذا الحادث، فيقتل في مصر وتونس وبلاد المغرب أطفالاً كثيرة، فأما أهل مصر فيستعينون في علاجه بالكتابات، لاعتقادهم أنه من الجان فيأتون لمن له شهرة في الرقى والتمائم فيكتب للعليل ويرقى، وهذا قد يصادف أن العليل يخف ألمه وقد لاينجح، وأما أهل السودان فيعالجونه بالكي في الجبهة، بأن يأتوا[3] بلب قصبة من قصب الدخن ويلامسون بها النار حتى تأخذ فيها وتبقى لها زهرة كزهرة الشمعة التي تقطر، فيكوون العليل بها فيبرأ لوقته.

ومن أمراض الأطفال هناك أيضاً أبوصفَيْر وهو مرض يعترى الطفل فيفسد لونه ويصفر صفرة ظاهرة وهو المسمى في كتب الطب باليرقان الأصفر.

وهناك أمراض الصغير والكبير فيها على حد سواء، وفيها الورْدة وهي الحمى، ولايكاد ينجو منها أحد في كل سنة، وتتسلطن عندهم في أيام الخريف وأول الربيع المسمى عندهم بالدرت[4]، وهو وقت خريفنا وتتنوع:

فمنها حُمّى الورْدة، والتي تأتي في كل يوم في ساعة معينة، ومنها حُمّى الغِب (أو الغبية) وهي التي تأتي يوماً وتغيب يوماً، ومنها حمى التثليث، وهي التي تأتي بعد كل يومين، ومنها حمى الربع وهي التي تأتي بعد ثلاثة أيام، وهي أقوى أنواع الحمى، وأقل منها بدرجة حمى التثليث. ومنها الحمى المطبقة، وهي التي لاترتفع عند صاحبها الابالشفاء أو الموت وتسمى في مصر بالنوشة وهي في عرف الأطباء التهاب معدي وكلها عند أهل السودان تسمى بالوردة ولايميزون فيها.

---

(1) أي وأيمنها وأيسرها

(2) في الأصل "... فيترك الطفل يعبث..."

(3) في الأصل "...يأتي بالوتد..."

(4) الدرت: في مصطلح ولغة أهل دارفور معناه الفترة التي تلي الخريف وتنضج فيها الزروع وتظهر المحاصيل ويمتد عادة بين شهري سبتمبر ونوفمبر.

ومن الأمراض العامة الوبائية عندهم: الجدرى، وهو عندهم كالطاعون في مصر، ويشتد خوفهم منه لأنه قتّال جداً، وكل من مرض به منهم أخرجوه من البلد الى محل آخر في الخلاء، وبنوا له عشة تسمى عندهم بالكربابة، وتركوا عنده من يخدمه ممن يكون قد مرض بالجدرى (من قبل)، وكلما مرض آخر نقلوه اليه وهذا هو الكرنتينة بعينها.

تنبيه:

أخوف أهل السودان من الجدرى أعراب باديتهم لأن الجدرى اذا دخل في حي من أحيائهم أفناه، ولذلك تراهم أخوف الناس منه، ولقد أخبرني رجل من أكابر البرقد يقال له علي ودعلُو انه كان قد مرض بالجدرى وقاسى ماقاسى ثم شفاه الله، فلما قشر جدرية وقبل أن يندمل صار يؤذيه الذباب، فكان يتلثم لذلك قال: بينما أنا ذات يوم متلثم واقف على باب دارى إذْ رأيتُ أعرابياً قد جاء يمشي مشية الخائف، فلما رآني أقبل عليّ حتى دنا مني وسلم، ثم قال: أماناً عليك[1] هل في ناحيتكم هذه يوجد جدرى، فقلت: كفانا الله شر الأمانة، ورفعت اللثام عن وجهي فحين رآني صاح صيحة عظيمة وسقط على الأرض، فجاء لصيحته إخوانه من الأعراب فرفعوه وذهبوا به، وكنت أنا حين جاء إخوانه فررت لئلا يقتلوني، فبلغني بعد ذلك أنه مات بعد ثلاثة أيام.

ومن خرافات أهل السودان أنهم يقولون ان الجدرى حيوان لايشاهد إلا أثره ويعلق بالإنسان فيقتله، وسمعت من كثير منهم أنه رأى أثره ويتواطؤون على ذلك ويُصَدّقُ بعضهم بعضاً، وسألتهم عن أثره كيف هو؟ فقالوا[2] أثره نكت مستديرة متوالية هكذا ○○○○○○○

على سطر واحد، فأصبحنا ورأينا ذلك الأثر وقد[3] دخل في كل بيت وأصاب أهله.

---

[1] أماناً عليك "كلمة يقسم بها أهل دارفور ووداي ومعناها لوثة ذمة فاذا استقسم بها انسان لايستطيع أن يكذب..."

[2] في الأصل "... فقال..."

[3] في الأصل "...أصبحنا ورأينا ذلك الاثر داخل فيه..."

عجيبــة:-

أخبرني القاضي الدليل قاضي القضاة بمملكة الوداي حين جاء الى القاهرة سنة ١٢٥٧هـــ سبع وخمسين ومائتين وألف (١٨٤١م) أن المرض المسمى لهيضة وأهل مصر يسمونه الهواء الأصفر، الذي كان قد أتى الى مصر من الحجاز سنة ١٢٤٧هـــ سبع وأربعين ومائتين وألف (١٨٣١م)، ذهب الى بلادهم وخربها وقتل منها عالماً كثيراً[1]، وكنا نظن أنه لايصل الى هناك، فسبحان الفعال لمايريد لامعقب لحكمه، ومن الأمرض العامة الكثيرة الحصول عندهم المرض الأفرنجي، ويسمى عندهم بالجقيل[2] وكثرته عندهم لكثرة الفساد وليس لـــه دواء عندهـــم الا الكي.

وصفة هذا الكي أنهم يأتون بحديدة وهي المسماة عندهم بالحشاشة، وهـــذه الحديدة مستطيلة مفرطحة عرضها بنحو قيراطين وطولها بنحو خمسة قراريط أو ستة فيحموها بالنار حتى تحمر، ولها صورة أنبوبة مركبة في وسطها بـــالعرض، فاذا احمرت الحديدة أخرجوها من النار وصبوا على الأنبوبة ماء قليلاً ثم يدخلون في تلك الأنبوبة عوداً يرفعونها به ويكوون به المحل الذي ظهر فيه الداء من غير استثناء، ومتى ماشهد ذلك الداء على أحد وله أهل كووه ولو قهراً عنـــه، وبـــهذه المعالجة شفاه الله بأقرب زمن.

وهذا المرض في كردفال أكثر من دارفور، وفي دارفور أكثر من الوداي حتى أنه في الوداي لايسمع بانسان مرض بهذا الداء الانادراً، وسبب كثرته فـــي كردفال انّ من أصيب منهم به، يعتقد أنه كلما اعدى غيره به يخف عنـــه، مـــاهو فيه، ولم يدر أنه لو أعدى مائة ألف لم ينقص ماهو فيه شيء، فـــترى المريـــض منهم سواء كان امرأة أو رجلاً يعدى خلقاً كثيرا، فلذلك كثر عندهم.

---

(١) في الأصل "... وقتل منها عالم كثير..."

(٢) الجقيل: من الأمراض الخطيرة التي تنتقل بواسطة العملية الجنسية للرجال والنساء ويظهر في شكل جروح في الجسم وهو من الأمراض التي تؤثر فيما بعد على الأعقاب والآن قد اختفى كثيراً في كل انحاء السودان وذلك بسبب الرعاية الدينية والصحية في المجتمع.

وفي دارفور وإن كان كثيراً، لكنه لما كان منهم من لايستحي أن يراه الناس مريضاً فيعدي غيره، وهو قليل، ومنهم من يستحي من ذلك فيجلس في بيته حتى يبرأ وهو كثير فقل عندهم.

واما في الوداي فكل من مرض به لزم محله حتى يبرأ، فكان وجوده نادراً ومنه الحَصَرْ وهو السيلان الأبيض، ومثله الهبوب وهو ريح ينعقد في البطن السفلى من المرأة أو الرجل، وأكثر مايوجد في النساء، ويقولون: إنهما معديان.

ومن الأمراض الفاشية عندهم الجذام، وهو تأكل مارن الأنف وأطراف الأصابع وكذلك البرص، الا أنه أقل.

ومنها ابوالصفوف، وهو ذات الجنب، وعلاجه عندهم بالتشريط على الأضلاع، فيشرطون أربعة[1] أو خمسة كل صف أربع شرطات أو خمس[2] هكذا

ويدعكون المحل بالملح بعد التشريط ويمسحونه بالنطرون فينزل من الفتحات دم كثير فيبرأ المصاب.

ومنها الفرنديت، وهو كثير عندهم ويسمى في مصر بالفرتيت وهو ورم يحدث في الساق أو اليد، أو في محل آخر، فيتكون فيه قيح فيُبَعّج ويخرج من محل البعج خيط أبيض طويل شبيه بالعصب، الا أنه غير متين كالعصب والظاهر أنه حيوان، لأنه يخرج ويدخل، وعلاجه البعج والتدفئة. ومن الأمراض العضوية عندهم السوتية، وهي مرض يخص الركبة، وهو ورم كالفرتيت، إلا أنه لايظهر له خيط ويتكون داخله قيح كثير، ولايبرأ حتى يبعج المحل بعجاً غائراً ثلاثة صفوف، في كل صف ثلاث بعجات، أو أربع فينزل منها قيح كثير وبالتدهين بالسمن والتدفئة يبرأ العليل. ومنها الدُّقْرى، وهو مرض الساق على طولها، وهو ورم

---

[1] في الأصل "... أربع صفوف..."

[2] في الأصل "... أو خمسة..."

كورم السوتية إلا أن هذا يمتد على قصبة الساق، وذلك مقصـــور علـــى الركبـــة وعلاجه كعلاج السوتية الا أن البعج يكون صفين من وحشية الساق، وصفين من انسيتها[1] ، ومن الأمراض عندهم التى تصيب الأطفال الحصباء، والبُرْجُك وهى القرمزية.

ومن الأمراض العامة وجع الطحال، أعنى كـــبرة، والاستســـقاء بأنواعـــه وأغلب الأمراض عندهم إلا الطاعون والسل، فلا يوجدان وإن وجد السل فنـــادر. واما الجراحة فمتقدمة بينهم لكثرة الفتن والحروب، فتراهم يخيطون الجروح حتى أن من خرجت أمعاؤه يردونها ويخيطون عليها، ويبرأ المريض. وكـــذا يـــداوون الشجاج بأنواعها[2] وقد ذكرنا سابقاً أن هناك أناساً يسمون الشلاتجين[3] يعملـــون عملية الكتَرَاتَا من العين مع المهارة التامة، ولكن لا أعلم كيفية العملية، ولا الآلات المستعملة عندهم لذلك وأعرف منهم رجلاً شهيراً يسمى الحاج نور، غـــير أنـــهم لايستعملون البتر ولا القطع ولا الاستئصال، وأمراض الادرة[4] قليلة عندهم، هذا ما انتهى اليه علمى فى ذلك.

وأطباؤهم مسنوهم، فلا تجد طبيباً شاباً إلا نادراً، ومن برع فـــى صناعـــة الطب يهرع اليه الناس ولو من مسافة أيام ويكرمونه إكراماً تاماً، وأكثر أدويتـــهم التشريط والكى، ولايستعملون للباطن[5] الا التمر هندى والعسل النحلى والســـمن البقرى.

عجيبـة

أخبرنى شيخى الفقيه مدنى الفوتاوى– عليه سحائب الرحمـــة، أنـــه كـــان أصيب بالنقرس الذى هو وجع المفاصل، وهى المسمى فى كتـــب الطـــب بـــداء الملوك وأن أعرابياً من البادية وصف له الوقوف فى السمن البقرى، وسُخّنَ على

---

(1) الوحشى من الساق ظهرها، وانسيها، ماأقبل عليك منها، ينظر: القاموس

(2) فى الاصل "... بانواعه."

(3) الشلاتجين: جمع مفرده شلاتج وهو لفظ فوراوى معناه طبيب العيون.."

(4) الادرة.. الفتق، والمأدور هو من اصيبه بفتق فى احدى خصيه (القاموس) تشحيذ الأذهان ٢٧٧.

(5) الباطن أى امراض البطن.

النار حتى ذاب ذوباناً تاماً، فنُزّل عن النار وتُرِكَ الى أن هــدأ وصــار يتحملــه الانسان فَرُبِطَ لي حبل في سقف البيت، وصار[1] طرفاه بيدي، وأفرغ السمن فــي قصعة كبيرة، وغسلت رجلي ووقفت في السمن، ومسكت الحبل المذكــور فكــان معيناً لي على طول الوقوف قال: فلم أشعر الا والسمن يسري في جسمي كسريان السم، غير أنه أولا صعد الى ساقي ثم الى ركبتي ثم الى فخذي، ثم ســرى فــي النصف الأعلى فصرت أحس به يصعد في جسمي شيئاً فشيئاً حتى وصــل الــى عنقي، فأخذني دوار[2] وغشي علي، وكدت أسقط، فتلقاني الخدم ودثرونــي فــي ثيابي، وأضجعوني على فراشي وأنا لا أشعر بشيء من ذلك، فظللت نهاري كلــه وليلي كله كذلك ثم أفقت عند الصباح، وأنا ناشط كأنما انحليت من عقــال بعــير، ورأيت أنه خرج مني عرق كثير كريه الرائحة وبذلك شفاني الله تعالى.

وأخبرني غير واحد أن أهل البادية كذا يفعلون حتى بلغ هذا الخــبر مبلــغ التواتر، ولكونهم يتعاطون السحر كثيراً يتدأون بالكتابة وعندهم أناس مشهورون بذلك وأكثرهم شهرة الفلاتا.

وكيفية الولادة عندهم اذا أخذ المرأة الطلق أتاها بعض العجائز من النســاء وربطوا لها حبلا في سقف البيت فتمسكه وهي واقفة، وتعتمد عليه كلما اشتد بــها الوجع وتفرج بين رجليها حتى يسقط المولود فتتلقاه احدى النســاء الحــاضرات، وتقع سرته ويضجعن الباقيات النفساء[3] على فراشها.." فاذا تم للمولود[4] أســبوع عملوا له عقيقة، كل إنسان على قدر حاله، فتجتمع النساء عند النفساء والرجال مع الرجال ويكون قد ذبح (أبوالمولود) شاةً فتأكل النساء والرجال لحم الشاة ويسمون المولود، ثم يتفرقون، ويطعمون النفساء في ذلك الأسبوع عند الصباح المديدة وهي الحريرة بلغة أهل مصر، والحسو بلغة أهل المغرب، والكريم بلغة الافرنج، وعند الظهر لحم دجاجة إن كانوا أغنياء، فان كانوا فقراء[5] فالمديدة أيضاً، وهي مركبة

---

[1] في الأصل "..وصارت طرفاه.."

[2] في الأصل "..فأخذني دوران.."

[3] في الأصل "..وتقطع سرته وتضجعها على فراشها.."

[4] في الأصل "..فاذا تم للولد اسبوعاً.."

[5] في الأصل ".. فان كانوا فقر.."

من دقيق الدخن ودقيق التبلدى والهجليج، فان كانت من الهجليج كانت بها مرارة[1] وان كانت من التبلدى كانت حامضة، فان تم للمولود شهرين أو ثلاثة حملته أمه على ظهرها وربطته بثوبها ويسمي ذلك الحمل، قوقو، فتحمله كذلك وتذهب الى شئونها من زرع وماء وحطب حتى يشب، ومن عادتهن أنهن يرضعن أولادهن حولين فاقل كالاسلاميين[2]

ولايزوجون بناتهم إلا اذا بلغت البنت الحلم وعرفت منفعة الرجل، ولقد مكثت عندهم سبع سنين، مارأيت عروساً تزوجت قبل بلوغها، وإن عقد عقدها قبل البلوغ لايبنى بها الرجل إلا بعد بلوغها، لأن عادتهم أن الرجل يملك ويترك (عرسه) مدة، فمنهم من لايبني بعروسه إلا بعد سنتين ومنهم بعد ثلاث، والمستعجل منهم يبنى بعد سنة (لأنهم لايملكون عليها الا اذا نهزت البلوغ، هذا في البكر) وأما الثيب فيبنى بها الرجل يوم ملاكه أو غده.

وأما قراءة القرآن فمتأخرة جداً لأنهم لايقرأون القرآن الا بالليل في المكاتب[3] فيكون الصبي في النهار سارحاً بماشيته من غنم وبقر، وبعد أن يرجع في المساء يأخذ لوحه ويذهب (الى المسيد)، وعلى كل صبي الاتيان بالحطب يومياً، فيوقدون النار ويحيطون بها فيستضيئون بنورها وعلى ذلك الضوء يحفظون ويكتبون، وحفظهم غير جيد، قلة كان من يحفظ القرآن منهم حفظاً جيداً.

وأما قراءة العلوم فمتأخرة أيضاً لعدم العلماء، وأكثر قراءتهم للفقه والتوحيد وأما المعقول[4] فقليل جداً ومع قلته لايقرأون الا قليلا من النحو، وأما المعاني والبيان والبديع والمنطق والعروض فلايعرفون فيه الا الاسم، ومن يعرفه منهم يكون قد تغرب لبلد آخر كمصر وتلقاه فيها، فاذا رجع الى بلده كان هو العالم.

---

[1] في الأصل "..كان لها مراراً.."

[2] عبارة "كالاسلاميين" ربما تكون مترجمة من الأصل الفرنسي والمقصود بها هو أنهن يرضعن أولادهن حولين كما هي تعاليم الاسلام وتطبيقات المسلمين.

[3] يقصد بالمكاتب الكتاتيب أو الخلاوى التي يدرس فيها التلاميذ الصغار القرآن ومبادئ القراءة والكتابة وهي منتشرة في كل انحاء دارفور ووداي.

[4] المقصود بالمعقول هو العلوم العقلية كالرياضيات والفلسفة وغير ذلك.

وأكثر مايعانونه (الطب) الروحاني والسحر ويسمون علم السحر علم الطب، ومن مهر فيه سمي طباني، وهذا العلم يوجد عند الفلان أكثر من غيرهم، وقد ذكرنا سابقاً مأوقع من الفقيه مالك في أولاد السلاطين (وكيف) سحرهم حتى رجعوا الى الفاشر بعدما هربوا منه، ومأوقع من الفقيه تمرّو فلا فائدة للاعادة.

تنبيه:

اعلم أن دارفور وان كانت كلها اقليماً واحداً ومملكة واحدة فهواؤها مختلف وأصحها القوز، فلذلك تجد مَنْ فيه منْ من أعراب البادية أقوياء أجرياء[1] لسلامة أرضه من العفونات والوخم لكن ماءه قليل، فقد ذكرنا سابقاً أن منهم من (يكون) بينه وبين الماء مسافة يومين وأكثر.

ويليه في الصحة بلاد الزغاوة والمسماه بدار الريح، فلذلك تجد الزغاوة والبديات القاطنين بها في غاية القوة وسلامة الأعضاء، وأردؤها هواءً الصعيد، لكثيرة مياهها ووخمها وعفونتها، لكن لاتكون أرضه وخيمة إلاعلى مَنْ لم يعتدها، وأما المولود فيها فتراهم أصحياء أقوياء لكن عندهم الحمى كثيرة، وارداً من الصعيد المدن، وأقواها الفاشر ويليه كوبية وكبكابية واماسلا وفنقرو وبينجا وشالا فأوخم الأماكن كلها، لكثرة الرطوبة عندهم، (واستمرار الأمطار لأنها لاتنقطع في السنة الامدة شهرين أو ثلاثة)[2]

ومع مافي دارفور مماذكرناه من الأمراض، كل منهم يحب وطنه ويألف سكنه، واذا تحول الى غيره يبكي عليه ويتمنى الرجوع اليه، وهذه غريزة جبل عليها الانسان وانطبع عليها الجنان من قديم الزمان، فلذلك كان المصطفى عليه الصلاة والسلام يحن الى مكة حنين المشتاق ولولا أن الله أمره بسكن المدينة لأقام في مكة بعد الفتح باتفاق.

---

(1) اجرياء : يقصد سريعي العدو.

(2) مابين الحاصرتين ( ) ساقط.

لكن من حيث أنّ أمراض بلاد السودان لم تكن وبائية قتالة كانت أعمارهم أطول من أعمار غيرهم، فلذلك تجد فيهم المسنين حتى تجد من تجاوز المائة وعشرين سنة، وأما أبناء السبعين والثمانين والتسعين فلايكاد يحصرهم العد، ولايوقف لكثرتهم على حد، هذا مع مابتلوا به من الفتن والحروب والمحن، لأن كل قبيلتين منهم بينهما دم مسفوك، وثأر مطالب به غير متروك، كما بين السيرتي والزيادية، وبني عمران[1] ، والميمة والفلاتا، والمساليت والمسيرية، والحمر[2] والرزيقات، والمجانين[3] وبني جرار[4] ، والزغاوة والمحاميد، ممالايكاد يحصى، هذا خلاف فتن الملوك وخلاف مايصير من القتل في مجلس الشراب، أو في المعاندة على الكواعب الأتراب، ولولا ذلك لكانوا في الكثرة كيأجوج ومأجوج، وضاق بهم الفضاء والمروج.

فان قلت: اذا كان الأمر كما ذكرنا فمابال النساء العجائز قليلات مع أنهن لايقاتلن ولايحضرن قتالا ولاحروباً فلو كان ماذكر صحيحاً في عدم كثرة الرجال كان وجود النساء المسنات كثيراً مع أنهن مثلهم أو أقل؟ قلت: لما كُنَّ يَجْزَعْن على من قُتِلَ لهنّ من الرجال، ويتحملن بعدهم الضرَّ والنكال، كن عرضة للأمراض الرديئة الجالبة للمنية، بسبب مايحصل لهن من الانفعالات النفسانية ومع ذلك[5] هُنّ أكثر من الرجال المسنين (ولقد كنت في بلدة أقل عماراً وسكاناً وهو أبو

---

[1] بنو عمران: يذكر هؤلاء ان أسلافهم قدموا من دراو بصعيد مصر وكانوا تجاراً ورجال طرق صوفية منذ سبعة أجيال مضت، وانتشر معظمهم في وسط كردفان وسط قبيلة الجوامعة وغيرها في حين استقر البعض الآخر في شرق دارفور عند حدود كردفان. ينظر: Macmicael. Op.Cit.P.249

[2] الحُمُر: من مجموعة القبائل العربية التي دخلت السودان من منطقة شمال افريقيا مروراً بالسودان الأوسط واستقروا في البداية في دارفور ثم انتقلوا شرقاً وحلوا بجوار اخوانهم من الحوازمة والاماندة والمسيرية وتركزوا في منهل ابوزيد الحالي ثم انتشروا في كل منطقة شمال كردفان، وهذه القبيلة لها أكثر من ثلاثين فرعاً يشتغلون بالرعي والزراعة والتجارة ومن اكبر اسواقهم سوق الابيض وعاصمة تجارة ولسوق الصمغ العربي والنادية واقسامهم الرئيسية ثلاثة هي: العساكرة والدقاقيم والغريسية. ينظر: احمد عبدالله آدم، المرجع السابق ص٤١١.

[3] المجانين: شعبة من قبيلة دار حامد التي تنتسب الى فزارة ودخلوا السودان عن طريق الغرب مع اخوانهم من قبائل جهينة واستقر قسم منهم في وسط كردفان ودار حامد ينظر: Macmicael. Op.Cit.P.256

[4] بنو جرار: يرى ماكمايكل انها ضمن مجموعة فزارة التي انحدرت الى السودان من صعيد مصر في القرن الخامس عشر الميلادي (٩هـ) وكانت من أقوى قبائل دارفور وكردفان وموطنهم الان في الحدود بين دارفور وكردفان. Macmicael. Op.Cit.P.257

[5] من كلمة "ومع ذلك" وحتى نهاية الفصل سقط في الاصل ونقل من تشحيذ الاذهان والترجمة الفرنسية.

الجدول ورأيت فيها من المسنين والمسنات كثيراً، وكلما دخلت حلة أرى فيها أكثر من ذلك، مع أن معيشتهم في غاية الانحطاط، لو تناول منها أحد من أهل بلادنا مرة واحدة لذهب منه النشاط، لأن أكثر مآكلهم إما مُرّة أو متعفنة، ويرون أن هذه هي النعمة المستحسنة.

وكنت حين حللت ببلادهم، ولم اعتد باعتيادهم صنعوا في الدار ويكة[1] ودعوني أن آكل منها فأبيت، ولما سمع والدي بذلك قال لي: فاذا لم ترض أن تأكل من هذا الأدم فلم جئت الى هنا؟ وصار متحيراً، فكان يتكلف ويصنع لي أرزاً بلبن، ولما توجهت الى الفاشر ونزلت في بيت الفقيه مالك الفوتأوي لأحضر العشاء فرأيت الأدم مُرّاً فسألت: ماهذا؟ فقيل لي هذه ويكة الهجليج، فأبيت أن آكل منها، فجاءوني بأدم آخر فشممت منه رائحة منتنة فقلت: مالهذا منتن؟ فقيل لي هذه ويكة الدودري، وهي جيدة عندهم، فأبيت أن آكل منها، فأخبر الفقيه مالك بذلك، فأرسل لي لبناً حليباً فيه عسل، فأكلت منه، ولما حضر في ديوانه للسمر قال لي: لِمَ لَمْ تأكل من ويكة الهجليج أو الدودري؟ فقلت له: إحداهما مرة وثانيتها متعفنة، فقال هذا هو الطعام الذي يصلح في بلادنا، ومن لم يأكل هكذا يخشى على نفسه من الأمراض[2].

والدودري ويكة تتخذ من عظام الغنم والبقر وسائر الحيوانات وهو أنهم يأخذون عظم الركبة وعظم الصدر ويجردون ماعليها من اللحم ثم يضعون العظام في خابية ويتركونها أياماً حتى تتعفن فيخرجونها ويهرسونها في هاون[3] حتى ينهرس العظم في اللحم ويصنعونه كرات في جرم البرتقال الكبير، فاذا أرادوا

---

[1] الويكة: أو الملاح هي الادام الذي يستطعم به الناس أكلهم، والويكة في الغالب تؤكل في دارفور بالعصيدة وتصنع الويكة عادة من ملوق البامية الجافة بالاضافة الى الشرموط وهو اللحم المجفف (القديد) اضافة الى الدهن حيا كان أو زيتاً، وتشكل العصيدة بالملاح الوجبة الغنية لدى أهل دارفور ووداي.

[2] ملاحظة المؤلف حول الطعام المر والمتعفن في دارفور ووداي حقيقة لكن هناك مبررات لهذه الملاحظة ذلك ان هذه البلاد طقسها حار وبالتالي فان الطعام سريع التغير والتعفن ولهذا يلجأ الناس الى تجفيف اللحم والخضر وتخزينها حتى يحتفظوا بطعامهم في هذه الحالة الطبيعية لأهل السودان في ذلك الزمان بالاضافة الى ان الطعام الذي يمتزج بالمرارة وشيء من العفونة يفتح الشهية خاصة في مثل هذه البلاد.

[3] الهاون: هو الفندك أو الهراس وهو على نوعين احدهما لهرس الغلال وتنظيفها وكذلك مستلزمات الملاح والثاني لهرس البن والبهارات وغيرها من مستلزمات القهوة والشاي.

الطبخ أخذوا قطعة من كرة وذوبوها في الماء، فإن كان فيها قطع من عظم صفوها من مصفاة، ثم صبوا ذلك الماء في القدر ووضعوه على النار حتى يصير له قوام، فيأتون بقدر صغير يقطعون فيه قليلاً من البصل ويقلونه في قليل من السمن، ويضيفونه لذلك (الماء) ويضعون فيه شيئاً من الملح والفلفل والكُمّبَا، إن وجدت، وهذا طعام لايوجد إلا في بيوت أمراء الفور.

وأما ويكة الهجليج فلايخلو إما أن تكون من الورق أو من الثمر، فالتي من الورق هي انهم يجنون الوريقات الطرية الحديثة ويدقونها، وتوضع في القدر على النار، وتحرك بالمسواط حتى يمتزج مع مافيه من الماء والدهن.

وإن كانت من الثمر فكيفيتها أنهم يأخذون الثمر وينقعونه في الماء ثم يهرسونه باليد، حتى يذهب لحمه، كله في الماء، ويأخذون ذلك الماء ويصفونه في قدر، فإن كانوا فقراء وضعوا عليه قليلاً من الشحم وأكلوا، وإن كانوا أغنياء قادوا النار حتى يصير له قوام، ثم عملوا تقليه كالتي ذكرناها في الدودري وأضافوا لها لحماً مدقوقاً من القديد، وصبوا فيه الماء، وتركوا الجميع على النار حتى يحصل الامتزاج التام فتنزل عن النار وهذه من أعظم ويباكهم[1] هذا طعام أغنيائهم، وأما فقراؤهم، فقد ذكرنا سابقا أنهم يأكلون الدخن بغير تقشير، وأن أدمهم قبيح جداً لأنه إما "كَوَل[2]" أو ورق الهجليج الصغير الطرى، والمسمى عندهم ب "النيلمو" أو تفل السمسم أو ثمر الهجليج الاخضر المسمى "عنقلو" أو ثمره الناضج، وملح كل ماذكرنا الرماد المسمى ب "الكنبو" لقلة الملح وغلوه.

وأترف الفقراء من تكون له شياه أو بقرة يحلب لبنها، ويأخذ زبدة ويأتدم بمحيضه، ولايعرفون اللحم الا بعد أشهر، إن ذبحت في البلدة بقرة أو ثور

---

[1] ويباكهم: الوياك جمع ويكة وهي الادام كما سبقت الاشارة وتطلق الويكة ايضاً في السودان على البامية الجافة ونظراً لطبيعتها على مكونات الملاح الاساسية اطلق عليه اسم الويكة خاصة في دارفور ووداي.

[2] الكول: وهو نوع من مشتقات الادام الاساسية، ويصنع من نبات يسمى الكول ينبت عادة في المراعي القريبة وشواطئ الوديان ولاتأكله الحيوانات فتقطع أوراقه الناعمة وتهرس في الفندك حتى تصبح في شكل عجينة ثم تخمر في داخل الارض حتى تصبح رائحته منتنة جداً ثم يجفف في شكل كرات صغيرة سوداء قوية الرائحة ويوضع عادة في الملاح ليعطيه نكهة شهية خاصة مع العصيدة، فيأكل الناس منها كميات كبيرة وقد أثبتت الأبحاث العلمية الحديثة فوائده الصحية الجمة للانسان.

واقتسموها، فيأخذ الفقير منهم قسماً على قدر حاله بأمداد[1] من الدخن لاشيء آخر، ولذلك تجد أكثر شبانهم يعانون (من) القنيص[2] .

وقد ذكرنا سابقا أيضاً أنه في كل سبت يضرب الورنانج[3] طبلة ويخرج الشبان كلهم معه للصيد، فكل منهم يأتي في المساء بما تيسر معه، لأن غاباتهم فيها كثير من الحيوانات الوحشية، فأكثر مايصيدونه الأرنب ثم الغزال ثم أبوالحصين[4] ثم بقر الوحش[5] وان وجدوا تيتلا مريضاً أو أخذوه على غرة قتلوه واقتسموا لحمه.

والتيتل حيوان وحشي على صورة البقر الأهلي، الا أنه أصغر جرماً فأعظمه كالعجل، وله قرنان صاعدان مائلان قليلاً، إما للخلف أو للأمام طولها بنحو شبرين وأقل، ومع وحشيته فيه نوع من البلادة، فلا يفر إلا من أناس كثيرين، وأما من رجلين أو ثلاثة فلا يفر، بل يثبت مكانه وينظر اليهم نظرة المتأمل. ومن عادة الفور أنهم إذا رأوه ينادونه بصوت عال ياتيتل يا كافر! فيصير شاخصاً اليهم كأنه غير مكترث بهم، فلا يبرح من مكانه الا اذا دنوا[6] اليه دنواً كلياً فحينئذ يمشي رويداً رويداً، فان رآهم جدّوا في طلبه هرول.

والفرق بين التيتل وبقر الوحش المعتاد، أن التيتل وان كان نوعاً من بقر الوحش، الا أنه أصغر حجماً، وقرونه تنبت معتدلة كقرن الغزال، وبين القرنين من أعلى انفراج كثير، ولون التيتل أصفر كله.

واما البقر الوحشي فمنهم الأسود والأصفر والأبلق الذي لونه مختلط ببياض كثير، وقرنه كقرون البقر الأهلي في الغلظ والاعوجاج، وحجمه كحجم البقر ايضاً وبهذا تعلم ان التيتل نوع من البقر وبينه وبين البقر الفروق المذكورة.

---

[1] الأمداد: جمع مدّ من المكاييل والمد في دارفور ووداي يساوي اثني عشر رطلاً من الذرة.

[2] القنيص: أي القنص حسب اللغة الدارجة في دارفور وهو الصيد.

[3] الورنانج: في دارفور هو رئيس الرجال، وهو الذي يجمعهم في المناسبات الاجتماعية كالعيد والزواج والنفير في اعمال البناء والزراعة والنساء رئيسة تسمى المِرَم وبالتالي ينسق الورنانج مع المرم في تلك المناسبات.

[4] ابوالحصين: حيوان صغير كالثعلب، (الفسوة) يصدر الفاظاً كثيرة في الارض حين تسخنه عند النواصيها وهكذا حتى (ابوالحصين) وهو ينامأ بعد الاغارة ليلاً على الكتاكيت فيأكلها، وقد سبقت الاشارة اليه في هذا البحث.

[5] بقر الوحش: يطلق عليه في دارفور ووداي اسم الجاموس.

[6] في الاصل "... اذا يدنون اليه..."

وهناك أناس مشغولون بصيد الحيوانات لا حرفة لهم سواها، وكل منهم قد أعد لذلك عدة، فأما الشبان فيستعينون على الصيد بالكلاب والسفاريك[1] لاغير.

وأما الحدادون فيحتالون على الصيد وهم على قسمين:

منهم من يتمحض لصيد ذوات الاربع كالغزال وبقر الوحش والفيل والجاموس والضباع والسباع والخرتيت ونحوها وهؤلاء يجتمعون فرقاً فرقاً كل فرقة منهم خمسة أنفار أو ستة فيأتون للطريق التي يمر عليها الفيل وغيره حين وروده الماء، ويحفرون فيها حفرة عميقة أطول من قامة، ويدقون في مركزها وتداً مذبب الرأس حاد السن كالرمح، ويصلبون على الحفرة أعواداً ضعيفة ويغطونها بالحشيش، ثم يغطون الحشيش بالتراب، فتأتي الفيلة أو السباع أو بقر الوحش أو الجاموس أو الخرتيت، واردة الماء، فتمر على تلك الحفرة، فمتى ماثقل على الأعواد الوطىء تكسرت تحت أرجلهم وسقط في الحفرة منها حيوان أو اثنان، فمتى نزل الحيوان بثقله على الوتد الذي في المركز دخل ذلك الوتد في لحمه فلا يقدر أن يتحرك حتى يأتي صاحب الحفرة فيتم قتله ويأخذ لحمه بعد سلخ جلده، فيعملون اللحم قديداً وهو المسمى عندهم بالشراميط، لأنهم يشرمطونه أي يقطعونه سيوراً، ويأكلون منه طرياً.

فان كان فيلاً أخذوا سنه وجلده وقددوا لحمه، وهذا القديد يأكلون منه ويبيعون منه.

وكل فرقة لها جماعة في البلد يفتقدونهم في كل أسبوع، ويأتونهم بما يحتاجونه من الزاد وغيره، ويكون معهم جمل فيحملون مايجدونه عندهم من القديد والجلود والقرون وسن الفيل، فيأتون بالجلود فيعملون منها الدرق والسياط ويبيعون العاج وقرن الخرتيت والسياط للتجار ويبيعون الدرق للعسكر.

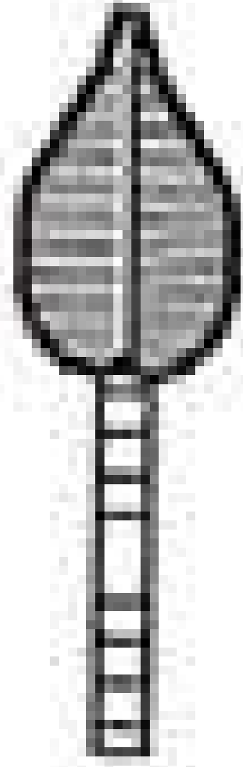
وهم قوم لاعهد لهم ويسمون: الدرامدة فلا يناكحونهم أبداً ولا يتزوج الدرمودى الا من جنسه، ومنهم من يتحيل على الصيد، بأن يأتي لمحل الوحوش ويأتي بحبل من قد متين يجعله خُرته واسعة، فاذا مر عليه شيء من الوحش

---

[1] السفاريك: جمع سفروك وهو آلة خشبية تصنع من فروع شجر الطليح وتستعمل كسلاح في الحرب والصيد والتنشين بصلابته واستعماله قبائل السالت في دارفور ووداي.

ودخلت رجله فى الخرتة- وهى دائرة أشبه بـــالعروة- فرفــع الوحــش رجلــه انخرطت عليه وهى ماكنة الأوتاد فلا يقدر الوحش على قطعها ولاقلعها، فيمكــث حتى يأتوا اليه فيقتلوه.

ومنهم من يعلو على شجرة يقيل[1] تحتها الوحش، ويكون معـــه حربـــة أو حربتان من الحراب الواسعة الحادة التى هى هكذا



فيمكث فى أعلى الشجرة حتى يأتى الوحش ويقيل، ويهدأ فينظر لمن هو قريب منه ويطعنه وهو نائم فى بطنه فتنفر باقي الوحوش التى معه، ويمكث المطعون فينزل اليه الصياد ويتمم قتله.

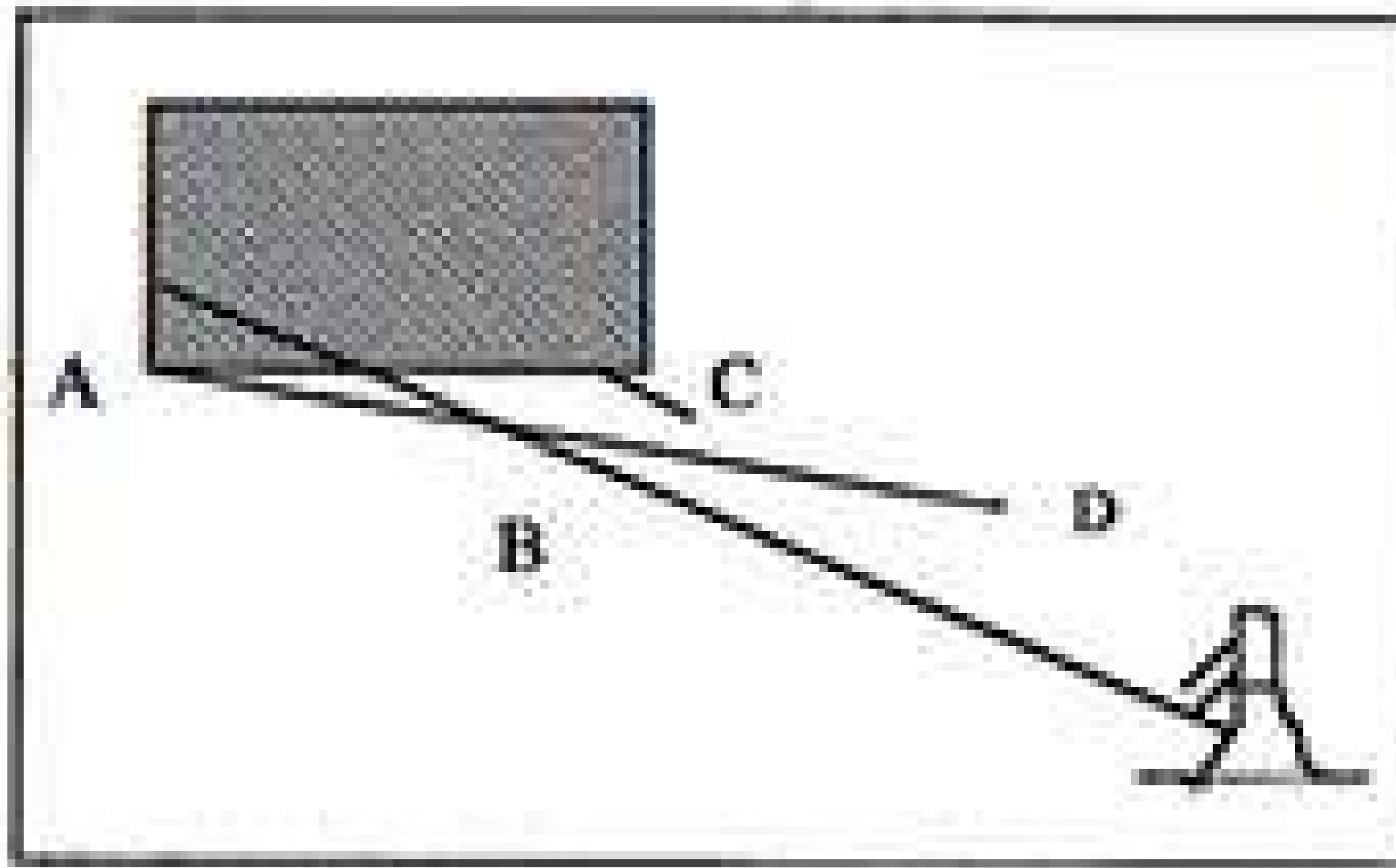
ومنهم من يتحمض لصيد الطير، وأحسن طير يصاد عندهم الحبارى، وهو طائر عظيم أكبر من الدجاج الرومي لونه أبيض يميل الى الاصفرار والخضـــرة، يسمن فى أيام الدرت سمناً مفرطاً، ويكون لحمه طرياً لطيفاً، وهذا (الطائر) يألف دوداً معروفاً عندهم، وحشرات صغيرة، فيأتى الصياد بذلك الــــدود والحشـــرات ويكون معه خيط قد فتله من العصب فتلاً جيداً وهو رفيع لايكاد أن يرى للطـــائر، ويقصد المحال التى يصيد فيها فمتي رأى الصياد الحبارى فى محل ربط حشرة أو دودة فى خيط وربط الخيط فى أسفل شجرة، ويذهب الى الحبارى فيسوقها، وفـــى الحبارى بلادة لاتكاد تطير حتى يقرب الانسان ان يمسكها، فيسوقها لجهة الحشرة أو الدودة حتي تراها، فمتى ما رأتها هرعت اليها وابتلعتها، ولما صارت الحشرة فى حوصلتها وأرادت أن تذهب، يمنعها الخيط من الذهاب، فيأتى الصياد فيذبحها ويضعها معه، ويربط فى الخيط حشرة أخرى إن كان هناك حبارى.

ويوجد أيضا طير آخر يسمى أباطنطرة، وهو أبيض وهو طائر أكبر مـــن الحبارى بقليل، وله فى عنقه كيس طويل مخروطى الشكل، أسفله واسع وأعـــلاه

---

[1] يقيل: من القيلولة وهو السكون فى الظلال من حر الظهيرة.

ضيق، يبتلع الحشرات أيضاً كالحبارى. ومنهم من يصيد الطيور الصغيرة بالشباك وهذا أقل الدرامدة كسباً، لكونه يغرم حباً إذْ العصافير وأبوموسى وأمثالها لاتقع الا على الحبوب، فيأتى (الصياد) فى المحل الذى يريد الصيد فيه بحيث يكون قرب نهر أو بِركَة وينصب شبكته وهى شبكة مربعة هكذا:



ولها اربعة أوتاد، وتدان منها مربوطان لصق ركنها ووتدان مربوطان فى حبلين طويلين فى ركنيها الاخرين فيدق الأوتاد فى الأرض وفى قرب أحد أركانها الوحشى[1] حبل متين طويل جداً، فينصب الشبكة ويبذر الحب أمامها ويأخذ طرف الحبل الطويل ويمكث بعيداً عنه، فمتى نزلت الطيور وكثرت على الحب كَفَأَ الشبكةَ عليها بالحبل الذى فى يده، وعيون الشبكة ضيقة جداً، فلايخرج منها عصفور ولايفلت منها شيء، فيأتى صاحب الشبكة ويأخذ الطيور منها، فان كان فيها ماهو غالى الثمن كالذرة أو الببغاء ونحوه أخذ ريش جناحيه وتركه فى مكتله[2] وإن لم يكن فيها ذلك ذبحها كلها وبذر حباً آخر، وحين كنت هناك كانت لى شبكة وكنت أصطاد بها فى بيتى، فطالما شبعت من العصافير بصيدى منها.

وهناك من هو مغرم بصيد القرود والنسانس فى الجبال ولا اعرف كيفية اصطيادهم لها.

وأحسن من ذلك كله الصيد بالبارود، لأن الانسان هناك متى ماكان معه بندقة جيدة يشبع من لحوم الحيوانات بغير مشقة، ومن الأغنياء من يشترى من الدرامدة عبداً ولايكلفه إلا بالصيد فمتى قنص ذلك العبد اشبع سيده من اللحم.

---

[1] الركن الوحشى أى الخارجى.

[2] المكتل: الزنبيل.*

ولقد رأيت عند شيخنا الفقيه مدنى عبداً يسمى سعيداً مسناً، فـأخبرني أنـه صياد، وأطعمني لحم غزال، وذكر أنه من صيده وأنه لابد له في كـل جمعـة أن يأتي له باللحم مرتين أو ثلاثاً، فصرت أتمنى أن يكون لى عبد مثله فمـا عـثرت عليه.

وقسم متمحض لصيد الزراف والنعام، وهم أعـراب الباديـة، كالمحـاميد والزبدة والعريقات بدار الوداى، والمجانين والزيادية وبنـي جـرار والعريقـات بدارفور، وكل من هؤلاء يصطاد على الخيل، فأكثرهم صيداً أسبقهم جواداً، ثم ان الانسان منهم اذا رأى صيداً وتبعه لايقفوا أثره بل يباريه حتى يحازيه ومتى تمكن من فريسته عقرها، فأما النعام وإن كان شديد العدو، فيوجد مـن يلحقـه، وأمـا الزراف فلا يكاد يحلقه في العدو فرس، ولذلك لايلحقه الا الفـرس الـذى يمـر كالريح.

وأعراب البادية في دارفور ودار وداى منعمون فيما يشتهون، لايحتـاجون الا الى الدخن والذرة والملبوسات، لكن يشترون من ذلك مايحتاجونه بما زاد عـن كفايتهم من السمن والعسل أوالمواشي وجلود الصيد والبقر والابـل، حتـى إنـهم يجلبون لدار الوداى ولدار الفور الأجربـة[1] والقـرب[2] والبطـط[3] والحبـال المصنوعة من سيور الجلد، ويسمون هذه الحبال الجلدية بالوجج والسياط وغـير ذلك.

وأما السمن فمن أنعامهم، وأما العسل فمن الأشجار، لأن النحل يعشش فيها، وهم يجتنونه، والصيد كثير فلذا ترى ريش النعام عندهم لاقيمة له، وكـذا قـرن الخرتيت.

وحين كنت في دار الوداى جاء بعض التجار من فزان يطلب ريش النعام، وطلب من الشريف أحمد الفاسي الذى توزر بعد أبي أن يكتب له كتاباً الى الشيخ شوشو شيخ المحاميد بالوصية عليه وأن يأمر الأعراب بالصيد له برفق في الثمن،

---

(1) الأجربة جمع جراب: وهو وعاء يصنع من جلد الغنم غالباً ويحمل فيه الغلال.

(2) القرب: جمع قربة، وهي وعاء يصنع من جلد الغنم ويحمل فيه الماء.

(3) البطط: ذكر بيرون في الترجمة الفرنسية بأنها أوعية من الجلد تستعمل في حفظ السمن والعسل وقد كتبه بالاتينية Battah ينظر: ص ٣١٠ من الترجمة الفرنسية.

وكان معه خمسون ريالاً من الفرانسا، فكتب له الشريف بذلك فأخذ الكتاب وتوجه الى المحاميد بدليل من العرب، ومكث هناك ماشاء الله أن يمكث ولما جاء أخبرنا بأنه حين وصل الى حيهم وسأل عن بيت الشيخ دُلّ عليه فنزل فى أكرم ضيافـــة وارحب نزل، ولما أراهم كتاب الشريف زاد الشيخ فى إكرامه وبالغ فى التلطـــف والبر به، وأفرد له بيتا من الشعر بفرشه وجميع مايحتاجه، ووكل وصيفه لقضـــاء مهماته، وكان ذلك التاجر أخذ معه هدية للشيخ المذكور، فقدمها لـــه فقبلـــها منـــه وأثابه عليها، ثم إن التاجر سلم للشيخ الخمسين ريالا، فطلب الشيخ العرب وقـــال لهم هذا رجل غريب اضافقى[1] والتجأ الىّ ويريد ريش النعام، فمن كان لـــه أرب فى الريالات فليغد للصيد من الصباح، وكل من أتى بجلد ظليم[2] فله نصف ريال، ومن أتى بربداء[3] فله ربع ريال، فاهتز العرب لمطلبه وأصبحوا قانصين، ففـــى يوم ولحد جاءوا بنحو عشرين ظليماً، فمكث عندهم نحواً من عشرين يوماً، فجمع فيها نحو مائة جلد ظليم وحملها له الشيخ على أبله، وزوده بزاد كثير، وكان مـــن جملة ماجاء به دهن النعام، فانه جاء منـــه بكثـــير، وأتـــى ومعـــه مـــن العسل والكنياكنيا[4] والسرنة والكرنو[5] شيء كثير وباع فى واره الظليم بثلاثة ريـــالات ولم يبق معه الانحو عشرة من الجلود وربح ربحاً كثيراً. وأما الزراف فلا نفع له فى المتجر الإبجلوده فيبيعونها، وأما لحمه فيأكلونه طرياً وقديـــداً، ويوجـــد عنـــد العرب من الأرز والدخرة والكوريب، والهجليج، والتمرهندى، والعسل، والكرنـــو، والسرنة، مالايوجد عند غيرهم، وأما اللبن فلا قيمة له عندهم لكثرته، يأخذون منه السمن ويرمون رائبه حتى إن من أتى الى أحيائهم وخصوصاً أحيـــاء الرزيقـــات والمسيرية الحمر، والهبانية يجد الغدران والبرك القريبة منهم كلها لبناً.

---

[1] اضافقى: يريد ان يقول نزل عندي ضيفاً.

[2] الظليم: كما ورد في القاموس هو ذكر النعام ويذكر بيرون رواية سمعها من المؤلف ان النعامة السوداء لها في كل جناح ثلاث ريشات بيض اربع كبار واربع وسط تسمى بالظليم

[3] الربداء: وهي أنثى النعام وشكلها رمادي وقد عرفها عرب دارفور ووداي ال ربـدة أو ربيـدة. ينظـر: Voyage au Darfour, P 459

[4] الكنياكنيا: هي المادة التي تستخرج من نواة الثمر كما سبق تعريفها.

[5] الكرنو: سبق تعريفه وهو دقيق نبق الكرنو، حيث يبل الدقيق ويعمل في شكل كرات كبيرة، يؤكل بالماء والزروب وله مذاق حمض، ويستعمل غالباً في المزارع وأوقات الزراعة لوجبة سريعة خاصة للأطفال.

الفصل الثاني عشر

في اصطلاح تزويج النور

لما كان المتوحد في ذاته وصفاته وأفعاله غنياً عن الزوج والولد ما انفصل عن أحد، ولاينفصل عنه أحد، إذ لايحتاج لما ذكر إلا الحادث المسكين، الذى لاسند له الا الله ولامعين، وهو سبحانه وتعالى حيّ قيوم، لاتاخذه سنة ولانوم، واحد أحد، فرد صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولد، ولم يكن له شريك في الملك، ولم يكن له كفواً أحد، خلق ادم أبا البشر من التراب، وخلق حواء زوجه من أقصر ضلع من الجهة اليسرى على الصواب.

ولما كان سر خلقه أن يكون خليفة في الأرض، ويملأ من نسله طولها وعرضها، ركب فيهما الشهوة البشرية، ليحصل التناسل وفق الارادة السنية، وكان ادم حين خُلِقَتْ حواء في سنة من النوم، ولما أفاق رآها أمامه على ترتيب منظوم، فوقعت منه موقع الاعجاب وقال لها: من انت يا أعز الأحباب؟ قالت: أنا حواء، وقد خلقني الله من أجلك يا أدم، وقدر ذلك من أزل تقادم، فقال لها: هلم اليّ فقالت: بل أنت تعال اليّ فقام آدم اليها، فصارت عادة الرجال الذهاب الى النساء.

ولما أن جلس معها ومس بيديه جسمها دبت فيه الشهوة الانسانية، وأراد مواقعتها كما هو مقتضى الحيوانية قيل له: قف يا آدم لاتحل حواء إلابصداق وعقد نكاح، ثم إن الله سبحانه وتعالى خطب خطبة نكاحها بكلامه القديم فقال: الحمد لعزتي والعظمة هيبتي، والخلق كلهم عبيدى، وإني أشهدكم يا ملائكتي وسكان سماواتي إني زوجت بديعة فطرتي، حواء أمتي لآدم خليقتي، على صداق ان يسبحني ويهللني فكان ذلك سنة لأولاده.

لكن لما اختلفت الأقاليم واللغات وتعددت القبائل والاصطلاحات كان اصطلاح كل قوم مباينا لاصطلاح آخرين، وإن كان العقد والمهر واحداً.

فمن اصطلاح الفور أن الشبان إناثاً وذكراناً ينشأون جميعاً، ففي صغرهم، يسرحون[1] بالاغنام، ولاحجاب[2] بينهم على الدوام، فربما اصطحب الشاب والصبية من ذلك الحين، وانعقدت بينهما المودة التي لاتبلى على مر السنين، فمتى أحبها وأحبته ركن اليها وصار يغار عليها، ولايرضاها تحادث غيره، وحينئذ يرسل أباه أو أمه أو احد أقاربه فيخطبها منه، فاذا انعقد بينهما الكلام ونفذ على وفق المرام جمعتْ الناس للإملاك، وحضر الشهود للأملاك[3] فيذكرون شروطاً كثيرة، ويطلبون أموالاً غزيرة، وكلها يأخذها الأب والأم أو الخال أو العم، ويعقدون لها على شيء قليل من ذلك المال الجزيل، وكنا قد ذكرنا نبذة من ذلك فلتراجع هنالك.

ثم بعد تمام العقد يتركون الأمر نسياً منسياً مدة طويلة، ثم يجتمعون فيما بينهم ويتشاورون، فينعقد رأيهم على وقت فيه يزفون، فان كان العروسان من ذوي البيوت الفخام والمراتب العظام، ابتدأ أهلهما في تهيئة الذبائح والشراب قبل العرس بأيام كثيرة، ثم يرسلون الرسل الى أحبابهم من البلاد ويقولون: العرس في اليوم الفلاني المعتاد، ويكون قد أحضروا من المزر[4] والنبيذ الأحمر المسمى عندهم بأم بِلْبِل، ومن البقر والغنم مافيه كفاية، فيأتي الناس في اليوم الموعود أفواجاً وهناك نساء معهن طبول صغار وكبار، كل امراة معها ثلاثة طبول، اثنان صغيران وآخر كبير على هيئة الدربكة، تضعها تحت إبطها الأيسر، أحدهما وهو الكبير من أعلى والاثنان يحاذيان اسفل الكبير، وتضرب بيدها على الثلاثة، ومجموعها يسمى عندهم الدلوكة، وكلما جاءت طائفة (خرجت) النساء بالطبول لملاقاتها[5] ويقلن كلاماً يمدحنها به، منه قولهن:

---

(1) "يسرحون" أي يرعون.

(2) في الأصل " ولا لاحجاب.. "

(3) الإملاك " والملاك بكسرهما وفتح الثاني: التزوج أو العقد (القاموس)

(4) المزر بالكسر: نبيذ الذرة والشعير.

(5) في الأصل " خرجن النساء بالطبول ويلاقونها.. "

هي باني هي باني

ويجين حسن البنان

ياهزازين القنا

أريت(١) مايجيكم فنا

عين الحسود بالعمى

ياهزازين الحراب

أريت مايجيكم خراب

عين الحسود في التراب

وكلما قالت كلاماً قالت قبل أن تقول غيره:

هي باني هي باني

ويجين حسن البنان

إنما هذا الكلام لايعني شيئاً بالحقيقة، وكنت مرة جئت الى عرس فتعرضت لي امرأة وقالت:

الشريف جاي من المسيد(٢)

الكتاب في إيده

ومن قبل يجيب

البرقد عيده(٣)

وكنت أحفظ من كلامهن كثيراً نسيته.

---

(١) أريت: لفظة التمني بالعامية، بمعنى "ليت"

(٢) المسيد: هو الخلوة التي يقرأ فيها الصبيان القرآن.

(٣) وهذا اللفظ كناية عن الشجاعة التي يتمتع بها الممدوح لأن البرقد من القبائل المقاتلة والتي ليس من السهولة هزيمتها وأسر رجالها.

فيخرج أصحاب العرس ويتلقون القادمين، وفي كل طائفة يـأتي رجـال ونساء فيجعلون كل طائفة في محل، ويأتون لهم بالأطعمة والأشربة على حسـب مقامهم، فمنهم من يأتونهم بالعصائد والمزر المسمى بـالبوزة، واللحـم السليق والمشوي، ومنهم من يأتون له بالفطير والشراب الأحمر الذي كـالنبيذ والمسمى عندهم بأم بِلْبِل، وان حضرهم جماعة من الفقـهاء، أتوهـم بالعصـائد واللحـوم وبالسوبيا، وتسمى عندهم: دنزايا، ثم يقيلون في أماكنهم حتى يبرد الحر ويعظـم الفيء.

فتخرج الشابات من النساء متزينات، والشباب من الرجال في أكمل زينـة يقدرون عليها، وتصطف النساء صفوفاً صفوفاً، وكل (صف) من النسـاء يقابلـه صف من الشبان، وتخرج النساء اللاتي معهن الطبـول فيضربـن ويقلـن مـن كلامهن، فيبرز صف من صفوف النساء، يمشين[1] هونـاً ويرقصـن بأكتافـهن ويتقاصرن الى الأرض، حتى يصلن الى صف الرجال، فكل شابة تعمد شاباً حتى تضع وجهها في وجهه وتهز رأسها نحوه حتى تضربه بضفائرهـا فـي وجهـه وضفائرها اذ ذاك مدهونة بالطيب وانواع مايعرفونه من العطر فيهيج الشاب ويهز حربته على رأسها، ثم تلتفت راجعة فيتبعها حتى مكانها[2] الأول، فيقف فيه الرجل وترجع هي القهقرى حتى تصل الى المحل الذي كان واقفاً فيه الرجل، فحينئذ من يتأمل يجد صف النساء ثبت في مكان صف الرجال وبالعكس، واذا كـان هنـاك بعض شبان لم يدخلوا في الصف، واحدى الصبايا تريد أن يقابلها واحد منهم تألفه تخرج من الصف وتذهب اليه راقصة حتى تكب شعرها على أنفه فيهيج ويصيـح ويهز حربته ويخرج وراءها، وان لم يخرج كان ملوماً، وعليه وليمة للخارجة له.

وبعد أن يثبت كل صف في مكان الآخر، تخرج النساء راقصات والرجال راقصين وكلٌّ منهم مقابل للآخر، وكل شابة مقابلة لشاب حتى يتلاقى الصفان في وسط المجال، وكل شابة تكب رأسها في صدر ووجه الشاب المقابل لها، والشاب يهز حربته على رأسها ويصيح صياح الفرح، وهـذا الصيـاح عندهـم يسـمى:

---

(1) في الأصل " يمشون"

(2) في الأصل " حتى الى مكانها."

الزرقة، وكل من النساء والرجال ثمل مما شرب، ولايزالون هكذا حتى يأتي الليل، فترجع كل طائفة الى مقرها ويؤتى لها بالأطعمة والأشربة.

وهذا لايخطر ببالك انه ليس عندهم رقص الاهذا النوع وهو المسمى برقص الدلوكة، وهناك رقص آخر يسمى بالجيل، وآخر يسمى: النقي، وآخر يسمى شكندري، وهناك رقص آخر للعبيد والاماء يسمى: توزى، ورقص الفور يسمى تندنجة، وهناك رقص آخر للعبيد والاماء يسمى بندله.

وفي الأعراس كل أناس يرقصون نوعاً من هذه الأنواع فالنساء الجميلات بنات الأكابر يرقصن مع أمثالهن من الشبان على الدلوكة، وأواسط النساء مع أمثالهن من الشبان يرقصن الجيل، ومن دونهن يرقصن اللينجي.

فأما رقص الجيل فتقابل فيه النساء مع الرجال يرقصن بأكتافهن ويضربن بأرجلهن اليمنى على الأرض، والرجال كذلك، لكن في كل حلقة هناك نساء يغنين والناس ترقص على غنائهن.

وفي رقص اللنجي: بعض النساء يغنين والشابات والشبان يضربون بأرجلهم الأرض ويرقص كل منهم برجليه اليمنى واليسرى، لكن الشبان يكررون كريراً[1] معروفاً لهم (وأما الشكندرى[2] : فيجتمع الشبان والشابات وكل رجل يأخذ شابة أمامه وتنحنى هي ويمسك خصرها بيديه، حتى يكونوا كلهم كدائرة مسلسلة أعني: الانثي تضع يديها على حقوى الذكر الذى هو أمامها، والذكر يضع يديه على حقوى الانثى التى أمامه وكلهم منحنيون حتى يكونوا كدائرة تامة، ويمشون رويداً رويداً مع ضرب أرجلهم في الأرض لأجل رنين خلاخيلهن والبنات اللاتي يغنين خارجات عن الحلقة.

وأما البندلة: فهي من أنواع رقص العبيد وهو أن العبد يأتي بالنارجيل المسمى عندهم بالدليب ويثقبه وهو أكر[3] مثل كرة المدفع، وينظم منه ثلاثاً أو أربعاً في خيط، ويربطها في رجله اليمنى كالخلخال، وكل عبد يفعل ذلك، وتقف جارية من

---

(1) الكرير المقصود هنا: هو اخراج الصوت من الحنجرة على أنغام موسيقية.

(2) من عبارة (وأما الشكندرى...) وحتى كلمة الضمير عنه في الصفحة التالية سقط من المخطوط.

(3) وهو أكر" أى يثقبه وهو في كورة ان يتكسر أو يفطس.

الجوارى خلفه، ويكونون كدائرة ولهم كرير مخصوص فيخرج العبد منهم لآخر فى وسط الدائرة، ويتحاول معه فى اللعب وهذا اللعب مبنى على القوة وخفة الجسم، كما يلعب البهلوان، فبعد أن يتحاولا ملياً يضرب أحدهما صاحبه برجله التى فيها النارجيل فلا يخلو أما أن يوقعه فى الأرض أو لا، فالماهر هو الذى إن ضَرَب صاحبه أوقعه والباقى يرقصون رقصاً لاتَكَسُّرَ فيه، وكلهم يردون على المغنيات وهذه المغنيات خارجات عن الحلقة.

واما التوزى: فهو ان عبداً من العبيد يضرب على طبل كبير والنساء والرجال حوله حلقة وكل رجل واضع يديه على حقوى امرأة وكل امرأة واضعة يديها على حقوى رجل، لكن مع الانتصاب والاعتدال، لامع الانحناء، ويمشون رويداً والنساء يضربن أرجلهن ببعضها لترن الخلاخيل التى فى أرجلهن ومشيهم كلهم فى الدائرة على نَظْم نقرات الطبل، ويكونون أيضاً كدائرة والمغنيات خارج الحلقة.

واما التندنيجا: فهى لعب البرقد والفور[1] وهو اشبه بالتوزى وانما الفرق بينهما فى كون أن التوزى يمشون فيه رويداً والتندنيجا بحركات عنيفة.

وبالحقيقة العبارة لاتفى بذلك لان المشاهدة شيء آخر، فربما يرى المشاهد شيئاً لايمكن التعبير عنه) ولكل رقص من الارقاص غناء مخصوص، فاما غناء الجبل فمنه قولهن:

يُوبانى هى يوبانيه

الليل بوبى[2] يا المقال[3]

انا راسى انداس[4]

الليل بوبى يا المقال

انا راسى انداس

---

(1) سبق ان ذكر المؤلف ان هذا الرقص هو رقص الفور و لم يذكر البرقد معهم، لاسيما وان العاب الفور تختلف تماما عن العاب البرقد.

(2) الليل بوبى... عبارة تدل على مناجاة المحبوب.

(3) المقال: المقصود به هو المحبوب.

(4) انا راسى انداس "يعنى قد اصاب راسى الدوار من شدة الهيام والتحليق فى عالم المحبوب.

وهذه الكلمات: يوباني هي يوبانين" لاتعني شيئاً لكن واحدة منهن تنشد وتقول: الليل بوبي يا المتقال " فتقول النساء الاخر" انا راسي انذار" ومنه قولهن:

الليل بوبي

دارفور جنة[1]

انا راسي نوى[2]

ومنه قولهن:

فريع الحانية[3]

سبيتو الجانية[4]

وبافريعا الصندل[5]

في بيوتنا قام رندل[6]

واما غناء اللنجي فمنه قولهن:

ياعيال جيبو المال فيض[7]

دلدبيج ود بية

صبوا حريز الخيل في كريو

فيض دلدبيج ود بية

---

(1) أي ان دارفور اصبحت جافية أي طاردة نظرا لعدم تماطف الحبيب معها.

(2) راسي نوى" أي عقدت العزم والنية على مغادرة دارفور لفقدان الاحباب فيها.

(3) فريع تصغير فرع، والحانية أي المنحني وهو تشبيه الحبيب بالغصن النضر لنضارة شبابه وحسن مظهره

(4) سبيتو الجانية.. أي سبب هذا الجنون

(5) فريع الصندل.. وهو تشبيه للمحبوب بفريع شجر الصندل لطيب معشره

(6) رندل... أي الفن اعترافاً وحباً للمحبوب.

(7) جيبو المال فيض.. أي اجمعوا المال بالقوة والشجاعة والحرب كما فعل دلدبيج ود بية: وهو ابن الاميرة بية بنت السلطان والـذي طلب الاذن من السلطان محمد فضل بالاغارة على قبائل القرنيت فحطب الرقيق الى قرية كريو فقلبت فقلبت هذه الاغنية مدحـاً لـه ينظر: Voyage au Waday.P.430

وأما غناء التندنجا عند الفور فمنه قولهن:

باسي طاهر دقلا[1]

بي لبا ودعوبغ أبا[2]

كتاب مصحف كيغ حلفين فيا[3]

ترعلعو كيي ريلا[4]

تايتيجيا مدو صقل جواجي[5]

ولو تتبعنا غناء أنواع الرقص لطال الحال.

فبعد ان يأكلوا ويشربوا يزفون العروس بالدلوكة ويلفون بها حول البلد، ويأتون بها للمحل الذى أعد للدخول عليها فيه، ثم بعد العشاء بكثير يجتمع[6] الشبان ويأخذون العريس ويزفونه بالغناء والزقرقة حتى يأتوا به[7] الى المحل المعلوم، فيجلسون خارجه، وحينئذ جميع الشابات مجتمعة مع العروس والشباب مجموعون عند العريس، وقد استوزر العريس أعز إخوانه لأنه حينئذ كالسلطان، واستوزرت العروس امرأة وسموها: ميرم فبعد أن يجلس الرجال مع عريسهم يطلبون الميرم، فلاتخرج لهم إلا بعد نحو [8] ساعتين، فيتقدم لها الوزير ويسلم عليها بلطف ويلتمس منها حضور العروس فتقول لهم: من أنتم ومن أين جئتم، وماهي العروس التي تريدون؟ فيقول الوزير: أما نحن فضيوف وقد جئنا من بلاد بعيدة ونريد الملكة تؤانس ضيوفها، فتقول له: أما الملكة مشغولة بشغل عظيم، وها

---

[1] باسي بمعنى اسود، ودقلا، بمعنى أولاد.

[2] بي لبا ودوبيغ ابا.. بمعنى انت الاب ومعك أولادك.

[3] كتاب مصحف تيغ حلفين فيا أي اقسمت انت وأولادك على المصحف.

[4] تريعو كي ريلا.. أي كنتم بلدة كويسة وتعدتم عليها.

[5] [illegible] أي فلاحكم ومدو بمعنى حياتة وصقل تبيغ أوملك وجوا أي أماوزم وحتى حضرات والتعين عموما مرة التكم بأولاد الامير شاهر، قد حلفتم القسم اتم وابو كم الاخوة بعضكم بعض ولكنكم حنثم اليمين وتعديتم بخيانتكم مدينة كويسة وتعديكم على حقوقها. ينظر Voyage: P.233,234,431

[6] في الاصل تجتمع الشبان.

[7] في الاصل ".. يأتون به.."

[8] من هنا بـ: كلمة "ساعتين" وحتى عبارة: في الرحل في الصفحة التالية سقط من المخطوط.

أنا وكيلتها في ضيافتكم وقرائكم[١] ومايلزم لكم، فيقول نحن نعلم أن فيك البركـــة والكفاية، لكن لنا معها كلام لايمكن إفشاؤه لغيرها فتقول له: اذا كان كذلك فمـــاذا للملكة؟ وماذا لي؟ لأن عادتها لاتبرز من حجابها، ولاتأتي لطلابها الابجُعل فيقول: لها المال والأرواح وكل ماطلبته.

فلايزال يحاولها وتحاوله حتى يتراضيا وهذا كله والعروسة قريبـــة منـــهم وراء ستارة لكنها لاتتكلم بشيء، والعريس أيضاً ساكت كذلك، والمحـــاورة بيـــن الاثنين، فاذا وقع التراضي رفعت الستارة فتخرج العروس فيقول الوزيـــر: أمـــا الملكة فللملك وماذا لنا نحن؟ فتنادي الميرم للبنات التي مع العـــروس فيحضـــرن وتقول لهن: أيتها البنات أريد منكن في هذه الليلة أن تؤانسن أضياف الملكة فيقلن لها: حباً وكرامة (وحينئذ تتقدم الميرم) وهي تُعلِم كل صبية ومحبوبـــها-فتقـــول: يافلانة كوني مع فلان، وأنت يافلانة كوني مع فلان، وهكذا حتى لاتبقى الا التـــي لامحبوب لها، أو الذي لامحبوبة له، فيأخذ كل شاب محبوبته ويبيـــت معـــها، وأن وسعهم المحل الذي هم فيه.

وصورة ذلك أن يبيت العريس وعروسه، والميرم والوزير، وكل زوجين معاً صفاً أو صفين على حسب سعة الموضع، وإن لم يسع الموضع جميعهم بقى من وسعه المحل مع العروسين، وذهب الباقي، وكل شاب منهم يأخذ محبوبته، ويتوجه بـــها الى بيتها أو الى بيت بعض أحبابها، ولايذهب بها الى بيته، لأنها لاترضى ذلـــك، لأن عادتهم ان الشاب متى أحب صبية وعلمت أمها بذلك، لاتقابله أبداً ولايقابلها، واذا رأته في طريق ولم تر لها مخلصاً منه بركت في الأرض وسدلت ثوبها على رأسها ووجهها حتى يمر وهو كذلك يفعل، يعني: إن رآها وعرفها يرجـــع علـــى عقبه هارباً إن أمكنه ذلك، والا أدار وجهه لنحو حائط أو شجرة حتى تمـــر، ثـــم يرسل لها السلام ان كان معه أحد، وكذلك هي تفعل بعد مروره، وان لم يكن معه أحد ترسل له السلام ان كان معها احد، وهذا كله عندهم من نوع الحياء والتعظيم.

وعندهم أهل الزوجة محترمون فأمها كأمه بل أشد احتراماً، وأبوها كأبيـــه بل أشد، وإخوتها كإخوته، وهي مثله في ذلك اذا رأت أمه وأباه فـــرت، وســـلكت

---

[١] وقرائكم: من القرى، وهو إطعام الضيف.

طريقاً غير طريقهما، وترسل السلام اليه أو يرسل اليها ولاتواجه منهما أحداً وتعتبر أباه كأبيها وهكذا مثل ماذكرنا في الرجل) ولذلك تذهب مع محبوبها الى محل آخر ولاترضى أن تذهب معه الى بيته، بل إن ضاقت الأماكن بكثرة الناس وليس هناك دار سوى دار أبيه لاتذهب معه اليها، بل يذهبان الى الخلاء ويبيتان فيه.

وأما دار أبيها من حيث أن لها محلاً يُعَدّ لذلك، فيبيت معها فيه من أرادت ولايراها أبواها فان الرجل يذهب معها اليه ويخرج عند الفجر، وأمها وأبوها نائمان، فلا يراه أحد منهما.

ولنرجع الى مانحن بصدده، فنقول: ثم يبيتون تلك الليلة فاذا أصبح الصباح قامت كل صبية وتوجهت الى بيت أبيها فتصلح شأنها، أعني: أنها تغسل وجهها وأطرافها بل ربما اغتسلت، ثم تتطيب وتكتحل وتجدد زينتها، وكذلك العروس تدخل عند أمها فتصلح شأنها، وكذا الرجال يذهبون الى ديارهم ان كانت قريبة، فان كانت بعيدة كانوا من بلد أخرى يذهب كل منهم الى دار صاحب له، فيصلح شأنه هناك، وكذلك النساء ان كانت المرأة من بلد أخرى تذهب الى دار صبية لها، تصلح شأنها فيها، لأن الشابات اللاتي حضرن للعرس مع كل شابة منهن كحلها وعطرها وماتحتاج اليه، فتصلح شأنها ويجلسن حتى يقرب الضحى، فتأتي الميرم الى محل الزفاف والعريس غائب عنه، أعني عند قيامه لاصلاح شأنه هو الآخر فتقمه[1] وتنظفه وتفرشه وتهيئ مجالسه: هي وبعض صواحباتها فيأتي العريس فيجده نظيفاً فيجلس هو ووزيره وتنهل عليه الشبان فيجلسون معه. ثم أصحاب العرس بالخيار، ان شاءوا جعلوا السبعة أيام كلها بالرقص والدلوكة، وإن شاءوا اقتصروا على يوم واحد، فان ظهر اقتصارهم جلس الضيوف الى وقت الغداء، وبعد تناولهم الطعام رجع كل منهم الى بلده، ولم يبق الا أهل البلد الذي هم فيه، وإن لم يروا الاقتصار وعلموا أن اصحاب العرس يريدون ان يمتد عرسهم الى السبعة أيام أقاموا، ويظهر ذلك بتجدد الذبائح وعصر الخمور والتهيؤ[2].

---

[1] تقمه.. أي تكنسه وتأخذ قمامته، (القاموس)

[2] في الأصل "..والتهيوء."

تنبيــه:

اعلم أن أهل كل بلد من البلاد الذين دعوا الى مثل هذه الوليمة يأتون امـــا بيقرتين أو ثورين أو ثور أو بقرة أو بشياه إعانة لصاحب الوليمة وان كـــان لـــهم أقارب خارجين عن بلدتهم ودعوا، يأتون بأثوار أو بقر غير مايأتي به أهل بلدتهم إعانة، ثم يمكثون نهارهم كله في لعب وضحك وانشراح واكل وشـــرب وطيـب محادثة الى العصر، فتُضرَبُ الطبول التي هي الدلوكات، ويفعلون مثل مافعلوا فى اليوم السابق حتى الليل، فيأتيهم الطعام والشراب، وبعد فراغهم من ذلك يجتمعون رجالاً ونساء فى محل الزفاف فيتحادثون حتى الى منتصف الليل، ثم يـــاخذ كـــل شاب حبيبته ويبيت معها حيث باتا أمسهما، ويبقون على ذلك المدة المذكورة.

واذا أعوز الأمر الى الذبائح بأن كان ما أعد للذبح لم يكف مـــن حضــر، خرج أبوالعروس أو أخوها أو أحد أقاربها الى المرعى فكل مأوجده مـــن البقـــر أمامه عقر منها ثوراً أو ثورين أو بقرة أو شياهاً، وبعد العقر يرســـل الجزاريـــن فيذبحون العقير، ويأتون بلحمه الى الضيوف، وهكذا فاذا بلغ الخبر صاحب البقـــر فلايخلو، أما أن يطلب الثمن فيرضونه أو يسكت حتى يبقى له عـــرس أو لأحـــد أقاربه، فيعقر هو الآخر مايريد من بقر من عقر بقره، ودقة بدقة.

ولذلك اذا عُمِلَ عرس تخاف أرباب المواشي من العقر فيأمرون رعاتهم أن يبعدوا بها فى الخلاء لأنهم لايعقرون إلا من الأموال القريبة المرعى وهذه ســـنة جارية فيهم.

وفي تلك المدة تكون العروس كالملكة وصواحباتها معها فى لعب وانشراح والعريس كذلك.

ومن عادتهم: أن العريس لايفتض عروسه الابعد السبعة أيام، مـــع أنـــهما يبيتان متعانقين لاحائل بينهما، ويجعلون ذلك كرامة لها، ولأبويها لأنـــهم يقولـــون الليلة الأولى فى كرامة أبيها، والثانية فى كرامة أمها، والثالثة فى كرامة أخيها إن كان لها أخ أو اختها وهكذا حتى تتم السبعة أيام، ومن استعجل وفض قبـــل تمـــام ذلك عُيِّبَ عليه وقالوا: قد استعجل ولكن من المحال أن يفتضها قبل ثلاث ليال.

عجيبة:

من عوائدهم: أن المرأة لاتأكل أمام زوجها ولاغيره من الرجال وإذا دخل زوجها وهي تأكل قامت وفرت، وهذا عندهم من أكمل الحياء، ويقبحون على المرأة التي تأكل أمام الرجل، وحين كنت هناك ورأيت ذلك قلت لهم: اتستحي من الأكل مع الرجل ولاتستحي من النوم معه، وأنه يدخل بين شعبها ويولج فيها، ويرى فرجها وماهي عليه؟ قالوا: ذلك لاضرر فيه، وأما أن تفتح فاها وتدخل فيه الطعام أمام الرجل فهذا شيء قبيح، انتهى.

ومن عادتهم أن الرجل لايأخذ عروسه ويبني بها في بيته بل في بيت أمها وأبيها ولاتخرج معه حتى تلد ولدين أو ثلاثة، فان طلبها للنقلة معه قبل ذلك أبت عليه وربما وقع الطلاق بينهما بسبب ذلك.

ومن عادتهم: انها لاتذكر اسمه على لسانها أبداً، بل دائماً تقول قال لي كذا وكذا فاذا سئلت: من الذي قال؟ تقول:هو حتى يولد لهما فمتى ولد لهما قالت: أبوفلان أو أبوفلانة باسم من يولد، ان كان ذكراً أو أنثى.

ومن عادتهم: أن الرجل لاينفق على المرأة بعد الزفاف الابعد سنة، فان جاء بشيء قبل السنة، جاء به على سبيل الهدية، مع انه لايأكل الا أعز ممايأكلون، فيمكن أنهم طبخوا شيئا قبيحاً لهم من المأكل الرديئة ويذبحون له دجاجاً أو حماماً أولحماً.

ومن عوائدهم: أن الرجل مدة ماهو في بيت أبي زوجته يصنعون له طعاماً جميلاً جداً غير العشاء يتناوله بالليل اما مرة أو مرتين أو ثلاث، ويسمون الأول بلغة الفور جري جرانج، والثاني: تأرنجا جيسو، والثالث: صبح جلو، ومرادهم بذلك تقويته على الجماع، وأما إسمه بلغتهم العربية ورانية، وأكثر الأغنياء يأكلون بعد أكلهم العشاء لانهم ربما جاءهم ضيف، فلم يتمكن من الشبع، لحيائه من الضيف أو كان العشاء غير جيد، فلابد له من ورانية.

ومعنى قولهم: جرى جرانج: انزع القميص، فان جــرى معنــاه قميـص وجرانج معناه: انزع وتارنجا جيسو معناه: مسك الرجل، فان تارنجا معناه: رجل، وجيسو معناه مسك وصبح جلو معناه طلوع الفجر.

وأما الورانية: فهي عربية منسوبة لوراء ضد الأمام، لأنــــه يأكلــها وراء العشاء، ولهذا تجد بعض الناس اذا كان عنده من يعز عليه من الاخوان، وحضــر العشاء معه وأراد أن يقوم يمنعه حتى ينفض المجلس ثم يدعو خادمه ويقول: هل من شيء يؤكل فيأتيه الخادم بالورانية، فيأكلان معاً، وهذا لايفعــل إلامــع أعــز الأصدقاء، وهذه الورانية تنفع أحياناً للضيف المفاجيء بالليل الداجي، وهذا كله إن كان عرسا.

فان كان ختاناً فعلوا ماذكرناه من استحضار الأطعمة والمــــزر ولم يلبـل والدينزايا ودعوا الناس، ورقصوا على الدلاليك وزفوا المطاهر[1] وجاء المزيـــن فختنه وأبوه واقف، فان بكي المطاهر نفر أهله منه وتركوه ومضوا، وإن صــبر حال الختن ولم يبك قال أبوه: اشهدوا يا أهل المجلس إني أعطيت ولدي بقــرة أو ثوراً أو عبداً أو أمة ممايقدرعليه، وقالت أمه كذلك وكل من حضر من أهله يهدي له شيئا، فان كان أهله أغنياء ناله فيهم شيء كثير، فيصير غنيا، وذلك كله بحسب غناء أهله وفقرهم، ثم يجتمع أترابه في ثالث يوم الطهور ويأخذون الســـفاريك[2] ويجوسون خلال البلد يضربون الدجاج فيقتلون دجاجاً كثيراً، وفي رابع يوم الــى اليوم السابع يذهبون الى البلاد المجاورة لهم، فلا يرون دجاجة الاقتلوها وكل يوم يتوجهوا لبلد يقتلون دجاجها وأصحاب الدجاج لايرون بذلك بأساً.

وإن كان خفاضاً فعلوا فيه كل ماذكرنا الا الدجاج فلا يقتلونه، والخفــاض لايتغالون فيه كالختان، ومماذكرناه يعلم الواقف على رحلتنا أننا استقصينا جميــع ذلك لتمام الفائدة وحسن العائدة.

---

[1] المطاهر: أو المطهر: هو المختون..

[2] السفاريك: جمع سفروك وهو عبارة عن سلاح يقطع من الشجر كعاسيل تعريفه.

واعلم أن أهل دارفور لايستقلون بشيء من أمورهم بدون النساء بل انهن يشاركنهم[1] فى جميع أحوالهم، الا فى الحروب العظيمة، ولذلك فإن عرساً لايتم إلابهنّ أو حزناً كذلك، ولولاهن ماإستقام لأهل دارفور شيء، فترى النساء يحضرن فى الأمور المهمة.

ومن ذلك: الأذكار وهى على ضربين، ضرب يفعله أهل البلاد المستعربين أعنى من ليسوا بعجم، وضرب يفعله أعجام الفور. فأما الأول: فهو ماكان على طريقة شيخ من الصوفية أو ولى من الأولياء، وعلى كل فتحضر حلقة الذكر امرأة تنشد لهم والنساء خلفها وقوف لايتكلمن، بل ينظرن أزواجهن وأقاربهن ليعلمن أيهم أحسن ذكراً، وقد ينشد رجل والنساء يسمعن كبقية الرجال.

ومن ذلك ماوقع ان تلميذ الشيخ دفع الله حضر حلقة ذكر تلاميذ الشيخ يعقوب وبين تلاميذ الشيخين معاندة، فلما حمى الذكر أراد أحد تلاميذ الشيخ يعقوب ان ينكت على تلميذ الشيخ دفع الله قال:

المعندو شيخاً فى اجابا[2]

لايدخل درقة وشابا[3]

المعندو شيخ مهيوب

لايدخل حلقة يعقوب

---

[1] فى الأصل "... تشاركهم."

[2] فى اجابا... أى مبارك بمعنى النابغة..."

[3] لايدخل درقة وشابا.." أى لايعرض نفسه للمخاطر..."

فسمع تلميذ الشيخ دفع الله وعلم انه عناه بذلك فقال:-

ندخل ونمرق منحاني

بالنية والعمل الصالح

دفع الله فوقي طولاني[1]

نادرة:

حضرت امرأة في حلقة ذكر وأنشدت:-

قلبي ليكم مريسة دوانى

وأنا عزبة بيني طرفاني

يا الفقرا مالكم زاني

فسمعها الذاكرون وكان فيهم شاب فهم المعنى وكان يقول: الله، فصار يقول: أنا زاني أنا زاني[2]

وأما أعجام الفور فيقفون في الذكر صفين أو حلقة، وكل منهم خلفه صبية والنساء ينشدن وهم يذكرون وذكرهم كرير، فمن انشادهن قولهن:

كرو كرو بي عالا آما

صح ليج كوبي جنة

صح ليج كوبي

[1] المعنى: أنه ندخل حلقة الشيخ بعيوب ونخرج منها سالمين وذلك بفضل نياتنا الطيبة وأعمالنا الصالحة وبفضل رعاية الشيخ دفع الله لنا.

[2] علق مؤلفا كتاب تشحيذ الأذهان على هذه العبارة بقولهما يتضح من هذه العبارة أن التونسي كان يهبط أحياناً إلى مستوى لا قيمة له في أخبار رحلته العظيمة ولا يستطيع المحققان أن يجدا تفسيراً لاقتحامه هذا النوع من النوادر وأمثاله ومع هذا فإن الألفاظ الواردة في هذه النادرة لم تكن تستغرب من خليع يندس بين الناس أو من خليعة، وهذا ما ذكرناه آنفاً من أن التونسي كان شاباً مراهقاً في أثناء رحلته هذه ولهذا اتخذ له مجموعة من الشباب مثله والذين يميلون إلى مثل هذا النوع من الأخبار الخليعة.

ومعنى ذلك: كرُو معناها شجرة وكرّو معناها: خضراء وعالما نما معنـــــاه ظـــل العلماء. وصح لنج كوبى جنة، صح لنج كوبى: صحيح نمشى الى الجنة صحيـــح نمشى الى الجنة.
ومعناه ان الشجرة الخضراء ظل العلماء ونحن ندخل الجنة حقاً ندخل الجنة حقاً.
ومنه قولهن:

جبرائيلية ميكائيلية

كل سب ملكا الجنة

ومعناه:
جبرائيل وميكائيل كل حسنة يملك بها الانسان الجنة.
ومنه قولهن:

لله قويا[1] لله

شهر رمضان الله انلس

كالفارحية

ومعناه:
لله يا أماه الله، شهر رمضان دواء الله فافرحوا به ومثل هذا كثـــير لـــو تتبعنـــاه لخرجنا الى الاسهاب وجلبنا الملل لأولى الالباب، وفيما ذكرناه كفاية لكن من حيث اننا تكلمنا في التزويج ومايتعلق به، عن لنا اننا نذكر نبذة فى حجاب النساء وهـــم المسمون فى مصر بالطواشية وبأغوات الحريم، وبالتركية مزلر أغـــالر، لانـــهم امناء على الحريم.

---

[1] قويا: أي يا أماه.

الفصل الثالث عشر

فى الخصيان المعروفين فى مصر بالطواشية

لما كان الحق سبحانه وتعالى غيوراً على عباده ومحارمه منتقماً ممن تعدى حدوده بارتكاب مآثمه، وكانت الغيرة وصفاً من أوصافه، ولذا حرم الظلم على نفسه وخلاقه، جعل الغيرة مركوزة فى طباع بنى آدم من زمن سلف وتقادم، وأول من غار قابيل على أخته إقليما لما أمر ادم أن يزوجها من هابيل ويزوجه من أخته لميما، كما ورد بنص القرآن[1] بل توجد الغيرة فى غير بنى آدم من الحيوانات فيغير[2] الحيوان على أنثاه، وتحصل المعاركات سيما والنساء اكثر شبقاً وغلمة ولامروءة تمنعهن ولاهمة، وكان بعض النساء بلغ من الغيرة أعلاها وارتقى الى منتهاها حتى ان بعضهم يغار على محبوبه من عيون النرجس أن رآه كما قال الشاعر من الكامل:

غضى جفونك ياعيون النرجس | منك استحيت بأن اقبل مؤنسى
تأمر الحبيب تذبلت وجناته | وعيونكن شواخص لم تنعس

وبالغ بعضهم حتى انه غار على المحبوب من نفسه* ومن الزمان والمكان كما قال الشاعر:-

اغار عليك من عينى ومنى | ومنك ومن مكانك والزمان
ولو انى وضعتك فى جفونى | الى يوم القيامة ما كفانى

---

(1) "واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق اذ قربا قربانا فتقبل من احدهما و لم يتقبل من الآخر قال لاقتلنك قال انما يتقبل الله من المتقين، لئن بسطت الي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي اليك لاقتلك اني اخاف الله رب العالمين، اني اريد ان تبوء باثمي واثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين، فطوعت له نفسه قتل اخيه فقتله فاصبح من الخاسرين" سورة المائدة الايات ٢٦،٢٧،٢٨،٢٩.

(2) يغير الاصل يغار من غار واستعمل المؤلف صيغة يغار الفصيح للانسان وللحيوان يغير ولعله بذلك يريد التفرقة بين غيرة الانسان وغيرة الحيوان.

ومثل قوله من الوافر:-

فلو أمسى على تلفي مصراً　　لقلت معذبي بالله زدني

ولا تسمح بوصلك لي فاني　　اغار عليك منك فكيف مني

وارتقى بعضهم الى أعلى المبالغة فغار من الضمير حيث قال:-

اغار عليك من ضميري فيالـ　　هو ى انى حتى اتهمت جوارحي

فتحيل الناس في حراسة الحريم، لما عندهم من داء الغيرة المقعد المقيم فما رأوا أحسن من حراسة انسان يكون مقطوع أعضاء[1] التناسل وهو الذي تطمئن اليه النفوس في العاجل والآجل، واكثر الناس احتياجاً لذلك الملوك والأمراء، لأن كل واحد منهم يجمع ماقدر عليه منهن بلامراء، ولما كانت ملوك السودان أكثر الناس للنساء جمعاً وابذلهم في ذلك وسعاً، وكان يوجد عند الملوك من الخصيان عدد كثير وجم غفير فيوجد عند سلطان الفور نحو الألف أو الأكثر وعليهم ملوك منهم، وهم له كالعسكر وهو الذي يرتب في بيت السلطان مايلزم منهم للحراسة، ويبقى عندهم مازاد على احتياجه الى وقت الحاجة، ومع ذلك فلهم في دارفور مقام ومقام، وحال لايماثله حال حتى أن لهم هناك منصبين جليلين لايتولاهما غير خصي، أحدهما منصب الابوة[2] والثاني منصب الباب واقول:

ان منصب الباب غير مختص بدارفور بل في تونس وفي القسطنطينية كذلك.

نكتة:-

مماوقع من عتوهم وتجبرهم أنه اجتمع بعض أمراء الفور في محل انشراح ونزهة وانبساط، وكان فيهم خصي فجعلوا يأكلون ويشربون والخصي كواحد (منهم) فاتفق أن واحداً منهم معه منديل من حرير، فأبرزه في المجلس وقال: هل تعلمون في أي شيء يصلح[3] هذا المنديل؟ فقال أحدهم هو يصلح لمسح العرق

---

[1] في الأصل "آلة التناسل.."

[2] منصب الابوة" هو منصب الأب شيخ، وقد سبق شرحه في ثنايا هذا الكتاب.

[3] في الأصل "..فانا يصلح."

وقال الآخر هو يصلح للتجميل، والزينة، وقال آخر هو يصلح لأن يجعل على صدر انثى جميلة، وطفق كل واحد منهم يقول مابدا له، وصاحب المنديل يقول: لا، ولما أعياهم امره قيل له: قل لنا أنت في ماذا يصلح، فقال: هذا يصلح للمسح بعد الجماع، فاستحيوا قوله وسكتوا، فما راعهم ألا أن قام الخصي من بينهم صالتاً سيفه يروم قتل صاحب المنديل وقال (له): (انك) تعرّض بي بأنّي مقطوع ولابد من قتلك، فقاموا اليه وتلطفوا به وهو لايرجع عن قوله حتى أرضوه بخيولهم كلها، وكان الخصي حليفاً لابن السلطان تيراب واللذين اسلفنا ذكرهما[1]

وبلغ من عتوهم ان الشيخ محمد أوردكا كان في ايام السلطان تيراب في منصب الأبوة ومن عادة الأب أن يتوجه لبلاده ومحل حكمه في كل سنة في فصل الربيع ويجمع أهل البلاد في يوم واحد ويعرض الرجال ويرى العساكر، فاتفق أنه جمعهم في يوم شديد الحر في رحبة واسعة أمام داره ولم يخرج لهم حتى قالت القائلة[2]، فخرج في أبهته راكباً جواده والعبيد يظللونه من حر الشمس ويجلبون له الهواء بالمراوح، وخرج العسكر وصفوا الناس صفوفاً كدائرة وهو واقف ينظر اليهم[3]، وقد اشتد الحر وامر الناس بالجثي على ركوبهم[4] ،وسلاحهم ودرقهم في أيديهم، فكان الانسان منهم لايستطيع الجثي لشدة حرة الرمضاء، وسال العرق وكثر القلق، ومكث ملياً لا يأمر بأمر، ولاينهى عن شئ، وعطش الناس وأخذ منهم حر الشمس أكبر مأخذ وهم صابرون على ماقضى الله عليهم حتى مات بعضهم من العطش، ولما رأى قلق العالم وتحيرهم أعجبه، وضحك وقال بلسان الفور "تو" يوماً عبوساً قمطريراً[5]، وكررها مرتين أو ثلاثاً، وكان العالم المجتمع في تلك الجلدكا[6] ماينوف عن عشرين ألفاً، وكان فيهم رجل صالح يقال له الشيخ حسن الكوَ[7] فبرز له وقال: أسكت ياكافر ثلاثاً، فأخذه الرعب من الشيخ المذكور، وولى

---

[1] سبق ذكرهما في كتاب تشحيذ الأذهان.

[2] قالت القائلة: أي انتصف النهار واشتدت حرارة الشمس.

[3] في الأصل "..واقف بنظرهم."

[4] هكذا في الأصل: والصواب على ركبهم."

[5] يقصد الاستشهاد بالآية الكريمة "إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً" سورة الإنسان، الآية (١٠).

[6] الجلدكا: تعني ساحة العرض."

[7] الكو: بلهجة دارفور نوع من الخشب الطويل، ويستعمل في بناء القطاطي السكنية.

هارباً ورفع الشيخ يده الى السماء وقال: اللهم ارحم عبادك، فماتم كلامـــه حتـــى ارتفع السحاب مثل الجبال ونزل المطر وتفرق الناس وكان يوماً مشهوداً.

وسبب غضب الشيخ هو أن السلطان قد مثل نفسه بالاله، ومثـــل عــرض الناس عليه بعرضهم للحساب، ومثل شدة حر الشمس بشدة حر يوم القيامة، ولذلك استشهد بالآية الكريمة.

نـادرة:

حُكيَ أن الشيخ أردكا المذكور كان قليل العقل، ومن قلة عقله أنه لما تولى منصب الأبوة أمره السلطان تيراب أن يقرأ ليتعلم القراءة والكتابة، فأحضر فقيـــها يعلمه فكتب له حروف الهجاء وصار يقرأ عليه في كل يوم، واستمر على ذلك مدة أيام ثم إنه ذات يوم طلب المصحف فجيىء له به فتصفحه ونظر فــــي الســطور فرأى واواً مفردة فعرفها وقال للفقيه: إتمان واو، أي هذه الواو، فقال الفقيه نعـــم، فقال: قد ختمت القرآن، وأمر بذبح الذبائح وضرب الطبول وصنع وليمة عظيمــة فعدت هذه من طيشه وخفة عقله.

ونرجع الى ماكنا بصدده فنقول: ومع كثرة الخصيان في دار السلطان لـــم يسلم من الدنس لان النساء شياطين لايغلبهن غالب، سيما وقد قام عذرهن بدواعي كثرتهن في بيت السلطان وهن في سن الشباب والراحة وحسن المأكل والملبـــس، فللغيرة فيهن نصيب أوفر ولمّا سُجِنّ في هذا السجن عملن على دخول الرجال بكل حيلة، فمنهن من تصاحب الرجال من الخدمة الذين بالباب، ومنهن من لها عجائز يأتينها بالرجال بحيلة، وهي أن العجوز تتأمل في الفتيان حتى ترى الشاب الجميل الذي لانبات بعرضيه فتتحيل عليه بلطف حتى تأخذه الى دارها، ومن المعلـــوم أن شبان السودان لايحلقون رؤوسهم بل يوفرونها، فتشبه الوفرة لهم شعـــر النســاء فتتحيل عليه العجوز وتجعل وفرته ضفائر كضفائر النساء، وتلبسه حلية كحليـــهن من عقود وتمائم ومدارع ومنجورة، وتلبسه دراعة وفردة ثوب بحيث لايشك رائيه انه امرأة، وتدخله دار السلطان بين نسائه فمتى مأولج ذهب خوفها وسلمته لمـــن

أدخلته برسمها، فيمكث ماشاء الله أن يمكث فان ستر الله عليه خرج كما دخل، وإن عثرَ عليه قُتل ولايعثر عليه الابأسباب)[1]

منها: أن تعلم أمره احدى ضرائرها فتطلبه منها فتأبى هي بخلابه أو لايرضى هو أن يذهب، فحينئذ يحملها الغيظ على ان تفتتن به فيعثر عليه.

ومنها: ان السلطان يامر بالتفتيش فيحضر الطواشية كلهم ويفتش معـــهم البيـوت ومن وجدوه قتلوه.

ومنها: أنه يزهق من طول المكث فيخرج وحده فيعثر عليه البوابون وهو خـــارج فيقتلونه، وان ستر الله عليه خرج، وأغلب من يدخل بالصفة التى ذكرناها لايخرج الا بالليل أو مع نساء كثيرة وهو فى وسطهن.

ومن العجائز من يتحيلن فى خروج النساء من بيت السلطان بأن يتكـــرن المـــرأة فيهن بثياب مهنة قذرة ويخرجنها أمام الناس جهاراً، فاذا عثر بها البواب أو أحـــد الخصيان قيل له: هذه امرأة مسكينة كانت دخلت معنا تلتمس معروفاً، ومنهن مـــن يدلس عليها الخصيان، وذلك لايكون الا اذا علم الخصي انه إن عرض انفتح لـــه فهوى فقتل فيه، فحينئذ يسكت قهراً عنه وتدخل المرأة وتخرج وتُدخلُ من شـــاءت ولم تخش بأساً.

ومن ذلك ماوقع من بعض محاظى السلطان صابون مع ترقتك محمد ابـــن عمها وسنذكر ذلك فى سيرة السلطان صابون سلطان دار الـــــوداى ان شـــاء الله تعالى.

واعلم ان نساء السودان كثيرات الشبق والغلمة أكثر من غيرهن لأمور:

الأول:- لفرط حرارة الاقليم.

الثاني:- لكثرة مخالطتهن للرجال.

الثالث:- لعدم صونهن واستقرارهن فى البيوت، فمن ذلك ترى المرأة فيهن لاتقتنع بزوج ولابخليل واحد، على حد قول الشاعر من الهزج:-

---

[1] مابين القاصرتين ساقط من الأصل.

أيا من ليس يرضيها خليل ولا ألفا خليل كل عام
أراك بقية من قوم موسى فهم لا يصبرون على طعام

الرابع:- لعدم اقتصار أزواجهن عليهن لأن الرجل منهم إن كان ذا قدرة نكح من الحرائر أربعاً، وتسرى بغيرهن من السراري، وكل ذلك على قدر رحاله، والنساء شقائق الرجال والنفس واحدة في الشهوة والطبع خصوصاً وعندهن من الغيرة مالامزيد عليه فيتحيلن على الاجتماع بغير أزواجهن، وتأخذ كل منهن في ضروب من الحيل تتوصل لذلك الى مرغوبها وان كان لايقدر على التسرى طمح نظره الى غير امرأته، فمتى علمت امرأته بذلك حداها حادى الغيرة على الاجتماع بغيره.

الخامس:- العادة لأنهن من صغرهن قد تعودن الاجتماع مع أترابهن من الذكور حتى كبرن على ذلك، والعادة اذا استحكمت صارت طبعاً، فلذلك اذا تزوجت لايمكنها الاقتصار على زوج واحد الا من رحم الله، ومن حيث أن هذا الطبع مركوز فيهن، يصدر منهن مايصدر، فلذلك لايرى منهن من اقتصرت على بعلها الا القليل وكلما تقادم الزمن كلما كثر الفساد عندهم.

نادرة:

ومن المجرب في دارفور ان النار اذا اشتعلت في دار واشتد وقدها وعجزوا عنه نادوا: هل من طاهرة؟ فتأتي امرأة عجوز لم تَزْنِ قط فتخرج كنفوسها[١] : وتشير به الى النار فَتُطْفَأ بإرادة الله تعالى وهذا من مجرباتها.

وحين كنت هناك وقع حريق في بيت جدة السلطان واشتد وحضر السلطان بنفسه وأرباب دولته فما أمكنهم اطفاؤه ونادى منادى السلطان: هل من طاهرة: وتكرر النداء في البلد، فما قدرت امرأة تأتي لذلك الحريق، ومن هنا يعلم انه

(١) الكنفوس: مفرد والجمع كنافيس وهو لباس تلبسه غالباً البنات الصغيرات في دارفور ووداي وهو عبارة عن قماش منسوج عرضه نحو أربعة قراريط وطوله نحو من ثلاثة أذرع، تأخذه المرأة وتدخل طرفيه من الامام والخلف في شريط مربوط في وسطها فيسدل طرفه الأمامي ليستر عورتها من الامام والطرف الآخر من الخلف وهو كالحفاظ عند نساء المدن في أيام الحيض.
ينظر التونسي: تشحيذ الأذهان ص ٢١٢.

لايوجد الان فيهن طاهرة، ولكن سمعت بأن ذلك قد يوجد في أعراب باديتهم، وأما نساء السودان فقل أن يوجد فيهن طاهرة، لأن المرأة منهن- حيث لاعقل يردعها ولاخوف يزجرها ولادين تراعيه- تفعل ماأرادت، بل قد تفتخر بكثرة الأصحاب وتقول: لو كنت قبيحة ماجاءني أحد، ولولا أني من الحسن بمكان ما التفي الرجال، وارتكبوا من شاني الأهوال.

ومن العجب أن في بلاد العرب، اذا أسنت المرأة وكان لها ولد جليل ذو شهرة يمنعها عن ارتكاب الزنا وعن التطلع للرجال، اما لعلمها بعدم الرغبة فيها إن كانت مسنة، أو لخوفها على مقام ولدها وجلالة قدره الا نساء السودان.

فقد حكى لي من هو أعز أصحابي، وصونا لصحبته لا أذكر اسمه- أن خال السلطان محمد فضل المسمى: محمد تيئل زوجته لخفته وهي أمبوس أم السلطان وعمرها نحو خمس وثلاثين سنة بامرأة من بيتها، وصنعت له مهرجاناً عظيماً هرع الناس للفرجة عليه، فأخبرني انه كان من جملة المتفرجين، قال بينما أنا واقف إذ جاءت أم السلطان ومعها سرب من النساء كانهن الغزلان، وهي تمشي أمامهن، وهن خلفها، وهى كانت جارية بشعة المنظر، مشوهة الخلق دنية الأصل، لأنه لايوجد في سكان دارفور أدنى أصلاً من البيقو الذين هي منهم، فصار كل من الواقفين يتعجب من صنع الله تعالى أن قدّم هذه المرأة مع ماهي عليه من قبح الذات والأصل على من هن أحسن وجهاً وأصلاً وذاتاً وبهاءً وجمالاً. قال: فدخلت على أخيها تيئل وكان وقت بنائه بعرسه، فمكثت عنده برهة ثم خرجت، قال فلم نشعر الابرنين الخلاخل والحلى وعبق الطيب، فعلمنا أنها خارجة، فوقفنا صفاً حتى اذا خرجت لم أشعر بها الا وقد قبضت على يدىّ وجذبتني للذهاب معها، فأردت الامتناع وكأني تعاصيت فدفعتني النساء اللاتي خلفها، وكرهن أن يشعر الناس بذلك، فمشيت معها محاذياً لها وهي بجانبي قابضة عليّ فلما كنا في أثناء الطريق قالت: أنا تعبت، مع انه لم يكن بين بيت أخيها وبيتها أكثر من مائة خطوة، وقد بلغني انها قبل اتصالها بالسلطان كانت من أقل الجوارى المبتذلات للمهنة، فكانت تأتي بالماء والحطب على رأسها من الخلاء، والان تعبت من مشي مائة خطوة قال: فقلت لها: من كثرة ماعانيت في هذا اليوم،

قال: ثم دخلنا الدارو الخصيان واقفون على الباب لايجترئ أحد منـــهم أن يتكلـــم، وقد عرفوني معها، فلما وصلت الى حجرتها دخلت معها، فأطلقت يدي فجلســـت على فراش هناك وانطرحت هي على سريرها تتقلب يمنة ويسرة، وتهز منحورها بيديها ثم قالت لي: إن بي صداعاً، فقلت لها: لابأس عليك، قالت: فاقرأ لي عليـــه، لعله يذهب فجئت اليها وقد علمت أن ذلك حيلة منها لمقصودها، وإن الكبْر يمنعها أن تقول لي: هيت لك، مع أن جميع من كان معها من النساء ذهب، ولم يبق الا انا وهي، وهناك جارية جالسة خارج الباب ان احتاجت الى شيء دعتها له.

قال: فلما أكثرت من التقلب ولم تر مني ميلاً اليها، دعتنـــي لأقـــرأ علـــى صدغها، فحين وضعت يدي على صدغها وابتدأتُ القراءة ارتعشت تحـــت يـــدي وصارت تضطرب اضطراب المذبوح وتتأوه، فشممـــت منـــها رائحـــة الطيـــب فانعشتني وأخذني مايأخذ الرجل من النشاط، فهممت أن أعلوها فأدركني خوف من ابنها السلطان، لأنه متى وجد مع أمه أحداً قتله، وقد تكرر منه ذلك مراراً إذ كان يهجم عليها بغير استئذان، لكنها قد رصدت له أناساً يخبرونها بمجيئه، فـــان كـــان عندها أحد تحيلت في اخراجه.

قال: وخفت أيضا على نفسي، لأني كنت سمعت أنها مصابة بداء الحصـــر وهو المعبر به عند الحكماء بالسيلان الأبيض، أعني أن كل من واقعها ابتلي بـــه سيما وقد شاهدت من مرض به منها.

قال: فحين أدركني الخوف من هاتين الجهتين برد مابي قليلاً، وكانت قـــد أطلعت على حالي أولاً، فلما رأت مني الفتور ظنت أني جائع فدعت بجارية لـــها إسمها ذراع القادر، وقالت لها ائت بطعام جميل، فأتت الجارية باناءين في أحدهما حمام مقلو في السمن، وفي الأخر فطير بالعسل قالت لـــي: كُلْ قـــال: فـــأبيت واعتذرت بأني غير جائع فحلفت عليّ فتناولت من الطعام واعجبني وكان الوقـــت متأخراً، وكنت في تلك الليلة محتاجاً للطعام، وبينما أنا آكل اذ ســـمعت حركـــات عنيفة وكركبة، وجاء الخدم يهرعون ويقولون ان السلطان قد أتى، فقالت: خـــذوا هذا وأخرجوه من الباب الثاني، فأخذني الجواري وأسرعوا فـــي المشـــي حتـــى أخرجوني من الزريبة.

ومن لطف الله تعالى أن السلطان لم يدخل عليها من الباب الـــذى عادتـــه الدخول منه، بل من الباب المذكور، وأوقف عليه حرساً، ودار حتى أتـــى للبـــاب الذى خرجت منه، لأنى بمجرد خروجى وانفصالى عن الباب رأيت نواصى الخيل قد أقبلت، فوقفت على بعد أرى مايكون، فسمعته يقول للبوابين: من خرج الآن من هنا؟ فقالوا: لأحد، فقال أحد الفرسان: أنا رأيت انساناً انفصل من هنا وأظنه كـــان هنا، فقال جميعهم مارأينا احداً، كل ذلك وأنا واقف أســـمع، وحمـــدت الله الـــذى أخرجنى قبل وصولهم، والا لو وصلوا الى الباب قبل خروجى كنت أول قتيل.

فحين سمعت منه هذه القصة تعجبت غاية العجب، وعلمـــت أن الخصيـــان لاينفعون الامع عدم غرض النساء، ومتى كان للمرأة غرض لايقدر الخصـــى أن يصنع شيئاً، فانظر يا أخى كيف وقعت هذه القصة من هذه المرأة مع أنها أم ملك، ولو وقعت من غيرها لكان للكلام فيها مجال، فكيف بهذه[1] ؟ وبالجملـــة فالنســـاء لاخير فيهن الامن حفظها الله ورحم الله من قال من الطويل:

فيهن من تسوى ثمانين بكـــرة ... وفيهـــن من تغلـــو بجلـــد حـــوارة

وفيهن من تأتى الفتى وهو معسر ... فيضحى وكل الخير فى صحن داره

وفيهن من تأتى الفتى وهو موسر ... فيصبـــح لـــم يملـــك عليـــق حمارة

وفيهن من لم يسق الله عرضها ... اذا غاب عنها الزوج راحت لجارة

فلا رحم الله خائنـــة النســـا ... واحـــرق كـــل الخائنـــات بنـــاره

وليعلم ان كل مصيبة تقع أصلها النساء، فكم بسببهن قتلت ملوك وخربـــت ممالك وسفكت دماء، فهن لنا شياطين على حد قول الشاعر:

ان النساء شياطين خلقن لنا ... نعوذ بالله من شر الشياطين

---

[1] علق البعض على هذه القصة بأنها خالية من الحقيقة وأنها من تلفيقات الراوى وتشهيراته ومغامراته الخيالية الجنسية، لأنه لم يعرف عن هذه السيدة شىء من هذا القبيل فى حياتها الطويلة، وعموم حديثه عن النساء فى دارفور ووداى حديث مبالغ فيه ويكشف لنا ذلك انه كان يعانى الشبان المراهقين فى مثل سنه والذين يميلون الى الخيال والمغامرات وصنع البطولات فى هذا المجال.

غريبـــة:-

مقتضى انهم جعلوا الخصيان لصيانة الحريم عن الرجـــال، ان الخصيـــان أمناء عليهن من طرف السيد، والأمر يخالف ذلك، فقد رأينا منهم من عنده عـــدة نساء يتمتع بهن، وأول من رأيت عنده ذلك محمد كرا، الذى أسلفنا ذكره.

وحكى لى من أثق به: أنه لما رأى الغلب عليه فى قتال الســـلطان محمـد فضل كان عنده امرأة من من أجمل النساء فذبحها بالليل قبل موته لئلا يحظى بها غيره وهذه نهاية الغيرة.

ورأيت فى دارفور وفى الوداى كثيراً من الخصيان، كل منهم حائز نســـاءً عديدة وسألت من أهل الخبرة مايصنعون بهن، وهم كهنَّ من حيـــث أن أعضـــاء التناسل مفقودة؟ فقيل لى: أنهم يساحقون النساء ويشتد بهم الحال وقت المســـاحقة حتى أنه يعض الأنثى وقت الانزال عضاً مؤلما، وكنت إذ ذاك لجهلى بعلم الطب أصدق ذلك، لكن الآن ل لا أصدقه لأن وظيفة العضو فقدت بفقده والعلة تدور مع المعلول وجوداً وعدماً.

وكنت سألت أهل الخبرة عن كيفية الخصى، فأخبرنى بعضهم أنه يؤتى بمن يراد الفعل به فيضبط ضبطاً جيداً وتمسك المذاكير وتســـتأصل بموســى حـاد، ويوضع فى فى ثقب مجرى البول أنبوبة، صغيرة من صفيح لئلا ينسد، ويكون قد سخن السمن على النار تسخيناً جيداً حتى غُلِيَ، ثم يكوى به محل القطع، وبعد أن يكون محل القطع جرحاً حديدياً ينقلب جرحاً نارياً ثم يدأوى بالتغيير عليه بالتفتيك والأربطة، حتى يشفى أو يموت، ولايشفى منه الا القليل.

فان قيل: إن فى هذا تعذيباً للحيوان الناطق، وقطعاً للتناسل المأمور بكثرته شرعاً فهو حرام، قلت: نعم، قد صرح غير واحد من العلماء بحرمته خصوصـــاً جلال الدين السيوطى رحمه الله، فانه صرح بالتحريم فى كتابه الـــذى الفـــه فـــى "حرمة خدمة الخصيان، لضريح سيد ولد عدنان(١)" لكن الحرمة علـــى الفـــاعل،

---

(١) يقصد الشيخ السيوطى هنا الكتاب حرمة إخصاء الرجال وإرسالهم الى الكعبة المشرفة للانقطاع للعمل فى خدمة مســجد الرسول صلى الله عليه وسلم كما كان يفعل بعض الســلاطين والملوك، خاصة سلاطين الفور، ويطلق على هؤلاء اسم الأغوات كما هو متعارف الآن.

وانما يخصي الخصيان قوم من المجوس، ويأتون بهم الى بلاد الاسلام فيبيعونهم ويهادون بهم ولايخصى على يد المسلمين منهم الا القليل النادر.

وأما استخدامهم بعد الخصي فلا ضرر فيه بل فيه ثواب عظيم، لأنهم لو لم يستخدموا لحصل لهم الضرر من وجهين: الأول: ماوقع عليهم من الخصي الموجب لفقده اللذة العظيمة وقطع التناسل، والثاني: من ضيق المعيشة.

فان قيل: اذا كان الأمراء كالملوك ومن يجرى مجراهم يجمعون كثيراً من النساء في دورهم وكلهن شابات، ومن المعلوم أن الغيرة موجودة فيهن، كما هي موجودة في الرجال، لانهن شقائقهم، فكيف يعاشرن بعضهن خصوصاً اذا أحب الرجل واحدة منهن، وأعرض عن غيرها؟..

قلت: ان العداوة واقعة بينهن على قدر أحوالهن فكل منهن تتمنى أن يخلو لها وجه زوجها، ولايألف سواها، لكن لما كن تحت قهر الزوج خصوصاً ان كان ملكاً يخفين البغضاء، ويظهرن المودة وهذه عادتهن في اخفاء مايبطن واظهار ضده، ولايظهر ماأخفت المرأة منهن الا اذا زال خوفها، وملكت رشدها وحينئذ تظهر ماكان كامناً في صدرها.

فان قيل: مارتبة نساء السودان في الجمال؟ قلت: اعلم أن نساء السودان على اقسام في ذلك، ومن المعلوم أن كل قبيلة فيها الجميل والقبيح لكن هناك قبائل يوجد فيها الجمال أكثر وأخرى يوجد فيها التشوه أكثر، وأقل قبيلة في دارالفور معروفة بالجمال هم التموركة، لأنهم وحشيون أهل جبال وسوء معاش، وكذا الكراكيت[1]، وقد ذكرنا سابقاً ان قبيلة البرتي والميدوب أجمل نساءً من غيرهما، ويليهما قبيلة البيقو والبرقو والميمة والتنجور وأشوه قبائل الفور نساء أعجام الفور، ويليهم الداجو والبرقد والمساليط، كما أن في دار الوداي قبيلتي أب سنون وملنقا أومننيقا أجمل نساء الوداي، ويليهم الكوكة والميمة وكشموه، وأقبحها نساء

---

(1) الكراكيت: أشار التونسي في كتابه الأول "تشحيذ الاذهان" الى ان الفور ينقسمون الى ثلاث شعب أو بطون: الأولى الكنجارة ومعظمهم من شرق جبل مرة، والثانية الكراكيت، وهم سكان جبل مرة الاصليون، والثالثة: التموركة، ويعيشون في جنوب غرب دارفور.

ينظر: تشحيذ الاذهان ص ١٤٣ هامش

التاما، ويليها البرقد والمساليط والداجو، ولايقدر الانسان ان يساوى بين جمال أهل السودان وغيرهم من أهل بلادنا لاختلاف اللون.

تنبيـــه:

أجمل أهل بلاد السودان عموماً من مشرقها لمغربها نساء غفنـــو[١] يليـــهم باقرمة وبرنو وسنار وأوسطهم الوداى، ويليهم الفور، واقبحهم التبو[٢] والكنكـــو[٣] وبالجملة فالجمال يوجد فى كل قبيلة لكن قد يقل في واحدة ويكـــثر فـــى أخـــرى وسبحان من خص من شاء بماشاء، لارب غيره، ولامعبود سواه، فما كل اســـمر مسكاً، ولاكل أحمر ياقوتاً ولاكل أسود زباداً[٤] ولاكل لماع ماساً، وان شئت قلت: ماكل أسود فحماً، ولاكل أحمر لحماً، ولاكل أبيض جيراً، فقد يوجد فـــى الأســـود والأسمر من الجمال مالايوجد فى الأبيض الشاهق، وكأنى بقـــائل يقـــول: وهـــل تستوى الظلمات والنور، أو الظل والحرور[٥] لكن من الناس من تعشق فى السمر حيث قال من الطويل:-

وفي السمر معنى لو تأملت حسنه ... لما عشقت عيناك بيضاً ولا حمرا

واحب بعضهم السواد وبالغ حتى قال، من الوافر:-

أحِبُّ لأجلها السودان حتى ... أحِبُّ لأجلها سودَ الكلاب

---

[١] غفنو: احدى بلاد اقليم تقع غرب الفاشر شمال بلاد الفوسا ينظر: Voyage au ouaday, P.15

[٢] التبو: يطلق اسم التبو Tobo والتيدا Teda على القبائل الصحراوية التي تسكن اقليم تبستي وهم يشكلون الجذور القبلية لمجموعات الزغاوة والقرعان وغيرها. ينظر: دائرة المعارف الإسلامية، مادة "تبو"

[٣] الكنكو: اقليم سبق تعريفه وتسكنه قبائل متعددة يطلق عليها اسم كنكو وهي قبائل افريقية زنجية.

[٤] الزباد: وهو عبارة عن طيب يستخرج من مؤخرة السنور، أي قط الزباد وهو طيب نافذ ذو لون أسود.

[٥] هذا اقتباس من الآية القرآنية: "وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور" سورة فاطر الآية ٢٣.

وكنت قديماً مغرماً بهذا المذهب فقلت، من الوافر:-

يلوموني على حبي بسودا وما علموا السيادة في السواد

فقلت لهم: دعوني لا تلوموا فإن السود سادوا بالسواد

وجل البيض لولا الحاجبان وخال الخد حالك في السواد

لما عشقوا ولا نظروا بعين ولكن الفضيلة في السواد

وفي الأول السواد بمعني: السؤدد، وفي الثاني بمعنى: المال، وفي الثالث بمعنى السواد الحقيقي، وفي الرابع بمعنى: العالم الكثير.

وقال بعضهم من البسيط:-

قالوا: تعشقتها سودا فقلت لهم لون الغوالي ولون المسك والعود

اني امرؤ ليس حب البيض مكرمة عندي ولو خلت الدنيا من السود

وقال الفاضل الشيخ عبدالرحمن الصفتي من الكامل:-

بالروح احمي نقطة من لونه تكسو البياض من الجمال شعارا

ولو استقل من البياض بمثلها لاعتاض من ثوب الملاحة عارا

ما من سلافته سكرت وانما تركت سوالفه العقول حيارى

حسد المحاسن بعضها حتى اشتهت كل المحاسن ان تكون عذارى

وكنت عارضته بقصيدة منها قولي، من الرجز والكامل أحق:

الحق أبيض دع مقالة معشر قد عاندوا واستكبروا استكبارا

وقال الصفتي أيضا من البسيط:-

قالوا تعشقتها سمراء قلت لهم | لون الغوالي ولون المسك والحدق
وما تركت بياض البيض عن غلط | اني من الشيب والأكفان في فرق

وتغالى بعضهم في مدح البياض وذم السواد بكلام يطول وقال: من عاند في ذلك، عميت بصيرته عن قوله تعالى "فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة"[1] "ولكل وجهة هو موليها"[2] وللناس فيما يعشقون مذاهب.

---

[1] سورة الإسراء الآية ١٢.

[2] سورة البقرة الآية ١٤٨.

الفصل الرابع عشر

العودة الى المغرب ومصر[1]

عندما عمر الله بعظمة قدرته وجه الأرض بالناس، وقسم لكل الأجناس المناخات التي تلائمها، وضع في قلب الانسان حب الوطن وأراد أن تحب الحيوانات أيضاً مساكنها وبلادها.

قال نبي الله خير بني عدنان: " حب الوطن من الدين" حقيقة لاينسى الرجل أرض مولده ويحب أبداً أكثر من هذه الأرض الأولى التي قضى فيها جزءً من أيامه سالم يعش فيها ذليلاً مهاناً، وإن لم يجد أرضاً أخرى يعيش فيها عيشاً أكثر يسراً وعزاً، ومع كل سيذكر دار أسرته في خفض جناح والديه، قال الشيخ الدميري في غمرة فرحة والاحترام الذي لقيه عند اقامته في الهند: ليتني مع كل هذه السعادة في ضاحيتي دميرة.

كان يحلو للعرب أن يضمنوا قصائدهم ذكرى الأماكن التي أقاموا فيها وأطلالها والواحات الخضراء التي تحيط بها، وغنوا أيضاً للمساكن التي التقوا فيها، وعندما خرج الرسول الكريم من مكة الى المدينة، توجه صوب الكعبة وعيناه تغرورقان ثم قال: "نعم لاحبك ايتها المدينة الفاضلة، ولولا مكر كفار قريش لما تركتك" ثم رفع يديه الى السماء وقال: "رب انت الذي اخرجتني من هذا المقام الذي احب، فقدني واستقبلني في المكان الذي تحب"[2] هذه على الاقل أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم التي تدل على تحسره.

---

[1] هذا الفصل بكامله لم يكن موجوداً في المخطوط العربي فاسمعنا في كتابته بالترجمة الفرنسية حتى يكتمل الكتاب وتتم فائدته.

[2] ورد هذا الحديث بصيغ عدة منها قوله صلى الله عليه وسلم "لقد علمت أن أحب البلاد الى الله عز وجل مكة ولولا ان قومي اخرجوني ماخرجت اللهم اجعل في قلوبنا حب مكة". رواه البيهقي في شعب الايمان عن ابن عمر، كنز العمال ١٢/ ٢١٠ بباب فضائل الامكنة. ومنها: "والله انك لخير ارض الله الي ولولا اني اخرجت منك ماخرجت" رواه الحاكم عن ابي سعد في المستدرك وتعقب عن عبدالرحمن بن الحارث بن هشام عن ابيه، كنز العمال ١٢/ ٢١٠، ومنها ايضاً " والله انك لخير ارض الله واحب ارض الله الى الله ولو لا اني اخرجت منك ماخرجت" كنز العمال ١٢/ ٢١٠ قال رواه في المستدرك عن عدي بن الحمراء اخرجه الترمذي من كتاب المناقب في باب فضل مكة، رقم ٣٩٢٥ وقال حسن صحيح.

أما بعد.. فتعالوا الى قصتي:

عندما وصلت الى وداى كان والدى قد غادرها وذهب الى تونس وكان من جانبه يرى ان الذنب ذنبي لانني تأخرت في اللحاق به كان قد كتب الى سلطان دارفور والفقيه مالك يرجو منهما السماح لي بالمغادرة الى وداى، لكن السلطان نفسه منع سفرى وأرغمت على البقاء شهوراً في دارفور، نفذ صبر والدى من تأخرى فأودع بيته وأملاكه ومزارعه وأولاده لعمي الشريف أحمد زروق، وغادر وداى قبل أن أصلها.

قررت وقد سامني عدم محالفة الحظ لي أن لا ألقي بعصا المسافر، وان أواصل مباشرة حتى ألقى والدى، لكن لطف السلطان صابون أوقفني، فقد أرسل لي هدايا جياد أصيلة وجوارى حسناوات، وملابس ثمينة فخف حنيني ولم أفكر مجدداً في قرارى الأول.

مكثت في وداى لبعض الوقت، ولسوء حظي خلف الشريف أحمد الفاسي (من فاس بالمغرب) والدى في الوزارة، كان الشريف أحمد رحمه الله يكره والدى وكل من له علاقة به، فوشي بي عند السلطان قائلا: انني لم أكن سوى جاهل، ورجل فارغ بلاقيمة، وغير جدير بأن يستقبلني أو أن اقترب من أمير، هذه الوشاية وقد تكررت على مسامع صابون فاثارت فيه النفور، ولم يعد يراني إلا ببرود وتجاهل، وتوقفت عني عطاياه السخية.

من جانب آخر استولى عمي زروق على كل خراج أرض أبي، ولم يعطني الامايقيني شر الموت جوعاً، وحرمني حق التدخل والتصرف في مال والدى، وجعلني أسمع انني لا اعرف الا التبذير، وشكوت عدم رضاى عن مسلك عمي زروق، لكن أحداً لم يشأ أن يأخذ بحقي، أو يساعدني في التمكن من التمتع بحقوقي فوجدتني في ضيق وسط الوفرة، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت وصارت شحيحة عليّ، بعد أن كانت في أول الأمر كريمة.

ولكن اذا قدر الله أمراً يمهد له الأسباب، ويفتح له سبل النفاذ، لقد مللت وسئمت مثل هذا العيش، وطلبت من السلطان الاذن لي بمغادرة وداى، والتوجه صوب فزان للوصول الى تونس حيث يوجد أبي، كانت القافلة السنوية تستعد

للرحيل والاذن الذى كنت أطلبه حصلت عليه بعد تدخل الشريف أحمد، وأعـــددت عدتي للرحيل، فاشتريت قرباً وزاداً وكل الأمتعة الضرورية وأخيراً حــــدد يــوم الرحيل وأعلن.

اريد هنا ان اقول عرضاً ماهى بدايات الشريف أحمد الفاسي، وكيف كان، وماسلكه وأدبه وكيف كانت نهايته.

لايترك العاقل العنان لخياله فعليه أن يذكر الحقيقة مهما كانت، ولو كــانت ضد مصالحه، ولذلك أقول: إن الشريف أحمد رجل يعرف الشريعـــة والحديـث والسيرة، ويعرف بعمق مبادىء المذهب المالكي، إذ كان يحفظ عن ظـــهر قلـب الموطأ (اساس مذهب الامام مالك) وكان يشرح الحديث على بصـــيرة، اذ يـدرك غاياته وأحكامه. وكان قد تلقى تربية رفيعة فى وسط روحــــانى يعـرف أســس ومبادىء العقيدة، وقد تلقى معرفة غزيرة فى العلوم الشرعية والأحكام.

إن أحمد الفاسي كما قال لى أحد العلماء البارزين فى فاس: لقب ببابا، لكن لا أعرف ان كان هذا اللقب لكثرة أبنائه أم اطلقه عليه تلاميذه[1] ، قادت به أحداث بسيطة الى وداى، كان قد خرج من بلاده لأداء فريضة الحج، وبعد أدائها بقـــدرة الله وجد نفسه مع حجاج من دارصليح، فحدثوه عن كرم السلطان صابون وخصاله الفاضلة حدثوه عن حب هذا الأمير للعلم والعلماء، فأثارت هذه الأحاديث رغبـــة الفاسى فى رؤية صابون والتعرف عليه، فمر بسواكن ومنها الى سنار وكردفان ثم الى دارفور، كان ذلك على ماأعتقد فى عام ١٢٢٤هـ حوالى ١٨٠٩-١٨١٠م

التقى فى كردفان بالشريف بدرالدين وهو فزاني، وصهر لسلطان فـــزان، وقد عرف بدرالدين هذا والدى، ونهل من علمه الغزير، وفى كردفان أيضا تعرف على الشريف أحمد، ثم خرجا معاً من كردفان، كان بدرالدين يحدث الجميع عـــن فضائل وعلم سيده، وعكف على خدمته كما يخدم العبيد سادتهم، كان لهذا السلوك

[1] يبدو ان لقب بابا لكثرة علمه تشبيها له بالشيخ أحمد بابا التمبكتي الذى اشتهر بمدينة تنبكت والسودان الغربى بغزارة علمه وفصاحته وكثرة مؤلفاته وعندما غزا المغاربة دولة سنغى اخذ اسيراً الى مراكش وهناك جلس للعلم فى مسجد الشرفاء لاكثر من خمسة عشر عاماً فاصبح سيد العلوم فى المغرب وخاصة فى الفقه المالكي وكانت له مواقف مشهورة مع سلطان المغرب الملقب بالمنصور الذهبى ثم فسك أسره وعاد الى السودان فى بداية القرن الحادى عشر وتوفى فى مدينة تنبكت: ينظر: عبدالرحمن السعدى، تاريخ السودان، طبعة هوداس ١٨٩٨، باريس، ص ٢١٠.

غايته، اذ كان الفزاني يعتقد جيداً انه سيكسب كما يكسب سيده بعض الحفاوة عند السلاطين، ففي كل بلد يتوقف فيه الشريف كان بدرالدين يتحدث عن مقدرات سيده الخارقة وكما يقولون: يهز الفروع ليلتقط صاحبه الثمر، أي انه كان يحث الناس على تقدير فضائل الفاسي ومعاملته بسخاء.

عندما وصل الصديقان الى دارفور استضيفا في قرية ابوالحسن بالقرب من تندلتي من الناحية الشرقية، وبعد زمن قليل عم نبأ وصول عالم الى القرية، عم كل تندلتي وجاء الناس من كل حدب وصوب وحتى من مسافات بعيدة لزيارته وأسرعت جموع الفضوليين من القرى والبلدات.

كنت حينها في تندلتي فذهبت أيضاً لرؤية الشريفين وتقديم التحية والمجاملة ودعوتهما لمرافقتي الى قريتي في جلتو، لكنهما اعتذرا وشكراني وقالا انهما مستعجلان لمغادرة دارفور.

علم السلطان محمد فضل بوصول عالم الى قرية ابوالحسن، فأرسل يطلب منه الحضور الى الفاشر، ولخبره بأن السلطان سوف يستقبله بحفاوة، فرفض الفاسي بكبرياء الذهاب، وقال: مأأهمية مقابلة هذا الظالم، أيظن انه يغريني بهداياه ويلجمني عن قول الحق"

ذهل السلطان لهذا الرفض وأراد أن يتحمل أتعاب المسعى، وبعد حوالي ساعة ونصف من مغيب الشمس وصل السلطان الى الحاج المتعالي وقبل يديه ثم رجليه لكن الفاسي سحب يديه ورجليه متحاشياً لمس السلطان، ثم قال :"ابتعد عني أيها الظالم" ترجاه الفضل أن يباركه، لكن الفاسي رأى أنه لايستحق وقال: لن أدعو الله لك الاعندما تتخلى عن أعمالك الظالمة"

صاح السلطان وقد أثارته هذه الاجابة وجرحه هذا الاحتقار وهذه الكبرياء والوقاحة " إن قتل مثل هذا الرجل من العدالة "لكن ولحسن الحظ أنه كان برفقة محمد فضل إبن أخته الأمين حامد، والذي سعى لتهدئة خاله، حيث قال" إن الأمراء لن ينالوا احترام الرجال بقتلهم العلماء حتى اذا سمحوا لأنفسهم الحديث بحرية، واذا ظنوا أنهم يجب أن يبقوا بعيدين عنا، حسب مبادئهم وتعاليمهم الدينية فان

عاملتهم بسخاء سيكون ذلك اكثر تشريفاً لك، وبذلك تمنع ان يقول الناس بأن حاكم دارفور لايعرف سوى احتقار واهانة العلماء الذين يزورون بلاده.

فهدأت ثائرة السلطان، بل أغدق على الشريف أحمد بالعطايا والحفاوة، فأرسل له عشرين عبداً وعشرين قلة من السمن والعسل وعشرة جمال محملة بالقمح، وأضاف الأمين حامد ورفاقه الى ذلك هدايا أخرى من جانبهم.

لكن الحاج المتصلب مصراً على كبريائه حيث احتقر هذه العطايا وأراد أن يرفضها، لكن بدرالدين أوضح له مسأوىء مثل هذا العمل، وخلص اخيراً على ان يقبل كل شيء.

بعد ذلك بقليل ذهب المسافران الى قرية كوبى حيث استقبل الشريف أحمد بحرارة، وهرع الناس الى مده بكل مايحتاج، ثم أووه وعاملوه برفق، وأخيراً واصلا السير وسلكاً طريق وداى، ولكن أينما ذهب الفاسى الماكر يكرر دوماً تباهيه بورعه، وأن هذه العطايا التى تُحمل اليه لم تكن فى نظره سوى أشياء تافهة لايعيرها أى قيمة أو اهتمام، وانها تذهب للمسكين الشريف بدرالدين الذى قبلها واستلمها من اصحابها، لكن فى الحقيقة لم يحصل منها بدرالدين الا على طعامه اليومى.

عندما وصل أحمد الفاسى الى وداى لم يبد السلطان صابون حرصاً كبيراً على ملاقاته، كما فعل محمد فضل، إذ اكتفى بأن أهداه بعض العبيد، وعين له مسكناً فى قرية نمرو، ثم قطع له جعلاً متواضعاً يعيش عليه.

هكذا عاش الشريف فى قريته حتى يوم قرار والدى السفر الى تونس وطلب من السلطان صابون الاذن بالرحيل، وحين سأل السلطان والدى قائلاً " لكن من سيقوم مقامك فى الوزارة؟!" أجاب والدى: الشريف أحمد يستطيع أن يحل محلى فى الوزارة ويعلمك القراءة"

فتم انتخاب الفاسى ومعه اختفى زهده وورعه، وبدأ فى الاكتناز، فكدس ثروة على ثروة حتى جاء اليوم الذى اغتالوه فيه مثله مثل أى بائس.

هناك عدة أسباب مهدت لهذه النهاية الفاضحة مثل: بخله، طمعه، تكبره، أقواله الجارحة، سلوكه المتعالى، حبه المفرط لذاته، وزهوه ورغبته فى اذلال

الجميع، فان اجتمعت كل هذه المساوىء في ملك لجردته، وان اجتمعت في تاجر لحطمته في يوم واحد، وإن اجتمعت في أي رجل آخر غير الفاسي لهدته في لحظته وغطته بالعار.

أرهقت أعمال الشريف أحمد ووجوده أهل وداي، ففكر كبارهم في التخلص منه بالقوة، ولكنهم خشوا غضب السلطان صابون وثأره منهم، مماجعلهم ينتظرون فرصة مواتية، فسكتوا وأضمروا كراهيتهم وغيظهم الى حين، فقبل حوالي ثلاث أو أربع سنوات مرت أحداث راح ضحيتها الفاسي، وقبل الحدث كانت هناك مناسبات عدة كانت كافية لجعله يفتح عينه على الأخطار التي تحيط به ويغادر وداي الى الأبد، كان أهم هذه الأحداث مغادرتي لدارصليح، فقد أخبرت والدي بأفعال ومعاملة الشريف أحمد لي، فقرر العودة الى وداي مستنكراً نكران الفاسي للجميل.

لقد استقبله صابون بحفأوة بالغة وجرد أحمد الشريف من الوزارة، فعاد يلقي الدروس في بيته كما كان يفعل سابقاً، مر عامان هكذا، وبعد أن عجز أحمد عن استعادة مجده واحتقره الجميع، طلب الاذن بالسفر من وداي، كان يتخيل حينها أن السلطان سيمتنع ويعيد اليه على الأقل جزءً من اعتباره وعنايته، لكن الطلب قُبِلَ على الفور وسارع صابون في تسهيل أمر سفر الشريف.

خرج أحمد يسوق معه على الأقل خمسمائة عبد وأربعمائة من الجمال الجيدة، وجواريه وأولاده وكل ثروته القديمة والجديدة، ولم يترك شيئاً البتة في وداي، ولسوء حظه انضم الى قافلة سلكت خط جالو، وقد مضى وقت يسير على تسيير صابون قوافل في ذلك الاتجاه، وبالتالي لم يعتد خبراء الطرق على السير في هذا الاتجاه الجديد، ولم تبتعد القافلة التي رافقها أحمد سوى سبعة أو ثمانية أيام من السفر عن جالو حتى تاهت وهامت على وجهها في الصحراء لعشرة أيام، فنضب مخزون الماء واستحكم العطش في الناس، فقد كان الجو حاراً والسراب يلمع، فسيطر اليأس ووصل الحال الى بيع جراية الماء المستخلص من كروش الجمال بسبعة ريالات، أما الماء النقي فقد بيع بسبعين ريالاً، فمات عدد من

المسافرين، وكان للشريف أحمد مخزوناً معتبراً من القرب الكبيرة والصغيرة المليئة بالماء، ولم يفقد من عبيده الا الذين تخلى عن مراقبتهم والعناية بهم[1]

كانت القافلة تعرف أن لدى الشريف قدراً وفيراً من الماء، وأنه منذ بداية تيه القافلة كان قد خبأ جزءاً من قربه في مخاليه، فجاءوا يترجونه ويستغيثونه ان يكون انسانياً وكريماً ليعطي القافلة التي هدها العطش وانهكها التعب قليلاً من الماء أو يبيعه لهم بالسعر الذي يريد، فاستشاط أحمد غضباً وهاج وماج وقال لهؤلاء التعساء: في الحقيقة عرضكم عجيب، تريدون حرماني من مائي وتعرضوني وأولادي للخوف والعطش، قالوا له: ليس لدينا إلاكلمة واحدة نقولها لك: اتظن بأننا نموت من العطش ولديك من الماء مايكفي لعبيدك وجواريك وأبنائهم؟ كل الناس أناس أمام الله كخلائق، هذا صحيح لكن نحن المسلمين وكذلك الأحرار أعظم عند الله من العبيد، قال أحمد: ليس لأحد الحق في أخذ زادي، ولا أريد أن أعطي منه شيئاً فالماء في المواضع الحرجة مثل التي نحن فيها الآن، أغلى من أن يعطى أو يباع.

بعد هذا الكلام القاطع هجموا على جمال الشريف وأخذوا ماءه وتركوا له قربتين لتكفيه هو وأبناؤه، وبعدها عطش عبيده وإماؤه وماتوا جميعاً، وعندما حل الليل وبفضل البرودة تمكن الشريف وأبناؤه وبعض العبيد وثلاثة جمال من النجاة من الموت، ثم تحركوا، ولكن بعد ثلاث محطات من السفر مات باقي العبيد وضاعت هكذا ثروة الشريف الجشع والتي جمعها بالمكر والخداع.

عند وصوله الى جالو استأجر أحمد جمالاً وعاد متعقباً دربه باحثاً عن بضاعته التي أرغم على تركها في الصحراء، لقد كانت تحوى صمغاً وعاجاً وريش نعام كلها منتقاة وذات جودة عالية، فوجدهاوحملها وباعها فحصل منها على ثروة تمكنه من عيشة متواضعة.

عند عودته الى فاس وبعد أن تخلص من قلقه وخوفه من رفاق سفره كتب الى علماء طرابلس (بلاد البربر) طارحاً عليهم السؤال التالي: (مارأيكم حفظكم الله في هذه المسألة: مسافر في الصحراء يتبع قافلة متزوداً بما يكفي من الماء، وتاهت

---

[1] تحدث المؤلف عن هذا الحدث في فصل سابق، وأشار الى أنه سيتناوله بالتفصيل في فصل آخر.

القافلة، وبدأ العطش واشتد، فانتزعت كل القافلة ماء الرجل بالقوة، فمات من معه من العبيد، وفقد بذلك ثروته، أيجوز في هذه الحالة أن يتحمل أهل القافلة خسارة الرجل أم لا؟.

رد علماء طرابلس بأن القافلة مسؤولة عن خسارة الرجل، ثم وقعت هذه الفتوى وأرسلت الى الشريف أحمد، فأخذها وتوجه بها الى السودان.

لم يكن والدي موجوداً في حينها، فاستعاد أحمد الوزارة واستعاد معها سلطته القديمة، وأعلن صراحة عداوته لعمي زروق ورفع القناع وكرر لمن يريد أن يسمع: أن كل أقارب الشريف عمر أعدائي".

عادت القافلة الى السودان وعاد معها الذين استولوا على ماء أحمد الشريف في صحراء جالو، وما أن يدخل أحدهم وداي حتى يجرد من أملاكه لصالح الشريف، بموجب فتوى علماء طرابلس، وبهذه الطريقة استعاد القاسي الجشع ضعف أو ثلاثة أضعاف قيمة مافقد، لقد ترجاه عدد من أكابر وداي بالعفو عن رفاقه المساكين، لكن الشريف القاسي أعرض عن ذلك، ولم يستمع الا لنداء الثأر (سيسمعوا خبري) كان هذا رده لكل طلبات العفو.

تتبع الشريف أحمد بثروته التي جمعها على حساب رفاق دربه القدامى وتخيل اليه ان الحظ قد مد اليه يديه ويجلب له السلامة والامن في المستقبل، لكن فجاة اغبرت الأفق وتقلب دلوه وبدأ غبار الخطر يرتفع، وأضرمت النار في هذه الفترة نادى منادي الموت السلطان عبدالكريم صابون، وعمت البلبلة والقلاقل، واعتلى العرش سلطان جديد هو يوسف عبدالقادر بن صابون، ولصغر سن السلطان الجديد لم يكن قادراً على فرض سيطرته على الجيش والمواطنين، عندما أخبر فجأة بان سكان واره يدبرون أمراً لضياع الشريف أحمد.

بعد موت السلطان صابون جرد الشريف أحمد من الوزارة وعاد الى حياته الخاصة، فأرسل اليه السلطان يوسف عبدالقادر يخطره بالخطر الذي يحيط به، ونصحه بالهروب من العاصمة ولكي يقنعه بمغادرة وداي وضّحَ له بأنه لن يصل الى أي وظيفة بعد ذلك اليوم.

شك الشريف أحمد في جدية ورأى السلطان، فبقي في قرية نمـــرو، وذات يوم هجم سكان واره على قرية نمرو واستولوا على بيت الشريف أحمد وقتلوه ثم جرت جثته الى خارج القرية وأحرقت. جعل الله هذه الميتة كفارة لذنوب الشريف المسكين، غفر الله خطاياه.

نعود الان الى قصة مغادرتي:

عندما كانت القافلة التي قررتُ السفر معها على وشك الرحيل، ولم يبق لها سوى شد الرحال، طلبت من السلطان صابون جمالاً للسفر وكنت آمل أن يعطيني جمالاً جيدة، ولكن بسبب تدخل الشريف أحمد أرسلوا اليّ جملاً صغيراً وصل لتوه سن الشد، ضعيف وغر، ومازال غير صالح للتحميل أو الركوب، صبحتُ حينمـــا رأيت الحيوان الهزيل: "يارب أيمكن لمثل هذا الجمل أن يتحمل تعب رحلة طويلة كهذه" قال لي الشريف أحمد: لكن أيها الوقح هل سيدنا السلطان مدين لك بشـــيء؟ هل لديه جمال نجاتي[1] بسنام كالجبال حتى تتجرأ وتشكو، وتقول انه لم يعطيـــك سوى جملا سيئاً؟ هل التزم سيدنا بميثاق بموجبه يعطيك شيئاً آخر؟ أيـــن تريـــد سداده؟ لقد فقدت صوابك في الحقيقة وصرت تتصرف بطريقة غير لائقة، خذ هذا الجمل بسرعة والا أخبرت السلطان بما تفعل بفضائله عليك.

أخذت الجمل مرغماً، وكنت مغتاظاً ومحبطاً.. ثم أضفت بعـــض النقـــود لاستبدال جملي بآخر، ثم غادرت واره مفعماً بالخيبة، ولكن ما أن اقتربت القافلـــة الى أرض المحاميد في حافة الصحراء حتى وصلنا رسول السلطان صابون حاملاً لي معه ثلاث جوار وعبداً وجملين جيدين وثوراً سميناً لأعد منه القديد، فذبحنـــاه وجهزنا قديدنا وبذلك ندين بالعرفان لكرم الســـلطان صـــابون، ونشيـــد بخصالـــه الحميدة، وقد عرفنا بعد ذلك أن اليد الشريرة التي أوقفت عطايا السلطان كانت هي يد الشريف أحمد سامحه الله، ولكن ليبارك الله أيضا الأيام التي قضيتها في وداي، فقد كان فيهن السعد والرغد، رغم ماتحملت من شرور ونزوات الرجال.

---

[1] نجاتي: قبيلة عربية اشتهرت بتربية الجمال الأصيلة. بيرون

عندما جف قديدنا تأهبنا للتوغل في الصحراء، فملأنا القرب بالماء وخرجنا ذات صباح مسرورين بالهدية التي أرسلها السلطان صابون، لم يوقفنا شيء الاخضوعنا للزيارة التي تخضع لها القوافل عند المغادرة.

لقد فحص مفتشو الحكومة كل الرقيق الذي كان بحوزتنا ليتأكدوا عما اذا كان أحد منا يسوق معه أشخاصاً أحراراً كرقيق، وسألوا في هذا الموضوع كل رقيق القافلة كباراً وصغاراً شيباً وشباباً، ففي هذه التحريات يطلق المفتشون كل عبد يثبت أنه من أصل حر، أو أنه كان مسلماً قبل استرقاقه، أو أي عبد يؤخذ قسراً من سيده أو يباع دون علم أو رضا صاحبه.

ثم عبرنا سهولا شاسعة من الخضرة ومراعي واسعة يرعى فيها العرب المحاميد بقطعانهم ومعهم قبائل أخرى، وبعد خمسة أيام من السير وصلنا الى آبار يرد اليها العرب وحتى البديات في شمال شرق وداي وقبائل أخرى مستعدة دائماً لملاقات القوافل ولعرض وبيع المؤن وبعض معدات السفر، كالقرب والحبال وغيرها وتأجير الجمال للجلابة أو للمسافرين العاديين، انها نقطة التقاء ويعلم الله انني نسيت اسم هذه البئر.

توقفنا هناك واسترحنا لمدة يومين وتركنا جمالنا ترعى بحرية ثم استأنفنا المسير، وبعد خمسة أيام نزلنا في بئر الدوم وسميت كذلك لأشجار الدوم التي تحيط بها، في هذه المسافة تهنا وكدنا نبلع آخر ريق لنا.

كان دليلنا قائد القافلة يسمى أحمد، رجل ممن مرت عليه صروف الدهر كان من قبيلة من قبائل التبو تسمى في فزان "توبو رشاد" أو توبو الجبال، وكان أحمد قد قتل في السابق رجلاً من قبيلة أخرى من التبو ومن يومها أخذ رجال هذه القبيلة يترصدونه للثأر منه، ففر القاتل بعد الحادث الى دارصليح، وبقي فيها عشر سنوات خشية أن يعود الى أهله باكراً فيوقظ ذاكرة خصومه، ويدفع دمه مقابل الدم الذي سفك، لكنه أخيراً لم يستطع مقاومة الرغبة في رؤية بلاده وبيوتها ومنزله القديم، وكان يظن أن عشر سنوات من الغياب قد أنست الثأر، فسافر مع قافلتنا وتولى قيادها.

عاش أحمد على أرباح تجارته سعيداً هانئاً في وداي، وتمتع بعيش رغيد راضياً عن حاله، ولم يكن هناك من يخشى الا الله، فقد جلبت له سنه وثروته احترام واعتبار الجميع، فعندما خرج معنا اصطحب معه أكثر من مائة وعشرين شخصاً من أبناء عمومته وأبنائهم أما باقي القافلة فتتكون من حوالي خمسة عشر من أهالي وداي، وخمسة عرب، أنا وطرابلسي اسمه الريس عبدالله (فزاني) ومحمد خير ياسر (فزاني آخر) والسيد أحمد من قرية زويلة وآخر اسمه خليل من طرابلس.

لاحظنا أثناء سيرنا أننا كنا خارج الطريق، وقد تهنا بالفعل فوقفنا بدلا من مواصلة السير، لأننا لو واصلنا السير لأضعنا وقتاً ثميناً، فقررنا التوقف، وبركنا جمالنا، ولكي نحفظ زادنا من الماء من حر الشمس ادخلنا قربنا داخل الطرود (القراف) تحت ملابسنا، انتدب أحمد عدداً من أبناء عمه وأخذ يضرب الصحراء يمنة ويسرة باحثاً عن البئر التي يجب أن نتوقف عندها، لأننا وحسب عدد المحطات والأيام قد تجاوزنا موعد الوصول الى هذه البئر، وأننا قد انحرفنا عن مسارنا وقطعنا مسافة طويلة بلا جدوى، عند الضحى ظهر مستكشفونا من على البعد عائدين الينا، كان الغبار يغطي وجوههم، وعند اقترابهم اعلنوا النجاح في محاولتهم، وقالوا لنا: اننا لسنا بعيدين عن البئر، وسوف نصلها بعد لحظات ولو سرنا بخطى بطيئة، فحل الفرح مكان القلق، والهم، وفي لمح البصر استأنفنا المسير، حضضنا جمالنا على السير بسرعة، فقد كنا نريد وصول البئر قبل ان يعذبنا العطش، فمشينا نحو ساعة على الأكثر فلاحت أشجار الدوم فصحنا (هاهي هاهي) حيث يوجد الماء ناحية هذه الأشجار، فقلنا يجب أن نرتاح هنا اليوم، وما أن نطقنا بهذا القول حتى ظهر لنا جمع من التبو تركمان.

والتركمان هؤلاء لايقومون باستقبال القوافل مطلقاً وهم يقيمون على حواف صحراء ليبيا، وينقسمون الى مجموعات متفاوتة في العدد، يحكم كل منها سلطان أو ملك، وهذه التي جاءتنا كانت حاضرتها تسمى مرمر، فعلم هؤلاء التبو من خلال بعض مسافريهم الى وداي قبل شهرين أو ثلاثة أن قائد قافلتنا هو أحمد الذي كانوا يبحثون عنه للاخذ بثأرهم منه، وهذا فقط ماجعلهم يترصدون طريقنا

ويرقبون قدومنا، عند العبور قتل هؤلاء التبو أعداء قائدنا الطريق أمامنا وأوفـدوا الينا مندوباً جاءنا مسرعاً على ظهر بعير تخاله حصاناً يعـدو، (رائـع ان تـرى المهارة التي يمتطي بها التبو جمالهم، اذ يدربونها كالخيل علـى مجموعـة مـن الحركات البارعة، ولم يكن في أيديهم الازمام (رسن) رفيع طرفه مربوط بثقـب في أنف البعير، والآخر في يد الراكب، كل التبو تقريبا الذين يركبون هذه الجمال للنهب يرتدون ملابس من جلد الضأن لاينزع صوفه"

كان فارس التبو الذي أوفد للتفاوض معنا ملثماً، اذ يتدلى طـرف عمامتـه ليلف مرتين أو ثلاث من الأمام للخلف بطريقة لاتترك مكاناً يرى من الوجه سوى العينين.

عندما اقترب منا صاح بلغة التبو" يا أهل القافلة ان سلطاننا وجماعته قـد حلوا بالبئر ويحذركم من الاقتراب، واعلموا انكم لن تردوها حتى تسلموا قـائدكم ليقتل فداء قتله أحد إخوتنا، قولوا: مارأيكم في هذا الشان لكي أخبر به السـلطان الذي أوفدني لاستجوبكم في هذا الخصوص، ترجم أحد رجال التبو ماقاله الموفـد وقررنا بالاجماع عدم تسليم أحمد الى أعدائه وان التبو اذا طلبوا منا حبلاً لمنعناهم عنه، ثم قلنا للموفد: عد الى سيدك وأخبره بأن لاشيء يجمعنا بكم، وان ليس مـن بيننا أحد يسلم اليه.

ذهب الموفد ونقل ردنا، فاستعد السلطان لمهاجمتنا، وحينئذ انفصل عنا كل التبو الذين كانوا معنا في القافلة باستثناء أحمد وأسرته، وبقوا بعيـداً عنـا، كـان فريقنا لايضم سوى خمسة وعشرين شخصاً بما فينا أحمد، ولم أحسب العبيد فقـد كانوا أكثر.

عند اقترابنا من البئر جاء عدد من التبو في حوالي سبعين جملاً مـترادفين كل اثنين في جمل وهجموا علينا وقذفونا بالحراب، أما نحن وأعني العرب الخمسة فقد صوبنا عليهم وأطلقنا بعض العيارات النارية، ففاجأ التبو وولوا الأدبار فارين كالذئاب المذعورة، وأصبحنا سادة على البئر، فضربنا خيامنا وشربنـا، وتركنـا جمالنا ترعى في الحشائش القريبة.

اعتقدنا أن النبو الأجلاف الذين شتتنا شملهم بسهولة عادوا الـــى ديـــارهم، فاسترحنا في البئر يومين كاملين ولكن في اليوم الثالث سمعنا فجأة صراخاً مدويـــاً وصياحاً فاتجهنا نحو مصدر الصياح لاستجلاء الأمر، فرأينا خمسة جمال باركـــة وعدداً من الرجال المسلحين، وجدنا بالقرب منهم قائدنا أحمد واقفـــاً مـــع رجالـــه وبعض الواديين من أفراد القافلة، كان في وسط المسلحين عجوز يبدو عليه انـــه زعيمهم كان رأسه ملفوفاً بقطعة من السجاد بعرض خمسة أو ستة أصابع وبطول ذراع تقريباً، كان العجوز باركاً وعقبيه على عرقوبية كما يجلس الكلب أوالذئـــب قال له زعيم الوداين: (ماذا اتى بك الى هنا؟ لقد ذهبت فلماذا عدت؟ وعم تبحث؟ ماذا تدعي؟ رد السلطان: إعلموا أولا إنني ملك هذه الصحارى، ولي مـــن الجنـــد مالا تستطيعوا عدهم، وماجئت لأجله هو أنني جئت انصحكم بتسليم أحمد، إن كنتم تريدون الذهاب دون حرب أو جرح، تعلمون أنه لاعداوة بيننا ولاحرب، لكـــن إن رفضتم تسليمي أحمد فسوف تجرون لأنفسكم المخاطر لقد قتل أحمد ابـــن عمـــي الذي كنت أحبه كابن أمي، وواجبي الثأر لابن عمي، غسل العار الذي خلفه تـــرك هذا القاتل حياً، أردف زعيم وداي قائلا: ولكن ألاتخاف أن تقتل كما قتل قريبـــك" رد هذا العجوز: لا أخاف البتة، فمن يقتلني سيقتل بدوره لامحالة، فنحن لانعفـــو عن ثأر أبداً حتى ولو مزقنا إرباً، بهذا الكلام الواضح قام أحمد وأهان الســـلطان وهم بقتله الا انه أوقف، لكنه تسلل من خلف الجند مستغلاً انشغالهم وهيجانهم وقام بقطع عرقوبي جمل السلطان فصاح الأخير فيه " هذه الأخرى ستدفع ثمنها غالياً، سوف أثأر لجملي أيضاً وسأقطع عراقيب أكثر من جمل من جمالكم ســـوف لـــن تستريحوا لحظة، وستروننا على أثركم حتى نسحقكم، بعد هذا التهديد قـــام زعيـــم الودايين وجلد الزعيم العجوز بقوة في جانبيه وقال له: اذهب وافعل ماتشاء لعنـــك الله أنت ومن خلفوك.

قام السلطان العجوز ورجاله بهدوء وذهبوا بدون اكتراث مضمريـــن كـــل مافي صدورهم من غل للودايين.

انتهى ذلك اليوم، وفى صباح اليوم الثانى ملأنا قربنا وجهزنا امتعتنا وفى لحظة شد الرحال صاح أحد رجال القافلة "انتظروا لحظة، لقد اختفى أحد جمال الودايين" انتظرنا لحظة ثم تعالى الصياح من كل جانب فاضطربت القافلة وهاجت وماجت، فعرفنا أن التبو تركمان قد اخذوا الجمل المفقود وانهم قتلوا أحد الودايين، انقسمنا بعد ذلك الى مجموعتين: الأولى جرت صوب المكان الذى قتل فيه رفيقنا، وبقيت الأخرى تحرس العبيد والمتاع والجمال، فكنت من بين الذين ذهبوا للبحث عن الضحية فوجدنا الوداوى غارقاً فى دمه وفى أنفاسه الأخيرة، وعلى مسافة منا رأينا مجموعات من الجمال، يحمل كل جمل فارسين ملثمين بالسواد حتى يخالهم المرء غرباناً جاطين على الجمال، لقد درب هؤلاء الأجلاف مطاياهم بحكمة ودراية بالغة فليس الحصان اكثر سرعة أو طاعة أو صبراً فى أرض المعركة من جمالهم، فتقدم أحد التبو نحونا وصاح فينا قائلاً: ماذا تدعون؟ هل جئتم حتى ترفضوا مانطلبه منكم؟ بالنسبة للجمل الذى عقرتموه فقد اخذنا جملاً أحسن منه، أما الجلد فقد دفعتموه حياة واحد من افضل رجالكم، هذا الذى ترونه قتيلاً أمامكم وسترون آخرين مثله أيضا ان لم تكفوا عن عنادكم قبل فوات الأوان، فلاتغرنكم بنادقكم سوف تنقض عليها فى جماعات سنقطعكم اربا اربا.

كان ردنا على هذا المنطق القريب هو إطلاق بعض العيارات النارية على القوات التى كانت تراقبنا، وفى لمح البصر لم يبق من التبو الذين كانوا على مقربة منا سوى نقاط صغيرة بعيدة على الأفق، أما التبو الذين كانوا أساسا فى قافلتنا فقد انعزلوا وساروا لوحدهم على مسافة منا.

طغى علينا القلق والخوف من ان يهاجمنا أجلاف التركمان من حيث لاندرى، وتحسباً لأى خطر قد يطرأ رفعنا خيامنا وابتعدنا عن البئر لكن التبو تابعونا عن بعد، وطول اليوم كنا نراهم يكرون ويفرون ويقتربون منا ليهاجمونا ثم يناوشون وهكذا حتى أظلم الليل.

فتوقفنا بعد ذلك لأننا فى حاجة لقسط من الراحة، لكن التبو المزعجين لم يتركونا للحظة ننعم بالسلام، كانوا فى كل لحظة يداهمنا بعضهم رغم حلول الظلام، فكان بعضنا واقفاً للحراسة ويذهب آخرون للنوم، الأمر الذى جعلنا فى

حالة استعداد دائم، كان عددهم يسمح بان يقلقوا مضاجعنا، أما نحن فلقلـه عددنـا ماكان النوم يداعب أجفاننا الا نادراً، فقد كنا ندرك جيداً أنه اذا أخذ التبو واحداً منا فسيقتلونه في الحال، فما كنا نستطيع مجاراتهم، فان قتلنا واحـداً منـهم فسوف يسحقوننا بعددهم، ثم اننا في بلادهم إضافة الى أن الموت بالنسبة اليـهم لايعنـي شيئاً.

كان علينا فقط ان نقوم بمقاومة سلبية، وخلصنا الى أن نتحمل كل شـيء، هذه الحالة المرهقة وهذا التهديد المتواصل والتعذيب الذي لايطاق تحملنـاه لمـدة عشرين يوماً، ولم نتخلص من هؤلاء الأعداء المشاكسين الابعد دخولنا لأراضـي سلطان آخر من التبو، هم توبو رشاد أو توبو الجبال، أرض هذه البلاد محروقـة جدباء تتخللها صخور عارية ولاتنبت الاشحاً وبؤساً.

وما أن دخلنا بلاد التبو رشاد حتى انقشعت مخاوفنا وهنأنا انفسنا بالتخلص من أعدائنا بهذا القدر من الخسائر، كانت الشمس في كبد السمـاء عندمـا دخلنـا أرض التبو رشاد، فواصلنا السير حتى المساء ثم توقفنا وتركنـا جمالنـا ترعـى بحرية، فماعدنا نتخوف من طمع وضراوة التركمان.

وبينما كانت الشمس في طريقها للتلبد في الأفق، رأينا جماعات من التبو– رشاد يأتون من كل حدب وصوب، وماهي الا دقائق حتى تجمعوا حولنا في حلقة دائرية على مسافة منا ثم نزلوا من جمالهم في انتظار جماعات أخرى، تابعنا هذه العملية بهدوء ثم سمعنا فجأة على البعد صوت طبول صغيرة تشبه طبول السعدية أو الشاويشي أو الدالاتية (وهم جوقة تبع القصر، يتبعون الأمراء بطبولهم في زمن الانكشارية[1]) وما أن سمع التبو رشاد صوت الطبول حتى قاموا جميعاً صـائحين "هاهو السلطان قد أتى"

---

[1] الانكشارية: هي القوة العسكرية التي اقامتها الدولة العثمانية في عهد بايزيد الأول (١٣٨٩-١٤٠٣م) حيث تطـور نظـام ضريبـة الأولاد المعروفة في التركية باسم "الدو شرمة" الى مايعرف بالانكشارية وهم صبيان وابناء النصارى الذين يوصـلون بـدل الضريبـة ويربون في المعسكرات العثمانية تربية عسكرية اسلامية نظامية ويثقف بعضهم ثقافة اسلامية عالية واغلب هؤلاء ينتسب الى جيش السلطان وهم الانكشارية ولايعرفون لانفسهم اباً ولا أماً سوى السلطان والدولة، وهذا اعتمدت عليهم الدولة العثمانيـة في فتوحاتهـا الكبرى وفي بناء دولتها. ينظر د.عبدالعزيز الشناوي: الدولة العثمانية- دولة مفترى عليها ج١ ص ٣٢١.

لقد رأينا فى الحقيقة رجلاً عادياً لم يكن لديه مايميزه عن العامة، لقد جاء مع زوجته مردوفة خلفه على ظهر جمل، لم يصطحب السلطان معه شخص آخر سوى زوجته وعندما توسط الجميع، استقبلوه بحفاوة، وأناخوا راحلته ثم أنزلوا جلالة السلطانة وبعدها غرسوا فى الارض أعمدة حديدية فى شكل مربع، ولفوا عليها ملاية كبيرة فى شكل خيمة، يشبه هذا الساتر الحواجز المتنقلة التى تنصب فى المعسكرات خلف خيمة الجنرال وخيار كبار القادة.

دخل السلطان وزوجته هذه الخيمة المرتجلة وتحول الجمع الى حرس من حولهما، وبعد ذلك بقليل اقترب منا أحد التبو وصاح قائلاً: "ياأهل القافلة هيا تعالوا جميعاً دون استثناء تعالوا سلموا على السلطان "قمنا وذهبنا للسلام، وعندما اقتربنا من "الكاريكاتير" السلطان أمرنا بالجلوس على الأرض فجلسنا فى ثلاثة صفوف، ثم تقدم فى المسافة التى تفصلنا عن جلالته رجل يرتدى على ظهره جلد خروف: انه الترجمان فقال للسلطان: "هاهم رجال القافلة أتوا للسلام عليك، قال صاحب المعالى التوبوى "قل لهم انى أسلم عليهم وأنهم فى أرضى فى أمان، وانهم سيلقون معاملة حسنة "نقل لنا الترجمان ماقاله السلطان الذى اضاف، يا أهل القافلة علمت أنكم ثلاث طوائف، اشراف وودأوين وتوبو، وبالتالى يجب أن تقدموا لى ثلاث هدايا قبل الخروج من بلدى، واعلموا أيضاً اننا نرغب بشدة فى أكل اللحم، لأننا لم نذقه منذ زمن طويل، وأن عددنا كبير، ففكروا فى وجبة عشاء تكفينا جميعاً، ثم احسنوا الطبخ هل سمعتم؟ فيجب ان يكون جيداً وان يجهز سريعاً" اجبنا "سمعاً وطاعة"، قمنا بعد ذلك وعدنا الى محط رحلنا وبدانا فى اعداد أحسن مايمكن إعداده من طعام.

وعندما كنا نعد الطعام خرج السلطان وزوجته وجاءا الى مكان قريب جداً منا، فتمعنت النظر فيهما، كان السلطان عجوزاً متهدماً فانياً جافاً ونحيلاً ذو لحية خفيفة ووجنتين غائرتين، بشع المنظر يرتدى إزاراً أزرق، شبيه بالسيرى الذى يلبسه الخدم فى مصر، كان وجهه مغطى بلثام أسود، يتدلى من جانبى رأسه كقيطى حزين، يحمل فى يده اليسرى حربة رديئة ذات رأس كبير، وفى اليسرى عصا متشعبة مثل التى تستخدم فى حث الجمال على السير بسرعة، وترفع

بالطرف المتشعب منها الاغصان المتاخمة فى الطريق، والتي يجب المرور تحتها، كانت السلطانة عجوزة نحيلة ومجعدة تشبه الساحرة، كانت تلف نفسها بملاءة بسيونية، وكان وجهها مكشوفاً ولكن أى وجه أو بوز!

دار صاحبا الجلالة حول خيامنا دون ان يتفوها بكلمة، أو يحييا أحداً وعندما جهزت الوجبة في الليل، وقد اعددناها على أحسن مانستطيع، حملناها الى صاحبي الجلالة النحيلين فأخذا ما أعجبهما وقسما الباقي على اتباعهما الجائعين البائسين مثلهما، لقد قدمنا لهما أحسن الأطباق المرغوبة في السودان، وهي عصيدة الدخن بويكة "ملاح" الشرموط (يعد هذا الملاح من القديد الذى يدق ثم يقلى بالسمن ويضاف اليه البصل وقليل من الماء، ثم يضاف اليه دقيق البامية الجافة مايجعله متماسكاً فيصب الملاح حول العصيدة، ولكى تأكله تأخذ لقمة من العصيدة وتغمزها في الويكة ثم تأكلها[1])

بعد أن أكل السلطان وقومه أعادوا الينا الأواني الفارغة، وأمرونا باعداد وجبة أخرى للغد قبل شروق الشمس، وأصروا على أن تعدّ في الزمن المحدد اذا أردنا أن لايحصل لنا مكروه أو أن لانثير غضب جلالته.

طلبنا من خدمنا اعداد الوجبة فى الزمن المحدد، قضينا أسوأ ليالينا متضجرين من هوس الذين ارهقونا من قبل، وهؤلاء الذين يهددوننا الآن، عند شروق الشمس أعطينا السلطان ماطلب، وقمنا للاستعداد للرحيل، وتحركنا ظنا منا أننا بذلك قد تخلصنا من صاحبي الجلالة السخيفين، واننا لن نراهما ثانية هم وقومهما الانتهازيين المتسولين الجوعى.

فسافرنا طول النهار ولم نتوقف الا فى المساء بعد أن أرهقنا التعب، ثم لمحنا من جديد السلطان وعقابيله والسلطانة من خلفه، وصل بهدوء وهو يتحدث مع أصحابه ثم نزل على مسافة منا وعاودت كل مراسم الأمس عدا السلام.

طلبوا من جديد وجبة، فأعددناها وقد نفذ صبرنا واشتد غيظنا لأبعد الحدود، حل الليل وذهب، ولم ندر كيف نهش هذه الآفة التي عذبتنا، وكيف نتخلص من

---

[1] هذا الوصف بين القاصرتين اضافة من المترجم "بروت"

مخالب هذا السلطان الجائع، ومنذ الصباح الباكر كان لابد أن نسلمه أتاوته، له ولعقابيله كما حدث البارحة.

ثم خرجنا اخيراً ومشينا طول اليوم فى طريق مملوءة بالحصى أدمت خفاف جمالنا، ثم نزلنا فى المساء فى مكان محاط بالجبال، قالوا لنا انهاعاصمة الدولة ومقر إقامة السلطان العادية، وجدنا السلطان الملعون مرة أخرى هناك، وجبة جديدة فى المساء، وأخرى صباح اليوم التالى، لكن هنا زارنا أهل البلد الذين لم يرافقوا السلطان فى رحلته لاستقبالنا على مشارف حدود امبراطوريته غيظاً لنا (علم السلطان بالهجوم الذى وقع علينا من قبل التبو تركمان، وللحصول على وجبات اضافية مشى أبعد مايمكن ليستقبلنا ويستغلنا بكل سهولة[1])

كان علينا ان نصرف كمية كبيرة من زادنا فى الجبال الثلاثة، فقد حاصرنا الحشد، وكدنا نموت حسرة، فسألنا الله بخالص نوايانا أن ينجينا بسرعة، ومع ذلك فقد مددنا اقامتنا قليلاً للاسترادة بالماء، وارسال كل ماعندنا من هدايا لهذا السلطان البائس، فى هذه الاثناء تمكنا من التجول قليلاً لرؤية المنطقة.

يبنى التبو رشاد أكواخهم على سفوح الجبال، ويعم البلد منظر حزين وبائس ويخلو من كل شيء الا من بعض القطعان الصغيرة التي يشرب اصحابها لبنها والذى يعد غذاؤهم ومأدبتهم الرئيسية، أما الأشجار فليس فى البلد سوى السيال والدوم الذى يأكل التبو ثماره.

عندما تمر قافلة ويموت جمل من التعب يستولى عليه التبو ويقسموا لحمه، يقطعونه شرائح ويعدون منه القديد، الذى يحفظونه ويتغذون عليه، وذلك لعدم توفر اللحم الطازج.

فى يوم الرحيل عند الصباح، وعندما كنا نستعد للرحيل لاحظت أن أحد عبيدى قد اختفى وأخذ معه جاريتين وهرب فى الليلة الفائتة غالباً ليبيعهما، أخرنا سفرنا ليوم وأرسلت للبحث عن العبد والجاريتين، فقد كان فقدهم خسارة معتبرة لى، فأعطيت التبو مبلغاً للحاق بهم لكن دون جدوى، فندمت لكونى أضفت الى خسارة عبيدى خسارة نقودى أيضاً.

---

[1] مابين الحاصرتين توضيح شفاهي من المؤلف ابيرون فلم يظهر في الاصل العربي- بنظر الترجمة الفرنسية.

فتذكرت فى تلك اللحظة حكمة مجربة يعترف بها الجميع، وهى أن الانسان عندما يعرض له الخير أو يأتيه ويرفضه سيندم حتماً يوماً ما، ويتمنى لو أنه سمع النصح وقبل العرض الذى قدم اليه، وذلك ينطبق علىّ حينما فكـــرت فـــى هـــذه الرحلة المشؤمة وعبور الصحراء اللعينة هذه، حاول السلطان صابون ثنيى عنها، وطلب منى البقاء فى وداى قائلا لى: انتظر عودة أبيك وسأهتم بـــأمرك، لكنـــى رفضت وتمسكت بقرارى ويعلم الله ماكلفنى هذا الرفض من ضجر وعذاب..

كانت أولى مشاكلى مع هذه الرحلة الكريهة هى ضياع حمـــارى الســـريع الممتاز، حمار ذو قيمة كنت أعتنى به وأقول فى نفسى لم لايكون أفضل لى مـــن أى جمل حيث يرهقنى بقدر أقل وسوف أمتطيه لمعظم الوقت فى الرحلة، وعندما يتعب أتركه لوحده ليستريح وأمتطى ساعتها جملاً.

عند بداية الصحراء دخلنا سهولاً واسعة من الرمال المتفككة حيث تســـير المطايا العادية بصعوبة، ومع ذلك فقد مشيت بشكل جيد ليوم كامل علـــى ظـــهر حمارى، تجاوزت فيه القافلة وسبقتها بمسافة طويلة نزلت لانتظرهـــا واســـتريح، وبعد وصولها تركتها تمر حتى كادت ان تختفى من نظرى، عندئذ لكزت حمارى فمشى بسرعة فائقة خشية من ان تختفى القافلة عن ناظرى فأتعرض لضياع الاثر والتيه من بعده.

وصلت القافلة بمشقة كبيرة، وحمارى المسكين بعد ان أرهقه التعب، بـــدأ يعرق، فسال الماء من جسمه كما لو أنه خرج لتوه من نهر لم أقلـــق فـــى بـــادئ الأمر، وماكنت أفكر الا فى اللحوق بالقافلة، وسلسلة الجمال المربوطـــة بعضـــها خلف بعض كحبات المسبحة.

كانت تسير بعد جمال القافلة مباشرة الجوارى، وكان من بينهن جارية ذات جمال خارق، درة، فجاء حمارى ووقف بالقرب منها وكاد ان يلتصق بها، كأنـــه أراد أن يحتمى بها، ويطلب منها النجدة ويشكو لها كم كان مرهق أردت ان أثنيـــه فضغطت برجلى على جانبيه لكنه أصر فضربته بقدمى فعثر، وبـــدأت الفتيـــات يضحكن علىّ، وقلن لى "امسك عليك حمارك، ودعنا نسير فى هدوء" لم أســـتطع كبح عناد حمارى، فنزلت منه وأنزلت به ضربة قاسية من قدمى على بطنه فسقط

مغشياً عليه، كما لو أنني غرست فيه سكيناً، وقفت مذهولاً لم أتصور موت الحمار المسكين، فنزعت عنه لجامه وسرجه وكل حمله، وحملتها على أكتافى وأسـرعت للحاق بجمالي، حيث أوقفت منها واحداً امتطيته.

حادثة أخرى وقعت لي، عندما أزمعت الرحيل من واداى كنت قد اشتريت عبداً قوياً ويعلم الله أنهم قد أخبروني بأنه لايفكر الا فى الفرار، وللتحـوط كنت أبقيه مقيداً دوماً وبالليل أربط السلاسل المربوطة في عنقه في وتد مغـروس فـى الأرض عميقاً، وأجعل عبداً آخر ممن كان في خدمتي ينام متوسداً السلسلة، فلـم يجد فرصة للهرب، وبعد خروجنا من وداى كنت أطلق عبدى فى النهار وأعيـد ربطه بالليل بالسلاسل في عنقه والوتد في الأرض، وواصلت فى هذه الاجراءات التحوطية حتي وصلنا عند التبو رشاد، في الجبال الثلاثة فرجوني بعدها أن أفـك أغلاله قائلين، أين تريده ان يذهب الان؟ لاتعذبه أكثر من ذلك، فأذعنت لرجائـهم وحللت وثاقه، لكنه خان وسرق اثنين من أجمل جوارىّ وهرب. كانت تلك بالنسبة لي خسارة فادحة، فقد عرض عليّ مبلغ مائة وعشرة مثقال من الذهب أى مايعادل مائتي كلون اسباني، مقابل هاتين الجاريتين ولكنى رفضت وعرض على سـتون كلوناً مقابل العبد نفسه ورفضت أيضاً.

خيبة ثالثة في رحلة الصحراء هذه، وقعت بعد أن فقدت حمـارى والـذى عندما أرهقه المشي احتمي بجارية لم تر عيني جمالا يضـاهى جمالـها جاذبيـة وسحراً فسألت من أى البلاد هي؟ ومن هو سيدها؟ علمت أنها ملك أحد التبو فـى قافلتنا يسمي تشاى، ذهبت اليه أن يبيعني الخادمة، فرد قـائلاً "لا أبيـع خـادمتى الابأربع من سنها وهذا يعني أنني لاأريد بيعها، سأسخر هذه البنت لادارة منزلي، لانني غير متزوج وستكون ربة بيتي، ارسلت للتبو ملحاً ومقدماً عرضاً جديـداً، وبعد أخذ ورد والحاح اتفقنا على أن أدفع ثمنها إحدى أجمل خدمي، وأخرى دخلت لتوها سن الرشد، جميلة الجيد، وجمل سريع، فتم الاتفاق، وعندما أظلم الليل أرسل التبو الجارية وارسلت خادمتي والجمل، وعندما أدخلتها خيمتي ونظرت اليها لـم أجدها هي تلك التي رأيتها، لقد ندمت وتحيرت ماذا أفعل، لقد بدت خادمـة التبـو دميمة، فأرسلت لتشاى أخبره بأنه قد حدث التباس في الاستبدال، وأن التي ارسلها

لم تكن هي التي أطلب، لم يرد التوبوى أن يستجيب لطلبي، فقد قال: ليس لدى جارية غير هذه وقد تم البيع، ويجب أن يفهم الشيخ ان الاتفاق هو الاتفاق، ولن أتراجع عن اتفاقي، لقد ضايقني هذا الرد، ومع ذلك وبعد وساطات ومفاوضات ورجاءات حصلت من التوبوى أن يرد لي خادمتي ويحتفظ بالجمل، فقبلت لأن الرجل من التبو رشاد ولاتوجد هنا عدالة أخرى الجأ اليها.

عدت أبحث عن تلك الجارية الجميلة فعلمت أنها ملك لتوبوى أخر، وأن هذا الرجل يحبها كثيراً وتحبه اكثر مايحبها، وان هذا الجلف لن يبيعها ولو بوزنها ذهباً.

نعود لقضيتنا الاولى:

قبل أن نستأنف السير جمعنا كل ماكنا نريد ان نهديه للسلطان وقدمناه اليه ولكن بعد برهة أرسل يقول من جانبه ومن جانب زوجته أنه يحب أن يقدم كل فرد من القافلة مداً من الدخن كدليل على حسن النية، وفي الحال فرش سفراء صاحب الجلالة فروة كبيرة على الأرض وقام كل واحد من أفراد القافلة بتقديم حصته وفي لحظة ارتفع كوم من الدخن يكفي لاطعام السلطان والسلطانة وقومهما لفترة من الوقت لا ادرى، فجمع التبو الدخن بعناية، ولم يتركوا منه حبة، وصبوه في جرباتهم ثم انصرفوا.

وما ان بدأنا في شد جمالنا حتى رأينا السلطان يدور حول خيامنا وبينها كنذل بائس، كان ينظر في كل الاتجاهات، ويهدى نفسه كل مأوقع عليه بصره من حبال واباريق..الخ وكان يكرر كل مرة:"انا سلطان هذا البلد، وسيد هذا الطريق، وكل من يرفض لي طلباً لن يخرج من هنا" جمع صاحب الجلالة التوبوى حصيلة طيبة، وعندما فرغ من التفتيش قال لنا عبر مناديه "انتظروا للحصول على الاذن، ووصول صاحبة الجلالة لتودعكم هل تسمعون أيها الاصدقاء؟ فكان لزاماً علينا ان نؤخر شد رحالناأوقلنا: "علينا بالصبر فالصبر حكمة" وهاهي تظهر الساحرة العجوز المرعبة تمشي مثل الزواحف القبيحة، موشحة بملاءتها كشبح إن رآها الشيطان لفزع، وصلت تترنح وتطلب من الجميع "الكيلود" وأخذته من كل من كان عنده، أما الذين لم يكن لديهم فاخذت منهم مارأق لها.

أخذت الأميرة حصيلتها ووضعته في جراب كان يحمله واحد معها فحيتنا واختفت، ولكن بعدها بقليل انقض علينا جمع من التبو قطيع من الأغوال والشياطين الفارة من الجحيم، فاقتربوا وكل واحد منهم يكرر عبارة "أنا ميلايو" أي: ابن السلطان، فجابوا القافلة وأخذوا كل ما أعجبهم، وكان يجب اعطاؤهم كل ماطلبوا.

لم يبق لنا تقريباً أي شي ذو فائدة وبعد هذا التجريد سمح لنا السلطان بالمغادرة، ولم نتأخر فقمنا مسرعين ضجرين ومتعبين حتى الثمالة من أفعال التبو القبيحة وكما يقولون لقد نفذ السهم، أخذوا منا كل ما أعجبهم، من ناحيتي تكاد عيني تدمع كلما أتذكر العبد الذي فر مع أمتين من جواري.

دخلنا الصحراء التي كان يجب علينا أن نعبرها للوصول الى قطرون وهي أول بلدة على الحدود الفزانية، لقد رافقنا حوالي مائة وخمسون من التبو رشاد الذين كانوا يتبعوننا عن بعد، ويتابعون نقاط استراحة قافلتنا، حتى اذا نسينا سكيناً أو قطعة أو ماشاكل ذلك (والقوافل تخلف دوماً اشياء مماثلة) جاءوا وأخذوه، وعادة اذا مات جمل فانهم يأخذون لحمه ليصنعوا منه القديد، واذا مرض جمل واستغنى عنه صاحبه فانهم يأخذونه أيضاً، في هذه الرحلة الطويلة الى فزان استأجرنا منهم عدداً من الجمال ويتم الاستئجار على النحو التالي:-

عندما يلاحظ أحد المسافرين أن جملاً من جماله قد تعب ولا يستطيع الوصول الى موقع توقف القافلة، فانه يعطيه لأحد التبو ويطلب منه جملاً آخر، فيسأل التوبأوي "أي جمل تريد أن ارحله لك" فيشير اليه المسافر للجمل الذي يراد حمله فيقيس التوبأوي الجمل للتأكد من وزنه، فإن رآه مناسباً وافق على حمله حتى فزان، ويأخذ التوبأوي الجمل المريض أو المتعب فيتركه يسير على مهله حتى يصل الى بلاده أو الى فزان، ثم يخضع لعناية خاصة حتى يستعيد عافيته وقواه.

واذا وجد التوبأوي الحمل ثقيلاً يتركه، وقد اضطررت لاستئجار جمل من التبو حيث التزم أحمد بحمل أمتعتي عليه ثم ركبت مع امتعتي حتى مرزق، وكان على طول الطريق يأتي التوباوي كل صباح ساعة شد الرحال ليشد جمله بنفسه،

فاذا اضفت شيئاً يسيراً على الوزن الذى اتفقنا عليه من قبل يحتج التوباوى بشـــدة قائلاً "لن أرحل الا الأحمال التى قبلتها عند الاتفاق"

كنا اثناء الخروج من أى محطة يأخذ التوباوى زمام الراحلة التى أجرها لى ويسير على أقدامه طوال فترة الصبح والضحى ليقتلع كل الشجيرات والأشجـــار أمامه ويطعمها جمله دون أن يتوقف، وبعد حلول منتصف النهار يـــترك الرجـل الزمام متدلياً ويذهب لجمع الأعشاب حتى من مسافة بعيدة من القافلـــة، وعندمـا يتوقف يأتى ويطعم جمله الأعشاب التي جمعها، ولذلك فان جمال التبو ورغم طول المسافة تبقى دائماً على أحسن حال، بينما تبدو دائماً سيماء الجوع والتعب علـــى جمال المسافرين، كما هو حال جمالنا.

سأحكي هنا قصة قصيرة تعكس جهل ووحشية التبو المنتشرين، فقط فـــى صحاريهم ولايعلمون شيئا عن أبسط الأشياء في البلدان المتحضرة. كان فى قافلتنا طرابلسي اسمه الرئيس عبدالله، وكانت له ساعة قيمة رغم كونها مـــن النحـاس، وعندما ذهب الى وداى كان ينوى بيعها للسلطان ولكنه لم يحصل علـــى السـعر الذى طلب، فاستبقاها، وكان يهتم بساعته ولايترك أحداً يمسها أو يلمسها، وكـــانت أخر محطاتنا فى أرض التبو رشاد مكان ظليل كثيف الأشجار، فتوقفنـــا للقيلولـــة عنده، حيث أرهقنا الحر أحراراً وعبيداً، فانتظرنا لتخف حـــرارة الشمـــس حتـــى لاتقتلنا، عندما بدأت الشمس فى الانحدار أستانفنا السير قبل وقت كاف من المغيب حتى نستطيع تعويض الزمن الذى أضعناه فى النهار، أن نعوضه ليلاً وحتى نكون فى مامن من العطش والمعاناة.

شاء القدر أن ينسى عبدالله ساعته فى المحطة فقد نسيها معلقة على غصن شجرة، عندما آوى الى ظلها فى الظهيرة، وعندما تحركنا جـــاء التبـــو كعادتـــهم وأخذوا كل مانسيناه أو تركناه، فرأى أحدهم الساعة فعمه الفـــرح لرؤيـــة لونـــها الذهبى ثم تقدم وأمسكها لكنه سمع صوت حركة بالقرب من القطعة الذهبية فردها من أذنه، فاذا بالصوت يزداد حدة ووضوحاً، تخيل هذا التوباوى الجلف أن هنـــاك شيطاناً محبوساً داخل هذه القطعة الذهبية، وبكل قوته قذف بالساعة لترتطم بجزع

الشجرة وتتكسر الى ألف قطعة، الزجاج، السلسلة، لقد انكسر كل شيء ثم صـــاح المتوحش (شيطان– شيطان) وفر بأقصى سرعته وتبعه رفاقه يتسابقون.

تذكر عبدالله ساعته وبحث عنها في كل مكان ولم يجدها، سأل عنها رفيقه وجواريه ولم يعلم أحد ماجرى لها، تذكر أخيراً أنه نسيها معلقة على الشجرة حيث استراح عند الظهيرة، فأخذ جملا وأسرع نحو المكان، فوجـــد الســـاعة مكســـرة وقطعها مبعثرة على الأرض هنا وهناك، وقف مذهـــولاً يضـــرب كفـــه بـــالاخر متحسراً، ثم صاح: لعن الله الوقت الذى مضيناه هنا، ثم رجع الى القافلة حـــيران أسفاً.

عند محط الرحال ذهب عبدالله الى التبو الذين كانوا يتعقبوننا وسألهم عـــن مَنْ كسر الساعة، فقال أحدهم أنا، أنا الذى دمرت الشيطان، لقـــد أوقعـــت عليـــه ضربة قاضية" كتب عبدالله اسم محطم الشيطان، وعند وصولنا الى مرزق، اشتكى عبدالله الى القاضى طالباً مبلغ أربعين ريالاً، وقد أرغم التباوى على الدفع.

وقبل أن نبرح أرض التبو أقول كلاماً يسيراً عن الطريقة التي يسلمون بها على بعضهم البعض.

يعيش التبو فى مجموعات معتبرة العدد، جشعين وشحيحين ويفوقون كـــل قبائل السودان فى الوحشية والبدائية، سأذكر هنا مثالاً لطريقتهم فى السلام: فـــهى إحدى السخافات التى استوقفتنى، فعندما يلتقى أحد التبو بفرد آخر لم يره من زمن بعيد فانهما يتباشران بالمصافحة بل يجلسان بهدوء وصرامة كجلسة القرد، واللثام متدلياً على وجهيهما حتى العينين، اليد اليمنى ممسكة بالحربة المغروســـة علـــى الرمل، واليد اليسرى ممسكة بالدرع، يقول أحدهما للآخر بصوت فظ "لوحانتشيدو" فيجيب الآخر "لوحانتشينو" هذه طريقتهم لقول "السلام عليكم" ثم يكررونها بالتناوب كثيراً، بعدها يقول أحدهما للاخر: "تيحيلو جانيحى" فيرد الآخر "تيحيلو جـــانيحى" وتعنى: كيف حالك، ويكررون ذلك بالتناوب مرتين أو ثلاث دون أن يتحركا، ثـــم يبدأ أحدهما يقول: "احيلا" ويكرر الآخر على الفور "احيلا" ويبدو أنها تعنى حفظك الله، وعندما يصل التبو الى هذه الأحيلا فإنهما يكررانها ويبدا فى خفض صوتيهما تدريجياً، حتى اذا ماعادت آخر أحيلا مسموعة يبدأ أحدهما من جديد فجاء ويصرخ

صرخة مدوية أحيلا، وتخال أن مراسم السلام قد أنتهت، لكن المسألة تبـــدأ مــن جديد وبصرخة مدوية ب (ولحانتشينو) وكل الموسيقى وكل المراسم تعــود بيـن الطرفين بنفس البطء وبنفس الطول، وللمرة الثالثة: ودائماً بنفس الطريقة ونفـــس الكلمات في نفس الأماكن ونفس القصيدة التراجعية.

ويدور هذا المشهد بأكبر قدر من البرود في العالم، ولمدة قد تصـــل الـــى ساعة لم أر شيئاً مماثلا لهذا النوع من السلام، الاعند أجلاف الفور في جبل مـــرة وتموركة، فعندما يلتقي اثنان من الفور فانهما يلقيان على بعضها التحيـــة تقريبـــا بنفس البطء كما هو الحال عند التبو، الفارق فقط هو أنهم ينوعون عبارات التحية والمجاملة ولايكرر الشخصان نفس الكلمات، يقول أحدهما أولا "أسي" كما تقـــول "بخير، بصحة جيدة، اراك على مايرام "فيجيب الآخر" كي ديلون أســـي" وتعنـــى تراك على مايرام، ثم يقول الأول: "كمنونقو سياحين أسي، تلي جـــاء لا" وتعنـــي جئت تبدو لي بصحة جيدة، (لايعرف الشيخ التونسي معنى الكلمة الأولـــى: جيـن بمعنى أنت، ون للتوكيد أس: حرف للربط، تلي: على مايرام، لا: تاتي فيرد الثاني (جين اف جن) وتعني: وانت هل بصحة جيدة، جن بمعنى: أنت، افـــي: بمعنـــي: عافية، وهي كلمة عربية، جن، بمعنى: منك، يواصل الأول بقوله "نقلا تُلي لـــي" بمعني هل الاطفال بصحة جيدة، نقلا: اطفال، تُلي: اي جيد، لي بمعنـــي: هـــل، والرد (أي تُلي) أي نعم جيد، ثم يصدر الأول صوتاً أصمـــاً وفمـــه مغلـــق "أم م" ويكـــرر الثاني معه "أم م" ثم يكررها كلاهما لبعض الوقت، لكن كل ذلك يتم فـــي وقت أقل مما يمضيه التبو.

أما الفور الذين تعربوا قليلا كفور الفاشر، كوبي، كريو، تارني، والـــبرقد، وكل الأماكن التي يتحدث الناس فيها قليل من العربية فإنهم يتسالمون عندما يلتقون بقولهم "أصبحتو" والرد "أصبحتو" وتعني حفظكم الله هذا اليوم[1] ، ثم يقول الأول: عافية، ويرد الثاني أيضا: "عافية" وعندما يتقابلان عنـــد الظـــهيرة، أو مابعدهـــا يقولون: قيلتو"[2] ويقال الباقي كما يقال في الصباح وينتهي بعافية.

---

[1] أصبحتو: تعني كيف أصبحتم، فيرد الثاني: بعافية.

[2] قيلتو: تعني: كيف كانت قيلولتكم، فيرد الثاني: بعافية.

وعندما يقابل شخص شخصاً اخر من بلد غير بلده يقول له "حبابك" وهو تحريف لمرحبا بك العربية ويرد الغريب "حبابك عشرة" وباقى السلام يتم كما ذكرنا انفاً.

ويقال للذى يعود من السفر "جيداً جيتو" فيرد: "جوّد حالك" اما الفور الذين يسكنون فى نفس المكان فيستخدمون عبارات للسلام خاصة بهم فى الصباح ومابعد الظهيرة، ففى الصباح يقال "اس جن اس تلى كولا" بمعنى هلى صحوت من النوم بخير" والرد يكون "كى ديلون اسى جلى نى فى جن" بمعنى نراك بخير، أو انت بصحة جيدة"[1] وبين الظهيرة والمساء يقولون "اسى بمو" أى هل امسيت بخير فيرد الثانى "كى دلون اسى بمو" بمعنى "نراك بخير هذا المساء وباقى السلام هو نفس سلام الصباح وبصورة خاصة سلام الظهيرة.

وفى برنو يتسالمون على الطريقة التالية: يقول أحدهم "فى لابار" بمعنى هل من أخبار "وتعادل: كيف حالك، وهى تحريف للعبارة العربية "هل من خبر" ويرد الثانى "لى أفى لى" بمعنى "بخير وكيف انت".

نعود الى التبو فهناك أيضا ماينفرد به هؤلاء الاجلاف فبعد انتهاء السلام يتحدثون عن بعض شئونهم ونزاعاتهم، ودائماً يحول الشخصان المتسالمان السلام ولمدة طويلة الى شكوى وتذمر، وفى لحظة مايقومان ويتضاربان بالحراب حتى يفصل الناس بينهما وهكذا، فعندما يلتقى اثنان من التبو يتبادلان عبارات مجاملة طويلة ويتسالمان لمدة ساعة بطريقة ودية جداً، ثم ينفجران فجأة وفى يد كل منهما حربته، فيهجم بها على الآخر، بكل ما أوتى من قوة، دائماً يكون سبب هذه الصراعات المفاجئة الجشع والشح الذى يتمتعون به، فيذكر أحدهما للآخر حدثاً أو يلومه بكلمة أو على ضياع شيء تافه، فتثور بينهما ثائرة الغضب، ويقومان للنزال"[2] ومسايذل على جشعهم فانهم قد يتنازعون ويمنعون تحرك قافلة من اجل حبل أو قطعة جلد قد لاتساوى قرشاً واحداً.

---

[1] توضيح شفهى ادلى به الشيخ التونسى، غير موجود فى الأصل العربى.

[2] توضيح شفهى ادلى به الشيخ التونسى ودونه المترجم فى الأصل الفرنسى.

لنعود الى حكاية السفر، كنا كما أسلفت في الصحراء التي تفصل بين بلد التبو وحدود فزان، وتبلغ المسافة في هذه الصحراء القاحلة عشرة أيام بلا ماء في الطريق، ولهذا أخذنا مايكفي حاجتنا من الماء وأعطيناه عناية فائقة، كنا نسافر ولساعات طويلة في أول الليل وآخره، لنتحاشى عذاب الحرب والعطش، وأود أن أقول إن العطش الحارق عندما يصيب أحداً يشتد عطشه ويزداد كلما شرب ماءً، لقد أسرعنا الخطا، وأردنا ابتلاع المسافة وفي آخر ليلة، لم يبق لكثير من المسافرين ماء، فقط تبقى للبعض منهم النذر اليسير، أما أنا فمازلت أحتفظ بفضل الله بأربع قرب، فقد جاءتني فكرة ادخال قربتين في قرفة للاحتفاظ بهما، متحاشياً نقص الماء بالتبخر بفعل الحرارة والهواء، أما الأخريتان: فكانتا معلقتين على الجمل، القرفة في السودان تطلق على حقائب كبيرة من جلد البقر مدبوغ بعناية تصنع في وداي وتخاط بسيور رفيعة من الجلد.

في الليلة التي سبقت دخولنا فزان، مشينا كثيراً، ولم نتوقف الا عندما يغلب علينا النعاس والتعب وبوضع ارجلنا على الأرض ينام كل منا في مكانه، لقد أعيانا التعب، كنت قبل النوم أعطيت العطشى من عبيدي ماءً، ووضعت رأسي بين قربتي لم أفكر في حفظهما بشكل أفضل، ونام عبدالله ورفيقه بالقرب منا، وعندما استيقظت في الصباح وجدت قربتي فارغتين، شرب ماءهما عبيد عبدالله، فشكوت اليه، لكنه لامني على عدم تحوطي، وخاصة في صحراء كهذه، ولامتني القافلة على حملي على عبدالله، لأنه أقسم لي بأغلظ الأيمان أنه لم يلحظ شيئاً، وانه يجهل تماماً ما اذا كان رفيقه قد شربوا الماء أم لا.

ثم توجهت القافلة صوب بئر تبعد حوالي ست ساعات من القطرون، فوصلتها في الصباح، قبل الوصول الى البئر التي ذكرتها تعرضت إحدى جاريتي اللتين اعطيتهما مع الجمل مقابل جارية التبو، والتي تحدثت عنها سابقاً، تعرضت لعطش الصحراء(الشوب) فالمسكينة أصابتها رغبة عارمة في الشرب، وكانت كلما تبتلع جرعة تزداد عطشاً، فارتعشتُ لرؤية المسكينة وهي في حالة تدهور، فلاحظ توترى بدوى من رجال القافلة إسمه خليل فقال: اعطوا هذه البنت غرفة أصبع من السمن وستتحسن حالتها" فاتبعت نصيحة البدوى وفي لحظات خفت

معاناة جاريتي وأركبتها في جمل، لان كل العبيد الذين يرافقون القافلة كانوا يسيرون على الاقدام، شاء الله ان تنخفض حرارة الشمس، وبحلول الليل شفيت جاريتي تماماً من الالم، وكنت حتى ذلك اليوم أجهل تلك الوصفة التي دلني عليها البدوي خليل، وعند عودتي الى تونس حدثت أحد اصدقائي بذلك، فحكى بدوره الحكاية التالية والتي اعتقد في صحتها، لأنه صدوق يأتمنه الناس.

قال لي: قبل سنوات تحرك ركب حجاج المغرب عبر الصحراء قاصدين مكة فتاهوا وانتهى ماعندهم من ماء، فقال لهم شيخ القافلة "لكل قافلة شيخ وإمام" بواسطة مناديه: "كل من يؤمن بالله واليوم الآخر ولا يريد أن يدان بتعجيل نهاية أيامه، ويريد أن ينجو من الخطر الذي يهددنا عليه ان يتناول بضعة اصابع من السمن" فسمعوا نصيحته ولم يتناول أحد منهم ولمدة عشرة أيام شيئاً غير السمن فلم يعاني منهم العطش رغم الحر والتعب، ثم أعاد الله الحجاج الى طريقهم لم يمت منهم احد، هذه الحادثة أغرب من حادثة خادمتي.

عندما وصلنا البئر التي كنا نقصدها حمدنا الله وكان قد تبقى لي حوالي قربة من الماء موزعاً بين القربتين، فمكثنا في البئر حوالي ثمان واربعين ساعة ثم قمنا ودخلنا الأراضي الفزانية، كان أول بلد نبلغه هو القطرون، وجدنا ضواحيها حدائق نخيل كبيرة، ورأينا جمعاً من سكان قطرون قادمين للقائنا، جاءوا يباركون وصولنا، ويستقبلوننا بحفاوة، فنزلنا القرب في البلدة، بعدها جاءت مجموعة من الأهالي تبيع لنا البلح، يلاحظ أن بلح قطرون كبير الحجم وذو طعم ورائحة طيبتين، وتكفي بعض الحبات لاشباعك هذا على الاقل ماحدث لي.

اعتاد سكان البلد على التمر الذي هو غذاؤهم الرئيسي وربما الوحيد، ويأكلونه بكثرة، وفي كل وجبة، ويطعمونه حيواناتهم الأليفة كالأبقار والخيول، أما أرض قطرون فرملية وجدباء وسكانها سود على الاقل كسواد السودانيين، وهم خليط من التبو رشاد الذين لايعرفون العيش بين الصخور، وبعض الفزانيين الأصليين من مواليد قطرون، هذا البلد بائس جداً، والسمن والعسل فيها نادران ندرة عنقاء المغرب، ويكاد القمح أن يكون غير معروف تماماً، فلا يوجد غير التمر والشعير والشحم الذي يأتي به العرب من المناطق المجاورة التابعة لمحمية

طرابلس، ويباع بسعر غال، ويزرع الشعير في ضواحي القطرون بـالقرب مـن الآبار ويستخدم ماء هذه الآبار للري اذ لاتنزل الأمطار أبداً.

ويعتبر اللبن أيضاً من الاشياء النادرة في قطرون، فالذي يمتلك نعجـة أو شاة حلوباً يذكره الناس كرجل سعيد، ويحسده البعض، وفي هذا البلد الفقير يبـاع الخروف بعشرة دورو، وقد لايزن خمسين رطلاً من اللحم، والشخص الذي يذبح خروفاً بمعجزة فانه يحفظ جلده بعناية، ويحلق صوفه بعناية، ويغزله أمـا الجلـد، فيغلي ثم يؤكل بشهية، وتقام مأدبة مساء اليوم الذي تقدم فيه وجبة الجلـد ويمـلأ السرور والغبطة البيت.

قضينا ثلاثة أيام في قطرون، ثم سلكنا طريـق مـرزق عاصمـة فـزان وصلناها في أربعة أيام، الناس في كل السودان يسمون هذه العاصمة "زيلع" ويبدو أن هذا هو اسم المدينة القديم.

استوقفنا رجال الجمارك في مدخل مرزق، أحصوا الرقيق ودونوا العـدد الذي يملكه كل منا، بعد ذلك دخلنا المدينة ونزلنا جميعاً في منزل محمد بن يونس، أحد ابناء يوسف باشا، والي طرابلس.

مرزق بلدة كئيبة قد لاتساوي "قليوب "حاضرة مقاطعة القليوبية، على بعـد أربع أو خمس ساعات من القاهرة، وسكانها خليط من زنج أفـانو وبرنـو، أمـا السكان البيض وذوي البشرة البرونزية فكلهم من العرب القـادمين مـن محميـة طرابلس، جالو، أو جله، ودرنة، أرض مرزق هشة ومالحة، وتنعـزل عـن أي مكان آخر مأهول بالسكان بمسافة يوم ونصف أو أكثر، وفي بعـض الاتجاهـات ثلاثة أيام، يتكون سوق عاصمة فزان من صفين من الدكاكين في كل صف سبعة لا أكثر ولا أقل، يبدأ السوق في كل يوم حوالي الساعة الثالثة أو الرابعة، حسـب طول، اليوم يتجمع الناس، البعض جالس القرفصاء أمام الأربعـة عشـر دكانـاً، ويجوب الدلالون المكان يصيحون عارضين مختلف البضائع على نظام المـزاد، يكررون الأسعار التي يعرضها الحضور، والذي يزيد دوماً على تلك الأسعار من سدس مثال من بذرة الذهب الى ربع نصف، أربعة أسداس المثقال..الخ ولايستمر السوق أبداً لأكثر من ساعة ونصف.

يوجد أمام قصر السلطان[١] ميدان فسيح في مساء اليوم الذي وصلنا فيه قدم لنا وكيل محمد يونس وجبة عشاء، اذ من العادة أن يقدم صاحب الدار الذي تنزل فيه القافلة أو وكيله وجبة عشاء في الليلة الأولى، لقد قدم لنا طعاماً يعلم الله حتى رفيقنا لم يتمكنوا من تناوله.

ذهبنا صبيحة اليوم التالي لمقابلة السلطان ومعنا هدايا سلمناها لوزيره الأول عثمان والذي كان سلفه مملوكاً للسلطان محمد في فزان ثم قدمونا الواحد بعد الآخر لصاحب الجلالة الفزاني.

بشرة السلطان محمد المنتصر كما يسمى، بيضاء تميل الى البرونزية، عندما دخلنا عليه وجدناه متلفحاً بثوب أبيض كبير من الصوف، موشى بخطوط من الحرير الأبيض، يشبه الأغطية التي ترتديها النساء في تونس، وأتباع الباشا من البدو. كان يبدو على محمد المنتصر الاعزاز والاعتداد، يجلس على كرسي "بوعمامة" والذي يبدو هو عرش جلالته "يساوي طول هذا الكرسي طول اثنين أو ثلاثة من الكراسي الأوربية، اذا وضعت جنباً الى جنب، يشبه مقاعد الحدائق العامة، الفارق هو أن هذا الكرسي الذي يجلس عليه صاحب الجلالة الفزاني له مسند ظهر من شرائح خشب الأسل المضفور له أربعة قوائم من خشب الدليب الهندي سوداء اللون، ومزين في بعض الأماكن بالأصداف الصغيرة والمحار، تلتقي هذه القوائم الطويلة الى حد ما وتتقاطع في أطراف الكرسي مع قطع خشبية أخرى تشكل أذرعاً للكرسي، وعلى ظهر الكرسي شكل أشبه بالقبة، مصنوع من شرائح الخشب المضفور أيضا، على هذه الحافة يضع المرأ العمامة والملابس عندما يذهب للنوم، لايستخدم مثل هذا الأثاث في مصر الا لوضع الملابس.

منذ أن ترك أكابر موظفي مصر لبس العمامة، ماعاد حامل العمامة مستخدماً في المنازل، كانت العمامة قبل حكم محمد على باشا، وخاصة في عصر المماليك من الكماليات، وكان التجار يقتنون عدداً منها ودائماً من الكشمير باهظ الثمن، أما اليوم فما عاد يلبسها سوى المشايخ والخدم والسواس وعامة الناس..

---

(١) يرفع حاكم فزان نفسه ويلقبها بلقب سلطان، رغم انه لم يكن سوى حاكم تابع لباشا طرابلس؛ ينظر: الترجمة الفرنسية

وأخيراً الاقباط وكل الذين لايرتدون النظام (الزى العسكرى) يلبسون العمائم ولاتوجد حاملات العمائم الا فى بيوت علماء الدين وميسورى الحال.

دائماً تزين قبة الكرسى بكرات لامعة وغالباً ماتكون ذهبية اللون، وتحف بأهداب من الحرير، والشرابات فى الأركان الأربعة وفى وسط القبة من الخارج تبرز كرات ذهبية اللون أو فضية أو من معدن الفضة أما فى نهاية الأرجل الأربع للاعلى، فتوجد كرات فضية أو مفضضة تسمى عسكر.

لايجلس الناس أبداً فى مصر على الكراسى حاملات العمائم، فهى خفيفة وهشة قد تنهار بمن يجلس عليها، أما ذلك الكرسى الذى يجلس عليه الأمير الفزانى الضخم فمصمم بشكل جيد ومتين وقد يكون جلالته قد طلبه خصيصاً من مصر أوالمغرب وقد يكون الوحيد من نوعه فى داخل افريقيا"[١]

عندما دخلت على صاحب الجلالة الفزانى وجدته يرتدى عمامة بيضاء ضخمة لم أر لها شبيهاً، ولقد لفت على طريقة مكة، مائلة على الجانب الأيمن أكثر من الجانب الأيسر، ولايوجد مكان فى العالم الاسلامى يطوى فيه الناس العمائم بهذا التأنق الا فى مكة، لكن صاحب الجلالة الفزانى بالغ فى حجمها. وكيفية طيها لدرجة جعلت من التفاته أو تحريك رأسه أمراً شاقاً، لقد تكرم السلطان بقبول هداياى، ثم خرجتُ وكدتُ أضحك على هذا الأمير المتفتح والمتهندم، والذى لايُسمَعْ الابشق الأنفس كلمات متقطعة وبصوت خافت بغير شفتيه وغالباً ماكان يرد أو يعبر فقط باشارات غير واضحة- يبدو أنه من اللياقة فى فزان عدم الاسراف فى الكلام أو الحركة فى المراسم.

وتلتف حول هذا السلطان المتعالى واسمه الكامل محمد المنتصر كما ذكرت حاشية من رجال يلبسون ثياباً رثة من الصوف يبدو عليهم جميعاً البؤس.

بعد أيام من وصولنا الى مرزق رأيت السلطان المزعوم يتجول وحيداً مترجلاً بين بيوت المدينة، يقولون انه يزور بعض خليلاته من النساء.

---

(١) هذا الكلام المطول بين الحاصرتين ادلى به الشيخ التونسي شفاهة وسجله بيرون فى الاصل الفرنسى.

لقد زحف المكني بجيشه ضد هذا السلطان المنتصر وجـرده مـن الحكـم وارسله الى ابن عمه أحمد الذى قتله بأمر الأول ومن ثم قتل المكني أحمد وحكـم فزان.

فى اليوم الذى لاقيت فيه السلطان ذهبت فى حوالى الساعة الثالثة لزيـارة وزيره عثمان الذى يسكن فى دار تجاور دار سيده، فرأيت أمام القصر عدداً مـن الزنج بثيابهم الرثة، يقرفون لدرجة الغثيان ويضربون طبولاً أشبه بطبول الأتراك فى العهود السابقة وينفخون على مزامير يبدو عليها البؤس أيضاً.

قابلت عند عثمان القاضي طاهر وأخاه زين العابدين والشيخ الفاضل أحمد بن عيسى والشيخ محمد بن غلبون من طرابلس، وأثناء إقامتي فى مـرزق كنـت أواظب على حضور الدروس التى يلقيها الشيخ الأخير، فى شرح وتفسير الخازن للقرآن الكريم.

لقد سئمت البقاء فى مرزق إذ لم أجد فيها حتى الطعام المناسب، ولم أعرف الموعد الذى ستغادر فيه قوافل طرابلس، ولايجرأ انسان على التحرك، لأن العرب من بنى سليمان قد قطعوا الطريق، وتمردوا على يوسف باشا طرابلـس، ينـهب هؤلاء الأعراب كل القوافل التى يرونها، وحار دليل الباشا فى كيفية ردهـم الـى صوابهم، فانتظرت ثلاثة أشهر لأجد الفرصة للمغادرة، فى هذه الفـترة شـهدت وصول المكني، والذى كان فى طريقه الى برنو، بأمر من يوسف باشا، وكـانت تلك هى آخر رحلة تجارية يقوم بها المكني للسودان، فعند عودته من تلك الرحلـة أعد له يوسف باشا حملة فزان ضد محمد المنتصر.

يوجد فى مرزق عدد محدد جداً من الأجانب، من المغرب وأماكن أخـرى ممن قرروا البقاء فى فزان، وفى مرزق هؤلاء يعيشون حياة أفضل، وفـى هـذا الموضوع قال لى الشيخ أحمد بن عيسى: ذات يوم جاء عالم متمكن الى مـرزق وبعد أيام من إلقائه الدروس الأولى تجمع حوله عدد من الناس يتابعون دروسـه بمواظبة واهتمام، ولكن الشيخ هرب ذات يوم ودون أى مقدمات، اذ ماعاد يطيـق البقاء فى مرزق فقال عند خروجه "من المستحيل أن أبقى فى مثل هـذه المدينـة أكثر من ذلك" فسألوه لماذا؟ فأجاب:"إن مرزق صورة طبق الأصـل لجـهنم، ان

جهنم حارة، ومرزق حارة وحارقة، ملاعين جهنم سود وسكان مرزق بنفس السواد على الاقل، لجهنم سبعة أبواب ولمرزق سبعة أيضاً أى شيطان تريدوني أن أكون، وأن أفعل فى مكان فيه كل مافى جهنم" ثم ذهب الرجل.

تبيع النساء فى مرزق أغراضهن ببعض التمرات أو حفنة من الشعير، هذا ماأكده لى عدد من الأشخاص، ما العمل فى هذا المكان؟ كيف أقتل السأم، وكيف أتعود على مكان ليس فيه طعام يطيب للمذاق، ولايروح النفس لحظة، وحيث لاتسقط قطرة من المطر، وحيث يأكل الناس وبهائمهم نفس الشيء: البلح كما أن الحمى اختارتها موطناً تبقى وتتجدد فيه بشكل دائم، بسبب تعاطى البلح وخبز الشعير والقمح نادر، لايتعاطاه الا الأكابر والوزراء والسلطان، والزبد معدوم كعدم الترتور الأحمر السحرى، وذلك القليل الذى يجده المرأ أحياناً بالصدفة يبدو كمعجزة تظهر للأغنياء فقط، ما العمل بالشحم الذى يباع فى مرزق كمادة رئيسية للمطبخ، مامصير المرء فى بلد يأكل فيه الناس ونعاجهم "الكذب؟ ويعدون منه ولائم بعد ان يخلط بقليل من الملح، واذا وجدت بالصدفة دجاجة فانها تباع بنصف مثقال من الذهب، وتباع عشر بيضات عندما يجدها المرء بنصف ريال وماذا بعد؟ ألم أر عند القاضى نساءً وخدماً يشكون رفض رجالهم اعطاءهم مايأكلون وماذا؟ التمر هل هنالك أكثر بؤساً من الجياد التى تجر الماء من الآبار لسقى بعض المزارع الصغيرة؟ فى الحقيقة لايستطيع البقاء فى مرزق الا التجار، اذ يحققون أرباحاً قد تصل الى ألف فى المائة.

لايوجد فى كل فزان سوى مائة وواحد مكاناً مأهولا ويعيش الكل على النخيل والذى يؤدى مجموعة من الوظائف، فالنخل هو الثروة الوحيدة، وبالكاد توجد بعض أشجار التمر الهندى حول الآبار.

لايمكن ان تبقى مرزق أو تكون بدون التجارة فهى نقطة عبور قوافل برنو ووداى وباقرمي وكل السودان الشرقى والغربى يذهب تجار أوجلة لشراء البضائع المصرية ويرحلونها الى مرزق ويتزود تجار سوكنة فى طرابلس وبلاد البربر، ويذهبون بعدها الى مرزق وكذلك تجار بنغازى حيث يجلبون البضائع من طرابس

وحتى من القسطنطينية ويأتوا بها الى عاصمة فزان وبذلك تصبح مـــرزق حقــاً عاصمة تجارية.

تقع سوكنة التى ذكرتها قبل قليل بين محمية طرابلس وعاصمة فزان على ثلثي المسافة من طرابلس أي على مسافة ستة عشر يوماً بسير القوافل وبعد يــوم واحد من سوكنة في الاتجاه الغربي توجد هون.

في مرزق يفضل الناس الرقيق القادم من هوسا عاصمة أفناوا على الرقيق القادم من برنو ووداى وكل البلاد الواقعة شرق هذين البلدين، وفـــي كــل مكــان يرتفع الطلب على رقيق الهوسا، ويباع بسعر أعلى من الجميع، أما رقيق الباقرمى وبعده رقيق البرنو فمعتبر وذو قيمة اكثر من رقيق وداى، لكن أقل قيمة من رقيق السودان الغربي.

في المغرب وفزان كما اشرنا سابقاً لايطلق اسم السودان الا علـــى أغــأو وهوسا ونوفي والبلدان الواقعة غرب أغأو، أما برنو وو داى وكل البلدان المجاورة شرقاً فيطلق عليها إسم بلاد العبيد.

في السودان الغربي تسمى مرزق- زيلع، وعند إقامتي بهذه المدينة سعيت للحصول على بعض المعلومات التاريخية عن البلد وأصلها، ولكن لم أحصـــل الا على معلومات تافهة، وكل ماستطاعوا قوله هو أن ملك فزان من سلالة الخلفـــاء العباسيين، وأن المنتصر الذى تحدثنا عنه والذى رأيته في مرزق يدعي الانحـــدار من هذا النسب، الا أن العباسيين بعد أن طردهم التتار من بغداد هربوا حتى فزان حيث أقاموا ملكاً.

يمر الطوارق والتواتيون سكان "توات" بمرزق مسافرين وتجاراً، وأيضـــا قوافل حجاج تنبكت والتي تتوجه بعد مرزق الى أوجلة ثم سيوه في محافظة الجيزة ثم القاهرة، كانت قوافل تنبكت تجلب الى مرزق كميات كبيرة من السلع والنقـــود من بدرة الذهب وشظاياه وسبائكه وختمه، ولكن الناس في فزان يفضلـــون بـــدرة الذهب إذ أنها أكثر نقاءً وضماناً، إن الذهب المجلوب من تنبكت وبعض الأمـــاكن الأخرى في السودان الغربي هو الذى يستخدم كنقد في مـــرزق بـــوزن الذهـــب، بالمثقال ثم يقسم للدفع، أما اليوم فقد نقصت كمية الذهب بشكل معتبر في فـــزان، ويدفع الناس غالباً الدورو حسب كمية وحجم المشتريات، وكذلك أرباع وأنصـــاف أو ثلاثة أرباع الدورو التي يقطعها الناس الى أربعة أجزاء متساوية.

أما بالنسبة لشراء المواد ذات القيمة الأدنى فلايستخدم الناس في التبادل الا الشعير والتمر، اذ لاتوجد قطع نقدية أصغر، ومايشد الانتباه ويثير العجـــب فـــي فزان هو طيبة وفطنة السكان في القول والفعل، وسأذكر هنا مثالاً:

يحكي أن أحد الفزانيين انفق ماله بتهور وتضاءل الى درجة البؤس، وقبل أيام من مغادرة إحدى القوافل الى السودان ذهب وقطع كمية من جريـــد النخـــل والسعف وخرمها ووضعها في أكياس كتانية كبيرة، ثـــم خاطـــها فـــي طرديـــن وربطهما بعناية وقوة، فصارت تشبه البضائع، ووضع الرجل الطردين على جمل وأتى بهما الى مرزق، وعند الدخول الى المدينة طلب رجال الجمارك اثنين دورو

على الجمل وعلم ان طردين قد وصلا الى السيد فلان من مصر، وفي العادة كانت رسوم الجمارك اثنين دورو عن كل جمل مهما كانت البضاعة، قماش رخيص أو حرير أو كشمير ...الخ لايسعى أحد لمعرفة ماهى البضاعة، ولم تفتح الطرود أبداً.

أخذ الفزانى الحمل الى بيته ثم ذهب لمقابلة الوزير عثمان قائلا له:تعلم أن قافلة تتجه الى السودان يوم غد، ووصلنى اليوم طردان من البضائع ولا استطيع أن أفتحهما وأعيد تعبئتهما فى الغد، وإلاتأخرت فخذ هذه البضاعة معك كرهينة وأعرنى مائتى فرانسا "كولونات" أجرب حظى فى السودان، ومن ثم ارد الدين، قال عثمان: حسناً، ثم ذهب الرجل ورحل الطردين الى بيت الوزير، والذى وضعهما فى غرفة خاصة، وأعطى الفزانى مائتى فرانسا، ثم غاب الفزانى مايقرب من ستة أشهر، ونجح فى متاجرته وعاد يقود عدداً معتبراً من الرقيق، وبعد أن استراح لبعض الوقت باع رقيقه ثم ذهب ليسدد دينه ويشكر صاحبه، وعندما قبض عثمان ماله قال الفزانى:هل تتكرم الآن باعطائى بضاعتى فأمر عثمان عبيده باحضار الطردين فذهبا ولكن بعد جفاف الخشب صار الطردان خفيفين وبدا أقل امتلاءً مماكانا عليه عند وضعهما، وصار يسمع لهما صوت عند تحريكهما، فرفع الحمل عبدان فقط بينما كان فى بادئ الأمر لايستطيع ثلاثة أو أربعة تحريكه.

اندهش الوزير وسأل عماجرى لبضاعة الفزانى وخطر له أن لصاً تسلل وسرق شيئاً من الأمانة، أو أن رقيقه سحبوا منه شيئاً لم يدر عثمان ماذا يقول، وبدا قلقاً ومضطرباً، فهداه الفزانى قائلا: لاتقلق لم تنقص بضاعتى شيئاً فهى كما تركتها، وهى ليس أكثر من كرناف (جريد نخل) وكان ذلك هو كل ما اعطيتك من رهن، وتحيلت هذه الوسيلة حتى أحصل منك على المبلغ الذى أعرتنى إياه وقد وفقنى الله فى مسعاى وجئت لارد لك نقودك وأشكرك على طيبتك أثابك الله، فرد عثمان أنا سعيد بأن استطعت مساعدتك وقد برهنت لى خطتك الدقيقة والعالية، وقد وفقك الله بها أعلى الدرجات، ومنذ اليوم فان كل مالى وثروتى رهن اشارتك فكلما ترتاح الى شيء فى تجارتك واسفارك ارجوك أن تأتى وتطلب المبلغ الذى تحتاج.

ومنذ ذلك اليوم صار الفزاني والوزير صديقين حميمين، هذا يؤكد قول الرسول الكريم "حسن النية سفينة للنجاة"

طالت اقامتي في زرق طول عمر لوبد[1] (صقر لقمان) فتضجرت ومللت الانتظار، ويعلم الله شوقي الى ماوراء الجبال والأودية، وتمنيت لو أن لي جناحين لطرت سريعاً، كان السفر غاية ماأتمنى لكن ما العمل؟ فقبيلة بني سيف النصر أحد بطون بني سليمان قد استولت على الطريق تنهب وتسلب وتسبي، وحتى تقتل المسافرين، وجعلوا من عبور الصحراء أمراً مستحيلاً فتعلق سفر كل القوافل.

كنت أبحث كل ساعة وفي كل مكان عن رفاق يمكن أن أعتمد عليهم وأحتمي بهم فلم أجد، وأخيراً جاءني الشيخ محمد أبوقصيصة وقال لي أول مارآني: (هيا ياصديقي استعد ستسافر، لقد سنحت سانحة لنهاية تضجرك، سألته أي سانحة يا شيخي الجليل، قال: لقد وصل أكثر رجال العلم الذين عرفتهم، وهو الشيخ بوبكر بن رديون رجل تجله الناس لتقواه وتحترمه كل قبائل عرب بني سليمان، وقد اختاره يوسف باشا طرابلس وسيطاً لإخماد الحرب التي اشتعلت بين قبيلتي بني بشر وبني سيف النصر، سألت بوقصيصة: أي حرب هذه؟ ولماذا جاء بوبكر بن رديون الى هنا؟ قال:كل مافي الأمر هو أن بوبكر جاء موفداً ليوسف باشا ومعه الاذن باصطحاب أعيان من بني بشر، وهي أيضاً فرع من بني سليمان الى طرابلس تحت حمايته.

تنقسم قبيلة بنو سليمان الى بطنين: قبيلة بشر، وقبيلة سيف النصر، وهي الأكثر عدداً والأقوى عوداً، أراد بنو سيف النصر السيطرة على بني بشر رغم أن القبيلتين تنحدران من أخوين، حملت كل منهما اسم ابيها، فقامت بينهم الحرب، فانتصر بنو سيف النصر، أما البشر المهزمون، فقد تركوا عدداً من القتلى في أرض المعركة وأرغموا على الفرار، ولم يجدوا مايفعلوا سوى اللجوء الى حدود فزان ليعيشوا بشكل أو بآخر تحت حماية سلطان فزان.

ومنذ ذلك اليوم يقطع بنو سيف النصر الطرق، وينهبون القوافل ودخلوا في عداوة سافرة مع باشا طرابلس، فأرسل يوسف باشا قوة ضدهم لكنها هزمت،

---

[1] صقر من صقور لقمان الحكيم عاش قروناً عدة، ثم مات عجوزاً، ينظر الترجمة الفرنسية.

وارسلت اخرى لكنها هزمت أيضاً، اندهش يوسف باشا وازداد قلقه، فاستشار وزراءه فنصحوه بان ينادى قبيلة البشر الذين انسحبوا الى مقاطعة شياتى، وان يتقرب اليهم ويقرر قيام حرب بينهم وبين بنى سيف النصر، فقال الباشا: من استطيع ان استخدمه في هذه المفاوضات، قالوا له: من الاضمن أن توكل المهمة الى بوبكر بن رديون، فأرسل يوسف باشا في الحال طالباً بوبكر، فجاء الى طرابلس واستقبله يوسف باشا بحفاوة بالغة وقدم اليه الهدايا ثم أخبره بنواياه، وشرح له غاية المفاوضات التي أوكل أمرها اليه، فقبل بوبكر المهمة، ووعد باحضار كبار بنى بشر الى طرابلس، أعطى يوسف باشا الشيخ بوبكر فرمانا واعداً فيه بعد القسم بحماية بنى بشر الذين يأتون الى طرابلس، ووعد بأن يعاملهم بكرم وشرف. أخذ بوبكر هذه الوثيقة وجاء الى فزان وقد وصل لتوه، وأظن ان هذه أفضل مناسبة يمكن أن تتوقعها للسفر، انضم الى هذه البعثة (يقول أبوقصيصة) ورتب مع رفاقه وستكون تحت حماية بوبكر، فهو رجل دين وفضيلة، فقلت: منشرحاً: حفظك الله، قدمنى للشيخ بوبكر حتى أتمكن من التفاوض معه والتعرف على مسائل عن أمر سفرنا، قال الشيخ: حسناً، ستراه بعد العصر رتب حالك للخروج من مرزق، من هذا السجن.

وفي الساعة المحددة ذهبت الى منزل بوقصيصة ووجدت رجلاً يجلس بين العرب، يبدو عليه بحق النبل والتميز، كان ذلك هو بوبكر وعند دخولى قال بوقصيصة: هذا هو التونسى، أزكيه وأضعه تحت حمايتك، فرد بوبكر: حسناً: حماية، اهتمام، دعم، نجدة، كل ماتريد ثم قال بوبكر: هل لك حاشية كبيرة ومتاعاً كثيراً، اجبت بنعم، بأن لى متاعاً معتبراً، أردف الشيخ: من الأفضل أن تخرج من هنا قبلى وان تنتظرنى فى شياتى، فلن أبقى فى مرزق إلا بضعة أيام، سألت: ولكن لا أعرف عند من سننزل فى شياتى، رد قائلاً: هذا أمر سهل لاتقلق ولاتخف من شيء وكتب لى خطاباً الى زعيم قبيلة بنى بشر والمقيم فى شياتى، ويسمى هذا الزعيم بشر أيضاً، وقد كانت الرسالة تحوى الكلمات الاتية: عند تسلم هذه الرسالة عامل حاملها بصورة كريمة واعتنى به الى حين وصولى والسلام عليك وعلى أحبابك.

عينْ لي بوبكر مرشداً للطريق وفي صبيحة اليوم التالي غـــادرت مدينـــة مرزق القمينة المملة، ومع الصباح الباكر سلكنا الطريق الذى يجب أن ينتهى بنـــا الى مضارب بني بشر، صار المرشد رفيقاً وصديقاً ومؤنساً، سرنا معه لمدة أربعة أيام، وفي اليوم الخامس وصلنا الى بلدة شياتي، ولمحنا مضارب بنى بشر، قبيلـــة شجاعة متأهبة دوماً لأى طارىء: الهجوم والدفاع والأسر.

توجهنا مباشرة الى خيمة بشر زعيم القبيلة وسلمناه رسالة بوبكر، فقال لى: مرحباً بك أنت هنا فى دارك ووصف لى مكاناً بالقرب من خيامـــه لأضـــع فيـــه متاعى ورقيقى، وفى لحظات نزلت كأحد أبناء القبيلة، عاملنى بشر معاملة كريمة ولذلك انتظرت بدون قلق وصول بوبكر.

كانت مقاطعة شياتى حيث حل بنو بشر مؤخراً أرضاً مخيفة، تسمى "وادى" وهى فى الحقيقة واد تحفه أشجار التمر الهندى، وظلالها الوارفة، ولم الحظ فيـــه سوى قرية واحدة على مسافة من خيام البشر.

سيطر بنو سيف النصر على بنى عمومتهم بنى بشر وعذبوهم كما ذكـــرت وأرغموهم على نزع مضاربهم والبحث عن أرض اخرى بعيدة، فصارت قبيلـــة بنو سيف النصر بشجاعتها يهابها الجميع، وأقاموا بين فزان ومحميـــة طرابلـــس متأهبين دوماً للنهب أو الحرب، ولم يضعوا أبداً سلاح الحرب أو النصـــب ويقـــع كائناً من كان ضحية فى أيديهم.

لنر، أى وسيلة استخدمها يوسف باشا لتحجيم هذه القبيلة وابعادها وتطـــهير طريق القوافل من وجودها، لقد طلب من بوبكر أن يبحث بشر شخصياً ومقربوه، مشروعه ضد الحملات المتواصلة لبنى سيف النصر، وقد وعد يوسف باشا بدعم بشر ومده بالقوات، ووعدهم ايضاً بحمايته ومعاملته بشكل طيب اذا ارادوا قتـــال بنى سيف النصر وملاحقتهم، لقد اتم بوبكر مهمته، فقد جاء الى بشر وافضى اليه بمشروع يوسف باشا.

كنت قد انتظرت بوبكر لخمسة أيام عندما جاء الى شياتى، لقد مرت هـــذه الخمسة ايام رغم ضيق عبيدى واماتى، لقد ابتعدت عن مرزق وقد أعـــاد السفر

الهمة الى النفس، والخيراً أصبح ممكناً أن أشرب لبناً، وآكل لحماً من بني بشر وقتما أريد، وهنا أيضاً مرعى طيب لجمالي، حشائش خضراء وفيرة.

عند وصول بوبكر تجمعت القبيلة في مجلس كبير للتشاور كباراً وصغاراً شيباً وشباباً ليتفاكروا في الحالة الراهنة، ويناقشوا الموضوع، واذكر دائماً بكل سرور الانطباع الذي تركه عليّ الاجتماع والحرية التي كان يعبر بها أفراد القبيلة عن آرائهم وافكارهم، حيث يدلي الشباب والأطفال مابين الثانية عشرة والخامسة عشر من العمر بآرائهم مثلهم مثل المبجلين من كبار القبيلة، ويستمع اليهم الجميع باهتمام، ويعبروا عن أفكارهم، والجميع يعبرون المتكلم نفس الاهتمام بصرف النظر عن سنه أو غرضه، ثم يردون اليه، فلا يرفض رأى أحد أو احتقاره.

من الأشياء الرائعة التي أحفظ ذكراها دوماً هو رؤية المسنين يستمعون الى آراء الشباب الذين لم يبلغوا سن الرشد بعد، لم يشد انتباهي أي مجلس آخر بهذه القوة ولاأعتقد أن شيئاً مثل هذا يحدث في أي بلد في العالم، مجلس هادئ، ومنظم ومهتم، مجلس يضم كل الاعمار لمعالجة مصلحة عامة، قضية تهم الجميع وتمس مصالح جميع فئات القبيلة، مجلس كهذا جدير بأن يتبعه ويقلده كل شعوب الأرض، لاأدري كيف تدار المجالس التشاورية في فرنسا وانجلترا، ولكنني مقتنع بأن الفرنسيين والانجليز يمكنهم أن يأخذوا الدرس والأنموذج في الاهتمام والحرية وشكل الحوار الجماعي من صحراء افريقيا، حيث يوجد هؤلاء الأطفال من قبيلة بشر، فللمتوحشين محاسن وللأجلاف كلمة، وهناك حقيقة، وهناك صبية يلقنون العلماء درساً، كما يوجد في الصحراء واحات وأماكن خضراء[1]

كان قرار المجلس هو ان يذهب بعض أعيان القبيلة الى طرابلس مع بوبكر، وأن يبقى الباقون في شياتي، وبعد هذا القرار بدأت التجهيزات للسفر في قرب الماء، زيادة وتحسين علف الخيل لتتحمل هذه المسافة، دامت الاستعدادات لمدة خمسة أيام، وفي السادس تحركت القافلة نحو طرابلس، ومشت على بركة الله، لم يكن معنا سوى عشرين من عرب البادية الذين رافقوا بوبكر لمقابلة يوسف

---

[1] وصف الفقي عبارة عن حديث شفهي أدلى به الشيخ الونسي.

باشا، خرجنا من حدود فزان بعد يومين من السفر، وفي اليوم الثالث دخلنا سهولاً واسعة على مد البصر تكسوها الخضرة، ومغطاة بالأشجار الجافة والمخضرة.

على طول الطريق لم يكن للبشر ممن هم في قافلتنا حديث سوى مغامراتهم ومعاركهم وسلبهم، يقول أحدهم: "تتذكرون اليوم الذى قمنا فيه بالحملة كذا، عندما هجمت علينا قبيلة كذا، حيث انقض علينا الخيالة فى الموقع الفلانى، فى ذلك اليوم الذى قتل فيه فلان وفلان فى ذلك اليوم قتلت فلان، ورأتنى كـل القبيلـة أسـدد الضربة التى أردته قتيلاً.." ولم نسمع حواراً آخر سوى قصص ومغامرات بـدو الصحراء.

سافرنا لمدة خمسة عشر يوماً فى هذه السهول الغنية بالخضرة والمرعـى، وكان بعض من عربنا فى الطليعة يصعدون التلال ويجوبون الأفـاق، فـى كـل الاتجاهات، يتأكدون من أن المكان خال من أى مخاوف ومفاجآت، وأنهم لم يـروا شخصاً، ثم يعودون الينا، ونسير سوياً حتى يظهر مايوجب إرسال بعثـة جديـدة للاستكشاف.

دخلنا أرض الغريان فى اليوم السادس عشر، وهى أرض كثيرة الأشجـار مزدانة بالحدائق، ومواقع خلوية جميلة، وينابيع مياه وبرك، وبها أيضـاً مـزارع زعفران كثيرة، وفواكه مختلفة تقع الغريان على بعد عشـرة أيـام تقريبـاً مـن طرابلس فى أرض المحمية نفسها من الناحية الغربية.

الغريان شعب طيب كريم ومضياف وودود، لكن الغريب عندهم هو أن كل مساكنهم مبنية تحت الأرض، ولايرى على سـطح الأرض فـى قراهـم سـوى المسجد، وعلى مدى الفترة التى كنا فى غريان، كنا نتوقف المساء فى قرية، بينما نستجم عند الظهر فى محطة، وحيثما ذهبنا كنا نستقبل بحفاوة وكرم، لكن الطبخ لم يكن جذاباً لمذاقى على الأقل، ولم استطع أن آكل إلا قليلاً من اللحم مماكان يقـدم الينا، ماعدا ذلك كان مستحيلاً علىّ ان آكل منه شيئـاً.كـانت الوجبـة الرئيسـية والمأدبة الكبيرة عند الغريان هى عصيدة مغمورة فى الزيت ومحلاة بعجينة مـن البلح، ولما لم أكن متعوداً عليها، لم أستطع أن أبتلع منها أكثر من لقمتين وبعدهـا أختنق.

عبرنا الغريان فى خمسة أيام، ثم قطعنا بعدها سهولاً مثل تلك السهول التى قطعناها عند الخروج من فزان، مع فارق بسيط هو أننا نجد فى غريان مضارب بدو من العرب هنا وهناك، لقد خرجنا الآن من المخاطر وماعدنا نخاف سوى الله.

لقد اهتم بى الموقر بوبكر اهتماماً شديداً وعاملنى بكرم، فأرغمنى على الأكل معه، وغمرنى برعايته، وعمنى باطرائه وقدمنى لإمامة الصلاة كان يستشيرنى ويقبل رأيى فى جملة مسائل فقهية وشرعية وعقائدية.

أما البشر الذين كانوا معنا، فبدا لى فارغين من أى محتوى دينى وماكانوا يعيرون أمور الايمان والشريعة أى اهتمام، فلم يصلوا أبداً ولاشىء محرماً أو محظوراً عندهم، فتتساوى عندهم الفضيلة والجريمة، يقسم البشر دائماً بالطلاق بالثلاثة، مضروبة فى ثلاثة ومضافاً اليها ثلاثة "المسلم اذا اقسم بالثلاثة لأى سبب وفعل بعدها الشىء، فعليه أن يطلق زوجته ثلاثاً بمجرد الفعل الذى أقسم به، ويقسم البشر على سبيل المبالغة (بالثلاثة) مضروبة فى ثلاثة مضافاً اليها ثلاثة".

يفتخر البشر دائماً بعدد الأعداء الذين قتلهم ونهبهم، ويندم على مضى تلك البطولات ويتمنى لو عادت، كنت عند ذكر مثل هذه القصص والبطولات أقول للبشر: "هذه الأعمال إجرامية لايرضاها الله، كفوا عن الأفعال الشريرة، توبو" فيقولون: "نحن ناس الحرام هذه حياتنا نعيش على الممنوع، وتلزمنا مثل هذه الأعمال، أنها منافع أرسلها الله الينا لكى نتمتع بها، ونعيش عليها، خلقنا الله بدواً وأسكننا هذه الصحارى" كنت أتلوا عليهم بعضاً من آيات القرآن الكريم، وأقرأ لهم بعض الأحاديث، دائماً فيما يخص عادات القتل والنهب والسلب، لكن البشر يضحكون علىّ، ويعدون ما أقرأ وأفسر مزاحاً، وأكبر دليل على أن المواعظ لم تفض الى شىء هو أن أحد البشر واسمه كاتار، قال لى ذات يوم: ياشيخى أنت سعيد بأن كنت اليوم تحت حماية بوبكر بن رديون ولولاه لكنا استولينا على ماعندك من جمال وعبيد" وجملة القول: أن هذه القبيلة لاتؤمن بشىء، لا إيمان ولا دين عندهم، ويتساوى فى ذلك كبيرهم وصغيرهم، ولايوجد استثناء تقريباً، وإن وجد فقلة من العجزة والمعاقين، فكل ماعند هؤلاء من إسلام يتركز فقط على

الشهادتين وهي: " لا إله إلا الله محمد رسول الله" لقد آلمني قول وصحبة هؤلاء الرجال لكن كان على أن أبقى فقلت فيهم هذا البيت:

هؤلاء رفاق لا أصحاب   وعلى الصياد مرافقة الكلاب

ولحسن الحظ لم يدم ذلك طويلاً، فعندما عبرنا غريان لم أعير البشر اهتماماً، فقد كنت أتأمل غنى وخصوبة البلاد، ثم انتي كانت تلاحقني فكرة العصيدة الخانقة التي كانت تتردد علينا كل يوم، وتقوم بخنق المسافرين التعساء، وقد كتبت لذكرى هذه الأرض أرض العصيدة السعيدة هذين البيتين (بتصرف):

نعم الغريان أرض شهيرة   أرض غنى وخيرات وفيرة

وهناك مأدبة المساكين   العصاء هي العصيدة

تغطى الغريان حدائق الفاكهة، ومراعي وحدائق عادية ويعمها عدد من مجارى المياه ولكن المسافر لايذوق ثمرة الا بعينيه، فمن يمد يده لفاكهة واحدة يرجم بالحجارة أو بالعصي، أو يقتل برصاصة، فثمار هذه الأرض وكل أشجارها تنقل لتباع في طرابلس، وقد قلت في هذا الشان هذه الأبيات (بتصرف):

غريان أرض الحدائق الساحرة   علوها الألوان الباهرة

تبهج النفس والروح معاً   دون مس أو ذوق للمسافر

وأخيراً عندما رأيت الغريانيين يسكنون تحت الأرض كالموتى ويخرجون كالأشباح من أجداثهم عندما يسمعون صياحاً، فخطر لي أن أكتب قائلاً (بتصرف):

الغريانيون سكناهم القبور   يشبه خروجهم منها يوم النشور

توجهنا من غريان مباشرة صوب طرابلس، والتي دخلناها في المساء ورأينا تحت بابها رجلاً مشنوقاً على الجدار، فنزلنا في بيت محمد بن يونس، أحد أعوان يوسف باشا، وقد كنت نزلت في مرزق أيضاً في منزل محمد هذا.

لم أبق سوى أيام معدودات بطرابلس، وقد زرت المدينة ويبدو لي أن شهرتها أكبر من حقيقتها، وقد يأوى كل سكانها حي واحد من أحياء القاهرة

والمدينة بقلاعها وحصونها يبتلعها ولايترك شيئاً ظاهراً خارجها، حي برجوان ويمكن اخفاؤها كلها في حي الجوينية بالقاهرة.

تشبه بيوت طرابلس بيوت مدن محافظات مصر، وتحديداً تشبه بيوت الاسكندرية قبل أن يعيد محمد على بناءها وترميمها، لايوجد في طرابلس سوى بابين: أحدهما في اتجاه سوق الثلاثاء والذي دخلنا به، والآخر بجانب البحر، وتوجد في النهاية قاعة كبيرة تسمى سوق الرب، في كل مداخل هذه القاعة وضعت أبواب يقف عليها حراس وكلاب لحراستها في الليل، كل التجار أو جلهم من جزيرة جربة، ولايوجد من أهالي طرابلس الا القليل الذي لاينكر، ويوجد أيضاً سوق الترك، والذي يتكون من صفين من الدكاكين بكل صف حوالي خمسة عشر دكاناً وتباع في هذا السوق الملابس واشياء أخرى أكثر أو أقل قيمة على طريقة المزاد، واخيراً أيضاً يوجد سوق الكاملىّ أو سوق الدلالة حيث تباع فقط الأدوات المستعملة أو القديمة.

إن أجمل مساجد طرابلس هو مسجد الباشا المقابل للقلعة، وهي عندما دخلتها عبارة عن متراس مشابه لقلاع أحد الكشاف، وقد لايساوى منزل بيه في مصر، وفي أحسن احواله منزل باشا.

في الزمن الذي كنت فيه بطرابلس كانت العملة السائدة تُقيِّم بقيمة ضئيلة جداً، فالريال التونسي، والذي يقدر بثلث الدورو الاسباني أو ثلث التالرى النمساوي، يعادل تسعمائة وخمسون ريالاً طرابلسياً " وأقول يعادل لأنه لايوجد في الحقيقة عملة تسمى ريال طرابلسي، فالمسألة لاتتجاوز تقدير شفاهي أو خيالي، صار مستخدماً، ومن خلاله يقدر الطرابلسيون قيمة بضائعهم(١) .

لايوجد في طرابلس من الأطعمة الجاهزة للبيع الا طرشي البازنجان، أى يعني ثمار البازنجان مطبوخ بالخل، والذي يعد من الأطعمة الراقية، والمرغوبة في طرابلس ويمكن للمرا أن يحصل على غذاء مرتجل، بشراء رغيفة بخمسين ريالا وطرشي بخمسين أخرى.

---

(١) توضيح شفاهي من الشيخ: يظهر الترجمة الفرنسية.

اما الذى يبحث عن مائدة فعلية أن يشترى كباباً، وهو عبارة عن قطع كبيرة من اللحم على حجم الجوز، ترص فى قطعة حديدية وتشوى على الجمر، أو يشترى لحماً مطبوخاً، أو العصيدة، وعليك ان تضحى من أجله بستمائة ريال على الأقل.

يعقد سوق بين طرابلس والمنشية في يوم الثلاثاء من كل أسبوع وهو سوق يعمه عدد معتبر من البدو، وأهالى طرابلس وضواحيها بالاضافة الى سكان المنشية، قد يجد المرء صعوبة فى المشى فى السوق نسبة لكثرة عدد الناس، ويجتمع في السوق تجار الأقمشة والطرابيش فى صف، وتجد باعة الأدوية فى صف آخر، وفى ثالث تجد الجزارين الذين يذبحون ويبيعون فى ذلك اليوم كمية من الخراف الجيدة.. وترى اللحم المنشور الناظرين، فى ذلك اليوم يتمتع كل سكان طرابلس باللحم الطازج، أما فى الأيام الأخرى عموماً فلايوجد الا الميسورين الذين يستطيعون إرسال من يجلب لهم اللحم من سوق الجمعة فى المنشية، والذى يبعد حوالى ربع ساعة فقط من طرابلس.

ان المنشية مدينة ذات مساحة بامتداد وطول واسعين، وقد لايعبرها المرء في طولها الا فى أربع ساعات، بيوتها مبنية على طراز بيوت مدن المحافظات فى مصر، باستثناء بيوت وقصور الأكابر.. أن السبب في طول المنشية يكمن وراء ان كل بيت (عزبة) فيها حديقة ذات أشجار ونخيل وأرض زراعية، وتقريباً كل السكان من العرب البدو فى الاصل.

عند اقامتى فى طرابلس قررت بيع ماعندى من رقيق، وأن أقبض القيمة نقداً، لأنه كان في الميناء سفينة تستعد للابحار الى تركيا، والسعر كان مجزياً، ولم أبق الا أمة واحدة من البالقرمة اسمها زيتون، ثم استبدلت عند احد اليهود ماعندى بنقود تونسية.

ثم ركبنا فى قارب كبير متحرك صوب تونس، وبعد ثلاثة أيام من العبور أو السفر بحراً، وصلنا الى جزيرة جربة، فنزلنا واشترينا بعض الطعام، ولكن بسعر أعلى بكثير من أسعار طرابلس، ثم ركبنا مرة أخرى وأبحرنا صوب صفاقس، والتى وصلناها بعد يومين من مغادرة جربة نزلنا بعد ساعة ونصف من

مغيب الشمس، ولم تكن نعرف أحداً بالمدينة، ولم نعرف اين ننام، لقد قادونا الـــى وكالة بالقرب من باب البحر، حيث قضينا أتعس الليالي، ليلة كنــا فيــها غربــاء مهملين لايعرفون اين ينزلون، أو اين يدخلون، كانت الغرفة تطفح بالغبار الذى لم نستطع نفضه، اذ كان الليل دامساً، ولو كنا بقينا بالمركب لكان أفضـــل عشريـن مرة، بدا الليل طويلا بلا نهاية، واستسلمنا كفرائس للحشرات: القمل والبعــوض.. وبدا لنا وكأنّ الصبح لن يأت أبداً ليعلن بداية النهار، وأن الليل لن يجر أذياله أبداً وببزوغ الفجر هربنا من أسرتنا بأسرع مـــايمكن كـــاللصوص، فأســرعنا لأداء صلواتنا صلوات بالجهر وأخرى بالسر.

ذهبت لزيارة مدينة صفاقس وأسواقها فوجدت سكانها أجلافاً بحق، حمــر مستوحشة، ولايجيبون على سؤال، ولايسمعون شيئاً، حيوانات حقيقية فــي شكـل بشر، اللهم الا استثناءات نادرة، يتغذى سكان صفاقس على خبز الشعير والــذرة الشامية، أما اللحم، فيستهلكون كميات من السبارس فقط، وهى صغــار الأســماك التى تسمى فى مصر بالبصير، وقد يستغرب المرء لكون صفاقس اســتطاعت أن تنجب علماء وكتاباً معتبرين، وشعراء، مثل على حوليق، والشيخ مقديش والشيــخ على غراب، أشهر الفقهاء، والذى عمت شهرته كل تونس، فقد كتبت عن غــراب أبيات ساحرة وشعر فى أبيات متفرقة، كحكم مأثورة، ولـــولا مخافــة أن أطيـل لسردت بعض أبياته كدليل لمؤلفاته المليئة بالحس والرقة والروح والذوق.

تشتهر صفاقس بحدائقها الكثيرة، وبأشجارها المثمرة، ويكثر فيها الفســتق الأخضر، وهذا النوع من الفستق كان فى الطب القديم وصــف لتقويــة الذكــاء، وتطوير المقدرات الذهنية وخاصة عند الأطفال، ويكثر أيضاً اللوز، والباذنجــان وخاصة الشمام الرومى، هذا اللوز يسمى فى مصر الفرك وهو نوع سهل الفتــح، ويكفى أى جهد بالأصابع لفتحه، أما الشمام الرومى فى صفاقس فأحلى من السكر.

ويباع السمك فى صفاقس بسعر زهيد مجاناً تقريباً، وقد اشترينا ســبارس بالكوم، وقد يزن الكوم خمسة أو ستة أرطال، ولايساوى ثمن الكوم الواحد ســوى فروبية واحدة، أو أربعة نثريات، أو ربع ريال تونسى، أما السمك الكبــير فيبــاع بالوزن أو بالتقدير أو بالقطعة، ولكن دائماً بسعر زهيد.

زرت في صفاقس عدداً من المساجد وأكبرهم مايسمى بالمسجد الكبير والذى يسع تقريباً نفس سعة الجامع الأزهر فى مصر، ولكنه دائماً مهجور الا فى ساعات الصلاة (بمعنى انه لاتقام فيه أى دروس) يوجد فى صفاقس بازار (سوق) صغير لمحت فيه محلين للأدوية، أحدهما كبير وبه عدد من الكتب وضعها الطبيب مالك المحل أمامه، وبجانبه ميزان يزن فيه الأدوية، أما داخل المحل فمزدان بالزجاجات والقماقم، سألت هذا الطبيب عن الكتب التى أمامه، فأجاب: انها الكتب التى استشيرها وأبحث فيها عن الداء الذى أسأل عنه، وأى دواء أو وصفة وأى جرعة للأدوية المختلفة.

استرحنا لمدة ثلاثة أيام فى صفاقس، واستأجرت حمارين، وفى صباح اليوم الرابع سلكت درب تونس، وخرجنا مع بداية النهار ومعنا كل مانحتاج لخمس محطات أى خمسة أيام من المشى، لقد وصلنا نهاية الرحلة حوالى الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر.

فى هذه المسافة بين صفاقس وتونس بدت لى غريبة قرية الجم بقلعتها وأسوارها القديمة العالية، وهى قلاع ذات طول غريب ومبنية بشكل محكم.

على الجدار فتحات صغيرة عمودية، ثقبت عند بناء القلعة تشبه هذه الثقوب تلك التى ترى فى هياكل بعض القرى، والتى يحتمى بها الأهالى عندما يهاجمهم العدو، وتشكل كرات رمى حقيقية تطلق منها القذائف، كانت القلعة بلا سقف وبلا سلم فسألت صاحب الحمير التى استأجرتها عن من الذى بنى هذا البناء، فقال: بُنِيَ هذا البرج فى زمن المجوس، بناه العماليق، وقد بنته امرأة أقامت فيه، وكانت تقيم بشكل طبيعى فى القمة، وتقضى نهارها تغزل الصوف.. وكانت تغزل بشكل جيد لدرجة أن أبناءها ينزلون به من أعلى القصر الى أسفل.

وفى تونس سألت عن قصر الجم ولكنى لم أجد اجابة شافية، لم نجد فى الجم ماهو أرخص من التين الشوكى، وقد اشتريت منه حمل حمار بربع ريال تونسى، فأكلنا ملىء بطوننا وتركنا باقيه.

الدخول الى تونس وملاقاة الوالد

أقتربنا من تونس، لمحناها من بعيد، تبهر العيون ببياضها الناصع وزجاج بيوتها العاكس، وبرنداتها المغطاة بالحديد الابيض، وقبابها المغطاة بالقرميد شبه الأسطواني، ومطلية بالبرنيق الأخضر، وصلنا دمازات صباح خميس في الثلث الأول من شهر شعبان، ونزلنا في وكالة مسافري صفاقس.

استأجرت على الفور حمارين، حيث وضعت عليهما معدات مطبخي وفراشي وركبت انا في واحد، ولمتي على الآخر، ودخلت المدينة سائلاً عن: اين يقيم أبي، فأخبروني بأن المنزل مغلق، وأنه في سانيته، أى حديقته بلغة أهل طرابلس وتونس، ومازال الناس يسمون البئر التي يسقى الناس منها الحدائق والمزارع سانية، وخاصة في فزان، اذ يستخرج الماء بواسطة ثور يبتعد ويقترب من البئر بالتناوب لانزال الدلو ثم جره، والكلمة: سانية، مشتقة من الفعل: سنا، ماضي يسنو بمعنى يسقي، أو يجر الماء من البئر، سألت عن المكان الذى توجد فيه سانية أبي والطريق المؤدى اليها، قالوا لى إنه فى مكان إسمه حَفّر أو حفار، ولكي أذهب الى السانية، يجب ان أخرج من الباب الأخضر الذى يؤدى الى طريق قرية عريانة، فتبعنا الوصف حتى وصلنا السانية عند منتصف النهار، فدخلنا ولمحنا أحد العبيد فسألني عن: من أنت؟ قلت: مسافر ضيف الله جئت من وداي، كانت هذه الكلمات كافية ليعرفني، فجرى يخبر والدي، والذي كان يعمل مع رجاله في الحديقة، وكان لايزال معه حوالي اثنتى عشرة جارية سرية، وخمس خدم من العبيد، وعبدين من السود، يسمى أحدهما: خميس والثاني سعدان، إضافة الى ذلك كان قد أعطى أمه جارية شابة للعناية بها، فجاء والدى على الفور، سلم عليّ وقبلت يديه واصطحبني الى داخل المنزل الذى يسكن فيه، ثم جاءت بنتا عمي وبنات المرحوم محمد مع أختي، والتي ولدتها سرية أبي المفضلة في دارفور، والتي تركها لعمي زروق في وداي، جاءت الثلاثة اليّ وتقدمن بالتهنئة لي على العودة، ثم جاءت جدتي والتي غمرتني بلطفها وحفاوتها.

بعد قليل قدمت لنا وجبة وبعدها حكيت لوالدي ظروف سفري وكل ماحدث لي طوال غيابي، ومنذ خروجي من دارفور الى وداي، وحتى وصولي الى تونس، لكني لم أتحدث عن النقود التي كانت في حوزتي وقلت أيضاً لخادمتي ألاتتحدث عن ذلك الى أي من كان.

وفي المساء أمر ابي خدمه أن يعدو لي الحمام، وعندما جهز جلبوا لي ملابس جديدة على طريق لبس أهل تونس، ثم قال لي: قم استحم، فإن الحمام سيريحك، وتنظف غبار السفر.

وأجبت على طلب والدي ثم جاءت خادمة وأخذت الملابس التي خلعتها، وكانت نقودي فيها، وكانت تتكون من محبوبات ذهبية مصرية وقسطنطينية وبعض ريالات تونس محفوظة في الحزام، وعندما أخذ والدي الحزام ووجده ثقيلاً فتحه وفرغه في أسفل جلبابه، ثم ذهب وصبها في خزانة دون أن يعدها أو يتفحصها: وكنت أنا في الحمام لم أر شيئا من كل ذلك.

خرجت من الحمام وارتديت ملابس، وأخذت حزامي لكي أربط به ردائي، فوجدته خالياً كفؤاد أم موسى، بقيت مرتبكاً، وقد تبدد فرح عودتي، كنت آمل بعد بعضة أيام من الراحة مع أبي أن اشترى بضائع مناسبة وأعود الى وداي، كنت أريد العودة بحثاً عن الثراء وعن مستقبل أكثر يسراً، ولكن مع ضياع ثروتي القليلة هذه، بفعلة أبي بأن اجنحتي قد قصت، وبالتالي أصبحت عاجزاً عن مواصلة الطيران، تحجرت ولم أعد قادراً على النطق بكلمتين، فلاح لي أمل ضعيف وتخيلت بطيبة أن والدي أخذ نقودي ليس للاستيلاء عليها، وانما ليحفظها ويردها لي متى أشاء، هدهدت نفسي بهذه الأوهام لأهدئ حمى الندم الذي أخذ قلبي.

وبعد أيام جاء الى بيتنا فقيه من مصراتة اسمه عمر، ينتمي الى عائلة شيخ مشهور بالتقوى، هو الشيخ أحمد زروق، قطب الفضيلة، وكانت الوظيفة (وهي مجموعة من الأدعية تقرأ لمدة ساعة أو ساعة ونصف، تقابل مانسميه "المسبحة" الساعات، من قرأ هذا الحرز يبقى في مأمن من كل سوء حتى اليوم التالي.

تربط الفقيه عمر صداقة بوالدي في وداي، وكان والدي مسروراً برؤيته، فاستقبله وعمه باهتمامه، واستضافه في البيت في الجزء الذي أسكن فيه، لقد خففت

على أحاديث الفقيه العجوز، لأنه كان رجل علم وحصافة وحكمة، وكــان بليغــاً مهذباً فى القول والفعل، وذو علم غزير ومتنوع، فخطر لى ذات يوم أن أحدثه عن نقودى، وعن الكيفية التى استولى بها والدى عليها، وانه بذلك دمرنى وجعلنى بلا مورد، وحزنت ولا أعرف إن كان قد استولى عليها أم أنه سيردها الى.

فقال لى الشيخ عمر: سأستبين والدك هذا المساء حول نواياه فى هذا الشأن، وفى صباح اليوم التالى، ذهبت الى الفقيه وسألته عن نتيجــة حــواره، فأجـاب: ياصديقى العزيز ماأن بدأت حديثى الذى أوكلتنى بنقله اليه، حتى تقطــب حاجبــا أبيك، وتجهم وجهه، وقال لى بلهجة صارمة: من أين جاءه هذا المــال، إن هــذا المال مالى، وهذه ثروتى، إن كان ولدى قد جمعها من حرث الأرض، فــالأرض أرضى، وان كان من التجارة، فرأس المال الأولى كان من مالى، وإن كانت مــن عطايا السلطان فهى بسببى، لأنه أعطاه إكراماً لى، فان تحدث إبنى مرة أخــرى عن هذا الموضوع سأطرده من هنا دون أى شيء غير الملابس التــى يرتديــها، وسأضرب مثلا يحتذى فى الصرامة له وللآخرين، فكان أن أسكت، والا فماذا كان يمكن أن يكون، فلم أقل كلمة، فأثار فىّ غضباً جديداً، وندمت بعمق على أننى لــم أفكر فى إخفاء كنزى الصغير فى مكان آمن، وبعد أيام نادانى والدى وقال لــى: أريد أن أسافر مرة أخرى الى وداى، لأحضر أولادى وأسرتى من هناك، وأرتب أمورى، أما أنت فستبقى هنا فى السانية، سأتركها لك مع الأرض الملحقــة بــها مقابل النقود التى أخذتها منك، راقب هذه الحيازة، أزرع الأشجار وأفلــح الأرض الصالحة وسأترك لك كل مايلزمك لذلك، الثيران للسقى والحرث، وأدوات العمل، وإضافة الى ذلك سيكون لك فى المكان الذى تحفظ فيه الغلال مخزون جيـد مـن الشعير، لتغذية البهائم، وكمية من القمح للزراعة ولاستهلاككم جميعــاً، وعنـدك أيضاً الخمكسى، أو عمال الخمس، وسيكون معك أيضاً عبدى خميــس وزوجـه سعدان، وابنتها، ثم أوصيك بأمى، وبنات عمك، فأولهن عنايتك، قلت يـا والـدى لماذا تعرض نفسك للمخاطر والتعب برحلة طويلة كهذه، فقد تقدمت بـك السن، وستكون هذه المسافة شاقة بالنسبة لك، أسمح لى بالسفر فى مكانك، وسأقوم مقامك فى ترتيب المسائل والقيام بكل ماتريد، أعطنى فقط خطابات للســلطان، وأخيـك

زروق وانني اتعهد بان كل امورك ستتم على خير، وأنت تبقى هنا فــي الصــون والراحة.

فأجاب بحزم: لا، لا، لا أحد يستطيع أن يصفى أمورى غيرى، ولاتستطيع أن تحل محلى، فسافر وذهبت الى تونس معه، وترك فى السانية أمه وبنات أخيه، كان ذلك في رمضان، فقضينا باقى شهر الصوم فى تونس، وفى هذه الفترة بــاع والدى كل عبيده، ولم يترك الا سعدان، وأعد طرداً من مختلف البضائع المطلوبة فى وداى، واشترى مجموعة أشياء كان يود ان يهديها الى سلطان وداى، وكــان من بين هذه الأشياء ساعة حائط تصدر موسيقى لمدة ثلاث أو أربع دقــائق قبـل إعلان كل ساعة، ثم ترن معلنة تمام الساعة، لقد كلفت والدى غالياً، حيث دفع فيها مائة وستون ريالاً تونسياً (٢٦٥ فرنك) وتكونت الهدية أيضاً من بعــض الكتـب، وكمية كبيرة من الشاى (لأن السلطان صابون مولع به) وخرز ذات جودة عاليـة، وملابس قيمة، وشمع أبيض كالكافور، وبعد انتهاء الإعداد للسفر غــادر والــدى تونس وكان ذلك فى شبعان عام ١٢٢٧هـ (مايو ١٨١٢م).

بقيت لبعض الوقت فى تونس، ثم عدت الى السانية، بقيت هناك مع بنـات عمي، وكنت حينها قد تضاءلت الى الصفر، صفر من الذهب، وصفر من الفضة، اقترب الشتاء، فأعددت الأرض وزرعتها وكنت عندما أحتاج أبيــع شيئــاً مــن مخزون الشعير.

بعد سفر والدى بقليل اقترحت على جدتى أن أتزوج بنت عمى الصغـرى، رفضت فى الأول، لكننى أخيراً قبلت، وتمت الخطوبة فــى شــهر ذى القعـدة، وتزوجت نهاية ذى الحجة.

مر عامان، وفى نهاية عام ١٢٢٩هـ (١٨١٤م) أخبرنى محمد يونس بوفاة والدى، فرتبت أمرى للسفر سريعاً الى طرابلس، فخرجت، وكان على أن أســافر الى السودان، ولكن لعدم وجود قافلة متجهة الى فزان كان على أن أنتظر، وبعــد قليل وصلتنا قافلة من مرزق كان من بين مسافريها سعدان عبد والــدى، فذهبـت لمقابلته، فقال أن والدى أرسله من وداى الى فزان بعدد من العبيد، وبعد بيع العبيد فى مرزق وعندما كان يستعد للعودة الى وداى سمع خبر وفاة سيده، وبعــد ذلــك

وصل الخبر الى مسامع المكني حاكم فزان الذى استولى على ثمن الرقيق والبالغ ٩٦٠ تسعمائة وستون دورو، كما صادر المكني منه جملاً وملاية حجازية، فذهبت وأخبرت محمد يونس بهذا السلب، فكتب لى على الفور أمراً باسم يوسف باشا الى المكني لارجاع المال الذى أخذه من عبد والدى.

وباستلام الخطاب اشتريت هدية معتبرة للمكني، وبعد أيام تحركت القافلة الى فزان، فخرجت معها، فتبعنا درب بونجيم وسوكنة (تبتعد بونجيم عن سوكنة مسافة أربعة أيام من المشى، وعندها دائماً يهاجم عرب بنو سليمان القوافل، مابعد ذلك فالطريق آمن وجيد) كان المسير سريعاً ومناسباً ودون أى عوائق، وصلت الى فزان ثم الى مرزق، وذهبت على الفور لمقابلة المكني، وسلمته الأمر الذى كنت أحمله، لم يقض المكني لى حاجتى على الفور، وكان يماطلنى يوماً بعد يوم، وبعد مدة طويلة وجهود، وبشق الأنفس سلمنى ٩٦٠ (تسعمائة وستون دورو).

كان القافلة التى اتيت معها من طرابلس قد غادرت مرزق، وكان علىّ أن أنتظر قافلة أخرى، وفى هذه الأثناء اشتريت بضائع متنوعة، يمكن أن تباع فى وداى بسرعة، وكنت فى مرزق أذهب دائماً لزيارة الفقيه على مهايدى، وعندما كنت على وشك السفر، احتاج الفقيه الى بعض النقود فطلب منى مائة دورو فأعرته إياها، وكتب لى مستنداً بذلك.

أكملت القافلة ترتيباتها وغادرت، وعبرت المسافة التى تقع بين فزان وأرض التيورشاد، وعندما وصلنا الى تخومهم رأينا قافلة كبيرة قادمة من وداى فلمحت فيها عمى زروق، لقد عاد ومعه كل ماترك والدى من ثروة، وكذلك ثروة عمى المرحوم طاهر وشركائه فى التجارة.

تسالمنا وتوقفت القافلتان، وقبلنا أن تستجما لمدة أربع وعشرين ساعة نزولاً عن رغبتنا أنا وعمى، عندما كنا فى وقت الراحة تحدثت مع زروق عن أبى، سألته عما بقى لنا من ثروة، فقال لى: إن ابى لم يترك شيئاً، مع أننى عندما غادرت وداى لم يكن لزروق سوى أربعة عبيد، بالاضافة الى جواريه، لكننى أرى له فى القافلة مايزيد عن المائة عبد، ومائتى جمل على الأقل، وعلمت أن له شحنة من ريش النعام، وشحنة من المرجان والحلى الفضية، من الأساور وأم شنقة

والمحار، وأن كل مسافرى القافلة قد استدانوا منه نقوداً أو جمالاً أو غلة، ولاحظت أيضاً أن كل من كان فى القافلة تقريباً تحت أمره وخدمته، وأنه عليه أن يقول فقط يأمر أو ينهى والكل يطيع.

ترجيت الذين كانوا يعرفون زروق ويعرفون ثروته الشخصية أن يشهدوا لى أو يقروا لى أمام المحكمة، لكنهم رفضوا، خشية أن يغضبوه، لم يكن لى عون أو نجدة أمل فيها، عرفت أن أحد المسافرين يريد العودة الى وداى، وأن لديه عشرة من العبيد الشباب يريد بيعهم، اقترحت عليه استبدال عبيده بماكان عندى من بضائع، فقبل وتم التبادل فى الحال، وعدت الى فزان مع القافلة القادمة من وداى، والتى فيها عمى زروق وبقية أقربائى ممن كانوا يرافقونه.

بمجرد وصولى الى فزان شكوت زورق، لكن لم يهتم أحد بالقضية، كان زروق يحمل أوراقاً بها إقرار والدى بأن أخيه هو شريكه فى كل ما يمتلك فى وداى وتونس، وشهد على ذلك الفقيه عمر الذى تحدثت عنه، وشاهد آخر، ثم وثق ذلك بختم الفقيه نور كبير قضاة وداى، اقترح زروق أن يرد لى نصيبى القليل من الارث، وكاد النزاع بينى وبينه أن يكون عنيفاً، ولكن تدخل بعض الناس وحثونا على الصلح فرضخت لنصائحهم، وقبلت استلام ثمانية عشر رقيقاً، ولقطع الطريق أمام أى اعتراض لاحق، كتبنا مكتوباً بأن زروق لم يعد مداناً لى بشىء، وأنا لن أطلب منه شيئاً بعد اليوم، باتمام الاتفاق رد لى زروق أختى الصغرى والتى كانت أمها جارية من اصل ميدوبى والتى كان قد أعطاها سلطان دارفور لوالدى مع جارية اخرى زغاوية، فانتحرت الزغاوية لأنها كانت تغار من نساء والدى.

أسرعت للعودة الى تونس، فى هذه لم تدم غيبتى سوى عشرة أشهر، وعند عودتى كانت كل ثروتى على ما اعتقد خمسة وعشرين عبداً وفى هذه الرحلة الأخيرة تحملت مشاقاً كثيرة، ومتاعب ومخاطر لن أذكرها حتى لاتكون حكايتى طويلة ومملة، كانت عودتى الى تونس حدثاً وعيداً لأصدقائى، وبعد أيام من وصولى وبعد ترتيب أمورى شهد الله بأن الناس جاءوا لزيارتى من كل حدب وصوب وتهنئتى بالعودة، وشراء العبيد الذين جلبتهم، وفى زمن وجيز بعت كل

العبيد والجوارى ولم أبق معى الا واحداً يسمى سعد، أما العجوز سعدان فقد اعتقته صدقة جارية لوالدى، ولكننى ابقيت زوجته وابنته فى عداد عبيدنا.

كان نصيب جدتى من الارث جاريتين شابتين الحقتهما بخدمتها الخاصة، أما أنا فكان نصيبى من بيع عبيدى قد وصل الى الف محبوب أو أربعة الاف وخمسمائة ريال تونسي، وعندما حصلت على هذا المبلغ اشتغلت بزراعة السانية، ولكننى لاحظت بعد ذلك اننى كنت أخسر وأن هذه الحيازة تصلح لرجل غنى يمتلكها للرفاهية، ولما كانت بلا ربح بعتها بكامل ملحقاتها بثمانية الاف وخمسمائة ريال تونسى (٨٥٠٠ر) وفى هذه الفترة ماتت اختى الكبرى، وبالتالى عاد الىّ تلقائياً الثلثان من نصيبها فى الميراث.

أقمت فى تونس حوالى عامين، كانت الأسرة كبيرة والغلال غالية، وقد صرفت لمعاشنا قسطاً كبيراً مماكنت أمتلك، فأيقنت بأننى اذا بقيت هكذا لعامين آخرين، ستتلاشى ثروتى الصغيرة هذه تماماً.

فقررت أداء شعيرة الحج، وعند المرور بالقاهرة يمكننى زيارة والدتى التى كنت قد تركتها منذ سفرى الى السودان، فأعددت لهذه الرحلة الجديدة، كان والدى يمتلك بيتاً فى تونس، واشتريت بيتاً آخر بالقرب من دار الباشا (خزانة الحربية) بمبلغ ثلاثة الاف ريال.

طلبت من بنت عمى وكانت حينها زوجتى أن ترافقنى الى الحج، لكنها رفضت، فاشتركت فى صفقة طرابيش مع صانع الطرابيش المشهور محمد البمرى، والذى أوكلته ادارة شئون بيتنا فى غيابى، وأخيراً غادرت تونس فى شهر رجب، كان فى حينها الشيخ أحمد السنارى الملقب بابن الطيب فى تونس وكان أيضاً ينوى الذهاب الى الحج، وللمصادفة السعيدة خرجنا فى وقت واحد، والتقينا عند باب المدينة، ومن ثم استأجرنا معاً مركباً صغيرة، كان ذلك فى يوم الجمعة، وبعد صلاة الظهر ركبنا من ميناء حلق الواد، ميناء تونس، لكننا لم نتحرك الابعد ثلاثة أيام، حيث أخذ الريس[1] هذه الثلاثة أيام يرتب أموره فى المدينة.

---

[1] الريس أو الرئيس: هو البحري قائد المركب أو السفينة.

وأخيراً اقلعنا وقضينا الليل في البحر، وفي اليوم التالي كنا في ميناء سوسة أكثر المدن إثارة للانتباه في أفريقيا بعد تونس، معمار سوسة رائع، وسكانها طيبون، وبشوشون، توقفت فيها ثلاثة أيام، وكان سبب ضياع هذا الوقت يعود أيضاً للريس، سألناه لِمَ يؤخر القيام هكذا؟ فقال انه ينتظر شحنة من الصابون في السوق فقلنا له: ألايمكننا في وقت انتظارك هذا ان نذهب الى القيروان لزيارة قبر الصحابي الجليل عبدالله بن أبي زامة، وسنعود قبل أن تستعد للسفر، قال: حسناً يمكنكم الذهاب الى القيروان، فاستأجرنا مطايا، وفي صبح اليوم التالي كنا في الطريق، مررنا بمستير ومساكن، وفي اليوم الثالث لمغادرتنا سوسة وصلنا القيروان، كنا سبعة أو ثمانية، بجانب ابن الطيب الذي كان دليلنا وقائدنا، فزرنا قبور الصالحين المدفونين في القيروان وقبل كل شيء قبر عبدالله بن أبي زامة يوجد قبره في مكان بُنِيَ بشكل رائع وجميل، والتراب مرصوف بالرخام الأبيض والجدران، مغطى بالرخام بمختلف الألوان وأطر النوافذ مزينة برسومات مختلفة الألوان، أحمر وأزرق وبنفسجي..الخ. إن قبر هذا الولي بجمال وروعة تفوق الوصف، ثم زرنا مقابر وقباب عدد من العلماء المشهورين كالامام أبوزيد، وابن الناجي.. وكلهم من أتباع الامام مالك المخلصين.

لقد استقبلنا واستضافنا مفتي القيروان، وعاملنا بحفاوة، وجاء عدد من سكان المدينة لرؤيتنا، والتفوا من حولنا، حاولوا تأخير سفرنا بدعوتنا الى ولائم ومناسبات، لكنا كنا على عجلة للعودة الى سوسة، اعتذرنا بحجة ان المركب ينتظرنا، وتركناه على وشك أن يفك أشرعته، فرضخوا لطلبنا بعد لأي، أخيراً غادرنا القيروان ورافقنا أكثر الشيوخ اعتباراً لمسافة طويلة خارج المدينة، وعبروا عن أسفهم لمغادرتنا، لقد غمرونا بلطفهم.

عدنا الى سوسة وكانت السفينة في نفس مكانها، بقينا يومين آخرين في سوسة ولا أعرف لماذا لم نذهب لزيارة أي من العلماء على الرغم من أن فيها عدداً منهم، كان من بين المعتبرين منهم بعض أقاربي.

وضعت السفينة أشرعتها وبعد قليل كنا في لج البحر لانرى الا السماء والماء وسرنا كذلك لعشرة أيام متتالية، وفي اليوم الحادي عشر دخلنا ميناء

الاسكندرية، وبعد ساعة من مغيب الشمس رمينا الحبال، وقضينا الليل على المركب، وفي صباح اليوم التالي ركبنا قارباً ونزلنا الى الأرض، واستأجرنا شقة في الاسكندرية في وكالة تباشي، وفي اليوم التالي أرسلوا البضاعة الى الجمارك، فكانت عليها رسوم دخول، وكان معي خطاب لأحد التجار، هو أحمد زياد المقيم بالاسكندرية، لقد دفع أحمد زياد الرسوم الجمركية واستلم البضاعة التي جلبتها، وهي طردين من الطرابيش، وحقيبة (احذية صفراء بلغة أهل القيروان، اشتريتها من هناك، لم أبق في الاسكندرية سوى ثمانية وأربعين ساعة، وللذهاب الى القاهرة ركبت الى روزيت، لأنه في ذلك الوقت لم تفتح قناة المحمودية بعد، عبرنا بوغاز روزيت ودخلنا الى الميناء.

كنت أحمل خطاباً الى محمد نانا أحد أوائل تجار المدينة، ولم أبق في روزيت سوى أربعاً وعشرين ساعة، وكان الوقت صيفاً، فقضيت الليل في دار نانا، لكنها كانت ليلة عذاب، فقد كنت فريسة للناموس الذي التهمني للحد الذي أرغمت فيه على ترك المنزل بالليل، وذهبت للنوم على شاطئ البحر.

وفي اليوم التالي وعند استيقاظي أقسمت على أن لا أقضي ليلة أخرى في روزيت، وقد أنعم الله عليّ بأحد اصحاب المراكب على النيل ويسمى مصطفى لاله، وكان يمتلك قارباً صغيراً، استأجره نانا بخمسة وعشرين قرشاً لي وحدي، رفع لاله طردي الطرابيش، وكل ماكان معي، ففرشت السجاد الذي كنت استغله كمقعد وسرير، كانت الريح مواتية، وفي أقل من ثلاثة أيام وصلنا بولاق، فنزلت ونقلت بضاعتي الى الجمارك، وتركتها هناك، وحملت معي حقيبة أمتعتي الشخصية وملابسي، استأجرت حمارين، وضعت على أحدهما الكربو، أي معدات مطبخي التي عدلتها بفراش وحقيبة الادوات المعفية من الجمارك، وركبت على الآخر.

وصلت الى القاهرة وذهبت الى البيت الذي كنت أسكنه قبل ذهابي الى السودان، وسألت عن أمي، فقيل لي إنها بصحة جيدة، فذهبوا وأخبروها بوصولي، وبعد لحظات جاءت مع أخيها فهنأوني بالعودة وأحسست فرحهم برؤيتي.

بعت بعض طرابيشى بالاسكندرية، ودفعت أولاً رسوم الجمارك التى أعارنى إياها أحمد زياد، واستقدت من المتبقى كمصاريف للرحلة، وبقى لى منها مبلغ معتبر أعطيت والدتى منه مائة قرش لمصروفات المنزل.

استقبلت عدداً من الزوار، أشخاص أعرفهم وأشخاص لا أعرفهم، أتوا لالقاء التحية وتهنئتى بالعودة، وقد اعد عمى ووالدتى وجبة للاستقبال، بعد سبعة أيام من وصولى الى القاهرة اشتريت جارية حبشية جعلتها سرية، كانت بنتاً جذابة، جميلة ناعمة، وكانت تعتنى بمصالحى، وبقلب طيب ومحب، لم يكن لها أى مزاج أو متعة أو رغبة أو أى أشواق غير شوقى وفرحى ومزاجى ورغبتى، أبقيتها لمدة ستة أعوام ولم أر فيها سوى الرغبة فى إسعادى والفوز بحبى، ماتت بداء الطاعون فى العام ١٢٣٧هـ (١٨٢١-١٨٢٢م) لم تسبب أى خسارة ألماً وحزناً لى أكثر من موت حبشيتى الجميلة، تغمدها الله بواسع رحمته.

نهايـــة المطـــاف:

الآن، ولكي نكمل هذه القصة، أريد أن أعرض بايجاز بعض الأحداث التي وقعت اثناء رحلتي من تونس الى فزان، وعودتي من فزان الى تونس، لقد قررت أولاً عدم ذكر تفاصيل بعض الأحداث خوفاً من أن تكون طويلة أو مملة، لكنني عدلت عن قراري، فقلت انه يمكنني كتابة هذه الأسطر الأخيرة لاكمال سرد كل ماحدث لي في رحلتي، لان مثل هذه الحكاوي تخدم مسافرين آخرين، ومن المفيد دوماً معرفة ماحدث للآخرين، حتى يتمكن المرء من تحاشي المشاق في هذه الرحلات، ويعلم الله كم قاسيت وتخطيت صعاباً ومخاطر، وكان من الممكن أن أموت مائة مرة لولا ان انقذني قدري، ولم تحن ساعتي الأخيرة.

عند سماع خبر وفاة والدي قررت العودة الى وداي، وقد كنت يومها لا أملك أحمر ولا أبيض، ولا أصفر، وكنت كالمسافر في الصحراء وقد تعب جمله، وأمامه الفضاء الممتد والعطش، وأحسست بالخيبة أعانني الله.

لقد أعطاني محمد البمري في تونس حقيبة فيها خمسين دستة من الطرابيش، كانت على الموضة في طرابلس، لأنها تباع فيها، ولاتباع في غيرها، لأن لونها أحمر غامق، يميل للسواد، فقد كانت مصبوغة بالفوّة مضافاً الى القرمز، ولان البلفطة الحريرية الخالصة مخاطة بخمسة من خيوط الحرير المذهب، بلغت قيمة هذه البضاعة البسيطة (١٢٥٠) الف ومائتان وخمسون ريالاً تونسياً) وأعارني البمر فوق ذلك (٢٥٠) مئتان وخمسون ريالاً وكتبت له مستنداً بالف وخمسمائة ريال، ووقع على المستند شهود.

لم يوافق البمري على تسليمي الطرابيش والنقود الا بعد مدة انتظار طالت لستة أشهر، وكان كلما اطلب منه الوفاء بالاتفاق يردني الى الغد يجيبني بالوعود دوماً، حتى فترت من الالحاح ولو أني وجدت شخصاً اخر يعيرني لتركت البمري لانه كان شديد الخوف على ماله، شديد الحرص على مصالحه.

وما أن خلصت حتى استأجرت جملاً من وكالة مسافري صفاقس وقد جهزت كمية كبيرة من (الزاد) مرتباً أمري على ألا أشتري شيئاً حتى وداي ومن

جملة ماكان عندى من أشياء جرة كبيرة من الفخار معلقة بشبكة من الحبال صنعت من نبات الأسل، مليئة بالقديد الناضج حتى ثلثيها، والمغمور فى الزيت، كان فى هذه الجرة مايزن خمسين رطلاً من لحم وزيت، لقد حمل الجمّال، أمتعتى الى الوكالة لأنه مازالت هناك ترتيبات فى الوكالة، يجب أن تتم قبل المغادرة، وصل الجمّال وأناخ الجمل وذهب لقضاء بعض حوائجه، وعندما خلص وعاد، انهض الجمل، فقام الجمل مسرعاً، فانفكت جرتى التى لم تكن مربوطة بشكل جيد وسقطت وانكسرت، وسال الزيت على الارض، وتناثرت حبات القديد لتمتزج بالتراب والأوساخ، لم تأتنى الشجاعة الكافية لأجمع منه شيئا، لكن بواب الوكالة وابنته وعدداً من الفقراء جمعوا ما استطاعوا جمعه، فأسفت لهذه الخسارة.

حادثة أخرى مزعجة حدثت لى عندما وصلت الى صفاقس فى الحادى عشر من شعبان، وأسرعت مع بعض المسافرين للصعود الى المركب للعبور الى طرابلس، كانت نيتنا جميعاً الوصول الى طرابلس قبل نهاية شهر رمضان حتى نتمكن من بيع ماعندنا من طرابيش، لكن شاء المولى غير ذلك، ولابد لمشيئته أن تنفذ، فبقينا فى صفاقس حوالى خمسة أيام ثم إقلعنا، كان المركب الذى ركبناه قلعية صغيرة ذات صاريتين استأجرناها أنا وجلون، من أهالى طرابلس، وعمرو الزفيرى وهو ابن أحد كبار أعوان يوسف باشا،، وعلى الحنيتاتى، من قبيلة حناتة أحد بطون زوارة، كنت قد اشتريت من صفاقس عوضاً عن جرة قديدى المكسورة زيتاً وسمناً، واشترينا أيضاً كمية من الشمام الرومى.

تحركنا غادرنا الشاطئ مع موجة هواء باردة، واعتقدنا أننا سنرسوا فى طرابلس خلال يومين، ولم نكن نعرف مايخبئه لنا الغيب، فى اليوم الثانى وصلنا الى جزيرة جربة، ولقدر يعلمه الله كان لربان المركب ثلاثة ملاحين هو رابعهم، فتشاجر فى جربة مع احد ملاحيه فمنع الرجل من العمل، وأقسم انه لايتعامل مع هذا الملاح الماكر ولم يبق الا رجلين للعمل، وكان من المستحيل أن يقوما بكل شئ، لحترنا فى الكيفية التى سيسير بها هذا المركب التعس.

كنا نأمل ان يجد القبطان رجلاً بديلاً من جربة، قضى يومين فى البحث عن الشخص، لكن كل الذين كانوا هنا رفضوا العمل مع القبطان، أو السفر معه، فقد

كان مشهوراً بسرعة الغضب والبذاءة، ولايعرف الحديث مع ملاح دون إهانته وسبه بأقذر الالفاظ واسوأ الشتائم، كان علينا إذن أن نبحر مع رجلين فقط جلس القائد على مقبض الدفة وبدأ بأدارة العمل مثل: انزال الاشرعة طيها، اصلاحها.. وعندما يكون العمل كثيراً أو شاقاً عليهما يساعدهما المسافرون، قضينا على ذلك يومين من التعب والانهاك، والابحار (برضو ولابرضو) كما يقول البحارة من أهل المغرب، وفى اليوم الثالث دخلنا رأس المخير وهو ميناء ممتد تدخل اليه المراكب بعد منعطف، وهو مكان هادئ حيث لايعرف المرء أنه فى بر أو بحر، قضينا ليلة هادئة هناك، وكنا نعتقد أننا سنواصل المسير صبيحة اليوم التالى، ولكن ما ان أقلعنا حتى هبت رياح شرقية أعادتنا الى الخلف وارغمتنا على العودة، فرسونا من جديد، رأينا صيادين فى قارب، فاشترينا منهم كمية من السمك بسعر زهيد، كان معنا فى طرابلس رجل مسكين يسمى الحاج ميلاد، خبير فى الطبخ، أعطيناه السمك، فطبخه لنا، وبفضل الحاج ميلاد تعشينا بشكل جيد وبقى مايكفى للسحور (كان الشهر رمضان) رفع قائدنا الهلب وحاول الخروج، لكن الهواء رده، وكررنا نفس الشئ لمدة عشرة أيام، كلما نستعد للابحار يعيدنا الهواء، فاغضبنا هذا الأخير وأحبطنا، وفى الليلة الحادية عشرة قمنا قبل الفجر بزمن أعددنا وجبتنا، وما أن أكلنا حتى هبت ريح عاتية فجأة فاتلفت الشراع وكان غير مربوط باحكام، وتقاذفته الريح، انفك المركب المتراقص من حباله وصار لعبة فى يد الأمواج والرياح، فعندما يميل يمنه يغرف ماءً وعندما يدفعه الهواء فى الاتجاه الآخر ينسكب الماء من ذلك الاتجاه.

كان لنا فى سطح المركب مطبخ، وكانت النار متقدة فيه، وبهبة واحدة أخذت الريح النار والأوانى وألقت بها فى البحر، وطارت الجمرات فى كل الاتجاهات، وصار البحر كما لو كان مغطى بالشرر، انتظرنا لحظة الغرق حيث لم يعد البحارة قادرين على طى الشراع الذى نشره الهواء.

كنا فى أشد حالات التوتر تطاردنا ألف فكرة مزعجة، قرأ البعض سورة يسين، ونادى البعض الولى عبدالقادر الجيلانى، واستنجد آخرون بالشيخ الكبير

الماغرني، وتوسل آخرون بالشيخ أحمد زروق، توسل كل بالشيخ الذى يراه اصلح وأقوى، وتوجه كل الى سيده.

دعونا بالنجدة والسلامة، لكنها لم تأت سريعاً لقد هدهدنا المركـب، وكـان الليل دامساً ولم نعرف الى أين دفع بنا، وأخيراً حل النهار وهدات الرياح وهدات معه قلوبنا، أعدنا المركب الى المكان الذى كان فيه قبل العاصفة ثم نزلنا وأدينـا صلاة الشكر لله الذى انقذنا وهنأنا بعضنا بعضاً بالنجاة من الموت.

أقسم عدد منا بأن لايضع أقدامه مرة أخرى فى المركب الذى عاملنا بـهذه القسوة، وقررنا جميعاً أن نذهب بالبر، وعلى الأقدام حتـى زوارة، وهـى بلـدة صغيرة على حدود محمية طرابلس، ادعى الجميـع أن زوارة قريبـة، ويمكـن الوصول اليها قبل منتصف النهار، شاركتهم القرار وخرجنا، سرنا طـوال اليـوم ولم نصل الا فى زمن منع التجول، حوالى أربع ساعات بعد مغيب الشمس، فكان علينا أن نقدم انفسنا للحرس قبل الدخول الى البلدة.

أخرنا أحد رفاقنا وهو التاجر الطرابلسى جلون، فقد أعياه التعـب وهـده، وكان يترنح، فساعدناه أنا والحاج ميلاد ودعمناه من الجانبين، وسـاعدناه علـى المشي حتى زوارة، عند وصولنا، تعرف علينا عمورة الزفايرى، قريب وصـهر الباشا واستضافونا فى بيت أحد المخاصيص، وقدموا لنا العشاء، وقضينـا أسـوأ الليالى رغم تعبنا، وفى صباح اليوم التالى سألنا عن المكان الذى توجد فيه مطايـا للأجرة لتوصلنا الى طرابلس، قالوا لنا لن نجد إلا الخيول، فقلنا أعطونـا خيـولاً فاستأجرنا الحصان الواحد بسبعة ريالات تونسية، غادرنا برفقة مـلاك الخيـول، ومشينا حتى الرابعة بعد الظهر، ونزلنا فى أبوعجيلة فى دار حسين بيه، أحد كبار رجال بلاط الباشا وحاكم أبوعجيلة، استقبلنا بشكل طيب، وأعدوا لنا مكانـاً جيـداً للنوم لأنه كان يعرف عموره، ثم استأنفنا المسير فى اليوم التالى وفى المساء كنـا فى طرابلس، كنت أظن أن أحد رفاقى يتكرم باستضافتى فى منزله، لأنه عندما نفذ زاد بعضهم فى البحر عاشوا على زادى، اضافة الى أن جلون كان سعيداً بلقـائى ومساعدتى له فى المشى حتى زوارة، كنت أهتم به بشكل خاص، وكـان عندمـا

يرهقه العطش كنت أذهب مع آخر أجلب له الماء من أماكن بعيدة، باختصار عندما دخلنا طرابلس اختفى رفاقى كما يختفى الملح عندما يذوب فى الماء.

بقيت وحيداً فكان على أن أتوجه الى منزل القائم بالأعمال التونسى فى طرابلس، والذى كان يسمى أحمد مهنيّ، استفسرت عن مكان سكنه فقادونى اليه، استقبلنى بحفاوة، كان ذلك فى ليلة السابع والعشرين من رمضان، وبقيت حتى العيد أتوقع فى كل لحظة وصول المركب الملعون الذى تركنا فيه امتعتنا وبضاعتنا، مر العيد وعطلة الأربعة أيام التى تليه ولم يصل المركب، لاقيت مسافرين من سوكنة كانوا يستعدون للسفر الى فزان وكانت فرصة طيبة بالنسبة لى، فكرت فى الأمر ملياً فلم أر أفضل من العودة الى رأس المخبر، مستأجراً حماراً بسعر زهيد (تبلغ اجرة الحمار ستمائة ريال طرابلسى فى اليوم) ثم أستأجر جملاً من زوارة ينقل امتعتى وأعود الى طرابلس باسرع مايمكن وأبيع طرابيشى، ثم أغادر مع القافلة الى فزان، عندما أستأجرت الحمار وكنت على وشك الذهاب جاء جلون وعمورة اللذان علما بمشروعى، جاءا لاستجدائى بأن أحضر لهما معى كل ماتركوه فى المركب، كانت كل بضائع عموره ملكاً للباشا، فقد كان وكيله ورجل ثقته.

علم أحد المغاربة من وسط المغرب نبأ ذهابى الى رأس المخبر ، فجاء يحمل حقيبة جلدية فيها أمتعته الشخصية، وطلب منى الاذن بمرافقتى، كان رجلاً فقيراً عارى الرأس حافى القدمين، لايرتدى سوى كشابية محزومة بحزام ضعيف، وافقت طواعية على عرض المسكين، كانت تلك على الأقل فرصة للأنس فى تلك المسافة متحاشياً بذلك التذمر من الوحدة، فاصطحبت المغربى ودخلنا أبوعجيلة حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر، ثم واصلنا المسير لأننا لانريد إضاعة الوقت، ومشينا حتى أدركنا الليل فسهرنا سائرين حتى دخلنا زوارة مع الفجر، حدثت فى تلك الليلة احداث عجيبة.

عندما كنا نسير مع المغربى جنباً الى جنب، سألنى عن سبب ذهابى الى السودان، فقلت له: إن والدى قد توفى هناك وأريد الذهاب لجمع ماترك من ثروة، زل لسانى وقلت له إن من التركة أيضاً ثمن عدد من العبيد كان قد أرسلهم أبى

الى فزان مع أحد عبيده وأن هذا العدد قد بيع بمبلغ تسعمائة دورو وانها قد فقدت، لأن العبد عندما أراد العودة الى السودان علم بنبأ وفاة سيده وعلم حاكم فزان أيضاً بالنبأ، فنادى اليه العبد ومنعه من السفر وصادر منه التسعمائة دورو، وبالتالى فان أول مبلغ سأستلمه من مال أبى هو تسعمائة دورو، وسأستلمها فى فزان، اندهش المغربى ورأى فى التسعمائة دورو مبلغاً إن حصل عليه فسيكون ثرياً، فجن جنونه لمجرد التفكير فى ذلك، وتخيل أن المبلغ فى حوزتى، لقد قلت له إن المبلغ فى مرزق لكنه نسى ذلك، ولم يتمالك نفسه من شدة الفرح، ابتعد عنى قليلاً ثم عاد فجأة بخطى سريعة قائلاً: كيف؟ تسعمائة دورو عندك تسعمائة دورو يا بنى، قلت: بالتاكيد، ثم ابتعد مسرعاً وعاد شاهراً عصا يبدو انه يريد أن يضربنى ويمزقنى بها، فكرر قائلاً: تسعمائة دورو يابنى تسعمائة دورو: نعم، نعم، رددت مرتعباً لأننا كنا اثنين فقط، ولاشاهد لنا الا الله، فاذا رضخ هذا الطماع لجنونه وأراد أن يضربنى أو يقتلنى فمن يستطيع الدفاع عنى أو اخراجى من مخالبه.

وللمرة الثالثة يبتعد المجنون ويعود فجأة جارياً والعصا مرفوعة مثل كل مرة ويصيح: تسعمائة دورو، عندك تسعمائة دورو قلت: لكن إسمع يا حاج هل تتخيل أن المبلغ معى الآن؟ لا ليس هذا المبلغ فى مرزق فى يد الحاكم، ولا أعرف ان كان سيعطينى له كاملاً أو مجزءً ولاأستطيع أن أتخيل كيف سيحل الله هذه المشكلة، هذه الكلمات هدأت من روع الرجل، وردته الى حال أكثر هدوءً وقال لى: هل تريد أن أذهب معك الى فزان، أجبت بكل سرور لأننى كنت أخاف أن أغضبه، قال: واذا ذهبت معك كم ستعطينى من التسعمائة دورو؟ النصف؟ الثلث؟ قلت: كما تشاء، كنت مستاءً وناقماً على نفسي للتحدث عن سبب سفرى الى السودان، بحمد الله مر الليل دون أحداث أخرى، وفى الصباح الباكر دخلنا زوارة واختفى المغربى.

أسرعت فى طلب الجمال وقلت للجمالة إننى اريد أربعة جمال للذهاب الى رأس المخبز، حيث توجد بضاعتى فى قارب، ويجب أن أنقلهاالى طرابلس، حصلت سريعاً على الجمال الأربعة برفقة أربعة جمالة جيدى التسلح، ثم توجهنا نحو رأس المخبز.

عندما أصبحنا على مسافة لاتزيد على ثلاثة أو أربعة أميـــال مــن زوارة رأينا رجلاً مسلحاً على حصان يعدو. وجهه مغطى بلثام لم يترك الا عينيه، توقف برهة بالقرب منا، ثم قال: سلام أيها المسافرون أجبنا بشيء من الخوف، ســـلام، قال: الى اين ذاهبون؟ قلنا: الى رأس المخبر، ونريد أن نأخذ بضائع وأمتعة مـــن على المركب حبسه الريح فى المرفأ، قال: سيغشاكم الذعر يا أصدقائى، ثم ابتعـــد بدون أن يقول كلمة أخرى أو يوضح من ماذا سنخاف احترنا فيما نفعل، وفكر كل منا فى كيفية الخلاص من هذا الخطر، فقال أحدهم: لنعد الى زوارة، فربما نعلـــم هناك سبب هذا الخوف، وقال آخر: لا، يجب ألا نعود، ولنســلك درب الســاحل، برغم طوله، لكنه أسلم وسيوصلنا الى المرفأ ثم نحمل جمالنا ونعود بالساحل الـــى زوارة.

أخيراً قبلت الغالبية هذا الرأى الأخير حتى لانفقد شيئاً مما ستجلبه الرحلـــة من ربح وفائدة.

تركنا الطريق السالك الذى كنا نتبعه وانعطفنا جانب شاطئ البحر، لكن عند المنعطف رأينا فارساً آخر كالسابق يتقدم نحونا جارياً فتابعناه بأعيننا حتى اقــترب منا، كان عبداً أسوداً قال لنا: ألم يمر بالقرب منكم رجل يلبس كذا وكذا؟ قلنا: نعم، قبل دقائق فقط، ثم أردف سائلاً: والى أين أنتم ذاهبون؟ أجبناه: الى رأس المخبر، وختمنا إجابتنا بنفس ماقلناه للفارس الأول، فقال: سيصحبكم خــوف وذعــر، ثــم اختفى مسرعاً دون أن يوضح لنا سبب الخوف، فوقفنا مندهشين وأكثر قلقاً مما كنا سابقاً.

أسرعنا وانعطفنا يمنة ناحية الشاطئ، انقسمنا على أنفسنا فى تفسير قـــول الفارسين، قال أحدنا: لنختبئ بالنهار ونسير فى الليل، قال آخر: لا، يجب أن نعود وقال ثالث: يجب أن نواصل السير، فوافقه آخرون وواصلنا.

وصلنا رأس المخبر فى عتمة الليل وبتنا فيها، وفى صباح اليــوم التـــالى ذهبنا لرؤية المركب، وكان على مسافة من الشاطئ فلوحنا اليه براية فنزل قارب يحمل القائد: أخبرناه بقرارنا فذهب وأحضر بضائعنا ووضعــها علـــى الشـــاطئ اماالذين بقوا فى المركب كميلاد وتركى جيد التسليح وآخريـــن كلفــوا بمراقبـــ؛

ومرافقة بضائع الباشا فنزلوا ايضاً في نفس الوقت، فاستملت بضاعتي وأمتعتي الشخصية وأسلحتي وكل ماكان يمت لي بصلة، الا زادي فلم أجد منه شيئاً فقد أكله الذين بقوا في المركب، حملنا رحلنا وتحركنا متوكلين على الله، تذكرت الفارسين، وتأسفت لأخذي بضائع يوسف باشا، كنت قلقاً جداً وأراقب باستمرار ما اذا كانت هنالك ومن على البعد خيول تقترب منا، أو عدواً سيقضي علينا.

وبعد أن قطعنا حوالي خمسة أو ستة أميال، رأينا على الأرض آثار خيول كانت جارية وروث مازال ليناً، وآثار بول كأنه زلق قبل دقائق فقط، ارتجفت، سيطر علينا القلق والارتباك، لم نهدأ ولم نطمئن الابعد مغيب الشمس، ومع ذلك بقينا في حالة استعداد، اتفقنا على الا نتفوه بكلمة، لأن الصوت يذهب بعيداً في هدأة الليل، وجدنا الناس قلقين، فالبعض كان ينتظر ويخشى أن نكون قد ذبحنا وعند وصولنا فقط حل لغز "سيصيبكم ذعر" حيث قيل لنا أن حمودة باشا، باشا تونس قد مات، وأن العرب البدو في حدود المحميتين قد انقضوا على بعضهم البعض، وأن الحمارنة (قبيلة في الأراضي التونسية) قد قتلت من الأورغمة (قبيلة في الاراضي الطرابلسية) عدداً كبيراً من الرجال، ونهبوا عدداً معتبراً من القطعان، وأخذوا أسلاباً وسبايا، ثم قالوا لنا: "ان الله قد أخرجكم من مخالب عرب تونس، فان وجدوكم كانوا سيقتلونكم دون رحمة، وإن نجا منكم أحد فسينهبونه ويتركونه عارياً.

بالنسبة لي وإن افترضت انني قد نجوت، فسأفقد كل ماعندي ومافي حوزتي من أملاك يوسف باشا، من جواهر وأحجار كريمة، ولقد كانت بحوزتنا مايزيد قيمته على خمسين الف فرنك، كنا نسمع دوى العيارات النارية على طول المسافة بين رأس المخبر وزوارة.

نمنا لساعات قليلة وفي الصباح قمنا للاستعداد للرحيل، اشترينا كبشاً وذبحناه، وأعددنا منه وليمة، وهنأنا أنفسنا بالنجاة من الخطر، ثم توجهنا صوب طرابلس، وقد رافقنا حوالي خمسين فارساً كانوا في حمايتنا لمسافة ثلاثة أو أربعة فراسخ، نمنا المساء في أبوعجيلة.

في اليوم التالي استأنفنا السير على طريق طرابلس، كنت في المقدمة، فدخلتها حوالي الساعة الثالثة بعد الظهر، وجدت عدداً من الناس في انتظارنا عندما سمعوا بالخطر الذي كنا سنتعرض له، هنأونا بالوصول سالمين، وحمدوا الله على انقاذنا من أيدي العرب.

بعد لحظات علم الباشا بوصولي، فناداني وطرح عليّ عدداً من الأسئلة حول رحلتي الى رأس المخبر ، قصصت عليه كل التفاصيل، فحمد الله الذي حفظ له جواهره، قام باهدائي غطاءً أحمر لايقل سعره عن مائة ريال تونسي، ولم تصل الجمال الى طرابلس الا في صباح اليوم التالي.

عندما فرغت من ترتيب أموري كتسليم البضاعة.. سألت عن القافلة المتوجهة الى فزان، فقالوا لي: انها تحركت، ولاتوجد امكانية للحوق بها، ندمت على ذهابي الى رأس المخبر ، فان كنت أعلم أنني سأتأخر لما تركت طرابلس، وكنت انتظرت المركب ولم أعرض نفسي للأخطار.

سمع رجل من سوكنة يقيم في طرابلس يسمى محمد الدكشي سمع الناس يتحدثون عني، فجاء الى الوكالة التي انزل فيها وهي منزلة أهالي تونس، وطلب مني الذهاب معه لمسكنه، فقبلت واصطحبني، مكثت في منزله ثلاثة أشهر، منتظراً في كل تحرك قافلة الى فزان، وفي نهاية شهر ذي الحجة جاء الى طرابلس مسافرون من سوكنة، ومعهم رقيق، كان من بينهم رجل اسمه محمد خير الطريق، وعبد والدي الذي أرسله مع الرقيق، وصادر منه المكني مبلغ تسعمائة وستون دورو، لقد احتفظت بالعبد، وكان مفيداً جداً بالنسبة لي، فارتبط بي ارتباطه بوالدي وخدمني بإخلاص.

كان علي أن أنتظر تجار سوكنة يبيعون رقيقهم ويشترون مايريدون ثم نسافر، وفي نهاية محرم أعدوا عدتهم، وأعددت عدتي: فاشتريت جملاً ومؤناً كافية، وتبعنا درب بونجيم، ولشعوري بالسعادة قمت باطعام رفاقي، فحمدوا لي هذا الصنيع وسأحكي من بين الأحداث الكثيرة التي وقعت في هذه الرحلة قصة واحدة.

ذلك عندما تجاوزنا مصراتة بثلاث أو اربع محطات، توقفنا في واد مليء بالخضرة، وقررنا قضاء النهار والليل فيه، فشاء القدر أن ينزل مطر غزير على مسافة من هناك، تجمع الماء وسال في الوادي، فامتلأ وتوجه نحونا ونحن نغمص في نوم عميق، فسمعنا فجأة أصواتاً من كل الاتجاهات تصرخ (الهرب: الهرب) جاء عبدي سعدان بسرعة وحملني على ظهره وأنزلني في مكان آمن، ثم عاد وقاد جملي وأناخه بالقرب مني، كما ساعد عدد من المسافرين الذين أكلوا زادي سعدان في هذه المهمة الطارئة، فان لم يبعث الله لي العبد سعدان في هذه الرحلة لكنت قد ضعت: غرقت، مت..، فلولا سعدان لكانت تلك ليلتي الأخيرة، ولم يكن ظهوري الا يوم أمس، أما اليوم فسأكون راقداً في قبري بدلاً من أن اكون حياً واقفاً.

كانت تلك رحمة إلهية، لقد وضع الله تاجاً من رحمته على رأسي، وأراد أن يكون سعدان واخلاصه السبب في نجاتي، وكرد مني لجميله أعطيت الشجاع حريته، لقد عتقته.

قبل الوصول الى فزان نفذ زادي، وعند وصولي عدمت كل شيء منه، أقلقني هذا الأمر ولم أدر ما أفعل.

حدث أن وجد سعدان مستسا في الطريق، طلبت منه أن يبيعه، لكنه لم يتحمس للفكرة، لقد أصبحت معدماً وضاقت بي الأرض بما رحبت كيف يمكن أن أتزود من جديد؟ فكرت في طريقة أتخلص بها من هذا الهم، فجاءت امرأة ووقفت بالقرب مني، ثم قالت: لي ابنه لاتستطيع الوقوف رغم أنها في زهرة شبابها، لقد أصابها المرض، منذ مايقرب من عام، ونريد أن تكتب لها آيات للتوسل والبركة، وأدعو الله لي أن يساعدني ويعالج ابنتي، قلت للعجوز: حسنا، تعالي غداً، فانصرفت وعندما حل الليل توضأت، وصليت المغرب، ثم العشاء، ثم كتبت ورقة صغيرة للعجوز، عادت في ا لوقت المحدد بيننا، فأعطيتها الورقة ثم ذهبت، قضيتُ ذلك اليوم أفكر في طريقة أتخلص بها من الضيق ولم أنجح، وتضايقت فلم أعد أميز بطني من ظهري، قضيت الليل في حالة من الهم وضيق الصدر.

عند طلوع الشمس رأيت عدداً من النساء يسرن ناحيتي تحمل كل منها على رأسها سلة مليئة، وعندما اقترين رأيت ان كل السلال مليئة بالدقيق والتمر، وكانت

العجوز من بينهن، فقالت لي: "إقبل منا هذه الهدية، هذه السلال بها قليل من الزاد أتمنى أن تكون مقبولة لديك، فبفضلك شفى الله ابنتي، فكانت فرحتي في الحقيقة بقدر مايفكر الفرد كانت أكبر، فشكرت الله على هذا العطاء وهذه النعمة التي أرسلها اليّ، فتذكرت قول الله تعالى:

"وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون، ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين"

لقد قبلت هدية النسوة، وجعلت منها زادي، وبعد يومين سلكنا طريقنا، وكان معنا رجل من سوكنة اسمه أبوبكر، سرنا يوماً ويومين، وكان الجمل الذى امتطيه في حالة هيجان، رفض الجمل الأكل، وكان يسير أمامي جمل آخر، وفجأة انقض عليه جملي، وأراد أن يعضه، فسقطت على الأرض من شدة وسرعة الوثبة، ولحسن الحظ سقطت على ظهري، ومع ذلك فقد أصابني أنهيار، فقدت فيه وعيي، وأحسست بالموت يقترب مني، فما عدت قادراً على الحركة، فأسرع اليّ كل من سعدان وأبوبكر ورجل آخر يسمى كادار، ووضعوني على قفاي، استطعت أن اتنفس لثوي، فحزموا خاصرتي بقوة بحزام، فاستعدت القدرة على التنفس بشكل أسهل وبألم أقل، ثم وضعوني على جملي، وساروا بجانبي لنجدتي عند الضرورة.

عبرنا الصحراء في أربعة أيام، وفي اليوم الخامس كنا في حدود فزان كان يلزمنا يومين للعبور، في اليوم الثالث دخلنا مرزق.

لم يبق لي ألا أن أحكي قصة قصيرة حدثت لي في صفاقس، كانت تلك الأخيرة لأنها كانت عند عودتي من فزان، وقبل خمسة أيام من عودتي الى تونس.

كنت في وكالة في صفاقس مع العبيد الذين أخذتهم من عمي زروق، كنت جالساً مسترخياً بالداخل، فرأيت رجلاً قادماً اليّ كنت أعرفه من تونس، اسمه محمد كوبي، كان فقيراً يعمل في صناعة الطرابيش، وكان في حالة يرثى لها، متسخ ورث الثياب، يعرج من كلا رجليه، فسألته: كيف تشوه هكذا؟ فقال: ان حلوفاً(1) هجم عليه وقطع عرقوبيه، أشفقت لحال المسكين الذى كانت الدموع تنزل من عينيه، طلب مني أن أعطيه صدقة، لقد أثرني بؤسه، وكان الجو بارداً، وكوبي

(1) الحلوف: حيوان مفترس له أسنان بارزة، وفي شكله يشبه الخنزير وهذا يعرف في بعض الاماكن بالخنزير البري.

يرتعش داخل الشمالة، فألقيت عليه عباءتي، ثم تعشينا معاً ورقد بجـــانبي مدعيـاً النوم، وعندما رأيته يرتعش غطيته بالعباءة.

كان قبل ذلك كله كنت أخرج محفظة نقودي أمامــه، ادفـع قيمـة أشيـاء اشتريها، ثم وضعت المحفظة تحت وسادتي، ونمت، قام كوبي، وأخذ المحفظة من تحت رأسي وذهب، فقد أخذ عباءتي ونقودي، وابتعد بهدوء، ظن عبيــدي انني ارسلته في مهمة فلم يفكروا في ايقافه، عندما استيقظت لم أجـد الرجـل، بعثت للبحث عنه في كل مكان، ولكن لم يوجد له أثر، يعلم الله انه لم يبق لي نقــود الا تلك التي في المحفظة، كان فيها اكثر مما احتاج اليه حتى نهاية الرحلة، كان فيـها حوالي سبعين ريالاً تونسياً، والمحفظة نفسها من الحرير.

اضطررت لاستلاف حوالي خمسين ريالاً من الجمال لدفع نفقات السـفر، من جانب آخر كان ضياع عباءتي سبباً لتعرضي للبرد خلال خمسة أيام قضيتــها في السفر بين صفاقس وتونس، كانت هذه هي الحكاية الوحيدة التــي ازعجتـي خلال رحلتي الاخيرة هذه.

آن الأوان لأغلق كتابي الآن، وأوقف كلامي عن التيه في قصــة رحلتـي للسودان.

أفكر الان في كتابة، ما رأيته في الحج الى مكة والمدينة المنورة، وزيـــارة قبر رسولنا صلوات الله وسلامه عليه، ثم احكي عن سفري الي المورة، وخاصـــة موسلنقي، وما شهدت من أحداث وكوارث، وسيكون ذلك مادة لجزء آخر.

أسال الله أن يحفظني من كل سوء، من عمل وقول، وأســأله أن يــهديني الصراط المستقيم، صراط الحقيقة: الاسلام، والله قريب يجيب دعوة الداعي، وهو الجامع بحمده، يسمع ويجيب، لك العزة ياذا الجلال والاكرام، وبــارك الله علــى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

رب ارحمهم يوم الحشر، والحمد للدائم رب العالمين– آمين.

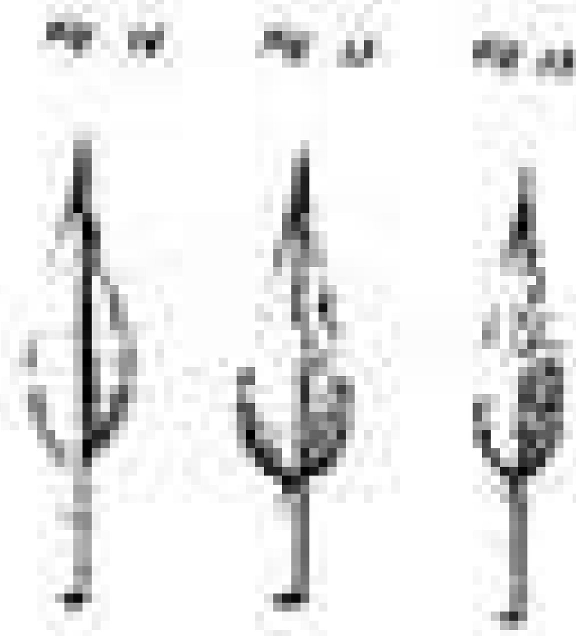
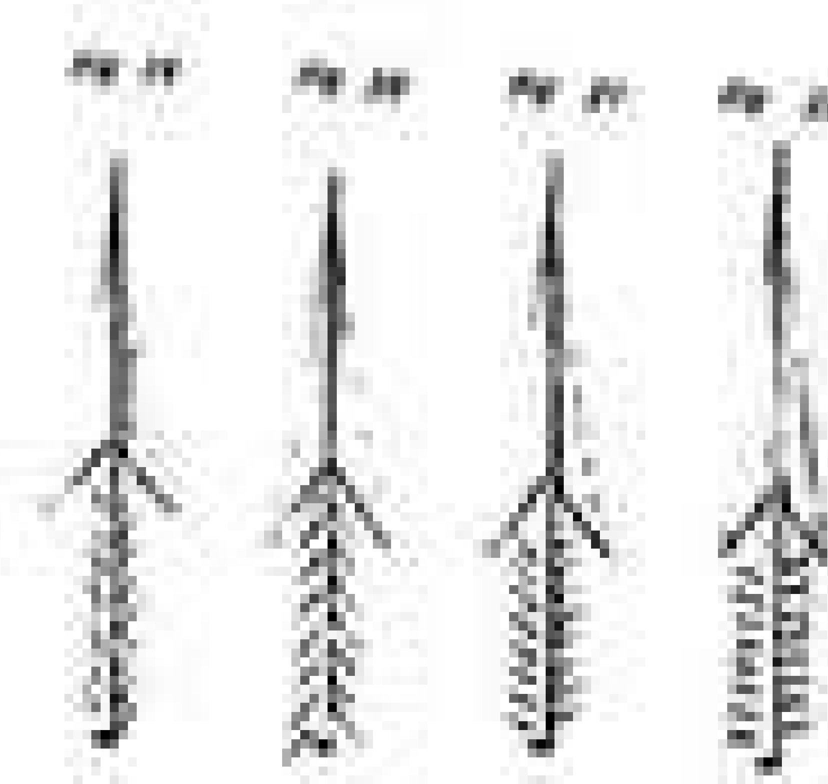
انتهى في يوم ٢٤ يناير عام ١٨١٠م الموافق السادس عشر من محرم عام ١٢٢٦هـ.

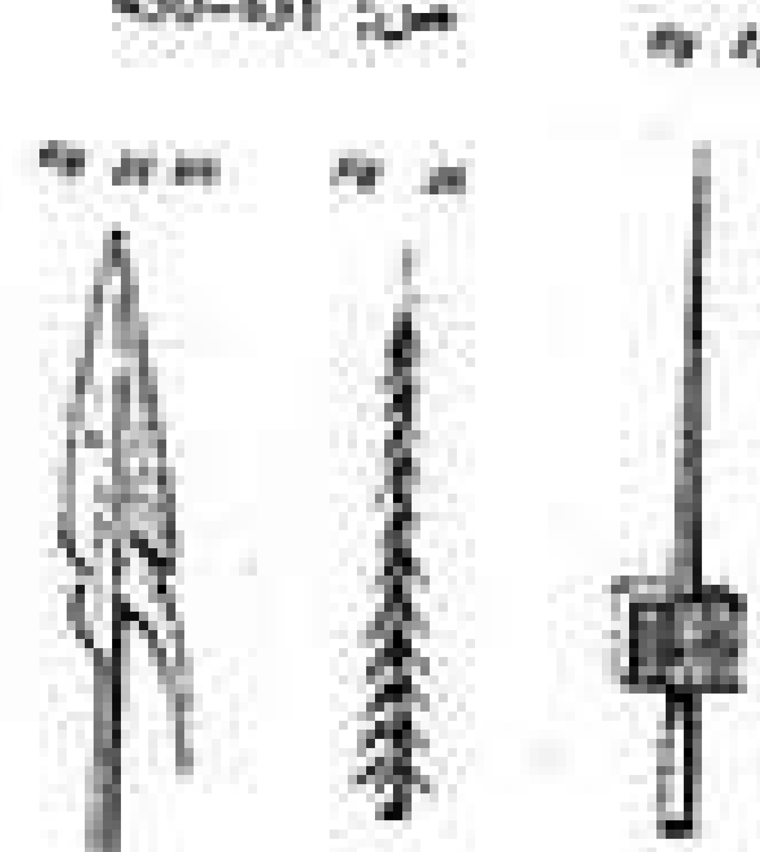
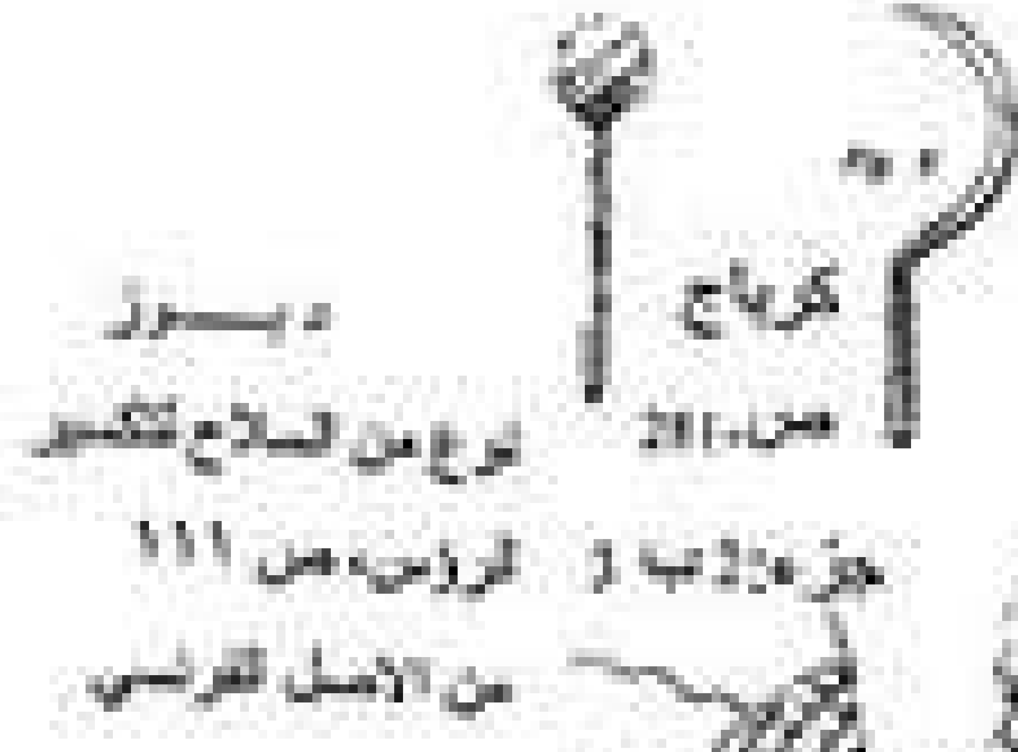
فهرس الموضوعات

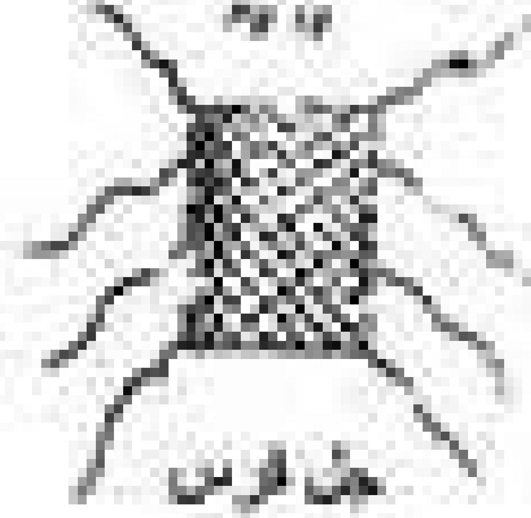
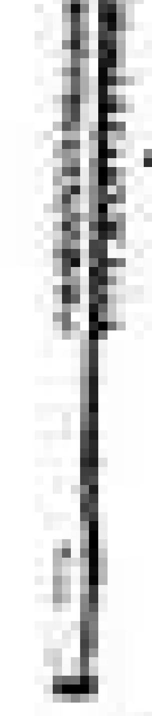
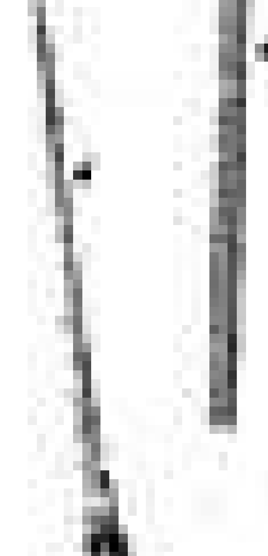
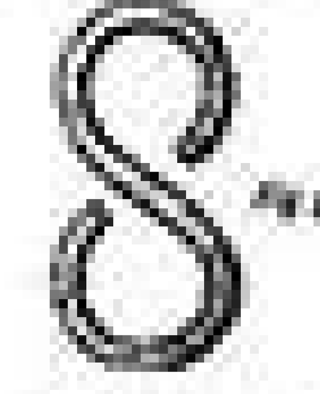
COSTUMES, ARMES ET INSTRUMENTS

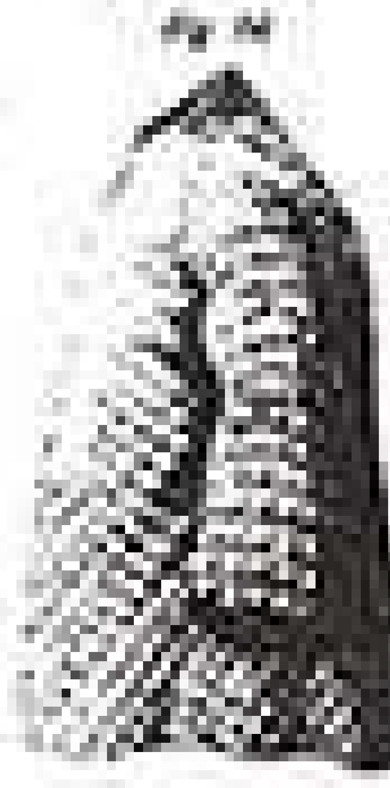
حربة رمح

ص: 430-431


دبوس
نوع من السلاح للتكسير
من الأصل الفرنسي

كرباج
ص 281

نقالة من الحبال
لنقل الموتى
من الأصل الفرنسي

جل فرس
ص 426

مقرب هو نوع من القيود منه الحربة
على شكل أس (S)
ص٣٢٨

طرق الحلق لسرج الحصان
ص 423

جل للفرس مزركشة تلبث على الأرداف
ص ٤٢٦

عباءة أو سترة مصنوعة
من اللباد
ص ٤٢٦

قربة
وهي نوع من الشنط الكبيرة الحجم
ص ٥٤٤ من الأصل الفرنسي

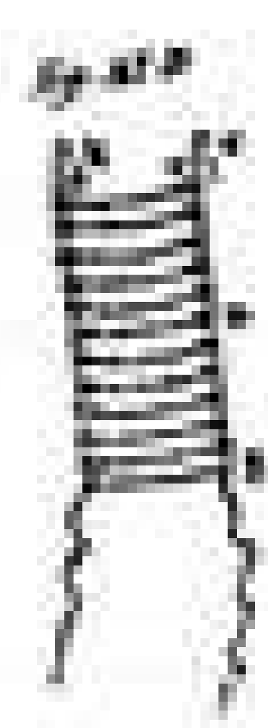
A



الشيخ الهلالي
من أصل وداي
ولد في وارة
في يسكنها
حتى الآن
وكان يسكن
نفس البيت الذي
سكن فيه الشيخ التونسي ص: ٢٢٤



كبير قضاة وداي
الفقيه دليل من أصل عربي ولكنه ولد في
وداي وتعلم في الأزهر في القاهرة ص٤٤٤



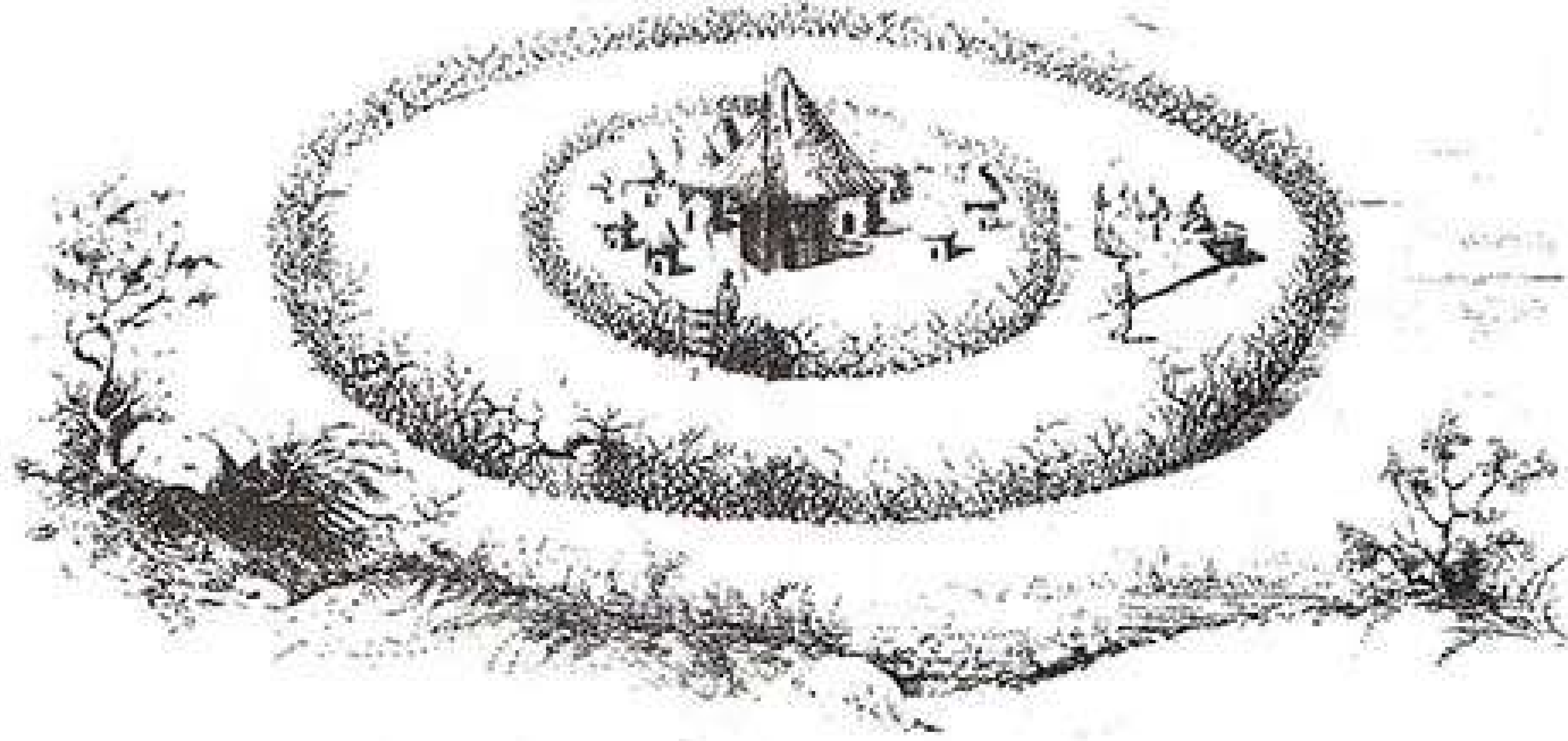
أم شلقاء ص ٣٩٨



وجه آخر
لوداي في
قرية كركس
٤٤٧
كان قد رافق الفقيه الهلالي في رحلة الحج التي مر فيها بالقاهرة



إمرأة من وادي مزينة بأم شلقاء ص ٣٩٨



منزل الأمير صابون قبل توليه العرش

١. الباب الخارجي للمنزل مقفول بجزع شجرة مقلوبة.

٢. الباب الثاني: سدادة خشبية ص. ٩٥ الجزء الأول، الباب الرابع

حصان مسرج ص: ٤٢

(زيكة)
امرأة تحمل
... ص: 401

درقة

درقة

درقة

درقة

درقة

درقة

درقة

حز 3
2
ص: 276

مع أذن مثقوبة

سكين عالية
فوق الكوع
ص: 396

اليد الشمال مسلحة
بخنجر طويل
كرداري ص: ٣٩٦

دروق، ص: 433-432

DAR EL-TOUBO

Tribu des Arabes Beny Hassaneh

Dar de Arabes Beny Hassaneh

Gouvernement ou Province du NORD

Statues de Djema

DAR OUADAY

Province de l'Ouest

Gouvernement du Batha

Dar Bagurmeh

Dar Tamah

Dar Guimr

Dar El-Massalyt

Dar Silla

Dar Ouadaï

Dar Koutka

Dar Bendaleh

Dar Rounga

Dar El-Djenakhrah

Echelle

الفتاح

حدود دار وداى ----

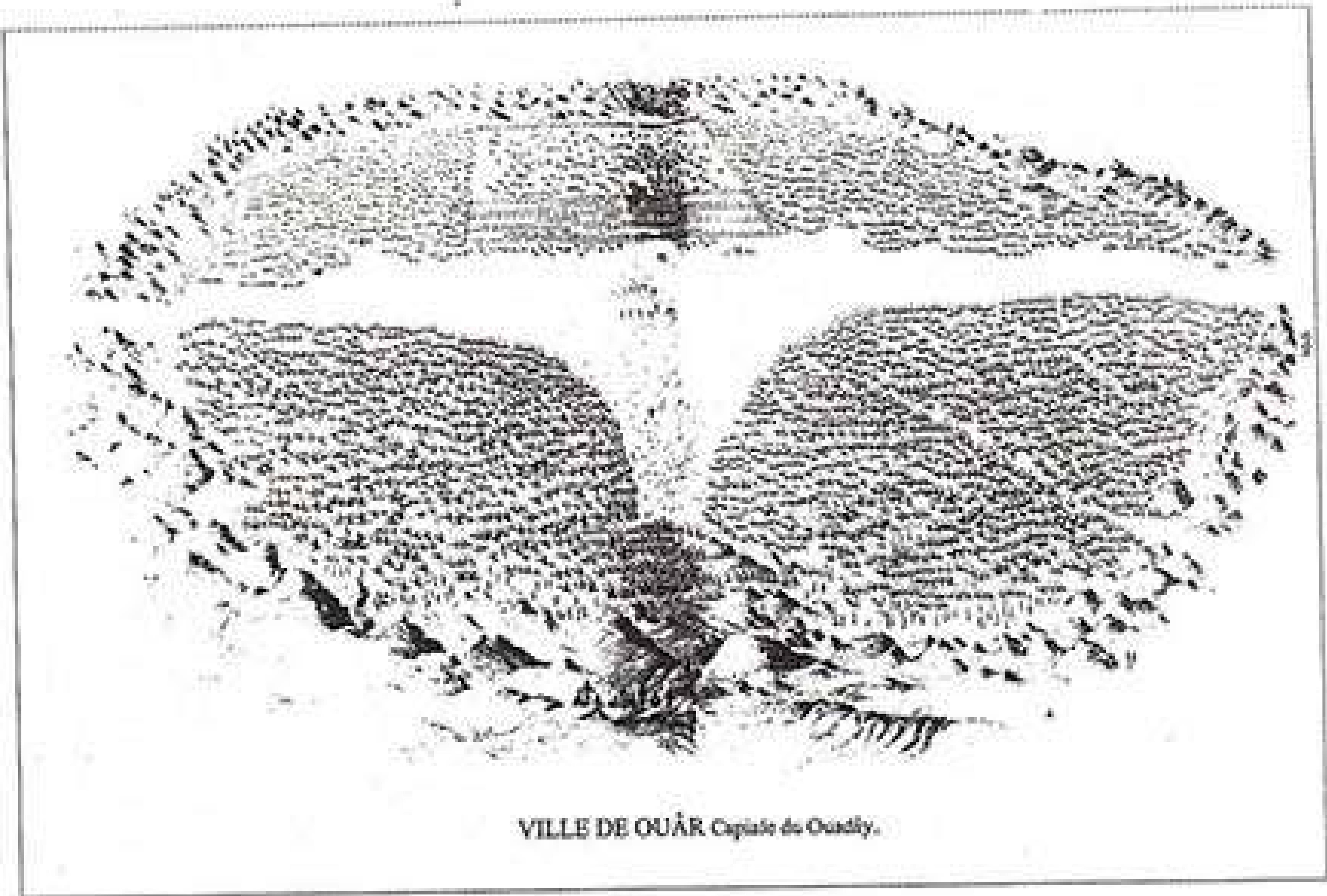
حدود التقسيمات الإدارية

حدود السلطنات المجاورة

خيران ووديان

مملكة وداي

٤



VILLE DE OUÂR Capitale du Ouadây.

مدينة وارة عاصمة وداي

ص. 262

ولد في برني برنو



هذه الصورة لاحد
سكان البرنو رسمت
له في منزل
السلطان ابو مدين
في القاهرة وقد تعلم
في الازهر
بما يؤهله أن
يكون قاضيا في برنو

Barnâouy

برناوي



هذا المندراوي من سكان
ولاية الجنوبية برنو
هذا الشخص كان جنديا
في خدمة باشا مصر
وحضر في القاهرة
بعد حرب سوريا التي
شارك فيها وقد رايته
في مستشفى القصر العين
التي دخلها مريضا
مرضا شديدا
ويتكلم العربية جيدا

Mandarâouy

مندراوي





LE SULTAN ABOU MADIAN.

صورة للأمير أبو مدين

إن الشبه بين الرسم والحقيقة مدهشة على الرغم

من سرعة الرسم:

بعدما تم تصوير السلطان أبو مدين، قد نادى البرناوي من

بيته وسأله وتباحث معه وبعد ذلك اعطى الامر للسيد

ماشورو الرسم وجلبا

CHANTS DE OUADAY

CHANT, N°. 1.

Gam bou ly ly in ga bia waya wa

ya in ga bia wa ya wa ya wa ya in ga bia.

CHANT, N°. 2.

lô yâ lô lo ka li bô gam djé

boâ djé dy ka li bô noṇ dé yé ga ba lan di o Lé.

CHANT, N°. 3.

Lo yé sy di lô djé guî lo ya do-wei de

yé in da wa do in ba ra dé yé.

CHANT, N°. 4.

O -nnas dio ba in kel boâ O

nnas di o keih kel boa yé kel boa.

CHANT, N°. 5.

Lel lé lel lé wa lé bu roul é la la sabangi e

réh noṇ sy bi nô-dein tély ei loṇa non far san dio lo

farsa lo noṇ guiba ra,

CHANT, N°. 6.

Tair el-dja

mous wa rad el-meih yé dour el dem yété rech rech beih

CHANT, N°. 7.

Chout koum to-ça, lé chout koum to-ça

lô lé khdey, rah chout koum to-ça, lo, ei

CHANT, N°. 8.

Yo ba né e y, ô eh, né El

leyl bo, bé dâr for guî fé a-na râ-ey na-meil, ei